مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS Foundation

يوسف عارف الحاج محمد

من مخزون الذاكرة

(2012-1952)

من مخزون الذاكرة
(2012-1952)

من مخزون الذاكرة
(2012-1952)

يوسف عارف الحاج محمد

مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS Foundation

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى
1435هـ - 2014م
غزة - فلسطين

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

....

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس)

مؤسسة مهجة القدس

هاتف: 97282838891+
فاكس: 97282860343+
جوال: 972597807191+
بريد إلكتروني: info@almuhja.com
الموقع: www.almuhja.ps

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحسِنِين﴾ صدق الله العظيم

[العنكبوت: 69]

الإهداء

إلى عاصم مهجتي التي سبقتني إلى بارئها
وإلى والدته وأشقائه والأقارب والأصدقاء
وإلى أحفادنا الأحباء

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

حين يكتب الإنسان عن نفسه، فإن كتابته تكون «وثيقة» صادقة معبرة عنه، وتكون في الوقت نفسه مرجعًا معتبرًا لما يريد أن يكتب عنه. وأستاذنا الجليل يوسف عارف الحاج محمد (أبو مالك) والذي رحل عنا بتاريخ 11/ 10/ 2013 عاش عصره وكان ذا همة عالية، وروح مثابرة، ونفس مجاهدة، وعقل راجح، ولسان مفوه، وقلم مخلص، عاش بيننا تقيًا خفيًا وغادرنا زاهدًا إلا فيما عند ربه، فرحل تاركًا آثاره التي كتبها الله قبل أن يشهد بها الناس، وادخرها له ذخرًا قبل أن يحصيها العباد عرفانًا.

أتيح لنا بفضل الله أن نتعرف عن قرب على الأستاذ والشيخ والمربي أبي مالك بحكم طبيعة عمل مؤسسة مهجة القدس من اهتمامات في شئون الشهداء والأسرى والجرحى من أبناء فلسطين، فكان الحاج المرحوم أبو مالك على قدر المسئولية والاهتمام بالكثير من قضايا الشهداء والأسرى والجرحى ولم يبخل يومًا في أن يكون المبادر والمضحي من أجل إدخال الفرحة على عوائل المحرومين غير آبه بما يجده في سبيل ذلك من متاعب ومصاعب ليس أقلها الاعتقال في سجون الاحتلال الصهيوني.

الشيخ الأستاذ أبو مالك علم من أعلام فلسطين في ميدان الجهاد والمقاومة، تعددت عطاءاته الفكرية والأدبية، وتنوعت إسهاماته الأدبية والنقدية، وكان شرفًا لمؤسسة مهجة القدس أن نشرت كتابًا له من سلسة «فكر وأدب السجون» بعنوان «المسيرة الجهادية لحركة الجهاد الإسلامي» وذلك في العام 2011 عندما كان أسيرًا في سجون الاحتلال، وقد لاقى الكتاب استحسانًا وقبولًا لدى قطاع كبير من أبناء شعبنا الفلسطيني.

أستاذنا وحبيبنا أبو مالك بحر لا ينضب، ولا نستطيع أن نوفيه حقه بهذه الكلمات، ولعل في هذه الكلمات القليلة، كما قال الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن   قليلك لا يقال له قيل

لقد أفرد الحاج المرحوم أبو مالك كتابًا رائعًا بين فيه رحلته وتاريخه في هذه الدنيا، وهو الكتاب الذي بين أيدينا بعنوان «من مخزون الذاكرة» حيث كانت خريطة الإسلام وفلسطين والجهاد واضحة في مسيرة ومسار أستاذنا المرحوم أبي مالك.

إن مهجة القدس تكرم اليوم الأستاذ الحاج المرحوم أبا مالك _وهذا أقل القليل_ من خلال طباعة السيرة الذاتية له «من مخزون الذاكرة» وتهدي هذا الكتاب التذكاري لروح أستاذنا وقائدنا الحاج أبي مالك رحمه الله، ثم لزوجه الفاضلة التي شاركته جهاده ولابنه الأسير المجاهد حمزة وأبنائه وعائلته الكريمة، كما نهديه لكل من يريد أن يتعلم أبجديات البذل ومهارات العطاء، وأسرار الفهم والإخلاص، اللذين توجا عملًا رحل صاحبه وبقي هو شاهدًا على صدق قوله صلى الله عليه وسلم: «الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة».

رحم الله شيخنا وأستاذنا المرحوم أبا مالك، وأجزل له المثوبة على ما قدم وأعطى، ونفع بعلمه الإسلام والمسلمين، وأخلفنا عنه خيرًا.

الناشر

بين يدي الكتاب

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وآله وأصحابه أجمعين.

عاش والدي الحبيب عليه رحمة الله تعالى منذ مطلع القرن الحادي والعشرين معظم وقته في سجون الاحتلال الصهيوني، وفي إحدى فترات حريته بين مرات سجنه المتكررة ألححت عليه وإخواني أن يكتب ما مر به من تجارب غنية في سيرة ذاتية، خشية من فوات ذلك بما يكنه الدهر من صنوف الغوائل، ولقد أجابنا رحمه الله إلى ذلك، واختار اسمًا لما كتب هو: «**من مخزون الذاكرة**».

ولا أقصد في سطوري هذه أن أثني على الكاتب ولا الكتاب، فالكاتب أعز الناس علي، فهو أبي وهو في أبوته عظيم القدر رحمه الله، وما كانت هذه السطور بكافية لتسجيل شيء من فضائله وأفضاله، فربما كان لذلك مجال أرحب، أما الكتاب فقد قرأته أكثر من مرة، والحكم عليه للإخوة القراء جميعًا، وما أحسب حكمي على الكتاب إلا متأثرًا بمكانة الكاتب عندي، ولكن يفي بالقصد أن أبين للقراء الكرام بين يدي هذا الكتاب الجميل معالم مقاصده وفكرته الرئيسة وأسلوبه.

أما عن مقاصد الكاتب فهي تسجيل أحداث زخرت بها ذاكرته فانتقى منها ما رآه جديرًا بالتسجيل لعبرة نافعة فيه، حفاظًا على تجارب العمر من الضياع، ومشاهد الحياة من نسيان طبيعي لتقادم الزمن، أو فوات كلي لأجل مكتوب. لذا فقد كانت مقاصد الوالد رحمه الله تعالى تسجيل حِكَم العمر، حتى يستفيد منها كل مهتم بتلك الفترة التي عايشها المرحوم، ولأن المقاصد هي موجهات العمل فقد اتجه عمله في الكتاب إلى تسجيل الأحداث العامة التي تهم الناس والمجتمع، ولم يذكر من الأحداث الخاصة إلا ما له صلة بأوضاع عامة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، فالخاص غير مقصود أصالة من سوق الكلام، وإنما جاء عرضًا ضمن سياق عام.

أما عن أسلوب الكاتب فهو سهل ممتنع، وهذه ميزة للكاتب الذي رسخت قدمه في علوم اللغة العربية المختلفة من نحو وبلاغة وأدب، وكان له في الأدب تعلق وتميز، فقد كان يحب إبداعات أعلام اللغة العربية الأقدمين والمعاصرين، وقد تميز بقدرته الفطرية على حفظ الشعر حتى كأنه راوية من رواته الأقدمين، أذكر وأنا في الصف العاشر أنني احتجت لكتابة أجزاء طويلة من قصيدة كعب بن زهير في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن الديوان وأين أجده فأملى علي ما أريد هو يقول وأنا أكتب حتى اكتفيت، وكان مشغولًا في مطالعة بعض الأوراق، ولكنه يملي البيت عن ظهر قلب ويتركني حتى أشعره بأنني كتبته فيملي علي البيت الذي بعده بكل يسر واقتدار وثقة، لذا فإن أسلوب الكتاب فيه جاذبية وتشويق لمهارة الكاتب وبراعته في الشرح والتوضيح.

ولقد كانت الفكرة الرئيسة للكتاب هي تسجيل ما يتعلق بفلسطين وطنًا وتاريخًا ونضال شعب. هذا هو الخيط الناظم لجميع فقرات الكتاب تقريبًا، فهو شهادة للتاريخ الوطني من شاهد فاعل فيه، ولولا المواضعات التي لا تخفى لبان من فضل وطنيته ما لا تسمح به الظروف.

ومن ناحية الأسلوب فشهادة أبي مالك فيها لهجته التي تمتاز أكثر شيء بالصدق، فقد كان رحمه الله تعالى يعتبر الصدق رأس الفضائل، فكان رضي الله عنه قليل المداراة لمواقفه وآرائه لاسيما السياسية والفكرية، فقد كان يعلنها واضحة جلية كما يعتقدها، وهو في كتابته لا يخالف تلك السجية فنجد الصراحة سمة واضحة من سماته بالإضافة إلى سعة التجربة الحياتية وتنوعها، فإذا أضيف ذلك إلى البلاغة في الكتابة فإن النتيجة كتاب ممتع أثاب الله كاتبه خير الثواب.

وفي الختام أتقدم باسم ذوي الفقيد بجزيل الشكر إلى كل من شارك في إخراج هذا الكتاب، فجزاهم الله كل خير وبارك فيهم وفي جهودهم الطيبة.

د. محمد يوسف الحاج محمد

مفتي محافظة أريحا والأغوار

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد:

أدب السيرة يعتبر من أنواع الأدب الشائع الذي يلقى قبولًا لدى القارئ، ففيه الدرس والعبرة وفي بعض جوانبه الفكاهة والتسلية، ولدى كل إنسان ذكرياته التي فيها أحداث تحكي قصة من قصص التاريخ الذي أحاط بكاتب السيرة وبالمجتمع الذي يعيش فيه ويجد فيه من جاءوا بعده شيئًا جديدًا وطريفًا.

وفي السيرة ما يثير دهشة القارئ، أو يثير سخريته وفيها ما يجد فيه القارئ ما يستفيد منه من قصص النجاح وقصص الفشل مما يواكب حياة الناس.

وتتفاوت كتابات السيَر والمذكرات في قيمتها وفي قدرتها على جلب اهتمام القارئ.

وأهمية الأحداث التي تتناولها السيرة لا تمثل إلا سببًا واحدًا من أسباب النجاح، والعامل الأكبر في نجاحها هو حسن انتقاء الأحداث التي يجري الحديث عنها وحسن عرضها بأسلوب يجد فيه القارئ متعة وفائدة.

والصفحات التي أقدمها في هذه المذكرات أكتبها تلبية لرغبة أبنائي الذين يريدون مني تسجيلًا لأهم الأحداث التي مرت بي ولدقائق التطورات السياسية التي مرت بها المنطقة عمومًا وفلسطين على وجه الخصوص وفق ما كنت أقرأ أو أشاهد أو أسمع لما في ذلك من فائدة ومتعة لهم. فهم يريدون العودة بأخيلتهم إلى ماض يعتبر بالنسبة إليهم سحيقًا ليقارنوا بينه وبين حاضرهم وليكتسبوا معرفة وعبرة من أسباب العثرات والنجاحات التي واكبت مسيرة عمر بلغ أثناء كتابتي هذه المذكرات ستة وستين عامًا.

سوف استعرض أحداثًا عامة عايشتها وسوف أصف ظرفي الخاص الذي توافق ووقوعها.

وأعتقد أن كثيرًا من الأحداث الكبرى وقعت منذ منتصف الخمسينات من القرن الماضي وأن الكثير منها غير مفهوم لشباب هذه الأيام، وأن بيان بعض مقدماتها الدقيقة وبعض تفصيلاتها سيساعد على فهمها بشكل أفضل.

يوسف عارف الحاج محمد
نابلس، الرابع من شعبان 1433 هجرية
الموافق: الرابع والعشرين من حزيران 2012 ميلادية

البداية

السيرة: يوسف عارف رشيد محمود إبراهيم ناصر منصور الحاج محمد. من مواليد قرية جالود قضاء نابلس في السادس عشر من شهر حزيران عام 1946.

عائلتنا (الحاج محمد) كبيرة ومنتشرة في عدد من قرى نابلس وكثير من أبنائها في الضفة الشرقية، ولها ماض عريق فهي موضع اعتزاز أبنائها. ورد الحديث عنها في العديد من الكتب، وذكرت نسبها بيان نويهض الحوت في كتابها (فلسطين،القضية*الشعب*الحضارة). وتحدث عنها المرحوم الأستاذ مصطفى الدباغ في الجزء الثاني من «موسوعة بلادنا فلسطين» وكذلك المرحوم الأستاذ إحسان النمر في كتابه «تاريخ نابلس والبلقاء».

تحت عنوان: «القبائل العربية»، ذكرت الدكتورة بيان نويهض قبيلة «جُذام» بالنص التالي: (جذام: وهي من القحطانيين الذين سكنوا في شمال فلسطين، بالقرب من طبريا، وفي قريتي اللجون ويامون، قرب عكا، وكذلك سكنوا الجنوب من عَبَسان، قرب غزة. ومن قبيلة جذام من سكن مصر والسودان، وتنسب اليوم عدة قبائل وعائلات عربية إلى جذام، فمنها عرب بني صخر في الأردن، وعرب البواسل في مصر، وعرب العائذ في سيناء، الذين تفرع منهم آل هيكل في يافا، ومنها في فلسطين كذلك آل الحاج محمد في نابلس، وقبيلة الجبارات التي سكنت منطقة بئر السبع، وتفرع منها عائلات بيدس والبطة والسعيد منتشرين في مدن الجنوب ويافا). (فلسطين القضية*الشعب*الحضارة، صفحة 70).

وتحدث عنها المرحوم مصطفى مراد الدباغ في أكثر من موضع في موسوعته الشهيرة «بلادنا فلسطين». ففي الجزء الثاني، صفحة 375، تحت عنوان: «مجموعة قرى مشاريق البيتاوي» جاءت المقدمة بالنص التالي:

امتدت سطوة آل الحاج محمد في القرن الماضي (القرن التاسع عشر) حتى شملت القرى المجاورة لعاصمتهم «بيتا».

وفي حديثه عن «جالود»، وتحت عنوان: عائلة الحاج محمد (الجزء الثاني، صفحة 322) ورد ما نَصه:

دعيت هذه العائلة بهذا الاسم نسبة إلى جدها الذي سميت باسمه. ويقولون إنهم نزلوا، قبل دخول إبراهيم باشا المصري لفلسطين بزمن لا يعرفون تاريخه، قرية بيتا، التي كانت تابعة إلى العتوم، شيوخ جماعين، وقد ظهر منهم «محمد» هذا، ولمع نجمه حتى تمكن من السيادة على المنطقة المجاورة، التي عرفت باسم «مشاريق البيتاوي». ثم نزل أولاده وأحفاده القرى التي سادوا عليها، فسكنوا بيت فوريك وجوريش وبيت دجن وقصرة وقريوت. وأما عائلة (منصور) فمنهم من بقوا في بيتا، فما لبثوا أن رحلوا عنها ونزلوا جالود وتلفيت والمغير، وعرف منهم (ناصر المنصور) الذي كانت جالود هذه مركزًا لمشيخته، وهو أحد قادة ثورة البلاد في سنة 1834، ضد الحكم المصري، فقد كان على رأس ألفي رجل، عندما هاجم جند إبراهيم باشا في شعفاط، في جوار القدس. وقد أتى إبراهيم باشا بنفسه لصد هذا الزعيم، وانتصر عليه بعد أن قتل 500 رجل من رجاله الأشداء، وحارب (ناصر) المذكور، أيضًا في موقعة (دير الغصون)، وكان من جملة قوادها الذين تشتتوا وظلوا مصرين على المقاومة، ثم فروا إلى الخليل ومنها إلى شرق الأردن. وأخيرًا استسلم ناصر إلى إبراهيم باشا، فأرسله إلى عكا ومات فيها.

ويطلق أحيانًا على عائلة الحاج محمد في القرى التي تسكنها اسم (المشايخ).

ويضيف المرحوم الدباغ: ويقول آل الحاج محمد إنهم ينتسبون إلى قضاة الخريشة، من بني صخر، وفي تاريخ شرقي الأردن وقبائلها أن (قضاة الخريشة) من (الكعابنة) وأحد الفخذين الكبيرين الذين تتألف منهما قبيلة (بني صخر) القحطانية. (انتهى كلام الدباغ)

وتحدث عنها المرحوم إحسان النمر في كتابه (تاريخ جبل نابلس والبلقاء)، الجزء الأول صفحة 134، تحت عنوان: عشائر المشاريق ومما ورد في كتابه ما نصه:

آل الحاج محمد – الحاج: قيل إنه من أعيان المدينة المنورة، وقيل إنه من شيوخ

قضـاة عـين جنـة في جبـل عجلـون، نـزل في أواسـط القـرن الثـاني عـشر الهجـري ضيفًـا عـلى آل النمـر في نابلـس، فاختـار السـكن في قريـة بيتـا، فسـاعدوه عـلى ذلـك، فظهـر أمـره في مشـاريق نابلـس كلهـا، وبعـد حادثـة العتـوم، مشـايخ جماعـين، أصبـح الحـاج محمـد شـيخًا عـلى المشـاريق كلهـا، ولمـا حـاول بنـو غـازي، شـيوخ جماعـين بعـد العتـوم، مـد نفوذهـم إلى المشـاريق، عارضهـم، فصالحهـم آل النمـر وشـيوخ البـلاد، بحيـث تكـون طريـق القـدس فاصـلًا، فتكـون المشيخة عـلى القـرى التـي تقـع شرقيهـا للحـاج محمد، والتـي تكـون غربيهـا لبنـي غـازي، إلا قريـة «يتمـة»، فإنهـا اعتـبرت تابعـة لناحيـة جماعـين.

وقد خلّف الحاج محمد أربعة أولاد هم:

(1) الشيخ سعادة، الذي نزل في قريوت وعرفت ذريته آل سعادة.

(2) الشيخ أحمد الذي نزل في بيت فوريك، وعرفت ذريته آل أحمد.

(3) وكنعـان الـذي عرفـت ذريتـه فيـما بعـد آل عبـد الجليـل وقـد نزلـوا في جوريـش وقـصرة وبيـت دجـن.

(4) منصـور وقـد بقـي في بيتـا وعرفـت ذريتـه بـآل نـاصر، وبعـد أن وقعـت الفتنـة بينهـم وبـين ابـن شمسـة، انتـشروا في تلفيـت وجالـود والمغـير وبيـت دجـن... إلـخ.

أولى ذكريـاتي كانـت في بدايـة عقـد الخمسـينات مـن القـرن المـاضي (القـرن العشرين)، أي عندمـا كنـت في الخامسـة مـن العمـر وقبـل دخـولي المدرسـة بسـنتين إذ كان السـن القانـوني للمدرسـة سـبع سـنوات كاملـة، قبـل أن يقلَّـص فيما بعد إلى ست سـنوات.

قريـة جالـود تقـع إلى الجنـوب الشرقـي مـن مدينـة نابلـس عـلى بعـد 26 كيلـو مـترًا تقريبًـا.

نشـأتُ في بيـت مـن طـراز البيـوت القديمـة التـي كانـت تبنـى بالحجـارة والطـين والشـيد وهـو، وإن كان قديـم الطـراز فهـو حديـث البنـاء مرتفـع الأرضيـة كأنهـا طابـق ثـانٍ، فيـه شـباكان كبـيران فهـو مشـمس ومنـير عـلى عكـس البيـوت القديمـة التـي كانـت تفتقـر إلى هاتـين الميزتـين.

من أقدم ما رسخ في ذاكرتي وفاة جدي لأبي، المرحوم رشيد محمود الحاج محمد، عام 1951 ومما أذكره من وقائع المأتم نواح كل من شقيقتي وابنة خالي وكانتا طفلتين تكبرانني بثلاث سنوات ثم وجدتني بعد أيام في بيتنا وقد أوقدنا نارًا وأخذت شقيقتي تشوي لحمًا وتأكل وتطعمني وتقول لي: كل وسآتي بلحم آخر، لم يكن هذا أمرًا عاديًا ولكن كان ذلك اليوم يصادف مرور أسبوع على وفاة جدي وتوجب العادات أن يصنع أهل الميت طعامًا على رأس الأسبوع ويدعوا عموم الناس إليه فذبح والدي الذبيحة في الليل مما أتاح لنا عشاء من الشواء.

ثم بعد ذلك بسنة تقريبًا أذكر صبيحة ذات يوم وقد تكاثر حضور النساء إلى بيتنا فشعرت أن شيئًا ما يجري، ولكنني لم أهتم باستطلاع الخبر فأهم ما يدور حولي أن والدي كان يهم بالسفر إلى نابلس وكنت شديد اللهفة لمرافقته، فلحقت به، فقال لي: ارجع اغسل وجهك، فقلت له: ستتركني. فقال لي: انتظرك عند هذا الحجر، فرجعت إلى الدار مسرعًا فوجدت الدار قد امتلأت بالنساء فألححت على والدتي أن تغسل لي وجهي بسرعة، ففعلت ورجعت مسرعًا فلم أجد والدي عند الحجر المحدد فطار صوابي، ولكنني ما لبثت أن رأيته وقد تقدم خطوات إلى الأمام، وجاء الباص وتوجهنا إلى نابلس وعدنا مبكرين وعلمت فيما بعد أن الأمر كله يتعلق بوفاة جدتي لأبي المرحومة فطوم حسن خليل وأن الرحلة إلى نابلس كانت بهدف إحضار الكفن.

ثم بعد ذلك أذكر وفاة شخص من القرية، وجدوه قد ترك ميراثًا لولده الوحيد مقداره مائة دينار، وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت، ولم يورثه أحد من أبناء قريتنا التي كانت موصومة بالفقر الاستثنائي من بين كافة القرى المحيطة بها، إذ كانت على سعة أراضيها تفتقر إلى شجرة الزيتون التي كانت هي المصدر الرئيس لغنى الفلاح في ذلك الوقت. وكانت قريتنا صغيرة لا يكاد يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نسمة، ولم يكن فيها مدرسة، كانت الأراضي التي تملكها أسرتي غير قليلة قياسًا إلى متوسط ما كان يملكه الفلاح، وبذا كانت معيشتنا على درجة من المعقولية النسبية.

وكان قوام معيشة أسرتي القمح الذي تغله أرضنا وكذلك مقدار من محصول

اللـوز الـذي نملـك منـه بسـتانا في وسـط القريـة إضافـة إلى المحصـول الصيفـي وكان غالبًـا مـن السمسـم، وهـذا المسـتوى مـن المعيشـة كان يؤهلنـي وشـقيقتي الوحيـدة بالإضافـة إلى شـقيقين أصغـر منـي، محمـود وفـاروق، للحصـول عـلى ملابـس وأحذيـة في العيـد وعنـد بدايـة كل عـام دراسي، وكان والـدي يسـتطيع تدبـير حاجياتنـا بسرعـة قياسـية بالمقارنـة مـع عديديـن آخريـن.

وكانـت فـترة الخمسـينات فـترة فقـر يبلـغ حـد الجـوع عنـد كثيريـن ولم يدخـل الجـوع بيتنـا وهـذه ميـزة أيضًـا والأمـر كلـه يجـري في نطـاق الموازنـة بـين الفقـر والفقـر المدقـع، أمـا الغنـى فلـم يكـن لـه وجـود في قريتنـا في تلـك الفـترة.

قيمة الإنسان والحياة في ذلك الوقت

مـن الأمـور التـي لا أزال أذكرهـا هـي ارتفـاع قيمـة الإنسـان وقيمـة الحيـاة في تلـك الفـترة، فالمتـوفى رجـلًا كان أو امـرأة تشـترك القريـة والقـرى المجـاورة في تشـييعه وتجلـس النسـاء في حلقـة أو ربـما حلقـات يـرددن مـا يحفظـن ومـا يبتدعـن مـن أدب النـواح والتعـداد (تعـداد محاسـن الميـت حتـى لـو كان مـن غـير محاسـن) ويذرفـن الدمـوع مـدرارًا. وكانـت النسـاء تـأتي أفواجًـا مـن قـرى قريبـة وبعيـدة للمشـاركة في واجـب العـزاء. ويتفـاوت الأمـوات في درجـة اهتـمام الأحيـاء بهـم بتفـاوت أقدارهـم في حياتهـم، وأقدار أهلهـم وذويهـم مـن بعدهـم، إلا أن أقلهـم مكانـة كان ينـال اهتمامًـا عنـد موتـه يجعله محـور الأحاديـث ومحور الحركـة الاجتماعيـة في القريـة مـن اسـتقبال معزيـن ومعزيـات ومـا يتوجـب عـلى أقـارب الميـت مـن صنـع الطعـام وتوفـير المبيـت للضيـوف ومـا إلى ذلـك، وهـذا مـا لا نجـده بهـذا المسـتوى في أيامنـا.

ذهبـت مـرة إلى مجلـس عـزاء للنسـاء في بيـت فقـد ابنتـه الوحيـدة وكانـت متزوجـة في قريـة قـصرة المجـاورة، تحلقـت النسـاء في سـقيفة تابعـة لأسرة المتوفـاة في قريتنـا وظللـت أعجـب مـن أدب النـواح الـذي كان محفوظًـا في صـدور النسـاء وكيـف يرددنـه بنغمـة حزينـة تسـتدر الدمـوع الغزيـرة مـع أنـه مجـرد نـواح مجاملـة ولا تـزال في مخيلتـي صـورة دمـوع

المرحومة والدتي من بين النائحات التي كانت تنهمر بغزارة مع أن المتوفاة لا تلتقي معها إلا في الجد الخامس.

ثم خرجت من عند النساء إلى حيث يجتمع الرجال، فلم أجدهم ينوحون على المرحومة وتساءلت في قرارة نفسي متعجبًا، لماذا لا ينوح الرجال على الميتة كما تنوح النساء؟ ولم ألبث أن فهمت السبب: عالم الرجال غير عالم النساء.

كان اجتماع الرجال منوعًا، فيه الشيوخ الطاعنون في السن والكهول والشباب وفي كثير من الأحيان الصبيان، وكانت تسوده البهجة بما ينطلق فيه من نكات عفوية من شيوخ علمتهم صعوبة الحياة أن يسخروا منها بالنكتة التي امتزج فيها الصدق بالأصالة، أما صدقها فلأنها تصف الحالة النفسية والفكرية لمطلقها من غير تصنع، وأما أصالة لغتها فلأن صاحبها يتكلم اللغة التي يستخدمها هو وأهل محيطه دون أن يخلطها بألفاظ منتقاة بتكلف، وكانت بعض نكاتهم تنتقل بسرعة البرق إلى مجالس النساء وبعضها يخرج عن نطاق القرية إلى القرى المجاورة ومن جيل إلى جيل، وكثير منها لا يزال مادة التسلية والفكاهة لأبناء القرية، وحين يسمعونها في كل مرة تنطلق حناجرهم بالضحك الصافي المخلوط ببهجة فهم يشعرون أنها من التراث الذي يُحفظ ولا يفقد رونقه على طول التكرار، وأنتم تشهدون، أبنائي الأحبة، بعض أخبار هذه المجالس عندما يزورنا عمكم أو خالكم أو بعض الأقارب ونأخذ في استعادة بعض صور الماضي.

إن المجالس تبعث على البهجة وتُشعر الناس بقرب بعضهم من بعض وتجعل للحياة طعمًا، أما نحن الآن في الشقق فمعظم الناس في المدينة على وجه الخصوص، يعيشون في شقق في العمارات الضخمة، وأبوابها مغلقة دائمًا، فإن الجار لا يعرف شيئًا عن معظم جيرانه، إنها ليست حياة بمعنى الكلمة، ولا أشعر بأن للحياة طعمًا إلا إذا دخلت المخيم أو القرية فإنه ينتابني شعور دافئ من رؤية الناس يقترب بعضهم من بعض ويتبادلون العواطف في حالتي الحزن والسرور ويتقاسمون هموم الحياة بحيث يحمل المجموع همَّ الفرد والفرد همَّ المجموع.

كان مجلس الرجال في (المضافة) وهي غرفة كبيرة طولًا وعرضًا وارتفاعًا مبنية من الحجارة والطين والجير (الشيد)، ولها فناء واسع مستطيل يحيط به مقاعد حجرية مرفوعة، وهذه المقاعد عبارة عن حجارة ضخمة يزيد بعضها على خمسة أطنان، أي بمقدار المتوسط من حجارة الأهرام، وهي ممردة ومملسة لتؤدي دور الكنبات الكبيرة التي يتسع كل منها لثلاثة أشخاص. ويسند الجالس ظهره إلى جدار حجري مبني بشكل يريح الجالس ولو طال جلوسه والغريب أنها كانت مريحة جدًا على الرغم من كونها حجارة صماء، يجلس عليها الكبار والصغار ساعات طوالًا لا يشعر الواحد منهم بالتعب، ولم يكن أحد يعلم من الذي ورّثنا هذه الأرائك الحجرية الهائل حجمها والجميل منظرها والمريح الجلوس عليها والتي تتسع في مجموعها إلى ما يقارب ثلاثين رجلًا، وأعتقد أنها من مورثات عصر الرومان الذين كانوا قبل الإسلام أو ربما من عصر ما قبل المسيحية بدليل أنه في قرية قريوت التي كنا ندرس في مدرستها، كان في جدارٍ مضافة القرية صنم على صورة رجل، وكان ما زال على حالته (ليس له وجود الآن وغير معروف ماذا حلَّ به مثلما أن المضافة والمقاعد الحجرية التي أتحدث عنها لم تعد موجودة) وكنا نذهب عند الفسحة أحيانًا للنظر إليه ونتعجب من دقة نقشه وصلابة حجره ومن المؤكد أن هذا الصنم كان من نحت الرومان قبل أن يدخلوا في النصرانية أو ربما من نحت من سبقهم إلى فلسطين وبذلك لا أستبعد أن يكون عمر ذلك الصنم ثلاثة آلاف عام أو أكثر ومن غير المستبعد أن تكون تلك الكنبات الحجرية هي أيضًا من ذلك العهد.

وكان في مكان آخر من القرية جدار حجري يحيط بأحد البيوت القديمة حجارته هائلة الحجم ربما يبلغ وزن بعضها عشرة أطنان وكانت منحوتة على شكل مربعات أو مستطيلات وأغلبها من الحجارة الصوانية التي يحتاج تشكيلها إلى جهد جهيد وإلى أدوات نقش فولاذية بالغة الصلابة وليس من المستبعد أن تكون من عهد الرومان أو حتى ما قبل الرومان، ويسمي الناس في منطقتنا ذلك الزمن عهد الكفار. وهذه الحجارة تطرح تساؤلًا حول القوم الجبارين الذين وجدهم رواد بني إسرائيل عندما جاءوا يكتشفون المكان لموسى عليه الصلاة والسلام.

تقول روايات التوراة إنهم كانوا عمالقة بأجسام هائلة وهذا سبب رعب بني إسرائيل منهم وقولهم لموسى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22].

ويعتقد كثيرون أن العمالقة طوال الأجسام كانوا موجودين في بلادنا بدليل هذه الحجارة الضخمة التي كانوا يتعاملون معها نحتًا ونقلًا من أماكنها الأصلية إلى حيث كانوا يريدون.

إلا أن المفسرين المسلمين الأوائل كانوا يشككون في معتقد أنه كان ثمة رجال أجسامهم هائلة الطول والضخامة مثلما شكك فيهم أبو العلاء المعري فقال:

زَعَموا رِجالاً كالنخيل جُسومُهم ... ومَعاشِرٌ أُمّاتُهُم أشْبارُ
إنْ يَصغُروا أو يَعْظُموا فبقَدْرَةٍ ... ولربّنا الإعظامُ والإكْبار
يُستَصغَرُ الحيُّ الحقيرُ، ودونَه ... أُمَمٌ، تَوَهَّمُ أنّهُ جَبّار

ويعتقد كثير من مؤرخي الإسلام أن هذا الاسم (العمالقة) إنما هو نسبة إلى (عِمليق بن لاوُذ بن سام بن نوح) ولا يعني ضخامة الأجسام بشكل أسطوري فإنه لم يقم عليها دليل.

إلا أن أناسًا من بعض مناطق فلسطين أفادوا بأنهم وجدوا عظام العضد والساعد لأموات تزيد طولًا زيادة واضحة عن متوسط أجسامنا، والحقيقة أن العمالقة المعروفين هم الذين زادهم الله بسطة في الجسم بحيث يزيد أحدهم على المترين طولًا وهي زيادة عن متوسط أجسامنا تظل في حدود المعقول وقد تحدث عنهم الرحالة فاسكو ديغاما الذي رآهم في إحدى المناطق التي مر بها في رحلته، فقال: وجاءنا عمالقة وعملاقات لا يصل أحدنا إلى مستوى كتفه.

والدليل على أن ضخامة الأجسام المبالغ فيها كانت أسطورة؛ أن أحدًا لم يعثر على عظم عملاق لا في فلسطين ولا في أي مكان آخر، على كثرة الحفريات التي تجري في أماكن عديدة من العالم ومنها في فلسطين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن يوشع بن نون قاد بني إسرائيل بعد التيه ودخلوا فلسطين، ولم يواجهوا هؤلاء العمالقة

المزعومين، بل إنهم أعملوا السيف في أهل أريحا ـ كما تروي التوراة ـ فقتلوا المدافعين عن الأسوار أولًا ثم قتلوا الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والدواب، وهكذا فعلوا في كل مدينة احتلوها.

المرجح أن الحجارة الضخمة كان عدد كبير من الناس يجرونها بوسائل جرٍّ يتقنونها مثلما جُرّت حجارة الأهرام ورُفعت إلى أماكنها، ويأخذ نحتها منهم وقتًا طويلًا وجهدًا جهيدًا.

الشيء بالشيء يُذكَر

وكان في أحد هذه المقاعد الحجرية نقرة تتسع لربع كيلو من الحبوب أو ما يقارب ذلك، ولم نكن نحن الصغار نعرف ماهيتها إلا أن الكبار كانوا يعرفونها جيدًا، إنها (نقرة البارود)، وهي تذكرني بقول المتنبي:

كُلَّمَا أنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً رَكّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا

كانوا يدقون كحل البارود في تلك النقرة ومن ثم يحشون به بنادقهم وكانت البندقية البدائية تحشى بالبارود مع حبة رصاص تم يدَق البارود داخل البندقية بمدق خاص، وتوجّه إلى الخصم ويُضغط على الزناد، فيثور البارود وتنطلق الرصاصة القاتلة.

كان هذا السلاح في العهد التركي وكانت الحروب في فلسطين مشتعلة دائمًا وبشكل بالغ الدموية، إنه صراع داخلي بين قيس ويمن، وهو صراع بدأ على شكل خلافات وعداء كلامي ثم تطور إلى قتال دموي تدفعه أيد سياسية خفية كما يحدث الآن بين السنة والشيعة ولا أدل على عمق العداء الدموي المصطنع منذ زمن بعيد من قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي:

كأنّ رِقَابَ النّاسِ قالَتْ لسَيْفِهِ رَفيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأنْتَ يَمَانِ

ومعنى البيت أن سيف كافور الإخشيدي مولع برقاب الأعداء وكأن سيفه يماني ورقاب الناس قيسية. وفي هذا البيت نلمس انحياز المتنبي لليمانية لأنه يماني من قبيلة جعفى.

واستمر هذا العداء والانقسام على مر العصور، وكان يخبو قليلًا ليقتصر على المظاهر الاجتماعية في ظل الدول القوية أو في ظل التعرض لغزو أجنبي، ثم لا يلبث أن يعود ويتخذ طابعًا دمويًا عندما تضعف الدولة كما حصل في أواخر العهد العثماني، وما انفك الجيل السابق لنا يحدثنا نقلًا عن آبائهم عن أخبار المعارك الطاحنة التي كانت تقع بين العائلات القيسية والعائلات اليمنية وكان لعائلتنا التي تنتمي إلى أصل يماني دور قيادي في حربها مع القبائل القيسية وفق ما حدثنا جيل الآباء نقلًا عن جيل الأجداد.

وتوارت هذه المشكلة في فلسطين منذ بدأ الناس يواجهون المشروع الصهيوني مع احتلال الإنجليز لفلسطين ثم اختفت نهائيًا منذ العهد الأردني لتحل محلها مشاكل أخرى ملائمة لطبيعة العصر.

عصر الإنسان الأول

إن مما ينفرد به جيلنا والأجيال التي تكبره في السن قليلًا وتلك التي تصغره قليلا أننا عايشنا عصرين عصر التخلف الذي لا يختلف كثيرًا عن عصر الإنسان الأول وعصر التقدم الذي هو العصر الحالي، فوالدكم والأجيال القريبة منه يعتبرون من مخضرمي العصرين، وهذا بحد ذاته جدير بأن يكون تاريخا يسجَّل ويُتندر به.

الأجيال التي سبقتنا وغادرت الدنيا حتى منتصف القرن الماضي عاشت فترة الظلام. وتوصيف تلك الفترة على النحو التالي:

لم يكن في بيتنا ولا في بيت من بيوت القرية كنبة أو كرسي، وكان في القرية كرسي واحد للخيّاطة المرحومة أم كمال، وإذا جاء مسئول حكومي تقتضي مهمته أن يجلس على كرسي استعاروا له كرسي الخياطة، وكذلك في حالة العرس، يستعيرونه للعروس الفتاة في حين يجلس العروس الشاب إلى جانبها على صندوق من خشب (في اللغة الفصيحة: كلا الشاب والفتاة عروسان، ولا وجود للفظة عريس). ولم تكن المرحومة أم كمال تبخل به على أحد؛ لأن روح التعاون كانت سائدة عند الجميع.

لم يكـن في قريتنـا ولا في غيرهـا مـن القـرى كهربـاء، بـل إن قلـة مـن منـازل نابلـس كانـت تضـاء بالكهربـاء في أول عقـد الخمسـينات مـن القـرن المـاضي.

كانـت وسـيلة التنقـل الرئيسـة في نابلـس العربـات تجرهـا الخيـول، ولكـن سـيارات التكسي بـدأت تحـل محلهـا رويـدًا رويـدًا، وفي نهايـة الخمسـينات كانـت عربـات الخيـل قـد اختفـت.

في قريتنـا في النصـف الأول مـن عقـد الخمسـينات لم يكـن هنالـك راديـو إلا راديـو في بيـت الشـيخ، وفي نهايـة ذلـك العقـد كان كثـير مـن البيـوت فيـه راديـو.

كنـا نسـمع بالتلفزيـون في عقـد الخمسـينات، ولكننـا لم نكـن نـدري مـا هـو؛ لأنـه لم يكـن قـد دخـل فلسـطين بعـد.

كانـت وسـيلة المواصـلات (بـاص) يسـير بالبنزيـن ويخـدم قريـوت وجالـود وتلفيت وكذلـك الـركاب الذيـن يقفـون عـلى أطـراف الطريـق حتـى مدخـل نابلـس وكان الـركاب الواقفـون، في أغلـب الأحيـان، أكثـر مـن الجالسـين، وكانـت الطريـق ترابيـة مـن قريـوت إلى الخـط الرئيـس الواصـل بـين نابلـس والقـدس، وفي أيـام المطـر يمكـث البـاص أيامًـا لا يسـتطيع الوصـول إلى الطريـق الرئيسـة؛ لأن عجلاتـه تغـرز في الطـين. أمـا في حالـة الصقيـع فـإن محـرك البـاص لا يتحـرك، وعندمـا يسـتحيل دورانـه بالطريقـة الآليـة يلجـا السـائق أو مسـاعده إلى الطريقـة الاحتياطيـة وهـي تشـغيله بالـذراع الحديـدي (المنويللا) التـي تحتـاج إلى زنـد قويـة كـي تحركهـا، ولكـن إذا كان البـرد قويًـا إلى درجـة تجمـد المـاء فإنـه لا ينفـع مفتـاح المحـرك ولا تنفـع المناويـلـلا ولا يعـود ثمـة وسـيلة إلا الدفـع بالأيـدي إلى أن يبلـغ البـاص أول الطريـق النازلـة وهـذا يحتـاج إلى مسـاعدة جميـع الذكـور مـن ركاب البـاص وإلى ذوي النخـوة مـن المتواجديـن في الحـارة فيكتنـف البـاص رجـال عـن يمينـه ورجـال عـن شـماله وآخـرون مـن خلفـه، ففـي كثـير مـن الأحيـان يدفعـون البـاص إلى أول الطريـق الهابطـة، ثـم ينحـدر مـن غـير دفـع فيكتسـب المحـرك حتـى نهايـة الطريـق بعـض الـدفء فيعمـل. ولكـن إذا كان الصقيـع متميـزًا فهـذا لا يكفـي ولا يبقـى أمـام أبي يونس، السـائق العصبـي العجوز، إلا أن ينتظـر إلى أن يرتفـع الضحـى وتسـطع الشـمس ويعـم الـدفء فيتحـرك الموتـور، إلا

أن هـذا الانتظـار سـيكلفه تـسرب أعـداد كبـيرة مـن الـركاب الذيـن سيشـعرون أنـه لم يعـد ثمـة فائـدة مـن سـفرهم إلى المدينـة في هـذه السـاعة المتأخـرة، ولكـن البـاص يسـافر عـلى كل حـال، إلا أنـه قـد لا يجمـع ثمـن البنزيـن الـذي يحتـاج إليـه في الذهـاب والإيـاب، فيسـتدين مـن المحطـة التـي يتعامـل معهـا.

كنـت أذهـب إلى مدرسـة قريـوت منـذ الصـف الأول الابتدائـي، وجئـت مـرة إلى أول البلـد عندمـا تنتهـي الطريـق النازلـة مـن قريـوت باتجـاه نابلـس، وتبـدأ الطريـق الصاعـدة في مـكان يسـمى وادي البالـوع، وكان يـوم صقيـع بالـغ الشـدة، فـإذا البـاص متوقـف، وقـد نـزل منـه ركابـه الذكـور وهـرع إليـه معلمـو وطـلاب المدرسـة يحاولـون دفعـه صعـودًا وهـم يأملـون أن يتمكنـوا مـن ذلـك؛ لأنـه صعـود خفيـف، وطبيعـي أن أرى شـبابًا يدفعونـه مـن الخلـف وآخريـن عـن اليمـين وعـن الشـمال، ولكـن المضحـك أننـي رأيـت رجـالًا أظنهـم كانـوا ثلاثـة قـد ربـط كل منهـم حبـلًا في الدعامـة الأماميـة للبـاص ثـم شـد الحبـل إلى وسـطه وأخـذوا يحاولـون معًـا التحـرك إلى الأمـام عـلى أمـل أن يتبعهـم البـاص. كان منظـرًا فكاهيًـا وكل مـن حدثتـه عنـه حتـى الآن يضحـك ويتسـاءل: هـل طاوعهـم البـاص وتبعهـم؟ والجـواب بالطبـع: لا. وعندمـا يئـس الجميـع انـصرف المعلمـون والطـلاب إلى المدرسـة وبقـي البـاص واقفًـا وحولـه مـن أراد مـن الـركاب مواصلـة السـفر إلى المدينـة انتظـارًا للـدفء الربـاني إلى أن جـاء الـدفء وأكمـل البـاص مشـواره.

حادثة لا تُنسى

في سـنة 1956 أجـرت الحكومـة الأردنيـة انتخابـات مجلـس النـوّاب للمـرة الثانيـة في تاريخهـا وكان لعائلتنـا (الحـاج محمـد) مرشَّـح يتظافـر لإنجاحـه رجـال العائلـة وعـدد كبـير مـن الرجـال مـن شـتى العائـلات المتحالفـة معهـا في المنطقـة. والمرشـح هـو المرحـوم عبـد القـادر الصالـح (أبـو نضـال) الـذي نجـح في جميـع دورات مجلـس النـواب حتـى سـقوط الضفـة الغربيـة في عـام 1967، وشـغل مناصـب وزاريـة مختلفـة منهـا وزارة الدفـاع.

كان في تلفيـت المجـاورة لجالـود مركـز اقـتراع يخـص عـددًا مـن القـرى المجـاورة ومنهـا قريتنـا وكنـت وقتهـا صبيًـا في العـاشرة مـن عمـري وفي الصـف الثالـث الابتدائـي.

كان المرشحون يوزعون بطاقات دعاية بأسمائهم وكان الصبيان يحرصون على جمع ما يمكن جمعه منها للعب. كانت قوانين الانتخاب تنص على أن القوات المسلحة وكذلك الحرس الوطني والشرطة ممنوع أن يدلوا بأصواتهم؛ لأن الجيش يجب أن يبقى بعيدًا عن السياسة، إلا أن الالتفاف على القانون لم يكن أمرًا عسيرًا، فرجال الجيش والحرس الوطني يطلب الكثير منهم إجازات يوم الانتخابات ويحصل معظمهم عليها، ثم يدخل غرفة الاقتراع بملابس مدنية ويقدم نفسه باسم من الأسماء الكثيرة التي لم يحضر أهلها؛ لأن بعضهم هاجر وبعضهم مات، ولم يكن المقترع مضطرًا إلى أن يبرز هوية أو جواز سفر يثبت شخصيته؛ لأن الكثيرين لم يكونوا يملكون مثل هذا الإثبات.

كان عمي «معروف» في الحرس الوطني وحصل على إجازة فجاء إلى قريتنا جالود وبدل ملابسه العسكرية بملابس مدنية وعلق بندقيته على مشجب، وتوجه إلى تلفيت ليدلي بصوته. وفي المساء رجعنا من تلفيت بعد أن انتهت عملية الاقتراع، ودخلت الدار فوجدت والدتي وشقيقي الأصغر (فاروق) ابن ثلاث السنوات يجلسان على الحصيرة وفي يد كل منهما مقدار من بطاقات الدعاية الانتخابية يرتبانها، ونظرت إلى البندقية المعلَّقة على المشجب فتناولتها بخفة وأرجعت أقسامها إلى الخلف وثنيت المقبض إلى اليمن فصارت البندقية في وضع الاستعداد لإطلاق النار، وكنت أعتقد أنها خالية من الذخيرة، ولم يكن اعتقادي مبنِيًّا على أساس.

وجهت فوهة البندقية نحو والدتي وقلت لها: أَطُخِّك؟ أي: هل أطلق عليك النار؟ فقالت لي _بلهجتها العاميّة طبعًا_ يعَمِّرها إبليس، وأهابت بي ألا أضع إصبعي على الزناد فلم أكترث بتوسلاتها، ووضعت إصبعي على الزناد وضغطت عليه فإذا الطلقة تخرج بصوتها المدوي. أصابني الارتباك ونظرت إلى أمي، فوجدت أن الرصاصة لم تصبها. كان والدي لحظتها يصلّي المغرب فأربكه ما حصل ونظر إلى والدتي فحمد الله على أنها لم يصِبها مكروه، فقال لي: اخرج من البيت كي (نتفضّى) أي: كي تزول عنا الحالة النفسية المرتبكة، فعددت طلب والدي إهانة وخرجت من البيت (حردانًا) وإذا القرية كلها تتعامل مع الحدث وكثيرون جاءوا إلى البيت ليستطلعوا الخبر وحمدوا الله على السلامة. ولا تزال تلك الرصاصة مستقرة في جدار البيت.

خبرة وأي خبرة

وكنت أعرف كيف تُسحب الأقسام في البندقية الإنجليزية القديمة وكيف تُعد لإطلاق النار، فقبل ذلك الحادث بفترة غير طويلة كانت الحكومة الأردنية تنفذ برنامج تدريب الشباب كي ينضموا إلى الحرس الوطني. وكانت مراكز التدريب موزعة في القرى والمدن. وكانت قريتنا إحدى هذه المراكز، يأتي إليها الشباب المطلوبون للتدريب بشكل إجباري من القرى المجاورة، ونجتمع نحن الأولاد لنتفرج على المتدربين وعلى الأوامر الصارمة التي يلقيها المدرب على مسامعهم ونتندر بالتوبيخات المتنوعة والمبتكرة التي يوجهها المدرب لمن يخطئ في أداء حركة، وكانت الجلافة المتناهية أبرز ما يميز المدربين.

بعد إتقان الحركات كان يأتي التدريب على البنادق. وكان في كل مركز تدريب عدد من البنادق يوازي عدد المتدربين في الدورة الواحدة، ولم يكن مع البنادق أية ذخيرة على الإطلاق، وفي نهاية التدريب يعطوننا نحن الأولاد البنادق لإعادتها إلى مخزنها في دار الشيخ، وكم كان زهو الواحد منا عظيمًا وهو يحمل البندقية، ونظل طول الطريق نسحب الأقسام ونعدلها ونضع الإصبع على الزناد فيخرج من البندقية صوت نخاله أزيز رصاص ونطرب له كل الطرب، لذا فعندما حملت بندقية عمي كنت أتقن التعامل مع البندقية، ولكنني لم أكن أفرق بين البندقية المحشوة وغير المحشوة؛ لأن تجربتي كلها كانت مع البندقية الكاذبة.

من مظاهر التعاون بين الناس في ذلك الوقت

كانت المآتم أبرز معالم التعاون والتضامن بين الناس وكان لذلك التعاون مظاهر عديدة منها تجمع الرجال في جنازة المتوفى أو المتوفاة، أما إن كان رجلًا فرجل أو أكثر يغسلونه وباقي رجال القرية يقفون منتظرين حمل الجنازة والقريبون منه يبكون، ويأتي أناس من القرى المجاورة، رجالًا ونساءً بأعداد كبيرة، يستلم الرجال الجنازة ويسيرون فيها ويدفنون الميت ويسوون قبره، ثم يجلس الملقن يتلو عليه نصوصًا يحفظها وتُختم المراسم بقراءة الفاتحة.

كانت الجنازة الأهم في تاريخ القرية جنازة شيخ من مشايخ القرية والمنطقة كلها إنه المرحوم الحاج أحمد الناصر (أبو محمد) وهو خال جدتيكم. لقد تعطلت يوم جنازته الحياة في القرية وزحف إلى قريتنا الرجال والنساء من القرى المجاورة، ووقف أثناء تجهيزه (غُسله وتكفيته) شيوخ وشبان يبكونه بالدمع الغزير حتى إنني على صغر سني نظرت إلى شيخ في السبعين ينتحب بصوت عال مع أنه لا يمت إليه إلا بقرابة بعيدة فتعجبت من بكائه وشككت في صحة مواجده وأنها ـ على الأغلب تزلف ـ إلى أولاد المتوفى. ووسط المعمعة لم يكن لي هَمٌّ وأنا أقف بجانب المغتسل، إلا أن يرى الواقفون ساعتي الجديدة (من نوع أورس) التي وصلتني من والدي في الكويت، فهي أول مرة ألبس بها ساعة، وتضايقت في تلك اللحظات من كُمِّ قميصي لفرط طوله لدرجة أنه يخفي الساعة، فبذلت جهدي وأخيرًا نجحت في تقليصه وإبرازها وغمرني شعور بالارتياح وسط عواصف البكاء والنحيب من رجال حول المغتسل ومن النساء في الغرفة المقابلة المفتوحة.

ووقف رجال الحمولة الأخرى الكبيرة (حمولة عباد) يجهزون الغداء الكافي للجماهير الغفيرة التي حضرت، أما النساء فقد ترددن على بيت المتوفى من قريتنا ومن القرى المجاورة أيامًا وأيامًا وفي كل يوم يصنع لهن الطعام من دار المتوفى ومن دور أقاربه الأدنين. وإذا كانت المتوفاة امرأة فالنساء هن من يجهزها، بطبيعة الحال، ويأتي الرجال يحملونها بالتابوت. ولم يكن تغسيل الميتة يجري بصمت من النساء، ولكن يصاحبه أهازيج حزينة.

ومن أقدم ما أذكر من الجنائز وفاة امرأة فقيرة وزوجها فقير وكان زوجها يلقب «دَحْبور» واسمه الصحيح عبد الحليم، وقلَّ من كان يعرفه باسمه فالتنابز بالألقاب كان شائعًا مع أنهم يعرفون حرمته، فانتقل إليها اللقب بعد زواجها منه وصارت تعرف ب»الدَّحْبورِيّة» واسمها الصحيح خديجة. كنت مع الأطفال ممن هم في سني نقفز بين النساء ونستمع إلى تحنانهن وهن يجهزن الميتة، وكن يرددن:

يا ديوك العرش صيحي　　　　يوم إنه مات النبي

وعلى الرغم من فقر المرحومة إلا أن القرية كلها وقفت وقفة واحدة لموتها.

والمفارقة هنا في المصطلحات: فالتعزية في اللغة معناها التصبير بالحضور والإيناس الذي يساعد الفاقد على أن ينسى حزنه، لكن التعزية في القرية كانت تعني اجتماع النساء في بيت الميت لإذكاء نار الحزن بإطلاق أصوات النواح والبكاء والتغني بالفاجعة.

والمفارقة الأخرى أن هذه المشاركة في المآتم وهذا الإذكاء للأحزان يسمى في اللغة الإسعاد، وفي رثاء المعري لصديقه أبي حمزة الحنفي يهيب الشاعر بالحمائم أن يُسعدن أهل الميت بأن يشاركن النائحات نواحهن فيقول:

يا بنات الهديل أَسْعِدْنَ أو عِدْن قليل العزاءِ بالإسعاد
فتسلَّبْنَ[1] واستَعِرْنَ جميعًا من قميص الدجى ثيابَ حِدادِ
ثم غَرِّدْنَ في المآتم واندبن بشجوٍ مع الغواني الخِرادِ[2]

كانت النساء يرددن مقطوعات نُواحِيّة هي من أنواع الأدب الشعبي المختص بالمآتم والتي تفيض أسىً وحسرة وتكون مصوغة بأسلوب بسيط إلا أنه جميل ومؤثر ويذرفن الدموع مدرارة ويتكرر ذلك عدة أيام.

عندما كنت في الصف الخامس الابتدائي كان لي أخ اسمه محمد، هو الأصغر والأجمل بين سائر إخوته، أصابه التيفوئيد وظل يذوي وتتراجع صحته، ولم نقصِّر في عرضه على الأطباء في نابلس ورام الله، لكن الطب عجز عن شفائه، فتوفي.

جاء خطيب القرية، أبو محمود، أحمد عبد المجيد، ومعه عمي وآخرون وغسلوه وكنت واقفًا أناولهم الماء، وكان أخي (محمود) الأصغر مني يبكي بحرقة. ولن أنسى ابتسامة واضحة علت وجه محمد وهم يغسلونه وقد تحدث عنها الناس ووُصفت لوالدتي لعلها تخفف من حزنها، إنها ابتسامة تعلو وجوه قليل من الأموات وتسمى عند العاميين ابتسامة الموت، ويُعَرِّفُها الطب بأنها استرخاء في عضلات الوجه، ولا

(1) تسَلَّبت المرأة: لبست ملابس الحداد.

(2) الخِراد: مفردها خريدةٌ وهي المرأة الجميلة.

أُصدِّق هذا التعريف، فالابتسامة التي شاهدتها على وجه أخي محمد كانت انبساطًا في الأسارير ومجرد استرخاء العضلات لا يعطي صورة الابتسام، إن تلك الابتسامة لا تزال مطبوعة في مخيلتي وكأنها حدثت بالأمس.

بعد مغرب ذلك اليوم جاءتنا نساء كثيرات يمثِّلن كل عائلات القرية وعلى رأس كلٍّ منهن طبق فيه أصناف من الطعام وفي يدها أرغفة. إنه العشاء هدية لأهل الميت. لقد كان ذلك بعض مظاهر تعاون الناس بعضهم مع بعض في ذلك الوقت ولا يزال هذا الشكل من التعاون موجودًا وكاهتمام الناس بالميت يهتمون بالعروسين وبالقادم من سفر وبالمريض وبالذي برئ من مرض، بدرجة لا نجد مثلها الآن.

أما قيمة الحياة عندهم، فيكفي أن نقارن بين ما يجد الناس في زماننا من رغد العيش ومن توفر المأكل والمشرب والملبس والمسكن حتى لأفقر الفقراء مع تفاوتٍ بطبيعة الحال، وبين ما كان يجد الناس من شظف العيش في السابق وبالتحديد في الفترة التي تعيها ذاكرتي والتي كانت امتدادًا لعصر موغل في القدم، ومع ذلك فالناس في هذه الأيام يتذمرون من حياتهم ولا يجدون فيها لذة ولا يجدون للمأكل والمشرب طعمًا، بل لا يكادون يجدون لحياتهم معنى، في حين أن الناس في أيام الفقر كانوا يتمتعون بحياتهم ويجدونها -على ما فيها من بؤس- غاية المنى، يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة وهذا يذكرني بقول الشاعر عمران بن حطان:

أَرى أَشقِياءَ الناسِ لا يَسأَمونَها عَلى أَنَّهُم فيها عُراةٌ وَجُوَّعُ

لم تكن الحياة رتيبة مملة كما هي اليوم. كان الرجال يحبون الغناء ويغنّون في كل مناسبة. ولم يكن وجود مناسبة شرطًا للغناء، فإن (علّه وعتابا ودلعونا) كانت تغنّى من غير مناسبة.

كانوا يغنون في الأعراس، ويسهرون سبعة أيام وربما أكثر، قبل يوم العرس، وكانت الأعراس تقام في الصيف وتكون السهرات في الهواء الطلق، من بعد المغرب وإلى منتصف الليل، على مصابيح الكاز أو على الحطب أو على ضوء القمر، ولا يسأمون الغناء والرقص ساعات متوالية.

وكانـوا يغنـون في الحصـاد وفي إتمـام بنـاء البيـت عندمـا (يعقـدون السـقف) وكانـوا يسـاعدون صاحـب البيـت عنـد عَقـده، أي: بنـاء سـقفه، ويغنـون في جميـع مراحـل إنشـائهم الأتـون.

الأتون

يسـمى الأتـون في العاميـة (الكبّـارة) وهـو الوسـيلة لاسـتخراج الجـير (الشـيد) الـذي كان مـادة البنـاء ومـادة الطراشـة قبـل انتشـار مـادة الإسـمنت، وكان الشـيد رمـز عمليـة البنـاء فيقـال: فـلان شـاد بيتًـا، وفي القـرآن الكريـم ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: 45]، أي: قائـم، تـام البنـاء، وانتقـل المصطلـح مـن الكنايـة في بنـاء البيـوت إلى المجـاز في بنـاء الذكـر الحسـن والمجـد الرفيـع، فقالـوا مثـلًا: أشـاد المتنبـي بسـيف الدولـة، أي بنـى لـه مديحًـا كـما تُبنـى القصـور.

كانـت عمليـات الحصـول عـلى الجـير تحتـاج إلى شـهرين مـن العمـل الشـاق تبـدأ باقتـلاع الحطـب الخفيـف المنتـشر في كل مـكان والمعـروف ب(النَّتّش) واحدتـه (نَتْشَـة) ثـم حفـر حفـرة كبـيرة وعميقـة وإقامـة جـدار عـلى شـكل دائـرة مغلقـة مـن الحجـارة يبـدأ مـن قـاع الحفـرة ويرتفـع فـوق الأرض إلى أن تلتقـي الحجـارة بعضهـا ببعـض عـلى شـكل قبـة ثـم يوقـد في داخلهـا مـدة متوسـطها سـبعة أيـام وسـبع ليـالٍ يتنـاوب اثنـان اثنـان كل فـترة مدتهـا يضـع سـاعات ليـل نهـار إلى أن تنضـج الحجـارة وتصبـح جـيرًا. وآيـة نضجهـا أن تمتنـع الكبـارة عـن اسـتقبال النتـش. ويصـل النضـج حـده النهائـي عندمـا يحـاول الملقِّـم أن يدخـل في جـوف الأتـون نتشـة واحـدة فتردهـا النـار التـي في الداخـل. عندهـا يفـرح الشركـاء ويهزجـون ويسـدون بـاب الأتـون ويتركونهـا كـي تـبرد فتنهـار الحجـارة التـي أصبحـت في الحقيقـة شـيدًا (جـيرًا)، شـديد النعومـة حتـى ليصعـب عـلى اليـد ان تمسـك بقبضـة منـه، أنصـع بياضًـا مـن الثلـج ومـن القطـن المنـدوف، ولكـن بعضـه يظـل متماسـكًا عـلى شـكل حجـر ولكـن ضربـة خفيفـة بالشـاكوش تكفـي لتفتيتـه، وهـو الأجـود والمرغـوب أكثـر عنـد المشـترين.

يختـزن الحجـر الجـير مقـدارًا كبـيرًا مـن الحـرارة، حتـى إن حجـرًا جيريًـا واحـدا يُسكَبُ عليه الماء فيُخرج من الحرارة ما يكفي لغلي إبريق شاي. وعندما ينهار السقف والجدران تمتلئ الحفرة التي ظلت النار مشتعلة فيها بشكل متواصل أيامًا وليالي. وتحتاج إلى أسبوعين أو أكثر حتى يبرد الجير ويتمكن أصحابه من الشروع في استخراجه ويبدأ المشترون يتواردون على الموقع هذا يريد قنطارًا وهذا يريد أكثر من ذلك وآخر يريد كمية قليلة يبيض بها سقيفته فتصبح جميلة المنظر ولا تقربها الحشرات مدة طويلة ويجري تحميله على الدواب ولم تكن الجرافات معروفة عندنا في ذلك الوقت.

كنت أذهب وبعض رفاقي إلى حيث يجري تجهيز الكبارة، خارج القرية بمسافة ليست بعيدة، ننظر إلى العمال وهم إما شركاء في الأتون أو مساعدون متطوِّعون، فنشاهد عملية جمع الحجارة أو حفر الأتون أو بنائه، وأحيانًا نشارك في نقل أكوام الحطب المرصوصة جيدًا وتسمى كل كومة «الكِباش» والكباش الواحد فيه من الحطب الخفيف «النتش» ما يكفي لإنضاج خروف. فننقلها من أماكنها المتباعدة لنضعها بجانب الأتون أو نشارك في التلقيم.

ومراحل عمل الأتون شاقة كلها من بداية اقتلاع الحطب بأدوات تشبه الفؤوس وتسمى (المناتيش) ومفردها (منتوش) إلى حين الحصول على الجير. وهو عمل لم أجرِّبه إلا متطوعًا ساعة من نهار إلا أنه يوصف بأنه من أشق الأعمال على الإطلاق. كانت عملية إدخال النتش في الأتون تسمى (الوزّ) وكان لكل نوبة (وزّازان اثنان) يقف أحدهما عن يمين فتحة الأتون والأخر عن يسارها وبيده عصا طويلة وفي رأسها حديدة ذات شعبتين، يلقمان الأتون بالنتش نتشة نتشة وبشكل متأنٍّ.

مع غياب الأشغال في فترة الخمسينات وندرة النقود كان الأتون باب رزق خصوصًا لمن ليس له أرض يفلحها، وإذا كان بناء الأتون متقنًا ومن حجارة كبيرة من نوع يطلق عليه (الخُرّام) فإنه يدر على كل شريك من الشركاء مبلغًا حسنًا عند التوفيق، ولم يكن التوفيق مضمونًا، فكثيرًا ما تنهار الكَبّارة قبل النضج التام عندما يكون بناؤها غير متقن فلا تنتج من الشيد ما يعود على الشركاء بنفع يذكر. والشركاء عادة يكونون بين الخمسة والعشرة.

في تلك الفترة المبكرة من طفولتي وقبل دخولي المدرسة لا تزال ذاكرتي تحتفظ بكثير من تفاصيل مأساة وقعت في كبارة وكانت على النحو التالي:

كان شيخ القرية، أبو فوزي، زعيمًا على مستوى المنطقة وله نفوذ على المستوى الشعبي والمستوى الحكومي ويملك معظم السهل الخصب من أراضي القرية، وكان يريد التوسع في البناء فقرر أن يقيم أتونًا خاصًا به وعنده عمال متفرِّغون بأجرة سنوية (حوالي مائة دينار في السنة لكل واحد) ويمكنهم القيام بالجزء الهام من العمل، إلا أن مكانته الرفيعة وكون الغالبية العظمى من الرجال عاطلين عن العمل في ذلك الوقت، وفر له عمالة متطوعة بأعداد ربما فاقت حاجة الأتون. كان الشيخ يصنع لهم الغداء وهذا وحده يشكل حافزًا هامًا في ذلك الوقت ولا أزال أذكر منظر عدد من النساء تحمل كل واحدة على رأسها صحنًا كبيرًا وعميقًا مليئًا بالطبيخ وكلهن متوجهات إلى الكبارة التي تبعد عن القرية حوالي ثلاثة كيلومترات إلى الشرق منها.

كان الطبيخ الشعبي الذي يعشقه الناس في القرية نمطًا موحدًا وهو اللحم أو الدجاج بمرق البندورة، يطبخ إلى أن ينضج اللحم ثم يُسكب المرق على الخبز (الفتيت) وبعد أن يشرب الفتيت المرق يجلل بطبقة كثيفة من الأرز ثم يوضع فوقه اللحم، ولا تزال هذه الأكلة الأشهى عندي وعند معظم الناس في منطقتنا كلها وليس في قريتنا وحدها.

أذكر أنني كنت وأعدادًا من الأولاد نركض خلف النساء حاملات الطعام، وأغلب ظني أننا وصلنا الكبارة وتغدينا بعد غداء الرجال ثم قفلنا عائدين.

مع بزوغ فجر اليوم التالي جاءنا عمي الذي كان مع المتطوعين في الكبارة وقال لنا برنة أسى: مات محمود المجيد تحت الكبارة، كان الخبر مذهلًا للجميع ولم يبق أحد نائمًا إذ سرعان ما انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وخرج الذكور إلى الحارة الرئيسة أما النساء فظللن ينتظرن إعلام أمه بالخبر كي يلتففن حولها ويفتتحن العزاء بالنواح. وعند بزوغ الفجر أو قبل ذلك بقليل وصل جثمان الشهيد ممددًا على سلّم مشدودًا بحبل يحمله الرجال على أكتافهم يتناوبون على حمله أربعة أربعة، وما طلع النهار إلا

والرجـال مـن القـرى المجـاورة قـد بـدأوا يتوافـدون عـلى القريـة وكذلـك النسـاء وإذا في كل مـكان مـن القريـة رجـال ونسـاء مـن كل حـدبٍ ينسِـلون يذهبـون ويجيئـون ويتبادلـون الأحاديـث بأسـى، والنسـاء قـد تجمعـن للنـواح والتعـداد.

وقـد قـص الذيـن كانـوا في الموقـع تلـك القصـة المحزنـة وموجزهـا أن الشـاب محمـود ابـن مـؤذن القريـة أحمـد عبـد المجيـد كان في شرق الأردن يبحـث عـن عمـل وصـدف أن عـاد إلى القريـة فوجـد رجـالًا يريـدون التوجـه إلى الكبـارة للمعونـة فذهـب معهـم مـع العلـم أن الشـيخ أبـا فـوزي ابـن خالتـه. وكـما أسـلفت كان الملقمـون (الـوزّازون) يتناوبـون ليـل نهـار عـلى تلقيـم الكبـارة بحطـب النتـش الـذي كان جمعـه بكميـات هائلـة أول خطـوات العمـل، وجـاء دور الشـهيد محمـود للتلقيـم في الليـل، وفجـأة بـدأت حجـارة الكبارة تتهـاوى فتمكـن زميلـه مـن أن ينجـو، أمـا محمـود ففاجأتـه بعـض الحجـارة الملتهبـة، فألقتـه عـلى الأرض، وجعـل يسـتغيث الحاضريـن وكان الظـلام دامسًـا ولم يكـن لديهـم أيـة وسـيلة للإضـاءة ولم يكـن ثمـة ضـوء قمـر، فلـم يشـاهدوا مـا يجـري إلا ممـا يشـع مـن الحجـارة المتدحرجـة، فهجمـوا عـلى الجسـد الممـدد بأيديهـم فوجـدوا الحجـارة نـارًا تلتهـب، كيـف لا وهـي مـا زالـت تُشـوى عـلى النـار منـذ عـدة أيـام ليـل نهـار بشـكل متواصـل حتـى صـارت جمـرًا ملتهبًـا فلـم يسـتطيعوا لمسـها فحاولـوا كشـفها عـن الشـاب بكوفياتهـم ويسـمون الكوفيـة (الحَطَّـة) وكانـت الحطـة الصيفيـة رقيقـة بيضـاء مـن خيـوط القطـن ليسـت أهـلًا لأن تحجـز النـار الملتهبـة عـن الأيـدي العاريـة، وبينـما هـم يحاولـون المسـتحيل انهـارت كميـة كبـيرة مـن الحجـارة مجـددًا فهـرب المنقـذون وكل منهـم يريـد النجـاة بنفسـه وأصبـح إنقـاذه مسـتحيلًا.

هـذا الجانـب المعقـول مـن المأسـاة، أمـا الجانـب الغريـب منهـا أن والـد الشـاب محمـود كان مـع العاملـين عـلى الكبـارة وكان بطبيعـة الحـال أسرع المبادريـن إلى محاولـة إنقـاذ فلـذة الكبـد، وفشـل في الإنقـاذ كـما فشـل غـيره فوقـف يسـتمع إلى صرخـات ابنـه التـي بـدأت تخفـت رويـدًا فنـادى الأب ابنـه بلهجـة الصبـور الـذي لا يـزال مـضرب المثـل في الجَلَـد: محمـود؛ قـل لا إلـه إلا الله. ويـردد محمـود: أشـهد أن لا إلـه إلا الله، فيقـول لـه الأب: محمـود؛ قـل أشـهد أن محمـدًا رسـول الله. فـيردد محمـود: أشـهد أن محمـدًا رسـول الله، ثـم لا ينسـى محمـود أن يـودع أبـاه والحاضريـن: بخاطـرك يـا أبي، بخاطركـم يـا إخـوتي. فيجيبـه أبـوه: الله

يـرضى عليك، ويقـف الجميـع في حالـة ذهـول وبـكاء ويقـف الوالـد يـردد ذكـر الله ويترضى عـلى ابنـه الراحـل دون أن يـذرف دمعـة.

ويشـتد إعجـاب الحاضريـن بهـذا الأب الجلـد، أو كـما يصفـه أهـل قريتنـا (الأب الجبـار) أي الـذي لـه في صـبره شـدة الجباريـن.

جـاء الشـباب بالشـهيد عـلى السـلّم ووضعـوه في بيـت (غرفـة كبـيرة) في دار الشـيخ، أمـا والـده فتوجـه إلى بيتـه ليخـبر أم محمـود بـما جـرى لأكـبر أبنائهـا وظـل يحتـال عليهـا بـالأذكار والعـبر والمواعـظ إلى أن سـقاها الخـبر جرعـة جرعـة، وإذا الصبـح قـد حـلّ وكان أبـو محمـود مؤذنًـا وإمامًـا لا يعطـى أجـرًا مـع شـدة حاجتـه إليـه، فلـم تذهلـه الفاجعـة عـن الأذان، فقـام مؤذنًـا ثـم إمامًـا للمصلـين القلائـل في ذلـك الوقـت، وأغـرب مـا في الأمـر أن كثـيرًا مـن أهـل القريـة، خاصـة مـن النسـاء لمنـه جهـلًا لأنـه لم يفقـد عقلـه ولم ينـس أن قـام إلى أذان الفجـر والصـلاة بينـما فلـذة كبـده ممـدد ينتظـر الغسـل.

نظام الدراسة في الخمسينات

كان نظـام الدراسـة في عقـد الخمسـينات يتكـون مـن مرحلتـين اثنتـين؛ المرحلـة الابتدائيـة ومدتهـا سـت سـنوات ثـم المرحلـة الثانويـة ومدتهـا خمـس سـنوات تبـدأ عنـد نجـاح الطالـب في السـادس الابتدائـي، إذ يدخـل الصـف الأول الثانـوي ثـم الثـاني الثانـوي فالثالـث الثانـوي فالرابـع الثانـوي فالخامـس الثانـوي ولم يكـن ثمـة تقسـيم بـين علمـي وأدبي، وفي نهايـة الخامـس ثانـوي يتقـدم الطـلاب إلى امتحـان لنيـل شـهادة (المَتْرِكْ) وهـي اختصـار للكلمـة الإنجليزيـة (Matriculation) وكانـت شـهادة المترك غايـة المنى لمعظـم النـاس خاصـة في القريـة ولم يكـن طموحهـم يرقـى إلى مسـتوى الجامعـة، فالجامعـة كانـت طمـوح الميسـورين الواعـين مـن النـاس. كان لجيراننـا، وهـم في الوقـت نفسـه أقاربنـا، ولـد تـرك المدرسـة في الصـف الرابـع الابتدائـي، فقـال لـه عمـي ذات مـرة: لمـاذا تركـت المدرسـة؟ وفي نـبرة توبيـخ، أوضـح لـه أنـه ضيّـع مسـتقبله بـترك المدرسـة وقـال لـه: «هـذا يوسـف، يمكـن يوخـذ مـترك». وتعجبـت مـن هـذا الطمـوح بالنيابـة وقـدرت أنـه بعيـد المنـال، وكان

المترك حتى منتصف الخمسينات يؤمن الوظيفة إما في مجال التدريس أو في إحدى دوائر الحكومة التي كانت بأمس الحاجة إلى متعلمين يستطيعون القيام بأعباء الوظيفة بشيء من الاقتدار، وكانت الوظيفة محترمة في أعين الناس فهي ترفع صاحبها درجات؛ لأنها تؤمن دخلًا ثابتًا وإن كان قليلًا بينما يعيش المزارعون في القرى والصانعون في المدن والبدو في مضاربهم المتنقلة، لم يكن يحصل معظمهم إلا على معيشة طابعها الفقر الشديد وندرة المال، فالموظف له راتب شهري فمن المؤكد أنه يظل طيلة الوقت قادرًا على تأمين احتياجاته واحتياجات أهله وخاصة الأساسي منها ويستطيع أن يلبس الحلّة الغربية (البدلة ويسمونا أيضًا: الطقم) وأما غير الموظف فكانت تمر عليه أيام طوال وليس في بيته شيء من مقومات الحياة وتكون حالة ملابسه أكبر شاهد على سوء حالته.

كان غير المتعلم يلبس القمباز في الشتاء و(السُّرَّتْلِيَّة) في الصيف وإذا كان ميسور الحال فملبسه في حالة حسنة خاصة عند زيارته المدينة أو إحدى القرى، وإذا كان فقيرًا فقمبازه مرقّع سواء أكان في القرية أو في زيارة لأي مكان.

كان أحد شباب القرية ينوي خطبة فتاة من قرية أخرى وسار الخاطب مع الرجال إلى قرية الخطيبة بقمباز نظيف إلا أن فيه رقعة كبيرة من الخلف، ولو كان يملك أية وسيلة لشراء قمباز جديد لما سار إلى بيت الخطيبة في المرقوع، ولم تمنعه رقعة قمبازه من أن يظهر الزهو والابتهاج وأن يعبر عن ذلك بإطلاق طلقات الابتهاج من بندقية الصيد (الخرطوش) التي استعارها لهذه المناسبة.

تصرف طفولي

في طفولتي المبكرة، قبل أن أدخل المدرسة، كنت ذات يوم في فناء دارنا أنا وطفل في مثل سني نلعب على سلّم خشبي ممدد، يقف كل واحد منا على أحد طرفيه ونرقص فيرتفع السلم وينخفض بحركات سريعة ويظل كل منا واقفًا لا يختل توازنه، وكانت لعبة وتمرينًا في آن واحد، وكنت أردد أنا ورفيقي أغنية تعلمناها من الأهل تعبر عن

الفرح والفخر بنجاح قريب لنا في أول برلمان أردني. وبينما نحن نلعب جاء رجل سائل، فتناولت حجرًا وقذفته به بيدي اليسرى التي كانت قلما تصيب، فصمد الحجر إلى رأسه وشجه شجة منكرة، فصاح في أهل البيت: أين دار المختار فدلته والدتي على الدار المطلوبة، وهي مجاورة لبيتنا، فذهب يشكو ويولول والدم يتصبب من رأسه، وشكا أمره للجالسين وكان والدي من جملتهم، فجاء به إلى البيت وناوله ماءً فغسل رأسه وضمد جرحه وصالحه بقبعة طحين كبيرة، سعتها رطلان نابلسيان (6 كيلو غرام) (القُبْعَة: وعاء مصنوع من القش يتفاوت بعضه عن بعض في السعة وهو من لوازم أثاث كل بيت في ذلك الوقت) فأخذها راضيًا وانصرف وتحملت اللوم الخفيف المخلوط بعاطفة الأبوة من والدي الذي كان من أحسن الناس خُلُقًا.

جاءنا ذات يوم نساء من «النوَر» وغنين ورقصن بغير مناسبة إلا أن الغناء كان وسيلة التسول عند هذا الصنف من الناس، وكان لي من غنائهن نصيب وافر وكانت مكافأتهن قمحًا وملابس وأصنافًا أخرى لا أذكرها تمامًا الآن ولم يكن كل بيت يملك مثل هذه الأشياء وكن يعرفن البيوت التي تستحق أن تُطرق.

كان والدي من النوع الذي إن نفد من بيته القمح يجد من يدينه إياه من قرية قصرة المجاورة التي كانت أحسن حالًا من قريتنا بدرجة كبيرة وكان لنا في قصرة مزارعون يفلحون قسمًا من أرضنا بنصيب من الإنتاج متفق عليه. ونفاد الطحين كان يدبّر باستقراضه من الجيران ويسدد فور الحصول على طحنة جديدة، وكنا بدورنا نقرض من يأتي مستقرضًا وهكذا. ومن إيجابيات تلك الفترة أن الناس كانوا للناس، وكل واحد يكمل نقص الآخر ولا حرج عندهم من استقراض أي شيء فيستقرض الواحد بقرة الآخر ليقرنها ببقرته للحراثة، ويُستقرض الحمار لحمل القمح إلى الطاحونة أو لحمل الزرع من الحقل إلى البيدر، ويُقتَرَض الصاع والشاعوب والمذراة (هي من أدوات الفلاحة) حتى الثوب لمن أراد أو أرادت دخول المدينة، وليس لديها أو لديه الملابس المناسبة، وكان استقراض الخبز للفطور صباحًا شائعًا جدًا عند جميع الناس وربما طرق الولد الباب بعد الباب لاستقراض رغيف واحد ولم يجد عند أحد فضلًا من الخبز فيطوي على الجوع إلى أن يأتي موعد خبيز أمه.

وكثيرًا ما يقترض الجار من جاره مقدارًا من السكر والشاي ليعمل إبريق شاي أو الأرز للطبخ، وكان المقترض يحرص كل الحرص على السداد، والأصل عند الفلاحين ألا يمتنع أحد عن الإقراض إلا لمن لا يسد، وقلة قليلة منهم كانت لا تُقرض ولا تقترض مهما احتاج الواحد منهم، وهؤلاء يكونون معزولين ولا يُنظَر إليهم باحترام والذين لا يُقرضون يعرفون بمانعي الماعون. وكثيرًا ما لجأت والدتي في حالة عدم وجود خبز الفطور، إلى العجين المستعجل، ثم خبز المعجون فورًا ودون أن تضاف إليه الخميرة ويسمى الخبز في هذه الحالة: الفطير. وهو خبز لا ألذ ولا أشهى منه خاصة عندما يغمس ساخنًا بالزيت، ولكن الخبز من العجين الخامر أسهل هضمًا ولا يسبب الإمساك الذي يسببه الفطير.

كثير من الناس كان لا يجد من يدينه؛ لأنه لا يملك الأراضي التي ستأتيه بالقمح في الموسم مما يمكنه من السداد، إلا أن رحمة الله كانت تتكفل بتدبير القوت لهؤلاء.

وحياة الفقراء في النهاية تسير مسارها بتدبير من رب العالمين، والذي لمس هذه الآية الربانية التي تعم أفقر الفقراء ومتوسطيهم لا يسعه إلا أن يستشعر عظمة الخالق وصدق الوعد الإلهي في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22-23].

لقد أيقنت بعد التجربة أن الأزمات الاقتصادية التي تقع من غير إرادة الإنسان يبعث الله لها حلًا. أما أولئك الذين يفضحهم الله ويكشف حالهم فهم الذين عصوا الله تعالى بأن اتبعوا طريق الميسر أو الربا أو الإسراف في الدَّيْن من غير حاجة أو اغتصاب حقوق الآخرين.

كان كثير من أصحاب الأسر كثيرة الأولاد في قريتنا لا يملكون أية أراض، وكانوا عندما يحصل أحدهم على خبز يومه يتركز همه على الغد، من أين يحصل على قوت غده؟!، وفي كل مرة ييسر الله له القوت، وهذا يذكرني بقول ابن زريق البغدادي في قصيدته التي حوت أصدق الحِكم:

والله قسَّم في الأقوام رزقهم		لم يخلق الله مخلوقًا يضَيِّعُهُ
لكنهم مُلئوا حرصًا فلست ترى		مسترزقًا وسوى الغايات يُقنِعه
والحرص في المرء والأرزاق قد قُسِمت		بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يُعطي الفتى ما ليس يطلبه		حقًا ويُطمِعُه من حيث يمنعه
أعطيتُ ملكًا فلم أُحسن سياسته		كذاك من لا يسوس الملك يُخلعه
ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا		شكرٍ عليه فإن اللهَ ينزعُهُ

ولا يزال الناس يذكرون أكثر من قصة لأسرة كانت مضرب المثل في الغنى، ثم اتبعت نهج الإسراف والتبذير فصارت مضرب المثل في الحاجة والعِوَز.

من صور الفقر في ذلك الوقت أن كثيرًا من طلاب المدارس من قريتنا كانوا يتركون المدرسة هربًا من مطالبتها لهم بالتبرعات المدرسية، وتسمى في العامية (المدخولية) وهي مبلغ في حدود عشرين أو ثلاثين قرشًا يدفع مرة واحدة في بداية السنة الدراسية كرسوم مدرسية تنفق منها المدرسة على احتياجاتها المتعددة، وكانت الثلاثون قرشًا مبلغًا عسير المنال بالنسبة للكثيرين بل إن القرش الواحد كان عسير المنال في معظم الأحيان بالنسبة لكثير من الناس.

كنا نذهب إلى المدرسة وليس في جيب أيٍّ منا قرش واحد، وكان طلب الولد مصروفًا يوميًا بدعة لم تكن حدثت بعد. وإنما ننطلق إلى المدرسة بالكتب في كيس قماش مخيط باليد، وزوّادة في منديل ويسمى في العامية (مِحْرَمَة) لأن اليوم الدراسي كان مطوَّلًا وفيه فسحة غداء، والزوادة عبارة عن رغيف خبز ومعه ما يتيسر من بيضة أو سواها، وكثيرًا ما كان رغيف الخبز يابسًا ليس معه شيء، ولكن الواحد منا يزدرده بشهية.

في فترة الخمسينات حدث جفاف شديد وقلّ القمح قِلّةً مريعة، والقول الشائع: إن الله، تعالى، إذا أغلق بابًا فتح كُوّةً، قول لا شك في صحته، فإن ندرة القمح التي بلغت حدَّ المجاعة فرّج الله كربها بتدفق محصول العجوة من العراق. كان ذلك في فترة منتصف الخمسينات من القرن الماضي.

والعجوة نوع من أردأ أنواع التمور طعمًا وأرخصها ثمنًا. وكانت المجاعة هي التي روَّجت سوقها في بلادنا، وشكلت تجارة العجوة مصدر دخل جيد للتجار كبارهم وصغارهم.

كانت العجوة تتدفق على المدن والقرى بكميات هائلة وفي عبوات منسوجة من لحاء النخيل ويسمى الواحد منها (القفير) ويزن القفير الواحد مئة كيلوغرام، وكان الشائع في الموازين في ذلك الوقت (الرطل النابلسي) والرطل النابلسي يساوي ثلاثة كيلوغرامات على وجه التقريب، فقفير العجوة يحتوي على ثلاثة وثلاثين رطلًا نابلسيًا.

كان لقرى جالود وقريوت وتلفيت حافلة واحدة (باص) تخدمها وكان الناظر إليه في سنين العجوة يرى ظهره مرصوصًا بقفران العجوة. ومع غياب المواد الغذائية الأخرى غيابًا شبه كامل. كانت العجوة غذاء بغيضًا إلى كل نفس ولكن لا حيلة لمعظم الناس إلا أكلها.

كان أساتذتنا يحب بعضهم أن يتجول في الساحة أثناء فرصة الغداء وينظر إلى زوّادات الأولاد؛ لأنها تنطق بالحالة الاجتماعية والاقتصادية لأهاليهم، وكان الناظر إلى أولاد قريتنا يرى عددًا كبيرًا من الأولاد صغارًا وكبارًا وقد جلس كل واحد منهم القرفصاء ونشَر زوادته فإذا الجميع نمط واحد ليس فيهم مخالف: رغيف من الخبز وعليه حبات من العجوة.

ثمة حادثة لا تفارق ضميري ولا تزال تبعث فيه مشاعر الإشفاق: كان موسم الحصاد ونقل الزرع إلى البيدر موسمًا جيدًا للأولاد كلهم وللفقيرات جدًا من البنات، فكنا نتلقط السنابل الساقطة ويجمع كل منا ما قدر عليه منها ثم يدقه وينسفه (ينفث فيه كي يتطاير تبنه ويبقى حبه) فيبيعه للدكان ويشتري بثمنه ما يشتهي من حلوى أو ما عداها مما هو متوفر وربما لجأ بعض الأولاد إلى السرقة من البيدر أو من الحقل خاصة عندما لا يجد ما يلتقط من السنابل.

كان في قريتنا أناس تجاوز فقرهم كل الحدود ومنهم فتاة كانت تلتقط السنابل يسمونه (السَّبل) فجاءني مرة أولاد عديدون يقولون بصوت واحد: فلانة سرقت من زرعكم، وكانت واقفة فأخذت تقسم لي أنها ما فعلت وبلهجة تجسدت فيها مذلة الفقر، ولكنني على الرغم من توسلاتها وأنها تكبرني بأربع سنوات، لكمتها لكمة لا أزال أذكرها وأذكر توسلات الفتاة المسكينة ونبرة المذلة الظاهرة فيها فأشعر بندم وإشفاق لا حدود لهما ولم أغفر لنفسي أنني كنت صبيًا جاهلًا.

في تلك الفترة، وعلى مدى سنوات، صارت الحكومة الأمريكية ترسل إلى الأردن قمحًا هدية إلى فقراء هذا البلد، وافتتحت الحكومة الأردنية مراكز توزيع في كل مكان من المملكة وكان مخاتير القرى يجلبون القمح ويوزعونه.

وهو قمح لم يمر على الناس في حياتهم من قبله ومن بعده وحتى الآن أردأ منه، وأظنه أردأ ما أنتجته الحقول الأمريكية، فحبته صغيرة معظمها من القشر المغضّن، وعندما يُطحن تجد طحينه ضاربًا إلى الحمرة، وعندما يُخبز تجد الرغيف أحمر بائسًا وعندما يؤكل فطعمه رديء وهو غير مُشبع.

كان الصغير والكبير يتساءلون عن هدف الولايات المتحدة من إرسالها القمح، ولكن إمام مسجد القرية كان لديه الجواب: أمريكيا تريد من الأردن أن تسمح لها بإقامة قاعدة، لذا فهي تتقرب إليها بهذا القمح.

سألت أستاذي الذي أحببته أكثر من غيره، وهو الأستاذ شفيق حمزة من قرية تِل: يا أستاذ، ماذا تقصد الولايات المتحدة من إرسال القمح؟ فقال: تقصد أن يُقال إنها دولة جيدة ومحسنة. سألته: أليست تريد قاعدة في الأردن، فابتسم ونفى، فشعرت بالفرق بين تحليلات الأمِّي وتحليلات المثقف.

المرقّع عنوان من عناوين الفقر

كان كثيرون يلبسون المرقّع، بل إن الذين لا يلبسون المرقع من الرجال والنساء والأولاد قليل ولم يكن الحفى بالأمر النادر ولم يكن التلميذ الأشد فقرًا، يخجل عادة من أن يذهب إلى المدرسة حافيًا.

قليل من بيوت القرية كان لا يقتني الدجاج، إلا أن الدجاج لم يكن للذبح إلا إذا حضر ضيف ذو شأن، كان الدجاج للبيض ولم يكن البيض على مائدة الإفطار في البيت، كان البيض يباع لبائعين متجولين يطرقون القرية يوميًا فتشتري النساء بثمن البيض ما يلزم البيت مما يعد البنية التحتية من أكواب الشاي وصحون الطعام وطناجر الطبخ والسكين والملعقة والخيطان والإبر، إلى الكاز للإضاءة إذ كانت البيوت تضاء بمصابيح

الكاز. كنت ذات مرة في الدكان الوحيدة للقرية، فدخل أحد أولاد القرية في يده بيضة وفي اليد الأخرى صفيحة (تَنكة) تتسع لستة عشر لترًا من الكاز، فكان موضع تندر الحاضرين، وحصل بالبيضة _على كل حال_ على كمية من الكاز يكفيهم عدة أيام، فإنما هو مصباح الكاز يُشْعَل عند المغرب ويطفأ بعد العِشاء مباشرة، أما الطبيخ _عندما يكون لدى أهل البيت ما يطبخون_ فهو على الحطب عند أغلب الناس، والأسر ذات الحال الميسورة _نسبيًا_ فهي التي تستخدم وابور الكاز (البريموس) وكان لدينا وابور كاز إلا أن الطبخة كانت تطبخ غالبًا، في القدرة الفخارية وعلى الموقدة وبالحطب. وقد ذبحوا مرة بقرة وكانت هرمة فدخل لحمها كل بيت في القرية وكانت الطبخة من هذه البقرة تحتاج إلى كمية كبيرة من الحطب، والحطب قليل، ولزومه يومي، فهو مصدر الطاقة الوحيد، فأضاف الجميع مادة الكربون على الطبخة لتسهيل نضجها، ومع ذلك احتجنا على أن نقلع شجرة رمان كانت أمام الدار وأنضجنا بها الطعام. أما وابور الكاز فكان لصنع الشاي أو لقلي بندورة أو بطاطا أو لحاجة خفيفة من هذا النوع.

وقد دخل البوتوغاز بعض بيوت القرية في النصف الأول من الستينات من القرن الماضي. ولم يكن للكهرباء وجود في فترة الخمسينات والستينات إلا في المدن ولم يكن في كل بيت من بيوت المدينة، فقد درست صفّي الأول الثانوي والثاني الثانوي في نابلس سنتي 1963 و1964 في غرفة لم يكن فيها كهرباء.

أدب تلك الفترة

كان الأدب الشعبي سجلًا لأفكار الناس ومشاعرهم في الأفراح والأتراح ومنه يستطيع الدارسون أن يقفوا على نمط الحياة ومستوى المعيشة ونمط التفكير عند الناس ويتعرفوا على أحلامهم وآلامهم وآمالهم.

في المآتم

كانت النساء يندبن الميت بنصوص أدبية محفوظة ومتوارثة ويجري تجديدها باستمرار من قرائح الموهوبات من النائحات واللاتي يسمين (البدّاعات).

وكانت أغلب نصوص النواح تتضمن الشعور بالخسارة الفادحة لفقدان ذلك الميِّت ـحتى لو لم يكن موته خسارة لأحدـ وتعبر النائحات عن حزنهن على فقده بانهمار الدموع مدرارة وغالبًا ما تكون دموع مجاملة لذوي الميت ليس فيها أثر للصدق، ومن المضحك حقًا أنَّ الناس في ذلك الوقت كان يقرض بعضهم بعضًا كل شيء حتى البكاء على الميت، فإن الفاقدات كالزوجة والابنة يحفظن اللواتي جئن للنواح على ميتهن ويختزن شعورًا بالامتنان للاتي نُحْنَ وعددن المآثر ويحرصن على سداد الدين عندما يموت للمشاركات الصديقات ميّت وكانت المآتم كثيرًا ما يعقبها صداقات متصلة بين الناس وعداوات وقطيعة تامة للاتي لم يشاركن. ومن الأمثلة التي شاعت في ذلك الوقت: «كل شيء قرضة ودين حتى دموع العينين».

وكان أكثر ما يُعدّد من مآثر الميت كرمه وإطعامه الطعام وشجاعته وقهره الأعداء وعفته.

وكان الدليل على عزّة الميت على أهله وأقاربه أن ترفع النساء عقيرتهن بالصياح ولطم الخدود وشق الجيوب فعل الجاهلية الأولى، وقد زال ذلك كله منذ أواخر القرن الماضي وأصبحت النساء أكثر تخلقًا بخلق الإسلام في هذا المجال.

أما الغناء فكان منه غناء وطني وآخر عاطفي:

أما العاطفي فكان الشباب والكهول يغنونه في الأفراح، وفي كثير من الأحيان للتسلية بغير مناسبة، ويدور حول التغزل بجمال المرأة والشوق إليها والتذمر من الحالة التي تمنع الأعزب من الزواج، ومنها مقطع يقول: (صاروا يطلبوا في البنت مِيِّه صار العزّابي يلطم عاللحية صار المتزوج يلعب دلعونا). أي؛ صار مهر الفتاة مائة دينار وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت.

أما الغناء الوطني فكانت تتولاه الإذاعات العربية وكان مثقلًا بروح الهزيمة ويدور في أغلبه حول يوم الثار الموعود، وكان الشائع إعلاميًا تمجيد العروبة التي قامت معظم حكومات العرب على ساق وقدم لإثباتها بديلًا عن رابطة الإسلام.

كان النشيد اليومي في السنوات الأولى من عقد الخمسينات والذي ينشده طلاب المدارس لدى اصطفافهم في ساحات مدارسهم صباحًا يحتوي على الفقرة التالية:

يا فلسطيننا	يا ابنة الأكرمين
سوف تلقيننا	للوغى صابرين
عربٌ إننا	لا نلين لا نلين

وكانت حكومة الأردن (المتهمة في عروبتها وفي وطنيتها) تبالغ في التغني بالعروبة وربما لدفع التهمة، أو ربما إمعانًا منها في تثبيت الانفصال الذهني والعاطفي عن الإسلام، وكانت أنشودة الجيش العربي:

يا جيشنا يا عربي
يا جيش كل العربِ
تعيش وتحيا عربي

وكان الإعلام المصري أشد قوة وأكبر تأثيرًا في محاولة إحلال القومية محل رابطة الإسلام وأنشأت إذاعة «صوت العرب»، وكان فيها خطيب مفوّه، ذائع الشهرة هو أحمد سعيد، كان البسطاء يحبون أن يسمعوا نبرة صوته ولا يهمهم أن يعوا أو لا يعوا ما يقول، وكانت إذاعة صوت العرب وسائر الإذاعات المصرية تستبدل الاستهلال الإسلامي للحديث الذي هو: بسم الله الرحمن الرحيم، باستهلال آخر هو: باسم الشعب. أما خطابها للمستمعين فهو: أخي في العروبة.

وساهم الشعر في معركة إحلال الفكر القومي محل الفكر الإسلامي واشتهرت قصيدة علي محمود طه الوطنية والتي مطلعها:

أَخِي جاوَزَ الظالمونَ المَدَى   فحَقَّ الجِهَادُ وحَقَّ الفِدَا

ومنها:

أَخِـي، أَيُّهـا العَـرَبِيُّ الأَبِيُّ | أَرَى اليَـوْمَ مَوْعِدَنَـا لاَ الغَـدَا
أَخِـي، قُـمْ إِلى قِبْلَـةِ المَشْرِقَـيْنِ | لِنَحْمِـي الكَنِيسَـةَ وَالمَسْـجِدَا
يسـوع الشـهيد عـلى أرضهـا | يعانـق، في جيشـه، أحمـدا

هـذا الشـاعر مسـلم؛ لكنـه يصـف يسـوع بأنـه شـهيد، آخـذًا بالمفهـوم النـصراني ومكذبًـا للحقيقـة القرآنيـة التـي تنفـي أن يكـون المسـيح قـد قُتِـل وصُلـب. والحقيقـة أن التقـرب إلى الطوائـف النصرانيـة كان يبلـغ في معظـم أرجـاء العـالم العـربي حـدَّ التزلُّـف الشـديد.

ثقافة الناس في فترة الخمسينات

رجعـت مـن المدرسـة ذات يـوم أنـا وشـقيقتي فرأيـت رجـالًا كثيريـن كانـوا في الـدار ثـم بـدؤوا بالانـصراف، ورأيـت والـدي قـد فُرشـت لـه فرشـة وتمـدد عليهـا، ولـدى انـصراف آخـر الرجـال وخـروج أمـي مـن الراويـة (المـكان الـذي خلـف الخوابي) سـألتها: مـاذا حصل لوالـدي؟ فعرفـت القصـة: كان في مسـاعدة عديلـه مـن تلفيـت في قطـف الزيتـون، فانكـسر بـه غصـن فوقـع عـلى الأرض وانكـسرت يـده، فجـيء بالمجـبر وجبرهـا لـه، وعليـه أن يلازم الفـراش أيامًـا إلى أن يجـبر الكـسر.

كانـت أيامًـا طـوالًا ومملـة، فلـم يكـن في البيـت راديـو، ولم يكـن في فلسـطين كلهـا تلفزيـون.

قـال لي مـرة: اذهـب إلى الشـيخ محمـد وقـل لـه: يريـد أبي تغريبـة بنـي هـلال، ففعلـت وجئتـه بالتغريبـة فأخـذ يقـرأ منهـا بصـوت عـال وبنـبرة غنائيـة مطربـة، وكان الاسـتماع إليهـا ممتعًـا.

كانـت تلـك التغريبـة ثقافتهـم في ذلـك الوقـت، وفي شـمس الشـتاء والربيـع وفي الظـل في فصـل الصيـف يجلـس رجـل حسـن الصـوت ممـن يعرفـون القـراءة فيقـص عـلى مسـامع الحاضريـن مـن تلـك التغريبـة وينشـد الأشـعار التـي فيهـا عـن طريـق الغنـاء فيشـنف

الآذان، وترى الناس من حوله صامتين كأن على رؤوسهم الطير، وفي ليالي رمضان كانت بعض المقاهي تستقبل الحكواتي الذي يقص التغريبة.

كانت أشخاص التغريبة تعيش بين الناس وكأنهم أحياء يرزقون، وكانت أمثالهم يدور الكثير منها حول هؤلاء الأشخاص:

سعدة الزناتي: الفتاة العاشقة الخائنة التي عشقت أحد الغزاة وضحت بأبيها من أجل أن تنال حبيبها.

أبو زيد الهلالي: بطل الأبطال الذي يعاني من عقدة اللون، مع أنه لم يكن عبدًا بل كان من صميم بني هلال.

السلطان حسن: ملك بني هلال.

ذياب بن غانم: البطل المغوار الذي يفعل الأمجاد ويذهب الصيت إلى أبي زيد الهلالي.

الزحلان: الفارس وشيخ العشيرة الذي لم يكن أحد من أولاده فارسًا.

وكانت تسمى بأسمائهم المواليد ويجري ذكرهم كلما حدث للناس حدث مشابه.

وكان كثير من القصاصين يعتاشون على سرد التغريبة في المقاهي، ومنها القهوة الشرقية في نابلس التي كنت وأصحابي نتردد عليها في أحيان قليلة في ليالي رمضان لنستمع إلى القصاص الذي يسمونه الشاعر، يقص تغريبة بني هلال وقد حفظ شعرها ونثرها وأفاض على الأحداث من عواطفه فتكون السهرة ممتعة ويمتلئ المقهى إلى آخر كرسي فيه ويتقاضى المقهى قرشًا ثمن فنجان القهوة ثم يدور النادل فيما بعد بصينيته ليجمع قرش الشاعر فتمتلئ الصينية بالقروش.

وكانت القصة الثانية التي تستهوي الناس قصة الزير سالم، وكانت هذه القصة أيضًا موضع تسلية الناس.

لقد رسم القصاصون للزير سالم صورة من القدرات الخارقة وكذلك لأبي زيد الهلالي وذياب بن غانم.

كنت أستمع إلى القارئ المنشد وهو يتلو على السامعين صورة من صور البطولة للزير سالم في أحد المعارك على النحو التالي:

من أول ضربة طيَّر مِيِّه   خلّى الدم يجري كالجداول

مِن ثاني ضربة طير مية   خلى الرؤوس على الأرض كالبطيخ

من ثالث ضربة طير مِيّه   ....

من رابع ضربة طير ميه   ....

وهكذا إلى عشر ضربات. عشر ضربات بألف رأس، والمضحك إن هذه المبالغات انتقلت إلى أذهان ممجدي الثوار، فحققوا بالأحلام والأوهام والأماني ما لم يتحقق في الواقع، ففي تمجيد أحد قادة ثورة ال 1936 كانت أخته تغرد وتردد:

من أول طَلَقْ نزّل طومبيلِ

من ثاني طلق نزّل مليونا

أي أنه بطلقة واحدة قضى على جميع راكبي حافلة (أوتومبيل) من جنود العدو، أما الطلق الثاني فقضى به على مليون منهم.

بالطبع لم تقصد تلك المرأة تلك الأعداد بشكل دقيق، ولكنها أرادت أن تُظهر بطولة أخيها من ناحية وهي مقيدة بالوزن والقافية بحسب ما تمليه عليها نغمة (على دلعونا) التي كانت هي السائدة في غناء تلك الأوقات.

المطالعة هوايتي

منذ نعومة أظفاري كنت مغرمًا بالمطالعة، وكنت في المرحلة الثانوية معروفًا بين الطلاب بأنني أكثرهم مطالعة وأحرصهم على استغلال حصة المكتبة استغلالًا صحيحًا.

وفي المرحلة الثانوية كنت أستعير الكتب من مكتبة المدرسة بالمقدار الذي يسمح لي فيه المعلم المسئول عن المكتبة، ولم يكن يسمح إلا بمقدار محدود منها، فكنت ألجأ إلى المكتبة العامة _مكتبة بلدية نابلس_ فأقضي فيها الساعات بشكل شبه يومي. وكانت كتب الأدب عمومًا والشعر خصوصًا، وكذلك الروايات هي أكثر ما يجذبني إلى القراءة، وفي الصف الأول الثانوي كنت قد قرأت لجورجي زيدان عشرين رواية، وهي التي عرفت بروايات تاريخ الإسلام، وعندما تتوفر عندي بعض النقود فإنني أشتري بها كتابًا أو مجلة.

على أن محفوظي من الشعر كان وما زال موضع تعجب الآخرين. وكعادة الناس في ولعهم بالمبالغة كان يتردد أنني أحفظ مليون بيت من الشعر، مع العلم أنه من المشكوك فيه أن يكون ديوان الشعر العربي يحتوي على مليون بيت. وعندما أُسأل عن حقيقة الرقم فإنني أقدّر محفوظي ألفًا أو ألفين من أبيات الشعر العربي، وهذا في الحقيقة رقم غير بسيط.

في دورات المنهج الجديد التي كانت تقام لمعلمي اللغة العربية، وكنت أحد المحاضرين فيها، كان الزملاء تصيبهم الدهشة من أن كل مطلوب من الشعر يجدونه محفوظًا عندي فيسألني بعضهم: أليس عندك هموم؟ أليس لك في هذه الدنيا مشاكل؟ فأجيبهم: بلى، عندي هموم ولي مشاكل. ولكن موهبة حفظ الشعر قد تكون الموهبة الوحيدة التي أتمتع بها.

مؤامرات على الإسلام

كانت دول الاستعمار وخاصة بريطانيا تبلور المؤامرة ضد الوحدة الإسلامية تتضمن العمل الجاد على نزعها من الأذهان وإحلال الرابطة القومية محلها، فدعا وزير الخارجية البريطاني سنة 1945 إلى إنشاء جامعة الدول العربية واستجاب له ملك مصر وملك الأردن وملك السعودية وملك اليمن وملك المغرب وملك العراق وكلهم كان وثيق الارتباط بالإنجليز، والهدف من إنشائها هو أن يتعامل العرب مع

قضاياهـم عمومًـا والقضيـة الفلسـطينية بشـكل خـاص باعتبارهـا شـأنًا عربيًـا لا علاقة لغير العـرب بـه.

وفي السـياق نفسـه أنشـأت وزارة الثقافـة والإعـلام الكويتيـة عنـد اسـتقلال الكويـت سـنة 1961 مجلـة العـربي التـي كانـت سياسـتها الواضحـة الترويـج للحيـاة الاجتماعيـة الغربيـة في كل شيء وعـلى الأخـص في زي النسـاء وحريـة اختلاطهـن بالرجـال، وكان كل عـدد مـن المجلـة يحتـوي عـلى صـورة فتـاة سـافرة ومتبرجـة لتوحـي للقـارئ والقارئـة بـأن هـذا هـو النمـوذج الأمثـل للفتـاة العربيـة. بالإضافـة إلى اسـتعدائها القـارئ العـربي عـلى الأعـراق غير العربيـة مـن الشـعوب الإسـلامية وخاصـة الأتـراك والفـرس وكان أول رئيـس تحريـر لهـا أحـد زعـماء حركـة التغريـب في مـصر وهـو الدكتـور أحمـد زكـي.

لقـد انطلـق الحـماس للعروبـة مسيّسًـا ومزيَّفًـا وموجهًـا في العـالم العـربي كلـه، يصاحبـه اسـتعداء مـدروس ضـد الشـعوب الإسـلامية غـير العربيـة وعـلى الأخـص الفـرس والأتـراك. وبـدأت عمليـة التزييـف الكـبرى للتاريـخ فحـوّل المـزورون كل مجـد للإسـلام والمسـلمين إلى مجـد للعـرب والعروبـة، فالفتوحـات الإسـلامية صـارت في الكتـب المدرسـية عـلى وجـه الخصـوص فتوحـات عربيـة، ومعركـة القادسـية لم تعـد معركـة بـين الإسـلام والمجوسـية، بـل أصبحـت في الكتـب المدرسـية معركـة بـين العـرب والفـرس وأنهـا كانـت نـصرًا للعـرب عـلى الفـرس.

والدولـة العثمانيـة أصبحـت تقدَّم للطلاب بصورة اسـتعمار تركي لأمة العرب.

واعتـزاز الشـاعر العـربي بقومـه خاصـة في العـصر العبـاسي أمـر محمـود واعتـزاز بشـار بـن بـرد وأبي نـواس وأمثالهـما بأصلهـم الفـارسي أو الرومـي شـعوبية مرفوضـة.

والعلـماء والقـادة والكتـاب والشـعراء المسـلمون لم يعـودوا يحملـون اسـم الإسـلام، بـل لَبِّسـوا الجنسـية العربيـة سـواء مـن كان منهـم عربيًـا وهـم القلـة ومـن كان فارسـيًا أو روميًـا أو بربريًـا أو مـن أي عـرق آخـر، وهـم الكثـرة منـذ مطلـع العـصر العبـاسي.

كانـت كـبرى المـدارس في نابلـس حتـى منتصـف السـبعينات هـي المدرسـة الصلاحيـة

الثانوية وهي باسم صلاح الدين الأيوبي البطل الإسلامي العظيم الذي هزم الجيوش الصليبية في حطين. صلاح الدين ـكما هو معلومـ كان كرديًا ولكن العرقية لم تكن مهمة في عصره، المهم أنه كان مسلمًا. ولكن أمام مدخل المدرسة تجد لوحة حجرية نقشت عليها معلومات عن صلاح الدين، ونجد الذي كتب المعلومات يعلل جهاد صلاح الدين بأنه دفاع عن العرب لأن قلبه أُشْرِب بحب العرب.

وكان الهدف واضحًا، إنها معركةٌ ترمي إلى طمس معالم الإسلام، وفي هذا المجال نشط مفكرون في إنشاء أحزاب قومية أو اشتراكية أممية.

* فأنشأ أنطون سعادة الحزب القومي السوري سنة 1932.

* وأنشأ ميشيل عفلق بالتعاون مع صلاح الدين البيطار، حزب البعث العربي، سنة 1947.

* وأنشئت حركة القوميين العرب في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، وكان الدكتور قسطنطين زريق، الأستاذ في الجامعات اللبنانية، المنظِّر الأول للقومية العربية إلى أن مات سنة 2000.

* وأنشئ الحزب الشيوعي في لبنان سنة 1924 وظل جورج حاوي المولود سنة 1938 أكبر رعاته.

هذه الأحزاب أنشئت في فترات متقاربة، بعد إقدام الزعيم التركي مصطفى أتتورك سنة 1924 على إلغاء الخلافة الإسلامية وإحلال الدولة العلمانية محلّها ومحاولة طمس معالم الإسلام وكل معلم عربي في تركيا.

واحتل المستعمرون الغربيون بلاد العالم الإسلامي كله، فشجع الأحزاب القومية المختلفة المنسلخة عن الإسلام والهدف الاستراتيجي المدروس منها هو سد الطريق أمام أية محاولة جادة للعودة إلى الدولة الإسلامية الواحدة.

لقد أعطت الأحزاب القومية والشيوعية لنفسها صفة الجد عندما رفعت

شعارات معاداة الاستعمار وأعوانه في العالم العربي والتغني بالقومية العربية وأحلام قيام الدولة العربية (من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ومن جبال طورس إلى البحر الأبيض المتوسط)، ثم غيروا اسم الخليج الفارسي ليصبح الخليج العربي، وصار التلفظ باسم الخليج الفارسي يرقى إلى درجة الخيانة للأمة العربية.

في مدرستنا قريوت وقف طالب من طلاب الثانوي يردد الشعار القومي بطلب من أحد أساتذته أمة عربية واحدة، من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي، ومن جبال طورس إلى البحر الأبيض المتوسط. فصاح به الأستاذ: اخرس قطع الله لسانك، الخليج العربي وليس الفارسي.

كان هذا شعار القوميين العرب، أما البعثيون الذين هم قوميون أيضًا فكان شعارهم: أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة.

وكان البعض يتصورون أن الرسالة الخالدة هي رسالة الإسلام، وقد أدخل الحزب هذه العبارة بشكل مقصود، فالناس لم ينفكوا يحنون إلى الإسلام والدولة الإسلامية ويستهويهم حزب وطني لم يقطع روابطه بالإسلام، فتصوروا أن حزب البعث لم يقطع هذه الروابط بدليل الشعار الذي يردده، وبإيماءات أخرى منها أن ميشيل عفلق عبّر ذات يوم في مقابلة صحفية عن احترامه للإسلام باعتباره أحد الروابط التي تجمع أبناء الأمة العربية، وأنه كان عامل بعث الأمة ونهضتها وقوتها في عصور ازدهاره الأولى، ولقد أثار كلامه هذا حفيظة المسيحيين في سوريا ولبنان وفلسطين ورموه بالإسلام، وسموه _احتقارًا_ محمد عفلق، ولم يعجب المسلمين وعدوا كلامه مصيّدة للشباب المسلم ونفاقًا وضحكًا على الذقون، باعتبار أن النشرات الداخلية لحزب البعث لا تأتي على ذكر الإسلام وتفسر الرسالة الخالدة لمنتسبي الحزب بأنها دور الأمة العربية في تنمية الحضارة الإنسانية.

وإذا كان للبعثيين شعار موهم بمقاربة من الإسلام فالقوميون العرب كانوا في مجملهم يقطعون الروابط بالإسلام، وهذا ما أدى إلى انشقاق في صفوف القوميين العرب الفلسطينيين سنة 1968 عندما استقل أحمد جبريل بالقوميين الذين لا يقطعون الروابط بالإسلام وشكل منهم الجبهة الشعبية – القيادة العامة.

أما الشيوعيون فكانوا يشنون حربًا لا هوادة فيها ضد الإمبريالية ولا يخفون استهانتهم بالأديان.

كان الحزبان الدينيان الرئيسان في فلسطين: الإخوان المسلمون وحزب التحرير وكلاهما لم يكن يرفع أية شعارات مناوئة للحكومة الأردنية التي كانت في نظر الشعب الفلسطيني حكومة العمالة والخيانة والتعاون المستور مع العدو الصهيوني الغاصب. وكان للإخوان المسلمين مقرات في ضفتي الأردن، بغض طرف من قبل الحكومة الأردنية التي كانت تستأصل أي نشاط سياسي مناوئ لها، وهذا جعل النظرة إلى هذين الحزبين تتسم عند الشباب (التقدميين) بقدر كبير من الريبة والاتهام.

حدثنا زميلنا المرحوم جمال الكايد، وكان مدرِّسًا في المدرسة الصلاحية في فترة الاضطرابات والمظاهرات عام 1956 أنه كان واقفًا ذات يوم أمام مدخل غرفة المعلمين في الصلاحية والطلاب يتظاهرون ويرددون شعارات الوحدة العربية وشعارات التهديد بإزالة إسرائيل، وكان الأستاذ جمال من الإخوان المسلمين، وعندما وصلت المظاهرة إلى نقطة قريبة منه أخذ الطلاب يهتفون: لا تحريري ولا إخوان، فليسقط حزب الإسلام.

صورة اجتماعية وسياسية

في أحد الأيام سنة 1957 خرجنا نحن أبناء قرية جالود من بيوتنا نريد التوجه إلى مدرسة قريوت حيث نتلقى الدراسة فوجدنا أن طرقات القرية مليئة بالجنود والسيارات الكبيرة والصغيرة وبعضها سيارات لاسلكي وبعضها سيارات نقل تتسع الواحدة منها لعدد كبير من (الأسرى) ووجد الأولاد بعض السجائر ملقاة على الأرض وكانت من نوع رخيص يسمى (لولو) فتهافت الكبار منهم على التقاطها وعدوها غنيمة غير متوقعة، ثم نادى منادٍ من الجيش يأمر جميع الذكور من أهل القرية بالخروج من بيوتهم والتوجه إلى ساحة القرية، من أجل تفتيش المنازل بيتًا بيتًا، وانصاع الجميع للأمر بطبيعة الحال وهناك عرفنا سبب الحملة، فقد جاءت إخبارية للحكومة الأردنية بأن أحد قادة الحزب الشيوعي (إبراهيم بكر) مختبئ في جالود.

وقف الجنود يتهددون ويتوعدون ويقولون: إن أحدكم يخبئ هذا الفارّ عند زوجته وأخذوا يسألون عن جوازات سفر أو هويات وكان عدد كبير من أهل القرية لا يملك هوية أو جواز سفر لأن كليهما يكلف رسومًا ومشاوير إلى نابلس، فأخذ الجنود يهددون بتقييد الرجال ووضعهم في السيارات التي تقف على أهبة الاستعداد.

والرجال يحلفون أن ذلك الشخص غير موجود عندهم. كان الطاعنون في السن أجرأ على مناقشة الجنود؛ لأن الشيوخ كانوا بمنأى عن عقوبة الضرب. جاء أحد الشيوخ المعروفين بروح النكتة ونظر إلى السيارات فقال للجنود مستهزئا: ما شاء الله، أعطاكم الله العافية، متى احتللتم هذه المستعمرة؟ فقال له أحد الضباط اسكت يا ختيار وإلا أرسلتك إلى الجفر (سجن صحراوي في الأردن يضرب به المثل في السوء) فقال لهم شيخ آخر: الجفر خير من عمان. وللحقيقة: لم يضربوا أحدًا من القرية ولم يعتقلوا وكان قائد الحملة فلسطينيًا برتبة لواء (اللواء صادق الشرع)، وكان مقتنعًا بأن الإخبارية كاذبة.

وفيما يبدو أنه ردٌّ للجميل على معاملة الجنود لأهل القرية معاملة اعتبرت حسنة بشكل غير معتاد، هبَّ بعض أهالي القرية إلى تجهيز فطور للجنود، ذبح لهم الشيخ خروفًا وذبح لهم آخرون الدجاج وخبزوا لهم خبز الفطير الشهي، وكان والدي ممن ذبح الدجاج وخبزَ الفطير فأفطروا على جوع وغادروا شاكرين.

أصبحت النظرة إيجابية إلى الأحزاب الإسلامية منذ نجاح الثورة الإسلامية في إيران في شباط 1979، ففي الانتخابات البلدية التي جرت سنة 1976، في عهد الاحتلال الإسرائيلي المباشر كان القبول الشعبي للقوميين والشيوعيين، ولم يحقق الإسلاميون أية إنجازات تذكر إلى أن انتصرت الثورة الإسلامية في إيران في شباط سنة 1979 فارتفع فجأة قدر الإسلاميين حتى إن كتلة الإخوان المسلمين في جامعة النجاح اكتسحت أصوات المنتخبين وشكلت المجلس وحدها.

ثم كان نشوء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في مطلع عقد الثمانين من القرن الماضي وبعد ذلك نشوء حركة حماس أوائل عام 1988 كل ذلك أدى إلى تغيير المعادلة

في فلسطين وبدأت الصحوة الإسلامية تطبق العالم الإسلامي وتنتشر بين المسلمين في كل مكان.

أعود إلى عقد الخمسينات من القرن الماضي وإلى الحكم الأردني للضفة الغربية في تلك الفترة. فقد كان حكمًا غاية في الدكتاتورية، لا يسمح بأي شكل من أشكال المعارضة، إلا أن الطبيعة العشائرية للوضع في الضفتين، خاصة في الضفة الشرقية وحاجة الحكومة إلى استرضاء الجميع، خاصة أهالي شرقي الأردن، جعل سياستها تتسم بالاسترضاء وتجنب غضب العائلات والعشائر ذات النفوذ، وبذلك كان من النادر تطبيق حكم الإعدام حتى للجرائم التي يتوجب فيها الإعدام كالقتل المتعمد، وكان يصدر حكم الإعدام لمثل هذه الحالات ثم يجري تخفيض العقوبة فيما بعد. وكانت الحكومة تشتد جدًا في حالات السرقة والاعتداء على الشرف وما أشبه ذلك.

كان رجال الدرك الأردنيون الذين يتمركزون في المخافر لهم سطوة كبيرة وكان أبغض شيء إلى الناس منظر الفارس وفرسه.

فمن عادة رجال الدرك أنهم ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتيهم مخبر بأن عراكًا ودمًا وقعا في مكان ما، فيعدون ذلك بشارة وفرجًا، فيطيرون إلى هناك يبيتون الليالي ويقضون الأيام عندما يكون العراك حاميًا، يأكلون أشهى الطعام على حساب أهل المشكلة ويأتيهم أغلى أنواع التبغ ويضربون المتهمين أمام الناس وأمام زوجاتهم وهم ما زالوا متهمين لم تثبت عليهم التهمة، وقد شاهدت بأم عيني بعض هذه المشاهد في قريتنا لمتهمين بسرقة جدي، وتندر الناس بالكثير من أمثالها في القرى المجاورة.

إلا أن الحكومة كانت تحرص على أن يبقى حبل الوصل بينها وبين الشعب قائمًا، فغير مرة أمر الملك الحسين بتبييض السجون في مناسبات معينة، فخرج منها من يستحق الخروج ومن لا يستحقه، وقد حصل تبييض للسجون عام 1963، فخرج منها قاتل عمد من قرية مجاورة أعرفه، فقد كان يأخذ أرضًا من والدي مزارعة، وقد وقع خلاف بينه وبين قريب له من بلدته فوسوس له الشيطان فقتله، ودخل السجن، وقبل أن تصل قضيته إلى القاضي صدر العفو الملكي، فجئت إلى دار عمي فوجدته ضيفًا وإذا هو قائم يصلي!

لقـد تنـدر النـاس بحـالات شـملها العفـو كان ينبغـي ألا يكـون لهـا مصـير إلا الإعـدام، ومنهـا: رجـل مـن إحـدى قـرى نابلـس قتـل أبـاه؛ لأنـه رفـض تزويجـه، ودفنـه تحت كـوم مـن حجارة جدار ليوهـم أن الجدار سقط عليه فقتله، فلـم يمكـث في السـجن إلا أيامًـا! ومنهـا رجـل قتـل رجـلًا لخلاف بينهـما عـلى وظيفـة مدير مخيـم، فشـمل العفـو القاتـل، فتقدم قريـب المقتـول وكان شرطيًا في السـجن الـذي سيخرج منه القاتـل، فاستل مسدسـه، وأفرغـه في رأس غريمـه، فانعقـد لـه مجلـس عسـكري للنظـر في تحديـه الإرادة الملكيـة وحكـم عليـه بالإعـدام ونفـذ فيـه الحكـم بشـكل فـوري!

تساءل النـاس وقتهـا: هـل يحق للحاكـم أن يعفـو عـن قتلـة أو عـن مرتكبـي مـا دون القتـل مـن الجرائـم؟ أليـس واجـب الحاكـم أن يحكـم بالعـدل وفـق شريعـة الله وأن ينفـذ الأحـكام؟

سـألت معلـم الشريعـة في مدرستنا وهـو المرحـوم الشيخ محمـود الطاهـر: يـا أسـتاذ، هـل تبييـض السـجون جائـز في شرع الله؟ فقـال: كلا، إن الأمـة كلهـا آثمـة إذا رضيت بذلـك.

الفلاحة قبل عصر التكنولوجيا

اقتصر عمـلي طيلـة العمـر عـلى تدريـس اللغـة العربيـة. وكثيرًا مـا كان طـلاب المدينة بشـكل خـاص يقـرأون عبـارة «التخلـص مـن نـير الاسـتعمار» الـذي كان مفروضًـا عـلى رقـاب الشـعوب المستعمَرة، فيسـألونني عـن معنـى (نـير) فـأشرح لهـم معنـى الكلمـة شرح عـالمٍ بهـا، فالنـير مـن أدوات الحراثـة قبـل عـصر التراكتـورات وهـو خشـبة طويلـة غليظـة يوضـع طرفهـا عـلى رقبـة إحـدى دابّتـي الحراثـة والطـرف الآخـر عـلى رقبـة الدابـة الأخـرى ويربـط كل مـن الطرفـين ربطًـا محكـمًا وعـلى نحـو معـيّن، وفي وسـط النـير تعلـق «الشرعـة» وهـي عبـارة عـن حبـل مـن الجلـد مجـدول ومطـوي طيتـين يربـط بـه طـرف المحـراث كـي تجـره الدابتـان عندمـا تمشـيان يُعرَفـان ب»الفـدّان»، وهمـا ثـوران أو بقرتـان أو ثـور وبقـرة أو بقـرة وحمـار. وتبـدأ الدابتـان بجـر المحـراث فتنغـرس «السِّـكَّة» في الـتراب فتشـق الأرض باتبـاع أوامـر الحـرّاث الـذي يكـون خلـف الفـدان ممسـكًا بالعـود مـن مقبـض خـاص يسـمى

(الكابوسة) وفي يده عصا يبلغ طولها ثلاثة أمتار تسمى «المِنْساس» ينخس بها الفدان كي يحثه على المشي. وكانت الأرض تُحرث إما لزراعتها أو لتهيئتها لاستقبال المطر، وهي عملية شاقّة وتستغرق وقتًا طويلًا وقد جربتها قليلًا في أرض والدي، ولم أُبدِ فيها مهارة ولم يكن لي فيها هواية.

وأسوأ من الحراثة وأشد تعبًا كان الحصاد. الحصاد يكون في أول الصيف وفي عز اشتداد الحر وينطلق الحصادون إلى الحقول قبل طلوع الشمس، وما تطلع الشمس عليهم إلا وقد قطعوا في العمل شوطا. ويستمر الحصاد حتى غروب الشمس أو ربما بعد الغروب بقليل، وليس هنالك استراحة إلا دقائق للفطور ومثلها للغداء، ويستمر العمل زحفًا أو بظهر منحنٍ كانحنائه عند الركوع للصلاة أو أشد انحناءً وبيد تحمل المنجل وأخرى تمسك بالقش الذي يقصه المنجل، ثم يوضع ما يملأ الكف (الشِّمال) منه على الكوم المسمى (الغُمُر) والبعض ينطقونه (الغِمِر) بكسر الغين والميم، وهكذا دواليك طيلة النهار ولأيام تتفاوت طولًا بين فلاح وآخر بحسب ما يزرع كل منهم من الأرض. يحتاج بعضهم إلى شهر كامل متواصل ليس فيه أية عطلة لا جمعة ولا غيرها، والمتدينون منهم يتوجهون إلى أقرب مسجد لأداء صلاة الجمعة وما أن ينطق الإمام بعبارة: السلام عليكم ورحمة الله، المؤذنة بالخروج من الصلاة حتى يسارع الحصادون إلى لبس أحذيتهم والعودة إلى الحقل مسرعين ولسان حالهم «إلذي عليك عليك» ومعناه أن ما لا بد من إنجازه فالحكمة أن يشمر المرء له ويبذل كل جهده لكي ينتهي منه بأسرع وقت، فيستريح. وقد يستمر العمل على هذا المنوال شهرين أو أكثر إذا كان الزرع كثيرًا.

خبرني المرحوم والدي أنه في كثير من السنوات كان الحصاد يبدأ من منتصف حزيران، ويتواصل إلى نهاية آب.

ويأتي بعد الحصاد نقل الزرع إلى البيدر وعادة ما يكون النقل على عاتق الأولاد، وكنت أطَّلع بهذا الدور فأنقل القمح والسمسم اللذين كانا المحصول الرئيس لأسرتي.

أما الدراس (هي أن يداس الزرع تحت حوافر الدواب إلى أن يصبح تبنًا مختلطًا

بقمح)، فكانت مهمة تقع على عاتق الأولاد في الأساس. كان مقدار من الزرع يطرح من الكومة الكبرى المسماة البيدر على شكل قرص كبير يسمى (الطَّرحة) على الأرض وتسمى الأرض كذلك البَيْدَر ثم يربط ما يتيسر من الدواب من حمير وبقر وأقله رأسان وبتوجيه الدرّاس (هو الشخص الذي يدور مع الدواب من خلفها ويظل يحثها على الدوران ويضربها ضربًا خفيفًا بعصا تكون في يده دائمًا. تدور الدواب على الزرع كل ساعات النهار. الصبيان يريِّح بعضهم بعضًا وتحتاج الطرحة إلى ما لا يقل عن ثلاثة أيام حتى يتم تقطيع الزرع إلى أجزاء صغيرة ناعمة، ويسمى الزرع إذا بلغ هذه المرحلة (الطِّيّاب)، وبعد ذلك تأتي عملية (الذَّراة)، وهي فصل التبن عن الحب بتحريكه إلى أعلى عندما يكون ثمة هبوب للرياح بأداة خشبية كبيرة تكون على شكل شوكة وتسمى «المِذراة» فيتطاير التبن الخفيف ولا يبقى إلا الغليظ ثم ينقى الحب نهائيًا بالكُربال، وهو كالغُربال إلا أن فتحاته أوسع، ومهمته تكون في البيدر، في حين أن مهمة الغربال تكون في البيت، وبه ينقّى القمح نهائيًا قبل أن يُرسَل إلى الطاحونة. وهي آخر عملية في سلسلة عمليات الزراعة الطويلة والمرهِقة وضئيلة المردود إذا قورنت بالتعب الذي تتكبده الأسرة كلها، الرجال والنساء والبنين والبنات الذين هم في سن العمل.

وبعد الانتهاء من تلك الوجبة يطرح مقدار جديد من الزرع وتبدأ عملية دراس جديدة وهكذا.

وأثناء دراس القمح يقع موسم آخر لا يحتمل التأجيل وهو قطف اللوز ولا بد من تقسيم العاملين إلى فريقين: فريق عليه قطاف اللوز وكان كثير من أهل قريتنا يملكون شجر اللوز وهو عمل شاق أيضًا، وليس للفلاحين عمل غير شاق، وبعد الانتهاء من اللوز تبدأ عملية قلع السمسم ثم نقله إلى مكان غالبًا ما يكون سطح منزل وتصفيفه واقفًا كي تخترقه أشعة الشمس. ويستمر تعريضه للشمس أسابيع إلى أن يجف تمامًا وتتفتح أكمامه، وبعد ذلك تجري عملية استخراج السمسم منه. ويستخرج السمسم على دفعتين: المرة الأولى تسمى: كتّ السمسم وترفع الربطة منه باليد مقلوبة وتُضرب بعصا فيتساقط السمسم على بساط مفروش ويظل حاملها يضربها حتى لا تعود يسقط منها شيء فتعاد إلى مكانها ويغيب المزارع عن غمور السمسم أيامًا، ثم

يعـود إليهـا (ليحلِّفهـا) أي: ليفتـش عـما عسـاه بقـي فيهـا مـن بقايـا السمسـم.

وخطـوات زراعـة السمسـم واسـتخراجه أسـهل مـن خطـوات القمـح والشـعير والعـدس والحمـص، وآخـر مواسـم الفـلاح هـو موسـم الزيتـون وهـو أكثرهـا فائـدة وأعظمهـا بركـة لمـن يملكـه ويكـون في النصـف الثـاني مـن الخريـف.

صور من خيبة رجاء الفلاح

كثـيرًا مـا كان الفلاحـون يتعرضـون لنكبـات اقتصاديـة إمـا قضـاءً وقـدرًا أو بفعـل العـداوات والخلافـات أو لأخطـاء غـير مقصـودة.

فمـن نكبـات القضـاء والقـدر أن يـزرع الفـلاح أرضـه بالقمـح ثـم ينحبـس المطـر فلا تُنتج بعـد التعـب شيئًا يذكر.

ولأن فـترة حـرث الأرض بهـدف الزراعـة طويلـة، وقـد تحـول الأمطـار المتواصلـة في بعـض السـنين دون إتمـام الزراعـة في الوقـت المناسـب أي؛ في شـهري كانـون، واضطـرار المـزارع إلى أن يـزرع في شـهر شـباط، فتكـون زراعـة متأخـرة، ويـأتي المحصـول غـير جيـد.

لذلـك كان المزارعـون الذيـن يملكـون أرضًـا واسـعة يبكـرون في زراعـة قسـم منهـا قبـل بـدء موسـم الأمطـار، وبالتحديـد في شـهر تشرين أول، ويسـمى هـذا النـوع مـن الزراعـة «العَفـير» وهـذه مغامـرة، لأنـه كثـيرًا مـا يصـدف أن أول موسـم الأمطـار يكـون شـحيحًا، فتبتـل الأرض ابتـلالًا غـير كاف لإنبـات الحـب الممـزوج بالـتراب، وتتأخـر في الـري، فيتلف الحـب كلـه وتحتـاج الأرض إلى حراثـة مـن جديـد فيلـزم الفـلاح بالتـالي أن يبـذر ثانيـة، مع العلـم أن توفـير البـذار كان أمـرًا عسـيرًا عنـد الكثيريـن، وهـؤلاء منهـم من لا يسـتطيع توفير البـذار لجميـع أرضـه فيـزرع قسـمًا منهـا ويهمـل مـا تبقـى.

فالزراعـة المضمونـة هـي التـي تـأتي بعـد أن ترتـوي الأرض «زراعـة الـرَّي» وآيـة الـري أن تنـزل السـكة في الأرض فـلا تصـل إلى الـتراب الجـاف.

ومـن الضربـات التي كان يتلقاهـا الفـلاح قضـاء وقـدرًا الآفـات التي تحل بالقمـح

وعلى الأخص آفة «الحُمْرة» التي تضرب الزرع في أوان نضجه فتترك القمح مريضًا نحيلًا لا قيمة له.

أما الشجر، وهو الزيتون واللوز، فأكبر آفاته ضعف الإنتاج «المَحل»، وما من فلاح إلا وله مع ضربات القضاء والقدر ذكريات:

منها أن والدي ضَمِن حقلين كبيرين من السمسم من شيخ القرية هو واثنان من المزارعين، على أن يؤدوا لشيخ القرية مقدارًا معلومًا منه، ويكون الباقي ربحًا لهم، وبعد العناء الشديد الذي كان لي نصيب وافر منه، على الرغم من أنني كنت صغيرًا، وبعد أن تم تنسيق غمور السمسم على البيادر وأصبحت جاهزة لاستخراج الحب من الأكمام وتسمى العملية «كَتّ السمسم»، جاءت أمطار مبكرة فجرفت معها جزءًا كبيرًا من المحصول. فضيعت علينا ربحًا وفيرًا، إلا أننا جنينا _بحمد الله_ ربحًا حسنًا على الرغم من ذلك.

وكان الأدهى والأمَرّ ما يتعرض له الفلاح من نكبات بشرية بسبب العداوات كقطع الأشجار وحرق بيادر القمح ومظاهر أخرى من التخريب، أو اللصوصية كسرقة الزيتون أو اللوز عن الشجر أو عن أسطح الدور، وسرقة القمح من البيوت أو من البيدر، وكل ذلك كان كثيرًا ما يحدث.

لقد تعرض والدي لضربتين اقتصاديتين على أيدي البشر ولكن بشكل غير مقصود، وضربة ثالثة بشكل مقصود، فلم تخرج من فمه كلمة سوء بحق الفاعلين ولم يطلب أي تعويض إلا من رب العالمين.

الحادثة الأولى وقعت في النصف الثاني من عقد الخمسينات من القرن الماضي: ففي إحدى سنوات تلك الفترة اشترك والدي ومزارع آخر من القرية في زراعة أرض واسعة وكان الاتفاق أن يقتسما مناصفَة التعب والمحصول. أما التعب فقد اقتسماه بالفعل وهو تعب شديد وعلى مدار سنة كاملة من حراثة وتعشيب وحصاد ونقل الزرع إلى البيدر، وعند هذه المرحلة وقعت الكارثة: جاء إلى البيدر صبي فقير فأراد أن يحرق مقدارًا صغيرًا من السنابل ليحصل على القمح المحمَّص «القليّة»، ويبدو أنه

كان جائعًا، وأخذ المقدار الذي يريده في غياب أهل البيدر، وأشعل به النار، ولأنه جاهل لم يبتعد عن البيدر مسافة كافية، فوصلت النار إلى الزرع ودبت فيه بسرعة هائلة وانتبه الناس فهرعوا إلى الحريق وحاولوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه بإحضار الماء على عجل وسكبه على الزرع، لكنهم لم يُنقذوا شيئًا يُذكر، وهذا الشيء الضئيل الذي أنقذوه كان نصف حبه قد أصابته النار، فصنعنا بحصتنا البسيطة البرغل.

وقعت هذه المصيبة في البيدر المشترك، أما بيدرنا الخاص بنا فكان في موقع آخر.

والحادثة الثانية كانت في بيدر لنا في قرية قريوت سنة 1960: فإن مزارعًا من قريوت كان يزرع قطعة أرض لنا بنصيب معلوم، وكان ذلك المزارع فقيرًا وعائلًا ولم يكن له أية أرض خاصة به، وبعد عناء سنة كاملة تكبده المسكين، وبعد أن أصبح الزرع على البيدر، وبينما كان جاره في البيدر يعمل في العملية التي تسمى «الذَّراة»، وكان يعمل ليلًا على ضوء مصباح يُشعل بالكاز، أخذته سنة من نوم، فانقلب المصباح بملاصقة بيدرنا والكل نائم، وما صحوا إلا والنار بدأت تلتهم البيدر. وتجمع الناس لعلهم يُنقذون منه شيئًا، ولكن الماء كان بعيدًا، وكان كل واحد همه أن تبتعد النار عن بيدره، فالتهمت النار الزرع كله، وشاهدنا النار من قريتنا وعلمنا أنها في البيادر، فخف أبي إلى قريوت ليرى، وكان خائفًا أن تكون النار في بيدره، فوجدها في بيدره فعلًا، ولم يحدث بينه وبين المتسبب الفقير حتى مشادة كلامية، وسارع الخيِّرون من أهل قريوت فجمعوا تعويضًا لشريكنا المسكين، أما والدي فكانت حالته حسنة، وكان لنا بيدرنا الخاص بنا في جالود، وفي كلتا الحالتين لم يخطر ببال أبي أن يرفع إلى المحكمة دعوى تعويض من الفاعلين الفقيرين غير المتعمِّدين، بل احتسب الخسارة عند الله.

أما الضربة الثالثة فهي أننا وجدنا ذات صباح أشجار التين القريبة من بيتنا مقطوعة، فسارع أبي إلى «المخفر» يبلِّغه، فأمروه أن يسبقهم فيحضِّر لهم الدخان والغداء من الدجاج البلدي والشعير لخيلهم، فصدع بما أُمر، وجاء رجال الدرك وتغدوا ثم سألوا المشتكي: هل لك أعداء في البلد؟ فقال صادقًا: لا.

وسألوه: هل تتهم أحدًا؟ فقال صادقًا: لا.

لكـن شـيخ القريـة وصاحـب النفـوذ فيهـا، أعـرب عـن شـكوكه حـول شـخص معـين، وعـلى الرغـم مـن أنَّ والـدي لم يتهمـه، إلا أن الفرسـان (الـدَّرَك) أخـذوا بأقـوال الشـيخ، وأنزلـوا المتهـم إلى مـسرح الجريمـة ليطابقـوا قدميـه بالآثـار التـي تركهـا المجـرم، ووقفنـا نحـن الأولاد عـلى الطـرف المـشرف مـن الأرض ننظـر إلى ذلـك المسـكين وهـو يُضرَب ومع كل ضربـة يقـع على الأرض ثـم يقـوم ليتلقـى ضربـة أخرى، ومشـاعر الأسـى باديـة عـلى وجـه والـدي؛ لأن ذلـك الشـخص تجمعنا بـه وبأهلـه تقاليـد صداقـة، ولا نتصور أنـه يقـدم عـلى الإضرار بنـا. وفي اليـوم التـالي توجـه الاثنـان؛ والـدي وذلـك المتهـم إلى نابلس فأسـقط والـدي التهمـة، وظلـت الحادثـة ضـد مجهـول، ولم نعـرف أبـدًا مـن الجـاني ولا مـا دوافعـه؛ لأنـه لا عـداوات لنـا في قريتنـا ولا في غيرهـا.

استقلالية الفلاح في عيشه

يعيـش الفـلاح الـذي يملـك الأرض حيـاة اسـتقلال، فهـو لا يشـعر بمنَّة لأحـد عليه إلا لربـه الـذي رزقـه الأرض وأنـزل لـه المطـر وأعطـاه الصحـة والعافيـة تعينـه عـلى مشـاق هـذه المهنـة، وهـي مهنـة شـاقة بالفعـل.

الفـلاح مـن النـادر أن يشـحد إلا إذا كان لا يملـك أرضًـا أو مـالًا، وهـو غالبًـا في مثل هـذه الحالـة مـا يفضـل أن يشـتغل عامـلًا أو حتـى أجـيرًا عنـد أحـد كبـار ملاكـي الأرض، وهـذا أشرف لـه مـن السـؤال. فأقـلّ فئـات المجتمـع حاجـة للسـؤال هـم الفلاحـون.

أضرب مثلًا على نمط معيشة أسرتي:

كان والـدي يعـد مـن متوسـطي الحـال: وكنـا ننتـج القمـح والشـعير واللـوز وأحيانـا العـدس وأحيانًـا السمسـم، وكان لدينـا بقـرة وأحيانًـا اثنتـان، فعندنـا السـمن البلـدي والجميـد (الإقـط) البلـدي والحليـب الطـازج في شـطر طويـل مـن السـنة، وكنـا أحيانًـا نصنـع الجبنـة وكلـما تجمـع لدينـا مقـدار منهـا بعنـاه فيؤمـن لنـا سـيولة نقديـة.

وكنـا نـزرع البنـدورة في شـهر نيسـان وهـذا دأب كل مـن يملـك ولـو مسـاحة أشـبار مـن الأرض مـن الفلاحـين، فيبـدأ إنتاجهـا في الصيـف ونظـل طيلـة الصيـف نجنـي البنـدورة

الطازجة التي لا ندفع ثمنها. وكان الفلاح يحرص على أن يزرع من البندورة أكثر مما يحتاج إليه في استهلاكه اليومي لكي يصنع رُب البندورة ويجفف قسمًا منها فيحفظها على شكل قشور تحتوي على كل المكونات الغذائية للبندورة الطازجة، كان رُب البندورة المخزون وكذلك قشر البندورة يوفر لنا مادة الطبخ إلى أن يأتي موسم البندورة التالي. وكنا نزرع البصل ونخزنه عامًا كاملًا ولم يكن يتلف، ولدينا رمان نجففه بالشمس ويبقى عندنا فترة طويلة، وكان العدس البلدي سريع النضج شهي الطعم من إنتاج أرضنا كذلك.

وكان لنا تين وعنب بكميات غير كبيرة، ونخزن من التين مجفف التين المسمى (القُطّين) ومن العنب نأكل ونصنع منه نوعين من مخزون (المونة)؛ نوع يصنع بهرس حبات العنب هرسًا جيدًا وإضافة السكّر إليه وطبخه على النار ثم خزنه في مرطبان كبير ويسمى هذا النوع طبيخ العنب، والنوع الآخر أرقى ويتم باستخلاص حبات العنب وإبقائها على حالها دون هرس وإضافة السكّر إليها، وطبخها على النار ثم خزنها، ويسمى هذا (عقد العنب) ولعل تسميته الأصحّ: معقود العنب.

فإذا جاءنا ضيف ذبحنا له من دجاجنا وطبخناه بماء نبع قريتنا الذي نحصل عليه بالمجان طبعًا والبندورة من أرضنا والسمن من بقرتنا والخبز من قمحنا وبذلك نقدم للضيف طعامًا شهيًا لم ندفع ثمن شيء من مكوناته إلا الملح، الذي كان له تجار يجلبونه على الجمال فنشتري منه ما يكفينا سنة كاملة وكذلك الأرز الذي لا تنتجه بلادنا.

وهنا يبرز السؤال التالي: كيف تزعم أن أباك كان من الفقراء وأنتم تنتجون كل ما تحدثتَ عنه؟

صحيح كل ما تحدثت عنه، ولكن المشكلة أن الإنتاج لم يكن في كل سنة غزيرًا وفيرًا، ولم تكن كمية ما ننتجه من كل الأصناف التي ذكرتها يكفي أسرة كبيرة مثل أسرتنا بل إن كثيرًا من الأصناف المنتَجة وعلى رأسها القمح كان ينفد قبل حلول الموسم التالي فنحتاج إلى الاستدانة. إضافة إلى أن الدجاج كان كثيرًا ما يحل به مرض يقضي عليه كليًا فتبقى الدار بلا دجاج سنة أو سنتين.

وكانت الدار التي ليس فيها زيت تعتبر بائسة ولو ملكت أصنافًا أخرى.

وفي الغالب الأعم لم يكن الفلاح الذي لا ينتج الزيت قادرًا على شرائه.

بالمناسبة كان أبغض أصناف الإفطار إلينا، نحن الأولاد إفطار التين في موسمه، فالأسرة التي تفتقر إلى الزيت تستعيض عنه صيفًا بالتين للإفطار مع الخبز، وشتاءً بالتين المجفف (القطين)، هذا إذا كان لديها تين، كنت أفضل أن أتناول الخبز الحاف على أن أجعل إدامه التين. من عاش تلك الفترة البائسة التي أتحدث عنها فإنه يقول: نعم الفطور الزيت والزيتون وخاصة مع الخبز الفطير وبئس الإدام التين وأسوأ منه «البسيسة» وهي أن يخلط مقدار من الطحين بمقدار من الزيت ثم يُفرك باليد كي يكون المزج تامًا ثم يؤكل مع القطين، وهي أكلة لم تكن من طعامنا.

أما في موسم اللَّبَن وهو الربيع ومعظم الصيف، فكان أبغض ما يوضع للأكل: خبز مع صحن لبن سائل (غير جامد) ومن أحسن ما يقدّم للفطور والعشاء وحتى للغداء الخبز مع الزبدة البقرية أو الغنمية الطازجة، وهذا لم يكن في متناول اليد إلا في ظروف استثنائية؛ لأن الزبدة كانت تُجمع بشكل دؤوب وبحرص تام من أجل تحويلها إلى سمن، ولم تكن تقدم، عادة، إلا للضيف.

والذي كان يملك أرضًا أكبر يجد من يدينه خاصة إذا كان صدوقًا في السداد، وكان والدي يجد من يدينه إلا أنه كان حريصًا على ألا يستدين إلا بالقدر الذي يستطيع سداده وكان يحرص على السداد كل الحرص إلا أن معيشتنا في المقابل لم تكن عيشة البحبوحة وإن لم تكن عيشة البؤس.

كثير من أهل قريتنا لم يكن له أية أرض وهؤلاء كانوا يعانون من الفاقة، إلى أن جاء الكثيرين منهم الفرج عندما فتح باب التجنيد في الجيش الأردني فأصبح للكثيرين راتب شهري، وعلى الرغم من قلته إلا أنه كان يجعلهم هم وعائلاتهم في مأمن من الجوع بل وفي حالة مادية لا بأس بها، ثم انفتح باب فرج آخر في النصف الثاني من عقد الخمسينات من القرن الماضي، وهو العمل في الكويت، فكان باب فرج كبير أدى إلى تحسن الحال في الضفة الغربية بشكل واضح.

وعندما استعرض معيشة الناس في قريتنا والقرى الأخرى وأجد أن الله يطعم الجميع ويرزق هذا من هذا، أردد قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22-23]. وأستشهد بقول ابن زريق البغدادي:

والله قسَّمَ بين الناس رزقهم   لم يخلق اللهُ مخلوقًا يضيِّعُهُ

وكان الفلاح الذي لا يملك الأرض ولم يلتحق بالجيش ولم يتجشم مشاق السفر إلى الكويت يعمل، حرّاثًا أو راعيًا أو حصادًا في خدمة من يملك، أو يشارك في الصيف في أتون (كبّارة) يجلب له مقدارًا من المال يسدد به الأساسي من حياته، وكان أهل القرى يسود بينهم التضامن فيتهادون الحاجات الضرورية ويدسون الطعام لمن يشعرون أنه بحاجة إليه وبالإجمال: إن الله تعالى يفرج كرب المحتاج.

ولم أقصد أن حياة الفلاح مثالية وأن الفلاح نموذج الصلاح، فإنني لا أتعصب لما نشأت عليه ولا أُخفي نقائص تلك الحياة ومثالب الذين عاشوها ويعيشونها.

فطبيعة حياة الفلاح جعلته بعيدًا عن المصانعة والمجاملة ودماثة الخلق والمنطق، كما أن قلبه في معظم الأحيان غير معمور بالرأفة والرحمة وهذا ما يجعل المدني يشعر أنه متميز على الفلاح، وكذلك الكرم، فللكرم حدود عند كثير من الفلاحين، وهذا ما يجعل البدوي يرى نفسه متميزًا على الفلاح في هذا المجال.

بداية عهد التكنولوجيا

كنت متوجهًا إلى المدرسة في قريوت صباح يوم من أيام منتصف الخمسينات، وفي مكان مرتفع من الطريق انضممت إلى حشد من الطلاب بعضهم في المرحلة الثانوية، وأخذنا نتأمل شيئًا جديدًا لم يره أي منا من قبل، إنه آلة تسير على أربع عجلات كالسيارة، لكنّ لها عجلين أماميين في حجم عجل الباص وعجلين خلفيين ضخمين، ولها ذَنَبٌ طويل كذَنَب العقرب وفيه عدد من السكك، ولم يخفَ على أي منا أنها آلة لحراثة الأرض بدليل السكك العديدة التي في ذنبها، إلا أننا لا نعرف اسمها، فقال لنا أحدهم: هذا التراكتور.

منذ ذلك الوقت بدأ أصحاب الأرض السهلية يحرثون أرضهم بالتراكتور، فكان خيرًا ونعمة للفلاح، وفّر عليه الوقت والجهد، إلا أن الأرض الوعرة ظلت تُحرثُ بالدواب لأن التراكتور لا يسير فيها.

وبعد ذلك جاء دور درس الزرع بالآلة، وتأخر ذلك إلى عقد الستينات وكانت المرة الأولى التي بدأنا ندرس القمح بالدرّاسة عيدًا حقيقيًا لنا خاصة للأولاد الذين سيتمتعون بعد الآن بالعطلة المدرسية كلَها، فدرس البيدر كله لن يستغرق إلا ساعتين أو ثلاث ساعات تُلقّم الدرَاسة الزرع لقمة إثر لقمة فإذا الزرع كله أصبح كومة واحدة من التبن المخلوط بالقمح، وبعد ذلك يتم فصلهما في يومين وننصرف إلى اللعب. كان بداية دراس القمح بالآلة تقتصر على طحن الزرع فقط ثم يتكفل الفلاح عملية استخلاص الحب من التبن وهي عملية لا تخلو من تعقيد وفيها الكثير من المشقة، وكانت العملية تتم على البيدر ولكل قرية منطقة أو أكثر تكون مخصصة لوضع الزرع عليها بعد نقله من الحقل، وتسمى البيدر، ولأن لكل فلاح موقعًا هو ملكه يضع فيه زرعه، أي: لكل فلاح بيدره فالمنطقة تسمى البيادر، (بالجمع لا بالمفرد) ويكون في طرف القرية، وإذا كانت هنالك بيوت قريبة منها ـ وكثيرًا ما يكون ذلك ـ فأهل هذه البيوت يعانون الأمرين في فصل الصيف لأن الكثير من التبن المتطاير يقتحم البيوت. وكان الزرع يصفَّف في البيدر على شكل دائري يتسع ويعلو أو يضيق ويسفل بحسب مقدار الأراضي التي يملكها الفلاح ويزرعها.

كان يوم إكمال عمليات الزراعة هو اليوم الذي يكون القمح كومة كبيرة على الأرض خالصة من كل الشوائب (وتدعى: الصليبة) وجاهزة لتُعبَّأ في أكياس ثم تحمَّل الأكياس على ظهور الحمير وتنقل إلى البيت لتوضع في (الخّوابي) ومفردها خابية وهي عبارة عن أوعية كبيرة مبنية من الطين الصلصالي المخلوط بالتبن (كما عرفنا: التبن هو هباء القش الناعم) والتربة الصلصالية هي التربة البيضاء التي إذا جُبِلت بالماء وأضيف إليها التبن أصبحت طينًا لازبًا (شديدا) تبنى منه الخوابي التي هي مخصصة لمخزون الفلاح من الحبوب التي ينتجها، ولم يكن بيت من بيوت الفلاحين إلا وفيه الخوابي المبنية على شكل سلسلة تلتصق الخابية بأختها ويفصل بينهما الجدار الطيني الصلصالي

المشترك، وكانت السلسلة تحتوي على أربع خوابٍ أو خمس أو ثلاث على أقل تقدير وهذا يتوقف على مساحة البيت. والمدهش أنها كانت أمتن من الطوب والإسمنت ولا تتأثر بكثرة الصعود عليها والنزول منها من الصغار ولا حتى الكبار ويأتي جيل بعد جيل وهي على حالها لا تحتاج إلى ترميم، ولو كانت من الطوب أو الإسمنت لاحتاجت إلى الترميم بين الحين والحين. ولقد كان في بيتنا خوابٍ فقررنا إزالتها لتوسيع البيت، وجاء الهدّامون بالفؤوس فكم كانت دهشتهم وهم يضربون في الخابية فلا تخرج الفأس إلا قطعة صغيرة وبصعوبة ولا تتداعى بقية أجزائها ولا تتفسخ ولقد استغرق هدمها يومين ـ على ما أذكر ـ ولو كانت من الإسمنت أو الطوب لما استغرق هدمها ساعتين لأن الضربة الواحدة يسقط بها ما أصابه الضرب ومساحة كبيرة معه تسقط بالتأثير، وهذا يجعل المرء يفترض أن حكمة الله تعالى من خلق الإنسان من طين لازب، ووصفه أيضًا بصلصال كالفخار هو القوة والمتانة المصاحبة لليونة التي تمكن أعضاء الجسم من أداء الحركات المطلوبة بسهولة ويسر وقدرة على الاستمرارية سنوات طويلة.

ويعرف الفلاحون في التربة الصلصالية التي تصنع منها الخوابي خاصية أخرى وهي أنه عازل للحرارة فلا تتغير درجة حرارة الحبوب كثيرًا بين الصيف والشتاء، وهذا هو السر في أن الحبوب بداخل الخابية تبقى على حالها سنة أو سنتين دون أن ينخرها السوس.

وكان للقمح نصيب الأسد من الخوابي فربما ملأ المحصول ثلاثة من الخوابي التي تتسع كل واحدة منها لنصف طن من القمح أو أقل قليلًا أو أكثر قليلًا، وكثير من الفلاحين الكبار الناشطين يملأ خوابيه كلها، وكثير منهم لا يملأ خابية واحدة والتفاوت في هذه المسألة كبير.

ومن أشكال التفاوت بين الفلاحين أن بعضهم كان يجد نفسه مضطرًا إلى سداد الجزء الأكبر من محصوله لأصحاب الديون، فلا يصل خابيته منه إلا القليل وبعضهم كان يبحث عن عمل ومصدر رزق في غير أيام الفلاحة ـ لم تكن الفلاحة تستغرق أيام

السنة كلها، بل تستغرق نصفها في المتوسط وربما أقل من النصف_ فيعمل ويكسب وينفق على حاجات بيته من عمله، ويبقى محصوله الزراعي سليمًا من الديون فيملأ خوابيه من ثمرة تعبه ويتمتع بالخير الوفير طيلة أيام السنة ويدخل الحب الجديد وفي خوابيه حب من السنة الماضية.

وبعضهم كان يملك الزيتون والتين فينتج من الزيتون الزيت وكذلك مخلل الزيتون أبيض وأسود، ويخزن من التين القطّين وهو مجفف التين، وهذا يُخزن غالبًا في خابية صغيرة تسمى (الجُرْن) ويتسع الجرن لحوالي خمسين كيلو غرامًا من القطين في المتوسط، ومادة القطين توفر الحلوى _خاصة إذا كانت من التين الخرّوبي_ وهي حلوى لم يدفع الفلاح ثمنها وتحتوي على العناصر الغذائية المطلوبة، وهذا الصنف من الناس كان يخفّض مصروفاته إلى الحد الأدنى ويقصر مصروف البيت على هذا الثالوث الغذائي: القمح والقطين والزيت، ويحتفظ بالتالي بمقدار وفير من إنتاجه يضمن له ألا يضطر إلى الاستدانة طيلة أيام السنة.

وبعضهم كان موسم القمح بالنسبة له موسم تسوية أوضاعه مع الدائنين، وكان والدي في معظم الأحيان واحدًا من هؤلاء، فاللحم على مدار السنة يشترى بالدين والموعد البيدر وتاجر القماش ينتظر البيدر، وتاجر الأرز والسكر والحاجات الأخرى كان موعده البيدر والحلاق كان له على كل رأس ذكر في الأسرة رطلان من القمح في السنة يتم استيفاؤها في البيدر. وإذا حصل أنّ رب الأسرة استدان نقودًا من أحد الموسرين فالموعد البيدر. وكنا نلبس الأحذية من صانع أحذية من نابلس وبالدَّين والموعد إما البيدر أو محصول اللوز أو السمسم، فكان مقدار القمح الذي ينقله والدي إلى الخوابي لا يغطي حاجاتنا إلا فترة من السنة، ثم بعد ذلك تبدأ الاستدانة إلى البيدر القادم وهكذا.

وانتهى عهد البيادر

ثم جاءت الآلة التي تطحن الزرع وتفصل الحب عن التبن بمروحة خاصة، وهي الآلة التي يستخدمها الفلاحون اليوم، فلم تعد ثمة حاجة إلى البيادر؛ لأن العملية تتم في الحقل ولم يعد في القرى أية بيادر على الإطلاق.

لم تكن إقامة البيادر في الحقول ممكنة قبل اختراع هذه الآلة؛ لأن البيدر الذي تستخدم فيه الدواب لا تصلح له الأرض الترابية، فلو طُرح الزرع على أرض ترابية وبدأت الدواب تدور عليه لاختلط التراب بالزرع اختلاطًا يفسد الحب والتبن. فالبيادر كانت تقام على الأرض الصخرية أو الأرض الصلبة صلابة كافية. والبيادر في قريتنا كانت تقام على أرض يعرفها الجميع باسم (القُف)، ولا يعرفون من أين جاءت التسمية، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن لفظة القُف لفظة عربية فصيحة، فقد عرفت ذلك من بيت شعرٍ في معلَّقة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري يصف ناقته:

تَرَبَّعتِ القُفَّينِ في الشُّولِ ترتَعي　　　حدائق مَوْلِيِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَدِ

معنى البيت: هذه الناقة رعت الربيع في موقعين من الأرض كل منهما عبارة عن قُفٍّ، أي: أرض صلبة ومرتفعة فنبتها طيب خالٍ من الوَخَم، وكانت ترعى مع إبل أخرى شالت أذنابها للفحل، وكانت ترعى حدائق نبت جاءه المطر مرة بعد مرة فنباته أَغْيَد، أي: طري ناضر.

واكتشفت أن كثيرًا من الأسماء الأخرى الواقعة في قريتنا أو حولها عربية فصيحة، ومنها: (القَرْقَفَة) وهي كهف في سفح جبل قريب من القرية فيه معظم أيام السنة ماء بارد يأتيه من المطر في الشتاء وينزل عليه من شقوق في السقف، القرقف في اللغة: الشراب البارد ماء كان أو خمرًا، ويُستَشْهدُ عليه بقول الشاعر الأموي الأخطل:

كأنني شاربٌ يومَ اسْتُبِدَّ بهم　　　مِنْ قَرْقَفٍ ضُمِّنَتْها حِمْصُ أَوُ جَدَرُ

معنى البيت: بلغ الحزنُ مني مبلغًا لفراق الأحبة، يومَ فُرِضَ عليهم أن يُفارقوا. إنني فقدت وعيي وكأنني شارب خمر قَرْقَف (شديد البرودة) من خمر حمص أو خمر جَدَر (اسم بلدة كانت في عهد الأخطل).

وفي طرف القرية منطقة تسمى الضحاضيح، ويقلبون الضاد ظاءً فيلفظونها: الظحاظيح، وهي منطقة صخرية صخورها مقعّرة بشكل بسيط بحيث تمسك مقدارًا من الماء. والضحضاح في اللغة الماء الضحل.

وهنالـك الشّـعب (الأرض بـين جبلـين) والعِـزْب (الكـروم التـي ينقـل أصحابهـا إليهـا معيشـتهم في الصيـف) والظَّهْـر وهـو الأرض المرتفعـة خـارج البلـدة وتكـون ظاهـرة للعيـان) وهـذه أسـماء كانـت دارجـة الاسـتعمال عنـد أهـل قريتنـا، وكلهـا أسـماء عربيـة فصيحـة.

الحكايات الشعبية - قول يا طير

كانـت الحكايـات الشـعبية هـي التسـلية الوحيـدة للصغـار والنسـاء في حـين أن الرجـال كان لهـم ملتقاهـم في مـكان يسـمى المضافـة ولهـم قصصهـم الممزوجـة بالشـعر وتُقـصّ أحيانًـا مـع الربابـة.

كنت أبيت عند جدتي لأمي صيفًا في (العِزْب) وهـو كـرم تـين وعنب لزوجها ثم لابنهـا مـن بعـده كانـت تقـضي فيـه فـترة الصيـف وتحتـاج إلى مـن يعينهـا عـلى وحشـة الليـل، وكنـت أتوجـه إلى العـزب عنـد المغـرب مـع ابـن خـالي الـذي يصغـرني بثـلاث سـنوات، وهـي مضطـرة إلى انتظـار صـلاة العِشـاء ثـم بعـد أن تـؤدي الصـلاة وإلى أن نغفـو كانـت تعللنـا بالحكايـات، وفي الشـتاء كنـت أسـمع الحكايـات مـن والـدتي نقـضي بهـا الجـزء الممـل مـن الليـل إلى أن ننعـس ونخلـد إلى النـوم، لم تكـن الحكايـات هادفـة كلهـا، وقليـل منهـا مـا كان هادفًـا إلا أنهـا كانـت مسـلِّية كلهـا، لدرجـة أنهـا لا تمَـلُّ عـلى كثـرة التكـرار. وكانـت بعـض النسـاء أمهـر مـن بعـض في سردهـا والجـدات العجائـز بالإجمال أمهـر مـن الأمهـات الشـابات وكان للحكاية مقدمة وعرض وعقدة ولحظة تنوير وحل، وهذا ما يجعلها ممتعة.

كثـير مـن الحكايـات كانـت تركـز عـلى خيانـة المـرأة وقدرتهـا عـلى التبريـر واختـلاق المعاذيـر، وبعضهـا يقـص غـدر العبيـد والخـدم وجـور الزمـان عـلى البنـت المدللـة وأشـهرها قصـة «جبينـة» التـي جـار عليهـا الزمـن، فأصبحـت راعيـة غنـم وبقـر بعـد أن كانـت أمـيرة مدللة.

وبعضهـا يـدور حـول غفلـة الأهـل التـي أدت إلى وقـوع البنـت في قبضـة الغـول ليأكلهـا أو يتزوجهـا، وكـم كانـت تسـتهوينا قصـة الفتـاة التـي تأخـرت عـن رفيقاتهـا في البرِّيـة

فالتقى بها الغول وأخذها أسيرة وتزوجها وكان في كل يوم يخرج ملتمسًا الرزق له ولها فيأتيها جائعًا في آخر النهار وعلى ظهره شجرة وفي فمه بقرة.

أما القصة التي كانت تستهوينا كثيرًا فهي قصة الطائر الأخضر، وموجزها أن رجلًا كان له ابن وابنة ماتت أمهما فتزوج غيرها فأساءت معاملة اليتيمين، إلى حد أنها في غياب زوجها في العمل ذات يوم، ذبحت ابنه وطبخته وقدّمته له طعامًا مدّعية، أن أهلها ذبحوا شاة وأعطوها قسمًا كبيرًا منها، وجلس الأب يأكل وكلما تناول عضوًا من أعضاء الذبيحة قال لزوجته: هذه يد ابني، هذه رجل ابني، هذا رأس ابني... إلخ فتؤكد له زوجته أن هذا غير صحيح وأن اللحم لحم شاة، وأبت البنت أن تأكل ولم يتساءل الأب الغبي عن سبب امتناعها.

وجلست الفتاة المسكينة تبكي وتلملم عظام أخيها ولا تجرؤ على أن تنبس بكلمة واحدة خوفًا من زوجة أبيها، حتى إذا جمعتها كلها وضعتها في طاقة (مشكاة) فإذا العظام تصبح طائرًا أخضر جميلًا يطير فيعجب الناس من جمال شكله وغرابته ويغني فيسحر الناس بغنائه، وعندما استزادوه من الغناء اشترط عليهم أن يفتح ذلك الرجل فمه (المقصود والد الطفل وكان من جملة الحاضرين)، وألح عليه الحاضرون أن يفتح فمه ففتحه بعد طول ممانعة، فألقى الطائر في الفم المفتوح كمية من الإبر والدبابيس فخنقت الأب المغفل، ثم غنى فسحر السامعين وطلبوا منه الإعادة فاشترط عليهم أن تفتح تلك المرأة فمها (المقصود زوجة أبيه)، ولم تستطع مقاومة الضغوط ففتحت فمها فألقى فيه كمية من الإبر والدبابيس والمسلات فخنقتها، ثم غنى وعندما استزادوه اشترط عليهم أن تفتح تلك الفتاة فمها (يعني شقيقته) ففتحت فمها فألقى فيه كمية كبيرة من الجواهر، وإلى هنا تنتهي الحكاية.

هذه الحكاية هادفة بشكل واضح وتعلم الأطفال كيف تكون عاقبة الغفلة التي يمثلها الأب، والغدر الذي تمثله زوجة الأب، والوفاء الذي تمثله الشقيقة.

إلا أن معظم الحكايات كان إثمها أكبر من نفعها، فمنها ما يزعزع الثقة بالناس ومنها ما يعلم الأطفال مشروعية الكذب والاحتيال وكثير منها يحط من شأن الناس

الأشـد فقـرًا في المجتمـع ويجعلهـم موضـع سـخرية، ويحط من شـأن المرأة ويصورهـا خائنة، لكـن أسـوأها جميعًـا كانـت حكايـات الرعـب التـي تـدور عـن الغـول والشـبح (الخيالـة) لدرجـة أن الولـد صـار يخشـى أن يخـرج لقضـاء حاجتـه.

والغولـة تظهـر بصـورة العَمَّـة، فتأتيهـم الغولـة عـلى شـكل امـرأة تدعـي أنهـا عمتهـم المتزوجـة في بلـد بعيـد ولا يعرفونهـا لانقطـاع الصلة بسـبب قسـوة قلب والديهـم، وتدعوهم إلى بيتهـا لتحتـال عليهـم فتأكلهـم، ولكنهـم يتنبهـون إلى حيلتهـا وينجـون منهـا بأعجوبة.

لم تكـن أي مـن الحكايـات تـدور حـول السـيرة النبويـة أو حـول بطـولات الفاتحـين المسـلمين أو أخـلاق الدعـاة والمصلحـين، فالجهـل والأميـة كانـا سـيدي الموقـف في تلـك الفـترة.

معركة قول يا طير

عندمـا كنـت في سـجن عـزل هدريـم، سـنة 2007 كانـت تصلنـا جريـدة القـدس فتابعـت مـن خـلال صفحاتهـا معركـة حـول كتـاب عنوانـه «قـول يـا طـير»، وهـو عبـارة عن تجميـع للحكايـات الشـعبية وتعليقـات مـن الباحثـين الفلسـطينيين (شريـف كناعنـة وإبراهيم مُهَـوِّي) وكانـت المعركـة مـن جانـب واحـد هـو الجانـب المدافـع عـن الكتـاب وهـي ضـد الدكتـور نـاصر الديـن الشـاعر، وزيـر التربيـة والتعليـم (الحـماسي) في حكومـة الوحـدة الوطنيـة الفلسـطينية بتهمـة أنـه أمـر بإخـراج كتـاب «قـول يـا طـير» مـن مكتبـات المـدارس، كان الهجـوم عـلى الوزيـر الـذي هـو مـن وزراء حمـاس شـديدًا جـدًا وكانـت التهمـة موجهـة عمومًـا إلى العقليـة الإسـلامية التـي بزعمهـم لا تسـتوعب كتابًـا هـو مـن مفاخـر الكتـب الفلسـطينية وسـجل للـتراث الشـعبي الفلسـطيني، وظهـرت إعلانـات تأييـد للكتـاب وأسـماء أصحـاب الإعلانـات.

مـا هـذا الكتـاب؟ لقـد كان قبـل المعركـة كتابًـا مغمـورًا قـلَّ مـن سـمع بـه، وأردت الاطـلاع عليـه بعـد أن اشـتهر فجـأة، وكان الحصـول عـلى الكتـب ميسـورًا في هدريـم في تلـك الفـترة، يكفـي أن يـوصي السـجين أهلـه عـلى كتـاب فيشـتروه ويرسـلوه وإدارة السـجن

كانت تُدخل الكتب من غير عقبات. أما منذ سنة 2010، فإدخال كتاب يعتبر من أعسر الأمور في جميع السجون.

وقبل أن أوصي على الكتاب وجدت أسيرًا آخر قد أوصى أهله فجلبوه. فاستعرته وقرأته سطرًا سطرًا بإمعان. فإذا الكتاب يقص هذه القصص الشعبية بالعامية المحلية وكل قصة كُتبت بلهجة من قصّها أو قصتها على «الباحثين»، باحثيْ «آخر الزمن». فكانت كل حكاية من حكاياته مكتوبة بلهجة عامية تختلف عن غيرها، وكل لهجة منها أبغض وأثقل على السمع من سالفتها.

والحقيقة أن محاولات إحلال العامية محل الفصحى في الكتابة بدأت منذ سقوط الخلافة العثمانية والهدف منها فصل المسلمين عن دينهم وقرآنهم وتراثهم وكان لهذه الدعوة رجال من الأدباء والكتاب، لكنهم هلكوا هم ودعوتهم، وجاء «المهوّي» ليجددها.

لقد صيغت تلك الحكايات بأسلوب غير بارع، يخلو من المقدمة وليس فيه حبكة ولا عقدة ولا انتقاء موفق للكلمات وباختصار: يخلو من عنصر التشويق ويجانبه التوفيق، وأسوا من ذلك أن الكتاب لا يتورع عن ذكر ما ينفر الذوق من سماعه مما يتصل بأخص خصوصيات الإنسان في أعضائه وأحواله التي يُخجل من ذكرها وكانت جداتنا تتجنبها وتأنف منها، فالكتاب من هذه الناحية يثير الاشمئزاز والقرف. ناهيك عن سوء اختيار القصص بحيث لا تفيد خلقًا ولا دينًا ولا مهارة، بل إنها تعلّم المرء أمورًا غير معقولة وغير مقبولة.

باختصار: إنه ليس كتاب تراث، فتلك الحكايات ليست تراثًا، ولكنها صديد جسم كان مريضًا بالجهل والفقر، وينبغي رحض الصديد لا الحفاظ عليه.

من الغريب المضحك أن الباحثين اللذين جمعا الحكايات كتبا لكل مجموعة منها تعليقًا ضافيًا يتحدث عن الفلسفة و(المدلول العظيم والمغزى الكبير) لكل مجموعة منها.

أما عنوان الكتاب (قول يا طير) فمأخوذ من قصة الطير الأخضر التي أشرت

إليهـا آنفًـا إلا أن طريقـة سردهـا عنـد جـدتي كانـت تحتـوي عـلى كل العنـاصر الضروريـة للقصـة القصـيرة الهادفـة والمشـوقة، ولكنهـا في الكتـاب، شـأنها شـأن بقيـة الحكايات الـواردة فيـه، سُردت بأسـلوب ليـس فيـه شيء مما يجـذب السـامع.

التقيـت بعدهـا بوزيـر التربيـة والتعليـم الدكتـور نـاصر الديـن الشـاعر في مركز تحقيق الجلمـة الصهيـوني وتحدثـت وإيـاه عـن هـذا الكتـاب فكانـت وجهـة نظرينـا متطابقـة حولـه. وأرى أن إخـراج هـذا الكتـاب القبيـح مـن المـدارس أخـرج مـا في الصـدور مـن أضغـان دفينـة في المجتمـع بـين أصحـاب الاتجـاه الدينـي والاتجـاه العلـماني وجـاء في ظـروف العلاقـة المشـدودة بـين فتـح وحمـاس والمحشـورة في إطـار مـا سـمي بحكومـة الوفـاق الوطنـي التـي نشـأت في آذار وانتهـت في حزيـران مـن السـنة نفسـها (2007).

الطبيعة في تلك الفترة

أعنـي فـترة عقـد الخمسـينات وحتـى سـنة 1967 سـنة الاحـتلال الإسرائيـلي لبقيـة فلسـطين.

كانـت الطبيعـة مليئـة بالضجيـج والأصـوات المختلفـة، كان الرعـاة يجوبـون البـراري ولم تكـن عـلى رؤوس الجبـال مسـتوطنات تمنـع الفلسـطيني مـن أن يقطـع السـهل والوعـر ليـلًا أو نهـارًا، لا يخشـى إلا الضبـع ليـلًا وكانـت الضبـاع موجـودة ومنتشرة حتـى في الحـارات وبـين المنـازل في القـرى وكانـت مصـدر رعـب لمـن تضطـره الحاجـة إلى أن يسـافر في الليـل إذا كان منفـردًا وقليـل مـن الرجـال مـن أصحـاب القلـوب الحديديـة مـن يفاجئـه الضبـع ليـلًا ثـم لا يذهـب بعقلـه. وقصـص الضبـاع وأخذهـا عقـول رجـالٍ ممـن كانـوا معتدّيـن بشـجاعتهم كثـيرة. وإذا كان المسـافر في صحبـة شـخص أو أكثـر فهـذا مدعـاة للاطمئنـان.

ممـا رسـخ في ذاكـرتي قصـة مـع الضبـع وقعـت في قريتنـا حـوالي سـنة 1952، أي؛ قبـل دخـولي المدرسـة، فـإن راعـي بقـر مـن القريـة فوجـئ بضبـع ذكـر علـق في فـخ ووقـع وتـد الفـخ بـين حجريـن فلـم يسـتطع الضبـع انتزاعهـا، فصـاح الراعـي بأهـل القريـة وكانـت الحادثـة في مـكان غـير بعيـد عـن القريـة. وتراكـض أهـل القريـة وربطـوا الضبـع

بحبل وأخذوا يكرهونه على المشي، وصادف مرور رجال من تلفيت من ذلك المكان فأصروا على مشاهدة الضبع الذي يخيف الجميع وبينما هم يتأملونه غافل الجميع وهرب من بينهم وانطلق يعدو، فلحقته القرية كلها، وكان الضبع متعبًا فسقط ميتًا من الإعياء، فجرّه الشباب إلى حارات القرية واستلمناه نحن الصبيان والبنات وأخذنا نجره ونتفرّج ونُفرّج عليه، حتى جاء رجل فأخذه من أيدينا وسلخ جلده بقصد بيعه، وكان في القرية رجل مريض وفي غاية الفقر، فوُصف له لحم الضبع علاجًا فأرسل ابنته تطلب من لحم الضبع فأُعطيت قطعة كبيرة من يده اليمنى _حسب الوصفة_ وطبختها زوجته له فأكل منها ما أكل، ثم لم ينطق بعدها بكلمة واحدة إذ تفاقم مرضه ولم يلبث أن مات بعد يومين أو ثلاثة.

كان انتشار الضباع ظاهرة لها أسبابها وأول أسبابها انعدام الأنوار، فلم تكن أية قرية تضاء بالكهرباء والضباع تشجعها العتمة وتخيفها وتبعدها الأنوار، أما السبب الثاني فهو كثرة الماشية في ذلك الوقت التي كانت عماد الحياة لمعظم الناس وكانت الضباع والذئاب والثعالب تتغذى على ما ينفق من الحمير والبغال والغنم وغيرها، أو ما تتمكن من اصطياده منها في غفلةٍ من الراعي.

كان أكثر ما يطربني من الطبيعة أصوات الثعالب وبنات آوى (ويسمى ابن آوى في العامية: (الواوي)، وهو من فصيلة الثعالب وكذلك النمس ويسمى في العامية (السالول) وهو من صنف الثعالب كذلك. وكان يروق لي شكلها وتروق لي أصواتها. وكانت أصواتها تملأ الطبيعة من حولنا في الليل وفي النهار أيضًا. وأقارن بين الطبيعة الخرساء اليوم، والطبيعة قبل الاحتلال فأجدها اليوم موحشة، وكأنما اكتسبت من الاحتلال ثقله وتجهمه. وكانت الذئاب أقلّ عددًا وأشد خطرًا من الثعالب. والذئب من طبيعته الغدر والطمع، فإذا هاجم قطيع أغنام أو ضأن فإنه يحرص على قتل معظم القطيع أو كله إن استطاع كما حصل مع ثماني نعجات للمرحوم خالي، كانت مع راع يرعى قطيعًا كبيرًا من الضأن، وكانت النعاج الثماني لا تسير إلا معًا وشبه منفصلة عن القطيع، فجاءها الذئب فقتلها كلها وانصرف.

أما الثعلب فلا ترتقي همته إلى أكثر من ديك أو دجاجة، وله في الصيد أفانين.

استيقظت ذات يوم بعد الفجر على حركة مريبة خارج باب البيت، فإذا ثعلب يجر دجاجة لنا من عنقها ويحاول أن ينجو بها، لكنه عندما افتضح أمره ترك الدجاجة وولى هاربًا وعادت الدجاجة إلى قنها سالمة.

وفي حادثة أخرى دخل الثعلب القن وشعرت والدتي بأن شيئًا غريبًا يجري فإذا الثعلب اللص لم يسعفه الوقت كي يخنق دجاجة ويمضي بها، وعندما شعر أن خطته فشلت وأن حياته أصبحت في خطر تمدد في أرض القن وبسط ذراعيه وكور رجليه وحبس أنفاسه وهو يملك قدرات عجيبة في مجال التماوت، حتى إنه يطفئ بريق عينيه، فلا يشك الناظر في أنه ميت والغريب أن الناس يعرفون حيله، ولكنهم ينخدعون بها في كل مرة، وبالفعل استطاع أن (يضحك) على والدتي ويوهمها بأنه ميت، فجرّته من القن من رجليه وألقت به على القمّامة القريبة (المزبلة)، وعندما شعر أنها ابتعدت عنه قليلًا أطلق ساقيه للريح.

الثعالب معروفة بحبها الشديد للقثاء من خيار وفقوس وبطيخ، وهي تسطو على مقاثي الفلاحين في الصيف، ولكن أصحاب المقاثي كانوا ينصبون لها الشِّراك (الفخاخ) فيصيدون الكثير منها وينفذون فيه حكم الإعدام. وكان هذا من جملة مواد الأدب الشعبي شعرًا وحكايات.

رأيت ذات صيف صبيين شقيقين يحملان ثعلبًا اصطاداه بالفخ من مقثأة والدهما، ولفرط حبي للثعالب استوقفتهما لأنظر إليه مليًا، وكانا قد شدا على فمه منديلًا كي لا يعض حامله، وطلبت منهما أن يمكناني من احتضان هذا المخلوق الذي أراه ويراه كثيرون (خفيف دم)، فقال لي الأخ الأكبر منهما: أمسكه جيدًا حتى لا يفلت، ثم كن حذرًا فإنه سيسكب على يدك دمًا من فمه كي تقرفه وتلقيه على الأرض، ثم تناولت الثعلب وهو طبعًا مغمض العينين ويتظاهر بأنه ميت وأمسكت برجليه بشدّة قوية من إحدى يديّ وشددت يديه باليد الأخرى وكانت يدي قريبة من فمه المربوط جيدًا بالمنديل، فإذا الدم يجري غزيرًا على ظاهر يدي، فقلت له ما يقال في مثل هذا

الموقف: قديمة، العب غيرها، وسلّمته لصائديه اللذين أعدماه من أجل جِلْده.

كانت الطبيعة قبل الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية _كما أسلفت_ غنّاء، في داخل القرى وخارجها ففي القرى تسمع صياح الديكة وثغاء الغنم وخوار البقر وزقزقة العصافير وهديل الحمام وخارج القرى تسمع بالإضافة إلى أصوات بنات آوى والثعالب (ويسمى صوت الثعلب في اللغة الفصيحة: الضُّواء) تسمع أصوات الطيور الأخرى ومنها الحجل (الشنار) في فصل الربيع خاصة، وطائر نسميه (القيقوب) نسبة إلى الصوت الذي يكرره بوتيرة متقاربة، وكلها كانت تملأ الجو حيوية. حتى نعيق الغربان التي كانت تأتي مهاجرة في الصيف، لم يكن بالأمر المزعج.

ولا أنسى نقيق الضفادع وكان خلف بيتنا بركة ماء منحوتة من الصخر وهي في الأصل معصرة خمر رومانية ففيها حوض كبير منحوت من الصخر وجوفه مسنن بشكل جميل ومتقَن ويرتفع عن أرض البركة قرابة متر وتسنينه من الداخل إنما هو للمساعدة على تفتيت العنب من أجل عصره ثم يصب العصير في البركة وعندما جاءت ورشة من دائرة الأشغال الأردنية سنة 1960 وجدت لدى توسعتها الطريق المحاذي للبركة غرفة سفلية فيها مقدار كبير من الزجاجات الفارغة التي كانت معدة لتعبئتها بالعصير، ومن ثم خزنها ليتحول العصير إلى خمر. كانت البركة تمتلئ بالماء في فصلي الشتاء والربيع وتحتفظ به في الشطر الأول من الصيف، وكانت الضفادع كثيرة في البركة ولها في فصل الربيع أصوات شديدة الشبه بأغاريد النساء أو ما نسميه بالعامية (الزغاريد) وهي أصوات جميلة تخرج بلعلعة اللسان وتكون تتويجًا للأغاني. كنت كلما سمعت نقيق الضفادع أتخيل لو أن أهل الأعراس يُحضرون ضفدعًا ويغلقون فمه ثم يفتحونه عندما تكمل المرأة مقطوعتها، ليزغرد هو عنها، إذًا لأسمع زغاريد أجمل وأبعث للطرب من زغاريد أمهر النساء.

حتى نقيق الضفادع أصبح هو أيضًا عزيز المنال؛ لأن البِركة قد طُمرت من أجل توسعة الطريق وهي الآن وحوضها الجميل تحت الركام ولقد خسرناها مثلما خسرنا تلك المقاعد الحجرية التي كُسّرت جهلًا بقيمتها من أجل رصف الساحة وتعبيدها كي تتمكن السيارات من استخدامها دوارًا.

إلا أن طمر البركة فيه _على كل حال ناحية إيجابية_ فقد كانت تشكل خطرًا على الأطفال وكان أهل القرية دائمي التوجّس منها.

كنا في المدرسة ذات يوم في فسحة الغداء وكانت تمتد ساعة ونصف ولكننا بدلًا من أن نعود إلى القرية أثناء الفسحة، كنا نأخذ الزوّادة معنا؛ لأن مدرستنا كانت في قرية قريوت، فنتغدى ونقضي بقية الوقت في اللعب والتسكع فجاءني تلميذ من قريتنا كان قد ذهب إلى القرية في الفسحة، فقال لي: مات أخوك فاروق فقد غرق في البركة وكانت أمك تصيح. وكان أخي فاروق في الثالثة وابن خالتي الوحيد وخال أولادي فيما بعد، سعيد جبر، في سن فاروق أيضًا وهو أخ وحيد لشقيقتين.

كنت وقتها في الصف الرابع، فلم أشعر أن الخبر يعني لي شيئًا ولم أتوجه إلى القرية _فيما أذكر_ إلا بعد أن انتهت حصتا ما بعد الغداء. دخلت الدار فلم أجد أثرًا لميّت ومأتم واستطلعت الخبر فقالوا لي: إنه ابن خالتك، سعيد، غرق في البركة وسارع إليه أهل القرية وكان أسرعهم رجل من القرية معروف بمروءته وهو أبو عوض، خالد عوض، لم تكن البركة عميقة ولجتها كانت لا تتجاوز المتر، نزل أبو عوض إلى البركة بثيابه ونعله وصار يتحسس أرضيتها برجله فاصطدمت بشيء ورفعته فإذا هو سعيد، والرجل _مع مروءته_ على جانب من الفطنة فأمسك الطفل من رجليه ودلّى رأسه إلى أسفل وما زال به حتى أخرج الماء من جوفه وظهرت عليه دلائل الحياة، ثم رأى الجميع _وهم رجال القرية ونساؤها معظمهم_ أنه حيٌّ فأخذته أمه إلى البيت وهي بين مشاعر الرجاء والخوف، ووضعته في الفراش ودفأته وأخذ يتحسن. وعند الصباح كانت عمته أم مفيدة تقف على ظهر البيت وتطلق الأغاني الخاصة بمثل تلك المناسبة، والأغنية الواحدة تتكون من أربعة مقاطع على غرار الرباعيات أو ما يسمى الدوبيت تدور حول معنى واحد يعبر عن الغبطة وفي كثير منها يشير إلى غيظ الأعادي، وتتوج بزغرودة مجلجلة.

كم كان يسعدنا النظر إلى أسراب الطيور المهاجرة التي تلم بمنطقتنا في الصيف وأجملها أسراب اللقلق ونسميه في العامية (أبو سعد) وكذلك مالك الحزين وهذان

النوعـان يسـميهما العـرب (الغرانيـق) ويمتـازان باللـون الأبيـض الناصـع الـذي لا شِـية فيـه والعنـق الطويلـة الجميلـة، إلا أن مالـك الحزيـن أصغـر حجـمًا مـن اللقلـق، فهـو في حجـم الدجاجـة الصغـيرة، أمـا اللقلـق فهـو في حجـم الإوزة ولكنـه يمتـاز عنهـا بطـول سـاقيه طـولًا بـه يُـضرب المثـل.

كنـت أطـرب لصـوت شـبابة الراعـي (النـاي) ولأصـوات الحراثـين وهـم يوجهـون التعليـمات إلى دوابهـم بنغـمات معينة، وأصـوات المغنين والمغنيات في الأعراس وفي مناسـبات الفـرح الأخـرى بالإضافـة إلى أصـوات مخلوقـات الله المنتـشرة في البريـة، فالأصـوات تطـرب الأذن إلا صوتًـا واحـدًا يصـم الآذان هـو نهيـق الحمـير، فهـو نغمـة مرتفعـة نشـاز تصـم الآذان. صـدق الله العظيـم وهـو القائـل: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. [لقمان: 19]

إجمـالًا كانـت الطبيعـة قبـل الاحتـلال تـسر الناظـر وتطـرب السـامع. ولمـا جـاء الاحتـلال سـنة 1967 ألقـى في الـبراري طيـورًا مسـمومة فقـضى عـلى الضبـاع والسـباع والذئـاب والثعالـب، وهـذا أمـر ليـس سيئًا، لكنـه سـلب مـن الطبيعـة الكثـير مـن بهجتهـا، إلا أن الغـزلان وجـدت فرصتهـا كـي تتكاثـر وتشـكل قطعانًـا كـما كانـت قبـل عـصر البندقيـة، ولكـن الصياديـن بعـد أن أصبحـوا يسـتطيعون الحصـول عـلى بنـادق الصيـد صـاروا يطاردونهـا ويصطادونهـا فتقلّصـت أعدادهـا ثانيـة.

إن الطبيعـة في عهـد الاحتـلال أصبحـت مصبوغـة بصبغتـه، فالحيوانـات البريـة الوحيـدة التي بـدأت تتكاثـر وتغـزو البسـاتين والمزروعـات وتعيث فيها فسـادًا هـي الخنازير التـي أصبحـت المنغـص الأكـبر لحيـاة المزارعـين في الأغـوار ثـم بـدأت تنتـشر في الأراضي المرتفعـة. والخنزيـر حيـوان بغيـض المنظـر ومنكـر صوتـه وبالـغ ضرره. فأصحـاب الأراضي يواجهـون عدويـن لدوديـن: المسـتوطنين والخنازيـر وهـي مشـكلة كبـيرة قائمـة الآن وتتفاقـم بشـكل سريـع.

عصر المذياع «الراديو»

قليل من الناس ملكوا الراديو في عقد الخمسينات، والراديو وسيلة تسلية فعالة تغني عن الحكايات الشعبية.

دخلت الراديو بيتنا لأول مرة في صيف 1960 جلبها والدي من الكويت التي كان يعمل فيها، وكانت بداية عهد جديد يعتبر انقلابًا حقيقيًا وكبيرًا في حياتنا، كانت في ذلك الوقت كبيرة الحجم، قريبة من حجم التلفزيون أو أصغر قليلًا، وتعمل بالبطارية الجافة الكبيرة التي تزن ثلاثة كيلوغرامات.

كنا نسمع بالتلفزيون ولم نعرف طيلة الخمسينات ما هو، أما المرة الأولى التي شاهدته فيها فسنة 1967 بعد انتهاء الحرب، فقد سافرت إلى الكويت ودخلت مطعمًا ساعة وصولي، فرأيت صندوقًا له شاشة وفيه صور تبدو صغيرة جدًا، فقلت لنفسي: هذا هو التلفزيون، وكان وقتها باللونين الأبيض والأسود.

أما السينما فكنا في عقد الخمسينات نسمع بها ولا نعرف ما هي. وجاءت السينما المدرسية إلى مدرستنا قريوت ذات يوم لأول مرة سنة 1958 وللحصول على الكهرباء اللازمة لتشغيلها استعانوا ببطارية السيارة التي حملت جهاز السينما المتنقلة. ولكن الذين دُعوا إليها هم طلاب الثانوي، فيا شدة حسرتنا نحن طلاب المرحلة الابتدائية. وكان عذر أساتذتنا أن المكان لا يتسع للجميع ولم يكن عذرًا مقبولًا لنا، إذ كنا نفترض أن تُعرض الصور مرتين ليتمتع بها الجميع.

وبعد سنة من تلك الواقعة انتقلت إلى مدرسة قصرة الإعدادية وهناك جاءتنا السينما المدرسية ذات يوم، فأدخلونا إحدى الغرف الكبيرة في المدرسة، ونظرت إلى شاشة ورقية بيضاء تغطي جزءًا من اللوح، فقلت للذي يجلس بجانبي: هنا السينما، وعرضت مناظر تعليمية سررنا بها غاية السرور.

أما أول فيلم سينمائي حضرته فكان في نابلس بطبيعة الحال بعد هذا الفلم المدرسي بشهور. دخلت سينما العاصي مع صديق، وكان الفلم بعنوان (دنانير) ويدور

حـول قصـة هـارون الرشـيد مـع البرامكـة ونكبتـه إياهـم وكانـت البطولـة للجاريـة دنانـير ومثلتهـا أم كلثـوم، وبعـد أن سـكنت نابلـس للدراسـة في المرحلـة الثانويـة وكنـت أذهـب إلى السـينما كلـما سـمحت لي إمكانـاتي الماديـة التـي كانـت قليـلًا مـا تسـمح، وكان ثمـن التذكـرة خمسـة قـروش أردنيـة وهـي مبلـغ غـير قليـل في ذلـك الوقـت خاصة عـلى طالب غـير موسر.

عودة إلى ما بعد الابتدائية

أكملـت الصـف السـادس الابتدائـي في العـام الـدراسي 1958/ 1959 وكنـت أتهيـأ في فرحـة غامـرة لدخـول المرحلـة الثانويـة، إلا أن وزارة التربيـة (الأردنيـة) أجـرت تغيـيرات عـلى منهـاج التعليـم فقسّـمت التعليـم إلى ثـلاث مراحـل بـدلًا مـن مرحلتـين: المرحلـة الابتدائيـة ومدتهـا سـت سـنوات والإعداديـة ومدتهـا ثـلاث سـنوات، ثـم الثانويـة ومدتهـا ثـلاث سـنوات تبـدأ بـالأول الثانـوي وكان الطـلاب يدرسـون فيـه المـواد العلميـة والأدبيـة، ثـم يجـري في نهايـة السـنة الأولى تحديـد مـن يحـق لـه اختيـار الفـرع العلمـي ومـن هـو مضطـر إلى التوجـه للفـرع الأدبي وكنـت مـن الذيـن يحـق لهـم اختيـار الفرعـين إلا أننـي آثـرت الفـرع الأدبي؛ لأنني كنـت مصممًا على ألا أدرس شـيئًا في الجامعـة غـير اللغـة العربيـة التـي أعشـقها وأتفـوق فيهـا عـلى جميـع الزمـلاء في كل مراحـل التعليـم وكنـت أخطـط للحصـول عـلى الدكتـوراه في الأدب العـربي وأن أكـون كاتبًـا وأسـتاذًا في الجامعـة إلا أن الواقـع الـذي هيمـن عليـه الاحتـلال الإسرائيـلي لـدى وقوعـه يقيـد الحركـة والإمكانيـات حـال بينـي وبـين شـهادتي الماجسـتير والدكتـوراه، فبقيـت بمؤهـل الليسـانس الـذي حصلـت عليـه مـن الجامعـة الأردنيـة وعملـت بـه معلـمًا.

عودة إلى الأحداث السياسية في عقدي الخمسينات والستينات

كانـت الهجمـة البريطانيـة الفرنسـية الإسرائيليـة عـلى مـصر عـام 1956 الحـدث الأبـرز والـذي اسـتحوذ عـلى اهتـمام النـاس عـلى مختلـف مسـتوياتهم التعليميـة في عقـد الخمسـينات، وكـما هـو معـروف، لم تمكـن الظـروف الدوليـة القائمـة أيًـا مـن بريطانيـا أو فرنسـا مـن تحقيـق أيـة مكاسـب في هـذه الحـرب فقـد اضطُرّتـا إلى انسـحاب غـير مشروط،

أما إسرائيل فهي استثناء عند دول الغرب كله ومباح لها أن تحقق مكاسب من عدوانها. إلا أن الشعوب العربية والتي تتعطش إلى أي عمل يمكن اعتباره بطوليًا، هللت لفشل العدوان الثلاثي وصدقت الدعاية التي تقول: إن انسحاب الجيش المصري من القطاع ومن سيناء وتمكين الجيش الإسرائيلي من الاستفراد بأهل القطاع وارتكاب المذابح المعروفة بحقهم إنما كان بطولة لا هزيمة، فهو إنما انسحب ليدافع عن مدن القناة، وشاعت بين الناس المقولة الخبيثة «الهريبة ثلثا المراجل» ولقد أصبح عبد الناصر بعد حرب السويس رمز الأمة العربية ورمز القومية العربية وأصبحت القومية العربية هي العنوان لمن أراد أن يسلك طريق الوطنية مثلما أن عداء المملكات الرجعية أمر لا بد منه.

في عام 1957 أقامت مملكة العراق ومملكة الأردن ما أسمتاه الاتحاد العربي، ونص قانون الاتحاد أن الملك فيصل الثاني بن غازي الأول هو ملك الاتحاد وأن الملك حسين ملك الأردن يكون نائب الملك.

وفي تموز من العام التالي 1958 وقع انقلاب عسكري في بغداد بقيادة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، أطاح بهذا الاتحاد وبالأسرة المالكة في العراق وقتل الملك العراقي فيصل الثاني والوصي على العرش عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد وكان في بغداد وقت الانقلاب كل من سليمان طوقان وإبراهيم هاشم من نابلس وكان كل منهما يتبوأ منصبًا رفيعًا في مملكة الأردن وفي مملكة الاتحاد، وقُتلا مع من قُتل.

إن فرحة الفلسطينيين بالانقلاب وتشفيهم بمقتل الذين قُتلوا أمر لا يوصف. ومشاعر الفرح لديّ ـ وقد كنت صبيًا في الثانية عشرة ـ لا تزال مما أحتفظ به في ذاكرتي.

في السنة نفسها قام اتحاد آخر هللت له الجماهير وسَرّت به غاية السرور، وتفاءلت به رجاء أن يكون هو الذي سيحرر فلسطين، إنه اتحاد الجمهورية المصرية برئاسة جمال عبد الناصر مع الجمهورية السورية التي كان يرأسها شكري القوّتلي تحت اسم: الجمهورية العربية المتحدة. أصبحت الجمهورية العربية المتحدة معقد أمل الجميع وكان الناس يرددون بشغف شعاراتها، وردد الشباب والشابات بفخر واعتزاز أغنية

للمطربة صباح مطلعها على النحو التالي:

مِنْ موسكي لَسوق الحميدية أنا عارفة السِكّة لِوَحْدِيَّة
كلها أفراح وليالي ملاح يا حبايب مصرِ لسوريّا

هذه الوحدة بمجرد أن قامت، قامت المؤامرات لإفشالها وقد نشطت الولايات المتحدة وحلفاؤها في المنطقة لنصب المكائد لهذه الدولة واصطناع الخصوم لها وتجنيدهم خاصةً في سوريا، إلا أن ما جرى في داخل الجمهورية العربية المتحدة نفسها يذكِّر بقول الشاعر العباسي، صالح بن عبد القُدّوس:

لا يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلُغُ الجاهل من نفْسه

فبعد انفصام عرى الوحدة تبين ما كان مستورًا وهو أنها لم تكن جمهورية للجميع على قدم المساواة، بل كان المصريون لهم تميز على السوريين في كل شيء، خاصة الضباط منهم يشعرون بالتميز ويمارسون أشكال الاستعلاء على السوريين، مما جعل كثيرًا من الضباط السوريين الوحدويين والمناهضين للانقلاب يقفون موقف المتفرج إزاء الانقلاب العسكري الذي نفذه ضباط في الجيش السوري بالتعاون مع جهات أجنبية. بالإضافة إلى أن التدابير الاقتصادية الاشتراكية التي فُرضت على المصريين قد أفقرت الغني ولم تغن الفقير، قد فرضت على الشعب السوري وكانت النتيجة واحدة، افتقر الأغنياء ولم يستغن الفقراء ما أحدث حالة من التذمر والاستياء الشعبي.

وتم تعيين السياسي السوري مأمون الكزبري رئيسًا لأول جمهورية بعد الانفصال في أيلول 1961.

لا شك أن الشعب الفلسطيني، بحكم أنه الشعب الذي ضاعت بلاده وشَرّد تحت كل كوكب، كان ولا يزال أكثر الشعوب العربية تأثرًا بالأحداث وتفاعلًا معها.

كان الانقلاب الذي فصم عرى الوحدة بين مصر وسوريا الحدث الحاضر في أذهان الناس وفي نقاشاتهم، الرجال والنساء والصبيان والبنات، في السهرات وفي الحارات وربما وقف أحدهم على سطح بيته ينفذ عملًا ما، ووقف آخر أسفل البيت وأجريا حوارًا أو تقييمًا لما يجري، والمشاعر المشتركة بين الجميع هي الشعور بالخسارة

الفادحة لفشل أول تجربة جادّة للوحدة العربية، وفي البداية كانت تراود الناس الآمال في أن يفشل الانقلاب، فقد تمردت على الانقلابيين حاميات في الجيش السوري خاصة حامية حلب وأمل الناس فيها خيرًا، لكنها في النهاية استسلمت للانقلابيين الذين قيل إنهم بعثيون وقيل إن لهم علاقة بالنظام الأردني وقيل إنهم ينتمون إلى الطبقة التجارية غير ذات المآرب السياسية وثمة تقارير لا تزال غامضة تفيد أن الانقلاب خُطّطَ له في دولة أوروبية وأن الانقلابيين قد تلقوا التمويل من دولة عربية، والشبهة تدور حول السعودية.

على الرغم أنني كنت في الأول الإعدادي وقتها إلا أن الأحداث الجارية، كانت تستولي على مشاعري، كانت مشاعر الإحباط عند الناس من جراء انهيار تجربة الوحدة تفوق بأضعاف مضاعفة مشاعر البهجة لديهم بسقوط حكومة الاتحاد العربي.

كانت الإذاعة الأردنية هي المصدر الإعلامي لمعظم الناس يضاف إليها إذاعة صوت العرب المصرية ودار الإذاعة البريطانية.

إذاعات مصر: القاهرة وصوت العرب، تناولت الموضوع من زاوية أن الشعب السوري والجيش السوري متمسك بالوحدة، وأن الانقلاب مصيره الفشل ولو بعد حين، ولم تكن تخفى نبرة الأسى والمرارة في لهجة المذيعين، أما إذاعة لندن فكانت تنحو منحى الواقعية وتغطية الخبر بمهنية، وانتظر الناس سماع موقف الأردن، وانتظرت سماع الموقف وسائل الإعلام العالمية؛ لأن موقف الأردن ينطوي على أهمية خاصة لكونها دولة الجوار من ناحية ولكونها تمثل مجموعة الدول العربية والإسلامية ذات التوجه اليميني.

في اليوم الأول من وقوع الانفصال النهائي شغلت الإذاعة الأردنية نفسها بالغناء؛ لأن الملكة منى الحسين (أنطوانيت غاردنر) حامل بولي العهد، ولم تتناول إذاعة الأردن في ذلك اليوم أي خبر آخر ولم تذِع أية نشرات سياسية.

كانت العلاقات بين مصر والأردن وقت وقوع الانقلاب تتسم بالهدوء، أي لم يكن فيها معارك كلامية بخلاف ما كان عليه الحال في معظم الأوقات. وكان الوئام

الظاهـري بـين الدولـتين اسـتثناء، وجـاء نتيجـة اتفـاق فرضتـه الظـروف.

أمـا الظـروف التـي فرضـت ذلـك الوئـام فهـي أن الملـك حسـين أراد أن يتـزوج فتـاة إنجليزيـة في ظـروف مريبـة، وخشي في مسـألة زواجـه الفضيحـة مـن وسـائل الإعـلام المصريـة وخاصـة الإعلامـي ذائـع الصيـت أحمـد سـعيد، مديـر إذاعـة صـوت العـرب، فقـرر التصالـح مـع مـصر لوقـف جميـع الحمـلات الإعلاميـة المتبادلـة، وكان عبـد النـاصر يقبـل الصلـح مـن أيـة دولـة عربيـة إذا عرضتـه ولا يدقـق في الدوافـع، وبالفعـل تـزوج الملـك زوجتـه الثانيـة وكان قـد طلَّق زوجتـه الأولى دينـا عبـد الحميـد التـي تكـبره بسـت سـنوات، والتـي أنجبـت منـه أولى بناتـه، الأمـيرة عاليـة، ولم تُـشر وسـائل الإعـلام الأردنيـة إلى اسـم أنطوانييـت غاردنـر في تغطيتهـا أخبـار الـزواج وكان التلفـظ بهـذا الاسـم لمـن يعرفـه _وقـلّ مـن كان يعرفـه_جريمـة، بـل أصبحـت منـذ أن عقـد قرانـه عليهـا: منـى الحسـين وقـد نُشرت صـورة الملـك مـع صـورة منـى الحسـين بالـزي الغـربي طبعًـا، في كل مـكان، واسـتمعنا إلى نـشرة أخبـار صـوت العـرب التـي يقدمهـا أحمـد سـعيد، لنعـرف مـا سـيقول عـن هـذا الـزواج الـذي كثـر حولـه الـكلام، فقـال في عُـرض النـشرة: تـم اليـوم عقـد قـران الملـك حسـين. ولم يـزد كلمـة واحـدة.

حصـل هـذا الـزواج سـنة 1961 وقبـل وقـوع الانقـلاب عـلى الوحـدة ببضعـة أشـهر وعنـد مـيلاد ولي العهـد في 30 كانـون ثـان 1692 سـماه أبـوه عبـد الله باسـم جـده. ونـادى بـه وليًـا للعهـد، ثـم إن الملـك حـوَّل ولايـة العهـد فيـما بعـد لشـقيقه الأمـير حسـن تمشـيًا مـع بنـود الدسـتور الأردني الـذي ينـص عـلى ضرورة أن يكـون ولي العهـد مـن أبويـن عربيـين (صميمـين)، وأضـاف إلى اسـمه «ال التعريـف» فصـار اسـمه «الحسـن»، ومـن المعـروف أن الملـك قبـل وفاتـه بقليـل، عـام 1999، عـاد مسـتعجلًا مـن الولايـات المتحـدة، حيـث يعالَـج مـن مـرض السرطـان الـذي أصبـح متقدمًـا، فعـدّل في الدسـتور وأعـاد ولايـة العهـد إلى ابنـه عبـدالله الـذي لم يلبـث أن أصبـح الملـك عبـد الله الثـاني.

أعـود إلى يـوم الانفصـال الـذي كان أشـبه بيـوم مأتـم للفلسـطينيين، الإذاعـة الأردنيـة ظلـت في اليـوم الأول تغنـي لـولي العهـد المنتظـر، وفي اليـوم الثـاني أعلنـت موقفهـا بـكل قـوة

إنه تأييد جارف للانقلاب وفرح عارم بما جرى، وقد استطاعت في ساعات أن تؤلف وتلحّن أغاني عن سوريا تدل على مطامع كانت للملك عبد الله الأول في أن تشمل مملكته ذات يوم سوريا الكبرى، وجدد الملك حسين تلك المطامع أكثر من مرة، وأولها هذه المرة، فكان من أبرز أغاني الإذاعة الأردنية: أنت سوريا لنا.

وظلت أحلام إعادة الوحدة بين سوريا ومصر تراود الكثيرين، وحدثت انقلابات في سوريا والعراق ومع كل واحد منها يتجدد الأمل في قيام حكومة الوحدة من جديد.

في سوريا ظلت الأوضاع تشهد انقلابات من ضباط برتب مختلفة وكلما وقع انقلاب وأعلن أنه يريد إعادة الوحدة، فتطير قلوب المهتمين بالأمر خاصة من الفلسطينيين فرحا.

وفي انقلاب أدى إلى حكومة لؤي الأتاسي انتعشت الآمال بعودة الجمهورية العربية المتحدة. كان معلّمونا ـ في مدرسة قصرة ـ لا يتمالك بعضهم أن يجلس على الكرسي حتى يطير إلى الدار التي يسكنها وهي مجاورة للمدرسة فيستمع إلى الإذاعة، ويأتي مسرورًا يحدثنا عما سمع ويبشرنا بأن الوحدة بين مصر وسوريا على وشك أن ترجع. ولكنه في كل مرة يخيب رجاء المتفائلين.

في سنة 1963 حدث انقلاب في سوريا أطاح بالحكومة الضعيفة التي كانت قائمة ونجح في فرض سيطرته على البلاد وكان الانقلابيون ينتمون إلى ثلاثة أحزاب قومية: حزب البعث العربي الاشتراكي وحزب القوميين العرب وجماعة الناصريين، ولم يكن للتوجه الإسلامي في ذلك الوقت أي دور بارز في الساحة السياسية، وتعدد الأحزاب التي قامت بالانقلاب سيؤدي حتمًا إلى المواجهة للاستفراد بالنفوذ، فمبدأ المشاركة السياسية الذي كان سائدًا في الأنظمة الديمقراطية الغربية، لم يكن له وجود في العقلية العربية.

انتهى الصراع في سوريا بين أقطاب الانقلاب إلى سيطرة حزب البعث اليميني، أو ما يسميه خصومه: حزب البعث العفلقي، نسبة إلى مؤسسه ميشيل عفلق، ولأن

ميشيل عفلق لا يمكن أن يكون رئيسًا لكونه منتميًا إلى الأقلية المسيحية في سوريا، تولى الرئاسة أمين الحافظ. وظل رئيسًا بين سنة 1963-1966.

أما في العراق، فعلى إثر الانقلاب الذي أطاح بالأسرة المالكة الهاشمية في شهر تموز 1958 أُعلن عن انتهاء الملكية وقيام الجمهورية برئاسة من اختاره الانقلابيون قائدًا لكونه أعلاهم رتبة هو عبد الكريم قاسم. وبمجرد أن استلم الرئاسة بدأ يحكم حكمًا فرديًا مطلقًا واستولت عليه مشاعر جنون العظمة، وسمى قاسم نفسه: الزعيم الأوحد، وبدأ يصفي خصومه السياسيين والعسكريين وكانت أشد حملاته على الشيوعيين إذ عمل على إبادتهم، ووقع في خلاف مع البعثيين ومع القوميين ومع الناصريين، وجرت ضده محاولات انقلاب عديدة لم تنجح، وأخيرًا، في سنة 1963 نجح الانقلاب الذي قاده عبد السلام عارف في الإطاحة بعبد الكريم قاسم وقدم لمحاكمة سريعة في دار الإذاعة ببغداد، ولم تكن محاكمة بل كانت توبيخًا يسبق الإعدام وخلال دقائق تمت مساءلته ولم تُجْد توسلاته فأعدم بإطلاق الرصاص عليه في 09/ 02/ 1963.

لم يأسف أحد من الفلسطينيين على زوال حاكم طاغية كان يناصب عبد الناصر العداء، ولا أمل فيه يرجى للوحدة العربية.

وعلى الرغم من أن قائد الانقلاب ضد عبد الكريم كان عبد السلام عارف الناصري القومي ذا المشاعر الإسلامية، إلا أن الفترة التي أعقبت الانقلاب شهدت صعود البعثيين في العراق كصعودهم في سوريا، وتشكل في بغداد مجلس قيادة الثورة كان للبعثيين فيه نصيب الأسد وكان المتنفذ الأول فيهم علي صالح السعدي وهو أحد قادة البعث وكان من قادة الانقلاب ضد الملكية وقادة الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم.

كانت الوحدة العربية هي الشغل الشاغل للجميع وكان حزب البعث يقول إنه رائد الوحدة العربية فقرر زعماء حزب البعث العراقي والسوري أن يدخلوا في محادثات مع جمال عبد الناصر لإقامة وحدة عربية من الجمهوريات الثلاث.

في الضفـة الغربيـة كان تفاعـل النـاس مـع محادثـات الوحـدة يتمثـل في المظاهـرات العارمـة. كنـت وقتهـا في الصـف الأول الثانـوي، في مدرسـة الجاحـظ الثانويـة، وكنـت أسكن أنـا واثنـان مـن أبنـاء العـم همـا: جميـل (نـاصر) إسـماعيل مـن جالـود والمرحـوم جـبر لبيب محمد من تلفيت في غرفة صغيرة في حارة القيسارية والمعروفة عند الجميع بحارة الجبالية، وكانت حياتنا حلوة لما فيها من العقلية المشتركة والخصائص المتقاربة لأولاد العم، ولم يكن فيها عيب إلا أنها لم تكن مضاءة بالكهرباء، بل كانت تضاء بمصباح ذي زجاجة يوقد بالكاز وعلى الرغم من خفوت النور الصادر عنه مقارنة بمصباح الكهرباء إلا أن الأمر لم يكن يُسبب لنا أي إزعاج؛ لأن بيوتنا أيضًا لم تكن تضاء إلا بمصباح الكاز ولم تكن الكهرباء قد دخلت القرى بعد، بل لم تكن دخلت كل بيوت المدينة، والغرفة التي نحن فيها ليست بدعًا من المساكن.

في تلك السنة: 1962–1963 كان الفصل الأول منها هادئًا ولكن الفصل الثاني وبالتحديد في شهر نيسان من تلك السنة حيث كانت المحادثات الثلاثية في القاهرة قائمة على قدم وساق، كان الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية يملأ الأسواق فوضى واضطرابات ومظاهرات. تجمع ذات يوم عدد من الطلاب المتحمسين للوحدة في ركن من أركان ساحة المدرسة بهدف الهتاف للوحدة وكنت واحدًا منهم، وكان إلى جانبنا مشغل لتعليم النجارة تابع للمدرسة، فتسلل إلينا لواذًا أستاذ النجارة، وأشار إلينا أن ابدؤوا، وبما معناه: كفاكم تلكؤًا، فصاح أحدنا: عاشت الوحدة العربية. ورددنا من خلفه: عاشت الوحدة العربية.

ثـم هتـف: عاشـت الجمهوريـة العربيـة المتحـدة. فرددنـا مـن خلفـه: عاشـت الجمهوريـة العربيـة المتحـدة. وبمجـرد أن انطلـق أول هتـاف قَـرع الجـرس وقـرع ثانيـة وثالثة وأمرنا المدير والأساتذة أن ندخل الغرف الدراسية مباشرة ومن غير اصطفاف في الساحة، وكان احترامنا أساتذتنا خطًا أحمر لا يمكن تجاوزه فدخلنا الصفوف طاعة لأساتذتنا إلا أن الجو كان مكهربًا في الخارج وبدأت الحصص تتوالى من غير فاصل الاستراحة التي مدتها خمس دقائق، ولكن الطلاب كانوا يخرجون صوتًا واحدًا من هذا الصف الدراسي فيجاوبهم آخرون من صف دراسيٍّ آخر وهكذا، ثم بدأ الطرق

على البوابة الخارجية للمدرسة من متظاهرين تجمعوا من الشارع، وهي البوابة التي تقع على الشارع مباشرة، ومع اشتداد الطرق من الجماهير الهائجة اشتدت الفوضى داخل المدرسة، ثم انفتحت البوابة وخرجنا من الصفوف إلى الشارع وبدأنا نطوف الشوارع وثمة رجل محمول على الأكتاف، يهتف والجميع يردد من خلفه وهتافه كان لجمال عبد الناصر ولا يسميه باسمه، بل يسميه الرِّيس، ثم مررنا بعدد من ضباط وأفراد الشرطة والجيش أمام مبنى المقاطعة، فانقلبت الهتافات إلى هتافات تحريضية، لتثير النخوة في صدور الضباط الأحرار ومنها: حيوا الضباط الأحرار.

استمر إغلاق المدارس أيامًا عديدة وكذلك الفوضى والمظاهرات. وما هدأت إلا بعد جهد جهيد. أما محادثات الوحدة نفسها فقد استمرت عشرة أيام (من 7 إلى 17 نيسان 1963) وانتهت باتفاق على اتخاذ خطوات متدرجة ومتأنية تنتهي بالوحدة، وقد أخذ زعماء تلك الدول العبرة من سلبيات تطبيق الوحدة السابقة بين مصر وسوريا. ورجعت الوفود إلى بلدانها ولم تمض سوى فترة بسيطة حتى انقلب حزب البعث في سوريا والعراق على الوحدة وسجن الضباط الناصريين والقومين واستقل بعث العراق بالحكم تحت قيادة علي صالح السعدي وقتًا قليلًا، حتى قام عبد السلام عارف وهو وحدوي ناصري بالاستيلاء على السلطة في العراق وأصبح رئيس الجمهورية وكان موضع أمل عند الفلسطينيين محبوبًا إليهم مثل جمال عبد الناصر، وكان يريد خطوات متأنية مدروسة للتوصل إلى الوحدة وهو متفق في ذلك تمامًا مع عبد الناصر.

أما في سوريا فظل حزب البعث اليميني (العفلقي) في السلطة حتى سنة 1966، وكان هذا الحزب لا يخفي يمينيته وقد أقام أحسن العلاقات مع الحكومة الأردنية وصار مواطنو الدولتين يتنقلون بين البلدين بالهوية.

إيلي كوهين

في يوم الثامن عشر من أيار 1965 تم إعدام جاسوس إسرائيلي في سوريا اسمه إيلي كوهين، كانت قضية كوهين فضيحة العصر بالنسبة للنظام السوري المحكوم

بحزب البعث العفلقي، وكانت قصة اكتشاف الجاسوس مجال الحديث للجميع على مختلف المستويات، وأهم جزء من أجزاء القصة هو مسارعة السوريين إلى إعدامه، وفي اليوم الذي ألقوا فيه القبض عليه والإجماع بين الناس أن المسئولين السوريين من مدنيين وعسكريين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية أمين الحافظ كانوا يخشون من أن يتكلم فيفضحهم.

والجانب الطريف من القصة يدور حول طريقة اكتشافه، فقد اكتشفه الجاسوس المصري رأفت الجمال، إذ إن الجمال كان في تل أبيب بصفة يهودي صاحب مكتب سياحة وله صديقة يهودية مغربية اسمها ليلى عرّفته على زوج شقيقتها ناديا في تل أبيب، وباسمه الحقيقي إيلي كوهين، ثم شاهد الجمال صورة كوهين على صفحات إحدى المجلات اللبنانية برفقة الفريق أول علي علي عامر، قائد القيادة العربية المشتركة التي أنشأتها قمة الإسكندرية عام 1964 فطار إلى أوروبا بحجة أنه ذاهب للاتفاق على استقبال المجموعات السياحية، فتقابل مع الضابط المصري المكلف بالاتصال به واصطحب معه المجلة اللبنانية وأكد له أن الوجه الظاهر فيها إلى جانب الفريق أول هي صورة كوهين الذي تعشى معه في تل أبيب، ورجع الضابط المصري إلى القاهرة وجرى البحث في الأرشيف ومقارنة الصور، فتأكدت المخابرات أن هذا الذي اسمه كمال أمين ثابت ما هو إلا اليهودي الإسكندراني المولد إيلي كوهين المطرود من مصر لنشاطه في أوساط الجالية اليهودية في الإسكندرية. كان مدير المخابرات المصرية وقتها صلاح نصر، فاستقل طائرة خاصة وطار بها إلى دمشق وأطلعهم على حقيقة هذا الذي كان على وشك أن يعيّن وزيرًا للزراعة وكانت فرصته كبيرة جدًا في أن يصبح بعدها رئيسًا للوزراء.

في يوم من أيام شهر آذار من عام 1965، وكنت وقتها في سنة التوجيهي، وقبل فضيحة كوهين بشهرين حدثت زيارة بورقيبة، وجمعونا في ساحة المدرسة ووقف مدير المدرسة المرحوم مصطفى البظ يلقي علينا التعليمات الرسمية باستقبال الزائر الكبير الذي سيزور نابلس وهو الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية وتحدث لنا المدير عن الزائر الضيف وكفاحه في وجه الاستعمار الفرنسي إلى أن حرر تونس.

لم يكـن هـذا مـا يعنينـا مـن الزائـر، ولكـن كان مبعـث سرورنـا أن الحصـص سـتكون مختـصرة وسـنخرج لاسـتقبال يجتمـع فيـه الطـلاب والطالبـات ورجـال ونسـاء.

جـاء الضيـف وكان نزولـه في لوكانـدة فلسـطين، وكانـت هـذه اللوكانـدة _عـلى تواضعهـا_ الفنـدق الوحيـد في نابلـس الـذي يمكنـه أن يسـتقبل رئيـس جمهوريـة.

وقفنـا نحـن الطـلاب في الشـارع المقابـل للوكنـدة، وخـرج الحبيـب بورقيبـة إلى الشرفـة يحيـي الجماهـير هـو وعقيلتـه الماجـدة وسـيلة، وكدليـل عـلى حبـه لهـا طـوّق كتفيهـا بذراعيـه فنـال بعـض التصفيـق الكـذاب ولكـن الهتـاف الـذي تلقـاه كان لعبـد النـاصر ممـا أصابـه بالإحبـاط فانقلـب هـو والماجـدة وسـيلة إلى داخـل الفنـدق، وتفرقـت الجماهـير غـير فخـورة باللقـاء.

انـصرف بورقيبـة مـن الأردن وأخـذ يـصرح تصريحـات كانـت تعتـبر في ذلـك الوقـت الـردة والكفـر والخيانـة بعينهـا، إذ صرَح بـأن العـرب لا يسـتطيعون مواجهـة إسرائيـل وأنـه في زيارتـه لـلأردن اطلـع عـلى غيـاب أي تخطيـط وأيـة إسـتراتيجية وأيـة مقـدرة عـلى مواجهـة إسرائيل.

لم يكـن هـذا الموقـف يعتـبر عقلانيًـا وواقعيًـا كـما تتبنـاه الآن جميـع الـدول العربيـة في المـشروع الـذي كان الصحيـح أن يسـموه (مـشروع الرضـوخ والاستسـلام العـربي) إلا أنهـم سـموه (مـشروع السـلام العـربي) ولم يتراجعـوا عنـه عـلى الرغـم ممـا رأوا كيـف نظـرت إليـه وإليهـم إسرائيـل بـازدراء.

خرجـت الجماهـير في فلسـطين منـددة ومسـتهجنة أقـوال بورقيبـة. خرجنـا نحـن الطـلاب في مظاهـرات عارمـة وقـد رُفعـت للحبيـب صـورة وهـو يبتسـم ابتسـامة عريضـة، وزُيّنـت الصـورة بفـردة حفايـة (شبشـب زنوبـة) عـن اليمـين وفـردة عـن الشـمال، ثـم وقـف أحـد المتظاهريـن وأخـرج مـن جيبـه منديـلًا ونشره لـيراه الجميـع، فـإذا عليـه صـورة الوجـه للرئيـس جمـال عبـد النـاصر فهاجـت الجماهـير مهللـة، تطلـق عبـارات الترحيـب والتحيـة لصاحـب الصـورة وجابـت الجماهـير الشـوارع تـردد عبـارات التخويـن لبورقيبـة والتأييـد لعبـد النـاصر.

ثم سكنا دارًا مضاءة بالكهرباء

في هذه السنة كنت في الصف التوجيهي الأدبي، وقد اخترته على الفرع العلمي مع أنني خُيِّرت بين الفرعين؛ لأنني كنت في الدروس الأدبية متفوقًا وفي العلمية متوسطًا.

كنت وزميلين استأجرنا غرفة في خلة العامود بنابلس فيها مصباح كهربائي، وأجرتها ثلاثة دنانير شهرية محسوب منها أجرة الكهرباء، لم تكن غرفة بمعنى الكلمة، بل إنها تقع تحت دار مالكيها، وبنوها أولًا لتكون خزان ماء، لذا فجزء منها تحت الأرض وكنا ننزل إليها بدرجات، فغير مستغرَب أنها كانت من غير شباك، وقد فتحوا لها بابًا عندما وجدوا أنها لا تصلح خزانًا وقرروا تأجيرها للطلاب.

لم يكن عيبها أنها من غير شباك، فهذا أمر مقدور عليه، لكن عيبها الأكبر أنها كانت من غير دورة مياه، وكنا إذا احتجنا إلى الدورة ليلًا ننتظر إلى الفجر ثم نتوجه إلى دورة المياه الملحقة بالجامع الصلاحي الكبير على بعد أكثر من كيلو متر منا.

كان هذا الوضع لا يطاق خاصة بعد أن أصبحنا على أبواب الشتاء، فأخذنا نبحث عن دار جديدة، ولم نلبث أن جاءنا صديق بالبشرى، فصاحبة الدار التي يستأجرها ذلك الصديق أصبحت دار أهلها فارغة؛ لأن أباها وأمها ذهبا إلى الكويت عند شقيقها. وفي الدار دورة مياه، وهي قريبة من مدرسة الجاحظ حيث ندرس، وهذا كله جيد، فوافقنا دون تردد واستأجرنا الدار التي هي غرفة واحدة، وجئنا بحمالين ومع كلٍّ منهما عربة خشبية صغيرة تُدفع باليد وحملنا أغراضنا البسيطة وتوجهنا إلى الدار الجديدة ووصلناها بعد طول نكد مع الحمالين اللذين شعرا أن الأجرة التي اتفقنا معهما عليها، والبالغة عشرة قروش لكل منهما، لم تكن كافية، ولكنني أصررت عليها وتوليت المناكفة معهما واستراح صديقاي واكتفيا بالتفرج.

أدخلنا أغراضنا ورتبناها وأخذنا نتفقد دارنا الجديدة فإذا هي غرفة واسعة لها شبابيك ولها برّاكية (غرفة من التنك) ودورة مياه. أبدينا رضانا وجلسنا نستريح فإذا رجل وامرأة يدخلان الدار وقد فوجئنا بهما، إنهما صاحبا الدار. لقد ضاقت زوجة

ابنهما بهما ذرعًا واختار الابن رضا زوجته وضحى بوالديه، فقفلا راجعين، دون علم مسبق من السيدة ابنتهما، فلم يكن ثمة هواتف بين الدول ولا حتى داخل المدينة إلا على نطاق ضيق جدًا وكان هاتف سينما العاصي مثلًا، يحمل رقم (2). كانت مفاجأة غير سارّة لنا، وعلينا أن نبحث في اليوم التالي عن دار، وأخيرًا عثرنا عليها بالقرب من تلك الدار التي بتنا فيها ليلة واحدة، أول حارة القيسارية، فيها كهرباء، قضينا فيها بقية السنة الدراسية.

زيارة الملك لنابلس

صباح ذات يوم من عام 1964، ونحن مصطفون في ساحة المدرسة تمهيدًا لدخول الصفوف وقف المدير وأعلن أن (جلالة الملك المعظم) سيزور نابلس في هذا اليوم، وقال لنا: سوف تخرجون لاستقباله وبالتالي سوف تقلّص الحصص.

أعجبنا ما سمعناه، فسوف يكون هذا اليوم غير عادي، وبالفعل سيق جميع طلاب وطالبات المدارس إلى الشوارع التي من المتوقع أن يمر منها الملك بإشراف معلميهم ومعلماتهم، ووقفنا أكثر من ساعتين، وأخيرًا جاء الملك وتوجه إلى مكتبة بلدية نابلس حيث سيكون استقباله وغداؤه هو والمدعوون. وملأنا الشارع الذي أسفل المكتبة، طلابًا وطالبات ورجالًا ونساءً ووقفنا نستمع إلى خطابات الخطباء وأذكر منهم رئيس البلدية وقتها، المرحوم حمدي كنعان، ثم وقف شاعر الملك يلقي قصيدة عصماء، إنه سيف الدين زيد الكيلاني. هذا الشاعر عيَّنه الملك فيما بعد مديرًا لموكب الأمير حسن عندما عين الأخير وليًا للعهد بدل ابنه عبد الله بن الحسين.

تناول الضيوف طعام الغداء في المكتبة فاتخذ كثير منهم الكتب بدل الصحون يضعون فيها اللحم والدجاج، وكثير من الكتب التي شهدت تلك الزيارة، لا تزال آثار الدجاج على صفحاتها.

إن الذي لا ينمحي من الذاكرة هو ما حدث بعد انفضاض المستقبلين، فبشكل غير مسبوق اختلطت الطالبات والفتيات بجموع الشباب وحدث زحام شديد ووقع

تحرش لا سابقة له وبتساهل من الفتيات غريب، وكان ذلك موضوع أحاديث الشباب على نطاق واسع.

الأحداث السياسية الكبرى في تلك السنة (1964-1965)

في منتصف الخمسينات كانت إسرائيل قد بدأت في رسم الخطط للاستيلاء على مياه نهر الأردن لتحويلها إلى منطقة النقب الصحراوية، وقد رسمت خطط التحويل عام 1957 وبدأ الإسرائيليون العمل الصامت وغير المعلن عنه في تحويلات متفرقة للمياه، ثم رسمت خطة شاملة لتحويل مياه نهر الأردن مدتها سبع سنوات كمرحلة أولى تنتهي عام 1964، وقد واجهت الدول العربية مخططات التحويل بالطبول والصياح والتهديد الكاذب.

يا ويلك يا اللي اتعاديه لو حوّلت المجرى شوية

إلا أن الدولة الصهيونية كانت ماضية قدمًا في التحويل متجاهلة التهديدات العنترية العربية ومعتبرة إياها لا تستحق الرد. وتم إنشاء نفق عيلبون في منطقة البطوف لتمر منه المياه انسيابيا ونفق (منش) في موقع آخر وحفر القناة الرئيسة وطولها ثمانون كيلو مترًا وتوزيع الأنابيب الرئيسة فيها ثم طمرها، واقترب موعد الاحتفال بتنفيذ الجزء الأول من المشروع، ولم يعد حمار الكذب قادرًا على الطراد، ولم تكن حكومة الأردن، وهي المتضرر الأول، هي المسئول في نظر الناس أو من يوجّه له العتب، فهي في نظر نفسها ونظر شعبها ونظر العالم كله أضعف من أن تفعل شيئًا أمام المخططات الإسرائيلية، لكن مصر كانت هي المسئولة وعليها يقع العتب وإليها تتجه الأنظار، وتعلم الحكومة المصرية أنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا لمنع إسرائيل من الاستيلاء على مياه نهر الأردن، فإن مجلس الأمن قبلها أعلن رفضه لهذا المشروع الذي هو تعد سافر على حقوق جيران النهر في المياه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا. فلم يكن أمام عبد الناصر إلا أن يمد يد المصالحة مع الدول التي تناوئه، وهي بالدرجة الأولى الأردن والسعودية، وكانت علاقته بالسعودية متوترة دائمًا، أما بالأردن فكان الملك حسين يصالح عندما تقتضي مصلحته ذلك، ثم عندما تنتهي مصلحته يعود إلى الحرب الكلامية والمقاطعة السياسية.

وظـل الحـال كذلـك إلى أن دعـا عبـد النـاصر إلى مؤتمـر القمـة العـربي الأول في مطلـع كانـون ثـانٍ 1964، وكان الملـك حسـين مـن أول المسـتجيبين وتوقفـت الحمـلات الإعلاميـة وانعقـد المؤتمـر في الإسـكندرية في الشـهر نفسـه وناقـش الحـاضرون الخطـوات التـي يجـب عليهـم القيـام بهـا للوقـوف في وجـه النيـة الإسرائيليـة الوشـيكة لاغتصـاب ميـاه نهـر الأردن وروافـده، واتخـذ المؤتمـر ثلاثـة قـرارات هامـة: إنشـاء قيـادة عربيـة موحـدة بـين مـصر والأردن وسـوريا بقيـادة الفريـق أول (المـصري) عـلي عـلي عامـر، وإنشـاء سـد خالـد عـلى نهـر اليرمـوك، لقطـع رافـد رئيـس عـن نهـر الأردن، وإنشـاء منظمـة للفلسـطينيين تمثلهـم في المحافـل الدوليـة وتعمـل عـلى إنشـاء جيـش لهـم تقـوم الـدول العربيـة بتمويلـه وتسـليحه ليكـون قـادرًا عـلى شـن حـرب عـلى الدولـة الصهيونيـة الغاصبـة وتحريـر فلسـطين وإعادتهـا لأصحابهـا.

وكلّـف المؤتمـر ممثـل فلسـطين في جامعـة الـدول العربيـة أحمـد أسـعد الشـقيري بالعمـل عـلى إخـراج الفكـرة إلى حيـز الوجـود.

أخـذ الشـقيري يتجـول في مواقـع الفلسـطينيين في الضفـة الغربيـة التابعـة لـلأردن وقطـاع غـزة الواقـع تحـت الإدارة المصريـة وفي سـوريا ولبنـان وسـائر الأماكـن التـي للفلسـطينيين فيهـا تجمعـات، وخـلال شـهرين تمكـن مـن إنشـاء اللجـان التحضيريـة التـي كانـت مهمتهـا اختيـار الأشـخاص الذيـن سيشـاركون في المؤتمـر الفلسـطيني الأول ووضـع مشروعـي الميثـاق القومـي الفلسـطيني والنظـام الأسـاس لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية.

انعقـد المؤتمـر في مدينـة القـدس في الفـترة مـن 28 آذار – 2 نيسـان/ 1964 وسـمي المجلـس الوطنـي الفلسـطيني الأول، كان عـدد أعضائـه 397 عضـوًا وافتتحـه الملـك حسـين عـلى الرغـم مـن شـدة بغضائـه للمشروع كلـه، وعـلى مـدى خمسـة أيـام تـم إقـرار صيغـة الميثـاق القومـي الفلسـطيني وإقـرار النظـام الأسـاس لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية التـي قـرر المؤتمـر إنشـاءها وكلـف الشـقيري برئاسـتها وأن يختـار أعضـاء قيادتهـا وأن يكـون عددهـم 15 عضـوًا تحـت مسـمى: اللجنـة التنفيذيـة لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية، وتقـوم اللجنـة التنفيذيـة بإنشـاء هيكليـة المنظمـة وإنشـاء الهيئـات واللجـان المنبثقـة عنهـا وتقـوم

كذلك بالإشراف على سير عمل اللجان والهدف الأساس طبعًا هو تحرير فلسطين كل فلسطين، من نهرها إلى بحرها.

ذات يوم في أواخر عام 1964 أُعلن في نابلس أن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية السيد أحمد الشقيري سيقوم بزيارته الأولى للمدينة، وأنه سيُلقي خطابًا في قاعة سينما غرناطة مساءً. لم يكن الشعور السائد أننا سنستقبل بطلًا فاتحًا، أو أن منظمة التحرير إنجاز يستحق أن تنطلق الحناجر بالهتاف له، كان الشعور السائد أنها مجرد منظمة أنشأها مؤتمر قمة عربي لأهداف سياسية، وأنها لن تكون كفؤًا للكيان الصهيوني بأي وجه من الوجوه، ولكن ذهب إلى مكان الاجتماع أعداد غير قليلة من الناس، المتميزون منهم دخلوا قاعة السينما والطلاب والمواطنون العاديون وقفوا في الشارع يستمعون إلى الخطاب من ميكروفون تم تثبيته لإسماع الذين في الخارج، وذهبت إلى المكان ووقفت في الشارع مع من وقف، واستمعنا إلى الخطاب الذي لم نستنتج منه شيئًا، إذ لم يكن عند الخطيب بضاعة يعرضها، ولم أستوعب من خطابه إلا ترديده مرات لا تحصى: كنت حاضرًا في مؤتمر القمة ولم أكن مجرد مستمع بل كنت مشاركًا.

وانتهى الخطاب وانفض الحاضرون وكلهم مجمعون أن الرجل ليس في جعبته شيء وأن المنظمة التي يرأسها هي مجرد شيء إلا أن بعض الشباب راودهم شعور بالحماس فتهافتوا على سيارته ليحملوها، فصاح بهم من في السيارة: لستُ الشقيري، أنا عبد الرؤوف الفارس (وكان بين الرجلين تشابه في الخِلقة)، فتركوه وانصرف كل منهم إلى شأنه. وكان الاجتماع على كره شديد من الحكومة الأردنية التي بدأت تشعر أن ثمة كيانًا يتحرك في أرضها غير واقع تحت سيطرتها، فمنظمة التحرير الفلسطينية كانت مشروعًا بغيضًا على الأردن ويتنافى مع إستراتيجية الحكومة الأردنية القائمة على أنه من غير المستطاع مواجهة إسرائيل، وأن إسرائيل حقيقة واقعة. وقيل وقتها: إن الدار التي بات فيها الشقيري تعرضت لإطلاق نار كثيف في الليلة التي تلت مبيته إلا أن حكومة الأردن لم يكن بوسعها ـ في البداية ـ أن تقول شيئًا، فقد وافقت على إنشاء المنظمة لتتخلص من حرج أن تُنهب مياهها وعيناها تنظران. وكل من كان له أدنى اطلاع على موازين القوى في ذلك الوقت يعلم أن الأمر كله أكذوبة مفضوحة وحيلة

لـدى الـدول العربيـة وخاصـة مـصر للحفـاظ عـلى بعـض مـاء الوجـه.

لم تطـل علاقـة الوئام السـطحية بين منظمـة التحريـر الفلسـطينية والأردن، فالتناقض بينهـما قائـم بشـكل لا يمكـن التغطيـة عليـه بتصنـع المـودة. لـذا حدثـت القطيعـة بينهـما بعـد فـترة قصـيرة مـن إنشـائها ولم يعـد بوسـع الشـقيري أن يـزور الأردن وصـار يهاجـم الملـك حسـين مـن القاهـرة، وكان أكثـر هجومـه منصبًا عـلى الفسـاد والإثـراء غـير المشروع الـذي كانـت حكومـة الأردن غارقـة فيـه، وكذلـك عـلى تـرف الملـك حسـين وبذخـه ويلمـح الشـقيري في خطاباتـه إلى مـا يفعلـه الملـك حسـين في العقبـة ويكـرر دائـمًا: العقبـة مـا العقبـة، ومـا أدراك مـا العقبـة، فـك رقبـة.

كان جمهـور الفلسـطينيين دائـمًا مـع عبـد النـاصر الـذي كان في الغالـب عـلى تناقـض وعـداء مـع حكومـة الأردن ومعـارك كلاميـة وإعلاميـة تبلـغ في كثـير مـن الأحيـان حـد الإسـفاف.

وكانـت الأردن تمنـع مواطنيهـا منعًـا باتًـا مـن الاسـتماع إلى الإذاعـات المصريـة وعـلى الأخـص إذاعـة صـوت العـرب.

وقـد فُصـل جنديـان مـن الجيـش، وكانـا عـلى وشـك التقاعـد؛ لأن جنديًـا أعرابيًـا وشى بهـما أنـه أصـاخ السـمع مـن خلـف الخيمـة، إلى نـشرة أخبـار كانـا يسـتمعان إليهـا فـإذا هـي مـن صـوت العـرب. فصلهـما الشريـف نـاصر قائـد الجبهـة الشرقيـة، وكان أحدهمـا يمـت إلى عائلتنـا بخؤولـة وكان وزيـر الدفـاع قريبنـا عبـد القـادر الصالـح فحـاول بسـلطان المنصـب إعادتهـما أو إعطاءهمـا إجـازة إلى حـين اسـتحقاقهما التقاعـد بعـد بضعـة أشـهر، لكنـه وجـد أنـه سـيصطدم بالشريـف نـاصر الـذي هـو بالاسـم تحـت إمـرة وزيـر الدفـاع، لكنـه بالفعـل لم يكـن تحـت إمـرة أحـد إلا الملـك، فانتظـر الوزيـر حتـى طـار الشريـف إلى لنـدن في حالـة مـن غضـب الملـك عليـه، فتـم تدبـير الأمـر مـع (مديـر المرتّـب) في الجيـش وكان صديقًـا للوزيـر.

دعوة ملكية

في شهر أيار 1965 كنت في صف التوجيهي وكنا نستعد للامتحانات، وقد انقطعنا عن الذهاب إلى المدرسة إذ ختمنا الدروس في وقت مبكر من شهر نيسان.

ذهبنا ذات يوم إلى المدرسة لنستلم بطاقة الامتحان ورقم الجلوس، فإذا المدرسة تسلم كلًا منا بطاقة دعوة وقرأ كل بطاقته، فإذا فيها أن جلالة الملك سيحضر في ذلك اليوم (يوم أن استلمنا البطاقات) من شهر أيار حفل تخريج كتيبة أنهت تدريباتها وسوف يسلمهم الرايات، وفي آخر البطاقة: يتشرف قائد اللواء بدعوتكم إلى حضور الاحتفال وتناول طعام الغداء في المعية السامية.

أحضروا لنا ناقلات الجيش فصعدنا وتوجهت بنا إلى معسكر حوارة، فإذا المدعوون كثر من مخاتير ورؤساء دوائر ووجهاء المنطقة، نزلنا من السيارات وقادونا إلى المكان المخصص لنا في مدرج صغير مشرف على الساحة التي سيجري فيها تخريج الكتائب. بدأ الجنود يقدمون لنا مشروب الضيافة الذي هو قنينة ببسي كولا، وشغلنا عن الببسي كولا بمراقبة الاستعدادات التي كانت جارية أمامنا. شاهدنا قائد الجيش الفريق حابس المجالي يتمشى رويدًا يتكلم والسيجارة في فمه، وإلى يمينه متأخرًا بخطوتين اللواء الشريف ناصر بن جميل وكان يتبع خطوات قائده (ومعروف عنه أنه كان شديد الالتزام بالمظاهر)، فإذا مشى الفريق المجالي مشى اللواء ناصر وإذا توقف الفريق توقف اللواء وعليه كل مظاهر التأدب مع قائده، وكان المجالي يتكلم والسيجارة في فمه، أما الشريف فلم يحمل السيجارة تأدبًا أمام قائده، ثم جاء كبار ضباط اللواء في ملابس التشريفة طبعًا، فكان الواحد منهم يتقدم من قائد الجيش مسافة تسمح له بمصافحته، فيؤدي للقائد التحية العسكرية فيرد عليه المجالي بتحية عسكرية، ثم يمد الضابط يده مصافحًا فيمد القائد يده، ثم يتأخر الضابط خطوتين إلى الخلف ويؤدي التحية مرة أخرى فيرد عليه القائد بتحية مماثلة، ثم ينصرف الضابط ويأتي ضابط آخر فيؤدي تلك المراسم. كانوا يسلمون على قائد الجيش وحده ولا يسلمون على نائبه الأول اللواء الشريف ناصر بن جميل.

بعد قليل حدثت حركة سريعة للضباط فعلمنا أن الملك قد وصل. نزل الملك من السيارة فانحنى قائد الجيش على يد سيده انحناءة من يريد تقبيلها _وكنا في تلك اللحظة نراقب المشهد وقوفًا_ وكانت مشاهدة الملك عن قرب تعتبر شرفًا يتمناه كل مواطن، فأخذ بعض الطلاب يرددون بصوت عالٍ: باس إيده، باس إيده، ولم أشاهد إلا الانحناءة ويقيني أن الذين رددوا تلك العبارة إنما رددوها تخمينًا أو تندرًا. سارت الكتائب في الميدان وسلمها الملك الرايات في مراسم محددة، ثم قالوا لنا: إنكم ستسلِّمون على الملك وتوجهنا إلى حيث يقف الملك وحوله عدد من كبار الضباط كل منهم واقف في مكان لا يتحرك وكأن على رؤوسهم الطير، وكان علينا أن نمر أولًا على صف من الضباط ينظرون في هيئة كل واحد منا ويصلحون أي خلل يرونه، فمثلًا رأوا شابًا قد زرّر جاكيته، ففتحوا له الجاكيت وهكذا وأخيرًا وصلنا إلى الملك وجاء دوري فمددت يدي إليه فمد يده وتمتمت بالتحية، بكلمات لم تخرج من شفتي، فتمتم بكلمات لم تخرج من شفتيه وانحنيت قليلًا لدى السلام، ثم سرت في طريق الانصراف، ولم يكن مسموحًا بطبيعة الحال العودة إلى الخلف؛ لأن الملك لا يدار له الظهر بل يتوجه المسلم عن يمين الملك في طريق يخرج فيها من المجال.

ثم طُلب من الحضور التوجه إلى موقع الغداء وكان الغداء مناسف اللبن بلحم الخاروف، وقد وضع كل منسف على طاولة صغيرة من غير كراسٍ فالأكل (على الواقف)، وكان في أول الموقع منسف من الواضح أنه خاص، إذ إنه حافل بأنواع اللحوم وحوله كراس وكنبات من النوع الفخم، قدّرتُ أنه ليس للعموم فلم أحاول التوجه إليه، لكن صديقي محمد توفيق _عليه رحمة الله_ من قرية جوريش، استهواه المنسف الذي لم يكن وقف عليه أحد بعد، فتوجه إليه وقبل أن يمد يده جاءه ضابط وقال له: عفوًا يا أخ، هذه مائدة جلالة الملك، فانقلب إلى المنسف القريب منه وجاء الملك ومعه كبار المقربين منه، وانشغل صديقي عن الغداء برصد غداء الملك.

وقفت إلى أول منسف وصلت إليه وكنت أول من وقف عليه، ثم بدأ الناس يتقاطرون ويسدون أطراف الطاولات ويأكلون على أنغام موسيقى. كانت الوليمة حافلة بالكنافة وأنواع الفواكه. فكانت وليمة ملكية لا تنسى. عدت إلى القرية

وقصصت على الأهل أنني تغديت مع الملك، فطارت الأخبار في أرجاء القرية ولم يكن الشيء الباهر الغداء في المعية الملكية وحده، بل أعظم منه أنني شاهدت الملك بعيني رأسي، وفي اليوم التالي مررت بورشة بناء فقال لي المعلِّم: هل صحيح أنك شاهدت الملك بالأمس؟ قلت له: صحيح وسلمتُ عليه أيضًا. فقال بدهشة وبلهجة فيها الغبطة: أرني يدك التي سلمت على الملك. فقلت له: هذه يدي.

الفاجعتان

كان عام 1966 عامًا مشؤومًا وكان في الوقت نفسه نذير شؤم أكبر، ففي هذا العام فجعت الأمة باستشهاد الرئيس العراقي عبد السلام عارف في حادث مؤسف، وبعده بأربعة أشهر أقدم الرئيس المصري على إعدام المفكر والعالم الإسلامي الكبير سيد قطب وكان للفاجعتين رنة أسى وأسف لا تفارق ذاكرة من عايش تلك الأحداث:

أ- عبد السلام عارف:

كان العراق قد شهد انقلابات عديدة أولها انقلاب عبد الكريم قاسم على الأسرة المالكة ثم انقلاب الضباط البعثيين والقوميين على عبد الكريم قاسم وكانت الغلبة فيه _لفترة بسيطة_ للبعثيين اليمينيين بقيادة علي صالح السعدي، ثم انقلاب القوميين الوحدويين على البعثيين الذي قاده عبد السلام عارف وأصبح رئيسًا للجمهورية، وكان عند الفلسطينيين موضع ثقة لا يرقى إليه الشك وله عندهم مكانة كمكانة عبد الناصر ومأمول منه أن يسير في خطا الوحدة وأن يُصلح ما أفسده البعث العراقي والبعث السوري في ضربهم لمشروع الوحدة الثلاثية قبل أن يرى النور سنة 1963. وكان عبد السلام عارف يسير في هذا الاتجاه بالفعل، وفي يوم 13/ 04/ 1966 وكنت في الجامعة في السنة الأولى، وقع على رؤوسنا نبأ كالصاعقة، فقد أذيعت أنباء سقوط طائرة الرئيس عبد السلام عارف في منطقة البصرة حيث كان في رحلة استطلاعية مما أدى إلى مقتل الرئيس. يا له من يوم أسود، كان الطلاب المهتمون بالسياسة من ذوي الميول القومية والبعثية السورية، يتجرعون الأسى ويعزي بعضهم بعضًا وكنت

من أصحاب الميول الوحدوية. لقد لاحظت وجمعًا من الزملاء المفجوعين أن بعض الطلاب يتحدثون ويضحكون وكأن شيئًا لم يكن، أو باعتبار أن الفاجعة لا تعنيهم فشعرنا نحوهم بالازدراء، ثم دخل القاعة محاضر علم النفس وكان متجهمًا فظننا أنه حزين مثلنا وأنه سيتكلم عن الفاجعة، لكنه عندما بدأ يتكلم دخل في موضوع علم النفس مباشرة وتبين لنا أن تجهمه كان ناتجًا عن تفكير في مثل يضربه لنا تمهيدًا لشرح مسألة من مسائل علم النفس، فخاب أملنا فيه.

اجتمع مجلس الثورة العراقي على أثر استشهاد الرئيس وقرر أن يلقي بمقاليد الرئاسة لشقيقه عبد الرحمن عارف الذي كان سفير العراق في موسكو، وهو رجل طيب وعلى جانب من التقوى، إلا أنه كان لا يستخدم الدهاء ولا الحذر من مؤامرات الطامعين في السلطة كما أنه قرّب من حوله أناسًا غير مرغوبين من قبل الشعب وأهمهم طاهر يحيى الذي جعله رئيس وزراء، فكان من السهل على حزب البعث أن ينفذ انقلابًا عام 1968 . ولأن عبد الرحمن عارف شخصية محترمة فقد ترك له الانقلابيون أن يختار المنفى الذي يفضله، فاختار لندن منفى له، وتولى السلطة البعثيون التكارتة وكان الرئيس أحمد حسن البكر التكريتي ونائبه الأول صدام حسين التكريتي ووزير دفاعه حردان التكريتي وتكارتة غير ذلك كثير.

ب- سيد قطب:

كان سيد قطب أحد الأعلام الكبار في مجال الدعوة الإسلامية بعد أن هداه الله، وكان قبل ذلك علمانيًا من أنصار طه حسين. وساءت العلاقات بين الثورة المصرية والإخوان المسلمين إلى درجة كبيرة، وأَعدم النظام عددًا منهم في الخمسينات واعتقل الآلاف، ثم أفرج عن معظمهم سنة 1965 وكان من المفرج عنهم سيد قطب، ولم تمض شهور حتى أُعيد اعتقاله بتهمة التخطيط لجلب سلاح من الخارج لمقاومة النظام المصري. كان أنصار الجمهورية العربية المتحدة يصدّقون ما وجّه إلى الإخوان من تهم، وظلوا يرون أن إعدام سيد قطب كان جزاء وفاقًا، إلا أن كثيرين كانوا يرون في التهم مبالغة إن لم تكن تلفيقًا بالكامل. وتبين فيما بعد من مصادر إخوانية أنها لم تكن تلفيقًا

ولكـن التهمـة عظّمتهـا الحكومـة المصريـة، وتنـاول ذلـك بالتفصيـل الكاتـب الإخـواني، صـلاح الخالـدي في كتابـه: سـيد قطـب مـن الميـلاد حتـى الاستشـهاد. وفي 29/ 08/ 1966 أُعلـن عـن تنفيـذ حكـم الإعـدام في سيد قطـب والقياديين الآخرين مـن الإخوان المسـلمين المتهمَين بالضلـوع في المؤامـرة وهمـا عبـد الفتـاح إسـماعيل ومحمـد يوسـف هـواش.

وزع الإخـوان المسـلمون منشـورات تؤكـد بـراءة المتهمـين ممـا نسـب إليهـم وأن إعدامهـم كان ظلـمًا وعدوانًـا وتطالـب جامعـة الـدول العربيـة بتشكيل لجنـة تحقيـق ولقـد أخـذتُ بعـض المنشـورات بهـدف قراءتهـا وكنـت أشـعر بالغضـب والفاجعـة عـلى إعـدام مؤلـف «في ظـلال القـرآن» و»جاهليـة القـرن العشريـن» و»معـالم في الطريـق»، والحقيقـة أن الكثيريـن ممـن كانـوا يؤيـدون عبـد النـاصر ولهـم في الوقـت ذاتـه ميـول إسـلامية شـعروا بالغضـب الشـديد لإقدامـه عـلى إعـدام هـذا العـالم الكبـير، وكان بإمكانـه أن يخفـف الحكـم إلى المؤبـد أو ينفيـه وصاحبيـه إلى خـارج مـصر إلا أن التدبـيرات التعيسـة صـارت هـي الغالبـة عـلى سياسـة الحكومـة المصريـة خاصـة منـذ انفصـام عـرى الوحـدة مـع سـوريا.

نذر العاصفة

في خريـف عـام 1966 كنـت في السـنة الثانيـة في كليـة الآداب، قسـم اللغـة العربيـة، وكنـت أسـكن في جبـل الجوفـة بعـمان، فـوق المـدرج الرومـاني، ويشـاركني السـكن في غرفتين ومطبـخ كل مـن الصديـق زهـير قاسـم عامـر مـن قريـوت والأصدقـاء عبـد الرحمـن عـدوي مـن بلاطـة ونمـر مـن إحـدى القـرى التابعـة لبلـدة سـلفيت. وأحمـد صالـح مـن مسـحة.

كان صديقـي زهـير لـه عـم (المرحـوم سـليم عامـر) يشـتغل في الجـمارك في منطقـة خطـوط الهدنـة بـين الضفـة الغربيـة والأرض المحتلـة. اسـتسر عـليّ زهـير ذات يـوم بأنـه ظهـرت منظمـة تسـمى فتـح أو العاصفـة، وأن هـذا التنظيـم ينفـذ هجـمات داخـل إسرائيـل بهـدف جـر العـرب إلى معركـة هـم غـير مسـتعدين لهـا. وكانـت هـذه المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا بهـذا الاسـم. وعندمـا سـألته عـن مصـدر معلوماتـه، أخـبرني أن عمـه كان ضمـن دوريـة عـلى الحـدود فأمسـكوا بشـاب يريـد أن يقطـع الحـدود فوجـدوا معـه متفجـرات وقـال لهـم

الشاب: إنني متوجه إلى الأرض المحتلة لا لأسرق بل لأزرع الموت في الكيان الصهيوني وإنني أنتمي إلى حركة فتح، وأنتم تعلمون ما ستفعل بي حكومة الأردن إذا ألقت القبض عليّ، فأنا اعتمد على وطنيتكم. فدبروا له بعض الأغراض، وسلموه مع تقرير أنه كان يهم بتهريب بضاعة بقصد المتاجرة.

بعد أن سمعت بهذه الحكاية بفترة وجيزة بدأت الأخبار من الجانب الإسرائيلي تتحدث عن عناصر (تخريبية) تتسلل من الأردن وسوريا، بحسب الإذاعة الإسرائيلية التي لم يكن يذيع مثل هذه الأخبار غيرها _على ما أذكر_ فالبيان الأول لحركة فتح حول عملية عيلبون صدر في 01/ 01/ 1965 ما من إذاعة أشارت إليه، ولكن نشرته مجلة في لبنان بوساطة أحمد جبريل كما أفاد جبريل في برنامج: شاهد على العصر.

في تلك السنة سرعان ما تعددت العمليات الفدائية ضد أهداف إسرائيلية، فبدأت القوات الإسرائيلية البرية والجوية تشن غارات على قرى في الضفة الغربية متهمة إياها بإيواء (المخربين) وتقديم المساعدة لهم، وغارات على مناطق في الجولان السورية للسبب نفسه، والحقيقة أن إسرائيل لم تبدأ غاراتها بعد انطلاق حركتي فتح والقوميين العرب منذ عام، ولكنها منذ قامت عام 1948 ظلت تمارس أعمالًا عدوانية في كل الاتجاهات، وكان لقلقيلية نصيب الأسد منها، فقد هاجمت القوات الإسرائيلية قلقيلية عام 1953 وعام 1956 وعام 1958، إلا أن الكيان الصهيوني بدأ يأخذ الأمور بجدية أكبر، منذ منتصف عقد الستينات من القرن الماضي بعد أن انطلقت عمليات فدائية تتبع لتنظيمات لها إستراتيجية وأهداف محددة.

غارة السَّمُّوْع

السَّمُّوْع: (بتشديد السين المفتوحة وتشديد الميم المضمومة، وتسكين الواو). هي قرية فلسطينية تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الخليل على بعد 16 كيلومترا منها. وتقع بالقرب منها قرية رافات، وقد تعرضت القريتان إلى هجوم إسرائيلي عام 1965 بتهمة دعم المقاومة الناشئة، وأسفرت الغارة عن تدمير أكثر من خمسين منزلًا للمواطنين

في رافـات، ثـم في يـوم 13/ 11/ 1966 كان الهجـوم الأكـبر للقـوات الإسرائيليـة عـلى القريتـين وبقـوات كبـيرة يقودهـا وزيـر الدفـاع الإسرائيـلي، ودمـرت القـوات الإسرائيليـة في تلـك الغـارة حـوالي مائتي منـزل، سـقط شـهداء وعـدد مـن الجرحى.

كان الفلسـطينيون في الضفـة الغربيـة يثـورون عـلى الحكومـة _التـي لم يعتبروهـا حكومتهـم_ في كل مناسـبة تدعـو إلى الثـورة، وكان العـدوان الصهيـوني عـلى السَّـمُّوْع مـن أكـبر دواعـي الإضرابـات والمظاهـرات العارمـة، ممـا أدى إلى إجـراءات أردنيـة قمعيـة شـملت إغـلاق المـدارس وفـرض حظـر التجـول أيامًـا متواصلـة. أمـا في الضفـة الشرقيـة فقليـلًا مـا كانـت الاضطرابـات تنتقـل إليهـا؛ لأن الشـعور الشـعبي العـام هنـاك مـع الحكومـة التـي يعدهـا أهـل الضفـة الشرقيـة حكومتهـم ويشـعرون بأنهـا تؤثرهـم عـلى أهـل الضفـة الغربيـة في كل شيء وتعتبرهـم مواطنـي الدرجـة الأولى في حـين أنهـا تعامـل الفلسـطينيين كمواطنـين مـن الدرجـة الثانيـة، ولم يكـن هـذا التمييـز وَهْمًـا بـل كان حقيقـة ملموسـة.

اسـتغلت وسـائل الإعـلام المصريـة مـا جـرى لتشـن حملـة عـلى الأردن بالغـة الحـدة متهمـة الملـك حسـين ورئيـس وزرائـه _وصفـي التـل في ذلـك الوقـت_ بالقعـود عـن مواجهـة القـوة الإسرائيليـة الغازيـة جبنًـا وخيانـة لا عجـزًا. ولم يكـن كلامهـم دقيقًـا، لقـد كانـت حملـة السـموع كشـفًا للغطـاء عـن مقـدار ضعـف الجيـش الأردني وعجـزه عـن حمايـة حـدوده، والمصريـون كانـوا يعلمـون أن الجيـش الأردني غـير مؤهـل عـلى الإطـلاق لمواجهـة الجيـش الإسرائيـلي بـأي حجـم وفي أي موقـع.

وكان الوهـم الكبـير لـدى الجاهلـين بحقائـق الأمـور _ومعظـم شـعبنا كان مـن هـذا النـوع_ أن الجيـش المـصري مؤهـل لذلـك، وأن جبـن عبـد النـاصر وتـردده هـو مـا يمنعـه مـن الانقضـاض عـلى الدولـة الصهيونيـة المحتلـة، ولم يكـن الجهـل مقتـصرًا عـلى العامـة مـن النـاس، بـل إن الحكومـة السـورية تحـت حكـم البعـث العفلقـي اليمينـي برئاسـة أمـين الحافـظ (1963-1966) ثـم تحـت حكـم الجنـاح اليسـاري مـن حـزب البعـث برئاسـة نـور الديـن الأتـاسي (1966-1970) فتحـت أبوابهـا لمقاتـلي فتـح والقوميـين العـرب ليخرجـوا ويدخلـوا مـن الجـولان مـن أجـل توريـط عبـد النـاصر ليخـوض حـرب التحريـر في فـترة

انشغال الولايات المتحدة بحربها في فيتنام، وكانت قيادة فتح وتبعها اليسار، تشن غاراتها من أجل توريط الدول العربية المحيطة، ليس عبد الناصر وحده، في حرب مع (الدويلة العبرية الصغيرة) لإنهاء وجودها.

كنا نستمع صباح مساء إلى أحمد سعيد وهو يلقي اللوم على الحكومة الأردنية في التخاذل عن صد الجيش الإسرائيلي الذي غزا السموع ويذيع معلومات يقول إنه حصل عليها مفادها أن وصفي التل وجه تعليمات مشددة للجيش الأردني المرابط في منطقة الخليل بألا يتدخل.

إن من عايش تلك الفترة وتابع الحملة الإعلامية المصرية ضد الأردن، ثم يتأمل فيما جرّ تسلسل الأحداث بعد ذلك يدرك كم كانت تلك الحملة الإعلامية المصرية غبية وكيف أثمرت عكس ما كان مرجوًا منها، فإن الأردن رد على الحملة المصرية بحملة أشد وأشرس وتدور حول حقيقة أن عبد الناصر هو الذي وافق على استقدام قوات الطوارئ إلى قطاع غزة وإلى شرم الشيخ في سيناء على إثر عدوان 1956، مما مكن السفن الصهيونية القادمة من المحيط الهندي من عبور مضائق تيران إلى ميناء إيلات (أم الرشراش) جنوب فلسطين محملة بالنفط وبالأسلحة وكافة أنواع السلع ومختصرة الطريق، ولم تكن تمر من تلك المضائق قبل استقدام قوات الطوارئ. وباختصار في تلك الفترة الحرجة رمى الحكم المصري خصومه بالحجارة وكان بيته من زجاج.

واشتدت الحملة على عبد الناصر الذي كان متورطًا في حرب اليمن ويئن تحت وطأة تكاليفها الباهظة، وبدلًا من أن توجّه الحملة المصرية إلى العدو المعتدي وإلى حالة الفرقة والشرذمة العربية وأن تكون الدعوة إلى وحدة الأمة أو على الأقل وحدة جيوش دول الجوار، شنت هجومها على الأردن فرد على الهجوم بهجوم أعنف استطاع مع عوامل أخرى أن يوقع ضغوطًا نفسية على عبد الناصر كانت أقوى من أن يحتملها فوقع في الفخ وأنهى عمل قوات الطوارئ الدولية وأغلق مضائق تيران، فكانت الفرصة التي ينتظرها الإسرائيليون المتخوفون من تنامي قوة الجيش المصري ويريدون فرصة للقضاء السريع عليه، فجاءتهم الفرصة، وكان لهم ما أرادوا.

على أثر العدوان على السموع واندلاع الاضطرابات في الضفة الغربية، اندلعت مظاهرة في الجامعة الأردنية. لم تكن مظاهرة كبيرة؛ لأنه لم يشارك فيها إلا ذوو الميول السياسية أو المشاعر الوطنية من الطلاب الفلسطينيين في الجامعة، قد نظمها الطلاب القوميون العرب وكان الرأس الأول المنظم لها الطالب عصام عبد اللطيف من طلاب السنة الثالثة.

والحق يقال إن الجيش الأردني راعى وقتها حرمة الجامعة فظلت قوته خارج بوابة الجامعة وليس كما فعلت شرطة عرفات بجامعة النجاح بعد قدومها إلى الضفة الغربية.

وحصل أن قائدًا كبيرًا من الشرطة الأردنية دخل الجامعة وكان بصحبة نائب رئيس الجامعة الدكتور عبد الكريم غرايبة إذ كان رئيس الجامعة الدكتور ناصر الدين الأسد، وقتها في مؤتمر في الكويت. أراد الضابط أن يتفاهم مع المتظاهرين فواجهوه بهتافات: روح اتشاطَر في السمّوع.

مما لاحظه الجميع في غمرة السموع أن الإذاعة الوحيدة التي كانت تنطق الاسم صحيحًا هي الإذاعة الإسرائيلية، وكانت الإذاعة الأردنية تنطقها: السْموع وإذاعات مصر تنطقها: السَّمُّوعي.

رجع الضابط دون تفاهم، وكان حلقة الوصل بين المتظاهرين والجهات الرسمية الحكومية هو الدكتور هاشم ياغي أستاذ اللغة العربية في الجامعة.

عند العصر قررت وصديقي زهير أن نعود إلى مسكننا في جبل الجوفة والمظاهرة كانت لا تزال قائمة، فخرجنا من بوابة الجامعة ووجدنا كثيرًا من الطلاب ممن سبقونا إلى الخروج قد أوقفهم الجيش الأردني المتواجد بكثافة حول المدخل الرئيس للجامعة، وقد اصطف عدد كبير من ناقلات الجند، فقالوا لنا: إننا لا نريدكم أن تعودوا إلى بيوتكم كلٌّ بطريقته بسبب حساسية الوضع العام، بل نريد أن نوصلكم كلًا إلى مكان سكناه بسيارات الجيش، فقلنا: حسنًا، نوفر إذًا أجرة الطريق، وأخذوا يصنفوننا حسب أماكن السكن فتجمع سكان جبل الأشرفية وصعدوا في الناقلات، ثم جبل الحسين ثم

جبل المريخ ثم الوحدات ثم الجوفة وهكذا. فصعدت وصديقي في الحافلة المخصصة لجبل الجوفة وامتلأت الحافلة وركب معنا جندي وبيده عصًا عجراء لم تشذّب عُقَدُها، ولم نكن على قدر من الذكاء بحيث نستنتج أن العسكري وعصاه يدلان على أن شيئًا يدبَّر ضدنا، وعندما وصلنا منطقة الشميساني انحرفت السيارة إلى طريق جبل اللويبدة، فاستغربنا إلا أن بعضنا قال لبعض: لا يريدون أن يمروا بنا من وسط البلد. ونزلت السيارة المنحدر المؤدي إلى جبل عمان، ثم توقفت في وسط المنحدر ونزل العسكري وقال لأحدنا: ناولني طرف الشادر (الشادر: قطعة قماش كبيرة وسميكة تغطى بها ناقلات الجند ويكون الجزء الذي يغطي الباب ويحجب الركاب مطويًا في العادة). ناولوه طرف الشادر فأرخاه فأصبحت الحافلة مغلقة كليًا فأدركنا أننا وقعنا، ثم استدارت السيارة وسلكت الطريق الصاعد ثم دخلت مكانًا وتوقفت، فدفع الفضول بعض الشباب إلى أن يرفع طرف الشادر لينظر أين نحن فردت وجهه عصًا من أحد الواقفين حول السيارة، وعندها قطعنا الشك باليقين، نحن في مركز المخابرات.

رُفع الشادر وفُتح باب الناقلة وقيل لنا: انزلوا فنزلنا، فأدخلونا بهوًا واسعًا واصطففنا حول جدرانه الأربعة، ثم جاءنا ضابط برتبة ملازم ثان فقال لنا: أنتم الآن عندنا، احذروا أن يأتي أي منكم بحركة. ثم بدأ ذلك الضابط يسخر منا ومن المظاهرات ويسب ديننا بعد كل فقرة من كلامه، ثم دخل الكبار من رجال المخابرات ولم نميز رتبهم لأنهم كانوا بملابس مدنية ثم جاء مدير المخابرات العامة الذي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت وأبرز زبانية الحكم الأردني وهو اللواء محمد رسول الكيلاني، وكان باللباس العسكري، فوقف خطيبًا والضباط من حوله ماثلون كأن على رؤوسهم الطير، فتوجه إلينا بالكلام وبدايته أنكم طلاب الجامعة وبالتالي الطليعة المثقفة وأنكم إذا تصرّفتم بجهل، فكيف يلام الجاهلون، ومما جاء في كلمته: إذا كان هنالك واحد أقوى منك، وأخذ من جيبك هذا القلم _وأخرج من جيبه قلمًا_ فكيف تسترده منه؟ هل تستطيع أن تسترده بالقوة، أم أنك لا بد أن تتهيأ وتتريث وتبحث عن السبل التي تستطيع بها استرداد حقك، ثم أوعز للضباط أن يلعبونا بعض التمارين، فلعبناها والعصي فوق رؤوسنا، وكل من كان يضعف عن مواصلة التمرين تأتيه

العصا فتجدد فيه قوة سحرية. وظللنا نلعب الهبوط والارتفاع على الساعدين ونتلقى السخرية مثل: العبوا مثل الديوك يا ديوك، حركوا أيديكم مثلما تؤشرون لهن، إلى أن سئم الضباط فأوعزوا للجنود بإيقاف اللعب، ثم طلبوا منا أن نعود للاصطفاف حول الجدار فاصطففنا. جاء ضابط وبيده موسى (في العامية: موس) فقال: صاحب الموس يأخذه. وكرر الطلب فلم يتقدم أحد للموسى، ثم وقف ضابط وقال: مَنْ منكم في السنة الثالثة؟ وكرر السؤال فتقدم شاب وقال له: أنا. فقال الضابط الذي كان يلبس الحلة (البدلة) الإفرنجية: أنا أسأل، فلماذا لا تجيب، ثم تقدم بوجهه المكفهر والسيجارة في اليمين، فمد اليسار إلى الشاب بصفعة قوية، فرفع الشاب يده ليحمي وجهه، فنهره عدد من رجال المخابرات الواقفين: لا ترفع يدك، لا ترفع يدك. واستمر الضابط ذو الوجه المكفهر في صفع ذلك الشاب إلى أن سئم. وكنا نعرف أن هذه الصفعات رسالة إلى كل واحد منا مفادها أنك إذا سئلت وتأخرت في الإجابة فقد رأيت ما حلّ بزميلك.

أخذوا يسألون عن بعض الشباب الذين لم يلقوا عليهم القبض بعد، ومنهم شاب اسمه سامي كان فيه عرج، فكان الضابط يسأل: من يعرف سامي الأفكح، أما العسكري البدوي فيقول: من يعرف الأفتشح، ولا يجيبهم أحد. ثم يسألون: من منكم في السنة الثالثة فيتقدم بعضهم وكان فيهم طالب متزوج وله أولاد وهو على عتبة الكهولة؛ لأنه عمل في التدريس فترة قبل أن يلتحق بالجامعة اسمه محمود أبو الرز، فأخذوه إلى الغرفة وحققوا معه حول علاقته بعصام عبد اللطيف، ثم خرج من الغرفة وعاد إلينا وهو يحاول قدر الإمكان أن يتماسك بعد الضرب الذي تعرض له. ثم أخذوا إلى الداخل زميلًا لنا وابن سنتنا اسمه عثمان شعبان، وكان ذا نشاط في صفوف القوميين العرب، وعاد إلينا بعد فترة وآثار الضرب ماثلة عليه، ثم سألوا هل منكم أحد من السموع، وكان زميلنا وصديقي يعقوب حوامدة من السموع، فقال لهم: أنا. فقال له أحدهم: هل استُشهد لك أحد الأقارب؟ فقال: لا. فأخذوه إلى الغرفة وبعد فترة أعادوه وحاله لا تخفى على الناظرين.

سألته فيما بعد: ماذا وجدت في الغرفة؟ فقال: وجدت كرسيًا فقال لي أحد الجنود: اجلس، فقلت له: لست تعبان، فأمرني بلهجة قوية أن أجلس، وبمجرد أن

ألقيت نفسي على الكرسي انقلب الكرسي بي فإذا أنا مقيد الرجلين وجاهز للفلقة، فكانت الفلقة.

جاء دوري وأُخذت إلى باب الغرفة، فقال لي رجل مخابرات: هل تعرف عصام عبد اللطيف؟ فقلت له: أعرف شخصًا اسمه عصام هو شركسي يأخذ عندنا محاضرات. فقال: يا أبو الرز، فجاءه أبو الرز، فقال له: عصام عبد اللطيف شركسي؟ فقال له: هذا عربي والشركسي عصام آخر، فقال لي: تكلم أو بتتبهدل، فقلت له: هذا ما أعرفه. فوقفت إلى أن يفرغوا ممن في الغرفة، فإذا بهم يأتون بشاب في حالة مستعجلة، فأعادوني إلى الصالون إلى أن يأتي دوري، ولكنهم توقفوا بعد ذلك عن الاستدعاء للضرب وبدأوا يأخذوننا واحدًا واحدًا أمام هيئة من كبار ضباط المخابرات، وجاء دوري فسألوني عن اسمي فأجبتهم ثم سألوني عن بلدي فقلت لهم: جالود. فقال لي أحدهم: جالود قرب تلفيت؟ قلت له: نعم. فقال لي: هل أنت من دار الحاج محمد؟ قلت: نعم. قال: فأنت من أقارب عبد القادر الصالح. قلت: نعم. فقال: أنتم جماعتنا فكيف تتظاهرون ضدنا؟ قلت له: لم أتظاهر. فقال: هل سمعت الأخبار اليوم؟ قلت: كنت في الجامعة ولم أسمع أية أخبار. فقال: إذًا، لم تعلم أن أهل نابلس أحرقوا صيدلية نضال. قلت له: لم أسمع ومتى حصل ذلك؟ قال: في هذا اليوم، المدنِيَّة أحرقوا صيدلية نضال (هو الابن الأكبر للمرحوم عبد القادر الصالح). ثم قال لي: اعتن بدروسك واترك هذه الأمور وأوعز للعسكري أن يوصلني إلى باب الخروج. فخرجت عائدًا إلى جبل الجوفة، وكانت هذه تجربتي الأولى مع المخابرات.

دخلت سنة 1967 وكثرت الأعمال الفدائية داخل الكيان الصهيوني والرد الإسرائيلي عليها وكان التركيز الإسرائيلي على سوريا التي تعتبر مسئولة عن الهجمات التي تنطلق من أرضها، بينما الأردن كحكومة كانت لا تدخر جهدًا في منع الانطلاق من أرضها والعمل الحثيث للقبض على الفدائيين أو حتى قتلهم، فأول شهيد من فتح هو الشهيد أحمد موسى قتلته الأردن في 28/ 12/ 1964 عندما كان عائدًا من عملية في الأرض المحتلة، وسلمت جثته للإسرائيليين عبر ما كان يعرف ببوابة مندلبوم.

شنت إسرائيل هجمة على سوريا باسم: الحملة التأديبية، وقصفت المعدات التي كانت تعمل على إنشاء سد خالد على نهر اليرموك قبل التقائه بنهر الأردن ونفذت قبل ذلك مشروع تحويل مياه نهر الأردن إلى النقب، وكل ذلك كان يسبب إحراجًا شديدًا لعبد الناصر الذي كان يُنظر إليه باعتباره حامي حمى العروبة، فأقدم للتخلص من الحرج على إبرام اتفاقية دفاع مشترك مع سوريا. ولم تكن الخطوة موفقة، فسوريا تسمح لحركة فتح وللقوميين العرب بالانطلاق من أراضيها، وقبل توقيع الاتفاقية، لم تكن مصر تتحمل مسؤولية هذه الهجمات ولا مسؤولية حماية النظام السوري الذي يسمح بها، وبعد توقيع الاتفاقية أصبح عبد الناصر مسئولًا عن كل ما يجري وهي مسؤولية لم يكن مضطرًا إليها ولا كفؤًا لها. وبعد توقيع الاتفاقية شنت إسرائيل حملة (تأديبية) كبيرة ضد سوريا، فانطلقت وسائل الإعلام الأردنية تسخر من اتفاقية الدفاع المشترك وتندد بالنظامين المصري والسوري وتعيد التذكير بدور قوات الطوارئ التي جاء بها عبد الناصر لحماية سفن البترول والأسلحة والبضائع القادمة إلى إسرائيل من المحيط الهندي عبر مضائق تيران إلى أم الرشراش التي سماها الإسرائيليون إيلات.

ثم بعد ذلك بفترة قصيرة سرّبت إسرائيل أنباء عن أن حملتها التأديبية القادمة سيكون الهدف منها احتلال مرتفعات الجولان، واشتد الهجوم الإعلامي الأردني على وجود قوات الطوارئ في غزة وسيناء فاكتمل الطوق على رقبة عبد الناصر والحكومة المصرية فأقدمت على إنهاء عمل قوات الطوارئ الدولية وإغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة البحرية الإسرائيلية.

كنا نتوجه من عمان إلى الجامعة الأردنية في (الجبيهة) قرب بلدة صويلح، بباصات مخصصة لهذا الغرض، وكان أحد السائقين يشبه الممثل المصري الشهير محمود المليجي، حتى كأنه هو، ولم نكن نعرف اسم السائق ولا حاجة لنا إلى ذلك ولكننا نعرفه بالمليجي.

في صبيحة يوم من أيام شهر أيار 1967 بينما كنت أهم بالصعود إلى الباص سألني المليجي عن صحة الأنباء التي سمعها والتي تفيد أن مصر أنهت عمل قوات

الطـوارئ الدوليـة وأنهـا تحشـد قواتهـا في سـيناء، فقلـت لـه: لم أسـمع بـشيء مـن هـذا، وظننـت أن الخـبر مجـرد إشـاعة تناقلتهـا بعـض الأنبـاء غـير الموثوقـة.

ولـدى رجوعـي إلى الغرفـة التـي أسـكنها، وكان فيهـا راديـو، اسـتمعت إلى نـشرة أخبـار صـوت العـرب، فـإذا المذيـع يعلـن بصـوت جهـوري وبنـبرة افتخـار واضحـة: إنهـاء عمـل قـوات الطـوارئ الدوليـة. إغـلاق مضائـق تـيران في وجـه السـفن الإسرائيليـة التـي تحمـل السـلاح إلى إسرائيـل، أو تحمـل بضائـع إسـتراتيجية إلى إسرائيـل. وقـد تـم لّغـم الممريـن اللذيـن يحيطـان بالجزيـرة التابعـة للسـعودية الواقعـة في البحـر الأحمـر والقريبـة مـن مينـاء العقبـة وميناء إيـلات الـذي تحتلـه إسرائيـل.

وبالطبـع كان رد إسرائيـل أنهـا ترفـض أن تنصـاع إلى هـذه الإجـراءات، وأنهـا سـتمر مـن المضائـق إن سـلمًا أو حربًـا؛ لأن ذلـك المـرور صـار لهـا _بزعمهـا_ حقًّـا مكتسـبًا.

أصبحـت أزمـة الـشرق الأوسـط منـذ مطلـع شـهر أيـار مـن عـام 67 هـي حديـث العـالم كلـه وتصاعـدت وتـيرة التهديـد والوعيـد في الكيـان الصهيـوني وتصاعـدت لهجـة التحـدي في الإعـلام العـربي عمومًـا والإعـلام المـصري عـلى وجـه الخصـوص، وسـادت لهجـة: يـا أهـلًا بالمعـارك، وأخـذت مـصر تحـرك دباباتهـا باتجـاه سـيناء.

في يـوم جمعـة في تلـك الأثنـاء، صليـت في الجامـع الحسـيني وسـط عـمان، ولـدى خروجنـا نحـن المصلـين وقفنـا ننظـر إلى الدبابـات الأردنيـة قادمـة مـن المعسـكرات وتسـير في الشـوارع الرئيسـة متجهـة إلى الغـرب، وكنـا ننظـر إليهـا بحـماس باعتبارهـا معينًـا للجيشـين المـصري والسـوري، وأخذنـا الحـماس فصفقنـا للدبابـات والجنـود وزغـردت بعـض النسـاء فلوحـوا لنـا بأيديهـم. إنـه جـو الحـرب لا شـك فيـه.

توجـه الملـك حسـين إلى القاهـرة بشـكل مفاجـئ، وفي اللحظـة التـي ركـب فيهـا الطائـرة، وكان يقودهـا بنفسـه، توقفـت وسـائل الإعـلام الأردنيـة عـن مهاجمـة النظـام المـصري وكانـت الحـرب الكلاميـة بينهـما عـلى أشـدها، ثـم خـلال سـاعات وقـع مـع عبـد النـاصر اتفاقيـة دفـاع مشـترك وأصبـح الجيـش الأردني تحـت قيـادة العسـكري المـصري الشـهير الفريـق أول عبـد المنعـم ريـاض الـذي اصطحبـه الملـك حسـين إلى عـمان وعندمـا

حطت الطائرة في مطار عمان كان من جملة من نزل منها أحمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والذي كانت إذاعته وكان هو شخصيًا يتحدث ليل نهار بمذمة الملك حسين وحكومته. ومما تسرب فيما بعد من الأنباء أن المسئولين الأردنيين الذين كانوا في استقبال الملك اندهشوا لدى رؤية الشقيري وسأل أحدهم الملك: ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ فأشار إليه الملك أن اسكت.

علم الناس من الأخبار أن الملك حسين قادم باتفاقية دفاع مشترك، ومعه الفريق أول عبد المنعم رياض، ورأيت الناس يموجون في شوارع عمان في هياج وفرح ظاهرين باعتبار أن ما فعله الملك حسين في تلك الظروف الدقيقة كان خطوة في الاتجاه الصحيح، واصلت السير إلى جبل الجوفة حيث أسكن وتغديت وقلت لصديقي: عاد الملك حسين ومعه أحمد، والمدينة في هياج هيا ننزل إلى السوق نتفرج، ونزلنا ودخلنا في غمرة المبتهجين والسائرين على الأقدام والسيارات المبتهجة التي كانت تطلق أبواقها. وكانت الهتافات طبعًا لجمال عبد الناصر أمل الأمة، ولم ينس بعضهم أن ينفح الملك حسين بشيء من الهتاف امتنانًا للخطوة التي قام بها وهم لا يعلمون أن وراء الأكمة ما وراءها.

لقد ارتكب عبد الناصر خطأ هائلًا عندما وقع اتفاقية دفاع مشترك مع سوريا في عام 1966، وعندما بدأت نذر الحرب وهو يعلم أن سوريا تعمل على توريطه في حرب هو غير قادر عليها؛ لأن طيرانه أضعف من الطيران الإسرائيلي، أما في البر فالجيش المصري مكشوف تمامًا أمام طيران العدو المتفوق بنوع الطائرات وهو عند الإسرائيليين الميراج الفرنسي المتقدم وقتها وعند المصريين الميغ الروسي الذي لم يكن في كفاءة الميراج، مثلما كان العدو متفوقًا في نوعية الطيارين، وفق المصادر العسكرية المصرية فيما بعد، فالطيار الإسرائيلي دخل المعركة بطيارين خبرة الواحد منهم في المتوسط أربعة آلاف ساعة طيران في حين أن خبرة الطيار المصري تقل عن ألف ساعة في المتوسط.

كانت القيادة المصرية تعلم أنها لا تستطيع الدفاع عن سيناء إلا بإقامة دشم

مسـلحة وأنفـاق ومرائـب للدبابـات ونقـاط اتصـال كلهـا تحـت الأرض وكلهـا مبنـي بالاسـمنت المسـلح بأعـلى المواصفـات، وكان ضيـق ذات اليـد في مـصر يحـول دون ذلـك. فـإن إسرائيـل أنفقـت عـلى مفاعـل ديمونـا وحـده مليـارًا وسـبعمائة مليـون فرنـك فرنـسي ووجـدت مـن يوفـر لهـا ذلـك، حكومـات وأولهـا الحكومـة الفرنسـية التـي أقامـت المفاعـل وأفـرادًا مـن أثريـاء اليهـود الذيـن لا تحـصى أموالهـم كثـرة، لم تجـد مـصر مـن يسـاعدها عـلى إقامـة التحصينـات التـي تشـكل الضمانـة التـي لا بـد منهـا لحمايـة سـيناء والصمـود في الحـرب، بـل إن أمـوال البـترول العـربي كانـت كثـيرًا مـا توظـف لتنفيـذ المؤامـرات ضـد الحكـم المـصري، ومـن المعلـوم أن المـال السـعودي كان في تلـك الفـترة يذهـب إلى المتمرديـن اليمنيـين الـذي كانـوا يحاربـون قـوات الجمهوريـة الناشـئة ويحاربـون القـوات المصريـة التـي جـاءت لحمايـة الجمهوريـة، كان اليمنيـون المتمـردون عـلى الجمهوريـة يحاربـون مـن أجـل إعـادة الإمـام البـدر إلى العـرش وكان قـد التجـأ إلى السـعودية عـلى إثـر الانقـلاب. لقـد أخـذت الحكومـة السـعودية عـلى عاتقهـا تمويـل الحـرب ضـد عبـد النـاصر في اليمـن مـن تسـليح وتمويـن واسـتئجار الطائـرات الأجنبيـة والطياريـن، بـل واسـتئجار الفتيـات لرفاهيـة الطياريـن تحـت سـتار ممرضـات كـما يصـف المرحـوم عبـد الرحمـن منيـف في روايتـه الشـهيرة (مـدن الملـح).

لـو كان عبـد النـاصر عـلى درجـة مـن الحنكـة أو كان يسـتمع إلى آراء مستشـاريه ويأخـذ بهـا: لقـال لشـباب البعـث السـوري اليسـاري[1] الذيـن اسـتولوا على السـلطة حديثا: إنكـم تتبعـون سياسـة لم تنسـقوا معـي فيهـا وإنكـم سـتجرونني إلى المعركـة قبـل أن يسـتكمل الجيـش المـصري اسـتعداده لهـا، وكان عليـه أن يكـون في غايـة الصراحـة في هـذا المجـال.

---

(1) في عـام 1966 نفـذ الجنـاح اليسـاري مـن حـزب البعـث انقلابًـا عـلى الجنـاح اليمينـي الـذي كان يقـوده ميشـيل عفلـق رئيـس الحـزب وأمـين الحافـظ، رئيـس الجمهوريـة، وتـولى قيـادة الانقـلاب أربعـة اسـتلموا الحكـم هـم: نـور الديـن الأتـاسي وأصبـح رئيسًـا للجمهوريـة ويوسـف زعـين وأصبـح رئيسًـا للـوزراء و إبراهيـم ماخـوس وأصبـح وزيـرًا للخارجيـة وثلاثتهـم أطبـاء والفريـق حافـظ الأسـد وأصبـح وزيـرًا للدفـاع وكان المعـروف أنـه هـو الرجـل القـوي والحاكـم الفعـلي.

وقد نلتمس له بعض العذر فإنه لا عبد الناصر ولا أحد في العالم كان يتصور أن الجيش المصري على هذه الدرجة من الهشاشة وأنه سيواجه الهزيمة خلال ساعات من لقائه بالجيش الإسرائيلي، ولقد كانت الأوهام حول قوة العرب وضآلة إسرائيل هي سيدة الموقف، فمما تسرب من أنباء كانت سرية لفترة من الوقت أن أمين الحافظ قال في مؤتمر القمة الأول: بإمكاني أن أدمر إسرائيل خلال أربع وعشرين ساعة، فقال له الرئيس الجزائري هواري بومدين: وأنا أعطيك مني أربعًا وعشرين، ولقد استمعت في تلك الأثناء إلى تحليل إخباري من الإذاعة البريطانية يظهر الشفقة على إسرائيل التي لن تستطيع مواجهة الجيوش العربية الجرارة.

لم يكن عبد الناصر راغبًا في مغامرة الحرب مع إسرائيل؛ لأن الجيش المصري كان ينقصه الكثير من لوازم المعركة، ولكن بالتأكيد لم يكن خائفًا من المواجهة وكان يرى أن جيشه على كل حال، قوي ومنيع، فالتقارير العسكرية لم تكن تأتيه عن طريق مراكز بحث عسكرية متخصصة ولا عن طريق مصادر في الجيش مهنية وشفافة ولا عن طريق تقديرات أجهزة المخابرات العالمية، الصديق منها والعدو، لكنها كانت تأتيه عن طريق المشير عبد الحكيم عامر والجهات المقربة منه وكانت تحتوي على الأوهام وأحلام القوة أكثر مما تحتوي على الحقائق، ولقد تبين فيما بعد أن عبد الحكيم عامر كان أجهل وأفسد من أن يستحق موقع قائد الجيش ونائب رئيس الجمهورية. وهذه بلوى جميع الأنظمة الفردية.

حمى الإعلام العربي في ذلك الوقت

منذ شهر نيسان 1967 بدأت الأزمة بين «إسرائيل» ومصر تشتد رويدًا رويدا وتأخذ طابع الجدية المتصاعدة منذ أن وقع عبد الناصر اتفاقية دفاع مشترك مع سوريا، فوضع (رجله مع رجل سوريا في الفلقة). فقد بدأت الحملات (التأديبية) الإسرائيلية على سوريا تأخذ طابع العنف الشديد، وما دخل شهر أيار حتى أصبح واضحًا أن المنطقة تتجه إلى الحرب، فكان الإعلام العربي أول من بدأ إطلاق النار الإعلامية بشكل بالغ العنف وقد تجاهل الإعلاميون أن ما يقولونه محسوب عليهم وأنهم سيراجَعون به يومًا ما.

في مصر: قال أحمد سعيد في معرض تعليقه على إغلاق مضائق تيران: إن مصر قد حققت النصر على إسرائيل، فرد عليه المعلق الإسرائيلي في برنامج عنوانه: تعليقات خاطفة: النصر، يا أستاذ، لا يكون في الإذاعة ولكن في ميدان المعركة.

وكانت أكثر أغنية ترددها الإذاعات المصرية مطلعها: في البحر حَنِدْفِنْكُم

وكان أحمد سعيد يبشر السمك باللحم اليهودي فيقول له: تجوَّع يا سمك.

وكانت الأغنية التي تفضل الإذاعات تكرارها دون ملل هي أغنية أم كلثوم ومنها:

راجعين بقوة السلاح راجعين نحرر الحمى
راجعين كما رِجْع الصباح مِنْ بعْدِ ليلة مظلمة

ووعدت أم كلثوم الجيش المصري أن تغني لهم «غِنْوة» في تل أبيب (ح غنيلكم غِنْوة من تل أبيب).

أما أغنية عبد الحليم حافظ التي كانت تذاع صبح مساء فمنها:

يا أهلًا بالمعارك يا بخْتِ مين يِشارِك
فينا المَجد يِبارك وِنِرجع منصورين
ملايين الشعب اتدُق الكَعب اتقول كلنا جاهزين، كلنا جاهزين
مسكين يا اللي تحاربنا بِتْحارب جبّارين

وهكذا كانت الأغاني مما لا أزال أذكر ومما لم أعد أذكر.

في سوريا: كان ولعهم لا حدود له بأغنية الأجواء الراهنة وهي للفنان السوري فهد بلان:

ويلك يا اللي اتعادينا ويلك يا ويل شوف النار اتلاقينا بظلام
حِنّا انعادي اللي يْعادي الليل ونصادق مين بيصادق
حنا أسود البوادي يا با غير الصادق ما انصادق
حِنّا لمّا نْجِد الحرب ما نِخْشي قتل ولا ضرب
نِشْرَبْ دمِّ الغاصب شُرب ونْرُدُّو مهدود الحيل

وفي الأردن: أكثر ما كانت تصدح الإذاعة بربابة عبده موسى، وهو مطرب

ينتمي إلى طائفة النَّوَر ذات الوجود البارز في الأردن، ولا يستخدم إلا الربابة وله صوت جميل، وقد توفي في عقد السبعينات من القرن الماضي ولا تزال أغانيه ماثلة في الأذهان، وقد تندر الناس بعد الهزيمة بأغنيته التي كانت تذيعها إذاعة عمان في غمرة التهيؤ للحرب مرات عديدة كل يوم، ومنها:

يا مقنعة بالنيا كُفّي دموع العين — كُفّي دموع الأسى عالخد سيّالة
جوكِ النشامى، لفوا واتباشري يا زين — إأْسود فوق الهِجِن وإأْسود خيّالة
مِنْ كلِ دبابة إمات جنزيرين — تهدُر هدير البحر عالقوم صيّالة
حِنّا ذْعار العدا طلابةٍ للدين — والجور ما يقبله إلا الردي خالَه
حيهوم شباب الوطن، حيهوم جنود حسين — ربْع الكفاف الحُمُر والعُقُل ميالة

وأغنية أخرى لتوفيق النمري الذي كان مطربًا مشهورًا في ذلك الوقت، ومنها:

مرحى لمدرّعاتنا — رمز القوّة لبلادنا
مِنْ نِزْلِتْ عالمِيْدان — رمز القوّة لبلادنا
وتخلّي النصر بجالنا — دبّابات الجنزير مدفَعْ وعياره
عالظالم يوم اتغير — كبير يدّمّر تحتْ اقدامنا
مرحى مرحى مرحى — مرحى لمدراعاتنا

وأغنية أخرى لتوفيق النمري كانت الإذاعة الأردنية تكثر من تردادها تقول:

يا با الخير، شِدِّ المُهْرَة العَصِيِّة — يا با الخير ناولني بندقية
العربان همُّ أهل العزيمة — والبدوان ما ترضى بالهزيمة
جيش حسين بغشاهم بالسوادِ

هذه الأجواء التي عشناها في ذلك الوقت، أجواء طبول الحرب التي كانت تُقرع صباح مساء وبشكل يصم الآذان ابتداء من شهر أيار وحتى وقوع الهزيمة في الثلث الأول من حزيران 1967.

فجيعة في جالود

في أواخر شهر أيار وقبل الحرب بأيام، كنت في جالود وكانت الدراسة قد توقفت في الجامعة الأردنية استعدادًا لبدء الامتحانات. كان الوقت الغروب، استمعت

إلى نشرة أخبار الساعة السابعة في الإذاعة الأردنية، وكانت في تلك الساعة نشرة أخبار محلية وعندما أدرت مفتاح المذياع كانت في آخرها، ولم أسمع منها إلا عبارة: رحم الله شهداءنا الأبرار، وظننت أن الحديث يدور عن يوم للشهداء أو ما أشبه ذلك، إلا أنني بعد برهة سمعت صوت والدتي قادمة من الخارج وهي تولول وتظهر الأسف والأسى والشعور بالخسارة الفادحة، وسألتها عما جرى: فقالت لي: أبو بلال (عبدالله أبو عايشة) انفجر فيه لغم أودى بحياته.

يا للفجيعة، إنه رجل طيب وخلوق مع جميع أهل القرية وخفيف ظل، حسن المعشر. (هذا عند أهل القرية وليس عند الذين كان يتولى التحقيق معهم بتهمة مناوأة الحكومة) هو ضابط برتبة ملازم ثانٍ. حصل على الرتبة عن طريق الترقية المتدرجة، كان لدى وقوع الحادث قائد نقطة الحدود مع سوريا المعروفة بنقطة الرمثا.

غادرت الدار مسرعًا متوجهًا إلى الحظير (مجمع رجال القرية) فإذا الكبار والصغار متواجدون زرافات ووحدانًا والمصيبة ملء أسماعهم وعقولهم، وتفاصيلها تتوارد في نشرات الأخبار وموجزها أن سيارة سورية دخلت مركز حدود الرمثا وفيها رجل وامرأة، وقد اشتبه رجال الأمن الأردنيين بها، ولدى إلقائهم نظرة على الكرسي الخلفي رأوا أن فيه ثقبًا مثيرًا للريبة، فاستدعوا خبير المتفجرات فاكتشف أن تحت الكرسي الخلفي لغمًا كبيرًا، فأُحيط قائد المركز، الملازم ثانٍ عبد الله أبو عايشة علمًا بالأمر، فهب مسرعًا وتم إخراج اللغم وحمله الرجال ليضعوه في مكان آمن، لكنه انفجر بين أيديهم فقتل الملازم أبو عايشة وعددًا من الجنود.

اكتسب الحادث أهمية ضاعفتها دقة الظروف التي تمر بها المنطقة وما قد يجر من تبعات على العلاقات بين الأردن وسوريا، وطنطنت به الإذاعات العالمية عمومًا ووسائل الإعلام الأردنية على وجه الخصوص، محملة المسؤولية لسوريا، وكانت قد ساءت العلاقات بينهما على خلفية فشل انقلاب عسكري في سوريا وهرب قائد الانقلاب، اللواء سليم حاطوم، إلى الأردن وقد منحته الأردن حق اللجوء، وكان

الاعتقـاد أنهـا تدبـر مـع أجهـزة مخابـرات متعـددة لتهيئـة الجـو لـه كـي يعـود إلى سـوريا ويكـون في انتظاره عـدد مـن الضبـاط فينفـذون الانقـلاب مـن جديـد، وسـاد الاعتقـاد على أوسـع نطـاق أن حـادث اللغـم مدبـر مـن الحكومـة الأردنيـة لتبريـر اتخـاذ إجـراءات ضـد سـوريا، ومثـل هـذه المؤامـرات تعتـبر نهجًـا في الحكـم الأردني، والـذي كان يتولاهـا عـادة الشريـف نـاصر بـن جميـل وهـو شـقيق الملكـة زيـن الشريـف وبالتـالي خـال الملـك حسـين وكان ضابطًـا في الجيـش الأردني برتبـة لـواء وقائـد الجبهـة الشرقيـة وهـو ذو نفـوذ كبـير في الجيـش وفي الحكومـة، وذو تجـارات متنوعـة وكلهـا مـن النـوع القـذر، أسـلحة ومخـدرات. وسـيرته الشـخصية أسـوأ سـيرة. وكان يحشـد الكثيريـن مـن حولـه مـن عسـكريين ومدنيـين ويسـتخدمهم لتنفيـذ مصالحـه التجاريـة ولتقويـة نفـوذه، وكان يحـب حيـاة البـذخ والـترف والنسـاء.

في اليـوم التـالي أُحـضر جثـمان الشـهيد ومعـه ثلـة مـن الجيـش وعـلى رأسـهم ضابـط برتبـة عقيـد لإجـراء مراسـيم عسـكرية للجنـازة، ولكـن الأمـور لم تجـر وفـق مـا كانـوا يخططـون بالضبـط، فقـد أصرت النسـاء عـلى أن يوضـع الجثـمان بينهـن ليوفينـه حقـه مـن البـكاء والنـواح والتعـداد، فاضطـر الجيـش إلى أن يسـير المسـيرة الجنائزيـة العسـكرية مـن غـير الجثـمان ثـم وقفـوا عـلى القـبر وجـيء بالجثـمان مـن عنـد النسـاء ووقـف مفتـي الجيـش يلقـي خطبـة يشـيد فيهـا بمنزلـة الشـهيد عنـد الله وينـوه بمقـدار الخسـارة التـي منـي بهـا أهلـه وشـعبه، ثـم جـاء دوري لألقـي الخطبـة باسـم أهـل القريـة لكـن الجـو لم يكـن مهيًـا للمزيـد مـن الخطـب فقـد وقـف أحـد أقـارب الشـهيد يكيـل الشـتائم لجـمال عبـد النـاصر!! ويفضـل اليهـود عليـه ويسـب دينـه، وكان الهـدف نفاقيًـا؛ لأنـه قـدّر أن شـتيمة عبـد النـاصر تـرضي الحاكـم في الأردن، فسُـلِّمت الورقـة للضابـط المسـئول باقـتراح مـن شـيخ القريـة العـم أبـو فـوزي، وقـال لـه: هـذه كلمـة أهـالي جالـود. ثم أطلـق الجنـود واحـدًا وعشرين طلقـة. وكان عـلى كل جنـدي مـن وحـدة إطـلاق النـار أن يحتفـظ بالعبـوة الفارغـة في جيبـه لكـي يردهـا؛ لأن الجنـود محاسـبون عـلى كل طلقـة تصـدر مـن بنادقهـم التـي كانـت لا تـزال بدائيـة مـن النـوع الإنجليـزي الـذي يطلـق طلقـة طلقـة في تلـك الأيـام الحرجـة التـي كانـت فيهـا الحـرب قـاب قوسـين أو أدنـى.

كان الجنود يتلقون الإيعاز لسحب الأقسام، أي: وضع الطلقة في بيت النار، ثم توجيه فوهات البنادق إلى أعلى بإيعاز جديد، ثم إيعاز آخر للاستعداد لإطلاق النار وإيعاز بعده بإطلاق النار على أن يكون ذلك في وقت واحد بحيث تبدو الطلقات كلها كأنما هي طلقة واحدة، ثم يأتي الإيعاز العسكري لسحب الأقسام (مقبض إطلاق النار) واستخراج الطلقات الفارغة ووضعها في الجيوب، ثم تتكرر العملية مرة أخرى وهكذا ثلاث مرات وكان عدد الجنود سبعة فيكونون قد أطلقوا واحدًا وعشرين طلقة كما تقتضي التقاليد العسكرية في مثل هذه المناسبة.

في إحدى المرات سقطت الطلقة الفارغة من بندقية أحد الجنود فمد يده إلى الأرض وتناولها مما أغضب قائده فشتم دينه. فتناقل الحاضرون _وهم أهل القرية جميعًا_ تفاصيل هذه الحادثة التي، وإن كانت صغيرة، إلا أنها تتحدث بلسان الحال عن بؤس الأوضاع في جيش على وشك أن يخوض الحرب.

في عصر ذلك اليوم بدأت برقيات العزاء بوساطة الهاتف الذي كان في شعبة بريد القرية حيث تملى الكلمات على مأمور الهاتف فيقوم هو بتسجيل ما يسمع في ورقة من دفتر للبرقيات كانت قد زودته به مصلحة البريد.

جاءت البرقيات تحمل التعازي لأهل الفقيد ولعموم أهالي جالود مع تعبير مرسليها عن حزنهم الشديد وغضبهم لما جرى وأن دماء الشهداء لن تضيع.

جاءتنا برقيات من رئيس الوزراء وزير الدفاع سعد جمعة، ومن قائد الجيش ومن محافظ نابلس ومن وزراء ومسئولين آخرين لا يحضرني ذكرهم الآن. وكنت أتولى صياغة برقيات الرد وأعرف بالإيحاء أن البرقية ينبغي أن تحتوي على شكر للمرسل وبيان مقدار ما أحدثته التعزية من ارتياح في نفوسنا وتمنيات للمرسل أن يديمه الله لخدمة الوطن في ظل جلالة الملك المعظم، ثم أهم من ذلك كله: دعوة لأخذ الثأر وللانتقام ممن دبروا المؤامرة الدنيئة والمقصود بهم النظام الحاكم في سوريا.

لم يتأخر الرد، ولم يكن أحد يشك في أن الحادث مدبرٌ من أجل الرد، فقد أعلنت الحكومة الأردنية عن إغلاق حدودها مع سوريا.

قالت الإذاعة الأردنية إن اللذين كانا في السيارة رجل وامرأة جيء بها من المحل العام (لم يكن في دمشق محل عام أبدًا)، ثم بعد ذلك بأيام نشبت الحرب، وانشغل الناس بها فظن مدبرو الحادث أن الناس ذهلوا عن الحادث، فلم يُعلن للجمهور شيء عن محاكمة الرجل والمرأة، وبعد شهور من بدء عودة الناس إلى رشدهم صار كثيرون يتساءلون عن مصير الرجل والمرأة، أما المرأة فلم يعلم أحد أين ذهبت، والاعتقاد أنها نزلت في قصر الشريف ناصر فترة، ثم ذهبت إلى حال سبيلها، أما الرجل فقد علمنا شيئًا من أمره عن طريق جنود كانوا في معسكر للجيش الذي كان فيه ذلك الشخص محتجزًا، فقد أودع المجرم في معسكر للجيش بدلًا من السجن ولكن بصفة سجين، وكان نجارًا، وكان في معسكر الزرقاء قسم لمساكن الجنود المتزوجين مع زوجاتهم، فكان المسئولون في المعسكر يثنون على السجين ويصفونه بأنه شاطر ومسكين، وصار كلما احتاج أحد إلى إصلاح باب أو شباك في المعسكر يكلفه بالمهمة مقابل أجر، فكان يعود في آخر اليوم إلى غرفته المسماة زنزانة بثلاثة أرباع دينار أو نحو ذلك، وهو دخل لا يتهيأ للجندي، ثم لا يعلم أحد بعد ذلك أين ذهب.

العاصفة

بعد الفجيعة رجعنا إلى عمان وكانت طبول الحرب تدق بوتيرة عالية جدًا في إذاعات الأردن وسوريا ومصر، وكانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تطلق التهديدات وتدير دفة إعلام هادئ وعميق وتنقل إلى العالم ما يقوله العرب من أنهم سيقضون على إسرائيل وسيدفنونها في البحر وبشرى للسمك من أحمد سعيد: تجوع يا سمك، وتهديد توفيق النمري للعدو بأن دبابات الأردن ستدوسه تحت جنازيرها... إلخ

في الجانب الإسرائيلي كان رئيس الوزراء ليفي أشكول يحتل بالإضافة إلى رئاسة الوزراء منصب وزير الدفاع، فجرى تعديل وزاري استدعي بموجبه من مزرعته في النقب، العسكري الإسرائيلي الأول في ذلك الوقت الجنرال المتقاعد، موشيه ديان، قائد الجيش الإسرائيلي في عدوان 1956، ليستلم وزارة الدفاع، وعرف الخبراء العسكريون أن الحرب أصبحت قاب قوسين أو أدنى، وكُشف فيما بعد أن عبد الناصر كان قد

دعا كبار قادة الجيش على إثر تعيين ديان وزيرًا للدفاع وقال لهم: إن الحرب أصبحت حتمية وهي متوقعة بين ثمانٍ وأربعين ساعة إلى اثنتين وسبعين ساعة.

كان عبد الناصر يريد حلًا سياسيًا للأزمة وفي صبيحة اليوم الذي وقع فيه العدوان كان المفروض أن يطير نائبه الأول زكريا محيي الدين إلى واشنطن للبحث عن حل سلمي للأزمة، ومما كُشف فيما بعد أن ليفي أشكول كان ميالًا إلى الحل السلمي للقضية وأنه كان يتخوف الحرب، ولكن القادة العسكريين رأوا أن لديهم فرصة سانحة لتحطيم الجيش المصري. ومما كُشف أيضًا أن أشكول استُدعي إلى رئاسة الأركان الإسرائيلية أواخر أيار من ذلك العام وهناك جوبه بمظاهرة احتجاج عارمة من كبار قادة الجيش الإسرائيلي وعلى رأسهم إسحق رابين، رئيس الأركان، وعزرا وايزمن، قائد سلاح الجو، وأن عزرا وايزمن، خلع رتبه العسكرية ونياشينه وألقى بها على الطاولة أمام أشكول وقال له: لن أخدم في جيشك إذا ضيَّعت هذه الفرصة السانحة، فقال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن تستدعي موشيه دايان وتسلمه وزارة الدفاع كي يقود الحرب، فوافق على طلباتهم.

ومما لا يُنسى أن الإذاعة الإسرائيلية تحدثت مفصلًا عن واقعة تسلم دايان وزارة الدفاع، وعندما استلم المنصب _وفق الإذاعة الإسرائيلية_ أعلن أن إسرائيل لن تصبر طويلًا على الوضع الراهن، وأن صبرها يُعد بالأسابيع، لا بالشهور ولا بالسنين، ثم تبين أن كلامه كان خادعًا وكان يريد منه أن يُفهم العالم أن إسرائيل ستستنفد كل الجهود الممكنة للتوصل إلى حل سلمي للأزمة. وبعد أسبوع من استلام ديان وزارة الدفاع وصدور ذلك التصريح عنه، شنت إسرائيل الحرب.

كان الصحفي المصري الشهير محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «جريدة الأهرام» وقتها وكان يكتب كل يوم جمعة مقالًا في زاوية عنوانها: بصراحة، وكنت أشتري الأهرام يوم الجمعة لأقرأ مقاله. وفي الجمعة التي أعقبت تولي دايان وزارة الدفاع بتاريخ 02/ 06/ 1967 وذلك قبل الحرب بثلاثة أيام فقط، قرأت مقال هيكل «بصراحة» فإذا هو يتحدث عن حالة الضعف والتخبط التي تمر بها الحكومة الإسرائيلية،

والخلافات والانقسامات التي تنخر في جسدها وتجعلها أعجز من أن تواجه التحدي، ولا أزال أحفظ آخر عبارة له في ذلك المقال: إسرائيل مثل الجرة، لا يمكن إصلاحها إلا بكسرها.

لذلك ولأخطاء أخرى كثيرة ولمقالات كثيرة خادعة أو جاهلة من أكبر صحفي في العالم العربي، هتفت الجماهير ضده وهي تتظاهر احتجاجًا على الأحكام المخففة التي صدرت بحق القادة العسكريين المصريين الذين حملهم القضاء مسؤولية الهزيمة، ثم أصدر بحقهم أحكامًا مخففة، لقد اتهمت الجماهير الغاضبة هيكل بالكذب والتضليل والتدليس على الشعب.

كانت الامتحانات النهائية في الجامعة الأردنية قد بدأت منذ أواخر أيار وكان الطلاب يؤدون الامتحان يوما ويستريحون يومًا استعدادًا للامتحان الذي بعده.

في يوم الاثنين، الموافق الخامس من حزيران، كنت في المسكن في جبل الجوفة ولم يكن عندي يومها امتحان وكان زميلي زهير في الجامعة لتقديم امتحان. في تمام الساعة الثامنة أدرت الراديو إلى إذاعة القاهرة، للاستماع إلى نشرة الأخبار، فإذا المذيع يقول بصوت هادئ وبنبرة فيها كل الجد: إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة، سيداتي سادتي، إليكم هذا النبأ الهام: قامت الطائرات الإسرائيلية صباح هذا اليوم بغارات على القاهرة وعلى باقي أنحاء الجمهورية العربية المتحدة، وسوف نوافيكم بالأنباء تباعًا.

يا له من نبأ هام، كنت من الجاهلين في السياسة، كمعظم أبناء أمتي وقل من كان يحاول استكشاف ما وراء الأحداث، إذ كانت السطحية _وما زالت_ القاعدة التي تعم شعبنا الفلسطيني التي قل فيها الاستثناء، شعرتُ بالسعادة الغامرة وشاركني فيها صديقي عبد الرحمن العَدَوي الذي كان هو الآخر متواجدًا في المسكن. لقد سعت إسرائيل إلى حتفها بظلفها، لم يكن القضاء عليها _في ظننا_ يحتاج إلا إلى حماقة ترتكبها فتهاجم مصر فينطلق القاهر والظافر (نوعان من الصواريخ كانت مصر تعمل على تطويرهما بمساعدة خبراء ألمان، وكانت الحكومة الألمانية قد سحبت خبراءها قبل

إتمام المشروع)، كان الناس يفترضون بسلطان الأحلام أن مصر أكملت تطوير هذين النوعين من الصواريخ وأن القضاء على إسرائيل لا يحتاج ـ بالتالي ـ إلا إلى قرار بإطلاق القاهر والظافر ليمحو الكيان الصهيوني عن الوجود. على كل حال كان الشعور السائد أنه مما لا شك فيه أن المنطقة دخلت مرحلة تاريخ جديد، ولم نكن نعلم أن المعركة قد تم حسمها منذ الساعات الأولى، بتدمير طائرات ومطارات مصر.

بدأت البيانات العسكرية تذاع تباعًا وكان أول بيان عسكري يقول إنه تم إسقاط أربع وعشرين طائرة وأسر طياريها وأن الحكومة المصرية ستعرض على الملأ أقوال أول طيار إسرائيلي أسير ليعرف العالم من البادئ بالعدوان.

طار الناس فرحًا لسقوط الطيارات وأسر الطيارين وأيقنوا بقرب النصر. جاء زميلي زهير من الجامعة وقال لنا بصوت واضح فيه الاستعجال: الجامعة أغلقت أبوابها، أُجلت الامتحانات، أسرعوا كي نسافر إلى الضفة الغربية قبل أن يصبح السفر متعذرًا، وبمنتهى السرعة لممنا ما خف من أمتعنا (ورَخُص)، وتوجهنا إلى الكراجات في منطقة العبدلي، وأجواء الحرب تنعكس على كل شيء. شاهدنا في عمان ونحن متجهون إلى الضفة الغربية شبابًا احتشدوا في سيارة نقل مكشوفة، يهتفون: نريد السلاح للكفاح ويتوجهون إلى مراكز التعبئة، كان الحديث السائد في أول ساعات القتال يدور حول عدد الطيارات الإسرائيلية التي تعلن الحكومة المصرية أنها أسقطتها إلا أنها لم تصارح الأمة أنه لم يبق لديها طائرة ولا مطار.

كان ذلك اليوم حارًا جدًا وليس فيه نسمة هواء، ولو أشعلت عود الثقاب على رأس جبل ما انطفأ، ومع ذلك ادعت الحكومة الأردنية أن العواصف الشديدة حالت دون أن تعمل محطة عجلون للمراقبة التي تم إنشاؤها بموجب اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر والتي أبرمها الملك حسين مع عبد الناصر عند زيارته مصر قبل الحرب بأيام، وهذه أسرار كُشفت فيما بعد، ومما كُشف أيضًا أن القيادة الأردنية كان عليها أن تحذر الحكومة المصرية بمجرد أن ترصد محطة عجلون حركة طيران قوية من مطارات العدو، وكانت كلمة السر: العنب العنب. وقبيل الظهر وبعد أن أتمت

الطائرات الإسرائيلية مهمتها بمنتهى النجاح اتصل بالقيادة المصرية مسئول في القيادة الأردنية ليسألها: هل وصلتكم رسالة العنب؟ فرد عليه ضابط مصري: العنب بخبط على نافوخنا.

وصلنا وادي الباذان وكان ثمة عمال يصلحون الطريق فسألناهم عن عدد الطيارات التي سقطت فقالوا لنا: سبعين. فهللنا فرحًا، ثم أعلنت الحكومة الأردنية أن جيشها استعاد جبل المكبر، فتضاعف فرحنا إلا أنه كان ثمة شيء يهتف في قرارة نفوسنا: لا تفرحوا. إن الحماس الذي كان يملأ صدورنا أول ما سمعنا بنبأ الحرب بدأ يخبو ويحل محله شعور بالقلق الغامض، فنحن الآن في غمرة الحرب والله أعلم عمَّ ستنجلي، ولم يكن أحد على الإطلاق يتوقع النصر أو حتى الصمود للأردن التي لم تكن وضعت في مخططاتها احتمال أن تقاتل أو أن تدافع.

ومما يذكر بهذا الصدد، وله مغزى واضح الدلالة أنه في عام 1965 تم افتتاح شعبة بريد عندنا، وحضر الافتتاح المحافظ نايف الحديد، وألقيتُ كلمة ترحيبية به وبالحاضرين معه، وألقى مأمور شعبة البريد جميل إسماعيل كلمة، ثم وقف المحافظ خطيبًا في أهل القرية المتجمهرين، فحدثهم عن مشروع مياه كبير تنوي الحكومة تنفيذه، ومشروع كهرباء كبير، ولكنه لم يتطرق إلى الوضع السياسي ولا إلى التهديد الإسرائيلي لاستقرار الأردن وقد كانت وقتها قد أتمت المرحلة الأولى من مشروع تحويل مياه نهر الأردن إلى النقب ولم يتطرق إلى خطط لتحصين الضفة الغربية في وجه مخاطر المواجهة المتوقعة فكل ذلك لم يكن واردًا في خطط الحكومة الأردنية.

وأذكر أنه قبل الحرب بأسبوع أو أسبوعين كان فلاح من بلدتنا يزرع حاكورة بصل له، فقال له آخر: ازرع لحبيبي (أي لليهودي القادم) وكان هذا التعليق العفوي يعكس شعورًا عامًا وهو أن الأردن لا يحارب إلا ليستسلم، لذا فالحكومة لم تدرب أية ميليشيا للدفاع ولم تبن أية استحكامات في بطون الجبال التي تملأ الضفة الغربية، بل إن البنايات التي كانت تقام في المدن والقرى لا يحتوي أي منها على ملجأ من الغارات، لم يتدرب الشباب على السلاح إلا في منتصف الخمسينات حيث دربوا البالغين في

ذلك الوقت ليكونوا الحرس الوطني، وهو تدريب لا يعد شيئًا، وكان هنالك تدريب عسكري في المدارس في الصفين الأول الثانوي والثاني الثانوي، وكنت أتشوق إلى أن أرى نفسي في صفوف المتدربين وأحمل البندقية بزهو، وبدأ برنامج التدريب لنا في الأول الثانوي 1962–1963 وكان تدريبًا من غير بنادق في المرحلة الأولى وهو مقتصر على المسيرة العسكرية والانفتال من اليمين إلى اليسار وبالعكس ومن الأمام إلى الخلف وهكذا، فلما وصلنا إلى مرحلة تسليم الضابط رسالة وأتقنا تقاليد هذه المهمة أُلغي برنامج التدريب العسكري.

وفي غمرة الاستعداد لحرب أصبحت مؤكدة اصطنعت الأردن برنامجًا كاذبًا للتجنيد الإجباري، وكان من له وساطة أو يستطيع دفع مائة دينار لجهات معينة يستطيع أن ينجو من هذا التجنيد. ووقعت الحرب والأولاد الذين أُخذوا للتجنيد الإجباري لم يكملوا دورة التدريب بعد، وأخذوا إلى جبهة القتال فمات كثير منهم في الخنادق، ومنهم اثنان من أبناء عائلتنا من تلفيت هما المرحومان؛ بخيت يونس البخيت ونايف أحمد مسعود.

وصلنا نابلس، وجدت العم أبا فوزي ومعه مرافقه شبه الدائم صبحي (أبو إياد) رأيت وجه أبي فوزي في غاية التجهم، سألت صبحي: ما لي أرى أبا فوزي متجهمًا؟ هل مات أحد من البلد؟ قال: لا، ولم يزد، وعلمت فيما بعد أنه كان يجلس مع قريبنا وصديقه الحميم أبي نضال، عبد القادر الصالح، (وزير الدفاع السابق) فأطلعه على الحقيقة المرة التي يعرفها وزير دفاع ولا يعرفها معظم الناس وهي أن ميزان القوى مختل لصالح العدو وأن عبد الناصر وقع في المصيدة، وقال له: تقديري أن اليهود سيبيتون على القناة وأسأل الله أن أكون مخطئًا.

توجهت إلى المدرسة الصلاحية وقد علمت أنهم يوزعون البنادق على الراغبين في أن يكونوا ميليشيا مسلحة بالبنادق. وكنت شديد الرغبة في ذلك، لكنني فوجئت بقولهم: لا يوجد عندنا بنادق، بإمكانك أن تستلم إشارة دفاع مدني، فقلت لهم: لا حاجة بي إليها، وتوجهت إلى بيت خالتي ـ وجدتكم فيما بعد ـ أم السعيد، وكانت

تسكن في نابلس لتعليم ابنتيها وابنها وكان زوجها (العم أبو السعيد) في الكويت، فقالت لي: أحضر لنا سيارة، نريد أن نسافر إلى البلدة، وأحضرت السيارة وسافرنا إلى هناك.

منذ اللحظة الأولى لاندلاع القتال، أعلنت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وقوفهما على الحياد، ولكن فرنسا برئاسة ديغول أعلنت أنها ستقف ضد من يبدأ إطلاق النار، وبما أن الدولة الصهيونية هي من بدأ إطلاق النار فقد أدانها ديغول وأوقف بيع الأسلحة لها.

في اليوم التالي 06/ 06 كانت المعركة قد حُسمت، ولكن ذلك لم يكن معروفًا للجمهور، إلا أنني استمعت إلى نشرة أخبار مصرية فشعرت أن القوم مغلوبون، ففي النشرة يؤكد مصدر حكومي مصري أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم تقفا على الحياد كما أعلنتا، وإنما تدخلتا وساعدتا إسرائيل، فلم أكن أحتاج إلى ذكاء لماع لأستنتج أنهم يهيئون الناس لتلقي نبأ الهزيمة.

كان هدير المدافع الأردنية في منطقة القدس يطرق آذاننا بقوة فجالود ليست بعيدة عن منطقتي رام الله والقدس، وكان (الغشيم) يتصور أن القدس الغربية أصبحت أثرًا بعد عين، إلا أن حالة من عدم الثقة بما يجري خاصة على الجبهة الأردنية كانت تعم الناس مثقفهم وأميهم، فبعضهم يقول: إنه مدفع رمضان وآخرون يقولون: أنها قنابل تدريب، وغيرهم يقول: إنهم يطلقون النار على المناطق الخالية من الناس. وبالفعل وبعد أن هدأت الأمور وصار الناس يذهبون إلى القدس، لم يجدوا أي أثر دمار أو خراب أو حتى ضرر بسيط في أي موقع في القدس.

ودأبت الإذاعات تقول: إن القوات السورية تزحف إلى صفد، ومر يوم بعد يوم وهم يرددون المقولة، فيعلق الشباب على ذلك: إنه مثل زحف البدر إلى صنعاء، وكان التعليق صحيحًا كل الصحة.

في اليوم الثالث بدأت لهجة العرب تزداد ضعفًا، وبدأت أول طلائع الهزيمة للجيش الأردني تصل إلى قريتنا. بدأت التعليقات الشعبية كلها تحمل نبرة اليأس

الواضح، وقيل في ذلك اليوم إن جنديًا منهزمًا شوهد في أطراف القرية وأخبر أن الجيش الأردني هائم على وجهه، وفي أجواء الهزيمة التي بدأت تلقي بظلالها اتصل الحبيب بورقيبة بمصر وأعلن عن إرساله مبلغًا من المال لدعم المجهود الحربي، فكان تعليق أحمد سعيد، وقد بدأ يفقد صوابه: ظن الصهاينة أننا متفرقون وأن الأحداث لا تجمعنا، سذّج، بلهاء، ومن حسن حظنا أنهم سُذَّج وأنهم بلهاء.

في اليوم الرابع تأكدت للناس هزيمة الجيش الأردني، وبدأ الجنود الهاربون يمرون من قريتنا أفواجًا متجهين إلى الضفة الشرقية، ومن كان له قريب أو صديق أو معرفة أعطاه قميصا وبنطلونًا، أما في اليوم الخامس وهو يوم الجمعة فكان الهاربون هم المنظر المألوف، وكان في القرية شيخ أولاده الخمسة في الجيش ولا يعرف مصير أي منهم فسمع رجلًا من الفارين يحيي رجلًا آخر بقوله: صباح الخير، فانفجر الشيخ مخرجًا ما في صدره: صباح الخير؟! أين هو الخير؟! صباح القَشَل. (القَشَل: كلمة عامية شائعة تعني الويل).

أعود قليلًا إلى الوراء: ففي اليوم الثالث من الحرب، وردًا على القرار الثاني لمجلس الأمن الدولي بوقف إطلاق النار أعلن المذيع الإسرائيلي بلهجة تطفح بالسعادة: سيداتي سادتي، إليكم هذا النبأ الهام: دخلت قواتنا مدينة القدس الشرقية.

ومنذ اللحظة الأولى لاحتلال القدس أعلنت وسائل الإعلام الإسرائيلية أنها دخلتها إلى الأبد.

ابتداء من اليوم الرابع للحرب، أي: يوم الخميس بدأت إسرائيل تذيع من أورشليم ورام الله، ولكن إذاعة الأردن أصرت لعدة أيام أن تدعي أنها تذيع من عمان والقدس، وبذا كنا ندير إلى الإذاعة الإسرائيلية فنسمع: صوت الإذاعة الإسرائيلية من أورشليم ورام الله، وكان هذا هو الحقيقة المرة، وننتقل إلى إذاعة عمان فنسمع: إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان والقدس، والكل يعلم أن ذلك ادعاء ومكابرة.

في اليوم الرابع وقبل أن تعترف مصر بالهزيمة عقد كبار قادة الجيش الإسرائيلي مؤتمرًا صحفيًا أعلنوا فيه أن إسرائيل حسمت المعركة لصالحها، وقال أحد المتحدثين، في تقييمه لأداء الجيوش العربية: الجيش الأردني قاتل جيدًا، أما الجيش المصري فكان

أحسن منه في حرب 1956.

لكن الناس ظلوا يتشبثون بالأمل وينتظرون القاهر والظافر، والأسلحة الأخرى التي لا بد أن عبد الناصر يدخرها للحظة الأخيرة.

ومع مشاعر الأسى واليأس واستثقال الحياة في تلك الأوقات العصيبة والمريعة، كانت الإذاعة الإسرائيلية تنتقي أغاني خاصة بالمناسبة السعيدة بالنسبة لها والتعيسة بالنسبة لنا وكانت تعرف كيف تختار الأغاني بمنتهى الخبث والدهاء.

ومنها مثلًا: هنا دار الإذاعة الإسرائيلية من أورشليم ورام الله، سيداتي سادتي، إليكم أغنية صباح: يا كركدن. ويشعر السامع أن هذه الأغنية التي كثيرًا ما كانت ترددها الإذاعات العربية قبل الحرب، كأنما كُتبت لهذه المناسبة التعيسة:

يا كِرْكِدِن لا تِحْسِبَنْ تا تِقبَضَنْ
وامشي على ضوّ على ضَوّ
يمكن في الجو في الجو شي مَقْلَبَنْ
عالنَّد النادّ عقلك هالأد
احكي عن جدّ لا تكْذِبَنّْ

ثم نسمع المذيعة مرة أخرى تقول: هنا دار الإذاعة الإسرائيلية من أورشليم ورام الله، سيداتي سادتي: إليكم أغنية فريد الأطرش: دُقُّوا المزاهر.

دُقُّوا المزاهر يا الله ... ويا أهل البيت تعالوا
جَمَّع وِوَفّق والله ... وصدقوا اللي قالوا
إِحنا الليلا دي ... كدنا الأعادي
ودي العريس اسم الله ... على حسنه وجماله

وتأخرت سوريا عن قبول وقف إطلاق النار يومًا بعد مصر والأردن فأخذت الإذاعة الإسرائيلية تكثر من إذاعة أغنية صباح:

يا بطة آكلك من اين ... آكلِك من اين

ما أمر الهزيمة وما أقسى تلك الأيام، فبعد أن اعترفت مصر بالهزيمة في اليوم الخامس جلسنا في الحضير ننتظر كلمة جمال عبد الناصر، وعندما بدأ يتكلم كان واضحًا أنه خارج للتو من نوبة بكاء، وبرر عدم مبادرته إلى شن الضربة الأولى، بأن الاتحاد

السوفيتي وفرنسا حذرا الطرفين من إطلاق الرصاصة الأولى وأن الاتحاد السوفيتي أكد له أن إسرائيل لن تبادر إلى شن الهجوم، ثم كانت خلاصة كلمته أنه يستقيل ويذر الحكم للشعب وأنه سيعيش بين الناس يقاسمهم همومهم.

بمجرد أن أنهى عبد الناصر كلمته، صدح صوت أم كلثوم بأغنية: ثُوار ثُوّار، فشعر السامعون أن الوضع في مصر العروبة رجع إلى المربع الأول، مربع الثورة بعد اكتمال الدولة والجيش وبذا فالحرب أسفرت عن هزيمة أحالت «الخامر فطيرًا» كما يقولون في المثل العامي، وإذا كان عبد الناصر قد تحمل المسؤولية فاستقال، فإن الملك حسين لم يخطر بباله شيء من هذا القبيل ـبطبيعة الحالـ لكنه ألقى خطابًا أكد فيه: سنبني ونُعلي البناء ليعلم الجميع أن الشدائد هي محك الرجولة الحقة.

وفي سوريا، بعد الهزيمة مباشرة، في أشد الساعات وأحلكها، أمسكت الحكومة باللواء سليم حاطوم بعد أن تعرف عليه أحد الناس وتبين أنه قادم من الأردن ليقود ثورة أو انقلابًا، وبسرعة حوكم فحكم عليه بالإعدام فنُفذ فيه الحكم في يوم واحد، لذلك أعلنوا أن الحرب كانت ستسفر عن هزيمة لو استطاع الأعداء أن يُسقطوا الحزب، لقد انتصرنا إذ ظل الحزب سالمًا، فالحزب يُعيد الأرض، ولكن الأرض لا تعيد الحزب لو سقط (لا قدَّر الله).

عندنا في الضفة الغربية كان التساؤل ببالغ القلق يدور حول المصير المنتظر للناس تحت الاحتلال وحول المسلك الذي سيسلكه الجيش الإسرائيلي في مجال الشرف بشكل خاص: هل سيرتكبون المذابح التي ارتكبوها فيما مضى؟ هل سيجددون دير ياسين والطنطورة وكفر قاسم وقِبْيَة؟، هل سيقترفون جرائم الاغتصاب والنهب، أم ماذا سيفعلون؟

كان الأهل في الخارج وخاصة في الكويت أشد قلقًا منا نحن الذين في أرض المواجهة، فقد طار إليهم نبأ نقلًا عن رجل قالوا إنه أول الخارجين من الضفة الغربية وهو يقسم بالله أنه من نابلس إلى الشريعة (نهر الأردن) سار ماشيًا وما وقعت رجله إلا على الجثث.

وصدق القصة من صدّق ومنهم والدي الذي كان يعمل في الكويت وكان شديد الخوف عليّ، ولكن لم تمر إلا أيام معدودة حتى بلغتهم الأنباء المتواترة عن أنه لم تقع أية مذابح.

أخذ الجميع عندنا يحاولون أن يتلقطوا الأخبار من هنا وهناك حول تحركات جيش الاحتلال وتصرفاته، وكانت شعبة البريد مفتوحة والهاتف الذي فيها يعمل في محيط القرى المجاورة ولا يصل إلى المدينة، فاتصل أحد رجال القرية ببريد الساوية وهي تبعد عن جالود حوالي عشرة كيلو مترات، فرد عليه شخص يعرفه وتبادلا التحية، ثم سأله: هل شاهدتم (الملاعين) فقال: نعم، شوهدوا فقد توقفوا بسياراتهم عند باب امرأة عجوز تسكن بجانب الخط الرئيس الذي بين نابلس والقدس، وطلبوا منها ماء، فجلبت لهم الماء وهي تدعو لهم بالنصر على اليهود، فقالوا لها: نحن اليهود، ولا نريد ماءك.

كانت الحادثة طُرفة أضحكت الجميع ولم يكن أحد قد ضحك منذ مدة، وأهم ما فيها أننا استنتجنا بأنهم لا يريدون ارتكاب مجازر كما فعلوا من قبل.

بعد ذلك مباشرة بدأوا يدخلون المدن والقرى في الضفة الغربية وكل قرية يدخلونها يلقون فيها عددًا من قنابل الصوت للتخويف، ويسرحون أبصارهم للتأكد أن كل بيت في القرية يرفع الراية البيضاء، وكانت كل البيوت ترفع تلك الراية التي هي رمز الاستسلام، ثم يدخلون البيوت يفتشونها بيتًا بيتًا، بحثًا عن السلاح، وإذا رأوا في البيت صورة الملك حسين تركوها وقالوا: مسكين. وإذا رأوا صورة جمال عبد الناصر خرّقوها بالرصاص، ولكنهم لا يقتلون ولا يعتقلون ولا يتعدَّون على الأعراض، وكان هذا أهم شيء بالنسبة لأهل فلسطين. وجاء دور قريتنا، وقيل إن اليهود قد صعدوا بسياراتهم إلى البلد (جالود وهي على رأس جبل) فذهبت أنا والمختار وانضم إلينا الشيخ أبو فوزي، إلى أول مدخل القرية لنرى ما يكون منهم، وما هي ألا دقيقة أو اثنتان حتى كانت سيارتا جيب مكشوفتان تقفان بمحاذاة المسجد وفي كل منهما عدد من الجنود بملابس الميدان وعلى رؤوسهم الخوذات الحربية المموهة ووجوههم عابسة،

وقفوا ووقفنا بجانبهم، وحدّقوا فينا وحدّقنا في وجوههم ولم يكن بطبيعة الحال سلام ولا تحية، ولكن بعد برهة صمت تكلم أحدهم سائلًا قائده عن شيء وعرفنا كلمة قنابل، وفهمنا أنه يسأل قائده هل يطلقون قنابل صوتية مؤذنة بدخولهم القرية عنوة، فأشار إليه إشارة فهمنا منها أنه لا داعي لذلك. ثم نظروا إلى شيخ بيده عصا وعصاه ترتجف بيده فقال له أحدهم بعربية ضعيفة: لا تخف. ثم قالوا لنا: أين الرايات البيض ونظروا إلى المسجد فإذا ليس عليه راية بيضاء، فسألت أحدهم إن كان يعرف الإنجليزية فأومأ برأسه بالإيجاب، فقلت له: هذا مسجد حديث البناء وغير مأهول فقال: عندما نرجع في المرة القادمة أريد أن أرى عليه راية بيضاء، وأن تجمعوا لنا السلاح. فأكدنا لهم أنه ليس لدينا سلاح وكان جوابنا مستغربا: أنتم في حالة حرب فهل يعقل أن الحكومة المنهزمة لم تكن وزعت عليكم سلاحًا؟ وأين سلاح الجنود الفارين من المعركة؟. فقلت لهم: إن الحكومة لم تكن تضع في أيدينا أي سلاح على الإطلاق، وليس لدينا أي سلاح للجنود الفارين، وإذا شئتم ففتشوا. فقالوا لنا: نحن الآن ذاهبون وسنعود بعد ساعة فنجدكم جمعتم السلاح، ثم أداروا مقدمتي سيارتيهم إلى الخلف وانطلقوا ولم يرجعوا في ذلك اليوم، ولم يطلبوا السلاح بعد ذلك ولا شك أنهم كانوا يعرفون الحقيقة أكثر مما نعرفها.

بعد الاحتلال بدأت الهجرة باتجاه الشرق، إلى الضفة الشرقية وبدأ كثيرون ينزحون لأسباب متنوعة، وكانت قريتنا قريبة نسبيًا من الضفة الشرقية، فهي آخر قرية من قرى نابلس باتجاه الشرق. قررت السفر للمرة الأولى في قافلة مسافرين لإيصال ابنة خالي الكبرى إلى زوجها وكنت بصحبة شقيقها الأكبر وكان في صف التوجيهي. وضمت القافلة رجالًا كثيرًا ونساءً، ومعنا قطيع من الحمير وبغل واحد، لأن كل ظعينة كانت على حمار. انطلقنا من القرية بعد منتصف الليل وواصلنا السير مع استراحة قصيرة على قناة فصايل حيث الماء والخضراوات التي هجرها أهلها، وهناك رأينا كومة كبيرة من بساطير الجيش الأردني وكلها تبدو جديدة، فقلت في نفسي: عندما أعود سأحمل بعضها؛ فهي أحذية قوية وتخدم طويلًا.

وكانت هيئة الأمم المتحدة على وشك أن تعقد اجتماعًا بطلبٍ من المجموعة

العربية لمناقشة العدوان الإسرائيلي واتخاذ قرار دولي بإدانته وإلزام إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها، وعلى الرغم من معرفة الجميع بأن الأمم المتحدة أضعف من أن تفرض شيئًا على إسرائيل إلا أن كثيرين كانوا يحاولون الخروج من حالة اليأس المطبق التي يعانون منها بالتعلق بالآمال مع علمهم أنها آمال كاذبة. والبسطاء كانوا يظنون أن الأمم المتحدة تستطيع إخراج إسرائيل من الأراضي التي احتلتها.

هنالك مررنا برعيان يقفون تحت شجرات سرو قرب القناة، من الواضح أنهم من سكان تلك الأغوار، بدليل سواد بشرتهم، أوسعونا لومًا على النزوح، مؤكدين، أن النزوح خطأ فادح وبرروا رأيهم هذا بقولهم: بكرة الجلسة.

سالت الرجل الذي ساق تلك الحجة: جلسة ماذا؟

فقال: جلسة الدِّوَل.

قلت: وماذا يُنتظر من جلسة الدِّوَل؟

قال: سوف يأمرون إسرائيل بالانسحاب.

والذي حصل أن الجمعية العامة للأمم المتحدة انعقدت بطلب المجموعة العربية، لتناقش إمكانية اتخاذ قرار باعتبار الاحتلال الإسرائيلي غير شرعي ودعوة إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي التي احتلتها، ولكن القرار لم ينل الأغلبية المطلوبة، فاكتشف العرب أنهم مثلما انهزموا في ميدان القتال، انهزموا أيضًا في ميدان السياسة، وأن ذلك يعود بشكل أساسي إلى فشلهم إعلاميًا ونجاح العدو في هذا الميدان مثلما نجح في ساحات القتال.

اشتدت وطأة الإحباط واليأس على إثر فشل الأمم المتحدة في اتخاذ القرار المطلوب وكان هذا الإحباط أوضح ما يكون في وسائل الإعلام العربية المختلفة، وارتفعت أصوات كثيرة تدعو الدول العربية إلى الانسحاب من الأمم المتحدة وتقابلها أصوات أخرى ترفض الفكرة وتقول بأن العرب يجب ألا يتركوا الأمم المتحدة لإسرائيل وأمريكا.

وبعد الظهر بساعة تقريبًا كنا على الضفة الشرقية وقد قطعنا النهر من مخاضة أم الشُّرَط. وجدنا هنالك الأزواج بانتظار زوجاتهم، فسلمنا الأمانات لأصحابها، وأردنا العودة، ولكن قوات من جيش الاحتلال كانت ترابط على رؤوس التلال المواجهة، فلم تكن العودة ممكنة في ضوء النهار وكان كثير من الناس بدؤوا يتكاثرون في منطقة المخاضة وبعضهم جاءوا هم وأزواجهم بسياراتهم، وكان من جملة الذين سافروا تلك السفرة لمساعدة أقربائهم النازحين شاب كثير العيال، رقيق الحال، وسبب سفره أنه يريد إيصال زوجة شقيق زوجته إلى زوجها العسكري في الأردن، وقد استعار حمار شقيقه الأصغر منه سنًا، وكان حماره عزيزًا عليه، وقد امتلأ رفيقي همًّا وغمًّا لاحتمال ألا يتمكن من العودة إلى بناته وجلس بالقرب منا شيخ من تلك المنطقة يحدثنا عن ذكرياته في سجن دخله ذات يوم، وكان حديثه مملًا لجميع الحاضرين الذين امتلأت صدورهم بهموم العودة. وإذا كان حديثه ثقيلًا على أسماعنا فإنه كان يقع موقع القرع بالعصا على قلب ذلك الذي ترك في جالود زوجة وبنات ولا يدري هل يعود إليهن أم لا. ثم ودعَنا ذلك الرجل كي يجمع الحشيش لحماره، وظللنا في المنطقة حتى المساء، وعند هبوط الظلام بدأ الكل يقطع المخاضة بعد أن اختفى الجنود المرابطون على التلة المشرفة، وقطعت المخاضة أنا وذلك الشخص، وسرنا بين منازل ومزارع عرب النصيرات الذين كانوا يعيشون على ضفاف الأردن، وقد هجروا منازلهم أثناء الحرب إلى مناطق أكثر أمنًا، ثم بدأنا نصعد المرتفع المعروف بالكتار والمكون من تربة ليست شديدة التماسك إلا أنها تكون تلالًا تتخللها أخاديد عميقة أعماقًا متفاوتة، وما إن وصلنا رأس الكتار حتى لمعت أضواء سيارات خلناها قريبة منا، ولم يكن يتحرك في الليل إلا سيارات الجيش الإسرائيلي فتراجعنا إلى الخلف ونزلنا في أحد أخاديد الكتار وكمنّا فيه ليلتنا، وكنت أسمع أنفاس رفيقي حرّى بعد أن لم يعد الهَمُّ اجتياز نهر الأردن، فقد زال هذا الهَمّ، وبقي الهَمُّ الآخر الذي يكاد يوازيه، إنه الحمار المستعار والذي تركناه وسائر الحمير على الضفة الشرقية من نهر الأردن، ثم مع ضوء الفجر قمنا نمشي فإذا دورية للجيش الإسرائيلي أمامنا على بعد أقل من مائة متر وقد أطلقت طلقتي تحذير قبل وصولها إلى سيارتين متصادمتين شاهدناهما ونحن متجهون شرقًا، وقد أصابهما العطل فتركهما سائقاهما.

لم يكـن عنـدي ولا عنـد صاحبـي أدنـى شـك في أن الدوريـة ترانـا كـما نراهـا فقررنـا أن نتسـمر في مكانينـا وأشرت عـلى صاحبـي أن يخلـع كوفيتـه البيضـاء ويلـوح بهـا للدوريـة كإشـارة تسـليم، إلا أن الدوريـة قفلـت عائـدة هابطـة الطريـق ولا شـك عنـدي أنهـم لم يرونـا، ولـو رأونـا لأطلقـوا علينـا النـار وأردونـا قتيلـين، فلـم يكـن الأسر عندهـم واردًا في تلـك الأيـام، ولقـد قتلـوا عـلى ضفـة نهـر الأردن الكثيريـن ممـن رصدوهـم يجتـازون النهـر إلى الضفـة الغربيـة ومنهـم اثنـان مـن أقاربنـا مـن قريـة تلفيـت المرحومـان: قاسـم ذيـب وصالـح عبـد اللطيـف، فالقتـل كان عـلى كل حـال الحـل الأيـسر بالنسـبة إليهـم، ويبـدو أن الإسرائيليـين قـرروا غـض الطـرف لمـدة محـدودة لم تـزد عـلى شـهر مـن تاريـخ وقـوع الاحتـلال، ثـم بـدأوا بعـد ذلـك يطلقـون النـار عـلى كل مـن يرصدونـه متوجهًـا غربًـا فيردونـه قتيـلًا.

وبعـد أن عـادت الدوريـة أدراجهـا عدنـا إلى الأخـدود وظللنـا فيـه إلى أن بزغـت الشـمس.

فعـاد إلى صاحبـي همُّـه، فقـد تركنـا خلفنـا الـدواب وخاصـة الحـمار الـذي اسـتعاره صاحبـي، فلـم يغمـض لـه جفـن، وكلـما تصـور (العـزارة) التـي تنتظـره صعـدت أنفاسـه حـرّى.

قمنـا مـن مكمننـا عنـد بـزوغ الشـمس ومشـينا ونحـن نشـعر بقـدر كبـير مـن الأمـان؛ لأنـه في ضـوء النهـار لـو كان في مـدى الرؤيـا دوريـة فإننـا نسـتطيع تجنبهـا والاختفـاء مـن وجههـا ببسـاطة، نظرنـا فـإذا شيء يتحـرك أمامنـا لم نميـزه لأول وهلـة، ولكنـه لم يكـن سـيارة دوريـة فهـو أصغـر حجـمًا، كان بطيئًـا فأسرعنـا الخطـا على أمـل أن ندركـه، وداعـب صاحبـي الأمـل في أن يكـون الله قـد كتـب لـه مـع السـلامة الفـرج وسـتر الحـال مـع شـقيقه الـذي لـن يتسـامح معـه لـو ضـاع الحـمار، وبـدأ الأمـل يقـوى كلـما اقتربنـا ولمـا وصلنـا هبطـت السـعادة عـلى المسـكين وبرقـت بهـا أسـارير وجهـه ودبـت فيـه القـوة، إنـه الحـمار المفقـود مـع مـا يزيـد عـلى عـشرة حمـير وبغـل واحـد تركناهـا وراءنـا. لقـد ألهمـه الله أن يقطـع المخاضـة وهـداه إلى الطريـق الـذي يسـلكه، وأعثـر الله صاحبـي عليـه، لقـد اكتملـت السـعادة، فهـو عائـد إلى البنـات، وعائـد بالأمانـة إلي شـقيقه، فامتطـى صهـوة الحـمار وسرت إلى جانبـه، وعندمـا قطعنـا الطريـق الإسـفلتي المـؤدي إلى أريحـا وتوجهنـا إلى قنـاة فصايـل، أردنـا أن يكـون مـع السـلامة

غنيمـة، وكانـت الغنيمـة خـضراوات متنوعـة مـن بنـدورة وخيـار وفقـوس وكلـه هجـره أهلـه، فأكلنـا وشربنـا مـن مـاء القنـاة، وخلعـت قميـصي وربطـت أكمامـه وملأتـه بنـدورة؛ لأن الخـضراوات والفواكـه لم يكـن لهـا وجـود في القريـة في ذلـك الوقـت فالمواصلات كانـت متوقفـة تمامًـا، أمـا صاحبـي (حسـني) فقـد ملأ كوفيتـه بالخيـار والفقـوس والبنـدورة وركـب حمـار أخيـه. سرنـا أولًا في طريـق مطمئنـة، قبـل أن نبـدأ بأطـول طريـق صعـود في فلسـطين. ونظـرت إلى موقـع كومـة البسـاطير فوجدتهـا قـد اختفـت ولم يعـد لهـا أثـر. ثـم بدأنـا نصعـد المرتفـع الهائـل والـذي يزيـد عـلى عـشرة كيلـو مـترات. بـدأت البنـدورة تتهالـك في قميـصي فألقيـت بهـا ولبسـت قميـصي المخضـب بـماء البنـدورة، أمـا حسـني فشـعر أن الشـمس تخـترق رأسـه وأنـه إذا ظـل مكشـوف الـرأس تحـت أشـعة شـهر حزيـران الحارقـة فسـوف يفقـد وعيـه، فمـلأ جيبـي قمبـازه بالخيـار والفقـوس ليدخـل عـلى البنـات بهديـة، وألقـى بباقـي الحمولـة ولبـس كوفيتـه فاسـتعاد توازنـه.

بعـد أن اجتزنـا جـزءًا لا بـأس بـه مـن الطريـق الصاعـدة أتينـا حصاديـن مـن قريـوت ففرضنـا نفسـينا ضيفـين عليهـم فقدمـوا لنـا سَـلَطَة البنـدورة بالخبـز البلـدي الشـهي فأفطرنـا فطـورًا لذيـذًا كنـا في أمـسِّ الحاجـة إليـه وشربنـا مـاء بـاردًا مـن قربـة كانـت تحـت غمـر القمـح، ثـم واصلنـا الصعـود فمررنـا بحصاديـن فاسـتسقيناهم فسـقونا مـاءً بـاردًا فشربنـا وأكثرنـا، ثـم مررنـا بحصاديـن آخريـن فاسـتسقيناهم وسـقونا، وآخريـن بعـد ذلـك، حتـى امتـلأتُ مـاءً إلى البلعـوم وإلى درجـة أننـي إذا انثنيـت قليـلا خـرج المـاء مـن حلقـي، وكانـت هـذه التجربـة مـع المـاء فريـدة مـن نوعهـا معـي لم أجربهـا قبـل ذلـك ولا بعـد ذلـك، ومكثـت يومـين بعدهـا لا أذوق المـاء ولا أطيـق أن أتصـوره.

مكثـت في البلـدة أيامًـا وجـاء أبي مـن الكويـت وأردنـا أن ننـزح إلى الأردن، فلـم نجـد حمـارًا نحمـل عليـه الـضروري مـن أثقالنـا، ووجـد أبي تثبيطًـا شـديدًا مـن ابـن عمـه وصديقـه الحميـم أبي فـوزي، وكانـت موجـة النـزوح عـن الضفـة الغربيـة باتجـاه الأردن مسـتمرة عـلى الرغـم مـن دعـوات وسـائل الإعـلام الأردنيـة وغـير الأردنيـة لهـم بالتشـبث بمواقعهـم إلا أن كل الدعـوات كانـت قليلـة الجـدوى.

كانت والدتي متحمسة للنزوح لتعيش حياة جديدة في المدينة، ولكن عزّ علينا الحمار فصمدنا صمود المضطر. وقررت أن أنزح بمفردي، بصحبة ابن خالي محمد توفيق وابن خال أمي، ناصر إسماعيل، مأمور البريد وقد نبذ البريد والمأمورية وراء ظهره. بدأنا رحلتنا عند منتصف الليل، ووصلنا قناة فصايل عند تبلج الإصباح، فشربنا منها وأكلنا بعض الخضراوات، ثم واصلنا المشي في الأرض المنبسطة التي كانت قاعا صفصفًا، قلما تجد فيها شجرًا أو نباتًا إلا شُجيرة أراك كان النازحون يتواعدون عندها، وهذه المنطقة هي ما يعرف جغرافيًا بحفرة الانهدام الآسيوي الإفريقي وهي أخفض منطقة في العالم، وتمتد هذه الأرض عرضًا من حدود غور فصايل في الضفة الغربية، إلى سفوح جبال السلط في الضفة الشرقية.

وصلنا مخاضة أم الشُّرَط حوالي الظهر ولقيَنا دونها جنودٌ إسرائيليون لا يتكلمون العربية، ولكن الضابط فيهم كان يتكلم الإنجليزية، وكنت أَقْدر الثلاثة على الحديث بالإنجليزية، فسألنا هل نحن جنود؟ فقلت له: لا إنما نحن طلاب متوجهون إلى عمان لمتابعة دراساتنا الجامعية. فسأل ألم تتجندوا في الجيش من قبل؟ فأكدنا له عدم حصول ذلك وقلت له إن النظام الأردني ليس عنده نظام تجنيد إجباري. ولا أزال أستغرب سؤاله عن الجندية وأستغرب أنه في رحلتنا السابقة كان معنا جندي من قريتنا بملابس مدنية وهو المرحوم محمد صالح سلمان، وكان خائفًا أن يفتشنا الجيش الإسرائيلي فيكتشف أنه جندي وكانت طريقة معرفة ذلك بسيطة جدًا، إذ كانوا يأمرون الشخص أن يكشف عما بين بطنه وصدره، فإذا كان جنديًا فإن أثر الحزام الجيشي الصلب العريض ويسمونه في الجيش الأردني (القايش)، يكون واضحًا كل الوضوح. والحقيقة أن القوات الإسرائيلية لم تكن تتعرض لفلول الجيش الأردني كما فعلت بفلول الجيش المصري حين داست أجسادهم بالدبابات، وحدثنا قريب لنا كان في الجيش الأردني أنه بينما كان يسير هو وبعض زملائه متقهقرين وبملابس الجيش، فوجئوا بقوات من الجيش الإسرائيلي أمامهم، بحيث لم يكن ممكنًا الرجوع إلى الخلف، فقالوا للإسرائيليين: السلام عليكم، فرد عليهم بعضهم: وعليكم السلام، ولم يوجهوا إليهم أي سؤال، فواصل هؤلاء مسيرهم إلى حيث يقصدون.

ثـم قـال لنـا الضابـط: قولـوا لمـن تلتقـون بـه في عـمان: نحـن نريـد السـلام. قلـت لـه: سـنفعل. ثـم حذرونـا مـن أن حالـة الجسر الـذي سـنمر عليـه سـيئة. فشـكرته وسرنـا ثـم هبطنـا النهـر فشربنـا منـه مـاءً عَسِرًا لـه مـذاق في غايـة الـرداءة ولـولا الـضرورة مـا شربنـا منـه، وظللنـا بعـد ذلـك بأيـام نعـاف مـاء عـمان والزرقـاء متأثريـن بآثـار مـاء الأردن. وكانـت المخاضـة عـلى بعـد أمتـار منـا، فوجدنـا خشـبها مكـسرًا تمامًـا فقطعناهـا بحـذر وتوجهنـا إلى عـمان.

أقمـت في عـمان أيامًـا ثـم بـدا لي أن أسـافر إلى الكويـت، وهنالـك حللـت محـل زوج خالتـي المرحـوم أبي السـعيد، جـبر سـعيد (الـذي أصبـح عمـي في مـا بعـد) في السـكراب الـذي يملكـه وقضيـت هنالـك زهـاء شـهرين، ثـم عـدت إلى عـمان، وهنـاك وجدنـا الجامعـة قـد أقامـت لأبنـاء الضفـة الغربيـة مـن طلابهـا مخيـمًا مؤقتًـا، وقـررت إطعامهـم مجانًـا مـن مطعـم الجامعـة، ومكثنـا في المخيـم إلى أن اقـترب موعـد بـدء العـام الـدراسي، فقـررت لنـا الحكومـة مصروفًـا شـهريًا مقـداره اثنـا عشر دينـارًا أردنيًـا لـكل واحـد، وهـو مبلـغ في ذلـك الوقـت يكفـي للمـأكل والملبـس والمسـكن مـن غـير تقتـير.

الحالة النفسية العامة بعد النكسة

كانـت أيامًـا لم يـر النـاس أمرّ منهـا، جمـوع النازحين تتوجـه يوميًـا إلى الأردن فيحتلـون المـدارس مسـتغلين فـترة العطلـة الصيفيـة ومـن كان لـه أقـارب في الأردن نـزل عـلى أقاربـه ضيفًـا ثقيـلًا، كانـت الهزيمـة ثقيلـة عـلى الأنفـس وعـلى الأسـماع، وكان النـاس يهربـون مـن أكاذيـب إذاعـات العـرب إلى سـماع الأخبـار مـن الإذاعـة الإسرائيليـة، فكانـوا يسـمعون مـا يمـلأ نفوسـهم أسـى وقنوطًـا.

مـن ذلـك أنـه بينـما كنـت في الكويـت، وكنـت في السـكراب وفيـه أنـاس عديـدون مـن بلدتنـا، كنـا نسـتمع إلى الإذاعـة الإسرائيليـة، فـإذا البرنامـج يـدور حـول قـول أم كلثـوم للجنـود المصريـين قبـل الحـرب: سـأغني لكـم مـن تـل أبيـب، وبعـد أن صـب المعلـق جـام غضبـه عـلى عبـد النـاصر الـذي حـوَّل الفـن إلى بـوق دعايـة، قـال: سـنرى إن كان الأسرى

المصريـون يريـدون أن تفـي لهـم أم كلثـوم بوعدهـا، فصـاروا يقابلـون عـددًا مـن الأسرى بشـكل فـردي، ويوجهـون إلى كل أسـير السـؤال التـالي: هـل تحـب أن تـأتي أم كلثـوم فتغنـي لـك؟

ومثلـما كان السـؤال نمطيًـا كان الجـواب أيضًـا نمطيًـا: أم كلثـوم؟ يـا سـلام! ده أنـا عايـز اسـمع أغنيـة لأم كلثـوم. ثـم ردد الأسرى بصـوت واحـد: كلنـا عايزيـن أغنيـة مـن أم كلثـوم، وقـال المذيـع بعـد ذلـك: ولقـد سـألنا المسـئولين الإسرائيليين هـل يوافقـون عـلى أن تـأتي أم كلثـوم تغنـي للجنـود الأسرى، فقالـوا: إنهـم لا يمانعـون بذلـك.

كان إلى جانبـي شـخص مـن قريتنـا، أخـذ يـردد عبـارات الاسـتحياء والشـعور بالخـزي والعـار فهدّأت روعـه، وقلـت لـه: إن الأسرى المصريـين إنـما قالـوا مـا قالـوا تحـت طائلـة العقـاب الشـديد فـإن الأقـوال التـي سـمعناها منهـم، إنـما صيغـت لهـم وأجـبروا عـلى ترديدهـا.

عـلى أثـر الهزيمـة، بـدأت مرحلـة شـاملة مـن مراجعـة النفـس عـلى مستوى الأفـراد والحكومـات والأحـزاب والمعاهـد التعليميـة وفي الإعـلام خاصـة في الصحـف والمجـلات، وتبين للعـرب كـم كانـوا سـذجًا في الموضـوع الإعلامي بشـكل خـاص عندمـا كانـوا يكيلـون للعـدو التهديـد والوعيـد الـذي لم يكـن إلا كلامًـا ليسـوا أهـلًا لتحويلـه إلى فعـل، وكان ينبغـي ألا يقـال حتـى لـو كانـت تصاحبـه الكفـاءة: تجـوَّع يـا سـمك، في البحـر حنِدْفِنْكُـم، اذبـح كل الصهيونيـة ولا تخـلي بقلبـك حِنيِّة.

فتأخـذه وسـائل الإعـلام الإسرائيليـة وتسـمعه للعـالم كلـه وتترجمـه إلى كل اللغـات وتقـول للعـالم: هـؤلاء هـم العـرب وهـذه همجيتهـم.. الـخ.

اجتمـع بنـا نائـب رئيـس الجامعـة قبيـل بـدء أول عـام جامعـي بعـد الهزيمـة، وكان تقويمـه أننـا في العـالم العـربي لا نعـرف الجـد ولا الحـزم وتأخذنـا الرأفـة في غـير محلهـا لذلـك فنحـن مقصـرون ومتخلفـون عـن العـالم المتقـدم في مجـالات العلـم وفي سـائر المجـالات، لـذا فـلا تهـاون بعـد اليـوم في الامتحـان ولا تخفيـف للأسـئلة ولا لجـان رحمـة.

وكان الحظ التعيس حليف أربعة وعشرين طالبًا من زملائنا، كان لديهم إكمال في مادة النحو والصرف، وكان أستاذنا الدكتور عبد الرحمن السيد من مصر، لم يكن راضيًا من الجامعة ومعاملتها له ولم يكن يخفي عنا ذلك، فغادر الأردن صيفًا ولم يعد، فشكلت الجامعة لجنة من أساتذة اللغة العربية أجرت الامتحان لهم أثناء تلك الأزمة النفسية الخانقة، فجرى ترسيبهم إلا اثنين.

وعندما ذكرتُ الحرام في ترسيب الطلاب المكملين أمام أستاذي الدكتور محمود السمرة، ذي الثقافة الغربية، قال: إن الذي خرّب بيوتنا هو القول هذا حرام وهذا حلال.

فكانت مراجعة النفس عند كل فرد أو جماعة تفضي دائمًا إلى الاعتقاد بالتقصير حسب مقاييسه الخاصة، فلم يكن تحت المراجعة من طائل.

ذوو الاتجاه الإسلامي اعتقدوا أن الهزيمة سببها معصية الله تعالى والابتعاد عن الإسلام وأن الله لا ينصر من أعدم سيد قطب واختار غير طريق الإسلام واستبدل قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة» بعبارة: «أخي في العروبة» التي كانت الإذاعات المصرية تفتتح بها كلامها وجعلوا: باسم الشعب بدل الاستهلال الإسلامي لكل حديث: بسم الله الرحمن الرحيم.

أراد عبد الناصر أن يكون للمصريين ميثاق يكون هو مرجعهم يهتدون بهديه، فكتب كتيبًا سماه «الميثاق» أراد أن يكون ما احتوى عليه من إرشادات ومعايير للصلاح مرجع الشعب كله، والكل يعرف أغنية عبد الحليم حافظ التي يقول فيها:

عبد الناصر يقول: على كل باب في الميثاق نبراس يهدينا.

وكأن القرآن لم يعد نبراس الهداية، وهذا من مظاهر التراجع عن الإسلام وهو بالتالي من أسباب الهزيمة.

والحقيقة أن الدول الثلاث التي خاضت الحرب ومنيت بالهزيمة: الأردن وسوريا ومصر، كانت دولًا علمانية متطرفة في علمانيتها.

ولقد احتجبت المجلات المصرية فترة من الوقت، ثم لما عادت إلى الظهور كان العدد الأول لمجلة آخر ساعة: سائحات فرنسيات بالملابس الداخلية، هذا إمعان في معصية الله وهذا مجرد مظهر بسيط من مظاهر الفساد وشكل واحد من أشكال الخلل الذي عانت منه الدول العربية وشعوبها في تلك الفترة، قبل أن نرى هذه الصحوة الإسلامية.

كانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تشن على المواطن العربي حربًا نفسية بالغة الضراوة تركز على تآمر نظامي الحكم في مصر وسوريا على شعبيهما وجرهما إلى معركة خاسرة، وأن العرب ينساقون وراء العاطفة فيتجاهلون حقيقة أن إسرائيل دولة قائمة، وأن محاولات العرب إعادة تسليح أنفسهم من جديد ما هي إلا محاولات يائسة فإسرائيل تحارب بالرجال ومن ثم بالسلاح.

كان الإعلام العربي يقوم على رفض الانصياع لمستحقات الهزيمة وأن ما حدث هو نكسة لا هزيمة، ولدى نزوحي الثاني سمعت لأول مرة، في استراحة على الطريق، أغنية فريد الأطرش التي غناها على أثر الهزيمة:

شعبُنا يوم اللقاء — فعلُه يسبقُ قولَه
لا تقل ضاع الرجاء — إن للباطل جولة
قل لهم أين المفر — ولهم يوم أغرُّ
فوق أرضي لن يمروا — وبها لن يستقروا
قد تآخينا هلالًا وصليبا — وتلاقينا بعيدًا وقريبا

وكانت هذه الأغنية زاد وسائل الإعلام العربية ترددها صباح مساء بالإضافة إلى أغنية فيروز:

الآن الآن وليس غدًا — أجراس العودة فلتقرع

لقد انقسم شعور الناس بين متفائل ومتشائم، وكان المتفائلون يراقبون بمنتهى الاهتمام ما يكتب هيكل عن آخر ما وصلت إليه عملية إعادة بناء الجيش المصري وكان هيكل قد تعلم الصراحة بعد أن توقف عن كتابة مقاله الأسبوعي (بصراحة) فكان يكتب: إن مصر لم تستكمل إعادة بناء القوة الدفاعية، ثم يتدرج مع القراء في الحديث عن التقدم في إعادة بناء القوة الدفاعية، وكان الناس على مختلف طبقاتهم

يراقبون باهتمام بالغ خطابات جمال عبد الناصر ليعرفوا منه أين وصلنا في جهود الاستعداد لإزالة آثار العدوان.

كان مفهوم إزالة آثار العدوان عند العرب يعني إجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في عدوان 1967، دون مفاوضات ودون اعتراف ودون صلح لأنه لا يجوز أن يجني المعتدي ثمرة عدوانه. وكان جميع العرب يرددون هذه المقولة، ولم يكن متصوَّرًا أنهم سيقدمون فيما بعد على المفاوضات وعلى الاعتراف وعلى الصلح من غير إزالة آثار العدوان.

كانت مسألة إزالة آثار العدوان تشغل الصحافة والإذاعة في العالم العربي وتشكل الهاجس الأكبر للناس خاصة الفلسطينيين، وانتشرت بينهم مقولة إن العدو سيمكث سبعةً ولكل منهم اجتهاده حول الرقم فمنهم من يقول: سبعة أسابيع، ومنهم من يقول: سبعة أشهر، أما الذي كان يقول: سبع سنوات، فكلامه مستهجن ومرفوض ويعتبرونه متشائمًا، وكان الأغلب يعدها سبعة أسابيع ويرون أنها مدة معقولة، والغريب أنه ما من أحد كان يراوده أدنى شك _في بداية الاحتلال_ في أن العرب سيزيلون آثار العدوان دون أن يدفعوا الثمن إلا أنه بعد أن «ذهبت السَّكْرة وجاءت الفِكْرة»، وانقشعت الغاشية عن العيون بدأوا رويدًا رويدًا يدركون الحقيقة المرة وهي أن الأمة العربية ترزح تحت كابوس هزيمة بلغت النخاع، وأن وقوف الأمة على رجليها واستعادتها هيبتها يحتاج إلى إعداد كبير وسيستغرق زمنًا أطول مما يتوقعه الذين يعيشون في أحلام اليقظة. وبدأت نبرة التشاؤم هذه تعبِّر عنها الأشعار، وقد كتب شاعر أحجم عن أن يذكر اسمه قصيدة ردّ فيها على فيروز، تمثل الواقع المرير في سوريا، ويُعتقد أن الذي كتبها الشاعر السوري بدوي الجبل، وأحجم عن كتابة اسمه، خشية من بطش الحكام. لقد تناقل الناس القصيدة وحفظوها وأكثروا من تردادها؛ لأنها جاءت في وقتها المناسب فهي تعكس مشاعر اليأس التي بدأت تسيطر على مشاعر الناس بعد أن بدأوا يستوعبون حقيقة ما هم فيه:

غنّت فيروز مغردة ... وألوف الشعب لها تسمع
الآن الآن وليس غدًا ... أجراس العودة فلتقرع
من أين العودة فيروز ... والعودة يلزمها مِدفع
والمِدفع يلزمه كفّ ... والكف يلزمها إصبع
أقطاب البعث قد اجتمعوا ... ماخوس ونوري والأكتع[1]
ماخوس: حسنًا سنقاتل ... وزعيّن[2] قد شهر المِبضع
فأجاب نوري قديمة ... ما عاد الطب لها ينفع
بعنا الجولان برمته ... وقبضنا قيمته أجمع
لو أدي الحزب رسالته ... لقبضنا من رأس الأقرع[3]
خازوقٌ دُقّ ولن يُقْلع ... من شرم الشيخ إلى سعسع[4]
مهلًا فيروز ومعذرةً ... أجراس العودة لن تُقرع

انطلاق العمل المسلح بعد العام 1964

بعد قيام منظمة التحرير مباشرة 1964 قامت حركة فتح بتفعيل نفسها، وكانت قبل ذلك أشبه بحزب سياسي صغير نشأ في الكويت وانتشر في الدول العربية المجاورة بسرية وبين النخبة وبتعتيم إعلامي كامل بحيث إن الجماهير الفلسطينية لم تسمع به على نطاق واسع إلا بعد هزيمة 1967، حين بدأ الفدائيون يظهرون رويدًا رويدًا.

كان صديقي نبيه نافع من قرية عرّابة، قضاء جنين، له نشاط وطني وسياسي

(1) ماخوس: الدكتور (الطبيب) إبراهيم ماخوس وكان وزير الخارجية في حكومة البعث اليساري. نوري: هو الدكتور (الطبيب) نور الدين الأتاسي، رئيس الجمهورية في تلك الحكومة التي أنهاها حافظ الأسد بعد أحداث أيلول 1970. والأكتع: هو الدكتور عبد الرحمن الأكتع، وزير الصحة في تلك الحكومة.

(2) زعين: الدكتور (الطبيب) يوسف زعيِّن، رئيس الوزراء في تلك الحكومة.

(3) رأس الأقرع: جبل الشيخ.

(4) سعسع: بلدة في الجولان قرب القنيطرة. والخازوق: آلة تعذيب قديمة اشتهر بها الأتراك وهي عبارة عن عصا خشبية طويلة ومدببة الرأس يدخلها رجل متخصص في دبر من يراد قتله بعد أن يشد وثاقه جيدًا ويخرجها من أحد كتفيه دون أن تمس الكبد أو القلب أو الرئتين، ويظل المعذَب يعاني من الآلام التي لا يمكن تصورها، أربعًا وعشرين ساعة قبل أن يُسلِم الروح.

وكنت أشاركه بعض هذا النشاط ومنه المشاركة في تنظيم فعالية إحياء الذكرى الأولى للهزيمة (وكانوا يسمونها النكسة) في المدرج الروماني بعمان وكذلك تعريفي على بعض ناشطي فتح الذين كانوا في عمان.

فقلت له بعد أن استأنفنا العام الدراسي بعد مرور صيف النكسة: أريد أن انضم إلى حركة فتح. ولم تمض أيام قليلة حتى جاء إلي يخبرني أن الاجتماع الأول لي بالحركة سيكون يوم 01/ 12/ 1967، في بيت أحد الأصدقاء في صويلح، في ساعة محددة، وقد حدد لي موقع المنزل، وكان صديقي زهير قد شاركني الطلب، فتوجهنا إلى ذلك البيت، فإذا هو بيت لطلاب أعرفهم، وما إن دخلنا حتى غادر البيت من فيه، وكانوا جميعًا القادمون وساكنو البيت كلهم من فتح.

في ذلك الاجتماع تم تعريفنا بمبادئ الحركة وأهدافها وتقاليد الاجتماعات فيها وعلى رأسها السرية التامة والتقيد الصارم بالتعليمات الصادرة عن الجهة العليا في التسلسل التنظيمي.

وقد عبر قائد الخلية عن فرحته من أن الرئيس جمال عبد الناصر في خطابه في اليوم السابق لذلك الاجتماع قد أشاد بالمقاومة العربية في فلسطين وسيناء وذكر للمرة الأولى حركة فتح وجناحها العسكري العاصفة، وذكر أيضًا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة سيناء العربية.

بدأ ظهور العناصر الفدائية رويدًا رويدًا ويحظى الفدائي باحترام كبير ويركب الباصات ولا يقبلون منه أجرة بل ويعرضون عليه الضيافة من شاي أو قهوة، خاصة أنه ظهور بدأ نادرًا وأن العمل الفدائي احتل مكانته الرفيعة باعتباره يعيد رفع رأس الأمة العربية الذي انخفض حتى عُفّرت بالتراب الأنوف، كان نايف أحمد عبد الرحيم ابن عائلتي وأحد لِداتي (كلانا من مواليد 1946) قد التحق بالعمل الفدائي بعد نزوحه من جالود على أثر انتهاء الحرب، وبدأ يزورنا بملابسه الفدائية فكنت إذا ركبت الباص وإياه أعفاه السائق من الأجرة وأظهر الجميع له الحفاوة.

وسرت مرة في جنازة ضابط شهيد من فتح يكنى أبا صلاح وسار في الجنازة

بعـض الفدائيـين فـكان أصحـاب السـيارات يعرضـون عليهـم خدماتهـم فيعتـذرون ويؤثـرون متابعـة المسـير في الجنـازة مشـيًا.

كان هـذا في البدايـة وقبـل أن تصبـح التنظيـمات الفلسـطينية ملجـأ كثيريـن ممـن يريـدون المكانـة المرموقـة والنفـوذ.

ومـا أسرع مـا أخـذت التنظيـمات الفلسـطينية تتوسـع وتنشـط في الاسـتقطاب، وكان طـلاب الجامعـة هدفًـا مفضـلًا للضـم والتجنيـد.

في محـاولات الاسـتقطاب كان عنـاصر مـن الجبهـة الشـعبية يعرضـون علينـا الانضمام إليهـا باعتبارهـا جبهـة الأمـة العربيـة كلهـا وليسـت مقتصرة عـلى الكفـاح لتحريـر فلسـطين وحدهـا وأنهـا تـدرب عـلى السـلاح، في حـين أن فتـح لا تفعـل ذلـك، فراجعنـا مسـئولنا المبـاشر، فضـل عرسـان، وكنـا نعرفـه باسـمه الحركـي (جاسـم) فقـال لنـا: إن الجبهـة الشـعبية عندهـا رشـاش كلاشـنكوف تـدرب عناصرهـا عـلى فكـه وتركيبـه عـلى عـين المخابـرات الأردنيـة، ونحـن سـندربكم فيـما بعـد وفي معسـكرات الحركـة.

من مظاهر غياب الاستراتيجية

جاءنـا صديقـي القيـادي نبيـل نافـع إلى السـكن وكان أقـرب الأصدقـاء إليّ، وكنـت كثـيرًا مـا آكل عنـده ويـأكل عنـدي، فقلـت لـه أنـا وصديقـي زهـير: لدينـا رغبـة في الالتحـاق بإحـدى الـدورات التدريبيـة العسـكرية التـي تقيمهـا فتـح في سـوريا أو في الجزائـر.

ثـم مـرت الأيـام ونسـينا الأمـر أو كدنـا ننسـاه، وذات يـوم ونحـن نـؤدي امتحانـات نهايـة السـنة وكنـت في السـنة الثالثـة وكان زميـلي زهـير في السـنة الثانيـة، جاءنـا نبيـل ليـلًا وقـال لنـا بـدون مقدمـات: السـفر مـن أجـل الـدورة العسـكرية سيكون بعـد غـد وسيكون التجمـع السـاعة الثامنـة صباحًـا خلـف أمانـة العاصمـة.

قلـت لـه: الآن؟! وفي عـز الامتحانـات النهائيـة؟! فقـال: هـؤلاء لا يعرفـون مثـل هـذه الأمـور، فمواعيدهـم لا تأخـذ بعـين الاعتبـار أمـر الامتحانـات. قلـت لـه: سـأذهب

إليهم وأجادلهم. قال لي: لن تستفيد شيئًا من مجادلتهم وسيقولون لك: غيرك في السنة الخامسة طب، ترك كليته والتحق بالدورة. إنهم صريحون ولا يترددون في الإجابة ولو كانت قاسية. قلت له: سنرى، ثم غادرَنا على عجل.

لم يكن عندي في اليوم التالي امتحان، لكن زميلي كان عنده امتحان، فوقع ووقعت في حيص بيص، هل يذهب إلى قاعة الامتحان أم يطوي الكتب والدفاتر ويستعد لأن يكون عسكريًا فدائيًا؟ وفي اليوم التالي توجهت وإياه إلى الجامعة لنقلّب الأمر على وجوهه حتى اللحظة الأخيرة وكان علينا أن نقرر: هل يدخل قاعة الامتحان أم لا. وعندما اقترب موعد الامتحان أشرت عليه أن يتوجه إلى القاعة وقلت له: لن نشارك في هذه الدورة التي جاءت في أحرج الأوقات، وسأعتذر لنبيل وأشرح له مبررات استنكافنا. ولم يكن نبيل وقتها في الجامعة بل كان في مسكنه. دخل زهير قاعة الامتحان وتوجهت إلى الغرفة التي يسكنها نبيل واعتذرت له عن المشاركة فقبل اعتذاري.

في اليوم التالي توجهت إلى الجامعة لأداء الامتحان فإذا بعدد من زملائنا جاءوا لوداعنا قبل أن يتوجهوا إلى الملتقى خلف أمانة العاصمة، وأتممنا الامتحانات وبدأت الإجازة، وتقدم المكملون في نهايتها لأداء الإكمالات، وبعد أن انتهى موعد الإكمالات إذا بالشباب الذين توجهوا إلى الدورة يعودون ويتضرعون إلى الجامعة كي تسمح لهم بأداء إكمالات للمواد التي غابوا عنها، فرفضت الجامعة ذلك رفضًا قاطعًا ورسب الشباب وأعادوا تلك السنة.

فماذا جرى؟ الذي جرى أن الذين استدعوهم للدورة قرروا أن تكون الدورة في الجزائر، ولكنهم لم يكونوا قد نسقوا مع الجزائر. وعندما وصلوا إلى سوريا أخذهم القادة إلى معسكر تدريب لفتح وبدؤوا تدريبهم تدريبًا تمهيديًا انتظارًا لتنسيق الدورة في الجزائر. ولأمر ما، لم يحدث التنسيق ووقع الخلاف بين القادة، فأعيد الشباب إلى الأردن، وكانت النتيجة خسارتهم سنة جامعية كاملة.

إلا أنه خلال العطلة الصيفية نظمت الحركة لنا دورة تدريب عسكري في أحراش جرش.

هبطنا بالباص إلى معسكر التدريب الذي وجدناه معدًا بشكل سريع. فأقيمت خيام إيواء على سفح جبل غير بعيد عن معسكر تدريب للمقاتلين وكان بعض القادمين بالباص يريد الالتحاق بالجناح العسكري ومعظمهم كوادر سياسية جامعية من جامعات مختلفة. بعد أن اصطففنا صفًا واحدًا قال المدرب لنا: من أراد أن يلتحق بالعاصفة فليعلن عن نفسه، فخرج الشباب الذين جاءوا لهذا الغرض، فقال لهم المدرب: إن التدريبات شاقّة جدًا وأريد من كل واحد منكم أن يفكر في الأمر ومن أراد التراجع فالباب الآن مفتوح، لكن أحدًا منهم لم يتراجع. فأُخذوا إلى معسكر المقاتلين، فقيل لنا: ليخرج كل واحد ما في جيبه من نقود أو أوراق وليخلع ساعته وليسلم كل ذلك للمدرب، ففعلنا، فنظمونا صفين وطلبوا منا أن نركض، وكانت المسافة غير كبيرة إلا أننا تعبنا؛ لأننا قادمون من بيئة ليس فيها مشقة العمل، وبشكل فوري طلبوا منا الانبطاح في أرض تكثر فيها الشجيرات الشوكية، وكان المطلوب من المقاتل الشرس أن يلقي بنفسه على الأشواك إذا تلقى الإيعاز، ولكن ما من أحد منا كان مقاتلا شرسًا. فتخيرت المكان الذي ألقي بنفسي عليه غير آبه بالأمر العسكري، وعندما انتهى التمرين وأخذنا بأطراف الحديث كان بيننا شاب خفيف الظل، قال إنه كان أمامه شجرة شوك عندما صدر الأمر بالانبطاح رفض أن يرتمي عليها فهدده المدرب بإطلاق النار فقال له: حتى لو أطلقت النار، لن انبطح على الأشواك. ثم واصلنا التدريب في ذلك اليوم وكان نهر الزرقاء يجري بمياه غزيرة، ولكنه لم يكن عميقًا، وفيه الأسماك الجميلة، وهو على كل حال ليس نهرًا بل هو جدول، وكنا نسير في وسطه فجاءنا الإيعاز بالانبطاح، ولم يكن من تنفيذ الأمر العسكري بد، فانبطحنا في الجدول ثم جاء الإيعاز بالنهوض فنهضنا والماء يتصبب من ثيابنا، وهنا انتهى تمرين اليوم الأول، ونحن جائعون متعبون إلا أننا مزهوون بما حققنا.

كانت التعليمات أن يكون العشاء مع غروب الشمس تمامًا ثم يدخل المقاتلون خيامهم ويمنع منعًا باتًا إشعال أية نار بما فيها السيجارة، كما أن الخروج من الخيمة ممنوع إلا بموافقة رئيس الحرس، وكان رئيس الحرس يتجول ومعه كلمة السر، وتعطى كلمة السر لكل حارس ولا يمكن الاقتراب من الحارس إلا بعد أن يقف الشخص

القـادم ويرفـع يديـه ويصفـق ثـم يعطـي كلمـة الـسر. كانـت كلمـة الـسر تتغـير يوميًـا وتعطى للحرس فقط عندما يباشرون مهمة الحراسة وليس قبل ذلك. كانت طائرات الاستطلاع الإسرائيليـة تحلـق في الجـو دائـمًا.

في اليـوم التـالي بـدأ البرنامـج اليومـي للتدريـب ويبـدأ بالركـض مسـافات طويلـة نصعـد خلالهـا وننـزل ونقطـع أراضي شـوكية ونقفـز في منحـدرات ونصعـد مرتفعـات، ومـدة الركـض تكـون بـين السـاعة والسـاعتين. وكنـا شـبابًا تعودنـا عـلى المشـقة سريعًـا ولم نكـن نتعـب، وكان علينـا أن نتـذرع بالصـبر الشـديد. كنـا نركـض ونهتـف لفتـح:

ولقـد كسرت القيـد قيـد مذلتي وهزمـت جـلادي وصانـع نكبتي
أنـا ابـن فتـح مـا هتفـت لغيرهـا ولجيشـها المقـدام صانـع عـودتي
فهـي التـي صنعـت لشـعبي ثـورة وهـي التـي شـقّت طريـق العـزةِ

ثـم يصيـح بنـا المـدرب: جوعانـين؟ فنـرد عليـه بأعـلى صـوت: وحـوش. ثـم يعـود فيسـأل: عطشـانين؟ فنـرد عليـه: وحـوش. كانـت صفـة وحـش تعنـي الشـجاع. جاءنـا أحـد مسـؤولي المعسـكر المقاتـل (وكنـا تابعـين لـه) فسـأل المـدرب: كيـف تجـد الأشـاوس؟ فقـال لـه: وحـوش، وكان هـذا أعظـم إطـراء.

وكان النشيد الوطني للثورة:

بـلادي بـلادي بـلادي فتـح ثـورة عـا الأعـادي

ومن جملة أبياتها:

فلسـطين يـا حبـي الكبـير أنـت غايتـي والمصـير
أنـا ابـن فتـح مـا هتفـت لغيرهـا يصفـع الكـون عنـادي

إلا أنهم كانوا ينشدونها في إذاعة فتح: يصفع الظلم عنادي.

وكانوا يرددون هذا المقطع على النحو التالي:

فلسـطين يـا مهـد المسيح مـسرى محمـد يصيـح
حـرروا بلـدي الجريـح طهِّـروا منـه الأعـادي

وكان واضحًا أن المقطع الأخير غير صحيح بل ويبعث على السخرية، ولكننا كنا مضسطرين إلى ترداده كما يفعل المدرب، إلا أنهم في الإذاعة أنشدوه صحيحًا وعلى النحو التالي: طهروه من الأعادي.

كان من جملة التدريبات أن نزحف من أعلى التل إلى أسفله، وبينما كنت أزحف وكان شباب من خلفي يزحفون تدحرج عليّ حجر وضربني في ظهري، فأسال الدم فذهبت إلى المدرب أريه أنني أحتاج إلى العلاج، فقال لي بلهجة المتعاطف: استرح يا وحش.

كان التل الذي نصبت خيامنا فيه شديد الانحدار لا يمكن صعوده إلا حبوًا ولا النزول منه إلا زحفًا، ومن الطريف أنه بينما كنا نتعشى أمام الخيام، وقع الرغيف من يد أحد أصحابنا فظل يتدحرج إلى الأسفل حتى استقر في الوادي، ولم يكن أمام صاحبنا إلا اللحاق به.

كان المدربون يتضايقون منا؛ لأنهم أميون أو أشباه أميين يدربون جامعيين. كان أحدهم شابًا غامق السمرة، نحيف الجسم، لا يمشي إلا حافيًا ولا يهمه أن يدعس على الشوك أو على الصوان، وكان موصوفًا بالشجاعة المتناهية. وكان أميًا، وكان مهذبًا جم الأدب، وكان هذا الشاب يعتبر نموذجًا ممتازًا للفدائي الفلسطيني.

وكان أحد مدربينا نصف مجنون. قال لنا أصحابه: إنه كان قد وجه قذيفة مدفع بالخطأ باتجاه شباب متدربين فقتل عددًا منهم ففقد صوابه، ولكن (الختيار) لم يعزله.

كان _فيما يبدو_ أميًّا، وكان الشعور السائد لدى الجميع، ولدى ذلك المدرب أن صفوة أبناء فلسطين هم الفدائيون وأن من عداهم لا يرقى إلى مستواهم، وكان في تلك الفترة ثمة نبرة استهانة بالعمل السياسي واعتباره جبنًا وأنه شأن الذين ليس لهم شجاعة المقاتلين. إذ أصبح البرهان على الوطنية وحق إبداء الرأي فيما يتعلق بحاضر القضية ومستقبلها محصورًا في حملة السلاح من الفلسطينيين فيما عُرف وقتها بشرعية البندقية.

والـذي عايش تلك الفـترة يـدرك أن النزعـة الإقليميـة عنـد التنظيـمات الفلسـطينية نشـأت مـع نشـوء هـذه التنظيـمات، وأن سـعي منظمـة التحريـر لتكـون الممثـل الشرعـي والوحيـد للشـعب الفلسـطيني لم تكـن بدايتـه بعـد حـرب أكتوبـر 1973، لكـن الاعتقـاد بـأن الفلسـطينيين هـم مـن يحـق لـه التعامـل مـع القضيـة الفلسـطينية نشـأ أو لنقـل تبلـور بشـكل واضـح عندمـا نشـأت منظمـة التحريـر عـام 1964، وحتـى قبـل ذلـك في حـرب 1948 خـرج الفلسـطينيون باسـتنتاج أنهـم لـو كانـوا هـم مـن تـولى الدفـاع عـن فلسـطين في تلـك الحـرب وأمدهـم إخوانهـم العـرب بالمـال والسـلاح لا بالجيـوش المتداعيـة، لاسـتطاعوا الدفـاع عـن فلسـطين، وهـو اسـتنتاج لا شـك قائـم عـلى الجهـل بميـزان القـوة القائـم وقتهـا، مثلـما كانـت خاطئـة فيـما بعـد سياسـة منظمـة التحريـر القاضيـة بالاسـتقلال بالقضيـة وإعفـاء المحيطـين العـربي والإسـلامي مـن مسـؤولياتهما تجاههـا.

قـال لنـا ذلـك المـدرب (المختـل عقليًـا) مـرة: أنتـم كـوادر سياسـية؟ قلنـا لـه: نعـم. فعلـق تعليقـا بذيئًـا، فلـم نؤاخـذه، إلا أن مدربًـا آخـر اصطحبنـا إلى معسـكر المقاتلـين لنشـهد بعـض مهاراتهـم، فعرضـوا أمامنـا شـابًا يتسـلق التـل ثـم يسـير عـلى حبـال منصوبـة عـلى ارتفـاع كبـير ويزحـف مـرة عـلى بطنـه ومـرة يمسـك الحبـل بيديـه ورجليـه ويسـير عليـه مـن أسـفله بمهـارة تعـز عـلى القـرود، وأكمـل كل هـذه الحـركات بسرعـة فائقـة، فنظـر إلينـا المـدرب وقـال: أرأيتـم كيـف تكـون الرجـال؟ كنـا نشـاركه الإعجـاب بـما فعـل ذلـك الشـاب؛ إلا أن المـدرب خانـه التوفيـق في الـكلام فقـال: أنتـم لسـتم رجـالا، أنتـم بنـات. وهنـا واجـه ثـورة ورفضًـا لكلامـه فـلاذ بالسـكوت.

في يـوم جمعـة أفقنـا مبكريـن حسـب العـادة فأخذونـا إلى معسـكر المقاتلـين وطلـب منـا المـدرب أن نهتـف بأعـلى أصواتنـا كـي نزعـج المـلازم صـلاح الـذي وصـل مـن دمشـق ليـلًا ويريـد أن يغـط في النـوم. إذ لا تدريبـات للمقاتلـين يـوم الجمعـة. أطعنـا أمـر المـدرب وانطلقـت حناجرنـا بالهتـاف لفتـح، ثـم أدخلونـا سردابًـا فيـه شـعلة ضئيلـة مـن الغـاز السـام فـكادت أرواحنـا تخـرج مـن صدورنـا، ثـم خرجنـا مـن السرداب لنجـد المـلازم صـلاح في ذروة غضبـه وبـدأ يوجـه إلينـا أوامـر لتنفيـذ تدريبـات شـاقة ومـن الواضـح أنهـا انتقاميـة وبلهجـة بالغـة الغضـب فـما كان مـن أحـد زملائنـا إلا أن سـب الديـن، وكان هـذا الشـاب

معتزًا بكرامته بالغ الجدية وشعر أن الملازم يريد (بهدلتنا) فخرج عن طوره، فغضب الملازم وصفعه، ثم أراد أن يصفعه مرة أخرى فطوّق الشاب كلتا يديه. ثم سأل الملازم: ماذا يدرس هذا الشاب في الجامعة؟ فقيل له: في كلية التجارة. فقال: من الواضح أنه تاجر. إذا كان الإنسان لا يحترم الدين فليس لديه أية قيم يحترمها.

طرفة

من صفاتي أنني ثقيل رأس عند المنام خاصة إذا نمت بعد تعب. وذات يوم قبيل المغرب قالوا لنا: توقعوا غارة من المقاتلين، فإذا أحسستم بهم فغادروا الخيام قبل وصولهم فإنهم سيلقون قنابل صوت وسيكون بأيديهم البنادق وقد ركبت على رؤوسها الحراب. تعشينا ثم هجعنا ثم دخلت في ما ظننته حلمًا وهو أصوات مهاجمين، وأخيرًا جاءني زميل وأيقظني وقال لي: ألم تفق على القنبلة الصوتية التي انفجرت في الخيمة؟ قلت له: لم أسمعها، فقال: ولا على أصوات المقاتلين وصرخاتهم؟ قلت له: ظننتني في حلم. وأردفت: إذًا، كانت هنالك غارة كما أخبرونا. قال: نعم، وحصلت الغارة وعاد المقاتلون أدراجهم. فقلت: الحمد لله أنني كنت في زاوية الخيمة لا في وسطها، وهذا ما جعلهم لا يدوسونني بأقدامهم في ذلك الظلام الدامس.

قيمة الحرية

الحرية كالصحة نعمة لا يعرف قدرها إلا من فقدها. وكانت المدة التي قضيناها في التدريب، وإن لم تزد على عشرة أيام، كافية لإشعارنا بقيمة الحرية، كان أحد التدريبات يقضي بأن نمشي ليلًا من موقع التدريب في أحراش جرش إلى مخيم البقعة قرب صويلح. صعدنا الجبل العالي متجهين إلى الشارع الرئيس الذي يصل بين جرش وصويلح، وكنا في غاية النشاط ونحن نصعد المرتفع الشاهق، ولما وصلنا الشارع قبيل الغروب كان معنا عدد من المدربين ومعنا سيارة إسعاف وفيها وجبة العشاء وهو بضعة أمشاط من البسكويت لكل واحد وقليل من الماء وبعد أن سرنا مسافة أوقفونا لتوزيع العشاء ونال كل واحد منا نصيبه من البسكويت فالتهمه وهو قادر على التهام

الموجود منه كله، فأصابنا العطش وطلبنا الماء وكان الماء بضعة لترات لإرواء ما يزيد على أربعين شخصًا، وتزاحمنا على الماء فغضب أحد المدربين وأهرقه على الشارع، فأعادوا نظمنا في صف وبدأنا نسير سيرًا بطيئًا إلا أنه متواصل، ولا يسمح فيه بالوقوف ولو لقضاء الحاجة، وبدأ التعب ينتابنا ونحن نسير وأغمضت عينيَّ ونمت وأنا أسير فحلمت بالماء ورأيتني أشرب ثم أفقت على الحقيقة، والتفت إلى يسار الطريق فرأيت مغارة صغيرة فسرحت أحلامي بالمغارة. تمنيت لو أنني نائم فيها وليس لأحد عليّ سلطان وتخيلت أنني صحوت من نومي، ثم قررت متابعة المنام فليس لأحد عليّ سلطان، أه ما أحلى الحرية، ما أحلى أن ينام المرء متى شاء ويصحو متى شاء ويأكل ما شاء متى شاء ويتخذ أي قرار خاص به دون أن يكون لأحد عليه سلطان، إن الحرية أثمن شيء في هذا الكون، لقد عرفنا قيمة الحرية عندما افتقدناها، فمثلما أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، فكذلك الحرية، هي تاج على رؤوس الأحرار لا يراه إلا فاقدوها.

مشينا إلى ما بعد منتصف الليل، وحدثت مشادات بين الشباب والمدربين على أمور منها طول المسافة إذ أكد المدرب أننا لم نسر إلا عشرين كيلو مترًا فأقسم له أحد الشباب أنها خمسون، ومنها أن شابًا سب الدين فأمر الضابط بطرده من الدورة وألا يصاحبنا في الرحلة. وبعد طول رجاء وبعد أن نال الشاب حظه من التوبيخ الشديد سمح له بمواصلة السير. ومنها أن شابًا ليس من وسط الطلاب ولا نعرف من أين جاء وكان على خلاف شديد مع الطلاب حتى إن أحدهم ضربه في المعسكر، هذا الشاب كان معنا في الرحلة، وما مشينا إلا قليلًا حتى تظاهر بالإعياء الشديد وبأنه على وشك الانهيار، واستطاع أن يرسم على وجهه مظاهر الإعياء والاصفرار، فأشفق عليه المدربون وأركبوه في سيارة الإسعاف، فثارت ثائرة الشباب وأحرنوا عن السير حتى ينزل؛ فهم يعرفون ألاعيبه، ولم يكن أمام المدربين من إنزاله من السيارة بُد، وأعلنوا أن الأمبلانص (سيارة الإسعاف) ليست لأحد. ظللنا نسير ونسير حتى بلغنا مخيم البقعة في حدود منتصف الليل، فخرج بعض من لا يزال ساهرًا من أهل المخيم يستقبلوننا، ولم يكن لنا لبث عندهم، بل أدرنا رؤوسنا بأمر المدربين وبدأنا رحلة العودة، وسرنا

كالآلات وقد وطنا أنفسنا على أن نطرد السأم ونتسلح بالدأب والصبر. ولم يكن في العودة مشاكل، وبعد بزوغ الشمس وصلنا كتف القمة التي تحتها المعسكر وهبطناه وقد هدأ فينا التعب والعطش والجوع، ودخلنا خيامنا ونمنا دون أن ندعى إلى أية تمرينات إلى ما بعد الظهر.

لا تسل عن سعادتنا ونحن نضع في أيدينا رشاش الكلاشنكوف ونحلله ونركبه، وكذلك بندقية السيمونوف خفيفة الوزن، جميلة الشكل، وهي بندقية روسية نصف أوتوماتيكية يتسع مخزنها لعشر طلقات.

لم يكن من جملة التدريبات حمل السلاح كتفا وجنبًا والمسير في «المارش» العسكري والانفتال يمينًا وبسارًا، فهذا شأن الجيوش النظامية، أما الفدائيون فكانوا يهتمون بسرعة الحركة وأن يصحب السرعة يقظة وانتباه ويهتمون بإتقان استخدام السلاح وبذلك كان تدريب على إلقاء القنبلة وتعريف بالألغام والمتفجرات وتدريب على الكلاشنكوف والسيمونوف وعلى قذف الحربة، وكلها كانت تمرينات بسيطة ولم تكن مهنية، فنحن كوادر سياسية لا تحتاج إلى التعمق في هذه الأمور.

مشاكل في المعسكر

أينما وجدت تجمعات نشأت مشاكل مهما كانت نوعية المجتمعين، وتكاد تكون المشاكل متشابهة، فلا بد أن تجد أشخاصًا يريدون أن يتنفذوا ويستأثروا بالامتيازات، وكان في المعسكر اثنان من هذا النوع فحدثت مشاكل بينهما وبين الآخرين وكنا قد تعرضنا إلى (بهدلة) من الملازم صلاح مما استدعى الموجه السياسي يرافقه بعض الضباط أن يأتي ويطيب خاطرنا، وكان حديثه يدور حول أن الحركة الكبيرة، مهما كان عناصرها وطنيين، وعندهم النقاء والطهارة، إلا أنه كالوجه الجميل لا يخلو من بعض البثور، وأردف: مع احترامي للأخوين دكتور وخمستي، وهما الشخصان اللذان ثارت معهما المشاكل، ولم يكن التخاطب إلا بالاسم الحركي الذي يختاره الشخص لنفسه، ثم حدثنا الموجه عن المبدأ الأساس الذي تؤمن به فتح وهو أن يكون العنصر متمتعًا

بالنقاء الثوري والطهارة الثورية بغض النظر عن معتقده ومسلكه الشخصي، وضرب لنا مثلًا بشاب غزيّ لم يترك جناية ولا جنحة إلا ارتكبها، ثم التحق بالثورة فقام بمئات العمليات البطولية.

إن مسالة النقاء الثوري التي كانت الرابط بين جميع التيارات في فتح تبين أنها لم تكن رابطًا كافيًا ولا رابطًا جاداً بدليل ما آلت إليه الأمور بعد ذلك، وكانت الجبهة الشعبية تأخذ على فتح طيلة الوقت بأنها تفتقر إلى الآيديولوجيا (العقيدة)، فترد عليها فتح بأنه ما خرّب بيوت القوميين العرب إلا الآيديولوجيا، فقد انقسموا بسبب الاختلاف في الآيديولوجيا إلى ثلاث جبهات: القيادة العامة والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية، في حين ظلت فتح متماسكة؛ لأنها لم تغرق نفسها في صراع الآيديولوجيات.

في اليوم العاشر ختمنا الدورة التدريبية وصعدنا الجبل وسلكنا طريق جرش صويلح، ثم استأجرنا سيارة باص إلى عمان ورفض السائق أن يأخذ أجرة فتبرعنا للثورة بالقروش التي جمعناها.

التدريب الحكومي على السلاح

كان من مظاهر رد الفعل الأردني على الهزيمة أنها وضعت برنامجًا لتدريب طلاب الجامعة على السلاح، وبدأ التدريب في بداية السنة الجامعية 1967/ 1968، ولم يكن معروفًا ما الأهداف الجادة التي توختها حكومة الأردن من التدريب على البندقية الإنجليزية التي تعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية.

لم أعد مولعاَ بحمل البندقية الإنجليزية كما كنت في الصغر، فالسلاح الذي كان يشتهى هو الكلاشنكوف وهو رشاش سوفيتي آلي (أوتوماتيك) خفيف الحمل والسيمونوف وهو بندقية سوفيتية نصف آلية.

على كل حال كان التدريب أكثر جديّة مما كان عليه عندما كانوا يدربون الحرس الوطني، فلم يدربونا على الحركات الاستعراضية بل على فك أقسام البندقية والرشاش

وعلى طرق التصرف بالسلاح في حالات الخطر وهكذا، ثم أخذونا بعد ذلك إلى ميدان الرماية في منطقة خَوّ، وأعطي كل منا عشر طلقات، ورمى البعض برشاش (سْتِنّ) وهو رشاش إنجليزي خفيف ورشاش (بْرِنّ) وهو رشاش إنجليزي ثقيل.

إذا حان أجل البعير حام حول البير، هذا مثل عربي قديم انطبق على شاب من خيرة الشباب منظرًا ومخبرًا ممن تدربوا معنا في أحراش جرش وممن تلقوا التدريب أيضًا في الجامعة إنه الشاب بسام نافع من قرية عرابة وهو ابن عم صديقي القيادي نبيل نافع. ذهب بسام إلى الرماية في «خَوّ» في دفعتنا، ورمى كما رمينا وعاد إلى بيته، وفي اليوم التالي ذهب بسام إلى الجامعة فوجد دفعة من الشباب يستعدون للتوجه إلى موقع «خَوّ» للرماية، فركب شاحنة الجيش المعدة لهم وتوجه إلى خو معهم، ولم يكن اسمه _بطبيعة الحال_ بين أسماء من سيعطون البنادق والطلقات ويصطفون بترتيب معيَّن باتجاه الأهداف، فقد كان قد أخذ دوره في اليوم السابق، فنزل إلى أرض الميدان ولما أخذ الشباب يعودون إلى السيارة التي توضع فيها الأسلحة تطوع أن يتناول السلاح من الشباب ويرتبه في السيارة، وبالفعل بدأ يتلقى البنادق ويرتبها، وبعد البنادق رشاشات «الستن» فجاء شاب يسلمه الرشاش والمعلوم أن جميع الأسلحة فارغة تمامًا من الذخيرة، من هذا المنطلق ناول الشاب بسامًا الرشاش، فإذا طلقة تنطلق منه وتستقر في رأس بسام. ولم تعرف الحقيقة على وجه اليقين أيهما وضع إصبعه على زناد الرشاش حتى انطلقت الرصاصة التي أودت ببسام.

كانت خو بعيدة عن عمان وطريقها في غاية الوعورة، وحالة بسام في غاية الحرج استدعيت طائرة مروحية ونقلته إلى المدينة الطبية، ومكث فيها أيامًا ثم فارق الحياة. وجاءنا نعيه وأنه سيدفن في مقابر منطقة الوحدات، فتوجهنا إلى هناك والأسف يملأ صدورنا، وهناك وجدنا مجموعة من الفدائيين قد انتهوا من مراسيم دفن أحد إخوانهم وبدأوا يصعدون في السيارة فأشار أحد الواقفين إلى شخص من بينهم وقال: ذلك أبو عمار.

عزينا أهل بسام الذين كانوا قد جاءوا من عرابة وخصصنا أخانا نبيل بأحر التعازي وكان يبدو عليه التأثر الشديد. رحم الله بسامًا، إن ذكراه لا تفارقني.

وأصبحتُ مليشيا

كنت في التسلسل التنظيمي رئيس خلية ولم أحاول أن أطور وضعي إلى أكثر من ذلك إلا أنني كنت من القلة في الجامعة الذين يعدون من قياديي الحركة الطلابية الفتحاوية، وقرر التنظيم أن يعطي هؤلاء أسلحة ليكونوا من ضمن تنظيمات الميليشيا، فقيل لي: لك رشاش عند هشام العشي (زميلي) فالتقيت بهشام وتوجهنا إلى جبل الحسين حيث يسكن مع أهله، علمت أنه هو استأثر بالبندقية الجديدة الجميلة وأعطاني رشاش (بور سعيد) وهو رشاش من صناعة مصرية أصله سويدي (كارلو ستاب)، وهذا ما كنت أبغي؛ لأن البندقية لو أخذتها فسوف أحملها جهارًا من جبل الحسين إلى جبل اللويبدة حيث أسكن في الحي البدوي منه، وهذا أمر غير ممكن؛ لأن الأمور وإن كانت تشهد فلتانًا، لكن لا بد من أن يُحسب حساب المستقبل، أما الرشاش فهو مفكك الأجزاء وموضوع في حقيبة، فأستطيع بالتالي أن أحمله إلى أي مكان؛ لأنه غير مرئي. نظرت إليه فوجدته قديمًا فرضيت على مضض، وتوجهت إلى مسكني. وفي العبدلي الذي لم يكن مسكني بعيدًا عنه، دخلت مطعمًا كنت كثيرًا ما أتغدى فيه، وكان غدائي في الغالب وجبة مكونة من نصف رأس خروف، وصحن حساء كبير ورغيف خبز وتكلفني الوجبة ثلاثة عشر قرشًا أردنيًا، وبالمناسبة: كنت إذا اشتهيت المقلوبة توجهت إلى مطعم في سوق البخارية بعمان قرب المسجد الكبير، وكان مطعمًا شعبيًا ومقلوبته عبارة عن صحن كبير ومشبع من الأرز وفوقه قطعة باذنجان واحدة مقلية وفوقها قطعة من إلية الخروف بحجم حبة البرقوق الصغيرة ومعه رغيف. ولا نجد ألذ من هذه الأكلة فما أطيب من الأرز إلا قطعة الباذنجان التي تعلو الطبق، وألذ من كليهما قطعة إلية الخروف، وكنت في الغالب أكتفي بصحن الأرز ولا أحتاج إلى رغيف الخبز، ثم عندما نهم بمغادرة المطعم ندفع الحساب وهو خمسون فلسًا أردنيًا (خمسة قروش وكانت تعرف عاميًا بالشِّلِن). والنوع الثالث من الوجبات كان بيض الغنم، نأخذه من بقال يقتني اللحم. الوقية النابلسية (250) غرامًا بعشرة قروش.

وضعت الرشاش المفكك على أرض الحمام، وسخّنت ماءً وغسلته ثم دهنت أقسامه بالزيت، وجاء زميلي زهير وكان شابًا مسكونًا بروح الدعابة لمن يعرفه أما من

لا يعرفه فيرى فيه تجهم رجال المخابرات، وكان متهمًا في الجامعة أنه مخابرات، ولكنه لم يكن كذلك. نظر إلى الرشاش وقال لي: هذا من جيل سيدك (أي: من عمر جدك) ولكنه كان مغتبطًا لوجوده عندنا في المسكن لأنه يريد أن يعلم الجميع أننا على جانب من الأهمية. وكان مع الرشاش طلقات عددها خمسون وكانت عهدة دفعت ثمن كل طلقة نقصت منها عندما سلمت الرشاش بعد أن تعاقدت مع وزارة التعليم السعودية.

كان القيادي الذي يوجه إليّ التعليمات، رجلًا في الأربعينات من عمره، يعمل موظفًا في إحدى الدوائر الحكومية، ويسكن غير بعيد عن مسكني، كانت المرة التي وضعت فيها في حالة استنفار المرة الوحيدة، فقد جاءني ذات يوم وقال لي: هنالك استنفار جزئي في الأغوار وقد تُستَدعى فكن على أهبة الاستعداد، وبالفعل لبست ملابس تصلح لمثل هذه الأحوال وجهزت الرشاش وعبأت مخزنه بالرصاص، وجعلت أتمشى داخل الدار وأقف على الباب أحيانًا وشعرت أن كل سكان الحي يراقبون ما يجري وتعجبت كيف عرفوا إلا أن العجب لم يدم طويلًا، فالأخ السمهوري الذي جاء يوعز إلي بالاستعداد معروف في الحي؛ لأنه يسكن في أطرافه ومعروف عنه النشاط مع فتح، لذا، فعندما جاءني وهمس لي بكلمات قرب الباب، علموا أنه ما جاء إلا لأمر. هكذا كانت سرية العمل الفدائي في ذلك الوقت إلا أن الاستنفار ألغي ولم يدعُني أحد إلى النزول إلى الأغوار كما كنت أنتظر.

كان الانضباط في عمان قد ضعف كثيرًا ولم يعد لرجال المخابرات ورجال الشرطة تلك الهيمنة التي كانت لهم في السابق، فكان الفدائيون يجوبون الشوارع بسياراتهم وأسلحتهم، إنها فترة يصفها أهل الأردن بفترة الانفلات.

كنت آخذ رشاشي مفككًا في الحقيبة وصديقي زهير يحمل مسدسًا، تركه له عمه سليم الذي كان موظفًا في الجمارك قبل أن يتوجه إلى الضفة الغربية ليستقر فيها. وكنا نمر بمحاذاة مبنى المخابرات العامة متوجهين غربًا إلى محجر مهجور نتدرب فيه على الرماية، فأعيد تركيب الرشاش، وأضع في مخزنه طلقة واحدة، فإنه يطلق جميع ما في المخزن بسرعة هائلة وبضغطة واحدة على الزناد، ثم أضع أمامي حجرًا وأصوب

باتجاهـه وكذلـك يفعـل صديقـي بمسدسـه، وبعـد أن نقـضي الأرب بـأن يرمـي كل واحـد بضـع طلقـات، نكـر عائديـن إلى مسـكننا ولم تكـن الطريـق تسـتغرق سـوى بضـع دقائـق، فقـد كانـت عـمان في ذلـك الوقـت لا تـزال محـدودة المسـاحة قبـل أن تتضاعـف أضعافًـا.

وصية لم أحفظها

كان المـدرب في أحـراش جـرش يقـول لنـا وهـو يحمـل بيـده لغـمًا أو بندقيـة: إن الكتـاب والسـلاح لا يعـاران، ويكـرر ذلـك دائـمًا مـن أجـل أن يرسّـخه في نفوسـنا.

في نيسـان 1969 جاءني تصريـح جمع شـمل وكنا في المسكن أربعة: فتحي جبر من تلفيـت، وهـو صديـق صبـا وزميـل دراسـة، وزهـير قاسـم مـن قريـوت وهـو صديـق وزميـل أيضًـا وعبـد الرحمـن عـدوي مـن بلاطـة وكان صديقًـا تعرفـت عليـه لـدى بـدء الدراسـة في الجامعة.

وبينـما كنـت أضـع ملابـسي في حقيبـة السـفر وأخبـئ بقيـة أغـراضي في حقيبـة أخـرى قـال لي فتحـي: أريـد الرشـاش. فاعتـذرت لـه بـأن الرشـاش لا يعـار. إلا أنـه أبـدى رغبـة شـديدة في اسـتعارته وهـو شـخص عزيـز عـلي إلى أبعـد الحـدود، فلـم أملـك إلا أن دفعتـه لـه. فقـال: أريـد الذخـيرة. فاعتـذرت لـه عنهـا، لكنـه لم يقبـل عـذري وأصر عليهـا فدفعتهـا لـه، ثـم سـافرت إلى الضفـة الغربيـة وهنالـك مكثـت عـشرة أيـام ولمـا رجعـت وجـدت أن الله قـد منـع بلطفـه كارثـة كبـيرة.

وموجـز القصـة أن فتحـي كان جالسًـا عـلى سريـر ذات يـوم والرشـاش بيـده وجلـس مقابلـه العـدوي فقـال لـه: يـا عَـدَوِي لـو أردت أن أطخّـك (أقتلـك بالرصـاص) لفعلـت، وكان يظـن أن الرشـاش فـارغ مـن الذخـيرة، ولامسـت يـده الزنـاد، فانطلقـت منـه طلقتـان، وكان مـن لطـف الله أن التسـديد لم يكـن دقيقًـا فاسـتقرت الرصاصتـان في الحائـط.

أصدقاؤنا العراقيون

معلـوم أن الحكومـة العراقيـة قـررت لـدى انـدلاع حـرب الأيـام السـتة في العـام 1976 أن ترسـل قـوّات إلى الأردن للدفـاع عـن فلسـطين، ووصـل الجيـش العراقـي بعـد

أن انتهت الحرب، فأقام في الأردن للاشتراك في معركة التحرير التي كان البسطاء من الناس يظنون أنها قادمة لا محالة، وأنها ستكون بعد شهور لا سنوات. وعندما ظهر العمل الفدائي أراد حزب البعث السوري أن يكون له شرف المشاركة في المقاومة فأنشأ جبهة فدائية سماها الصاعقة وجعل رئيسها الفلسطيني زهير محسن، فبادر حزب البعث العفلقي التكريتي الذي بدأ حكمًا للعراق في السابع عشر من تموز 1968، فأنشأ هو جبهة للعمل الفدائي سماها جبهة التحرير العربية وأرسلها إلى عمان فكانت شوارع عمان تعج بأصناف البشر من فدائيين فلسطينيين إلى سوريين إلى عراقيين من جنود وفدائيين لم يصل أي منهم إلى الأغوار، إلى جنود سعوديين أرسلتهم السعودية مع بداية الحرب ووصلوا بعد نهايتها واستقروا فترة في الأردن. كانت فترة نشاط وحيوية للتجار فقد ازدهرت تجارتهم وكانت من أعظم فترات الازدهار للنَّوَر وللساقطات في عمان والزرقاء.

كان لنا صديق من قريوت جندي في الجيش الأردني، رأيته يومًا ومعه صديق فقال لي: أعرّفك على الأخ علي من العراق فرحبت به كل الترحيب ودعوتهما إلى مسكننا فاستجابا بعد قليل من التمنع، وسهرنا وسررنا بعلي وسُر بنا، ثم جاءنا مرة أخرى بصديقه عدنان وبعد ذلك صديق ثالث ورابع، فصار لنا صداقة مع مجموعة من الشباب العراقي الطيب وكلما توثقت الصداقة أكثر ازددنا معرفة بهم وبأفكارهم. هم من الشيعة، من منطقة البصرة، عرفت كم يجهل الشيعة دينهم ومذهبهم خاصة في ذلك الوقت، مثلما كان السنّة يجهلون دينهم ومذهبهم.

لم يكن ثمة معارك بين السنة والشيعة لا على مستوى العراق ولا على مستوى العالم الإسلامي كما هو الآن فلم تكن الحكومة الإيرانية مسلمة أو معاندة للغرب في ذلك الوقت حتى تُشَنَّ عليها الحروب بل كانت علمانية بقيادة أكبر عميل للولايات المتحدة في المنطقة وهو شاه إيران محمد رضا بهلوي، الذي يقيم أقوى العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية مع إسرائيل. وكان في الوقت نفسه أقرب الأصدقاء المقربين من النظام الأردني والسعودي والمغربي والخليجي عمومًا.

وجدت أن أولئك الشباب يعرفون من مذهبهم اعتقاد أتباعه بأنهم هم من يحب الإمام علي وغيرهم (بظنهم) لا يحبه، وأن لديهم أساطير عن كرامات الإمام علي وأنه يظهر لأحبائه في أوقات الشدة ويقدم لهم المساعدة، ويعرفون أسماء الأئمة الاثني عشر، ولا يكادون يعرفون أكثر من ذلك والذي كان يثير دهشتنا شدة حبهم لعبد الكريم قاسم وإيمانهم بعظمة منهجه في الحكم وخاصة تمسكه بعراقية العراق ورفضه محاولة إتباعها لمصر كما فعل عبد السلام عارف. وكنت أقول لهم: إن عبد الكريم قاسم مجرم سفاح وأنتم تحبونه؛ لأنه شيعي وإن عبد السلام عارف رجل وطني وحدوي فيؤكدون أن المجرم والسفاح هو عبد السلام عارف الذي أمد مصر بالصواريخ التي كانت معدة لمحاربة إسرائيل فاستولت عليها إسرائيل وضربت بها القوات العراقية أثناء توجهها إلى الجبهة. تصورات جاهلة بالطبع، ولكن الغريب فيها أنها تكشف عن شدة الإقليمية في نفوس العراقيين، هذه الإقليمية التي جرّبتها قبل تعرفي على الشباب العراقيين ببضعة أشهر، ففي صيف 1968 توجهت إلى الكويت وقضيت فيها شهرين تقريبًا وعدت إلى الأردن عن طريق العراق، وعندما وصل الباص إلى نقطة تفتيش عسكرية عراقية قريبة من البصرة. نظر السائق فاستعاذ بالله من تلك الصدفة، ذلك أن جنديًا من الواقفين للتفتيش كان قد أوصاه على راديو ولم يحضرها له، فهو يريدها هدية أو على الأصح (خاوة) أي: جزية مقابل ألا يعيقه إذا صدفه على نقاط التفتيش. بادر السائق الجندي بالتحية ودعاه باسمه وقال له: يا فلان لم أتمكن من إحضار طلبك هذه المرة وتأكد أنني سأحضره في المرة القادمة، فاستشاط الجندي غضبًا وصعد الباص وأمرنا أن نقف جميعًا ونرفع أيدينا كما يفعل الجنود الإسرائيليون بأسراهم، وكان في الباص أكثر من جندي فأخذوا يفتشوننا تفتيشًا مهينًا وأيدينا مرفوعة، فتعرف أحد الجنود على راكب وسلّم عليه ثم قال لصاحبه: هذا عراقي، فقال له صاحبه الذي كان لا يزال يتميز من الغيظ: عراقي، على خَشمي (أنفي). وعامله ببالغ الاحترام مثلما عاملنا ببالغ الازدراء، وشعرنا وقتها كم هي العنصرية الإقليمية بغيضة وخاصة عندما تكون مستقرة في نفس همجي جاهل. وكان معنا كهل فلسطيني، نزل من الباص وقال والغضب يسيطر عليه: إنني ذاهب إلى محافظ البصرة، سأشكوهم له، فلم يبالوا بذلك ولم يمنعوه.

إن حادثًا كهذا لا يجوز أن نحكم به على شعب كامل، ولكن الحقيقة أن لهذا العنصري أشباهًا وأمثالًا. فالنظام البعثي البغيض الذي كان لتوه قد استولى على الحكم بانقلاب بقيادة أحمد حسن البكر، كان أول ما فعله إلغاء كل مظاهر خطوات الوحدة مع مصر فقد ألغى الاتحاد الاشتراكي العراقي الذي أقيم على غرار الاتحاد الاشتراكي المصري وألغى العلم العراقي؛ لأنه كان مطابقًا للعلمين السوري والمصري على إثر اتفاق الوحدة بين الدول الثلاث عام 1963، هذا الاتفاق الذي وقع عليه من الجانب العراقي الدكتاتور البعثي البغيض علي صالح السعدي وكان أحمد حسن البكر التكريتي رئيس وزراء ذلك النظام الذي لم يلبث أن أطاح به عبد السلام عارف في انقلاب، وكان صدام حسين التكريتي من أنصار ذلك النظام وهرب إلى مصر بعد أن أطلق النار على موكب عبد الكريم قاسم، ثم عاد البعثيون فجمعوا قواهم في زمن عبد الرحمن عارف الذي لم يكن بحزم أخيه، فنفذوا انقلابًا أصبح فيه البكر رئيسًا للجمهورية وصدام حسين أحد نواب الرئيس وأقواهم على الإطلاق ولم تمض سوى شهور قلائل حتى كان التكارتة قد صفوا معارضيهم السياسيين بمجازر بين الحين والحين تتحول فيها بغداد إلى حمام دم وتضج منها الأمم المتحدة ومجلس الأمن فيكون ردهم: هذا شأن داخلي، أما التهمة الموجهة دائمًا إلى الخصوم فهي العمالة وخيانة الوطن.

كان سفري إلى الكويت للمرة الثانية في شهر تموز، بعد الانقلاب البعثي بأيام وسافرت بالباص فرأيت شوارع بغداد قد امتلأت جدرانها بصور أعمدة النظام الجديد، وذهبت إلى شركة كوكاكولا حيث يعمل صهري نعيم صالح (أبو صالح) مراقب عمال فيها، فأدخلني غرفة المدير الإداري وهو مهندس مصري لطيف وعرّفه علي فأخذنا نقوِّم هذا الانقلاب الجديد، إن تقويمه لا يحتاج إلى عظيم معرفة بالسياسة، فحزب البعث العفلقي مجرّب في سوريا وفي العراق عام 1963 هو الذي ضرب مشروع الوحدة وضرب بالتالي أي أمل في أن يقوم للوحدة العربية قائمة في المستقبل، هو الذي قاد المجازر في كل من سوريا والعراق وظل يرتكب الفظاعات إلى أن وقع عليه في العراق انقلاب عبد السلام عارف عام 1965 وقام عليه في سوريا انقلاب

الجناح اليساري من الحزب بقيادة الفريق حافظ الأسد سنة 1966، إذًا، ماذا ننتظر من هذا القادم الذي ظننا أنه (غار) إلى الأبد؟

قلت للمهندس المصري بلهجة تفيض بالأسى: إن ما جرى في العراق نكسة جديدة تضاف إلى نكسة 1967، فوافقني على ذلك وقال: لعل الرئيس (جمال عبد الناصر) يبين حقيقته في خطابه الذي سيلقيه اليوم. فقلت له: ما أظن ذلك. فالرئيس لن يؤيد الانقلاب الرجعي وليس من مصلحته أن يفتح عليه النار بمهاجمة أولئك السفهاء، فلديه من الهموم ما يكفيه. وبالفعل: كما توقعت، لم يأت الرئيس على ذكر ذلك الانقلاب في خطابه في ذلك اليوم.

فالعنصرية التي لا يمكن أن نعممها على الجميع، كان حزب البعث العفلقي التكريتي موصومًا بها.

ومما يذكَر على سبيل الطرفة أن الصحف اللبنانية، وكانت الصحف الوحيدة في العالم العربي التي تتمتع بحرية، أخذت تهاجم الانقلاب الشرير وتسخر منه، ودأبت على وصف نظام الحكم العراقي الجديد بأنه زواج عرفي بين الجناح العفلقي في حزب البعث والجناح التكريتي، وأخذت الصحف تتحدث عن مخازي هذا الحكم وعن مذابحه ضد خصومه وتصفيات التكارتة بعضهم لبعض بعد ذلك حتى لم يبق إلا تكريتيان هما الرئيس البكر ونائبه صدام وأتباعهما من الأقارب والأصدقاء. وأخذت تبشر بقرب وقوع الطلاق بين العفالقة والتكارتة.

كان المعتقد على نطاق واسع أن الحاكم الفعلي للعراق منذ اليوم الأول هو صدام وأن البكر كان أسير صدام لا رئيسه وأثبتت الأيام بعد ذلك أن هذا صحيح.

لم يكن البكر ولا صدام يطيقان انتقادات الصحف اللبنانية أو يملكان وسيلة لوقفها أو معاقبة لبنان، ولم يكن صدام قد شكل بعد فرق التصفية والاغتيال لمن ينتقده أو يناوئه في أي مكان في العالم خارج العراق، فقد تأخر ذلك بعض الوقت، فلما لم يجد النظام العفلقي التكريتي وسيلة يعاقب بها لبنان أمر جميع المصطافين العراقيين أن يغادروا لبنان فورًا، ولم يكن بوسع أي عراقي ينوي العودة إلى بلده وهو آمن على روحه إلا أن ينفذ الأمر فورًا.

لقد ارتكب حزب البعث العفلقي التكريتي على مدى تاريخه الأسود من المذابح التصفوية ثم من الحروب مع الجيران ما لم يكن يتصوره أحد.

تقويم للأوضاع العامة للفلسطينيين قبل حرب أيلول 1970

كان التدين في عقدي الخمسينات والستينات ضعيفًا جدًا. في نابلس كانت تحصل المظاهرات ضد النظام الأردني وكان الشباب يمشون فيها من غير مخالطة النساء، ولكن في المناسبات الهامة كانت الطالبات يخرجن في مظاهرات خالصة لهن، وكان الناظر إليهن يرى غابة من السيقان لأن المريول كان إلى الركبة ومن المستحيل أن تجد مريولًا طويلًا أو أن تجد جلبابًا وشالًا بين الطالبات ولا بين المعلمات، اللهم إلا معلمة الشريعة في العائشية الثانوية للبنات، كانت تضع منديلًا على رأسها فكانت معدودة من مخلفات عصر الظلام.

كانت المكتبة العامة في نابلس (مكتبة البلدية) إلى ما قبل الاحتلال تخصص أيامًا للرجال وأيامًا للنساء، وكان بعض الشباب ممن يستعيرون الكتب من المكتبة يحبون إعادة الكتب في أيام مطالعة النساء ليسترق الواحد منهم ناظره ولو لبرهة.

كان في نابلس ثلاثة دور للسينما، وهناك، خاصة في ساحة سينما العاصي يكون مشترو التذاكر ويكون المتسكعون الذين جاءوا لمشاهدة صبايا نابلس وهن يدخلن السينما وهن بالطبع على آخر موضة، ولم يكن البنطلون في عقد الستينات ملبوس الفتيات، بل كان الفستان أو التنورة والبلوزة، وكانت الموضة لفترة طويلة بين الفتيات هي التنورة الحمراء إلى الركبة طبعًا، ثم ارتفعت عن الركبة عندما دخلت موضة الميني جب والبلوزة بيضاء والشعر على أشكال عديدة من التسريحات وغطاء الرأس لا وجود له إلا للفلاحات اللواتي ينزلن المدينة بثوب يغطي القدم وعباءة نسائية كانت ولا تزال موضع ازدراء من المدنيات.

أما بين الشباب فكانت الصلاة نادرة وتكاد تقتصر إلى حد كبير على عناصر الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي وجماعات الصوفية وإسلاميين مستقلين.

كان الشعب الفلسطيني موسومًا أكثر من كثير من الشعوب العربية بولعه بمسبة الدين.

في السنتين الجامعيتين اللتين قضيتهما قبل الاحتلال كنا في إجازة عيد الفطر نستأجر حافلة تأتينا من الكراج إلى الجامعة فنسافر سفرًا جماعيًا إلى الضفة الغربية وما إن تتحرك الحافلة حتى يبدأ التدخين وأكل البرتقال والتفاح وكأنّ الشباب لا يسمعون برمضان أو على الأصح لا يقيمون له وزنًا. بحثت عن صائم غيري في الباص، فلم أجد إلا شخصًا واحدًا.

أما مسبة الدين، فحدِّث ولا حرج، لقد كانت زاد معظم الشباب وهي قليلة في غير الفلسطينيين في الدورة التدريبية التي أقيمت لنا في أحراش جرش، لم تكن تسمع عند الغضب إلا مسبة الدين، وبعضهم كان أشد ضلالًا لا يعجبه إلا شتم الذات الإلهية حتى إن المرء يتصور في تلك الفترة أن الهزيمة والتشريد وضياع الوطن إنما هي عقوبة من الله تعالى وانتقام منه من شعب آسف ربه بقلة دينه وجرأته على الله.

كنت ذات يوم أسلم شخصًا قياديًا من فتح دفتر وصول لتبرعات جمعتها، وكان الوصل من قسمين: قسم يعطى للمتبرع، وقسم يبقى في الدفتر، فقلع ذلك الشخص أصول الإيصالات من الدفتر بهدف أن يستأثر بالمبلغ الذي أمكن الحصول عليه من التبرعات، وجاء مسؤول الحركة في الجامعة ولم يعاتبه إلا بمسبة الدين وشتم الذات الإلهية، وظل يشتم إلى أن هدأ. ولكن في المقابل كان في معسكر المقاتلين إمام ومؤذن والإمام شيخ فدائي متقدم في السن ويبدو عليه الصدق أما المؤذن فكان من قريوت المجاورة لقريتنا، ولم يشعر بالخطأ أن يتحدث عن أنني كنت في الدورة عندما تسلل إلى قريوت، فتعرف البلد كلها بالأمر وكانت تقام في المعسكر الجمعة والجماعة، لكن المحافظين على الصلاة كانوا قلة.

فبعد هزيمة 1967 وضياع ما كان متبقيًا من الأوطان شاع بين الشباب الفلسطيني مقولة يعتقدون أنها حديث نبوي: من لا وطن له لا دين له. وعد الشباب هذا الكلام إعفاءً لهم من كل موجبات الدين. في الجامعة الأردنية كانت الفتيات

حاسرات متبرجات إلا قلة قليلة كانت تضع المنديل، ومن المضحك أن إحدى الفتيات كانت تضع على رأسها المنديل حتى السنة الأخيرة فتابت عن التوبة وتبرجت!!

لم تكن الصلاة من عادات أساتذة الجامعة ولا المظهر الديني لزوجاتهم إلا اثنين كانا يصليان المرحوم الدكتور محمود إبراهيم من قسم اللغة العربية والدكتور محمد صقر من قسم الاقتصاد في كلية التجارة وأضيف إليهم أستاذان مصريان كبيران الأستاذ الدكتور شوقي ضيف أستاذ الأدب العربي وقد أدى فريضة الحج وهو في الجامعة والأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة، ولا أستبعد أن يكون هنالك أستاذ أو أكثر غير من ذكرت يصلي. ولكنني أعرف عددًا كبيرًا من أساتذتنا إما أنه شيوعي أو قومي أو لا ديني ومنهم شيوخ كانوا قد تجاوزوا الستين.

أقامت الجامعة مهرجان الربيع في شهر نيسان 1966 وكان المهرجان يشمل يومًا كاملًا من الفعاليات المتنوعة واختاروا أن يكون يوم الجمعة وحضر الأساتذة وأزواجهم وقضوا يومًا كاملا من النزهة في يوم ربيع دافئ، ولم يكن لصلاة الجمعة حضور في الأذهان. ومن الطريف أن أستاذ الدراسات الإسلامية، خريج السوربون، حضر هو وزوجته وبناته الحاسرات وقضى يومه في أحضان الطبيعة كغيره.

حضرت في مطلع السبعينات عرسًا في قرية من قرى 1948، وكان عرسًا كبيرًا فيه حضور من أنحاء كثيرة، توجهت إلى المسجد لصلاة الظهر ورافقني أحد أبناء القرية يدلني عليه ويعرّفني على معالم القرية وكيف أن أهلها باعوا اليهود الكثير، فسألته متهكمًا: لماذا لم يبيعوا المسجد؟ فقال جادًا: فيه عين ماء لا يفرِّطون بها. دخلت المسجد وقفل صاحبي ـ وكان كهلًا ـ عائدًا إلى ساحة العرس. وكنا في المسجد أقل من عشرة، بينما كان شيوخ بعضهم في الثمانين من عمره لم يغادروا مجالسهم، يتفرجون على الراقصات. والآن تغيرت الأحوال في تلك القرية وسائر القرى والمدن في فلسطين سواء منها ما جرى احتلاله عام 1948 وما جرى احتلاله عام 1967، وبعد أن كان التدين مستهجنًا أصبح الآن عدم التدين هو المستهجن.

مسلك المنظمات الفلسطينية في ذلك الوقت

إن مسلك الفدائيين الفلسطينيين في الأردن، ثم في لبنان، ثم في الشتات بعد أن أُخرجوا من لبنان يقوّم تقويمًا سلبيًا حتى من الفلسطينيين أنفسهم. والصحيح أن سوء المسلك ليس جبلّة جُبل عليها الفلسطينيون فهم كسائر خلق الله يتفاوتون فيما بينهم دينًا وخلقًا إلا أن البشر يتأثرون بمؤثرات بعضها يؤثر على أخلاقهم سلبًا وبعضها يؤثر إيجابًا ولا ننسى القيادة أو القيادات فهي في عالمنا الثالث تصبغ المرحلة بصبغتها، جيدة كانت أم رديئة، ولمزيد من توضيح الصورة، أورد مشاهداتي لتطور الوجود الفدائي في الأردن وكيف سار نحو التأزم. بدأ ظهور الفدائيين بالتدريج في شوارع الأردن وكان مرحبًا به إلى أبعد الحدود وكان الفدائيون الأوائل إنما دفعهم إلى العمل وطنية صادقة بغض النظر عن خطط قادتهم التي كان لها أهداف تتعلق بالخلافات السياسية القائمة على الساحة العربية بين قطبين أحدهما مصر ومن لفّ لفها والثاني السعودية ومن كان على شاكلتها.

ولا ريب أن العناصر الشابة المتحمسة في فتح والتي بدأت في عام 1964، بعد قيام منظمة التحرير بشهرين، تدخل الأرض المحتلة وتقوم بعمليات، لم تكن تعرف شيئًا عن مداخلات السياسة ولا عن مسار متعرج ومشبوه لبعض القادة، كانت هذه العناصر تعرف شيئًا واحدًا هو أن فلسطين محتلة وأن حرب التحرير الشعبية (طويلة الأمد، هائلة التكاليف، مضمونة النتائج) التي روجوا لها، هي الرد الأوحد على الاحتلال في ظل كذب الحكام العرب وإلهائهم للشعوب إعلاميًا وهم في الحقيقة أبعد عن فكر المواجهة مع العدو ومع الولايات المتحدة التي تدعمه وهم بين مرتمٍ تمامًا في أحضان المذلة والتبعية لأمريكا، أو متوجه إلى الكتلة الشرقية التي لا تستطيع أن تسد فقره ولا أن تحيل تخلفه تقدمًا ولا أن تمكنه من امتلاك أسلحة يستطيع بها هزيمة إسرائيل في حين أن هذه الدول تعترف بإسرائيل وتقيم معها علاقات دبلوماسية كاملة. ولقد تحمس الإعلام العربي للفدائيين وصار يطلق عليهم أبطال التحرير وكأن الدول العربية رأت في المقاومة الفلسطينية مخرجًا لها من تهمة التقصير.

أما العمل الفدائي الفلسطيني فكان معجبًا بنفسه إلى أبعد الحدود، وزاده الثناء

عليه غرورًا حتى لم يعد يتقبل بحال من الأحوال قول من يقول: إن العمل الفدائي لا يملك الوسيلة لتحرير فلسطين وإنه لا تشابه أبدًا في الظروف والإمكانات بين الفدائيين الفلسطينيين وثوار الفيتكونغ في فيتنام الجنوبية الذين كانت ثورتهم مشتعلة وقتها وانتهت عام 1976 بتحرير فيتنام الجنوبية من وجود المستعمر الأمريكي وأعوانه وضمها إلى فيتنام الشمالية وأنف الولايات المتحدة راغم، (أما ثورتنا فها نحن نرى أين انتهى بها المطاف).

بعد نكسة حزيران عام 1967 بدأ التوجه إلى العمل الفدائي بين الشباب الفلسطينيين يزداد بشكل كبير ولم يكونوا كلهم يتمتعون بالطهارة الثورية بل إن كثيرين منهم في مرحلة المد يأتون لينالوا الاعتبار الذي يتمتع به الفدائي ولينالوا المكاسب المادية في ظروف البطالة التي كانت تضرب المجتمع الأردني في ذلك الوقت. ومع تصاعد العمل الفدائي تصاعد رد الفعل الإسرائيلي، ولم يكن معظم السكان الأصليين من أهل الضفة الشرقية يرون أنفسهم مرتبطين بالقضية الفلسطينية حتى يواجهوا غارات إسرائيلية لم يهيئوا أنفسهم لها.

ومع كثرة أعداد الفدائيين الفلسطينيين في الأردن وشعور الشعب الفلسطيني بأنه لم يعد مستضعفًا في الأردن، تكاثرت المشاكل بين الطرفين وصعدت الحساسية بين أردني وفلسطيني إلى أعلى مستوى.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن العلاقة بشكل عام بين سكان الضفة الغربية وسكان الضفة الشرقية الذين تتكون منهم المملكة الأردنية الهاشمية لم تكن بمجملها علاقة الود والأخوة ولكنها كانت أقرب إلى عدم المودة، وكان سكان شرق الأردن قد وقر في أذهانهم أن الفلسطينيين باعوا أرضهم وجاءوا لاجئين قبل النكسة ولاجئين ونازحين بعد النكسة في مخيمات النزوح في البقعة وشنيللر وغيرها، يريدون من الأمم المتحدة أن تطعمهم وتلبسهم وتؤويهم، ويشكلون تجمعات عنصرية ضد الحكومة الأردنية والملك.

من الحقائق المعروفة بديهة أن الشعب الفلسطيني كله، باستثناء حفنة من

المنتفعين، لم يكن لديهم أية مشاعر ولاء واحترام للحكومة ولا للحاكم في الأردن، بل كانت مشاعرهم الازدراء لحكومة شديدة الالتصاق بالولايات المتحدة وبريطانيا وهم يعلمون أن ولاءها للمشروع الصهيوني أكبر من ولائها لله وللوطن.

كانت مشاعر كل فريق نحو الآخر سلبية، كان الشعور عند الأردنيين منذ بداية النزوح أن هؤلاء جاؤوا يقاسموننا معيشتنا. وكان الشعور عند الفلسطينيين أن الملك وحكومته التي هي في الأساس من الضفة الشرقية دخلوا حربًا يعلمون مسبقًا أنهم ليسوا أهلًا لها فأسلمونا وهربوا فمن حقنا أن ننطلق من أرضهم، لمحاربة العدو الذي سلموه أمرنا.

فكان تنامي المشاكل التي جرها ظهور العمل الفدائي وميله إلى الفوضى يومًا بعد يوم، تصادف أرضية غير مرحبة في الجانب الأردني لدرجة أن الصغير مما كان يبدر من الفلسطينيين كان يبدو هائلًا وأن مشاكل الفدائيين الفلسطينيين ضد الحكومة والملك والجيش الأردني كانت توجّه إلى مصب العلاقات غير المستقرة بين الأصليين من سكان الضفة الشرقية والوافدين غير المرحب بهم من الفلسطينيين.

لا أنسى منظر رجل أسود مررنا به بدكان كان يجلس قرب عتبتها، وكنا نبحث عن دار للاستئجار وذلك بعد انتهاء الحرب بثلاثة أشهر، لم نسأله هو، ولكننا سألنا صاحب الدكان غير أنه حشر نفسه في الأمر وقال بلهجة كلها تشفٍ وشماتة: عندي غرفة في القدس، هل تنفعكم؟ فقلنا له: تعال معنا لتدلنا عليها، ثم وقع بيننا وبينه أخذ ورد في الكلام ولم نلبث أن تركناه ومشينا لحال سبيلنا ونحن نعجب من أمر ذلك الرجل ولدينا شعور مؤكد أن الكثيرين يشاركونه هذه المشاعر غير النبيلة.

صور من حياة الناس

استأجرت أنا وأصحابي فيما بعد دارًا في الحي الشعبي من جبل اللويبدة لرجل اسمه عنيزان. وكان عنيزان يزورنا فنستمتع في الحديث معه وتسرنا بساطته. كان عنده أولاد في سن الزواج وزوجة لا تزال شابة، لكنه لم يقنع بها فتزوج صبية في سن ابنته.

كان وليها أخوها، وإنما زوَّجه إياها؛ لأن عنيزان عنده بنت على وشك أن تصلح للزواج، وهو متزوج أيضًا وعنده أولاد، لكن عينه على تلك الفتاة، وزارنا مرة وبادر هو إلى الحديث عن نيته في الزواج: زوّجته أختي ليزوجني ابنته. والذي كان يجرئهم على الزواج بساطة عيشتهم وأنهم لا يتكلفون في الإنفاق على البيت إلا أقل القليل.

كانت تواجهنا بعض المشاكل حول الماء والكهرباء، وكان لنا جار متزوج يسكن فوقنا وليس بيننا وبينه معرفة أو تواصل، وعن طريقه تأتينا الكهرباء، وأحيانًا تنقطع الكهرباء فنتهمه بأنه يتعمد قطعها، فأرسلنا إليه ذات مرة شخصًا كان يتردد علينا وحملناه لغة تهديد فجاءنا بتهديد أشد، فوجدنا أن الحل الأفضل مواجهته مباشرة لا عن طريق المراسيل، وقررت أن أقوم بالمهمة نيابة عن بقية الزملاء، وصعدت الدرج وطرقت الباب فخرج الجار فإذا هو شاب حسن الطلعة فاستقبلني بالبشر وبلسان عذب، وسألته عن مشكلة الكهرباء فاعتذر بأن الانقطاع ليس من عنده وأنه تضرر منه إذ تلفت له المأكولات في الثلاجة، وأنه من المستحيل أن يحاول الإضرار بنا فغيرت رأيي فيه إلى الأحسن بطبيعة الحال، وتعلمت من هذه الحادثة ألا أحكم على أحد من غير معرفة.

أعود إلى بساطة حياة الأعراب: احتجنا مرة إلى عنيزان (أبي خالد) ليجلب لنا الحداد لسد كوة خارجية من الدار، فذهبت إليه باعتباري المفاوض الأمهر بين الزملاء، وكان قد وصف مضرب خيمته بأنها أسفل بيادر وادي السير، وعندما اجتزت بيادر وادي السير مشيًا التقيت بأعرابي فسألته عن موقع عنيزان فوصفه لي، فاتبعت الوصف ووصلت مضرب خيمته وناديته: يا عنيزان، فخرج يدعوني إلى دخول الخيمة، وكانت والدته العجوز تجلس في طرف الخيمة وترحب بلهجتها البدوية العذبة، فجاءت بمقلاة ووضعت فيها السمن البلدي ووضعتها على النار حتى ساح السمن فأنزلتها ووضعت فيها مقدارًا من السكر وأحضر الخبز الرقيق (الشراك) فأفطرت أنا وإياه، أما الراعي فلم يُدعَ إلى الفطور الشهي، ثم جاء بالشاي فأعطيته سيجارة وأعطيت الراعي واحدة وأشعلت واحدة وشربنا الشاي ودخّنا وتحدثنا. وبعد برهة ناولته سيجارة ثانية فأخذها، وناولت الراعي سيجارة فتناولها، لكن عنيزان نزعها من يده بسرعة قائلًا: هذا لا يُدخَن صناديق.

قـال في معـرض الحديـث: أريـدك أن تعلِّـم خالـد، وسـوف أذبـح لـك ديـك، فضحكـت في سريـرتي مـن العـرض المجحـف، فتعليـم خالـد يحتاج إلى أن أتوجـه مـن جبـل اللويبـدة إلى بيـادر وادي السـير، مـرورًا بجبـل عـمان، ثـم أن أهبـط المنطقـة مشـيًا حتـى أصـل إليـه فأعطيـه دروسًـا مـن غـير أجـر طبعًـا، إلا الديـك، أو بشـكل أدق: مـا سيكون نصيبـي مـن ديـك. لم أعلـق عـلى العـرض وهـو لم يكـرره ورجعـت إلى عـمان فوجـدت الشـوارع مضطربـة، تمـوج بجمـوع غاضبـة؛ لأن جمـال عبـد النـاصر وافـق عـلى قـرار مجلـس الأمـن الـدولي رقـم 242 الـذي صـدر في الليلـة السـابقة، والـذي ينـص عـلى الاعـتراف بحـق جميـع الـدول في الحيـاة، وأنـه لا بـد مـن حـل سـلمي لأزمـة الـشرق الأوسـط يتـم عـن طريـق التفـاوض وأن عـلى إسرائيـل أن تنسـحب مـن (أراضٍ) احتلتهـا في حـرب 1967.

لقـد استهجن الفلسـطينيون موافقـة عبـد النـاصر عـلى القـرار؛ لأنـه يعنـي أن مـصر تعـترف بحـق إسرائيـل في الوجـود.

عـودة إلى عنيـزان: كان صاحـب غنـم وميسـور الحـال فهـو صاحـب العـمارة التـي نسـكن شـقة منهـا، ممـا جعـل زواجـه الثـاني أمـرًا ميسـورًا، ولقـد دعانـا إلى عرسـه، فلـم نجـب، إذ كنـا مدعويـن عنـد زميـل يسـكن وادي السـير. وبعـد الغـداء قضينـا بقيـة النهـار في بسـاتين الرمـان في نزهـة لا تُنسـى.

بعـد ذلـك، وبينـما كنـت وصديقـي زهـير نتمشـى في جبـل عـمان المقابـل لجبـل اللويبـدة، مـرت بنـا صبيـة، وعرفناهـا، إنهـا عـروس عنيـزان، هـي بدويـة بدليـل ثوبهـا الأسـود المطـرز الـذي يغطـي القـدم كانـت حافيـة وتحمـل عـلى رأسـها وعـاءً كبـيرًا مليئًـا بـما لا نعلـم، ومـن الواضـح أنهـا كانـت ذاهبـة إلى اللويبـدة لزيـارة أخيهـا، ولم تـر غضاضـة في أن تسـير مـن خيمـة زوجهـا في أسـفل البيـادر إلى جبـل اللويبـدة مـرورًا بشـوارع جبـل عـمان الفاخـرة حافيـة، مـن غـير فقـر، ولكنهـا لم تـر في الحفـى غضاضـة، بـل ربـما أن النعـل كان سـيعوق مشـيها لـو أنهـا لبسـته.

ثـم انتقلنـا إلى شـقة أحسـن حـالًا يملكهـا رجـل مـن السـلط، وأشـهد لـه بالطيبـة وحسـن الخلـق مـع العلـم أن الفـترة التـي جاورنـاه فيهـا كانـت فـترة تفاقـم الوجـود الفدائـي

في الأردن وتصاعـد ضيـق سـكان شرق الأردن الأصليـين بـه. كانـت كنيـة صاحـب الـدار أبا أحمـد، ولـه أربعـة أولاد منهـم اثنـان صغـيران أحدهما في التاسـعة والآخـر في العـاشرة، وكانا يحمـلان بعـض الأغـراض ـ بعـد عودتهـما مـن المدرسـةـ في كرتونـة ويقفـان عـلى طـرف الشـارع المقابـل للـدار يبيعـان، وجـاءت سـيارة خصـوصي مسرعـة ذات يـوم فدهسـت الطفـل الأصغـر، ونقلـوه إلى مستشـفى الأشرفيـة فـورًا، ومـا أن علمنـا بالخـبر ـ زملائـي وأنـا ـ حتـى أسرعنـا إلى المستشـفى، فوجدنـا هنالـك والـد الطفـل وعـددًا مـن رجـال الحـي، فقـال لنـا بلهجـة الصابـر الـذي ظللنـا نجـل صـبر الرجـال فيـه: الولـد مـات.

في اليـوم التـالي دفـن الشـهيد، رحمـه الله، وقـد أُلقـي القبـض عـلى السـائق فـإذا هـو فدائـي فلسـطيني مـن قطـاع غـزة لا يحمـل رخصـة سـياقة وليـس للسـيارة تأمـين وليـس مـع السـائق هويـة، فاعتـبر الحـادث اسـتهانة بـأرواح النـاس وأضيـف هـذا الحـادث وأشـباهه ـ وقـد تكاثـرت عـلى مـر الأيـام ـ إلى مجمـوع النقـاط السـوداء التـي أخـذت تتراكـم عـلى الفلسـطينيين عنـد أهـل الضفـة الشرقيـة. وعندمـا جـاء رجـال مـن ذوي الجـاني لأخـذ عطـوة وقـف شـقيق الشـهيد يـصرخ في وجوههـم: سـائق لا يحمـل رخصـة ولا هويـة ولا تأمـين للسـيارة يدهـس النـاس ببسـاطة، سـوف نقتلـه. والحقيقـة أن رجـال أبـو هزيـم (عشـيرة والـد الطفـل) الذيـن جـاءوا مـن السـلط لحضـور مفاوضـات العطـوة وكذلـك والـد الشـاب أسـكتوه وقمعـوه، لكـن الشـاب كان أصـدق في التعبـير عـن مشـاعر كانـت تـزداد وتتعمـق يومًـا بعـد يـوم.

وفي غمـرة التعامـل مـع الحـدث علمنـا أن حادثًـا أفظـع منـه في السـلط كان لـه رد فعـل شـديد ضـد الفلسـطينيين وموجـزه أنـه كان للفدائيـين الفلسـطينيين موقـع عسـكري قـرب السـلط، فاقـترب منـه ولـد سـلطي يلعـب، فنهـره الحـارس وأمـره أن يبتعـد فرفـض، فكـرر عليـه الأمـر وكـرر الغـلام الرفـض فـما كان مـن الحـارس إلا أن وجـه إليـه فوهـة رشاشـه وأطلـق عليـه النـار فـأرداه قتيـلًا، فـكان لتلـك الحادثـة رد فعـل غاضـب جـدًا عنـد أهـل السـلط عمومًـا وبالطبـع ذهـب القاتـل إلى السـجن وبـدأت مفاوضـات الصلـح بـين الفريقـين وتـولى يـاسر عرفـات بنفسـه محـاولات الصلـح مـع أهـل السـلط فأبـوا إلا أن يسـلّمهم القاتـل ليقتلـوه، وكانـت علاقـة عرفـات بالملـك جيـدة فوسـطه في الأمـر فاتجـه الملـك إلى أهـل السـلط

بما له من مكانة عندهم وأخيرًا وافقوا على الصلح إكرامًا للملك بشروط لا يقوى على أدائها شخص، ولكن منظمة فتح هي التي تحملتها ومنها ألا يشاهدوا مسلحًا فلسطينيًا في منطقة السلط وأن تكون الدية ثمانية أو عشرة آلاف دينار (لا أستطيع تحديد أي من الرقمين الآن) وأن يكون غداء الصلح كبيرًا جدًا وفاخرًا جدًا ومن مطعم جبري في عمان وهو أشهر وأكبر مطعم في الأردن في ذلك الوقت وأن يسترضى الرجال من أقاربه بأربعين عباءة وَبَر، وهي نوع من العباءات الرجالية باهظة الثمن، لا يلبسها إلا الأثرياء، ووافق أبو عمار على جميع تلك الشروط.

هذه بعض المشاكل التي كانت تنشأ بين الحين والآخر فتثير نقمة السكان الأصليين على أولئك (البغضاء الوافدين الذين جلبوا لهم قلة الراحة).

مررت يومًا في الزرقاء بمكان فيه عين ماء فإذا مجموعة من النساء يصرخن بامرأة وبأصوات مختلطة بلهجة تفيض عداءْ وقد حملت وعاءها وسارت وهي لا تنبس ببنت شفة وكان من أسهل الأمور معرفة أن النساء فلسطينيات من الزي الذي ظهر عليهن وهو الثوب الأبيض المطرز، وأن المرأة أردنية بثوبها الأسود المطرّز.

وكنت مرة في سيارة تكسي يسوقها فلسطيني فاستوقفه رجل فوقف له وعندما سمعه يتكلم لهجة شرق أردنية أبى أن يحمله في السيارة.

جاءنا ذات يوم والدي للزيارة فدعانا أحد أبناء قريتنا وهو المرحوم: بِشِر يوسف العلي، وكان يسكن جبل الهاشمي، وعند العشاء جاء جار له من أهل شرق الأردن وهو شيخ طاعن في السن، ولما علم أننا فلسطينيون قال لنا بلهجة الشيخ الخرف: الفلسطينيون خَوَن، باعوا بلادهم لليهود. فقال له والدي: أليس الذي سلّم البلاد لليهود هو الجيش الأردني؟ هل الجيش الأردني لنا أم لكم؟ فكرر الشيخ العبارة، فأوعز المضيف إلى والدي أن كُفّ عن المناقشة، فهذا الشيخ لا يعرف إلا هذه العبارة.

بما أنني أسجل مذكرات لا تاريخًا فلا أريد أن أتوغل في شرح أمور لم أطلع عليها. إلا أنني أقول باختصار: إن مشاعر غير المودة بين الفلسطينيين والأردنيين لم تكن هي السبب الأوحد في وقوع حرب أيلول 1970 التي انتهت بخروج الفلسطينيين من

عمان والزرقاء ثم من الأردن كلها. ولكن الأسباب كثيرة والفلسطينيون غرتهم قوتهم الظاهرة المؤقتة، فصاروا يسيئون إلى الجيش الأردني وإلى المسؤولين، ورفعت قوى اليسار الفلسطيني شعار: السلطة كل السلطة للمقاومة وكتبته على الجدران، والحقيقة تقال إن حركة فتح كانت أوعى بالمخاطر التي تجرها الفوضى وظلت تعمل على إبقاء جسور تواصل مع الحكم الأردني، وكانت ترفع شعارًا ملأت به الجدران وهو: كل البنادق باتجاه العدو. لكن طوفان الفوضى كان خارجًا عن السيطرة، ومعلوم لكل مراقب في تلك الفترة أن الحكومة الأردنية كانت هي نفسها تعمل على تفاقم الفوضى وتشجع من طرف خفي العناصر غير المنضبطة من الفلسطينيين لمواصلة اعتداءاتهم على كرامة الجيش وعلى المواطنين، كي توغر صدورهم، وقد اكتشفت كثير من الفبركات حول اختطاف نساء من قبل الفلسطينيين ثم تبين أنهم رجال ونساء مخابرات يرتبون سيناريو اختطاف على مرأى من جموع الناس لكي يتضاعف الحقد على الفلسطينيين.

فمن هذه الفبركات لعبة عميل أردني اندس في صفوف الفدائيين هو طاهر دبلان، واصطنع محاولات انقلاب فأعلنت الحكومة منع التجول وحركت قوات الجيش، وبدأ الأمر للناس كأنه هجوم أردني على الثورة الفلسطينية، وخرجت أنا وصديقي وكان معه مسدس ولم أكن قد جلبت الرشاش بعد، وكان معسكر العبدلي على بعد خطوات منا فوقفنا على طرف الشارع وأمامنا رجل من حرس البادية بقمبازه البني ذي الخطوط الحمراء وحزامه الأحمر المزركش وقد تدلى منديل أحمر على خاصرته اليمنى وآخر على خاصرته اليسرى، فقلت لصديقي: تعال نقتله، فسحب مسدسه وهم بإطلاق النار فقلت له لا تفعل فقد تراجعتُ وتراجع في اللحظة الأخيرة وقد شعرنا أننا نريد ارتكاب جريمة ضد شخص هو مثلنا لا يعقل حقيقة ما يجري. واتضحت الحقيقة بعد أنْ أذاعت إذاعة فتح بيانات فيها كشف للمؤامرة الأردنية التي استُخدم فيها طاهر دبلان وأن المقصود منها إما إثارة المشاعر أو مناورة للجيش كي يكون على استعداد لمثل هذه الطوارئ.

وفي حمى الحماس للعمل الفدائي، جاءنا ذات يوم إلى الجامعة شباب ومعهم بيان عن عملية استشهادية يقولون إن جبهتم نفذتها، وفي البيان صور لخمسة أشخاص يقول

البيـان إنهـم شـهداء العمليـة، وقـال أولئـك الشـباب إنهـم يمثلـون جبهـة فدائيـة جديـدة اسـمها جبهـة الفـداء القومـي وألصقـوا المنشـورات في أماكـن مختلفـة مـن الجامعـة، وتحمس كثير مـن الطـلاب فتبرعـوا للجبهـة الجديـدة ومـر أولئـك الشـباب عـلى مكاتـب عـدد مـن الأسـاتذة فتبرعـوا، ولكـن مـا هـي إلا سـاعة أو أكثـر حتـى جـاء خـبر عاجـل مـن فتـح يقـول: إن الفـداء القومـي مـن تدبـير الشريـف نـاصر يريـد أن يخـترق بهـا العمـل الفدائـي، فحـاصر الطـلاب بعـض أفـراد المجموعـة وصـاروا يسـألونهم عـن حقيقتهـم والجبهـة التـي أرسـلتهم، وأخـيرًا خلّصـوا أنفسـهم وانسـحبوا مـن الجامعـة.

ومـن الطرائـف أننـي ذهبـت بعـد عـصر ذلـك اليـوم لزيـارة زمـلاء يسـكنون منطقـة ماركـا، قـرب مطـار عـمان، وإذا أحدهـم وهـو الزميـل عفيـف السـعدي مـن جنـين كان قـد تـبرع بنصـف دينـار وأحـد زملائنـا المعـروف بـروح النكتـة هـو وليـد جـرار، يقـول لـه: نصـف دينـارك لـو فتشـت عنـه الآن لوجدتـه في جيـب الشريـف نـاصر.

هـذه بعـض تداخـلات الحكومـة الأردنيـة، وكان الخـلاف بـين فتـح والجبهـة الشـعبية عـلى أشـده وكذلـك بـين الجبهتـين الشـعبية والديمقراطيـة، ولكـن المصيبـة الكـبرى كانـت في المنفلتـين الذيـن لا ينتمـون انتـماء حقيقيًـا إلى أي فصيـل، بـل ينتمـون إلى أهـواء شـخصية ومطامـع ماليـة فهـم يسـتغلون ظروفًـا مواتيـة، ومـن ارتكـب مخالفـة التجـأ إلى فصيله فضرب مـن حولـه نطـاق الحمايـة.

إن ممـا انفـردت بـه فتـح أنهـا لا تسـأل المنتسـب إليهـا عـن آيديلوجيتـه (مثالياتـه) فـلا مانـع في أن تكـون ذا مبـادئ دينيـة أو قوميـة أو يسـارية، وهـذه هـي الآيديولوجيـات الثـلاث التـي كانـت ومـا زالـت سـائدة في بلادنـا، وكثـير مـن النـاس، خاصـة في ذلـك الوقـت، لم يكـن يديـن بأيـة آيديولوجيـة، وأمثـال هـؤلاء وجـدوا مكانهـم في فتـح ولم يجـدوه في الجبهـة الشـعبية لتحريـر فلسـطين التـي كانـت في البدايـة تضـم جميـع القوميـين العـرب، قبـل أن تخـرج عنهـا القيـادة العامـة بزعامـة أحمـد جبريـل في 10/ 10/ 1968 وهـي جبهـة قوميـة بنكهـة إسـلامية، ثـم الجبهـة الشـعبية الديمقراطيـة سـنة 1968 وتكونـت مـن الشـيوعيين الخلَّـص، وبقـي الاسـم الأصـلي: الجبهـة الشـعبية لتحريـر فلسـطين بقيـادة جـورج حبـش وهـي أقـل

تشددًا في فرض الآيدولوجية الشيوعية الأممية، إذ إنها تخلط الفكر الشيوعي بعقيدة قومية، وبعضهم يكتفي من الشيوعية بالجانب الاشتراكي ولا يأخذ بالفكر الإلحادي، لذا فليس غريبًا أن ترى من أفرادها قلة يحافظون على الصلاة ومنهم المرحوم أبو علي مصطفى الأمين العام الثاني للجبهة، فقد حدثني أبناء بلدته «عرابة» لدى استشهاده في أيلول 2001، وكنت وقتها في سجن مجدو، أنه كان من رواد المسجد وممن يقفون في الصف الأول منه.

شب الخلاف بين فتح والجبهة الشعبية وكان خلافًا منهجيًا ومصلحيًا، وكانت الجبهة الشعبية تأخذ على فتح أنها من غير آيدولوجية، وأن فتح إنما أنشأتها السعودية لمناوأة منظمة التحرير التي كان يرعاها عبد الناصر، وأن أي تنظيم من غير مبادئ فكرية وسياسية واضحة المعالم وراسخة في صدور أبنائه مصيره الفشل والاندثار إذا مات مؤسسه. وكانت فتح تأخذ على الجبهة أنها جاءت لتسوِّق على الشعب الفلسطيني أفكارًا مستوردة، وأن تحرير فلسطين يحتاج إلى تجنيد جميع أبنائها على اختلاف مشاربهم وميولهم، وأن الذي يوحد الشعب الفلسطيني ليس الأيدولوجية المستوردة، بل الهدف الواحد وهو تحرير فلسطين كل فلسطين من النهر إلى البحر، وأن الإخلاص لهذا الهدف والتفاني في خدمته هو أفضل ما نقدمه لقضية الكفاح الفلسطيني. فالمطلوب إذًا، هو النقاء الثوري والطهارة الثورية أي؛ الإخلاص للثورة والتفاني في الكفاح تحت رايتها.

إن أسوأ ما واجهته المقاومة الفلسطينية المتواجدة في الأردن أنها كانت جبهات كثيرة بلغت في ذروة الحماس للعمل الفدائي عشرين منظمة منها ما لمع اسمه فجأة ثم اختفى كالمارد العربي ومنها ما كان مؤامرة لم تلبث أن انكشفت وسقطت مثل جبهة الفداء القومي ومنها ما قضت عليه فتح كالهيئة العاملة لتحرير فلسطين بقيادة الدكتور عصام سرطاوي، فإن هذه الهيئة أيدت الرئيس جمال عبد الناصر عندما وافق على قرار مجلس الأمن الدولي رقم 242، فانقضت عليها فتح وأغلقت مكاتبها، ومنها ما كان تابعًا لدولة عربية ووجوده الأساسي في أراضيها كالصاعقة السورية وجبهة التحرير العربي العراقية ومنها ما لم يكن له طعم ولا لون ولا يدري أحد ماذا يريد والعديد منها موجود على الساحة الفلسطينية ليس له إلا حفنة من الأتباع وهكذا.

وممـا ميـز العمـل الفدائـي ميـزة سـلبية تصاعـدت يومًـا بعـد يـوم هـو التنافـس غـير الشريـف عـلى كسـب الموقـع المتقـدم فبـدلًا مـن أن يلجـأ المتنافسـون إلى مضاعفـة الجهـد لتحسـين الأداء لجأوا إلى البيانـات وصـارت البيانـات سـلاحًا زائفًا لكسـب المجد بأرخص الوسـائل. أصبحـت البيانـات ميدان الأكاذيـب أو المبالغـات في أحسـن الأحـوال، ولجأ كثير منهـا إلى إثبـات ملاحظـة في آخـر البيـان تقـول: اعـترف العـدو بالعمليـة.

إلا أن أكاذيـب البيانـات لم تكـن إلا واحـدة مـن مظاهـر هبـوط العمـل المقـاوم الفلسـطيني، بـل إن اللجـوء إلى خطـف الطائـرات أعطـى الفلسـطينيين صـورة الإرهـابي الـذي يجب الحـذر منه على مستوى العـالم، وطلـب الفديـة الـذي لجأ إليـه بعضهـم هبـط بالفدائـي الفلسـطيني إلى مسـتوى القرصنـة. وفـوق ذلـك أنـه تبـين للجميـع أن العمـل الفدائـي وقـد وقـع في التخبـط، فمسـتقبله لم يعـد مشرقًـا ولا واضحًـا.

بعد تخرجي من الجامعة

كان تخرجي سـنة 1969 وحملت شـهادة الليسـانس في اللغـة العربيـة، وكنـت أثنـاء الامتحانـات قـد تقدمـت بطلـب عمـل في السـعودية بنـاء عـلى إعـلان مـن الملحـق الثقـافي السـعودي. وظهـر اسـمي في قائمـة المقبولـين وكانـت الفرحـة عارمـة فقـد انفتـح لي بـاب العمـل والـرزق، وكان عمـلي في منطقـة القصيـم التـي هـي الجـزء الأعـلى مـن نجـد وهنـاك في مدينـة بريـدة وجهتنـي مديريـة التعليـم إلى قريـة اسـمها أبـا الـدود، قضيـت فيهـا سـنتين، ثـم في السـنة الثالثـة انتقلـت إلى قريـة اسـمها الخصيبـة. لقـد كان الراتـب بسـيطًا وغـير مغرٍ. ومـع ضآلـة الراتـب كنـت عـلى وشـك الـزواج ولم أكـن أوافـق بتاتًـا عـلى الجـو الانفتاحـي في مجتمعـات المدرسـين المتعاقديـن حيـث لا تسـتحي امـرأة مـن رجـل وتجالـس جميـع النسـاء جميـع الرجـال مـن الأجانـب يسـمرون ويتضاحكـون ويمـلأ الـكل ناظريـه مـن الـكل، وهـذا لم يكـن يرضينـي ممـا دفعنـي إلى اختيـار أرض الصمـود في الضفـة الغربيـة بعد ثلاث سـنوات مـن العمـل في السـعودية، وعـلى الرغـم مـن أن الحكومـة السـعودية كانـت قـد قـررت للمدرسـين المتعاقديـن زيـادات ملموسـة تبـدأ مـع بدايـة السـنة الدراسـية التاليـة، ولكننـي زهـدت في ذلـك كلـه وعندمـا أراجـع قـراري الآن أجـده كان قـرارًا صائبًـا موفقًـا بحمـد الله.

كسبت من السعودية الحج إلى بيت الله الحرام. حججت في السنة الأولى عن نفسي وحججت في المرة الثانية عن المرحوم خالي الذي توفي بمرض رئوي عام 1969 وكان في الأربعينات من عمره وكان عزيزًا عليَّ كثيرًا.

إن رحلة الحج لا تقتصر فوائدها على أداء الفريضة بل هي رحلة ثقافة يجتمع فيها المسلمون من جميع بقاع الأرض وتعرف الحجاج على الأماكن المقدسة مما يؤدي إلى نشوء ارتباط عاطفي أبدي بها بعد معرفتها، إنه بدون تجربة الحج يصعب على المرء معرفة الحكمة من هذه الفريضة. ما أعظمها من لحظات عندما يرى المسلم الكعبة للمرة الأولى، وما أعظم مشاعر الهيبة التي تستولي على المسلم عند اقترابه من المدينة المنورة وشعوره أن سيصبح على بعد خمسة أشبار من الجسد النبوي الشريف. ولا ينسى المرء مشاهدته لسفح جبل أحد ووقوفه على قبر حمزة وقبور الشهداء الأبرار ممن وصلتنا الهداية بأرواحهم ودمائهم، وكذلك مقبرة البقيع وما فيها من الصحابة الكرام.

كانت حجتي الأولى مع سعوديين من أهل قرية أبا الدود وكنا أربعة زملاء ثلاثة فلسطينيين ولبناني وكان مأكلنا من مأكل رفاق السفر السعوديين، وهو نوع واحد قلما يتغير على الغداء والعشاء، إنه «الكبسة» وهي من الأرز مع اللحم وصلصة البندورة، ولم يكونوا يعرفون من أنواع الطبخ باللحم غيرها، وكان الهدي الذي قدمناه شراكة مع سعوديين وهو بعير اشترك فيه سبعة، ذهبت لأَشهد عملية ذبحه، ولم يكن ذبح الهدي قد رُتِّب وأُحسن استغلاله بعد، بل كانت أرض المسلخ أرضًا فسيحة منبسطة تتخللها أخاديد طويلة وعميقة، فتذبح الذبائح على الأرض المنبسطة ويأخذ منها كل من أراد أن يأخذ وبالمقدار الذي يريده ولو أراد أن يحمل أطنانًا فهو مشكور؛ لأنه سيستغل مقادير من اللحم كانت ستدفن في الرمال. دخلت المسلخ وأنا أرتدي دشداشة وكان عليَّ أن أرفعها كي لا يصيبها الدم من الذبائح التي أتخطى بعضها وأدعس على بعضها، إنها ذبائح لا يأتي غروب كل يوم من أيام التشريق الثلاثة إلا وهي تكاد تملأ كل شبر من أرض المسلخ الشاسعة التي من وقف في أولها لا يتبين آخرها، يتوقف الذبح مع غروب الشمس ويبدأ مع شروقها في اليوم التالي من الأيام الثلاثة وهي أيام التشريق،

ويحمل الناس ما يستطيعون حمله مع العلم أنه من أراد اللحم فإنه يأتي إلى ذبيحة أو ذبائح شاهدها وهي تُذبح ولا يأخذ من ذبيحة لا يعرف متى ذُبِحت، فيسلخ الجلد أو يسلخ من الجلد ما يريد المرء أن يأخذ ما تحته من اللحم ولك ما تشاء من الضأن والغنم والبقر والإبل فتية ومُسِنَّة ولو كان معك شاحنة وكانت لديك القدرة على السلخ فاملأها على بركة الله، ثم يأتي عمال البلدية بعد الغروب فيجرفون اللحم كله في الأخاديد ليكون المسلخ مهيأ لذبائح اليوم التالي. في الحجة الأولى اشتركنا سبعة في ذبح بعير فبعد أن ذبحناه سلخه أحد الخبراء وحمل لحمه لتطبخه الحريم السعوديات اللواتي حججن معنا بصحبة أزواجهن. وهم مغرمون جدًا بكبد البعير للفطور فجيء لنا بالفطور من كبد البعير المقلي بدهن البعير فأكلنا منه وكرهنا طعام الكبد فترة طويلة بعد ذلك. وعند الغداء يقدمون لنا (الكبسة) وهي مسلوق الأرز بماء الصلصة مع لحم البعير، وعند العشاء كذلك في الغالب.

ويحمل السعوديون إلى ديارهم من لحم الهدي ما يستطيعون حمله ففي أيام التشريق الثلاثة يكون كل حاج سعودي مشغولًا بشبرقة اللحم، أي؛ فصله عن العظم وتقطيعه على شكل شرائح تكون من أكبر ما يمكن ولكن ترقَّق قدر الإمكان ثم تنشر على الحبال ليجف ماؤها ويملّح وتوضع في كيس خيش كبير ويحرص كل سعودي أن يملأ خيشته ويعود بها إلى بلده فلا يزال يأكل منها ويدعو أحبابه إليها ويدعى عند أحبابه إلى مثلها طيلة أربعة أو خمسة أشهر في غياب الكهرباء والثلاجات في القرى في السبعينات من القرن الماضي.

أما في المرة الثانية فكنا مجموعة من المدرسين العزاب طبعًا وكان جلب اللحم من المسلخ لن يكون للجالب وحده بل لخمسة عشر أكولًا ليس بينهم تجانس كبير.

ذهبت في اليوم التالي من أيام التشريق إلى المسلخ مع طلوع الشمس والسكين بيدي فوجدت حجاجًا لا يعرفون العربية قد ذبحوا عدة ذبائح كلها جداء فتية، فأشرت إليهم أنني أريد الكبد فأشاروا عليّ بسرور أن آخذ الذبائح كلها، ثم تركوني وغادروا فكنت أبقر بطن الماعز فأستخرج كبده فاستخرجت خمسة أكباد، وتركت الباقي ليلقى في الجرف آخر النهار.

أجمل مواقع الحج الكعبة المشرفة وقبر عظيم الشأن، وكان أسوأ معالم الحج أولئك الحرس الذين حول الكعبة وداخل المسجد النبوي، فإنهم يقفون والعصي بأيديهم ومن سأل أحدهم عن أمر من الأمور انفجر في وجهه بكلام غير مفهوم، فيندم على أنه سأله ويقول في نفسه: آسف فقد ظننتك إنسانًا.

ويشيع بين الناس أن أهل مكة على خلق سيء وأهل المدينة على خلق طيب، أما الحقيقة فإن أهل المدينة على خلق طيب فعلًا وقد سألنا سائق سيارة حملنا إلى مسجد قباء عن سر جمال أخلاق أهل المدينة فقال: إننا نتأسى بأخلاق رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، أما أهل مكة فهم أخلاط من الناس والله تعالى يقول: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الفتح: 25] ويغلب عليهم حب المال. والذين لا يمكن التعامل معهم هم التجار وأصحاب الدكاكين من أصول غير عربية، فهؤلاء لا يعرف أحدهم المجاملة؛ لأنهم لا يعرف من العربية إلا النزر اليسير، والغريب أن طول مكثه في مكة لم يعلِّمه اللغة العربية.

أعجب ما رأيت في صحراء نجد

العجيب بالنسبة للإنسان هو أن يرى شيئًا لا عهد له به، وهنالك في أرض القصيم التي هي جزء من بلاد نجد أمور يراها الوافدون إلى تلك البلاد ولم يكونوا رأوها في بلادهم فيعجبون منها في حين أن أهل البلاد يرونها عادية. منها الغاز الخارج من وسط الماء. فبينما كنت وزملائي مسافرين ذات يوم إلى القرية التي نعمل فيها، «أبا الدود»، سلكت بنا السيارة طريقًا لم نشاهده قبل ذلك، وصلنا عند الغروب إلى موقع أثارَ دهشتنا، إنه بركة من الماء المتدفق من باطن الأرض وفي وسطها لسانان من لهب، متجاوران، أحدهما أطول من الآخر. ما أغرب المنظر! وما أجمله! لم أشاهد قبل ذلك ولا بعده نارًا خارجة من ماء، ولو شاهدها الشاعر التهامي لأيقن أنه مخطئ في قوله:

ومكلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِباعها   مُتطلِّبٌ في الماءِ جذوةَ نارِ

فالتهامي يعد استخراج النار من الماء ضربًا من المستحيل، فإذا هو في أرض القصيم حقيقة، ولما سألنا عن سر خروج النار من وسط الماء، قال لنا السائق: هنا يتصاعد الغاز الطبيعي ويشق طريقه من وسط الماء. وعندما أبدينا دهشتنا فيما بعد أمام آخرين من أهل البلاد قالوا لنا: إن ماء تلك البركة يغلب عليه الغاز المتكثف، حتى إن الماء نفسه يستخدمه السائقون وقودًا للطبخ، فإذا مر أحدهم بذلك المكان، ملأ وعاءه أو أوعيته بالماء، فإذا نزل منزلًا ليصنع لنفسه غداءُ نصب مركبته ووضع فوقها إناء الطبخ بما فيه من لحم وماء ووضع أسفلها وعاءً فيه ماء الغاز وأشعل فيه النار، فإذا هو وقود ملتهب يُنضج لحم البعير في مدة قصيرة. كما علمنا أن كثيرًا من أصحاب السيارات يحمل معه الماء العذب ولحم البعير وينصب مركبته وسط البركة الضحلة وأول ما يفعله أنه يطفئ النار المشتعلة بنفثة من فمه فتنطفئ، وبعد أن ينصب مركبته ويضع فوقها الطنجرة يقدح فيها شرارة فتشتعل لتعطي نارًا مرتفعة الحرارة وقادرة على إنضاج لحم البعير بسرعة. وبعد أن ينهي مطلبه منها ينفث عليها فيطفئها ويظل الغاز منطلقًا من غير لهب، أو قد يغادر المكان ويبقيها مشتعلة.

صلَّينا المغرب في ذلك المكان جماعة وقد هاجمتنا أسراب هائلة العدد من البعوض، فتورمت يداي من لدغها وظلت متورمة أيامًا.

ومنها: الوَرَل

إنه مخلوق قريب الشبه من الحرذون، لكنه كبير الحجم له يدان طويلتان ورجلان قصيرتان وعنق طويلة ولا يفتأ يحرك رأسه يمينًا ويسارًا بشكل دائم، وأغرب ما فيه لسانه، فإنه يمده خارج فمه مسافة ربما تبلغ خمسة عشر سنتيمترًا، فيلتقط فريسته عن بُعد.

جئت مرة إلى تلاميذ من المدرسة أثناء الفسحة وقد تجمهروا أمام شيء يتفرجون عليه فإذا هو الوَرَل (ويلفظونه الورر) وهو في لغتنا في فلسطين: الورور، فقربوا منه عصفورًا ميتًا، فما أسرع ما مد لسانه فالتقطه عن بُعد.

ومنها: الضب

وهو يشبه الحرذون إلى حد بعيد، إلا أنه يزن كيلوغرامين أو أكثر إذا تم نموه، وله ذنَب بالغ التعقيد. والضب من حيوانات الصحراء، لذا فله في أمثال العرب وأشعارهم نصيب وافر، فضربوا بذنبه المثل في التعقيد، فقالوا: أَعْقَدُ من ذنَب الضب. وهو لا يرد الماء، فقالوا: لا أفعلُ حتى يَرِدَ الضب. وهو يضل عن بيته إذا ابتعد عنه، فقالوا: أَضَلُّ من ضَب، والضب (الذكر والأنثى) يأكل أولاده فضربوا به المثل في العقوق، فقالوا: أعق من ضب. وأهل القرى والبادية من السعوديين يحبون لحمه كثيرًا ويفضلونه على لحم الضأن، ويتصيدونه في الصحارى، وأهل المدن منذ القدم يأنفون من لحمه ويترفعون عن اصطياده، ويهجون الأعراب لاصطيادهم الضب. ومن ذلك قول جرير يهجو الراعي النميري:

فوا عجبا أتوعدني نُمَيْرٌ ... براعي الإبل يحترشُ الضِّبابا

ولكثرة ما قرأت عنه في الكتب، وكثرة ما ضرب العرب به الأمثال، كنت أتطلع إلى رؤيته، وذات يوم جاءني أحد تلاميذي وبيده ضبٌّ يريد أن يريني إياه، فسررت برؤيته وشكرت تلميذي وأمعنت النظر في ذنبه المعقد، وحاولت أن أسقيه الماء فأبى، ثم سلمته للولد وذهبت إلى حيث يريد أن يذبحه لأرى مقدار الصحة في قولهم: إن الضب من أبطأ مخلوقات الله موتًا، فإن القدْر تغلي عليه سبع غلوات وهو لا يزال يتحرك، ووجدت والد الطفل قد ذبح الضب، ووضعه في الشمس كي يموت، ولكنه لم ينزف دمًا وهذه إحدى عجائبه، وراقبتُه أكثر من نصف ساعة وهو مذبوح ولا تزال عيناه مفتحتين ولا يبدو عليه أنه متأثر بالذبح. هم لا يسلخونه ولا يقطعونه ولا يستخرجون أحشاءه بل يلقونه في القدر كما هو.

ومنها: السباخ

والسباخ: مفردها سبخة، وهذه لا تكون إلا في المناطق الصحراوية ذات الأرض الجلَد، أي: الأرض اليابسة الجامدة، فهي موجودة في أماكن قليلة من الصحراء؛ لأن معظم الصحراء عبارة عن أرض رملية ضعيفة التماسك. السبخة عبارة عن بقعة

ملحية، يظهر ملحها على إثر نزول المطر، ولا يظهر أثناء الهطول، بل بعد الانقطاع بيوم أو يومين. ينظر الناظر إلى أرض السبخة فإذا هي بيضاء ناصع بياضها، وكأنها مكسوة بالثلج، إلا أنه ليس ثلجًا، ولكنه ملح، والأرض المكسوة بالثلج يسير عليها الناس والسيارات والدراجات ببساطة ويُسْر، أما السبخة فهي أرض زلَق، من الصعب جدًا أن يسير عليها الماشي ولا ينزلق، أما الدراجات النارية والهوائية الموجودة بكثرة في تلك البلاد، فلا يمكنها السير عليها بتاتًا، ولكن السيارات يمكنها السير عليها إذا كان السائق ماهرًا ومتمرسًا، وفي كل الأحوال، لا تدخلها السيارة إلا إذا لم يكن أمامها طريق أخرى تسلكها، وتظل السيارة تنحرف يمينًا وشمالًا وتسير ببطء شديد إلى إن تخرج من السبخة التي لا تتجاوز مساحتها كيلو مترًا مربعًا في الغالب. ولا تمر إلا أيام معدودة حتى يختفي الملح وتعود الأرض إلى طبيعتها حتى يهطل المطر مجددًا. إن منظرها جميل وغريب لمن هو ليس من أبناء تلك البلاد.

ومنها: الكمأة

وهي النبات الذي يحتوي على أعلى نسبة من البروتين الذي هو ألذ طعمًا من البروتين الحيواني.

إنها من نباتات الصحراء ليس لها ساق ولا أوراق ولا جذور ولا بذور، ولا يعرف أحد كيف تنبت، وهي في حجم حبة البطاطا المتوسطة، يعرف أهل تلك البلاد مكانها من تشقق الأرض فوقها، وموسمها فصل الربيع، يخرج كثير من رجال القرى لالتقاطها وبيعها فهي تشكل للكثيرين مصدر رزق في سنوات الشتاء الجيد. وكانت في مطلع السبعينات تُباع بسعر لحم الضأن (الكيلو غرام من كليهما كان بخمسة ريالات ونصف) ثم علمت أن ثمنها ارتفع فيما بعد بشكل خيالي. ولا تتغير جودتها ولا مذاقها اللذيذ سواءُ أكانت مشوية أو مقلية أو مطبوخة، إنها بطعم كلاوي الغنم، ومن أكلها ولم يعرف أنها الكماة لم يخامره أدنى شك أنها من أطايب اللحوم. لقد بذل علماء النبات كل جهد ممكن لاستنباتها ولكنهم فشلوا، مع أن أنباءً وردت في بعض وسائل الإعلام تقول: إنهم نجحوا في استنباتها، إلا أنه لم تثبت صحة هذه الأقوال ــ في حدود

ما أعلم_ ولو نجحوا في استنباتها لكانت إنجازًا هامًا وغذاءً ليس ثمة ما هو أطيب منه، ومصدر رزق لأمم من المزارعين.

ومنها: السيول

كنت والزملاء، نجلس ذات يوم، في الدار التي أسكنها، والفصل شتاء، والوقت بين العصر والمغرب، وكان ثمة مطر خفيف يتساقط، ولم يلبث أن توقف من غير أن يبلل الأرض، وعند أذان المغرب توجهنا إلى المسجد، وقبل أن تقام الصلاة دخل المسجد آذن عندنا في المدرسة كان ذا مهارات متعددة، فقال بصوت عالٍ وبلهجة حازمة: يا عيال: قادم علينا سيل وعر، لنُصَلِّ فرضي المغرب والعشاء جمع تقديم ولينصرف كل منا إلى داره ليعمل على تحصينها قبل أن تتدفق المياه. وتساءلت فيما بعد: كيف عرف بقدوم السيل والسيل لا يزال بعيدًا؟ فقيل لي: إنه يُلصِق أُذُنه بالأرض فإذا كان هنالك سيل قادم فإن أذنه تلتقط اهتزازات السيل، ولو كان السيل لا يزال بعيدًا، وبما عنده من فطنة وخبرة يستطيع بحسب قوة الاهتزازات أو ضعفها أن يقدِّر قوة السيل أو ضعفه.

وسألت: ما الذي دعا عبد الله خلف (ذلك اسم الآذن الذي أتحدث عنه) أن يلصق أذنه في الأرض في هذا اليوم؟

فقيل: إن هذا الشخص لديه مهارة كبيرة في تحديد مواقع تساقط الأمطار، فهو ينظر إلى الغيم في السماء ويعرف إن كان غيمًا ماطرًا أم لا، ويُقدِّر أين سيسقط المطر، وقد نظر في ذلك اليوم إلى السحاب فقدَّر أن المطر يسقط في حائل البعيدة عن الموقع الذي نحن فيه عدة مئات من الكيلو مترات، ولأن المطر في حائل كثيرًا ما تنتج عنه سيول تجتاح مناطق في القصيم، ألصق ذلك الرجل الذكي أذنه في الأرض والتقط اهتزازات السيل وهو لا يزال بعيدًا، وعلم من قوة الاهتزازات أنه سيل وعر.

وبعد أن صلى بنا الإمام فرضَيْ المغرب والعشاء صلاة خفيفة مختصرًا القراءة، انصرف كل واحد من أهل القرية إلى داره وحمل مِسحاته (مجرفته) وأخذ هو وجميع أفراد أسرته يجمعون التراب ويلقونه على أطراف البيت المقام من الطين، وخرجت أنا وزميلي لنرى السيل فلم نجد شيئًا، فمشينا إلى خارج القرية وهناك وادٍ جاف يبدأ من

منطقة حائل وينتهي عندنا، فرأينا ماء يترقرق وبكميات قليلة إلا أن جريانه متواصل، فعدنا إلى القرية وما كدنا نصل حتى بدأت المياه المتدفقة تغمر الطرقات بارتفاع يزيد على متر، وبدأت الدور التي ليس لها تحصين كاف تنهار، والناس يكافحون أمام بيوتهم، وبعد العشاء بما يقارب الساعة بدأت المياه تنحسر وأسفر السيل عن انهدام أربع دور (وكانت دورهم من الطين كلها ولم يكن الإسمنت قد وصلهم). من الجدير بالذكر أن القرية تقع في مسيل الوادي مع أن حولها مرتفعات رملية لا يبلغها السيل ولكن يختارون المناطق المنخفضة على الرغم من كثرة السيول التي تجتاحها؛ لأنها مناطق خصبة، فمسيل الوادي وفر من حولها أرضا تحتوي على المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض كما أنه وفر أرضًا صالحة للزراعة، والنخيل _بطبيعة الحال_ أهم ما يزرعون، ومن ملك منهم حديقة فإنه يحفر فيها بئرًا فيسقي نخيله ويزرع الخضراوات وقليلًا من القمح، وكانت هذه الزراعة عماد حياتهم قبل أن يكون لهم دولة قادرة على مساعدتهم، وهذا يستحق المغامرة بالسكن في مسيل الوادي لا في المرتفعات التي لا تصلح لحفر الآبار.

وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لماذا لا ينزلون في المرتفعات ويزرعون في المنخفضات؟ السبب أنهم كانوا فيما مضى بأمس الحاجة إلى أن يكون الرجل قرب مزرعته لحمايتها من غارات لصوص البدو الذين كانوا يعتاشون على النهب والسلب قبل أن تنشأ الحكومة السعودية ذات السطوة، وكثيرًا ما كانت تقع المواجهات بين البدو وأصحاب القرى ولا يزال أهل القرى يحتفظون بذكريات مريرة عن تلك الأيام.

لدى مشاهدتي السيل وكيف غمر المنخفضات وهدم عددًا من الدور ولم يصل المرتفعات والتي تسمى (التِّلاع) ومفردها (تَلْعة) فهمت بيت شعر للشاعر الجاهلي طَرَفَة بن العبد البكري وكان قد استعصى عليَّ فهمه قبل ذلك، وهو قوله في معلّقته:

ولستُ بحلاّل التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفِد القومُ أرفد

لم أكن أفهم معنى قوله: ولست بحلال التلاع مخافة حتى رأيت السيل فعلمت أنّ من يخاف السيل ينزل في التلاع، وبذلك استقام عندي المعنى: لست ممن ينزل التلاع مخافة السيل، فيسكن المرتفعات أي: لست ممن يتخذ منزله بعيدًا عن الناس ليتحاشى الضيوف ولكنني أرفد (أُعين) من يطلب عوني.

الآبار في الصحراء

مصادر المياه في المناطق الجبلية كمعظم أرجاء بلاد الشام إما الينابيع المتدفقة أو الأنهار والبحيرات أو الآبار التي تمتلئ بما يتدفق من المياه على سطح الأرض في فصل الشتاء أو _فيما بعد_ الآبار الارتوازية، أما في المناطق الصحراوية، في مناطق محددة من الأرض يعرفها أهل الصحراء فالمصدر الوحيد قبل عصر الآبار الارتوازية: القِلبان، ومفردها قليب، القليب بئر لم تكن عميقة الغور وتُحفر بالفأس والمسحاة. ولا يكاد حافر البئر ينزل بمعوله مترًا أو أقل حتى تبدأ التربة تخرج شبه طينية ثم يستمر الحفر فإذا هي طينية ورويدًا رويدًا تزداد نسبة الماء في الطين إلى أن يصبح الماء هو الغالب، فيصنع الرجل في وسط القليب حفرة يتجمع فيها الماء، وكانوا قبل عصر الآلة يستخرجون الماء بالسانية التي تشبه الطاحونة يربط بطرفها الجمل أو البقرة فتدور الدابة وتدور معها السانية المربوط بها دلاء للماء وأثناء الدوران تصعد دلو مليئة تسكب ماءها في الحوض الملاصق لفوهة البئر، وتهبط إلى البئر دلو فارغة فتمتلئ وتصعد وهكذا (الدلو والبئر كلاهما مؤنث). كانت الجمال هي وسيلة استخراج الماء من آبار المدينة المنورة، لذا كانوا يسمون الجمل (الناضح) أي الذي ينضح الماء (يصبه بقوة) في الحوض الملحق بالبئر لينساب في بساتين النخيل والخضروات.

هذا النوع من الآبار تتجمع فيه المياه تدريجيًا ويمكن استخراج كل ما تجمع في ساعة واحدة والانتظار إلى اليوم التالي حتى تمتلئ الحفرة من جديد، وكانت تلك الآبار المصدر الوحيد للماء لسكان الصحراء. وعندما تآمر إخوة يوسف عليه قرروا أن يطرحوه في الجُب كي يلتقطه بعض السيارة وهم يعلمون أنه لن يغرق حتى لو ألقي في الحفرة التي يتجمع فيها الماء لأنها مهما كانت عميقة فلن تكون على عمق يغرق فيه إنسان، ثم إنهم لم يلقوه في وسط الجب حيث الحفرة المليئة بالماء بل ألقوه في (غيابة الجب) أي في أطرافه التي لا يراها الناظر، ولا يصل إليها الماء، وعندما جاء السيارة وأرسلوا واردهم الذي عليه أن ينزل إلى البئر، وأدلى دلوه، وجد غلامًا في طرف البئر فنادى على القافلة فأخرجوه سالمًا.

والماء قد ينفد سريعًا، وتختلف الآبار بعضها عن بعض في سعتها ومقدار ما

يتجمع فيها من الماء في اليوم الواحد، لذلك فإن الرعاة والوُرّاد كانوا يتزاحمون على البئر والأقوى هو من يملأ أوعيته أو يسقي غنمه أولًا. وكان الشعراء العرب يهجون من يريدون هجاءه بأنه يتجنب الزحام على البئر لعجزه وضعفه، وأن غيره يسقي ماشيته أما هو فتظل ماشيته عطشى.

وعندما ورد موسى، عليه السلام، ماء مدين وجد عليه عددًا كبيرًا من الرعاة يسقون ووجد فتاتين لا يمكنهما مزاحمة الرعيان، فهما تمنعان غنمهما من الوصول إلى الحوض إلى أن ينصرف الرعاء، وكان موسى من أولي العزم، فدفع جميع الرعاء عن البئر وسقى للفتاتين.

ولقد جعل الله الناقة فتنة لثمود، إذ جعل لها يوم ورد ولهم يوم. ويوم وردها تشرب كل ما يتجمع في بئرهم أو من آبارهم من ماء، مما أصابهم بالضيق ودعاهم إلى عقر الناقة.

وفي بدر، قبل بدء المعركة جعل المسلمون الحجارة والرمال في جميع الآبار المنتشرة في المنطقة، إلا بئرًا واحدة هي أكبرها وأكثرها ماء، أقام المسلمون عليها ومنعوا الكفار من أن يصلوا إليها، وفوجئت قريش بأن الآبار غائرة لا ماء فيها، ولم يكن ثمة وسيلة لاستخراج الماء منها إلا بإعادة تنقيتها مما وقع فيها، ثم الانتظار إلى أن يتجمع فيها الماء من جديد، ولم يكن الوقت يسعفهم لذلك، فكان فقدانهم الماء أول عوامل هزيمتهم.

في نجد كانت القرى تنشأ حيث يمكن حفر الآبار واستخراج الماء ومعظم أرض الصحراء كثبان رملية لا تصلح لذلك، وعلى الرغم من أن مياه تلك الآبار فيها مرارة واضحة إلا أنهم كانوا منها يشربون ويصنعون طعامهم وقد اعتادوا على طعمها.

(يسمونها: القِلبان والمفرد قليب، وإذا أحيطت جوانبه بالحجارة لحفظه من الانهيارات فهو الطَّوِيْ).

وفي الستينات من القرن الماضي صارت الحكومة السعودية تمد القرى بصهاريج الماء من الآبار الارتوازية التي حفرتها، وماؤها خفيف عذب صحي؛ لأنه يخرج من

البئر في تلك المناطق بدرجة حرارة قريبة من الغليان، فمياهه معقمة، فلم يعد أهل القرى يشربون من ماء القليب (ويسميه أهل تلك المناطق: الجليب، بتحويل القاف جيمًا) لكنه ظل لسقي الروضة (البستان)، واستعاضوا عن الدابة والسانية بمضخات المياه التي تعمل بالبنزين، وهم يزرعون أنواعًا من الخضراوات وخاصة البندورة التي هي مكون رئيس من مكونات غذائهم، ويزرعون القَتّ الذي هو علف أغنامهم وأبقارهم، وبتوفر الماء والحرارة، كانت مزروعاتهم تنمو نموًا خصبًا ملفتًا للنظر.

انتقلت في سنة تالية إلى مدرسة في قرية أخرى اسمها «القُصَيْبة» وكان فيها ثلاثة مدرسين سعوديين وخمسة فلسطينيين وسوري واحد، وكان اثنان من السعوديين ملتزمين ويؤديان عملهما بإخلاص قدر طاقتهما. أما الثالث، فكان لا يؤدي عمله بإخلاص ولا بكفاءة، وكثيرًا ما كان يترك الصف ويذهب إلى البادية القريبة يصيد الضب، وربما جاء بالضب ولحق بأحد المعلمين الفلسطينيين بعد أن اكتشف أنه يخاف منه، فتجد ذلك المعلم يدور في ساحة المدرسة ذعرًا وذلك المدرس الذي بيده الضب يجري خلفه، والمدير يناشده أن يدخل الصف ويعتني بتلاميذه ويتقي الله فيهم، وهو لا يكترث لأنه يعلم أنه في مأمن من العقاب، فهو سعودي مدلل، لا يمكن فصله من المدرسة ولا حتى إنذاره. وكان عمّه آذنًا في المدرسة فيقول له: ألم تسمع بالفارس الشهير فلان؟ إنه كان يغشى العسكر ويخاف من الضب.

كانت الترتيبات جارية على قدم وساق لأخذ المديرين ضعاف التأهيل إلى الرياض في مطلع العام الدراسي التالي، ولمدة سنة كاملة لحضور دورة تأهيل وتحسين كفاءة (وكل المدراء سعوديون، وكلهم كان ضعيف التأهيل، وجلُّهم كان ضعيف الكفاءة) وكان معلومًا أن المدارس ستحتاج إلى مديرين، وكنا نتوقع أن يعيَّن ذلك المعلِّم مديرًا وكنت أقول له: إذا أصبحتَ مديرًا فسوف يتعب المعلمون معك تعبًا شديدًا؛ لأنه لا أسوأ من (الهامل) إذا تحكَّم وبالفعل حصل ما توقّعنا وعُيِّن أبو الحسن مديرًا فكان أسوأ المديرين وأشدهم وطأة على المعلمين إلى درجة أنهم ذهبوا بمجموعهم إلى مدير التعليم في القصيم يشكون إليه ذلك المدير الذي كان وهو معلم، يترك تلاميذه ويخرج لاصطياد الضب، فيغضب مدير التعليم من الشكوى الجماعية باعتبارها شكلًا من أشكال التكتل الممنوع منعًا باتًا في السعودية.

كان مـن غرائـب التدريـس في مـدارس القـرى السـعودية أن الطالـب يأتي إلى المدرسـة في أي سـنٍّ أراد، ويتغيـب عنهـا مـا شـاء ومتـى شـاء، إذا كان ممن يرحـل إلى الباديـة في الربيع، ثـم يعـود إليهـا دون سـؤال. كان في الصـف الأول الابتدائـي في مدرسـة القُصَيبيـة أطفـال في سـن الروضـة، فيدخلـون المدرسـة مستمعين، ومراهقـون في سـن البلوغ.

جاءنـا تلميـذ ذات يـوم وقـد مـضى عـلى بـدء العـام الـدراسي شـهور عديـدة، فقـد جاءنـا في فصـل الشـتاء. وقيـل لنـا ونحـن في غرفـة المعلمـين: إن صبيًـا في سـن البلـوغ أو بالقـرب مـن ذلـك دخـل الأول الابتدائـي، وكنـت أعلِّمُهـم الرياضـة. ذهبـت إلى الصـف فوجـدت ذلـك التلميـذ الجديـد، وجدتـه صبيًـا في أول الشـباب، وعندمـا دخلـت الصـف قـام الطـلاب، أمـا هـو فلـم يقـم، وطلبـت منهـم أن يخلعـوا معاطفهـم وكوفياتهـم ففعلـوا، أمـا هـو فلـم يفعـل. وطلبـت منهـم أن ينتظمـوا في صـف واحـد ويخرجـوا إلى السـاحة ففعلـوا، وبقـي هـو في مكانـه.

دعوته وسألته: لماذا لم تخلع الجاكيت والغُطرة (الكوفية)؟

فقال: لا أريد.

- لماذا؟

- بَس (معناها: هكذا، أو: من غير نقاش)

- ما اسمك؟

- نوفان

سألته: هل دخلت مدرسة قبل الآن؟

فقال: لا

قلـت لـه: إذًا، أريـد أن أعلِّمـك يـا نوفـان: الأسـتاذ لا يقـال لـه لا، ولكـن إذا طلـب شـيئًا يقـول لـه التلميـذ: حـاضر، وإلا، فإنـه يغضـب وقـد يعاقـب الطالـب.

قال: كِذا؟ قلت: كذا، والآن أخلع الجاكيت والغُطرة. فقال: حاضر.

ثم أمرته أن يلحق بزملائه فلحق بهم. لقد عرفناه مع الأيام ولدًا بسيطًا طيبًا مؤدبًا وكان ثمة ولدان آخران في مثل سنه في الأول الابتدائي وثلاثتهم كانت تبدو عليه السذاجة.

وأطرف من هذه أن مجموعة من الرجال جلسوا في دكان في قرية أبا الدود، وكنت في ذلك المجلس، وأخذوا يتذاكرون السياسة، ولم تكن السياسة عندهم تتجاوز الثناء على آل سعود، وورد على لسان أحدهم ذكر الملك عبد العزيز، فقال: الملك عبد العزيز، طوّل الله عمره، فقال آخر مستغربًا: عبد العزيز في الجنة. فرد عليه: طوّل الله عمره في الجنة.

كنت أجلس في فناء المدرسة في يوم ربيعي مشمس، وبيدي كتاب «كفاحي» لهتلر، وكان يجلس إلى جانبي زميل كهل من أهل تلك البلاد، فنظر إلى صورة هتلر فأعجبته، فسألني: من هذا يا يوسف؟ قلت له: هذا هتلر، فنظر إليه ثانية وتمتم: زين، فأيقنت أنه لم يسمع به من قبل، فقلت له مداعبًا: هذا سعودي يا أبا محمد. فرمقه بنظرة ثالثة وقال: زين. فقلت له: هو من قبيلة عَنَزة، ولقد خطب فتاة من قبيلة عُتَيْبة فلم يزوجوه. فقال: عُتيبة أَشيخُ من عَنَزَة.

هيبة الحاكم السعودي

عندما وصلت القصيم لأول مرة في شهر أيلول 1969، كانت محاولة الانقلاب الفاشلة الشهيرة، ولم يكن سعودي يجرؤ على أن يتفوه بكلمة انتقاد للحكومة أمام سعودي، وكانت أخبار الإعدامات غير الإنسانية التي أمر بها الملك فيصل تسري بين الناس همسًا.

جاءنا أعرابي سعودي إلى المستوصف وكنت فيه أنا والممرض فايز السويطي، فقال: لي ابنتا عم اثنتان جاءهما أمر من الحكومة أن تلتحق كل منهما بأهلها، وهذا يعني أنهما أصبحتا أرملتين. ثم أردف: إنها حكومة تُطعِم ولكنها تقطع الرأس. ولولا أننا غير سعوديين لما تجرأ على أن يتفوه بهذه الكلمات.

وأهل نجد بعمومهم يحبون الأسرة الحاكمة حبًا حقيقيًا؛ لأنها تؤثرهم على

سكان بقية المناطق. لقد أخبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن نجدًا تخرج منها الفتنة، وهم يعرفون الحديث ويروونه، وما أظن أن المسلمين تعرضوا لفتنة أشد وطأة عليهم من الوهابية التي نشأت في نجد، على الرغم من أنها ترفع شعار محاربة البدع وتدعو إلى الاحتكام إلى الكتاب والسنة، فهي تكتفي بالمظاهر كاللحية وأمثالها، أما أن يبيع الحاكم حاضر المسلمين ومستقبلهم وثرواتهم لغير المسلمين وأن يرتمي في أحضان أعداء الله، فهذا لا يعتبر شيئًا يُنقص من قدره عندهم ولا يقلل من وجوب طاعته باعتباره ولي الأمر، والوهابية حركة تكفيرية، لا تكفر أصحاب المذاهب الأخرى كالشيعة فحسب، ولكنها تكفر من أهل السنة من لا يلتزم بمنهجها التزامًا كاملًا. وكان الوهابيون يهاجمون جيرانهم في الأردن وفي اليمن ويقتلون منهم من استطاعوا قتله، بتهمة أنهم أعداء الله يتركون الصلاة، من غير تدقيق أو تمحيص، وكأنهم لم يسمعوا بالأمر الإلهي ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

لقد تحالف محمد بن عبد الوهاب _منشئ هذا المذهب_ مع السعودي محمد بن سعود في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، في خروج الأخير على الدولة العثمانية، وعلى الرغم من أنها دولة مسلمة سنية، أجاز محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود ومن بعده ابنه عبد العزيز، أن يثور عليها ويقتل الجنود الأتراك المسلمين كي يقيم دولته القومية الإقليمية، ويسوق الباحثون الأدلة على أن تلك الحركة نشأت برعاية الإنجليز وتشجيعهم ودعمهم نكاية بالدولة العثمانية.

ومع صعود الشيوعية، ونشأة دول عربية مناوئة للغرب، صارت الحكومة السعودية تنفق بسخاء على (طالبان) أي؛ الطلاب، والمقصود طلاب المدارس الدينية في باكستان وتنشّئهم على الوهابية ذات الأفق الضيق والمنهج التكفيري الدموي الذي تكتوي الأمة بناره الآن في العراق وباكستان وأفغانستان وأجزاء من إيران، على يد القاعدة التي أنشأها الوهابي أسامة بن لادن، فهي تجيز تفجيرات الشوارع وتفجيرات مساجد الشيعة وقتل الرجال والنساء والأطفال، بحجة الخلاف المذهبي.

في مطلع السبعينات من القرن الماضي، لم تكن ثمة طالبان ولا قاعدة، وكان الفكر

الوهـابي المكفِّـر موجـودًا بشكل أسـاس في نجـد. لم يكـن معظـم الوهابيـين يكفروننـا نحـن القادميـن مـن بـلاد إسـلامية سُنِّيّة تكفـيرًا بمعنـى الكلمـة بـل كانـوا يعتقـدون أننـا مسـلمون إسـلامًا ناقصًـا إلا أن بعضهـم بلـغ بـه التعصـب درجـة ألا يـرى خـيرًا ولا إسـلامًا في غـير الوهابيين. وكانـوا يفرضـون عـلى الـكل أن يصـلي في المسـجد خمسـة الأوقـات، ومـن تخلـف صلـوات متعـددة، سـعوديًا كان أم أجنبيًـا نزلـت بـه عقوبـة الجلـد، فبعـد أداء الفريضـة مـن صـلاة الفجـر ثمـة شـخص في كل مسـجد مـن هيئـة الأمـر بالمعـروف يتفقـد المحسـوبين عـلى مسـجده واحـدًا واحـدًا بـأن يناديـه باسـمه فـيرد الشـخص مشـعرًا إيـاه بأنـه حـاضر، وبهـذا يُعـرف الغائبـون ويراجعـون، وقـد نفـذت هـذه العقوبـة في حـالات قليلـة عـلى زمـلاء لنـا مـن المدرسـين.

أمـا الإمامـة في الصـلاة، فهـي مقتصـرة عـلى الوهابيـين مـن أبنـاء تلـك البـلاد، فإنهـم لا يثقـون بديـن أجنبـي ثقـة تبلـغ حـد أن يصلّـوا خلفـه. وإذا اضطـر الوهـابي إلى الصـلاة خلـف أجنبـي في ظـروف قاهـرة فإنـه يعيـد صلاتـه.

جاءنـا إلى مدرسـة القصيبـة مـدرس سـوري كبـير اللحيـة وشـديد الالتـزام بالعبادات فأحبـه آذن المدرسـة الـذي كان في الوقـت نفسـه «مُطوِّعًـا»، وهـذه وظيفـة في هيئـة الأمـر بالمعروف وهـي هيئـة حكوميـة، مسـؤوليتها الدعـوة إلى صـلاة الجماعـة ومعاقبـة المتخلفـين، واسـم المـدرس: حسـين، فصـار المطـوع يدعـوه إلى الإمامـة والآخـرون يسـكتون عـلى مضـض مـرة بعـد مـرة، ثـم ثـاروا عـلي الآذن قائلـين: إنـك تدعـو أجنبيًـا إلى الإمامـة، ونحـن لا نعـرف مـا أصلـه ومـا فصلـه. فلـم يعـد يدعـوه إليهـا.

لم تكـن تجـد في شـوارع مـدن في القصيـم كبريـدة وعنيـزة امـرأة مكشـوفًا وجههـا، أمـا في مـدن كالريـاض مثـلاُ فكانـت نسـاء عربيـات وغـير عربيـات ينزلـن إلى الشـوارع بأزيـاء غربيـة، وهـؤلاء لا يتعـرض لهـن المطوِّعـون باعتبارهـن غـير مسـلمات، وتجـد مسـلمات عربيـات مـن مصـر والشـام وبـلاد أخـرى، ربـما مشـين في الشـارع بوجـوه مكشـوفة مـع زي إسـلامي، وأمثـال هـؤلاء يتعـرض لهـن المطوعـون ويأمرونهـن بسـتر الوجـه.

كنـت وزميـل لي مـرة في الريـاض فوقفنـا في الشـارع ننظـر إلى مطـوِّع ينهـر مجموعـة

من النساء اللواتي يغطين شعورهن لكنهن يكشفن وجوههن، ويبدو أنهم معلمات شاميات، وكان المطوع فارع القامة مهيب الطلعة، وهذه صفة موجودة في الكثيرين من أهل نجد، وكان شيخًا ربما تجاوز السبعين، بلحية حمراء، وبيده عصًا يلوح بها، ويأمر الفتيات بلهجة حازمة: غطين يا مال الصلاح الذي يصلحكن، ثم يشير بالعصا مهددًا تهديدًا يعلم الجميع أنه للطرفة، لا للتنفيذ، وقد انضمت النساء بعضهن إلى بعض ولا تزال وجوههن مكشوفة ولم تنبس إحداهن ببنت شفة، وكان المطوع يكرر أوامره بلهجة لم تكن كريهة ولا بذيئة، وبضحك بعض الحاضرين فيشاركهم المطوع الضحك ولكن مشاعر الناظرين تجاه ذلك المطوع كانت الاحترام.

أهل نجد يتمتعون بأفضلية حكومية في الخدمات وفي الوظائف؛ لأنهم حماة الوهابية التي تتيح لحكام السعودية حرية التصرف في مجال السياسة من غير تدخل من المشايخ أو من عامة الشعب إيمانًا منهم بطاعة أولي الأمر، وكل وهابي مقتنع بأن الحكومة السعودية هي حامي حمى الدين، وأنه لا وجود حقيقيًا للإسلام إلا في المملكة السعودية عمومًا وفي نجد على وجه الخصوص، لذا، فأهل نجد يدعون لحكومتهم بالعز والتمكين بمناسبة وغير مناسبة.

مما امتاز به أهل نجد، خاصة الشيوخ منهم، البساطة في المظهر. كان في القرية شيخ جليل مهيب اسمه فهيد، يعتبر شيخ المنطقة كلها، وله أولاد تجار موفقون لا يعصون له أمرًا، جاءنا يومًا إلى المسكن يدعونا إلى الغداء، وتقدمه رجل يدعونا على إخفاء الدخان والراديو، فإن فهيد لا يطيق أن يرى أيًا منهما، ولم يلبث أن دخل الدار، فإذا هو حافٍ، ولم يكن الأعرابي يجد غضاضة في الحفى، حتى لو كان شيخ قبيلة.

كنت أحس منه الود تجاهي وأضمر له الود والاحترام، ذهبت إلى دكان ابنه ذات يوم صباحًا، فوجدت الشيخ يقف على باب الدكان، يلبس دشداشة بيضاء جديدة تمامًا وتحتها سروال أبيض جديد ناصع البياض أيضًا وكانت الدشداشة لفرط رقتها تكشف عن السروال تحتها، واستغربت من هذا البياض الناصع وسألت أحد الحاضرين: ما لأبي عبد الرحمن يلبس جديدًا في جديد؟ لا بد أن وراء الأكمة شيئًا.

فقال لي: لقد عيّنت الحكومة أميرًا جديدًا لإمارة القصيم وهو ابن عم الملك (كان الملك فيصل وقتها) والشيخ فهيد متوجه إلى بريدة للسلام عليه ودعوته إلى القرية. أطرف ما في الأمر أن الثوب الذين كان يلبسه والسروال من تحته كانا يتسخان حتى لا يمكن تنظيفهما بالغسيل، وكان الأعرابي يلقي بملابسه المتسخة ويستبدل بها ملابس جديدة في العيدين وفي مثل تلك المناسبة.

كان من زملائنا في مدرسة أبا الدود، زميل سوري اسمه «محمد رشاد»، سأله الشيخ فهيد ذات مرة: ما اسم رئيسكم يا محمد؟ فقال له: هو نور الدين يا أبا عبد الرحمن.

(نور الدين الأتاسي) فقال الشيخ: غير صحيح، والله ما في نور للدين إلا في هذا البلد.

ومن الطرائف أن أحدهم حدّث مرةً في مجلس كنت حاضره، عن حادث سير وقع في منطقة الدمام، وقال المحدّث: ثم جاء الجيش فأغلق المكان وبدأ بالتحقيق في الحادث، فانطلقت ألسن الحاضرين بالثناء على الحكومة والدعاء لها بالعز والتمكين.

كانت وسيلة التسلية ولا زالت لعب الورق وهم يعشقون لعبة اسمها (البلوت) ولهم فيها ولع يتجاوز حد المعقول، فعليها سهرهم في الليل، ولا يكاد يجتمع أربعة منهم في وقت من النهار إلا على لعب البلوت ولا يسأمون. إنها الشيء الوحيد الذي يملأ حياة الكثير منهم، ولا يزال.

في السعودية أمران لا يجرؤ المواطن على أي منها: انتقاد الحكومة والتنديد بالولايات المتحدة. فكلا الأمرين مخاطرة لم يكن يُقدم عليهما أحد. ولم يكن موقف الولايات المتحدة الداعم للعدوان الصهيوني والمعادي لأحلام المسلمين كفيلًا بأن يقلل من الارتباط المادي وبالتالي العاطفي مع الولايات المتحدة، ولا تزال هذه الحالة قائمة وأظنها ستبقى ما بقي الملك في آل سعود.

كان في كتاب القراءة الابتدائية درس نتحدث عنه نحن المدرسين غير السعوديين،

باستغراب وأسف، لما فيه من تبجيل وتأييد لأمريكا، ولو كان النص في مجلة أو كتاب غير مدرسي لهان الأمر، لكنه في كتاب مدرسي يراد منه أن يعمل على تشكيل مفاهيم في عقلية الأجيال الناشئة أقل ما يقال فيها إنها خيانة للمسلمين.

عنوان الدرس الحلاق الثرثار

أما نصه: فهو أن رجلاً على إثر الحرب العالمية الثانية دخل محل حلاق، وعندما جاء دوره أجلسه الحلاق على الكرسي وأخذ يحلق رأسه بطريقة عجيبة، فرسم خريطة على رأسه وأخذ يشرح للحاضرين أين كانت جيوش الألمان وجيوش اليابان وجيوش الطليان وأين أنزلت القوات الأمريكية جيوشها، وكيف ضربت هيروشيما بالقنبلة الذرية، وهنا بلغ الحماس عند الحلاق أوجه فصاح: هنا أوقع الأمريكان بأعدائهم الضربة القاضية، وضرب الزبون على رأسه بأصابعه ضربة قوية جعلته يهرب عن الكرسي وينطلق في الشارع مولولًا وهو يلعن القنبلة الذرية والألمان واليابان والطليان وهيروشيما.

كنت قرأت هذه الطرفة في مجلة ولم يكن نصّها بهذا الشكل، ولكنها في القراءة السعودية حورت لتملأ نفوس الطلاب حماسًا للأمريكان وفرحًا بنصرهم وتوقيرًا لهم من أن يُلعنوا كما لُعن غيرهم.

في نهاية السنة الأولى من عملي في السعودية (1969–1970) توجهت إلى عمان ومكثت في بيت خالتي الذي هو بيت خطيبتي، بضعة أيام، ثم توجهت إلى الأهل في الضفة الغربية، وكانت الأزمة في الأردن بين التنظيمات الفدائية والجيش الأردني قد بدأت تتفاقم وأصبحت الاشتباكات شبه يومية، ولدى عودتي إلى الأردن كانت أسرة خالتي قد سافروا إلى الكويت حيث يعمل عمي، فحللت ضيفًا على أقارب لي في الزرقاء وقد ازدادت الاشتباكات حدّة.

وقفت مرة مع كثير من الناس على حافة أخدود طويل وعميق كان بمحاذاة الشارع الرئيس في الزرقاء، وبالتحديد يقع بين الشارع الرئيس ومسجد الدراويش،

وكان في تلك اللحظة تبادل إطلاق نار كثيف بين معسكر الزرقاء المقابل ومقاتلين فلسطينيين متمركزين في الأخدود هم يطلقون النار باتجاه المعسكر والمعسكر يطلق النار باتجاههم وتأملت في تصرفات المقاتل الرئيسي من الفلسطينيين لأعرف كيف تكون مشاعر من يتوقع في كل لحظة رصاصة تنهي حياته. كان التوتر واضحًا عليه وهو يتكلم بعصبية مع الشباب المساندين له يحتج بشدة على أنه يفتقر إلى إمدادات الذخيرة التي تكاد تنفد، وعندما انثنيت لأتوجه إلى دار أقاربي مشى معي شاب في يده مفاتيح سيارة. وكان البشر واضحًا على وجهه على الرغم من تلك الظروف التي تبعث على الاكتئاب فبادرني بالشرح قبل أن أسأله: إن الله كتب لي عمرًا جديدًا فإني كنت قادماً من عمان إلى الزرقاء في سيارتي المرسيدس فتعرضت لإطلاق نار كثيف خرّقها من كل اتجاه ولكن الله كتب لي السلامة، ودُمرت السيارة كليًا. فهو سعيد أنه سيعود إلى أهله سالمًا والمال يعوَّض.

وكدت في اليوم التالي أخسر حياتي

في اليوم التالي كان أزيز الرصاص يُسمع من كل اتجاه رأيت أن أخرج إلى الشارع لطرد السأم، وقطعت الشارع إلى شارع آخر، وكان أزيز الرصاص يزداد شدة كلما حاولت التقدم إلى قلب مدينة الزرقاء، وشعرت أن مزيدًا من التقدم سيكون مغامرة بالغة الخطورة، ورأيت شبابًا يجلسون على طرف الشارع أمام دكان لأحدهم فقررت أن أجلس عندهم فألقيت عليهم التحية وجلست، ثم سألتهم عن بلدتهم الأصلية فقال لي أحدهم: من إذنا، قضاء الخليل. وتبادلنا القليل من الأحاديث وكان كل منا يميل إلى التأمل في هذه الحالة الماثلة للعيان، وفجأة وجه إلينا جندي قناص عن سطح منزل رصاص رشاشه، فصاح أحد القاعدين أن قد أصيب فإذا رجله تدمى وقد أصابت الرصاصة عصبها، فنادى والده من داخل الدار المجاورة ليبادر إليه بعصابة وجاءته العصابة وأسرعنا نحن بقية الجلوس إلى مغادرة المكان. ثم جعلت الكويت طريقي إلى السعودية.

حرب أيلول ووفاة عبد الناصر

منذ النصف الثاني من العام 1970، كان جليًا واضحًا أن الأمور في الأردن بين التنظيمات الفلسطينية والحكومة والجيش الأردني بدأت تتجه نحو الحسم، وكان حكام العراق قد ملأوا نفوس الفلسطينيين غرورًا بتهديدهم بقطع كل يد تمتد إلى المقاومة، وقد تكررت تلك التصريحات العنترية على ألسن كثيرين من المسئولين في الحكومة العراقية ولا سيما وزير الدفاع حردان التكريتي حتى اقتنع الفلسطينيون أنهم يستندون إلى جدار حماية متين، فقامت الجبهة الشعبية باختطاف أربع طائرات لشركة بان أمريكان وأنزلت الركاب منها ووُزِّعوا على فنادق عمان، ثم لغّمت الطائرات الأربع وفجرتها غير آبهة بالوساطات، وكان هذا العمل القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد تردت مكانة العمل الفدائي الفلسطيني دوليًا ومحليًا إلى الحضيض، عندها قرر الملك حسين أنْ يستغل هذه الفرصة، فشكل حكومة عسكرية جل أفرادها من الفلسطينيين الموالين للأردن واندلعت الحرب بين الفريقين.

كنا في السعودية نتابع أخبار الحرب الدائرة في الأردن، وبما أننا كنا فلسطينيين كانت قلوبنا مع المقاومة على الرغم مما يؤخذ عليها من أخطاء، وكان أعجب العجب أن الجيش العراقي بادر إلى التخلي عن المقاومة الفلسطينية بمجرد أن اندلعت الاشتباكات وهو الذي حرَّضها ونفخها بالغرور، وشجعها على المضي قدمًا في تهيئة أسباب المواجهة مع الجيش الأردني إلى درجة أن اليسار الفلسطيني أخذ يطالب حركة فتح بأن يعمل الجميع على إسقاط النظام الأردني وأن يتولوا السلطة بدلا منه متسلحين بالحماية التي سيقدمها الجيش العراقي لهم، ورفعوا شعار: السلطة كل السلطة للمقاومة.

وفي «مقلب» غدر لا شك فيه أعلن الجيش العراقي بمجرد أن اندلعت الحرب انسحابه من الأردن وسلّم مواقعه للجيش الأردني مما مكن الأخير من تطويق المقاومة الفلسطينية والإطباق عليها فتدخل الجيش السوري وفك الحصار عنها، وكان جزاؤه فيما بعد أن تحالفت التنظيمات الفلسطينية مع العراق وحليفه في لبنان ميشيل عون ضد سوريا والجيش السوري في لبنان.

سافرت ذات يوم من أيام تلك الحرب من القرية التي أعمل فيها؛ «أبا الدود»، إلى مدينة بريدة عاصمة القصيم وعند عودتي إلى «أبا الدود» في سيارة فيها سعوديان غيري وغير السائق سألني أحدهما: أنت مع من يا يوسف؟ وكان هواهم مع الملك لأنهم يعرفونه صديقًا لملكهم، فقلت له: أنا مع الفدائيين، فنظر كل منهما إلى الآخر نظرة استغراب، ثم قال أحدهما ملتمسًا العذر لي: هم أَبْخَصْ (أعرف) بحكومتهم. ثم قال لي: أنتم أبخص بحكومتكم ونحن أبخص بحكومتنا، فضحكت في قرارة نفسي من جهل هذين الرجلين اللذين هما نمطان لجهل معظم سكان تلك البلاد في ذلك الوقت بحقيقة حكومتهم وأعجب منه مقدار جهلهم بأنهم جاهلون، وقلت لهم مجاملًا على كل حال.

انتهت الحرب بخروج ياسر عرفات من عمان مع الوفد العربي الذي جاء للتوسط لوقف إطلاق النار، ثم جاء الملك حسين إلى القاهرة ووقع اتفاق مصالحة مع عرفات يقضي بخروج الفدائيين الفلسطينيين من المدن وتمركزهم في أماكن خارجها.

في 28/ 09/ 1970 في الصباح الباكر من ذلك اليوم مع طلوع الشمس كنت أعمل على تجهيز إفطار سريع كي أذهب إلى المدرسة التي تقع خلف البيت الذي أسكنه، وكنت قد أدرت المذياع لسماع آخر أخبار التحركات السياسية الخاصة بحرب أيلول من الإذاعة البريطانية، ففوجئت بصوت المذيع يقول: في لبنان خرج اللبنانيون إلى الشوارع وقد احمرّت عيونهم من البكاء وهم يهتفون: ناصر لم يمت فإن ذكره باق في قلوبنا.

واسترسل المذيع في وصف ردود الفعل المختلفة على نبأ وفاة زعيم الأمة العربية.

لقد كان الخبر مفاجئًا ومذهلًا، ألقيت الإبريق من يدي وجلست أحاول استيعاب الفاجعة وأستمع إلى المزيد من الأخبار حول الوفاة واستمر المذيع يستعرض الأخبار المتعلقة بوفاة الزعيم العربي الكبير الذي كان يقود حرب استنزاف بالغة الشراسة ضد القوات الإسرائيلية التي تتمركز على الضفة الشرقية من قناة السويس. توجهت إلى المدرسة فوجد المدير وهو سعودي طيِّب، أن اليوم لا يصلح للدراسة

فصرف الطلاب وعاد المدرسون كلٌّ إلى مسكنه جلسنا نستمع إلى الأخبار ونتصور الفراغ الهائل الذي سينجم عن وفاة جمال عبد الناصر.

أقيمت لعبد الناصر أعظم جنازة في التاريخ المعروف في ذلك الوقت، وكانت أعظم جنازة قبلها هي جنازة الرئيس الأمريكي جون كنيدي الذي اغتيل في مدينة دالاس بولاية تكساس سنة 1963، ولم تفُق جنازة عبد الناصر الذي شيّعه مليونان إلا جنازة الإمام آية الله روح الله الخميني سنة 1988، الذي شيعه ثمانية ملايين.

الزواج والعودة إلى الوطن

كانت خطيبتي في الكويت مع أهلها وتعمل مدرّسة في مدرسة تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية. في نهاية السنة الثالثة من عملي في السعودية سنة 1972، توجهت من بريدة إلى جدة وهناك ذهبت إلى السفارة الكويتية لأحصل على تصريح زيارة بغرض الزواج واستصحاب الزوجة إلى أرض الوطن، وبعد أن وجدني الموظف المسئول أعمل في السعودية ولدي إقامة سارية المفعول لعدة أشهر قادمة وافق على أن يمنحني تصريح مرور لمدة ثلاثة أيام، ولم تكن المدة تكفي إلا لكتابة الكتاب وإقامة حفلة وداع سريعة وبسيطة. وفي اليوم التالي 16/ 06/ 1972 وقد صادف عيد ميلادي السادس والعشرين توجهت وزوجتي إلى بيروت لقضاء شهر العسل، ثم عدنا إلى الأردن عن طريق سوريا التي قضينا فيها أسبوعًا ومنها إلى الضفة الغربية، وكان التخطيط في البداية أنها إجازة نعود بعدها إلى الكويت، لكنني تقدمت بطلب توظيف في مديرية نابلس وتم قبوله، فآثرت البقاء على أرض الصمود.

عملت في السنة الأولى في مدرسة الملك طلال الثانوية، وكانت سنة تجربتي الحقيقية في مجال التدريس إذ إن ثلاث سنوات في السعودية لم تعطِ خبرة تذكر. وككل مدرس مبتدئ واجهت صعوبات في التأقلم مع الوظيفة الصعبة ومتطلباتها الكثيرة والتي لم أكن على دراية بالكثير منها، وفي آذار من تلك السنة رزقني الله بالمولودة البكر وهي سلافة التي ظلت الابنة الوحيدة شقيقة لخمسة أشقاء رزقنا الله بهم بين 1973-1986.

لـدى ميـلاد سـلافة انتقلـت بالسـكن إلى البلـدة حيـث تجـد والدتهـا الرعايـة مـن والـدتي وخالتـي، مـع العلـم أن الـدار التـي كنـا نسـكنها كانـت صغـيرة ومعلقـة عـلى سـفح عـالٍ، وصرت أسـافر إلى المدرسـة مبكـرًا مـع نقلـة العـمال في بـاص الخـط ونصـل نابلس قبل الـدوام بسـاعة أو أكثـر، وكان ذلـك شـاقًا عـليّ، ثـم إننـي كنـت راغبًـا في الانتقال من مدرسـة كـبرى في المدينـة إلى مدرسـة أصغـر هـي مدرسـة قريـوت التـي افتتـح فيهـا صـف أول ثانوي في تلـك السـنة وقـد قوَّمـت تجربتـي في الملـك طـلال فوجـدت أن المشـاكل التـي واجهتهـا كانـت سـطحية ومحـدودة وأن قلـة خـبرتي هـي السـبب الرئيس، فاسـتوعبت الدرس بشـكل جيـد ممـا أفـادني إلى أبعـد الحـدود فيـما بعـد وبشـكل دام طيلـة اشـتغالي في التدريـس.

حرب أكتوبر والرجاء الخائب

في السـادس مـن أكتوبـر، تشريـن أول 1973 كانـت الحـرب التـي انتظرهـا النـاس جميعًـا، كان ذلـك اليـوم يصـادف العـاشر مـن رمضـان، وكان الجـو شـديد الحـرارة، بعـد الظهـر مـن ذلـك اليـوم كنـا في جالـود، كنـت أحـاول النـوم بعـد عنـاء يـوم دراسي، فسـمعت في الغرفـة التاليـة جلبـة وحديثًـا وحركـة غـير عاديـة، كان أخـي فـاروق وشـقيق زوجتـي سـعيد قـد سـمعا بالخـبر مـن الإذاعـة الإسرائيلية، فارتفـع صوتهـما للتعبـير عـن الدهشـة من المفاجـأة وعـن الفـرح بهـا وكان هدفهـما إسـماعي كـي أشـاركهما التفاعـل مـع الحـدث الـذي طـال انتظـاره.

خرجت إليهما أسألهما: ما الخبر؟ فقال أحدهما: بدأت الحرب.

يـا لهـا مـن مفاجـأة سـارة، وهـرع الجميـع إلى أجهـزة الراديـو ولم يكـن عنـد أحـد في قريتنـا تلفزيـون، الأنبـاء سـارّة. الإذاعـات المصريـة تؤكـد أن الجيـش المـصري عَـبَر القنـاة وأقـام رؤوس جسـور عـلى الضفـة الشرقيـة مـن القنـاة، هـذا يعنـي تحطيـم خـط بارليـف الـذي كان عبـارة عـن دشـم مسـلحة عـلى طـول الضفـة الشرقيـة مـن قنـاة السـويس.

كان الكثـيرون يـرون في خـط بارليـف حاجـزًا منيعًـا لا يمكـن اجتيـازه، أو في أحسـن الأحـوال يحتـاج اجتيـازه إلى مجهـود ضخـم وإمكانيـات غـير عاديـة، فبالإضافـة إلى الدشـم

المسلحة بالإسمنت وما يحيط بكل منها من ساتر ترابي قادر على صد المدفعية الثقيلة وغارات الطائرات، كان جيش الاحتلال الإسرائيلي قد زرع تحت مياه القناة شبكة من أنابيب الغاز المعدة للاشتعال في حال محاولة القوات المصرية عبور القناة، وكان القادة المصريون يقدِّرون أن اجتياز القناة سيكلفهم خمسين ألف قتيل، وها قد حصل العبور دون اشتعال أنابيب الغاز ودون أن يكلفهم عددًا يذكر من القتلى.

ذهبنا، بعد سماعنا نبأ الحرب إلى حيث يجتمع الرجال، ولم يكن ثمة شيء آخر يستحوذ على اهتمام الناس، الإذاعات المصرية لا زالت تردد أن الجيش المصري اجتاز قناة السويس وأقام عليها رؤوس جسور، الناس يريدون المزيد من التقدم، إنهم مستعجلون.

وانتهى اليوم والحرب قائمة على الجبهتين المصرية والسورية، وثمة أنباء متواترة عن تقدم الجيش السوري في هضبة الجولان، وبدأت الإذاعات السورية تبث النداء إلى مستوطني الجولان كي لا يبدوا مقاومة، وتعدهم بأنهم سيلقون أطيب معاملة.

في المساء لم يكن لدى الإذاعة الإسرائيلية ما تقول، فأخذت تخاطب كبار قادة الجيش المصري بأسمائهم ورتبهم وتنصحهم بأن يضغطوا على رئيسهم كي يوقف الحرب وكذلك فعلت مع قادة الجيش السوري. وصرح ضابط إسرائيلي في تلك الليلة بأن القوات المصرية قد تحتفظ حتى الصباح ببعض رؤوس الجسور التي أقامتها.

كل من استمع إلى الإذاعة الإسرائيلية أدرك أن الكيان الصهيوني يواجه مأزقاً عسكريًا لأول مرة في حياته في اليوم التالي توجهت إلى المدرسة كالمعتاد، وقبل مغادرة المنزل سمعت المذيعة الإسرائيلية تتحدث عن حلف شمال الأطلسي وما يملك من قوات في المنطقة، هذا جيد ويدل على تدهور الوضع العسكري للمحتل الإسرائيلي. كانت ذروة التقدم في اليوم الثالث، إذ أعلن بيان عسكري مصري عن تحطيم اللواء السابع الإسرائيلي وأسر قائد اللواء، العقيد عساف إيغوري. لم يكن بإمكان الجانب الإسرائيلي تكذيب النبأ، لكنه أضاف إليه أن الجيش الإسرائيلي فقد الجنرال أبراهام مندلر، أحد أكبر القادة الميدانيين.

بعد ذلك صارت الحرب على الجبهة المصرية تراوح مكانها وقد أعلن الإسرائيليون أنهم يركزون على الجبهة السورية ويقومون بدحر الجيش السوري وتحطيم آلياته، ولم نكن نحن المواطنين نصدِّق هذه الأخبار الصادرة عن العدو.

بعد الحرب بأيام كانت في يوم واحد خطبة للرئيس المصري أنور السادات في مجلس الشعب ولرئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مئير في الكنيست.

أما السادات فكان حديثه حديث الواثق من أنه سيحقق أهدافه من الحرب وهي إزالة آثار العدوان، أي؛ إخراج المحتل الإسرائيلي من الأراضي العربية التي احتلها في عدوان 1967.

أما غولدا مئير فركزت في خطابها على أن الجيش الإسرائيلي قوي وسيحرز النصر دون أدنى شك، وأهم ما ورد في خطابها أن قوة من الجيش الإسرائيلي تعمل على الجانب الغربي من قناة السويس، أي؛ في الجانب المصري.

كانت هذه المعلومة مصدر فزع لدى المواطن العربي، ولكن المتحدث المصري هون من أمرها وقال: إنها مفرزة صغيرة من جيش العدو استطاعت التسلل إلى الضفة الغربية وأن الجيش المصري يحاصرها ويعمل على القضاء عليها.

في الأيام التالية: ظلت الأمور على الجبهتين السورية والمصرية تسير من سيء إلى أسوأ.

من ناحية أخرى: أثار دهشة الناس وامتعاضهم منذ اليوم الأول للمعركة، هذه النبرة الإقليمية الخالصة في الخطاب المصري.

فالحديث موجه إلى (مصر ذات العيون المصراوية).

والخطاب: يا أبناء مصر وبناتها.

والأغاني: (ونجيب النصر هدية لمصر)

وأسوأ منها أغنية لمطربة لا أذكر اسمها تقول:

يا رايح على صحراء سينا
سلَم على جيشنا اللي حامينا
ولا يغلى عليه شيء فينا

والعبارة الأخيرة فيها تلميح بالغ البشاعة، وكأنه تقليد أو مضاهاة للفكر اليهودي في هذا المجال. فمكافأةً للجيش الإسرائيلي على انتصاره في حرب حزيران 1967، قدّم ألف يهودي بناتهم هدية لرفاهية الجيش الإسرائيلي، وهذه المطربة غير المحترمة تلمح تلميحًا أقرب إلى التصريح بأنها وأمثالها يقدمن أنفسهن هدية للجيش المصري.

كانت هذه الإقليمية وهذه الأغاني القائمة على الإباحية تثير استياء السامعين إلا أن الحرب الدائرة وما ينتظر الناس منها كانت تعطي مشاعر إيجابية من الأمل، تغطي على تلك المشاعر السلبية.

في النهاية: تمكن الجيش الإسرائيلي من إبعاد السوريين عن مستوطنات الجولان. وأحكم حصاره للجيش المصري الثالث.

وتوسعت القوات الإسرائيلية التي تعمل في الجانب الآخر من قناة السويس والتي كانت بقيادة الجنرال إرئيل شارون والتي دخلت الجانب المصري من ثغرة الدفرسوار.

ثم لم تجد مصر بدًا من الموافقة على وقف إطلاق النار ووقف زحف الجيش الإسرائيلي إلى القاهرة.

ووقعت سوريا بعد مصر على وقف إطلاق النار.

وبدأت المفاوضات لفك الحصار عن الجيش الثالث المصري، ثم مفاوضات غير مباشرة يقودها وزير خارجية الولايات المتحدة اليهودي هنري كيسنجر. لفك الاشتباك بين القوات مما ترتب عليه مكاسب للإسرائيليين بلغت حد الاعتراف الضمني بها، وبعد ذلك كان مؤتمر كامب ديفيد ونتيجته اعتراف مصري كامل بإسرائيل، وإقامة

علاقات طبيعية معها، وخروجها من جبهة المواجهة. أما عند الفلسطينيين، فكانت وأدًا لآمالهم بزوال للاحتلال على المدى المنظور وكانت مؤذنة بسقوط وشيك للأمة العربية، وبدايةً للتراجع الفظيع للمقاومة الفلسطينية انتهت بسلطة حكم ذاتي محدود في الضفة والقطاع.

عملتُ في مدرسة قريوت سنتين وكانت فترة ممتعة ومفيدة جدًا من الناحية الاجتماعية، ولكنني آثرت العودة إلى المدينة فالمستقبل هناك أفضل فتقدمت بطلب الانتقال إلى المدرسة الصلاحية الثانوية وهي كبرى مدارس نابلس ومن أكبر وأشهر مدارس الضفة الغربية، ومتخصصة في الفرع العلمي، إلا أن الصلاحية كان يجري نقلها إلى مدرسة جديدة هي مدرسة قدري طوقان الثانوية. صورة أدائي عند المسئولين مشرقة، فوافقوا، وجاءني كتاب النقل مع بداية السنة الدراسية 1975-1976، فانتقلت مباشرة إلى مدرسة قدري طوقان، التي جرى افتتاحها في تلك السنة، وأقيم احتفال حضره كثير من المسئولين منهم رئيس بلدية نابلس، المرحوم الحاج معزوز المصري ومدير التربية والتعليم الأستاذ أكرم فضة وضابط التربية والتعليم ومساعده والحاكم العسكري لمنطقة نابلس، ولأنني كنت جديدًا في المدرسة لم أكن أعرف من هيئتها التدريسية إلا أساتذتي الذين أصبحت زميلهم وهم المرحوم الأستاذ ربحي أبو زيتون والأستاذ عمر الناطور والأستاذ طلال حُنجُل بالإضافة إلى زميلي في الملك طلال الأستاذ ثم الدكتور محمد سليم اشتية، وزميلان من عهد الجامعة هما الأستاذ ثم الدكتور عادل أبو عمشة والأستاذ المرحوم محمد شريدة.

في الاحتفال كان عريف الحفل أحد مدرسي المدرسة الذي لم أكن عرفته بعد، وكان الانطباع عند من حضر الحفل أن هذا الأستاذ متميز في كفاءته إذ أدار الحفل بطلاقة لسان وبلاغة مقال وثقة كبيرة في النفس، وأصبحت وإياه فيما بعد أقرب صديقين، إنه الأستاذ محمد راجح يوسف.

بدأت تندلع في تلك السنة موجات المواجهات بين جيش الاحتلال والمستوطنين من جهة وبين الشباب عمومًا، ولا سيما طلاب المدارس من جهة أخرى، وكان سلاح

الطلاب الحجارة وسلاح الأهالي إغلاق المحلات التجارية، وسلاح الشباب عمومًا وضع حواجز من الحجارة وإطارات المطاط في الطرق التي تسلكها الآليات العسكرية الإسرائيلية، جاءت هذه الثورة بعد هدوء استمر بضع سنوات.

وكان أول تظاهرة للطلاب في المدرسة ذات طابع احتجاجي. فإن مدرسة قدري طوقان تقع بمحاذاة شارع عمان وفي الطريق إلى الأغوار وإلى المنطقة الصناعية الناشئة بنابلس وتكثر في الشارع حركة الشاحنات بالإضافة إلى جميع أنواع السيارات، فكانت الضوضاء في الشارع عالية ولا تتيح للطلاب إمكانية تلقي الدروس بهدوء فخرج الطلاب إلى الشارع وأغلقوه بأجسادهم وجاء مدير التربية والتعليم مسرعًا واتصل بالحاكم العسكري الذي وعده أن يحل المشكلة بسرعة. وأخيرًا تمكنا من إقناع الطلاب بالعودة إلى مقاعد الدراسة إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، ولم يعد مقتصرًا على قضية الضجيج في الشارع، بل سرعان ما تحول إلى مقاومة للاحتلال، وأصبحت المشاكل شبه يومية وكان للمدرسة بابان أحدهما من أعلى والثاني من أسفل وكان الباب الثاني مغريًا للطلاب؛ لأن الطالب يستطيع إلقاء الحجارة على السيارات الإسرائيلية التي كانت تسير وتتجول في شوارع المدن دون قيود، ثم يدخل المدرسة في لمح البصر ويختفي بين الطلاب. وهكذا تجد الطلاب ينطلقون إلى الساحة الغنية بالحجارة فيحمل الواحد منهم ما يستطيع فيقذف بها كل سيارة ذات لوحة صفراء ثم يختفي بين الطلاب بلمح البصر وكنا نتصدى لهم ولا نستطيع في الغالب إقناعهم بدخول الصفوف إلى أن تأتي سيارات الدورية للجيش فيدخلون الصفوف مسرعين وكانت الدوريات في الغالب تكتفي بالتجول في ساحة المدرسة حتى ترى جميع الطلاب دخلوا الصفوف، ثم تقفل عائدة.

الهجوم التاريخي على المدرسة

ذات يوم من أيام الاضطرابات، كنا متوجسين مما سيجري ونحن متوجهون إلى المدرسة وكنت وقتها أنا والأسرة في قريتنا جالود وجئت بالباص إلى نابلس وأنا أقول في نفسي: اللهم اجعل هذا اليوم يمر بسلام، وركب إلى جانبي كهل من قريوت وكان

فيما مضى يزرع قطعة أرض لوالدي بطريق المزارعة، فأخذ يحدثني عن ذكريات تتعلق بذلك الزمن ولم أكن في وضع ذهني يشجعني على الاستماع واستمر يسرد علي أحاديثه طول الطريق وأنا مشغول بالتفكير فيما ينتظرنا في ذلك اليوم، وأخيرًا استوقفت الباص عند مفرق بلاطة ونزلت وشعرت أنني تحررت من قيد.

بدأ اليوم الدراسي يحمل ملامح الشر المستطير، فالطلاب تجمهروا منذ الصباح ليقذفوا السيارات الإسرائيلية، ولم تكن السيطرة عليهم ممكنة وتصاعدت أعمال العنف ولم تجدِ تدخلاتنا، مع العلم أن قلة قليلة من المعلمين هم الذين كانوا يتدخلون لما يعرفون لأنفسهم من دالّة على الطلاب وكنت من هذه الفئة.

شعرنا أن الأمور بدأت تأخذ منحىً خطيرًا وأن دوريات الجيش بدأت تتكاثر حتى بلغت مقدارًا ينذر بشر مستطير، ثم تأكد لنا أن جيش الاحتلال يخطط لاقتحام المدرسة وأنه فات الأوان على عمل أي شيء. كنت في إحدى شعب الصف الثاني الثانوي (وكان وقتها هو الصف السابق للتوجيهي) بدأ الطلاب يركضون ويدخلون الصفوف، وكل طالب يدخل أقرب صف يواجهه فاكتمل عندي صف من أخلاط الطلاب وأوعزت إليهم أن يفتح كل منهم أي كتاب يقع بين يديه ففتح بعضهم كتاب الفيزياء وآخرون وجدوا في الأدراج التي جلسوا عليها كتب الرياضيات وفتحوها وآخرون وضعوا أمامهم كتب القواعد وهكذا وفتحت كتابًا وبدأت أتحدث إلى الطلاب كأني أشرح لهم، وقد بدأ الجنود الإسرائيليون ينتشرون في الساحة ويتوجهون إلى الصفوف وبأيديهم العصي. وكان صفنا في الطابق الأول ويقع بابه مقابل المدخل فدخلت مجموعة من الجنود بهراواتهم ووجوههم الكالحة وعلى كل منهم عدة الحرب كاملة، وقفوا والطلاب جلوس وحاولت أن اعترضهم وقلت لهم: هؤلاء عندي في الصف، فقال لي بعربية ركيكة: لن يسألك أحد، ثم ضرب أحدهم المقعد الأول ضربة بعصاه أحدثت صوتًا هائلًا وانكسرت العصا، ثم ضرب جندي آخر طالبًا أمامه ضربة شديدة على يده، وبدأ الجنود يضربون الطلاب على أيديهم وعلى رؤوسهم وعلى صدورهم.

خرجت من الغرفة والضرب ما زال مستمرًا فوجدت الحاكم العسكري ومساعده واقفين يديران المعركة فقلت لهما بصوت عالٍ وبلهجة قوية: كفى، لقد ضربتموهم فكسّرتموهم، فقال لي مساعد الحاكم: لماذا لم تسيطروا عليهم وتقنعوهم بالتزام الهدوء؟ لقد عجزتم عنهم، فقلت له: ولقد ضربتموهم، ثم عدت مسرعًا إلى الغرفة فإذا الجنود يخرجون وقد تركوا الطلاب يئنون من آلام الضرب وأوعزت لهم أن الزموا مقاعدهم فالعملية العدوانية ما زالت قائمة ولم أكد أنهي كلامي حتى فوجئت بعدد من الجنود يدخل الغرفة، فحاولت اعتراضهم وقلت لهم: لقد ضربوهم، فقال لي أحد الجنود كلامًا لا أذكر نصه ولكن معناه قف جانبًا ولا تتدخل، فضربوهم هذه المرة بسرعة وخرجوا، وظل الطلاب في مقاعدهم حتى لا يتعرضوا لاعتداءات الجنود الذين ما زالوا في الساحة وحول المدرسة، وجلست على الكرسي وقد شدّني ألم في المعدة لم أشعر بمثله من قبل وأشعلت سيجارة، سألني أحد الطلاب: هل ضربوك؟ فأجبته بالنفي. ثم دخل وفد يتفقد الأحوال، من التربية والتعليم ورجالات نابلس وقد هرع الجميع إلى المدرسة، وكانت طواقم طبية من جملة من حضر فأخذت منهم بعض الحبوب لألم المعدة، وسمحنا للطلاب بالمغادرة بعد أن انسحب الجيش من محيط المدرسة، ثم تداعت الهيئة التدريسية إلى الاستقالة الجماعية، فلقيت الفكرة تجاوبًا بين جميع أعضائها دون استثناء، ثم اتصل مدير التربية والتعليم الأستاذ أكرم فضة من مكتب مدير المدرسة بضابط التربية والتعليم إدوارد خليف، وقال له: إن الجيش باغت الطلاب في مدرسة قدري طوقان وهاجمهم داخل الصفوف الدراسية، وأوقع فيهم سبعين إصابة بعضها خطير وخطير جدًا، وأنا مستقيل، وكذلك أعلن المجلس البلدي استقالته.

كانت الأنباء مفاجئة ومزعجة بالنسبة لضابط التربية والتعليم، فرد على مدير التربية بقول: سأصعد فورًا إلى قائد الضفة الغربية.

أخلينا المدرسة تمامًا. كنت والأسرة في تلك الأيام في القرية. فعاد كل منا إلى بيته وهو يتساءل كيف ستتطور الأمور بعد الاستقالة.

في تلـك الليلـة ظلـت أحـداث ذلـك اليـوم العاصـف الدامـي تطـرق أذني بشـدة وتمنعني مـن النـوم فقمت منتصف الليـل أتمشـى في الصالـون، وأسـتعرض أحـداث اليـوم المنصرم، واسـتيقظ معي مـن في الـدار. كانـت تطـرق مخيلتـي كل حـين أصـوات الشـباب يصيحـون مـن الألم، ونحـن المدرسـون نتفرج ولا نسـتطيع أن نعمـل شـيئًا حتـى إن أكثـر مـن معلـم نالـه بعـض الـضرب ظنًّـا مـن الجنود أنـه طالـب، ومـن الطريـف أن أحد الطـلاب كان واقفًـا أمـام اللـوح يكتـب معادلـة أو مسـألة رياضيـة فظنـه الجنـود مدرسًـا فضربـوا طـلاب ذلـك الصـف إلا هـو.

كانـت الإذاعـات العربيـة ولا سـيما الإذاعـة الأردنيـة تطنطـن بالخـبر وتركـز عـلى اسـتقالة المجلـس البلـدي ومديـر التربيـة والتعليـم والهيئـة التدريسـية في مدرسـة قـدري طوقـان وقـد تصـدرت أحـداث قـدري طوقـان نـشرات الأخبـار في ذلـك اليـوم.

شـعر الحاكـم العسـكري بفداحـة مـا أقـدم عليـه جنـوده، فأخـذ يسـتدعي الهيئـات القياديـة في المدينـة ويجتمـع بهـم، ويعلـن لهـم عـن أسـفه لمـا جـرى، ويطلـب منهـم التوسـط لـدى الهيئـة التدريسـية في المدرسـة كـي يتراجعـوا عـن الاسـتقالة، وبـدأت المفاوضـات بـين الهيئـات الفاعلـة في المدينـة والهيئـة التدريسـية، ولم أحضر شـيئًا مـن تلـك الأحـداث؛ لأنني كنـت في القريـة حيـث لا هاتـف في ذلـك الوقـت، ولا وسـيلة اتصـال ولم يكـن الجـوال قـد اختُـرِع بعـد. ثـم علمـت وأنـا في القريـة أن الهيئـة التدريسـية وافقـت عـلى العـودة عـن الاسـتقالة وكذلـك مديـر التربيـة والتعليـم، أمـا المجلـس البلـدي، وكان يرأسـه المرحـوم الحـاج معـزوز المـصري فقـد تمسـك بالاسـتقالة، وظـل مسـتقيلًا إلى أن أجريـت بعـد فـترة وجيـزة الانتخابـات البلديـة، وفـازت فيهـا كتلـة جديـدة برئاسـة المرحـوم ظافـر المـصري وقـد اختـار الفائـزون بسـام الشـكعة رئيسًـا للبلديـة.

كنـت مسـتاءً لسرعـة اتخـاذ قـرار العـودة ممـا أدى إلى مشـادّة بينـي وبـين أقـرب الأصدقـاء في المدرسـة الأسـتاذ محمـد راجـح، ثـم لم ألبـث أن اعتـذرت لـه وأزيـل سـوء التفاهـم.

ولم يكـن الطـلاب قـد تواجـدوا في المدرسـة، فطلـب منـي الزميـل مأمـون السـيد أن

نتمشى معًا في ساحة المدرسة ولم تكن العلاقات بيني وبينه قبل ذلك دافئة؛ لأنه في عداد العلمانيين إلا أنه رأى أن يصارحني بأمر لم يصارح به أحدًا في المدرسة، وهو أكبر مني سنًا بعدة سنوات، ومعروف عنه أنه متحدث لبق ولديه قدرة كبيرة على صياغة مقدمة الكلام والتدرج بها إلى التفاصيل التي تصل في النهاية على ذروة ما يريد إيصاله.

وبعد المقدمة التي تتناول طبيعة الظروف التي نمر بها، تحدث عن ضرورة أن يتحد المعلمون إذا أرادوا تحسين ظروفهم، وأن هنالك حركة يجري ترتيبها بين المعلمين لتوحيدهم على جهد نقابي يضمن لهم حقوقهم. ولما كان من المعلوم دون أدنى شك أن ضابط التربية والتعليم لن يمنح المعلمين نقابة، فالاتجاه أن يكون فيهم هيئة قيادية تجمع من حولها المعلمين للمطالبة بحقوقهم عن طريق النضال، إذ ليس أمامهم إلا أن يفرضوا لهم نقابة مرجعيتها جماهير المعلمين والمعلمات، وهم سندها القانوني والواقعي. والهدف من الحديث_طبعًا_ أن أنضم إلى هذا الجهد، فوافقت فورًا، لكنني عدت فأبديت تخوفي مما قد يكون وراء الخطوة، وبالتحديد: خفت أن أكون في خدمة جهة شيوعية أو يسارية، فقال لي: كلا، ثم سألته: هل لهذه الخطوة أهداف سياسية غير معلنة؟ فقال: إنه عمل نقابي ولا علاقة لنا بالسياسة، لأن العمل السياسي شأن منظمة التحرير الفلسطينية التي هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني.

اقتنعت بكلامه وكنت في ذلك الوقت أؤيد منظمة التحرير وأقول بأنها ممثل شرعي للشعب الفلسطيني؛ لأنها لم تكن أقدمت على التنازلات بعد، وعلى الرغم من أنها أعلنت منذ سنتين، أي في عام 1974 في مؤتمر القمة في الرباط أنها توافق على إقامة دولة فلسطينية على أي شبر من فلسطين يجري تحريره، وعلى هذا الأساس منحها مؤتمر القمة صفة الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني إلا أن ذلك كان في إطار التمسك التام بتحرير فلسطين، كل فسطين. على الأقل كان ذلك ما هو معلن من موقف منظمة التحرير. في لقاء آخر استعرضنا من يمكن من الهيئة التدريسية أن ينضم إلى الجهد، فعرضنا الأمر على بعض الزملاء فوافق بعضهم واعتذر بعض، وكان أبرز الموافقين وأصلبهم الزميل عدنان أبو ليلى الذي أصبح محاميًا معروفًا فيما بعد. والزميل محمد سليم اشتية الذي سافر إلى لندن فيما بعد ونال شهادة الدكتوراه ثم عاد مدرِّسًا

في جامعة النجاح، والزميل عطا قوزح الذي وافق دون تردد ومن الزملاء من مدارس أخرى كان أسرع المجيبين الصديق الحميم يونس الضميدي من حوارة. وبدأنا بالفعل ننشر فكرة النقابة بين المعلمين.

في إجازة صيف عام 1978 غيرت السكن المتواضع جدًا في حارة القيسارية إلى سكن أفضل منه في شارع 15، وبدأت فكرة التجمهر النقابي تنتشر بين المعلمين والمعلمات وبدأنا نعقد اجتماعات ونتداول في الأمور.

وفي إجازة نصف السنة من العام الدراسي 1976/ 1977، توجهت إلى دمشق بترتيب مع القيادة الفتحاوية المسئولة في نابلس وكان على رأسها الصديق محمد سعيد أبو لاوي (أبو نبيل) والصديق مأمون السيد، وكلاهما سافر في تلك الرحلة. وشاركني الرحلة عدنان أبو ليلى، واجتمعنا بمسئولين في مكتب فتح الخاص بالأرض المحتلة التابع لأبي جهاد (خليل الوزير) والذي يطلق عليه «مكتب غرب الشام»، وكان ثمة مكتب آخر خاص بالأرض المحتلة يسمى غرب بيروت ويشرف عليه أبو إياد، وكان غرب الشام يرى نفسه أكثر نظامًا وانضباطًا من غرب بيروت.

كان يشغل بال القياديين في تلك الفترة الاجتماعات المقبلة للمجلس الوطني الفلسطيني ومسألة حضور أو عدم حضور الأعضاء من القاطنين في الضفة الغربية وقطاع غزة، فحضورهم يعرضهم إلى الاعتقال على يد الاحتلال الصهيوني وعدم حضورهم سيجعل الاجتماع ناقصًا مبتورًا. هكذا شرح لنا الأمر مدير المجلس الوطني الفلسطيني الذي حضر من بيروت إلى الشام.

في تلك الزيارة حدثنا الشباب في المكتب عن ذكريات تعاملهم مع الجيش السوري أثناء الاشتباكات بين الطرفين وأنهم كانوا بعد أن يهدأ الاشتباك يحملون الشاي إلى الموقع السوري فيبكي الجنود السوريون ويبكي الفدائيون الفلسطينيون ويتعمق الشعور لدى الفريقين أن يدًا خفية هي التي تلعب بين الطرفين.

في هذه الزيارة عبأت استمارة الانتساب ـ ولم تكن في الأردن قبل أيلول 1970 تعبأ أية استمارات للعضوية، بل كان يكتفى بقَسَم الولاء والإخلاص ـ وأُعطيت رمز

النـداء في الراديـو ووقـت النـداء وهـو السـاعة الثانيـة عـشرة مـن كل يـوم ثلاثـاء.

عدنـا إلى الضفـة الغربيـة وبدأنـا نوسـع دائـرة المـشروع النقـابي بـين المعلمـين، وتوجهـت إلى دمشـق أكثر مـن مـرة وكانـت السـنة الثالثة التي أعمل فيهـا في مدرسـة قدري طوقـان، وقـد توسـع نشـاطنا في صفـوف المعلمـين وتوليـت مسـألة العرائـض التـي ترسـل إلى المـدارس فيوقـع عليهـا المعلمـون والمعلـمات وترفـع إلى ضابـط التربيـة والتعليـم مطالبـة بتحسـين ظـروف المعلمـين.

في هـذه السـنة اسـتمرت المظاهـرات ضـد الاحتـلال وأخـذت طابعًـا أكثـر شـدة مـن قبـل. واسـتبدلت قيـادة الضفـة الغربيـة الحاكـم العسـكري بحاكـم آخـر وحـاول الحاكـم الجديـد أن يتبـع سياسـة أكثـر ديناميكيـة، فصـار يطلـب الهيئـة التدريسـية بـين الحـين والآخـر لتجتمـع بـه في مكتبـه ويبحـث معهـم سـبل تهدئـة الأحـوال، وأحيانًـا يـزور المدرسـة هـو أو أحـد كبـار مستشـاريه لـيرى الأحـوال عـلى أرض الواقـع. وقـد حدثـت مواجهـات مميـزة بين الطـلاب وقـوات الجيـش:

منهـا أنـه في أحـد الأيـام وأثنـاء الفسـحة التـي تعطـى للطـلاب بعـد الحصـة الثالثـة، وكانـت الطريـق مفتوحـة بـين مدرسـة قـدري طوقـان وقـبر النبـي يوسـف، ولم تكـن مدرسـة الحـاج معـزوز المـصري قـد تـم بناؤهـا بعـد، كان بعـض الطـلاب متعـودًا عـلى أن يتمشـى في الفسـحة ليصـل محيـط القـبر، فوصلـوا إلى هنـاك في ذلـك اليـوم فوجـدوا حافلـة إسرائيليـة واقفـة وركابهـا جميعًـا كانـوا مـن إحـدى المـدارس الدينيـة بدليـل أن الكبـار وهـم المدرسـون والصغـار وهـم الطـلاب كلهـم يلبـس ملابـس المتدينـين المميـزة بالطيلسـان الأسـود السـابغ والطاقيـة السـوداء ذات الطـراز المعـروف، وكان الاحتـكاك بالقادمـين الإسرائيليـين أمـرًا طبيعيًـا، فبـدأ الاحتـكاك في ذلـك اليـوم وكنـا حريصـين عـلى سـلامة الطـلاب فتوجهـت إليهـم وطلبـت منهـم بأسـلوب مشـدد أن يتوجهـوا جميعًـا إلى صفوفهـم، فلـم يـترددوا في الاسـتجابة وكان الطـلاب وقتهـا يفيضـون وطنيـة ويدينـون باحـترام المعلمـين، وبينـما كانـوا متوجهـين إلى الصفـوف لحقهـم حاخـام صغـير بيـده حجـر وانتبهـوا إليـه وأشـعرتهم أننـي لم أعـد أطالبهـم بدخـول الصفـوف، فارتـدوا إلى البـاص الفـارغ وإلى المقـام المـليء بهـؤلاء

الـزوار وأخـذوا يمطرونهـم بوابـل مـن الحجـارة مـن أكـبر حجـم تسـتطيع الكـف حملـه فكسروا زجـاج البـاص بشـكل كامـل، ورشـقوا المسـتوطنين بـما اسـتطاعوا مـن الحجـارة وبكل مـا لديهـم مـن عزيمـة، فاعتصـم أولئـك المتدينـون بالجـزء الداخـلي مـن المقـام، وكان الطـلاب مسـتعجلين، يريـدون إتمـام المهمـة قبـل حضـور الجيـش، فعـادوا إلى المدرسـة مسرعـين فطلـب منهـم المديـر أن يدخلـوا الصفـوف فـأشرت عليـه وعليهـم أن الأسـلم أن يغـادروا المدرسـة مخافـة أن يـرد الكـرة المسـتوطنون بالسـلاح أو أن يسـد عليهـم الجيـش الطـرق عندمـا يعلـم، فحمـل كل واحـد منهـم حقيبتـه وغـادروا المدرسـة بسرعـة الـبرق.

لم يـسرع الجيـش إلى المجـيء، لا أعـرف لمـاذا، وجلسـنا نحـن المعلمـين ننتظـر مـا يكـون، وبعـد مـدة رأينـا بـاص المسـتوطنين يقفـل راجعًـا وهـو مكـسر تمامًـا إلا أن محركـه لم يتضرر، ورأونـا ننظر إليهم فأشـار إلينـا أحدهـم بكفـه مشرعًـا أصابعـه وبإشـارة منـه عرفنـا أنـه يقـول: عائـدون بعـد خمسـة أيـام. ولم يعـودوا بعـد ذلـك، أو لم نشـعر بعودتهـم.

في مـرة أخـرى، حـاصر الجيـش الإسرائيـلي المدرسـة إثـر اضطرابـات كبـيرة فأخـذ يطلـق عليهـا قنابـل الغـاز حتـى تحولـت المدرسـة ومحيطهـا إلى منطقـة يلفهـا غطـاء كثيـف مـن الدخـان الأسـود، وقـد أغلـق المدرسـون الصفـوف ومـن حسـن الحـظ أن صفـوف المدرسـة كانـت محكمـة الأبـواب والنوافـذ، لا ينفـذ مـن خلالهـا الغـاز إلى داخـل الغـرف فكنـا نـرى آثـار قنابـل الغـاز تتفجـر في الخـارج ولا تصـل إلينـا، وظلـت الصفـوف مغلقـة إلى أن رحـل الجيـش وانقشـعت سـحب الغـاز، ففتحنـا الصفـوف وخـرج الطـلاب وصـاروا يجمعـون العبـوات الفارغـة فـإذا هـم يجمعـون كومـة هائلـة، وعندمـا خفـت مديريـة التربيـة لـترى مـا حصـل كانـت كومـة القنابـل تنطـق عـن الحالـة بأبلـغ مـا قـد ينطـق بـه لسـان.

بعـد حادثـة تحطيـم حافلـة المسـتوطنين صـار للجيـش تواجـد في موقـع قـبر النبـي يوسـف لحمايـة اليهـود الزائريـن. وحـدث ذات يـوم أنّ الطـلاب في الفسـحة كانـوا يتمشـون قريبًـا مـن الموقـع، فوقـع احتـكاك بينهـم وبـين الجنـود الذيـن يحمـون الموقـع. كان ذلـك بعـد حادثـة اقتحـام المدرسـة ببضعـة أسـابيع.

ثـم رشـق الطـلاب النقطـة بالحجـارة وهربـوا وتمكـن معظمهـم مـن أن يفلتـوا مـن

الملاحقة إلا أن قلة منهم ربما في حدود عشرين طالبًا وجدوا أنفسهم قد حُصروا فصعدوا إلى الطابق الأعلى من المدرسة ودخلوا إحدى الغرف وأغلقوا الباب، ثم دعموه بالمقاعد (البنوك) التي يجلس عليها الطلاب، ولم يستطع الجنود اقتحام الغرفة من الباب، فحاصروها وحاول جندي اقتحامها من الشباك ولكن الشباك كان مرتفعًا وكنا نحن المدرسين واقفين ننظر إلى المشهد ونحاول أن نقنع الجنود بالكف عن محاولة اقتحام الغرفة وكان موجهو مكتب التربية متواجدين، ومن عادتهم أن يهرعوا إلى المدرسة عندما تشهد اضطرابات إلا أنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئًا، فلا أحد يستطيع ثني الطلاب عن عزمهم إذا قرروا التظاهر، وإذا كان ثمة تأثير في أحيان قليلة فللهيئة التدريسية.

نادى الطلاب: نريد المجلس البلدي، فقيل لهم: إن المجلس البلدي موجود؛ المستقيل والمنتخب، فقالوا: نريد رئيس البلدية المنتخب (بسام الشكعة) فقيل لهم: إنه في الخارج. وبعد مفاوضات بين المجلسين البلديين مع المسئولين في الحكم العسكري فك الجنود الإسرائيليون الحصار وانتهت المشكلة إلا أن مدير المدرسة جاءه اتصال هاتفي يقول له: أنت مطلوب للحكم العسكري، فتوجه ثم لم يلبث أن عاد ليسلمهم مفاتيح المدرسة فقد بلغه الحكم العسكري أنها مغلقة إلى إشعار آخر. عندها أسرعت إلى مسكني في القيسارية فلممنا الضروري من ملابسنا وتوجهنا إلى قريتنا جالود أنا وأسرتي ومعنا الصغير محمد ابن ثلاثة الأسابيع، وقضينا مدة الإغلاق هناك. واستمر الإغلاق حوالي أسبوعين ودفعوا لنا جزءًا من الراتب في ذلك الشهر.

في إحدى المرات كانت المظاهرات عنيفة ورشق الحجارة على السيارات الإسرائيلية شديدا ففاجأنا الجيش بضرب حصار مباغت على المدرسة بحضور قادته العسكريين وحضور الشرطة وقادتها، والطلاب جميعًا لم يكونوا غادروها، فبعضهم كان في الصفوف وبعضهم خارجها فدخل الجميع الصفوف واستمر طوق الحصار إلى أن حان موعد الانصراف، فبدأت المفاوضات للسماح للطلاب بالعودة إلى بيوتهم مع ضمان عدم تعرضهم للاعتقال أو الاحتجاز الذي يصاحبه عادة ضرب مبرح لهم من قبل زبانية الاحتلال، فأصر المحتلون على أن يغادر الطلاب المدرسة بحضور الجيش

وتحت مراقبته، وجيء بالباصات الكافية لإجلاء المدرسة كلها، ثم قلنا للطلاب، اصعدوا إلى الباصات ونحن المدرسون معكم وسنوزع أنفسنا على الباصات، وإذا حاول الجيش احتجاز باص منها فسوف نصر جميعًا على مرافقته وعلى أن نكون جميعًا محتجزين أو أن يطلقوا سراحنا جميعًا، وسارت الباصات والمعلمون فيها ووصلت إلى الدوار بأمان.

بداية مشاكلي مع الاحتلال

في مطلع سنة 1978 وبالضبط في شهر كانون ثانٍ منها، أثناء عطلة نصف السنة، دعيت إلى سفر مستعجل إلى دمشق وكان عليّ أن أوصل وثيقة إلى نائب مدير مكتب غرب الشام، عبد الإله الأتيرة، توجهت إلى الجسر بعد أن عبأت التصريح اللازم، وحملت الهدية وكانت ملء علبة كرتون من النوع الوسط، حملت العلبة وتوجهت إلى مكتب سيارات الجسر وكان وقتها جسر دامية، فرآني صديق معه رسالتان يريد إرسالهما إلى دولة خارج الأردن وكان ذلك متعذرًا من الضفة الغربية في ذلك الوقت، فطلب مني أن أضعهما في بريد عمان، فوضعتهما في جيبي وتوجهت إلى الجسر فوصلته بعد الظهر، ووضعت العلبة وانتظمت في الصف على الشباك الذي تفحص فيه الهويات ويعطى المسافر إذنًا بالمرور أو يقال له: ارجع إلى بيتك. وعندما وصلت إلى الشباك ونظر العسكري في هويتي وضعها جانبًا وأوعز إليَّ أن أنتظر فوقفت جانبًا إلى أن أنهى جميع المسافرين إجراءاتهم وتوجهوا إلى الحافلة التي كانت تنتظرهم وكانت الحافلة الأخيرة قبل انتهاء الدوام، وكان الدوام ينتهي في الساعة الثانية بعد الظهر. فقال ضابط لي: أمعك أغراض؟ قلت: نعم، هذه الكرتونة. فقال: أمعك غيرها؟ قلت: لا، فقال لي: احملها وتعال إلى غرفة الفحص. كنت منذ وضع المسئول هويتي جانبًا أدبر في رأسي سيناريو إمكانية أن يكتشفوا الشيء الذي بداخل العلبة، واستقر الأمر عندي على سيناريو محدد، هو ألا أمكنهم من معرفة مصدر الكرتونة، وسأقول لهم: إنني لا أعرف ما بداخلها وإنني لصادق فيما أقول.

كنت أعرف أنه في حالة التفتيش الذي يقصد منه العثور على شيء فمن الخطأ

أن يركـز المتهـم بـصره عـلى المكان الـذي فيـه الـشيء المخبـأ، بـل عليـه أن يركـز بـصره عـلى مـكان آخـر لتضليـل المفتـش، فركـزت بـصري عـلى مـا في جيبـي ولم التفـت إلى الكرتونـة، فطلـب مني أن اخـرج مـا في جيبي فأخرجـت كل شيء في جيـوبي فأخـذ الرسـائل ودخـل بهـا إلى غرفـة أخـرى ولم يلبـث أن عـاد بهـا مغلقـة كـما هـي، وطلـب مني أن أفتـح الكرتونـة فبـدأت بفتحهـا دون أن يبـدو عـليّ الاكـتراث عـلى الرغـم مـن تخـوفي مـن أن الورقـة ربـما كانـت تحـت الفواكـه وأنهـم سيكتشـفونها بسرعـة، وفتحـت العلبـة فـإذا هـي مليئـة بثـمار القشـطة والأنانـاس والجوافـا، فأخـذ الضابـط يتفقدهـا حبـة حبـة، ويتأمـل في مؤخـرة الحبـة (القُمُـع) ليتأكـد أنـه لا يخفـي تحتـه شيئًا وبعـد أن أفـرغ العلبـة تمامًـا نظـر في جوانبهـا وحملهـا بيـده ونقـر جوانبهـا ثـم طلـب مني أن أعيـد وضـع الفواكـه فيهـا، وعندهـا قلـت للضابـط محتجًـا: لمـاذا التفتيـش يـا خواجـا؟ فقـال لي: هـل هـي أول مـرة تـأتي فيهـا إلى الجسر؟ قلـت: كلا، فانـا أسـافر كثـيرًا، ولكـن هـذه أول مـرة أخضـع فيهـا للتفتيـش. فلـم يجـب ولكنـه طلـب منـي أن أتوجـه إلى البـاص وكان البـاص الأخـير ولم يسـمحوا لـه بالمسـير قبـل أن اكتملـت إجـراءات تفتيشي، ووقـف الضابـط عنـد بـاب البـاص لـيرى إن كنـت أحمـل شيئًا غـير العلبـة التـي جـرى تفتيشـها، فوجـدني لا أحمـل غيرهـا، فصعـدت إلى داخـل الحافلـة وتحركـت باتجـاه جسر الأردن ونقطـة التفتيـش الأردنيـة وأنـا أشـعر بالارتيـاح التـام؛ لأنني نجـوت مـن ورطـة.

مـن عـمان توجهـت إلى دمشـق بعـد أن أودعـت الرسـالتين في صنـدوق البريـد، وفي نقطـة الحـدود السـورية كانـوا ينظـرون في الهويـة فقـط، إذ كان بـين الأردن وسـوريا اتفـاق أن يتنقـل مواطنـو البلديـن بالهويـة، وبموجـب الاتفـاق لا يقـف الذاهـب إلى سـوريا عـلى نقطـة الحـدود الأردنيـة في الرمثـا، ولكـن في نقطـة الحـدود السـورية في درعـا، وبعـد الخـروج مـن النقطـة ثمـة دوريـة للجيـش السـوري تفتـش محتويـات السـيارات المتوجهـة إلى سـوريا، وفتحـوا الكرتونـة ورأوا شـيئًا لم يـروه مـن قبـل، فثـمار القشـطة والأنانـاس لم تكـن فيـما أعتقـد معروفـة حتـى ذلـك الوقـت في سـوريا أو الأردن. فقيـل لنـا ونحـن في السـيارة: يريـدون صاحـب الكرتونـة، فنزلـت، فـإذا ضابـط يسـألني: مـا هـذا؟ قلـت لـه: قشـطة. فقـال بلهجـة المتعجِّـب: هـل هـي ثمـر شـجر؟ قلـت نعـم. فأعـاد الكرتونـة إلى السـيارة،

وانطلقت بنا السيارة إلى دمشق، ونزلت في أول الشارع الفرعي المؤدي إلى منطقة (سناك الزاوية) في منطقة المَزَّة والذي يقع المكتب على بعد أمتار منه ومررت بجندي سوري يحرس موقعًا رسميًا ونظر إليّ وإلى الذي بيدي بفضول ثم سكت، فتذكرت أنني عندما توجهت إلى الضفة الغربية سنة 1969 في تصريح جمع شمل، غادرت الغرفة التي أسكنها فجرًا وبيدي شنطة ملابسي، لقيني جندي أردني قرب معسكر العبدلي فأصرّ على تفتيش الشنطة.

ودخلت المكتب فذهب الحارس إلى الداخل، إلى غرفة نائب قائد المكتب يخبرهم بوصول أبي مالك من نابلس، ولم يكونوا ينتظرون وصولي؛ لأنهم لم يكونوا موعودين أن تصلهم الوثيقة في ذلك اليوم، فشعروا بقلق، وخاصة محمد أبو لاوي (أبو نبيل) الذي كان متواجدًا في الغرفة هو وابن عديله عبد الإله الأتيرة: ما الذي جاء به على هذا النحو غير المتوقع؟ لا بد أن مصيبة حصلت، ولم يكن بين الضفة الغربية ودمشق هاتف، ولم يكن المحمول قد اختُرع بعد، ولم تكن تُنقل الأخبار إلا بالمراسيل، فطلبت من الشخص المكلف أن يدخل عليهم ويخبرهم أن الأمور في نابلس على ما يرام وأنه لا شيء يدعو للقلق فهدأ روعهم، ودخلت عليهم بعد ذلك فوجدت العلبة مفتوحة وقد أُخرجت الوثيقة منها وأخرج أبو خليل (عبد الإله) جزءًا من الفواكه للموجودين في المكتب واحتفظ بجزء منها باعتبارها هدية من خالته أم نبيل.

ولقد اهتم أبو خليل بتعرّضي للتفتيش وخشي أن أتعرض إلى تفتيش أشد في طريق العودة فأخذ يفكر في سيناريو يبعد عني شبهة أنني كنت في مهمة لحركة فتح، فاقترح أن أسافر في هذه الليلة بالطائرة إلى بيروت، وأبيت فيها ثم في اليوم التالي بالطائرة من بيروت إلى عمان وبذلك أثبت لهم أن رحلتي كانت إلى بيروت لغرض شخصي وليس إلى مكان آخر. فلم أوافقه على ذلك باعتبار أن سفري بهذا الشكل يجعلهم يعتقدون أن اتصالاتي إنما هي في بيروت وعلى أعلى مستوى قيادي، فالأفضل أن أعود في اليوم التالي إلى عمان عن طريق البر وأتوجه إلى الجسر وإذا سئلت فلن أعدم الإجابة، فرأى أبو خليل أن هذا الرأي أصوب وأخذ به وعدت إلى الجسر في اليوم التالي ولم أتعرض إلى أي سؤال.

لم يكـن التنقـل بـين الغـرف في مكتـب الحركـة للقادمـين مـن الأرض المحتلـة حـرًا لأسباب أمنيـة معروفـة، فكان الزائـر يدخـل غرفـة ويجلس معـه بعـض الإخـوة في المكتب والبـاب مغلـق، وإذا صـدف أنـه كان وحـده وأراد الخـروج إلى دورة الميـاه، فـلا يجـوز أن يفتـح البـاب، ولكنـه ينـادي الأخ الـذي في الخـارج مـن خلـف البـاب المغلـق ويطلـب منـه مـا يريـد، فيقـوم ذلـك الأخ بـدوره بالتأكـد مـن خلـو المكان وخلـو الطريـق ثـم يفتـح البـاب للزائـر، وكل ذلـك يتـم في إطـار مـن الاحـترام المتبـادل بـين الزائريـن والمضيفـين والضيافـة الـودودة، والهـدف منـه ألا يلتقـي أحـد مـن الزائريـن مـن الأرض المحتلـة بزائـر آخـر فقـد يكـون أحدهمـا يعـرف الآخـر وقـد يتعـرض الزائـر للاعتقـال عنـد العـدو ويضعـف في التحقيـق فيعطـي المحققـين أسـماء مـن التقـى بهـم في مكتـب فتـح في الشـام. لقـد كانـت الناحيـة الأمنيـة في غايـة الحساسـية.

في زيـارتي الأولى للمكتـب وكان صديقـي المحامـي عدنـان أبـو ليـلى في الرحلة نفسـها وكنـا معًـا؛ لأننـا قادمـان في مهمـة محـددة هـي العمـل عـلى تحشـيد المعلمـين حـول العمـل النقـابي؛ إذ كان أبـو ليـلى لا يـزال معلـمًا قبـل أن ينتقـل إلى المحامـاة.

قـال لنـا أبـو خليـل ونحـن عنـده في المكتـب: هـل تريـدون أن أعرّفكـم عـلى الـذي نفـذ عمليـة الثلاجـة في القـدس[1]؟ قلنـا: نعـم فالعـدو يدفـع مليونًـا ليعـرف مـن هـو، وظننـا أنـه سـيطلعنا عـلى سر مـن الأسرار الكبـيرة إلا أن أبـا خليـل شرح لنـا أن الأخ باسـم طبيلـة هـو مـن نفـذ العمليـة وأنـه معـروف لـدى العـدو إلا أنهـم يتظاهـرون بأنهـم لا يعرفـون، فهـم يعملـون عـلى اصطيـاده بأمكـر الأسـاليب.

وكان باسـم وقتهـا في المكتـب فجـاء وسـلّم علينـا وشرح لنـا كيـف نفـذ العمليـة.

---

(1) عمليـة الثلاجـة وقعـت في القـدس الغربيـة في سـوق مزدحـم عـام 1975 حيـث انفجـرت ثلاجـة ملغومـة أدت إلى مقتـل العـشرات وجـرح المئـات، وظـل الفاعـل مجهـولًا لـدى الإسرائيليـين إلى أن وقـع في قبضتهـم أحمـد أبـو السـكر عـام 1976 وكان قـد سـاعد في إعـداد الثلاجـة فاعـترف بـأن المنفـذ هـو باسـم طبيلـة مـن نابلـس، ولـدى التحـرك السريـع لاعتقـال باسـم تبـين أنـه غـادر الجسـر إلى الأردن قبـل أن ينطـق أبـو السـكر باسـمه بنصـف سـاعة.

إذ أخذ الثلاجة بسيارته الفولوكس فاجن (دبل كابينة) بعد أن أتم إعدادها ووضعها في السوق وقفل راجعًا.

وأخبرنا عبد الإله أن الموساد الإسرائيلي يوصل إليهم بطريق خفي رسائل من (أبو السكر) إلى أهله يقول فيها إنه في قبرص وقد أُفرج عنه وهذا معناه أنه لم يعترف بشيء، مع أن هذه حيلة إسرائيلية مكشوفة، فهم يريدون إغراء باسم بالعودة إلى نابلس.

كان في منتصف السبعينات جريدة الفجر اليومية وهي صحيفة يملكها رجل الأعمال بول عجلوني، تديرها حركة فتح إلا أن شيوعيين غير أكفاء في مجال الصحافة سيطروا عليها، فصارت الجريدة تتأخر فنيًا واقتصاديًا، وقررت فتح أن تستبدل بطاقمها القائم طاقما أكثر كفاءة وأن يجري تدريب هذا الطاقم على العمل الصحفي في صحف مصرية عريقة عدة أشهر قبل أن يستلموها من الهيئة المهيمنة عليها، وعرضوا الأمر على مأمون السيد ليترأس فريقًا يتم أعداده لهذه المهمة وعرض عليَّ الأمر فوافقت جهلًا وتسرعًا ومن غير أن اشترط معرفة موقعي من العمل ومن هم رؤسائي وما سياستهم وهل أعطى راتبًا أستطيع به أن أسكن في القدس أو في أطرافها، وهذه صفة من أبرز الصفات السلبية عندي، أتسرع أحيانًا في اتخاذ القرار قبل أن أدرسه من جميع جوانبه إلا أنني عرضت الأمر على الصديق والزميل ومن أعتقد فيه الصلاح وهو الأستاذ أبو حسان، نبيل بشتاوي، وطلبت منه أن يعمل لي استخارة، وبالفعل عمل الاستخارة فجاءت سلبية إلى أبعد الحدود، وكانت تلك الاستخارة صادقة كل الصدق فقد تبين لي فيما بعد أنني كنت سأعمل مع أناس ملحدين علمانيين لا أطيقهم، ولو عملت معهم ما استمرت زمالتنا أسبوعًا، ثم إن المسئولين عن تنفيذ المشروع انشغلوا كليًا بالمواجهة بين الفلسطينيين وسوريا وكانت قد كلفتها جامعة الدول العربية أن تشكل من جيشها قوات الردع العربية المكلفة بإنهاء الاقتتال بين الفرقاء اللبنانيين بالقوة، فرفض الفلسطينيون الانصياع إلى تعليمات قوات الردع فكانت المواجهات بينهم وبين السوريين الذين منهم تتكون معظم قوات الردع. ومُنع عرفات وقتها من دخول سوريا وحُوصر تل الزعتر من قبل قوات الكتائب اللبنانية المسيحية التي كانت

خصمًا للفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين، وكانت المواجهة بين السوريين والفلسطينيين هي التي سهلت على المسيحيين محاصرة المخيم في أواخر حزيران 1976 ثم اقتحامه في 14/ 08/ 1976 وتراوح تقدير عدد القتلى بين المئات في أقل تقدير وألفين وخمسمائة في أكبر تقدير.

كان المفروض أن نسافر إلى القاهرة في ذلك الصيف للتدرب على العمل الصحفي في كبريات الصحف المصرية إلا أن المسؤولين في غرب الشام هرَّبوا الوثائق السرية من المكتب إلى السفارة الليبية واختفوا عن الأنظار خوفًا من الاعتقال وبذلك لم ينفّذ مشروع السفر والالتحاق بالدورة التدريبية إلا أن دعوتي إلى العمل في الصحيفة ظلت قائمة، وقد تم تعيين مأمون السيد رئيس تحرير الصحيفة وعندما دعاني للالتحاق بها سألته عن الراتب فقال لي: مثل راتب الحكومة. فقلت له: لا نفع في هذه الوظيفة إذًا.

العام الدراسي 1977/ 1978، كان العام الثالث لي في مدرسة قدري طوقان وقد عرض علي مكتب التربية والتعليم أن استلم إدارة مدرسة ثانوية من مدارس القرى وخيرني بين عدة مدارس فقلت لهم: لا أترك مدرسة قدري طوقان.

في هذه السنة توجهت إلى الشام ولاحظت مخابرات العدو أنني أسافر كثيرًا كما أنني أجري اتصالات واسعة مع المعلمين وبعض اللقاءات مع معلمات ممن انضممن إلى الجهد النقابي، فكان التفتيش على الجسر الذي وصفته وكان تكثيف المراقبة وبداية الاستدعاءات والتحقيقات.

في أحد الأيام من تلك السنة كانت اضطرابات ومظاهرات في المدرسة، وفي نهاية الدوام جاءت مكالمة هاتفية من الحكم العسكري تقول: يوسف عارف مطلوب للحاكم العسكري، وأخبروني عن المكالمة، لكنها ليست واضحة تمامًا وبالضبط ليس معروفًا وقت المقابلة، فصعدت الحافلة مع الطلاب وكانت قوات الجيش منتشرة وكان احتمال أخذ الحافلة ومن فيها إلى المقاطعة (مركز الشرطة) قائمًا لذا صعد في الحافلة أيضًا اثنان من أعضاء المجلس البلدي، وكانت نيتي أن أتوجه إلى (العمارة) مقر الحكم العسكري من أجل المقابلة وعندما هممت بالنزول تشبث بي الطلاب وأصروا على أن

أبقى معهم إلى نهاية الطريق، أي؛ إلى الدوار، فإنهم يستأنسون في مثل هذه الظروف بوجود مدرس معهم في الحافلة، وكنت المدرس الوحيد في تلك الحافلة، ولم تتجاوز بضعة أمتار حتى فوجئنا بسيارة الجيش تستوقف الباص ويصعد ضابط ويعطي إيعازًا بإغلاق البابين وعدم فتحهما مطلقًا والتوجه إلى المقاطعة. حاول أحد عضوي المجلس البلدي أن يتدخل فصرخ به الضابط بلهجة تهديد واضحة، ودخلت الحافلة المقاطعة وأُنزل الطلاب منها ونزلت وعضوي المجلس البلدي اللذين توجها إلى البلدية لمحاولة معالجة الموقف من هناك. فبقيت واقفًا أمام مدخل البناية وكان الشرطة الإسرائيليون يحيطون بالطلاب بشكل مكثف، ثم أمروهم بالجلوس واحدًا إلى جانب الآخر على طول حافة الساحة فنفذوا، وكان يقف إلى جانبي محامٍ أعرفه ويعرفه الضابط كذلك ويبدو أنه جاء لتخليص أخ له كان من طلاب المدرسة، وجاء الضابط العصبي ووقف معنا وقد هدأت عصبية قليلًا وشكا من كثرة ما يواجهون من متاعب خاصة من المدارس، أخرجت علبة السجائر فمددت إليه سيجارة فأخذها وأشعلها، ثم تبادل معنا بعض الحديث العام، وغادرنا فجاء، بعض ضباط الشرطة وسألني أحدهم: هل أنت مطلوب؟ قلت له: لا ولكنني جئت في الباص مع الطلاب. فقال: بإمكانك أن تغادر، فقلت له: إن هؤلاء الطلاب لم يكونوا بالضرورة من المتظاهرين فإن عددًا منهم كان عندي في الحصة الأخيرة وغادر الصف إلى الباص كما فعلت أنا، فقالوا لي: هل تستطيع أن تعرِّفنا على بعضهم؟ فقلت: نعم، وجئت وإياهم إلى الطلاب الجالسين فقلت لهم: هذا وهذا وهذا وعرفتهم على عدد كبير من الطلاب، ثم قلت لهم: أطالب ألا يتعرضوا للضرب، فأعطوني وعدًا قاطعًا ألا يضربوا أحدًا، فغادرت المكان وتوجهت إلى الدار وقررت أن انتظر استدعاء جديدًا من الحاكم العسكري. وسألت بعضهم في اليوم التالي إن كان أحد قد تعرض للضرب، فأكدوا أن ذلك لم يحدث.

بعد ذلك أخبرني الأستاذ ربحي أبو زيتون أن طالبًا من جيرانه قص على أهله قصة أستاذ كان يعرف اليهود على الطلاب الذين تظاهروا والمقصود كاتب هذه الأسطر، وأنه، أي الأستاذ ربحي أوضح لهم حقيقة الأمر.

في اليوم التالي جاء الطلب بالهاتف أن أتوجه لمقابلة الحاكم العسكري، فتوجهت

إلى (العمارة) وأوصلوني إلى الحاكم العسكري فلم يكن ثمة سلام، ولكنه كان غاضبًا فقال لي: يوسف، لقد بلغنا أنك تحرض الطلاب على التظاهر. قلت له: هذا الذي بلغكم غير صحيح وقد يكون أحدهم سمع مني كلمة لم يفهمها فظنها تحريضًا. لا أخفي عليك أنني لا أحب الاحتلال، ولكنني لا أؤيد تواصل المظاهرات؛ لأن الدراسة أهم وأجدى. ثم أخرج صورًا لطلاب ملثمين يحملون الحجارة وقد أخذت تلك الصور بوساطة آلات تصوير تصور عن بُعد، فقال لي: هل تعرف أحدًا من هؤلاء؟ قلت له: أنت صريح ونحن نعرف هذه الصفة فيك، وأريد أن أكون صريحًا معك: لا أعرفهم ولا أدلي بأسمائهم حتى لو كنت أعرف، فإنني لا أستطيع أن أكون أستاذًا للطلاب ومعاونًا للاحتلال عليهم. فكتم غيظه إلا أنني وعدته ألا أوجه إلى الطلاب أية تعليمات أو أقوال يمكن أن تفسر على أكثر من وجه. وانتهت المقابلة، على غير ما يرضى الحاكم العسكري، وعدت إلى المدرسة لأجد المقابلة حديث الساعة، وسألوني بفضول عما جرى فأخبرتهم أن الأمر يتعلق بوشاية كاذبة.

بعد ذلك بأيام مرر المدير تعميمًا على المعلمين يقول: إن (سعادة) الحاكم العسكري يريد الاجتماع بكم في مبنى العمارة في هذا اليوم، فتوجهنا إلى هناك وجلسنا في القاعة المخصصة، وجاء الحاكم العسكري وجلس وكانت المفاجأة أن قال لنا: ها قد جئت، فما الذي تريدون طرحه؟ لقد كان التعميم، إذًا، غير صحيح، فنائب مدير التربية ومعه مدير المدرسة يريدون منا أن نجتمع بالحاكم العسكري وقالا لنا إن (سعادة) الحاكم العسكري يريد الاجتماع بكم. فانبرى مدير المدرسة يتكلم بلهجة استخذاء لم نرض عنها راجيًا الحاكم العسكري أن يتكرم بالإفراج عن الطلاب المعتقلين. كان صعبًا علينا أن نوضح للحاكم أن الأمر تم بطريق الحيلة وأن مطلب مدير المدرسة ونائب مدير التربية لم نعلم به سابقًا، فنبدو كمن يقول للحاكم: نريدك أن تستمر في سجن الطلاب، فآثرنا السكوت على غيظ في النفوس. ولم يكن الحاكم مرحبًا بهذا اللقاء ولا مستعدًا للتجاوب معه، بل وجّه إلينا السؤال التالي: ماذا عملتم أنتم حتى تقنعوا الطلاب بالتزام الهدوء والاهتمام بمستقبلهم العلمي؟ وكان السؤال محرجًا؛ لأننا في الحقيقة لم نعمل شيئًا ولم يكن بمقدورنا أن نعمل شيئًا.

وكنت في وقت سابق قد اقترحت على المسئولين في مكتب فتح في دمشق أن يصدروا بيانًا يحض الطلاب على أن يولوا دراستهم اهتمامًا أكبر، وأن يوضحوا لهم أن الإضرابات المتواصلة لا تجلب نفعًا في مجال مقاومة الاحتلال بمقدار ما تجلب الضرر الكبير وهو أن الطلاب يضيعون مستقبلهم بأيديهم، وفي هذا خسارة ليس لهم وحدهم ولكن للوطن كله وللقضية التي يناضلون من أجلها. أقر الحاضرون جميعًا بصوابية ذلك وبالحاجة الماسة إلى إفهام الطلاب أن الأمر إذا تجاوز حده انقلب ضده إلا أنهم قالوا: إن هذه مهمة المعلمين والمعلمات ولا نستطيع نحن كحركة فتح أن نصدر أية مناشدة علنية بهذا الصدد.

عودة إلى ذلك اللقاء

في هذا الجو غير المريح _مع الحاكم العسكري_طرح أحد المدرسين موضوع تواجد الجيش في موقع قبر النبي يوسف وأن هذا يسبب الاحتكاك مع الطلاب، وهنا انفجر الحاكم العسكري غاضبًا وبصوت عالٍ قال: من حق الجيش أن يكون في أي مكان، كنت أستمع إلى مثل هذه الأقوال فيما مضى أما الآن، فإنني لا أشتري مثل هذه الأقوال بقرش، لقد طلبت من أحد المعلمين أن يقول لي أسماء بعض من صوَرناهم وبيدهم الحجارة فرفض وكأن المساعدة على ضبط المشاغبين عمالة للاحتلال، أنا سأعرف حالي معه.

لو كان الموقف يحتمل الضحك لانفجرت ضاحكًا من تلك التهديدات. وكان جميع الحاضرين على علم أنني أنا المقصود، ونظرت إلى الحاكم فإذا هو يركز بصره فيَّ وعيناه تكادان تقدحان شررًا.

أراد معلم أن يلطف الجو ويخفف من حدة الحاكم فحدث الحاضرين عن سؤال طرحه صحفي على وزير الدفاع الأمريكي السابق، روبرت مكنامارا. سأله الصحفي ما الذي يحل هذه المشاكل المعقدة التي تعصف بالعالم، فقال: التعليم ثم التعليم ثم التعليم. وبالفعل نجح في تلطيف الجو بعض الشيء فغادرنا القاعة وفي أنفسنا غضب

على الذين ضحكوا علينا فجرّونا إلى هذا اللقاء غير المبارك.

في هذه الأثناء قررت قيادة العمل النقابي أن تبدأ التخطيط للإضرابات مطالبة بتحسين رواتب المعلمين، وأن نبدأ بإضراب يوم تحذيري يكون في الوقت نفسه إضرابًا تجريبيًا نكتشف من خلاله مقدار استعداد المعلمين للتجاوب مع هذه الجهود التي نعلم مسبقًا أنها ستكشف عن التباين الكبير بين الناس.

جرى طرح موعد للإضراب التحذيري، ثم جرى تعديله إلى موعد آخر فموعد آخر إلى أن استقر الرأي أخيرًا على أن يكون موعده الرابع من أيار 1978.

وكتبنا عريضة فيها مطالب متعددة وأهم ما فيها المطالبة برفع الراتب بنسبة كبيرة، وبدأت المذكرة تتنقل بين المدارس وتحظى باهتمام النسبة الكبرى من المعلمين والمعلمات مع امتناع البعض طبعًا عن الدخول في هذه المغامرة. ولفرط إقبال المعلمين عليها صرنا كلما امتلأت ورقة ألصقنا بها ورقة أخرى وهكذا حتى أصبحت العريضة لفافة كبيرة، فقررت أن أحملها إلى مدير التربية والتعليم ليوصلها هو إلى ضابط التربية والتعليم في بيت إيل، وسبقني الأستاذ محمد أبو لاوي إلى مكتب التربية ليمهد للعريضة عند مدير التربية الأستاذ أكرم فضة، وبالفعل عندما دخلت على الأستاذ أكرم وجدت (أبو لاوي) عنده، فسلمته العريضة، وعند المساء مررت على مندوب جريدة «القدس» فحدثته عن موضوع الوثيقة، ثم فطنت فجأة إلى أنه سينشر مضمونها قبل أن تصل إلى ضابط التربية والتعليم، فرجوته ألا يفعل وأن ينتظر إلى حين اطلاع ضابط التربية والتعليم عليها مراعاة للذوق، فضحك وعلمت أنه ناشر الخبر لا محالة؛ لأن أي سبق صحفي حول أي خبر يهم جمهورًا عريضًا من الناس يعتبر عند الصحفي صيدًا ثمينًا يستحيل التفريط فيه. فقلت في نفسي: لا بأس، وما المانع، فالمهم عندنا أن يعرف المعلمون والمعلمات في كافة أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة أن للمعلمين مطالب ولهم نشاط نقابي بدليل يوم الإضراب التحذيري المزمع تنفيذه.

بعد أن انتهيت من العريضة بأيام، وكان ذلك في شهر آذار، جاءني استدعاء إلى دائرة المخابرات الإسرائيلية في العمارة، فتوجهت إليها من المدرسة وأدخلت إلى غرفة

فيها ضابطا مخابرات عرفاني على نفسيهما، أحدهما باسم الكابتن أبو يعقوب، والآخر الكابتن أبو موسى، وكلاهما يتقن العربية. وكان ملفي أمامهما وأرادا أن يفاجئاني ففتح أحدهما الملف فإذا صورة شخصية لي على وجه الملف وأراد أن يشعرني أنهم يأتون بخبري وبصوري من حيث لا أدري، ثم أخذ مني الهوية وفتحها فكانت المفاجأة العكسية فالصورة التي في الملف هي ذاتها الصورة التي على الهوية، أراد الضابط أن يوحي إليّ أنهم يأتون بصورتي من مصادر لا أستطيع معرفتها. لم يستطع الضابط أن يخفي ما اعتراه من خيبة فقد بانت على وجهه مما أدخل السرور إلى نفسي، وحاول أن يعالج الموقف فقال لي: إن الهوية قديمة وتكاد تتمزق، فلماذا لم تغيرها؟ فوعدته بتغييرها، ثم كان السؤال عن الأحوال الشخصية من كافة جوانبها، ثم دارت الأسئلة حول سفرياتي والغاية منها وما إذا كنت سافرت إلى أوروبا وعن اتصالاتي في أسفاري وهكذا ولم ينسيا -بطبيعة الحال- أن يعرضا عليَّ عرضًا مغريًا حول خطة للفائدة المتبادلة، ودامت المقابلة ثلاث ساعات.

الاعتقال الأول

بعد ذلك بنحو أسبوع جاءني طلب للمقابلة في المقاطعة (مركز الشرطة)، فتوجهت عصرًا وهناك قابلني المحقق الدرزي يوسف العلي (أبو النمر) الذي كان معروفًا ببطشه مدعومًا بضخامة في الجسم وجلست في مكتبه ليشعرني أنني معتقل، ولم يخبرني عن التهمة، ثم جلست معه مرة أخرى بحضور درزي آخر كان صامتًا معظم الوقت وكانت تلميحاته إلى أنني أحرض الطلاب وأننا نحن المعلمين لم نخلص في فرض الانضباط على التلاميذ ولو كنا مخلصين -كما يزعم- فإن للمعلم مكانة عند الطالب وإذا قال له: لا تفعل، فإنه يمتثل. هذا ما تصوره شرطي شبه أمي لا علم له بحقيقة الأمر، وحاولت أن أوضح له خطأ وجهة نظره، فلم يعطني أية فرصة، واستدعى الشرطي العربي وطلب إعادتي إلى الزنزانة، ثم علمت مما جرى مع غيري من المعتقلين الأمنيين، ومنهم أكبر مني سنًا بكثير أن معاملته لي اتسمت باحترام غير مسبوق.

في منتصف الليل جيء بمجموعة من الشباب من قرية تل، وعرفني أحدهم إذ تبين أنه طالب في مدرسة قدري طوقان، وقد تسليت بأحاديثهم عن وقائع اعتقالهم والتي هي التجربة الأولى لكل واحد منهم، مثلما أن اعتقالي كان التجربة الأولى لي. في اليوم التالي عند الضحى طلبني ضابط يهودي إلى مكتبه في الطابق الأعلى حيث قسم التحقيقات المشددة، وكان دور الشرطي العربي أن يوصلني إلى باب المكتب ثم يهبط الدرج إلى الطابق الأسفل.

كان الضابط اليهودي واضحًا ومحددًا، فقد أخبرني أنني متهم بإنشاء نقابة سرية أنا وآخرون من مدارس مختلفة وأنه يريد أن يعرف من معي ومن يدعمنا وما أبعاد ما نقوم به، فقلت له: إن العمل النقابي مشروع في إسرائيل وأننا في الضفة نطالب بالفعل بنقابة وهذه ليست تهمة، ثم بادرته بسؤال: هل أنا متهم بحيازة أسلحة أو متفجرات؟ فقال لي: لا، فإن تهمتك سياسية. ثم أردف: أريد أن أخبرك أنك إذا لم تعترف بها فعندي صلاحيات استخدام القوة في التحقيق، وأصارحك أن معظم الناس أستطيع استخدام الشدة معهم في التحقيق دون الحاجة إلى إذن، وإن أصنافًا من المتهمين لا أستطيع استخدام الشدة معهم إلا بتصريح، ويؤسفني أن أوضح لك أن معي تصريحًا من أعلى مستوى باستخدام الشدة معك.

قلت له: عندما أجد نفسي عاجزًا عن الاحتمال سأُوَقِّع لكم على بياض. فقال: نحن دولة ديمقراطية، لا نقبل التوقيع على بياض.

قلت له: تقول إن تهمتي سياسية. وأية ديمقراطية في توجيه تهمة سياسية؟

فقال: تكلمت كثيرًا، وسوف أُمهلك نصف ساعة كي تفكر بالأمر وبعد ذلك سيجري معك التحقيق المشدد. ثم استدعى الشرطي الذي أوصلني إلى الزنانة، ثم مرّ اليوم كله ولم يجرِ استدعائي، وفي اليوم التالي تم ترحيلي أنا والزميل عدنان أبو ليلى إلى سجن نابلس المركزي وكان أبو ليلى في مركز الشرطة، ولكن في زنزانة أخرى. وهناك مكثنا أسبوعًا واحدًا ثم جاءنا الإفراج، واستنتجنا أن المقصود من الاعتقال كان تخويف قيادة المعلمين من أجل أن يلغوا قرار الإضراب التحذيري، وكان لهم ما أرادوا، فقد أُلغي الإضراب التحذيري الذي كان مقررًا.

كان القرار من ضابط التربية والتعليم وقفي عن العمل وتجميد راتبي إلى حين البت في قضيتي، ولقد وقفت حركة فتح وقفة متضامنة وكذلك تضامنت معي الهيئة التدريسية في مدرسة قدري طوقان، فلم أشعر بضائقة.

لم تلبث أن انتهت السنة الدراسية؛ فقد كان اعتقالي في مطلع نيسان ولم يزد على عشرة أيام، ثم مر شهر أيار، وحزيران وطلبت مقابلة الحاكم العسكري لأناقشه في أمر عودتي إلى العمل، ولم يمض طويل وقت حتى بُلِّغت بموعد المقابلة، وكانت بدايتها مستفِزّة من قبلي دون قصد، فقد احتججت على وقف راتبي وتجميدي من غير أن يصدر حكم ضدي فاحتدّ الحاكم وقال لي بلهجة شديدة: هل نقصد أن نظلم يوسف عارف؟ لماذا؟ وعندما رأيت حدته ابتسمت فأنا أعرفه من كثرة ما قابلناه في أيام الاضطرابات وهو يعرفني أيضًا ونعرف فيه الحدّة إلا أنه من النوع الذي يمكن مناقشته، فهدأته ابتسامتي وقلت له: لم أطلب المقابلة لأُغضبك، بل لأطلب عودتي إلى العمل، فأراد أن يعطيني صورة عن متاعبهم مع الفلسطينيين فقال: إن الميزانية المدنية للحكم العسكري في الضفة الغربية 650 مليون ليرة، وإن واردات الضفة الغربية من الضرائب وعائدات الجسور وغيرها لا تتجاوز 450 مليون ليرة ودافع الضرائب الإسرائيلي يدفع 200 مليون ليرة، هذا مصروف الوظائف وباقي الشؤون المدنية، غير ما تكلفه قوات الجيش التي تحفظ الأمن، وإن علاقتنا بالضفة الغربية ستكون في أضعف الأحوال علاقة جيران، فنحن نريد جيرانًا مثقفين كي تكون جيرتهم سهلة، لذا فإننا حريصون على أن يستمر التعليم ويتواصل، ونحن نأمل من المعلمين أن يساعدوا في فرض النظام والانضباط كي يتعلم أبناؤهم وهذا لمصلحتهم قبل مصلحتنا، وإنني أتفاجأ جدًا عندما أعلم أن معلمًا يحرض الطلاب على الفوضى، ليكتسب شعبية رخيصة.

وبالطبع نفيت أنني أسعى إلى الشعبية، فتساءل كما تساءل من قبله مساعده حداد في مقابلة سابقة عن سبب التجاوب الكبير معي من قبل الطلاب والمظاهرات والفوضى العارمة التي حصلت على إثر اعتقالي، فأوضحت له أن ذلك كان سيحدث لو كان المعتقل غيري، فإن الطلاب يرفضون أن يجري اعتقال معلميهم ويتظاهرون تنديدًا بالاعتقال.

وأخيرًا قال الحاكم: أوافق على عودتك إلى الوظيفة، ولكن ستكون في غير قدري طوقان.

كان ذلك في العطلة الصيفية ولدى بدء السنة الدراسية التالية 1978/ 1979 تم نقلي إلى مدرسة حوارة الثانوية. كانت فترة عملي في حوارة لمدة سنتين فترة رائعة في محيط العمل مثلما كانت رائعة في قدري طوقان، ففي حوارة أيضًا حظيت بزملاء كانت بيني وبينهم ألفة تامة، حتى لم نكن ندري كيف تمر الأيام.

كان منهم أستاذي ومن ثم زميلي وصديقي راشد من سيلة الظهر، وآخر هو من جيل أساتذتي، لكنني لم أكن حظيت بالتتلمذ على يده، ولكنني حظيت بزمالته وصداقته المتينة والتي لم تنفصم عراها على مَرّ الأيام، مدير المدرسة أبو بسام، محمود معروف، من بورين والأصدقاء الأساتذة يونس الضميدي وأيوب سويدان وسامي سالم والمرحوم زهير الجاسر، والمرحوم فؤاد شحادة وأبو أيمن بدر الكخن. كما كنت أحظى بمحبة متميزة واحترام كبير من الطلاب، إنها فترة كانت في غاية الجمال.

على الصعيد العام استمرت المظاهرات في مدارس في المدينة والقرية وكان الجنود كثيرًا ما يقتحمون المدرسة، أما على الصعيد المادي، فالأمور كانت في تراجع متواصل للمعلمين وللموظفين الذين تفرض عليهم طبيعة وظيفتهم الاقتصار على الراتب لانعدام وسائل تحسين الدخل عن طريق العمل الإضافي.

لقد انتشر الفساد بين فئات من الموظفين ممن توفر لهم وظائفهم فرصة للكسب الحرام، فقد كثرت الرشاوى والاختلاسات في تلك الفترة. وكان التأمين الصحي الحكومي الذي يتمتع به موظفو الحكومة لم يعد يوفر للموظف إلا مجانية كشفية الطبيب الذي لم يكن يكشف عن المريض حقيقية؛ لأنه لا وقت لدى الطبيب ولا استعداد لفحص مراجعيه الذين هم بالعشرات فحصًا دقيقًا، لم تعد الأدوية متوفرة في صيدليات العيادات الحكومية، وبما أننا واقعون تحت الاحتلال وتوفير الأدوية من مسئولياته، كانت السلطات الصحية المحلية تلقي باللائمة على الاحتلال الذي لا يوفر الخدمات الملائمة للمواطنين، وتفاقمت الأزمة، فشكلت منظمة الصحة العالمية لجنة

تحقيق أمام ادعاء الفلسطينيين بتقصير الاحتلال وادعاء الاحتلال بأنه يزود الصيدليات الحكومية بالأدوية الكافية، ولكنها تباع في الصيدليات التجارية.

في الحقيقة إن بيع الأدوية الحكومية كان معروفًا وكانت صيدليات كثيرة لا تخفي أنها تشتري الأدوية من مصادر طبية حكومية. وجاءت لجنة التحقيق وحققت في الموضوع أيامًا عديدة، ثم خرجت بنتيجة أن السلطات الصحية المحلية هي المسئول عن نقص الأدوية في الصيدليات، وقد أثار التحقيق حنقًا واسعًا بين المعلمين وكان مما أسس للإضراب الكبير، فالأطباء لا يرضي الكثير منهم في اليوم الواحد دخل المعلم عن شهر كامل ومع ذلك فكثير منهم لا يشبعون. وانتشر الحديث عن الرشوة بين القضاة وبين مهندسي الأبنية والمشاريع المختلفة، وصار كل من يستطيع أن يفسد لا يجد رادعًا من دين أو مروءة.

وبقي المعلم يرزح تحت وطأة الغلاء بحيث أصبح عاجزًا عن أن يوفر المتطلبات الأساسية لعائلته.

لقد صدف ذات مرة أن قبضنا الراتب قبل بداية الشهر بيومين من أجل العيد، وعندما حل اليوم الأول من الشهر لم يكن في جيبي فلس واحد.

في هذه الفترة حدثني صديق معلم أنه هو ومجموعة من المعلمين يتوجهون إلى مصنع إسرائيلي ليلًا، ثم يعودون عند الفجر، ولقد هممت أن أنضم إليهم، لكنني وجدت ذلك عيبًا وآثرت عليه الصبر على سوء الحال.

في هذه الفترة، فترة عقد السبعينات، وبالضبط منذ انتهاء حرب أكتوبر 1973، قد تكشف مدى عجز العرب عن تحرير أرضهم المحتلة، وتغنيهم بنصر لم يكن في الحقيقة إلا أكذوبة، وظهور ميول المصريين والسوريين إلى الحصول على حل للمشكلة الخاصة بكل منهم مع إسرائيل وترك الشعب الفلسطيني في مهب الريح، كل هذا أدى إلى يأس مطبق عند الفلسطينيين، أضيف إليه اضطرابات في الاقتصاد الإسرائيلي تمثلت في الانخفاض الكبير المتكرر في قيمة الليرة الإسرائيلية وما ينتج عنه من ارتفاع خيالي في الأسعار، كل ذلك جعل أعباء الحياة على الفلسطينيين تثقل كاهلهم بأكبر مما يطيقون.

كنا نفاجأ أحيانًا بقرار رسمي إسرائيلي بتخفيض قيمة الليرة 40٪ وهذا يعني ارتفاع الأسعار بنسبة تساوي نسبة التخفيض أو ربما زادت عليها، ثم نفاجأ بعد أسابيع بتخفيض أخر وهكذا، ثم اضطرت الحكومة الإسرائيلية في مطلع الثمانينات إلى تبديل عملة الليرة بعملة جديدة سمتها الشيكل بحيث يساوي الشيكل عشر ليرات، وذلك لتخفيف الأرقام عن الآلات الحاسبة وأجهزة الكمبيوتر التي كانت لا تزال حديثة النشأة ومحدودة السعة، لكن هذا التعديل لم يصمد طويلًا فقد واصل الشيكل انخفاضه وواصلت الأسعار ارتفاعها، ومع كل خفض للشيكل وارتفاع للأسعار يجري زيادة على الرواتب وعادت الأصفار في الكمبيوتر إلى التكاثر كثرة هائلة، فاضطرت الحكومة الإسرائيلية عام 1985 إلى إلغاء الشيكل وإحلال عملة جديدة محله باسم: الشيكل الإسرائيلي الجديد، وأصبح الشيكل الجديد يساوي ألف شيكل قديم، وكان ألف الشيكل القديم قد أصبح قطعة عملة معدنية يحملها الطفل إلى الدكان ليشتري بها قطعة حلوى.

في تلك الفترة أصبحت وظيفة المعلم موضع إطلاق النكات عند الناس؛ لأن راتبه لم يعد يكفي قطًا مدللًا.

كانت فرصة تصحيح أوراق الثانوية العامة (التوجيهي) فرصة جيدة من ناحيتين؛ الأولى أنه يعود على المعلمين ببعض الفوائد المادية الإضافية وهي ـوإن كانت قليلةـ تسدد بعض المطالب، والناحية الثانية ـوهي الأهمـ أن المعلمين من أرجاء الضفة الغربية كلها كانوا يأتون إلى نابلس؛ لأنها كانت مركز التصحيح لجميع المواد، فكان يجري التعارف وتبادل الآراء والخوض في مشاكل المعلمين وفي همومهم والبحث في طرق حلها، وهذا الأمر الأخير، كان معلومًا لدى الجميع وهو أن أوضاع المعلمين لا تتحسن إلا بالنضال إلا أن الموظفين بشكل عام والمعلمين بشكل خاص، في ظروف محدودية أبواب الرزق تحت الاحتلال لم يكن هذا الطرح يحظى بالشعبية بينهم لما يعرفون من بطش الاحتلال وعدم تردده في الاعتقال والفصل وأنواع التعسف الأخرى ومنها منع من يريدون التضييق عليه من مغادرة الضفة الغربية للبحث عن أسباب الرزق خارج البلاد. كان لا بد من الشجعان الذين لا يهمهم ما يمكن أن يفعله

الاحتلال بهم، وكانت تجربة اعتقالي التخويفي وتجربة الإضراب التحذيري الذي ألغي بعد اعتقالي مجرد تجربة أولية أعطت انطباعًا بأنه يوجد بين المعلمين من هو على استعداد لأن يتحرك.

في غمرة الفوضى الاقتصادية التي كانت تتخبط فيها دولة الاحتلال ويعاني منها الفلسطينيون أشد معاناة، وقد اشتدت حاجة المعلمين إلى أي فلس إضافي، تضاءل العائد من التصحيح حتى لم يعد شيئًا مذكورًا وتباطأ دفع هذا الضئيل حتى صار يدفع بعد ثلاثة أشهر وكان في نهاية السبعينات بالليرة المتدهورة، فكان الأجر حين يدفع يكون قد نقص نصف قيمته التي كان عليها عند بدء العمل، مع العلم أن عملية التصحيح متعبة جدًا ويبدأ فتح الدفاتر في السابعة والنصف وتغلق في الساعة الثالثة وكان المعلمون من جميع الألوية ما عدا لواء نابلس تحسب لهم وجبة غداء أما معلمو ومعلمات نابلس فإن عليهم الواجب الذي على غيرهم وليس لهم الحقوق نفسها وكان هذا موضع احتجاج مرير ومحرضًا قويًا لمعلمي نابلس أن يقاطعوا عملية التصليح ما لم يحصلوا على حقوقهم كاملة بالإضافة إلى أن ضآلة المردود المادي بالنسبة للجميع كانت محرضًا أساسيًا لجميع المصححين لوضع المسئولين أمام واحد من خيارين اثنين: إما تحسين الأوضاع وإما الامتناع عن العمل، وكان المطلوب أن يتقدم رواد من المعلمين لتحريك الأوضاع.

في تلك الفترة كانت امتحانات التوجيهي تعقد مرتين ويجري التصحيح بالتالي مرتين الأولى في الشهر الأول من السنة، والثانية في شهر حزيران من السنة نفسها.

في كانون ثان عام 1979، كان تصحيح أوراق امتحان التوجيهي شاقًا كما هي عادته وتأخرت الأجور عدة أشهر وعندما وصلت كانت ضئيلة جدًا، فرتبت في قرارة نفسي أن أمتنع عن التصحيح في المرة القادمة، وما أسرع ما جاءت المرة القادمة في شهر حزيران 1979، عندما حل اليوم الأول من أيام التصحيح توجهت إلى مدرسة الملك طلال الثانوية حيث كان تصحيح أوراق اللغة العربية، وسلّمت على من أعرفه من الزملاء، ووقفت أتحدث إليهم عن أن التصحيح أصبح عملية غير منصفة، إذ يختار له

أكفأ المدرسين ليقضوا أربعة عشر يومًا في تصحيح مرهق وبأجر زهيد، وتحلق بعض المعلمين حولي وأوضحت لهم أنني أنوي الانسحاب الآن ووجدت تجاوبًا من عدد من المعلمين، وجاء رئيس اللجنة الأستاذ محمد العتيلي، وكان يستلم رئاسة اللجنة لأول مرة، ورآنا نتحدث مع أن اليوم الأول يحتاج إلى نشاط مكثف، فهنالك عملية عد الدفاتر التي يجب أن يشارك فيها الجميع ويجب أن يكون العدد مطابقًا للأرقام التي في الأوراق الرسمية، ثم بعدها يجري فرز المعلمين لتستلم كل فرقة منهم سؤالًا تكون هي من يصححه للضفة الغربية كلها، ثم هنالك مناقشة السؤال والإجابات وإعداد الجداول بأسماء المعلمين ومعلومات وافية عن كل معلم ومعلمة، ثم تبدأ كل فرقة بتصحيح بعض الدفاتر تصحيحًا تجريبيًا، ثم يبدأ التصحيح.

صاح بنا رئيس اللجنة كي نتحرك لنبدأ العمل فقلت له: أنا لا أنوي العمل وقال له آخرون مثل ذلك وهممنا بمغادرة المدرسة إلا أننا وجدنا أن من الأفضل أن نبقى إلى أن يأتي المسئولون عن الامتحانات ونسمعهم مطالبنا، والمسؤولون ثلاثة: مدير التربية والتعليم وكان وقتها صلاح العالم، ومدير الامتحانات وكان وقتها مطيع أبو حجلة ورئيس لجنة الامتحانات العامة وهو المسئول الأول وكان وقتها المرحوم الأستاذ إبراهيم صنوبر.

ولكن المفاجأة السارة أننا لم نلبث إلا دقائق معدودة حتى وصل معلمون من رام الله لم أكن أعرفهم من قبل ولم يكونوا يشاركون في التصحيح، لكننا وجدناهم قادمين للنضال من أجل حقوق المعلمين، وبمقدار ما سعدنا بهم سعدوا هم أيضًا بنا.

إن المطلب الأكبر لهذه الحركة الوليدة كان الشجاعة، إذ شعر المعلمون أنه لم يعد ثمة مكان للجبن والخوف من المسئول ومن بطش الحكم العسكري، فهذه انطلاقة الرواد الذين لا يخافون وكان هذا أشد ما يحتاج إليه المعلمون.

قبل انعقاد دورة التصحيح هذه كنا قد سمعنا بمعلم من بيت أمر، قضاء الخليل، هو الأستاذ صقر أبو عياش، أخذ على عاتقه إقامة الدعاوى ضد الحكم العسكري بخصوص مصادرة الأراضي، وكانت هذه مهمة شجاعة منه، وفي ذلك

اليوم، وجدناه قد جاء إلى لجنة التصحيح يطلب من المعلمين أن يوكلوه ليرفع قضية ضد ضابط التربية والتعليم بخصوص رواتب المعلمين وأوضاعهم.

منذ الساعة الأولى في ذلك اليوم اتضح. أن قيادة العمل النضالي في صفوف المعلمين كانت أكثر تنظيمًا في رام الله، وأنهم جاءوا يحملون مطالب واضحة ومدروسة قانونيًا، وكان كبار الناشطين فيها ثلاثة هم الأستاذ ثم الدكتور فيما بعد، سمير التميمي والمعروف باسم سمير شحادة، وفضل الريماوي وندى الشعيبي وثلاثتهم من رام الله، ولكن ما من لواء إلا سرعان ما انبرى منه قياديون جاهزون للحركة.

اجتمعنا بالأستاذ صقر أبو عياش وقوفًا في مركز التصحيح (مدرسة الملك طلال)، وطلب الزملاء مني أن أتحدث إليه باسمهم، فأثنيت على شجاعته وقلت له إننا نعد أمثاله مكسبًا إلا أن العمل الفردي محفوف بالمخاطر؛ لأن اعتقال الفرد الناشط الذي يبذل الجهد بشكل فردي، يقضي على كل ما بنى، فحتى تكون الحركة في منأى عن الانهيار المفاجئ لابد أن تكون جماعية، لذا نشأت لجنة من الضفة الغربية كلها قررت أن تناضل لإنشاء نقابة للمعلمين وسنرفع دعوى إلى المحكمة العليا ضد ضابط التربية والتعليم ويسرنا أن تكون جزءًا من هذه الجهود.

تفهم أبو عياش وجهة نظرنا وظل مشاركًا في جهود الأيام التالية، ثم توجهنا إلى رئيس لجنة اللغة العربية وأبلغناه بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن سائر المعلمين والمعلمات بأننا مضربون عن التصحيح ولنا مطالب نريد أن نناقش بها رئيس لجنة الامتحانات العامة مع العلم أن مصححي اللغة العربية كانوا أول المصححين ولم يكن في ذلك اليوم مصححون غيرهم؛ لأن امتحان اللغة العربية هو الأول وبداية تصحيحه تسبق غيره من مواد امتحان التوجيهي الأخرى.

لم يتأخر رئيس اللجنة عن الحضور ومعه بعض مسئولي قسم الامتحانات، وكانت لجنة رام الله قد أعدت مطالب تبين لي فيما بعد أنها مدروسة قانونيًا، وكان الناطق باسمها سمير شحادة، وجرى النقاش بحضور مفتوح، فشاهد المعلمون ربما لأول مرة كيف تعلو لهجة المعلم على لهجة أكبر المسئولين.

كان المطلب الأول زيادة أجور التصحيح بنسبة 94٪ ولكن هذا الرقم لم يعجبني فأصررت على أن يكون مطلبنا زيادة الأجور بنسبة 300٪ فلم يملك الإخوة من لجنة رام الله إلا تعديل المطلب الذي تقدموا به. أما المطلب الثاني: فهو أن المعلمين سيأتون من أماكن بعيدة وسيتكلفون مبالغ من المال للمواصلات وللمصروف الشخصي لا يستطيعون توفيرها، فلابد من دفع سلفة على أجور التصحيح.

أما المطلب الثالث فهو ضرورة الإسراع في دفع الأجور ولا يجوز تأخيرها أربعة أشهر.

أراد المرحوم إبراهيم صنوبر أن يلتف على المطالب بقوله: إن هنالك لجنة تقوم الآن بدراسة الوضع كلّياته (كله) وشدد على حروف الكلمة الأخيرة فانفجر المعلمون بالضحك العالي، فشعر أن ما قاله يعتبر عند المعلمين نكتة، فإنهم لا يثقون بتاتًا بهذه اللجان التي تدرس أوضاع المعلمين، ثم يتمخض جبلها كل مرة فيلد فأرًا.

لم يعدنا صنوبر بشيء، فلجنة الامتحانات العامة هي من الناحية المالية ملزمة بسياسة ضابط التربية والتعليم.

بالطبع أصررنا على الإضراب إلى أن تتحقق مطالبنا، وفي اليومين الثاني والثالث مررنا على لجان التصحيح للمباحث التي لحقت مبحث اللغة العربية يومًا بعد يوم، ودعوناهم إلى الإضراب فاستجابوا بسرعة، وأصبحت اللجان كلها متوقفة والدفاتر في صناديقها، لكن المعلمين القادمين من أماكن بعيدة، وقد نزلوا في الفنادق وظلوا في فنادقهم ينتظرون النتيجة.

وبما أن مطالبنا كانت بيد الحكم العسكري المتمثل بقيادة الضفة الغربية وضابط التربية والتعليم، دعينا إلى اجتماع مع نائب قائد الضفة الغربية الكولونيل موريس وضابط التربية والتعليم إدوارد خليف، وعدد من مسئولي التربية والتعليم العرب. كان تصميم اللجنة القيادية أن تكون هي من يتصدى للمسئولين اليهود ويقارعهم في مطالب المعلمين.

كان المتحدث الرئيس هو الكولونيل موريس نائب الحاكم العسكري للضفة الغربية، فتحدث عن الوضع الاقتصادي الصعب في إسرائيل والذي بلغ حد تخفيض رواتب الطيارين، وأن القرار الاقتصادي معقد ولا تتخذ القرارات فيه بسهولة، وأن مطالبنا بالزيادة غير واقعية فالأقساط التي تجمع من الطلاب لا تغطي إلا جزءًا يسيرًا من تكاليف الامتحانات وأن قيادة الضفة الغربية تغطي الباقي، فجرى بيننا وبينه حديث مفتوح حول ضآلة الرواتب عندنا، وكان راتب المعلم لا يتجاوز أربعة آلاف ليرة، وأن رواتب الإسرائيليين خيالية، فقال: إن الأمر ليس هكذا. صحيح أن الرواتب في إسرائيل أكبر منها في الضفة الغربية، ولكن ليس بالفارق الذي تتخيلونه، مع العلم أن الأسعار في إسرائيل أعلى، ولكن ليس بفارق كبير. فقال له أحد المعلمين: نريد أن نسألك عن راتبك. فقال بتواضع: إنه ستة عشر ألف ليرة. أي: لا يزيد على راتب المعلم في الضفة الغربية بأكثر من أربعة أضعاف. رفعت يدي طالبًا حق الكلام فوجهت كلامي إلى ضابط التربية والتعليم، قائلًا: إذا كان غير ممكن زيادة أجرة التصحيح بالقدر المعقول، فليكن التصحيح واجبًا على الجميع وأن يعتبر جزءًا من واجبات الوظيفة ومن غير أجور، فرد الضابط بأنك تستطيع أن تتنازل عن أجرك فرد عليه أحدهم: على أن يكون التصحيح واجبًا على الجميع، فلم يتعامل ضابط التربية مع الاقتراح إلا أن الكولونيل موريس أقر بأن أجور التصحيح قليلة ووعد بزيادتها وأقر بأنها تتأخر كثيرًا فوعدنا ألا تتأخر الأجور أكثر من أسبوعين بعد انتهاء عملية التصحيح مع الإقرار بحاجتنا إلى مبلغ من أجرة التصحيح يدفع في بداية العملية كسلفة، كما أنه وعدنا بزيادة على الرواتب تبلغ 15٪، ولم ينس أن يقلل من أهمية هذه الحركة التي قمنا بها مدعيًا أن هذه التحسينات جاءت نتيجة قناعة الحكم العسكري لا نتيجة إضرابكم. فلم نعلق على ما قال، ولكن تكونت لدينا قناعة بأن نعود إلى التصحيح ابتداءً من صباح اليوم التالي، وأن نعمم القرار في وسائل الإعلام لكي يعلم به المعلمون والمعلمات الذي عادوا إلى بيوتهم في مختلف أماكن الضفة الغربية فيلتحقوا بلجانهم في الموعد المحدد.

لقد تقرر موضوع السلف وعاد المعلمون إلى مقاعد التصحيح، ولكننا فوجئنا أن لواء نابلس غير مشمول بقرار السلف بالإضافة إلى مطلبنا الآخر الذي لم يتحقق

بعـد وهـو حـق اللـواء في وجبـة غـداء أسـوة بالمعلمـين والمعلـمات مـن سـائر المناطـق. عممـتُ عـلى معلمـي نابلـس ألا يبـاشروا العمـل إلى أن يتحقـق المطلبـان، وأراد المعلمـون مـن كافـة المناطـق أن يواصلـوا الإضراب إلى أن تتحقـق مطالـب معلمـي نابلـس فرجوتهـم أن يبـاشروا العمـل الآن حتـى لا تتأثـر مصداقيتنـا بعـد أن علـم الجميـع أننـا قرنـا استئناف التصحيـح، وأكـدت لهـم أن ضغـوط معلمـي لـواء نابلـس كفيلـة بـأن تحقـق لهـم مطالبهـم، وبالفعـل كان ظنـي في محلـه فقـد جـاء إلى مدرسـة الملـك طـلال رئيـس لجنـة الامتحانـات ومديـر التربيـة والتعليـم واجتمـع بقيـادة المعلمـين ـ وكنـت بطبيعـة الحـال ـ أحـد المعنيـين، وموقفـي سـيكون حاسـمًا، وحـاول مديـر التربيـة والتعليـم أن يقنعنـي بـألا أكـون مـع المفاوضـين، وكان هدفـه أن يدخـل غرفـة التفـاوض معلمـون (يـروح الكلام معهـم ويجيء) أي؛ يمكـن إقناعهـم بالتنـازل عـن المطالـب، لكـن طلبـه لم يكـن معقـولًا ولا مقبـولًا منـي ومـن الأسـاتذة الآخريـن، وجلسـنا للتفـاوض فحـاول المسـئولان إقناعنـا بصعوبـة الوضـع المـالي وبالتـالي صعوبـة أن تُدفـع لنـا سـلف، فصممنـا عـلى عـدم قبـول هـذا العـذر وأوضحنـا لهـما أن المعلمـين لا يملكـون أجـرة السـيارة التـي سـتأتي بهـم إلى قاعـات التصحيـح، وأخـيرًا تقـررت السـلفة لنـا أسـوة بغيرنـا كـما تقـرر أن يكـون لنـا وجبـة غـداء أسـوة بغيرنـا أيضًـا وخرجنـا لنبـشر المعلمـين والمعلـمات المتجمهريـن بـأن مطالبهـم تحققـت، فعدنـا جميعًـا إلى قاعـات التصحيـح.

الدخان بئس الصاحب الوفي

كانـت صحبتـي للدخـان صحبـة المشـاكل مـن أول يـوم، وبـدأت تلـك الصحبـة منـذ كنـت طفـلًا، ففـي عـرس لأحـد أبنـاء القريـة في منتصـف الخمسـينات وقبـل أن أبلـغ العـاشرة، طلبـت مـن العريـس[1] سـيجارة وكانـت المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا عـن سـيجارة لولـو، وهـو أرخـص أنـواع السـجائر في ذلـك الوقـت، وطلبـت السـيجارة وأنـا أظنهـا مـن

(1) الصحيح في اللغة الفصيحة: العروس، فالرجل عروس والمرأة عروس وهما معًا عروسان.

لؤلـؤ كـما يوحـي اسـمها، والـذي دلنـي عـلى هـذا الطلـب بعـض الأولاد الذيـن حصلـوا عليهـا، وعندمـا وجدتهـا سـيجارة تبـغ وليس فيهـا لؤلـؤ عـلى الإطـلاق قـررت أن اسـتفيد منهـا فدخنتهـا ووجـدت أن الدخـان يسـبب دوران الـرأس، فرمـى أحـد أصحـابي السـيجارة التـي كانـت بيـده ولم يعـد إليهـا بعـد ذلـك، أمـا أنـا فـأصررت عـلى تدخينهـا، ثـم أصبحـت بعـد ذلـك عـادة عنـدي أسـوة بمعظـم الأولاد، نـرى أجمـل مـا في العـرس أننـا نحصـل عـلى سـجائر مـن العريـس، وأذكـر أننـي أخـذت سـيجارة إلى والـدي ليشـعلها لي، فلـم يوبخنـي ولم ينهنـي عـن التدخـين ولم يبصّرنـي بمضـار التدخـين، لكنـه أشـعل لي السـيجارة وناولنـي إياهـا مـع أنـه لم يدخّـن قـط، وقـد غلبـت عليـه مشـاعر الزهـو في أن يـرى ابنـه الأكـبر يتشـبه بالرجـال، وكان هـذا التسـاهل منـه خطـأ جـرّ عـلي المشـاكل الصحيـة.

فعندمـا كـبرت أصبحـت أدخّـن متـى حصلـت عـلى سـيجارة ولم تعـد السـيجارة تسـبب لي الـدوار، كـما كانـت في بدايـة ولعـي بهـا، وعندمـا سـكنت نابلـس للدراسـة ابتـداء مـن عـام 1962 بـدأت أتعاطـى التدخـين وأحسـب حسـاب ثمـن السـجائر مـن مـصروفي الـذي كان ضئيـلًا جـدًا بحيـث لا يتجـاوز في بعـض الأحيـان خمسـة قـروش أو عـشرة قـروش في الأسـبوع، فـإن أبي كان قـد تـرك العمـل في الكويـت واكتفـى بـما يعـود عليـه مـن أعـمال الزراعـة وهـو عائـد لا يكفـي.

لم يكـن ثمـن الخبـز جـزءًا مـن المـصروف الأسـبوعي، فالخبـز كان يأتينـا بالبـاص يومًـا بعـد يـوم ويكفينـا تمامًـا وبالتـالي أسـتطيع أن أخصـص المـصروف أو معظمـه للتدخـين، فلـم يكـن شراء الفواكـه مثـلًا مـن جملـة همومنـا؛ لأننـا لا نطمـع فيهـا، وكل مـا في الأمـر أن الواحـد منـا نحـن الطـلاب إذا ملـك ثمـن أوقيـة كنافـة عـلى فـترات متباعـدة توجـه إلى إحـدى محـلات بيعهـا فأكلهـا بشـهية بخمسـة قروش، وأحسـن مـن الكنافـة، إذا ملك خمسـة القـروش، أن يدخـل بهـا السـينما.

مـن الطريـف أن التلفـون لم يكـن يتوفـر في النصـف الأول مـن السـتينات إلا في المحـلات التجاريـة المعتـبرة وفي بيـوت الأغنيـاء دون غيرهـم. كنـا نذهـب إلى سـينما العـاصي ويلفـت انتباهنـا أن رقـم هاتـف سـينما العـاصي (2).

كنت أشتري خمس سجائر لولو _وهو الأرخص_ بقرش ونصف وأحرص على أن تكفيني أربعًا وعشرين ساعة على الأقل، فإن إمكانياتي لا تتجاوز هذه الحدود.

اضطر والدي إلى أن يتحمل وجودي في المدرسة على الرغم من ظروفه المادية السيئة، وفي النهاية حصلت على شهادة التوجيهي في الفرع الأدبي. وأصبح طموحي أن أدخل الجامعة، ووضعت نصب عيني أن والدي يستطيع أن يبيع لي قطعة أرض إن أراد، وبالفعل حصل ما أريد ودخلت الجامعة، فأصبحت أتعامل مع السجائر بشكل منتظم وأشتري علبة السجائر من نوع أفضل من اللولو، إنه دخان الكمال الذي كان صنفًا شعبيًا جيدا في ذلك الوقت وثمن العلبة خمسة قروش.

في الفترة الجامعية بدأ التدخين يسبب لي الربو المتواصل حتى إنني كنت أعاني من الحشرجة الصدرية الدائمة فأبدو كأنني شيخ هرم، فتركت التدخين أكثر من مرة وكان تركي إياه يمتد بضعة أسابيع أحيانًا وبضعة أيام في أحيان أخرى، ولقد تركته مرة نصف ساعة فقط، ثم لم ألبث أن عدت إليه.

وفي السنوات الثلاث التي قضيتها في السعودية ظللت أتعاطى التدخين وكانت مشاكلي معه أقلّ مما كانت عليه وأنا في الأردن، وعدت إلى نابلس في مدرسة الملك طلال، ثم إلى مدرسة قريوت، ثم إلى قدري طوقان بنابلس وظللت أعاني من هذا الربو، فكنت أترك الدخان، ثم أعود إليه وفعلت ذلك أكثر من مرة. وفي هذه السنة 1978/ 1979 كان الضيق من التدخين قد بلغ مني مبلغًا فقررت تركه وقررت أن تكون التوبة عن التدخين هذه المرة توبة نصوحًا. وبالفعل تركته واستمر تركي له أسابيع لا أعرف عددها وكنت وقتها في مدرسة حوارة الثانوية. وظلت معنوياتي عالية في تلك الفترة، ثم بدأت تضعف تدريجيًا وصرت أذهب إلى المدرسة وأعود منها وليس في فكري إلا السيجارة، وعند تنفيذنا الإضراب عن التصحيح بالشكل الذي وصفته، كان اعتقاد على مستوى واسع أنني من يملك إعلان الإضراب ومن يملك إلغاءه وكان أصحابي في حركة فتح يعدون الإضراب شكلًا من أشكال مقاومة الاحتلال وهو بالتالي عمل وطني يستحق كل التقدير وينبغي أن يتواصل، وكان أصدقائي الذين

لا يؤيدون منظمة التحرير يرون في الإضراب مسًا بمستقبل الطلاب وبمصلحة الوطن والمفروض أن ينتهي فورًا باعتباره عملًا غير صالح. وقد بعث لي أحد أصدقائي من هذا الفريق هو الأستاذ محمد راجح يوسف، يقترح عليّ الموافقة على إجراء استفتاء بين المعلمين لنعلم من يؤيد الإضراب ومن هو ضده، فأرسلت إليه أن الاستفتاء حصل، فإن امتناع المعلمين عن التصحيح هو أكبر وأصدق استفتاء وإن لنا مطالب نصر على تحقيقها، وعندما اجتمعنا بالكولونيل موريس وبضابط التربية والتعليم وأفاض علينا موريس بالوعود في كل ما يتعلق بمطالبنا وبغض النظر عن مقدار ثقتنا بتلك الوعود إلا أنه تكونت عندنا قناعة أن الإضراب حقق المرجو منه في هذه المرحلة، وأنه آن الأوان للعودة إلى عملية التصحيح. ولو حاولت الوقوف في وجه إلغاء الإضراب لما وجدت من يؤيدني، ومن المواقف الغريبة أننا بعد أن قررنا إلغاء الإضراب وبدأ الاجتماع ينفض وأخذ المجتمعون يتزاحمون على الباب وقف الأستاذ محمد راجح يوسف الذي كان يدعو إلى الاستفتاء وأعلن في مجموعة من المعلمين أن من يريد إلغاء الإضراب فليرفع يده فرفع الذين سمعوه أيديهم وكانوا يقلون عن عشرة، وكان مقصده واضحًا وهو أن يقول إن المعلمين ألغوا الإضراب باستفتاء لا بقرار من اللجنة القيادية.

وبعد أن انتظمت عملية التصحيح وكنت جالسًا مع زميل على مقعدين متقابلين أحدنا يصحح السؤال الخاص بغرفتنا والثاني يدققه، فجاءني من يقول لي: إن صديقك فلانًا (الفتحاوي) يهاجمك بسبب موافقتك على وقف الإضراب، ويتهمك أنك وافقت على إلغاء الإضراب انصياعًا لرغبة صديقك التحريري غير المتعاطف مع خط الكفاح والنضال الذي تمارسه تنظيمات منظمة التحرير، فانتابني غضب شديد من هذه الفرية وقلت لصاحبي: أعطني سيجارة، فناولني سيجارة وأشعلها لي فأخذت أدخنها بلهفة الجائع الذي وجد طعامًا شهيًا، وقلت لنفسي: هذه السيجارة فقط، ثم أواصل الامتناع عن التدخين إلا أنه بعد برهة يسيرة وجدت نفسي تنازعني إلى سيجارة أخرى فأسرعت إلى الدكان القريبة واشتريت علبة سجائر وقلت لنفسي: هذه العلبة سأشبع بها من الدخان، ثم بعدها حرام علي التدخين، وعدنا إلى الدار وكنت قد دعوت إلى الغداء عددًا من الزملاء الذين شكلوا اللجنة القيادية، وكان المرحوم والدي

موجودًا فقال لي: ها قد عدت إلى التدخين، فقلت له: هذه العلبة فقط، ثم إنني بعدها ممتنع كليًا عن التدخين، وبعد أن نفدت العلبة وجدت نفسي تنازعني إلى علبة أخرى فقلت في نفسي: أدخّن أسبوعًا كاملًا فأشبع من الدخان وأكرهه، ثم امتنع عنه، إلا أن الأسبوع امتد ست سنوات قبل أن أجرب ترك التدخين مرة أخرى.

الجهود المنظمة

اتفقنا في اللجنة القيادية أن نرفع دعوى ضد ضابط التربية والتعليم إلى المحكمة العليا الإسرائيلية والتي يطلق الإسرائيليون عليها لقب: محكمة العدل العليا. والقضية تحتاج إلى مقدم أتعاب للمحامي أو المحامية فلا بد من جمعها من المعلمين، وكانت اللجنة قد اختارت المحامية ذات الميول اليسارية، فيليتسيا لانغر، ومكتبها في القدس الغربية ليس بعيدًا عما كان يعرف بخط التماس مع القدس الشرقية.

في يوم محدد توجهنا إلى مكتب المحامية وكان عددنا سبعة نمثل مختلف الألوية ووقعنا على رفع شكوى ضد ضابط التربية والتعليم إلى المحكمة الإسرائيلية العليا نطالبها بإلزامه بالموافقة على إنشاء نقابة للمعلمين، ودفعنا لها ما كنا جمعناه، ثم إن لجنة رام الله اتفقت مع مدير مكتبة بلدية رام الله على أن يغض الطرف عن اجتماع أسبوعي نعقده في غرفة منعزلة في المكتبة، وبالفعل صرنا نجتمع كل يوم جمعة في تلك المكتبة، نتذاكر شؤون المعلمين وأخبارهم وأين وصل تحشيد المعلمين حول موضوع النقابة وأين وصلت الدعوى المزمع رفعها إلى المحكمة.

في السنة الدراسية 1979/ 1980 كنت لا أزال في مدرسة حوارة الثانوية. وكان الوضع المادي بالنسبة للموظفين وللشعب كافة في تراجع مستمر وكان ذلك أكبر ما يؤرق كل موظف، وكانت الإضرابات وأعمال التصدي للاحتلال موجودة، ولكن على نطاق أضيق مما كانت عليه في السابق.

في أحد الأيام من تلك السنة قال لي الزميل الصديق أيوب سويدان: إنه وقع بين يديه نسخة من جريدة الدفاع الأردنية القديمة تاريخها سنة 1956 واسترعى

انتباهه في هذه الصحيفة أمر من الحكومة الأردنية بإنشاء نقابة للمعلمين الحكوميين في الأردن. فقلت له: هذا أمر مهم وينفعنا كثيرًا في قضيتنا، فهل لك أن تحضر الجريدة لي غدًا؟ قال: سأفعل. وبالفعل جاء في اليوم التالي بتلك الصحيفة، فأخذتها إلى القدس إلى مكتب المحامية لانغر، وسلمتهم الصحيفة، فاعتبروا ذلك تقدمًا كبيرًا للقضية، وعلى إثر زيارة بعض المدرسين من لواء طولكرم لمكتب المحامية قالت لهم: إن المحكمة العليا لا تعترف بخبر وارد في صحيفة يومية، وإنما تعترف بما تنشره الجريدة الرسمية، فهل تستطيعون أن تحضروا لنا صورة عن ذلك الأمر في الجريدة الرسمية؟ فذهب أولئك الإخوة إلى المحكمة في طولكرم وتعاونت المحكمة معهم في البحث في صفحات النسخة من الجريدة الرسمية التي تعود إلى ذلك التاريخ وما زالوا يبحثون حتى عثروا على المطلوب فصوروا الصفحة وحملوها إلى المحامية، فقالت لهم: هذا جيد ومهم، ولكن ستكون حجتنا أقوى لو حصلنا على بطاقات انتساب إلى النقابة عند بعض المعلمين أو المعلمات لكي نثبت للمحكمة أن النقابة أنشئت بالفعل ومارست عملها. وظل أولئك الناشطون يبحثون إلى أن جمعوا خمس بطاقات من أساتذة قدماء كانوا ما يزالون يحتفظون بها. عندها لم يبق للمحامية مطلب، فكل الوثائق المطلوبة متوفرة إلا أن المشكلة الكبرى التي كانت تحول دون رفع الدعوى أن القانون الأردني المعدل سنة 1966 يخرج موظفي الحكومة من أصناف من يحق لهم إنشاء نقابة. وسوف تتشبث المحكمة العليا بهذا التعديل باعتبار أن الاحتلال مرغم وفق القانون الدولي على أن يطبق القوانين التي كانت سائدة ومعمولًا بها في اليوم الذي وقع فيه الاحتلال. كانت الحجة الوحيدة لدى المحامية هي أن القانون الدولي ينص على أنه إذا طال أمد الاحتلال فعليه أن يطور القوانين المحلية لمصلحة الشعب المحتل إلا أن هذه الحجة ضعيفة، فإسرائيل لا تحترم القوانين الدولية، وإذا نطقت المحكمة العليا برفض إنشاء نقابة للمعلمين فإن ذلك سيكون قانونًا لا يمكن مع وجوده أن تقام للمعلمين نقابة في المستقبل. فرأت المحامية أن التريث أفضل لعل الظروف تتغير إلى الأحسن، وعلم المعلمون أنهم لن ينالوا شيئًا بالقانون، ولكنهم بالكفاح والنضال النقابي سيحصلون على ما يريدون.

على الرغم من أن أجرة الدار التي كنت أسكنها كانت 240 دينارًا في السنة فقط وتُدفع على ثلاثة أقساط، وأن الدار غير ضيقة وتقع في شارع 15 وهو موقع جيد إلا أن الراتب الذي كنت أتقاضاه كان أقل من أن يلبي كافة طلبات الأسرة ويدفع أجرة الدار وفواتير الماء والكهرباء. لقد أصبح وضع المعلم في تلك الأيام موضع سخرية المجتمع، على الرغم من أن المعلم كان لا يزال محترمًا عند الطلاب، وكان مجلس الضبط في المدرسة يملك حق طرد الطالب إذا شتم المعلم أو أساء معه الأدب، لكن ذلك كله لا ينفع وحده ما دام حال المعلم على هذه الدرجة من السوء؛ فقد بلغ الأمر أن بعض المعلمين ذوي العيال توجهوا إلى لجان الزكاة في مناطقهم طالبين المساعدة فكان هذا من أكبر الدوافع لدى المعلمين لإعلان إضراب طويل وشامل فيما بعد.

في نهاية السنة الدراسية 1979/ 1980 تكونت لدي ولدى زوجتي القناعة بأن بقاءنا في المدينة أصبح عسيرًا جدا من الناحية المادية مع العلم أن في قريتنا دارًا لأهل زوجتي واسعة وشاغرة ومفروشة، وغير مسكونة؛ لأنهم في الكويت، وللسكن في القرية ميزات على كل حال. صحيح أن القرية ليس فيها كهرباء ولا ماء إلا ماء النبع، فقضية الماء محلولة في دار عمي؛ لأن في الدار بئرين، أما قضية الكهرباء فنستريح من ضوضاء التلفزيون، ثم إنه ليس أمامنا إلا الانتقال، فلم تعد المدينة لنا دار مقام. اتخذنا القرار وبدأنا نجهز أنفسنا للرحيل، وأتممنا حزم أمتعتنا، واستأجرت الشاحنة وحملت أغراضي بمعونة آذن من مدرسة قدري طوقان الذي استأجرته لهذا الغرض وهكذا أخليت الدار الرخيصة الجميلة؛ لأن الراتب كان أرخص منها وسكنت القرية وطلبت الانتقال إلى مدرسة قريوت الثانوية التي كنت قد عملت فيها مدة سنتين قبل ذلك، وتبين لي فيما بعد أن الحكم العسكري ينوي نفيي مرة أخرى إلى قرية نائية، فوافق مكتب التربية على انتقالي إلى مدرسة قريوت.

في القرية حياة البساطة التي توصف في ذلك الوقت بالبدائية. أخذنا معنا الغسالة والثلاجة والتلفزيون، ولكن لم يكن لهذه الأجهزة عمل، فالكهرباء لم يكن لها وجود في قريتنا أو في القرى المجاورة إلا مولدات فردية في بعض القرى كانت تُستخدم للإضاءة فقط وتعمل لساعات محدودة في الليل فقط.

وبعد بضعة أشهر اشتريت مولدًا كهربائيًا صغيرًا إيطالي المصدر، خفيف الوزن، يعمل على الكاز وقدرته القصوى كيلووات واحد وثمنه 160 دينارًا أردنيًا. فأمكن أن نسهر على الكهرباء ونشغل التلفزيون وفي النهار نشغله للغسالة، ثم بدأ يتعطل سريعًا ويحتاج إلى تصليح وتبين أنه رديء النوعية وأخيرًا تعطل نهائيًا قبل أن يكمل السنة، وبعدها قام مستثمر من القرية بإحضار مولد له قدرة على إضاءة عدد من منازل القرية، ولكن على إثر مشاكل مما يحدث في القرى انتهى مشروعه فاشتريت مولّدا من النوع الجيد وظل عندي إلى أن انتقلنا إلى نابلس ثانية في مطلع سنة 1990.

الإضراب الكبير

فيما يتعلق بالدعوى التي رفعناها على ضابط التربية والتعليم وبعد أن قدمنا كل الوثائق المطلوبة وقف في وجوهنا القانون الأردني المعدّل والذي يحرم موظفي الدولة من تشكيل نقابات مع العلم أن سلطة الاحتلال تلتزم بالقوانين التي كانت سارية المفعول يوم وقع الاحتلال، فحُفظت الدعوى، ولم نعد ننتظر منها شيئًا، فلا بد من خطوة أخرى.

كانت المبادرة من ألوية الجنوب: رام الله، الخليل، بيت لحم، فقد طرحوا في اجتماع كنت حاضرًا فيه اقتراح تنفيذ إضراب تحذيري في المدارس مدته يوم واحد، ولم يكن الشمال مستعدًا لذلك؛ لأن انتشار التنظيم النقابي فيه لم يكن بلغ حدًا يمكنه من تنفيذ إضراب. لذا نفذ الإضراب في الجنوب ولاقى نجاحًا كبيرًا، مما مكن من التخطيط لإضراب مفتوح يبدأ يوم 14/ 12/ 1980 وبالفعل بدأ الإضراب وتجاوب معه المعلمون في الشمال، فبادرنا إلى إنشاء لجنة لوائية في نابلس ضمت عددًا من المعلمين، وكان أول ما علينا تدبيره هو مكان نجتمع فيه، مع العلم أن الحركة كلها مهددة من قبل الاحتلال، فكل خطوة فيها تحمل طابع التحدي واحتمال الاعتقال.

اجتمعنا أولًا في زاوية منعزلة من حديقة مكتبة بلدية نابلس ووجدنا أنه مكان غير لائق، فتوجهنا إلى بلدية نابلس، وكان رئيس البلدية، بسام الشكعة، في رحلة علاج

على أثر العمل التخريبي الصهيوني الذي أدى إلى بتر ساقيه، ولكننا وجدنا عددًا من أعضاء المجلس البلدي فطلبنا منهم أن يسمحوا لنا باستخدام قاعة البلدية فوافقوا وفتحوا لنا القاعة فعقدنا أول اجتماع فيها وأردت في البداية بسبب وضع أمني معين، أن أبقى داعمًا للجنة ولكن _لأسباب أمنية_ من غير أن أسجل اسمي كعضو رسمي فيها إلا أن موقفي هذا لم يوافق عليه باقي أعضاء اللجنة، فلم أجد بدًا من أن أكون كما أراد الزملاء. بدأنا نروج للإضراب المفتوح وندعو المعلمين والمعلمات إلى الانضمام إليه وكانت قاعة مكتبة البلدية مفتوحة لنا كل يوم وكل الوقت الذي نحتاج إليه، وبدأت المدارس في المدينة وفي القرى تستجيب للدعوة بسرعة.

كانت الامتحانات الفصلية على الأبواب وبعدها مباشرة امتحانات الفصل الأول للتوجيهي فالتقينا في رام الله في دار الأستاذ نعيم أبو قاهوق لنتخذ قرارًا حول عقد الامتحانات أو الإضراب عنها. كنا نتجاوز خمسة عشر معلمًا ومعلمة من كافة ألوية الضفة بما فيها القدس وكان ممن التقينا بهم لأول مرة الأستاذ سمير عمرو، عن محافظة الخليل، وقد أبدى تشددًا كبيرًا في موضوع عقد الامتحانات وكان يريد أن نعلن الإضراب عنها، وكنت مقتنعًا تمام الاقتناع أن الامتناع عن الامتحانات خطة غير حكيمة حتى لو كان بمقدورنا إلزام المعلمين في الضفة الغربية بها، فالامتناع عن الامتحانات يعني أننا نعلق في أعناقنا حالة ارتباك شديدة ومصيرًا مجهولًا لجميع الطلبة في الضفة الغربية وخاصة طلاب التوجيهي، لذا كان جدال فريق كبير من الحاضرين، وكنت مع هذا الفريق أنه من الخطأ أن نخلق حالة ارتباك للطلاب ستنقلب ضدنا بالتأكيد في الوقت الذي نحتاج فيه إلى تعاطف الجميع، والتصرف الأفضل هو أن نعقد امتحانات الفصل الأول للطلبة، على الرغم من أننا في حالة إضراب شامل متواصل، وأن نصحح أوراق الامتحانات للصفوف دون التوجيهي ونخرج النتائج، فيكون الطلبة مستعدين للالتحاق بصفوفهم في الفصل الثاني عندما ينتهي الإضراب، ولا بد أن ينتهي يومًا ما، أما طلاب التوجيهي فسوف نسهل إجراء الامتحانات لهم إلا أننا نربط تصحيح أوراقهم بتحقيق مطالبنا وبالتالي عودتنا عن الإضراب.

لا أذكر أن أحدًا من ألوية الجنوب كان متشددًا في مطلبه الامتناع عن عقد

الامتحان غير سمير عمرو، وكانت وجهة نظره أن شحن المعلمين كي ينضموا إلى الإضراب استغرق وقتًا وجهدًا كبيرين، وأن قطع الإضراب من أجل عقد الامتحانات قد يضيع ذلك الجهد بحيث نحتاج إلى حملة جديدة في صفوف المعلمين. وكان ردنا أن الأمر قد لا يكون على هذا النحو، وأن عملية شحن جديد _إن لزمت_ أهون من أن نوقع الجميع في حيص بيص، ثم إننا في ألوية الشمال لم يكتمل لدينا حشد المعلمين، فلو طالبناهم بالامتناع عن أداء الامتحانات لوجدها كثيرون فرصة سانحة لإثبات الولاء للمسئولين في التربية والتعليم عن طريق رفضهم لمطلبنا ومضيهم قدمًا في أداء الامتحانات، ولفتنا انتباه الإخوة في الجنوب أنهم لو أعلنوا الامتناع عن عقد الامتحانات فلن تكون الاستجابة تامة، فإذا حدث تمرد بحيث أن طلابًا يؤدون الامتحانات، وآخرين لا يؤدونها، فسوف تكون بلبلة قد تؤدي إلى إفشال الإضراب قبل أن يحقق أي شيء، وإذا فشل بهذه الطريقة فلن تقوم له قائمة بعد ذلك.

استمر اللقاء من الضحى إلى ما بعد العصر وكان ذلك اليوم يوم جمعة، فلم نتمكن من التوجه إلى المسجد للصلاة، وانتهى الاجتماع بقرار أن تؤدى الامتحانات لما دون التوجيهي وتصحح الأوراق، وأن تؤدى امتحانات التوجيهي في موعدها، لكن التصحيح سيكون مرتبطًا بالإضراب.

وانعقدت امتحانات ما دون التوجيهي وصححت وأُخرجت النتائج وخرج الطلاب لعطلة نصف السنة، وبعد ذلك انعقدت امتحانات التوجيهي وجاء وقت التصحيح. كانت قيادة الإضراب قد تنظمت على النحو التالي: تختار كل مدرسة مندوبين عنها ويكون لكل عشرة معلمين مندوب، وللمدرسة مندوبون بمقدار ما فيها من هيئة تدريسية، أقلها مندوب واحد حتى لو كانت مدرسة معلم واحد، وينتخب مندوبو المدارس في اللواء الواحد اللجنة اللوائية وتنتخب اللجنة اللوائية ممثليها في اللجنة العامة وهي اللجنة القيادية العليا ولكل لواء ثلاثة أعضاء فيها. ولم تكن الأمور تجري على نحو ديمقراطي نزيه في كثير من الأحيان، ولكن، على كل حال كانت الأمور تسير على نحو معقول، كان معظم الأعضاء من فتح ولكن كان لليسار وجود قوي، أما الاتجاه الإسلامي فكان يمثله الإخوان وحزب التحرير وكان

وجودهم في تلك الأحداث محدودًا بسبب شكوكهم في أن للإضراب مقاصد حزبية، ولم تكن شكوكهم خالية من الصحة خلوًا تامًا، فإن أتباع اليسار حاولوا أن يصبغوا الإضراب بصبغة يسارية سأورد تفاصيلها فيما بعد، أما مندوبو فتح فكانوا يعدون أنفسهم القيادة، ولم تكن حركة الجهاد الإسلامي قد تبلورت بعد، ولم يكن الإخوان المسلمون قد أنشأوا حركة حماس.

عودة إلى مراكز تصحيح التوجيهي

في اليوم المحدد لبدء التصحيح في نابلس حضرت إلى نابلس اللجنة العامة وعدد كبير من أعضاء اللجان اللوائية، خاصة اللجنة اللوائية في نابلس.

جاء رئيس لجنة الامتحانات الجديد الدكتور محمد غزالة، ومدير اللجنة الأستاذ مطيع أبو حجلة يحاولان إقناعنا باستئناف التصحيح إلا أننا رفضنا، فجاء إلى نابلس الكولونيل موريس مساعد قائد الضفة الغربية في قيادة بيت إيل، وضابط التربية والتعليم، إدوارد خليف، وطلبوا الاجتماع بالمعلمين والمعلمات المصححين، فقررت اللجنة العامة أن يقتصر الاجتماع بالمسئولين عنها، وجرى نقاش طويل بيني وبين الأستاذ مطيع وهو يريدني أن أقنع اللجنة العامة بأن توافق على أن يكون الاجتماع بضباط الاحتلال للجميع، وليس مقتصرًا على اللجنة العامة غير المعترف بها، فذكّرته بشيء يعرفه؛ لأنه شاهده: وهو أننا اجتمعنا بالكولونيل موريس وضابط التربية والتعليم في الصيف الماضي، فوعدنا بألا تتأخر أجور التصحيح عن أسبوعين فتأخرت ثلاثة أشهر، ووعدنا بزيادة مقدارها 15٪ فلم نر منها فلسًا واحدًا وأسمعنا تهديدات ووجه لنا ابتسامات فانخدع به المعلمون وخاف بعضهم تهديداته.

وقلت له (للأستاذ مطيع): ونحن هذه المرة سنواجهه بخمسة عشر معلمًا (أعضاء اللجنة القيادية العليا التي سمت نفسها اللجنة العامة)، ممن لا تسحرهم الابتسامات ولا تخيفهم التهديدات ونريد أن نبحث معه على بساط أحمدي، حاضر المعلمين ومستقبلهم وأن نخرج من الاجتماع بخطة أكيدة لتحسين أوضاع المعلمين.

لم أتوصل مع الأستاذ مطيع إلى شيء، فأراد الدكتور محمد غزالة أن يجتمع بنا فقررنا الاجتماع به في إحدى غرف المدرسة باعتبارنا اللجنة العامة للمعلمين؛ أي القيادة العليا، فرفض في البداية وقال لي الأستاذ مطيع: إن الدكتور غزالة لا يعترف باللجنة، فكنت صريحًا معه، قلت له: إن من لا يعترف بنا لا نعترف به، ومن أراد الاجتماع بنا فها نحن موجودون، وأخيرًا لم يجد الدكتور غزالة بدًا من الاجتماع، فجاء إلى الغرفة معربًا في البداية عن أن حظه سيء إذ يواجه مثل هذه الاضطرابات منذ اليوم الأول من استلامه المسؤولية. ثم بدأ يوجه كلامًا توبيخيًا مفاده أن العرب من طبعهم التسرع والاندفاع وعدم التفكير في الأمور، فعلمنا أنه غشيم ولا يعرف أنه يخاطب هيئة انتخبها المعلمون لقيادة مطالبهم، فأوقفناه عند حده وأراد سمير عمرو أن يثير مشكلة كبرى لهذا الذي ينثر الكلام نثرًا إلا أن الجالسين بجانبه أمسكوا به، عندها شعر الدكتور أن الأمر ليس كما يتصور، فالأمور جادة وهو يخاطب قياديين لا أتباعًا فغير من لهجته وتحول إلى الاسترضاء ومحاولة إقناعنا بتغيير موقفنا دون جدوى، لقد أكدنا له بشكل قاطع أننا _اللجنة العامة_ وحدنا من سيجتمع بالمسئولين من الحكم العسكري بتفويض من جميع زملائنا المعلمين والمعلمات، عندها انفض الاجتماع وتم إبلاغ الكولونيل موريس وضابط التربية والتعليم بالموقف، فقفلا عائدين إلى بيت إيل.

وقفت أشرح للمعلمين والمعلمات ما جرى، فسألوا: ماذا نفعل؟ فقلت لهم: عودوا إلى منازلكم. فقال كثير منهم: وكيف سنعرف إذا استؤنف التصحيح؟ فقلت لهم: التصحيح مرتبط بالإضراب ولن تجري عملية التصحيح ما دام الإضراب قائمًا، ثم إننا عندما نقرر العودة إلى التصحيح سنعلن ذلك أولًا في وسائل الإعلام بحيث يعرف الجميع بالأمر.

انفض المعلمون ووضعت صناديق الامتحان في المخزن، وتواصلت اجتماعات اللجنة اللوائية، ولدى انتهاء إجازة نصف السنة وعشية بدء الفصل الدراسي الثاني اجتمعت اللجنة العامة لتدارس الموقف، ولم يكن الموقف بحاجة إلى التدارس فمواصلة الإضراب كانت أمرًا لا يحتاج إلى مناقشة، فأعلنا التأكيد على استمرار الإضراب إلى أن تتحقق مطالبنا.

في مساء ذلك اليوم مطلع شباط أصدر قائد الضفة الغربية أمرًا عسكريًا بمنع الإضراب ومنع الامتناع عن العمل تحت طائلة العقوبة لمن يخالف الأمر، فاتصلت الإذاعة الإسرائيلية الناطقة بالعربية بأحد ناشطي لجنة الخليل الأستاذ عمر الجعبري، رحمه الله، وهو عضو اللجنة العامة، فسألته ما إذا كان المعلمون مستعدين للانصياع للأمر العسكري فأجاب بالنفي، عندها قرر قائد الضفة الغربية الإيعاز إلى الحكام العسكريين في ألوية الضفة باعتقال أعضاء اللجان كلهم، وبالفعل جاءتني سيارة شرطة عربية وطلبوا مني أن أرافقهم إلى مركز الشرطة بنابلس، وقدم أحدهم لي نصيحة أن أقول للمحقق الإسرائيلي: إنني لا أعلم عن الأمر العسكري، فشكرته على تلك النصيحة.

دخلت الزنزانة في مركز الشرطة وكنت قد دخلتها قبل سنتين، ووجدت زملائي من أعضاء اللجنة اللوائية، تحدثنا وتسامرنا طويلًا، ثم لما حان وقت المبيت كان أنفي في غاية الاضطراب، فلم تغف عيني حتى الصباح، وعند الضحى طُلبت للاستجواب الذي يكون في مثل هذه الحالات تمهيدًا لاحتمال المحاكمة.

كان السؤال الرئيس: هل سمعت بالأمر العسكري الصادر عن قائد الضفة الغربية والقاضي بمنع الإضراب ومنع الامتناع عن العمل؟

قلت: نعم.

فقال: لم خالفته؟ قلت: إننا معشر المعلمين نواجه أزمة اقتصادية لا تطاق، ولا يحلها أمر عسكري متعجرف.

كان واضحًا أن الاستدعاء لم يكن بهدف السجن بل بهدف تسجيل محضر تحقيق، وعند العصر كان الإفراج، فخرجت من باب المركز لأجد والدي في انتظاري ويريد اصطحابي إلى البلد فورًا ومن غير إبطاء، فوجدت بعض أعضاء اللجنة اللوائية ينتظرون خروجي ليخبروني عن مؤامرة تم حبكها بالتعاون بين الحكم العسكري ومسئولين في التربية والتعليم، فإن الحاكم العسكري يعلم أن اعتقال لجان المعلمين لن يحملهم على فك الإضراب، فاعتقل بعض المعلمين الذين لا علاقة لهم باللجنة اللوائية

أو اللجنة العامة مطلقًا، ثم بترتيب ما، يجتمع الآن عدد من مديري المدارس ومسئولين في مكتب التربية في المدرسة الفاطمية ليصدروا بيانًا باسم المعلمين في لواء نابلس بأنهم يعلنون فك الإضراب مقابل إخراج المعلمين المعتقلين، وكنت في تلك اللحظة منفوش الرأس ومضطرب الأنف ووالدي يمسك بي ولا يريدني أن أفارقه، فقلت لهم: لنقف في وجه هذه المؤامرة، اذهبوا إليهم وامنعوا صدور أي بيان عنهم واعملوا على فض اجتماعهم. وبالفعل فوجئ المجتمعون بأعداد من أعضاء اللجنة اللوائية يقتحمون عليهم اجتماعهم ويجادلونهم بأن ما يفعلونه مؤامرة على التعليم وأن لواء نابلس جزء لا يتجزأ من عموم الضفة الغربية وحركة المعلمين وحدة واحدة لا يمكن للمؤامرات أن تفصم عراها. فانفض المجتمعون وفشلت المؤامرة.

إن موجة الاعتقالات في صفوف أعضاء اللجنة العامة واللجان اللوائية انتهت بالفشل وتعززت مكانة اللجان في المجتمع وأصبحت أخبار الإضراب تغطى عالميًا، وكانت إذاعات المنظمة وفتح ووسائل إعلامية عربية عديدة تعرف الإضراب بأنه مقاومة للاحتلال وعلى المستوى المحلي شهدت اللجان إقبالًا شديدًا للانضمام إليها، لكنها كانت تدرك أن القادمين في مرحلة المد سينحسرون عند الجزر، فلم يكن قبول العضوية الجديدة أمرًا سهلًا.

غياب قسري مؤقت

في تلك الأيام كان الجيش الإسرائيلي قد أجرى اعتقالات في نابلس لقياديين في فتح لأسباب عسكرية وبالضبط حيازة وسائل قتالية، وكان يبحث عن حلقة وصل مفقودة ولم يستطع الوصول إليها وكانت الخشية أن يتم الوصول إليها.

كنت في اجتماع اللجنة اللوائية ذات يوم من شهر شباط 1980 فجاءني اثنان ممن أعلم أن لهم عضوية في فتح وأسرا لي بأمر قالا إنه صادر من دمشق أن اختفي عن المسرح فورًا.

لم أصدّق أن الأمر صادر من الشام ورجحت أنه صادر عن قيادة محلية خائفة

من تداعيات احتمال اعتقالي، ولكنني لم أستطع أن أجازف بالمخالفة فأعيد سيرة أحمد أبو السكر الذي وجهت له قيادة فتح أمرًا بالبقاء خارج الضفة الغربية لمدة سنة على الأقل، فاجتهد وخالف الأمر فجر الكارثة على نفسه وعلى آخرين.

ابتعدت عن النشاط كله زهاء عشرة أيام، ثم استقر في نفسي أن الأمر لم يكن منطقيًا ولا صادرًا عن القيادة، فعدت إلى اللجنة اللوائية، ثم فيما بعد إلى اللجنة العامة، وكان المحتل الإسرائيلي يحاول تجاهل الإضراب وينقل إلى من يتصل بهم أن الإضراب ما هو إلا عمل تخريبي المقصود به الإضرار بمستقبل أبنائكم، وأن الحكم العسكري لا يضره الإضراب، بل إنه سيحسم من رواتب المعلمين فيوفر على نفسه مبالغ كبيرة، فحسم علينا نصف شهر كانون ثان ونصف شهر شباط، لذا صارت اللجنة العامة تنظم اعتصامات وأنواعًا من الفعاليات في القدس فيقف الجيش الإسرائيلي على المفارق والطرقات ويمسك بالمتوجهين إلى حيث الاعتصام، فيردهم من حيث أتوا فيعيدون الكرة بطرق مختلفة، فيما يشبه لعبة القط والفأر. وكان هذا بعض المقصود من الاعتصام، فمن الضروري أن يشعر الاحتلال أن الإضراب يخلق له مشكلة أمنية.

كان بعض المعلمين وكافة مديري المدارس يقفون من الإضراب موقفًا سلبيًا ومنهم من تعامل معه بانتهازية، فالإضراب فرصة عند البعض لإثبات الولاء أمام المسئولين مع العلم أنه إذا حقق الإضراب منافع فهؤلاء يستفيدون منها مثل غيرهم، وإذا عاد بالضرر فلن ينالهم ذلك الضرر. لذا كان من أبرز أنشطة اللجان اللوائية الخروج إلى المدارس غير المضربة أو التي فيها دوام جزئي ودعوتهم إلى الإضراب، وكانت اللجان تدخل في جدالات مع المعلمين والمعلمات غير المضربين وتنجح أحيانًا في حمل بعضهم على الانضمام إلى الإضراب، ويصر كثير منهم على عدم الإضراب إلا أن غير المضربين كانوا قلة قليلة في بعض الألوية ومنها لواء نابلس وكانوا يمثلون نسبة ملحوظة في ألوية الشمال الأخرى، أما في ألوية الجنوب فالإضراب أشمل.

كانت الخطة أن تبقى المدارس مفتوحة وأن يتوجه إليها المعلمون كل يوم ويظلوا متواجدين فيها إلى نهاية الدوام وألا يكون التغيب إلا لأمر طارئ كما هو في الأحوال

العادية، أو للخروج إلى المدارس غير المضربة وهذا لا يشمل إلا بعض أعضاء اللجان اللوائية، فإن الأنظمة الإدارية بالنسبة للموظفين تقضي بأنه إذا تغيب الموظف عن عمله أياما متوالية من غير عذر رسمي مقبول فإنه يفصل من العمل، وعلى هذا الأساس كان الإضراب يحتم التواجد في مكان العمل، مع الامتناع عن العمل إذا حضر الطلاب. أما اجتماعات اللجان اللوائية أو على مستوى اللجنة العامة أو بحضور جمهور المعلمين والمعلمات فكل ذلك يتم بعد الدوام.

كان مديرو المدارس قد وقف معظمهم موقفًا سلبيًا من الإضراب من حيث المبدأ، وحجة الواحد منهم في ذلك أنه عاقل يحسن وزن الأمور، قررت اللجان أن مديري المدارس ينبغي أن ينضموا إلى الإضراب بحيث يمتنعون عن رفع تقارير الحضور والغياب اليومية وأن يمتنع الذين لهم حصص منهم عن إعطاء الحصص لمن يحضر من الطلاب. ووجهت اللجنة الدعوات إلى المديرين والمديرات فحضر معظمهم، وفي قاعة البلدية ضم الاجتماع أولًا أعضاء اللجنة اللوائية ومن حضر من المديرين، وقد حضروا مضطرين وهم للأمر كارهون فتحدثنا إليهم _وكنت المتحدث باسم اللجنة_ وطالبناهم أن ينضموا إلى الإضراب بحيث يمتنعون عن كتابة تقارير الحضور والغياب وعن إعطاء ما يخص المدير من حصص في المدارس التي ظل قسم من الطلاب يتردد عليها، فاشترط أحدهم شرطًا تعجيزيًا وهو أن تغلق المدارس فلا يتوجه أحد إليها وأن يلتزم الجميع بذلك، فبينت له أن هذا التصرف غير حكيم؛ لأنه يعطي اليهود مبررًا قانونيًا لطرد من يريدون طرده من الوظيفة، وحصل خطأ رأى فيه المديرون صيدًا ثمينًا إذ اتخذوه حجة للتعبير عن تمسكهم بموقفهم الرافض للانضمام إلى الإضراب، فمن دون اتفاق بيننا في اللجنة اللوائية ودون أن يشعرنا أحد أنه ينوي صياغة قرار يعرض على المديرين للتوقيع عليه، ولو طرح هذا الأمر في اللجنة لعارضته بطبيعة الحال، فوجئنا بأحد أعضاء اللجنة يعرض على المديرين نصًا يطلب منهم التوقيع عليه وهنا سارعت إلى تلافي الموقف الذي كان سيتأزم بسرعة وأعلنت أن هذه الصيغة لا تليق بالمديرين ولا أوافق على عرضها عليهم ولم أعلم بها سابقًا ووقف آخرون في اللجنة يؤيدون موقفي وكان أن اضطر مقدم الصيغة إلى أن يطويها ويضعها

في جيبه، ثم قلت للمديرين: أنتم أساتذتنا وأنتم من ننتظر منه موقفًا نستنير به ونحن نطلب منكم أمرًا واحدًا محددًا هو أن تعلنوا انضمامكم إلى الإضراب، ثم طلبت من جميع الحاضرين غير المديرين والمديرات أن يغادروا القاعة، فغادروا وظل الجميع في الردهة الخارجية ينتظرون ما يتفق عليه المديرون. وبعد ما يقارب الساعتين خرجوا بقرار تأييد الإضراب دون الانضمام إليه فلم يكن القرار مقبولًا إلا أنني أوعزت بتوزيعه على وسائل الإعلام لأنه يشكل ـعلى كل حال_ دعمًا للإضراب.

تعاون غير مبارك

فوجئنا في يوم من أيام الإضراب بوفد زائر من نقابة المعلمين الإسرائيلية، وهو وفد يساري.

وقفت المتحدثة باسمه تتكلم بلهجة عربية ضعيفة ـبعد أن وعدناها ألا نضحك من لهجتها_ وأعربت عن تأييد نقابة المعلمين الإسرائيلية لمطالب معلمي الضفة الغربية. كان الموقف التضامني هذا يعني شكلًا من أشكال التطبيع وقد لاقى استغرابًا من جمهور المعلمين ورفضًا، وشعر معظم أعضاء اللجنة اللوائية بأنه تدبير من وراء ظهورهم لأن الذين قرروا دعوة النقابة الإسرائيلية ـهم العناصر الشيوعية في اللجان اللوائية_ يعلمون أنهم لو عرضوا الأمر على اللجنة اللوائية لرفضته رفضًا قاطعًا، فقرروا أن يفاجئوا الجميع بالأمر.

كان أعضاء اللجنة اللوائية يجلسون خلف المنصة في قاعة الاجتماعات وقد فرزوا لجنة لتوزيع الأسئلة على المتحدثين من اللجنة، أما الأسئلة فتأتي على أوراق مكتوبة دون أن يكتب فيها موجه أو موجهة السؤال اسمه أو اسمها، وتدور الأسئلة عادة حول شؤون الإضراب وشؤون المعلمين عمومًا.

وفي اليوم التالي لحضور وفد النقابة الإسرائيلية، وُجه إلينا سؤال في ورقة مكتوبة حول مغزى حضور وفد النقابة الإسرائيلية، فأخرجت ما في صدري وأوضحت للحاضرين بلهجة حادة وحازمة أن ذلك لم يكن بعلم اللجنة، وأنه من

تدبير الشيوعيين، وأننا لن نسمح للشيوعيين بالتحكم بمسارنا. أثارت كلمتي غضب العناصر الشيوعية في اللجان، لكنها كانت كلمة حق لا بد منها، ثم طرح ذلك الاتجاه موضوع أن يكون تواصل دائم بين لجان الضفة الغربية والعناصر (التقدمية) في نقابة المعلمين الإسرائيلية بحيث نذهب إليهم ويأتون إلينا، وطال الجدال حول الفكرة ورفضت اللجنة بالأغلبية أن يذهب المعلمون الفلسطينيون إلى النقابة الإسرائيلية ولكن إذا أرادوا هم المجيء وإبداء التضامن فلن نقف في وجوههم. ولكنهم لم يأتوا غير تلك المرة.

محاولات التوسيط

مثلما أنه كان في لجان المعلمين اتجاه شيوعي واتجاه إسلامي واتجاه قومي، وقد حوت فتح عناصر من هذه الاتجاهات جميعًا، كان في التنظيم عناصر تميل إلى المهادنة والتفاهم مع المحتل، كان لهذا الاتجاه عناصر داعمة من زعامات فلسطينية تقليدية. وكانت هذه الأطراف تطرح فكرة أن العدو لن يتفاهم مع المعلمين ما داموا ينسقون مع المتطرفين من أمثال بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس، الذي كان على اتصال وثيق بحركة المعلمين ويجتمع باللجنة في قاعة البلدية بين الحين والآخر ويحضهم على التماسك والثبات على الإضراب والتمسك بالمطالب ولم يمنعه ما كان يعاني من آثار بتر ساقيه من مصاعب وآلام من مواصلة العمل رئيسًا للبلدية ومواصلة نشاطه الاجتماعي والنضالي بما في ذلك مواصلة دعم كفاح المعلمين.

عرض وساطة

بعيد عودتي من الاستجواب جاءني إلى القرية المرحوم تحسين الفارس مصحوبًا بصديقين هما مالك مرمش وعبد الرحيم محمود، وسهرنا وكان موضوع الحديث أن نوافق على توسيط الشخصيات المعتدلة التي لها صوت مسموع في الحكم العسكري، على اعتبار أن اليهود لن يستمعوا إلى مطالب المعلمين ما داموا مدعومين من عناصر يسارية متطرفة، وعرضت عليه موقف اللجنة وهو أن جميع شخصيات الضفة الغربية

مفوضـون، بـل ومـن واجبهـم، أن يدعمـوا مطالبنـا ويضغطـوا مـن أجلهـا، فـإن قضيـة المعلمـين هـي قضيـة كل بيـت، وأننـا كنـا ننتظـر موقفًـا داعـمًا مـن زعـماء الضفـة الغربيـة ومنهـم والـدك أبـو محمـد (عبـد الـرؤوف الفـارس) الـذي لم نسـمع لـه تصريحًـا، فأوضـح لي أن والـده مريـض عـلى شـفا المـوت، وكانـت وجهـة نظـره أن نفـوض شـخصيات محـددة للمجادلـة في مطالبنـا أمـام الحكـم العسـكري، وأوضحـت لـه أننـا أصحـاب حقـوق والاحتـلال ملـزم بأدائهـا مـن غـير توسـيط إلا أننـي وعدتـه أن أطـرح الموضـوع أمـام اللجنـة اللوائيـة، وأردت بذلـك الوعـد ألا أشـعره أنـه رجـع خـالي الوفـاض.

وفي اليـوم التـالي أخـبرت اللجنـة عـن موضـوع الزيـارة وعـن وعـدي لـه ببحـث موضـوع الوسـاطة، وبعـد نقـاش طويـل قررنـا أن نقـول لـه: أنـت ومـن شـاء مفوضـون للمطالبـة بحقوقنـا والضغـط عـلى الاحتـلال مـن أجلهـا دون أن تقدمـوا عـلى أيـة تنـازلات أو مسـاومات، وأبلغنـاه بالأمـر، ولكـن الوسـاطة لم تسـفر عـن شيء.

فعالية عاصفة

كانـت اسـتراتيجية الاحتـلال، بعـد أن فشـل في التهديـد والوعيـد والاعتقـالات، أن يتجاهـل مطالـب المعلمـين، فكانـت اللجـان اللوائيـة تحـرص عـلى تحريـك الوضـع بـين الحـين والحـين بأشـكال مـن الفعاليـات مختلفـة، وكانـت إحـدى الفعاليـات تنفيـذ اعتصـام في مكتـب التربيـة والتعليـم، وقـد تجمعنـا في ردهـات المكتـب فملأنـاه وكان فينـا متضامنـان مـن مـدرسي جامعـة النجـاح، وحـضر الحاكـم العسـكري ومعـه بعـض ضباطـه واسـتمع إلى مطالبنـا وطلـب منـا أن نجتمـع بـه في مكتبـه في مبنـى الحكـم العسـكري يـوم الجمعـة، وانـصرف ولكنـه قـرر اعتقـال المتضامنـين مـن جامعـة النجـاح، فوقعـت مشـادة بـين عـدد مـن المعتصمـين ومديـر التربيـة والتعليـم محملـين إيـاه المسـؤولية عـن حضـور الحكـم العسـكري.

وفي اليـوم التـالي، وهـو يـوم الجمعـة، توجـه عـدد مـن أعضـاء اللجنـة اللوائيـة إلى مبنـى الحكـم العسـكري، فاجتمعـوا بالحاكـم، ولم أحـضر الاجتـماع؛ لأننـي كنـت في القريـة وأحتـاج إلى توفـير مصاريـف ولـو يـوم في الأسـبوع مـع العلـم أن جميـع تحركاتنـا كانـت عـلى

حساب كل منا إلا تحركات اللجنة العامة وتحركات الاعتصامات التي على مستوى الضفة، فإنها كانت تغطى مما كانت تجمعه اللجان من جمهور المعلمين. ولم يسفر الاجتماع عن شيء.

وكررنا الفعالية بشكل آخر وقررت اللجنة اللوائية أن تنظم مسيرة من الدوار إلى مبنى الحكم العسكري في أحد الأيام بعد دوام المعلمين وأن ترفع فيه شعارات تطالب بتحسين أوضاع المعلمين، وأحلنا الأمر إلى أعضاء اللجنة اللوائية الساكنين في نابلس كي يجهزوا اللافتات وخولناهم بصياغة الشعارات، فلم يكن بإمكان الذين في القرى أن يحضروا كل يوم. وفي اليوم المحدد انطلقنا من المدرسة بالسيارة ووصلنا شارع فيصل فإذا المسيرة تسير بانتظام واسترعى انتباهي أن مدير التربية والتعليم والموجهين التربويين كانوا في أول المسيرة، وكانت قد هبت عاصفة من البَرَد ونحن على الطريق، فأصابت من كان في المسيرة، لكنها استمرت في طريقها على الرغم من البلل، ونزلت من السيارة وكان فيها معلمون ومعلمات من مدرسة قريوت، وانتظمنا في المسيرة، ولقد استرعى انتباهي لافتة لم أرتح إلى صياغتها تقول: «نريد الخبز لأبنائنا» وقبل وصولنا مبنى العمارة، وجدنا الحاكم العسكري وعددًا كبيرًا من ضباط الحكم العسكري بانتظارنا.

كان التخطيط أن تكون المسيرة صامتة وألا تلقى فيها أية كلمات وأن نصل إلى العمارة، ثم نقف قليلًا رافعين الشعارات، ثم ننقلب راجعين ولم يكن في الحسبان أن يسير مدير التربية في المسيرة وأن يفاجئنا بكلمة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان؛ إذ فوجئنا بمدير التربية والتعليم يلقي كلمة ارتجالية فأيقنت أنه سيقدمني لإلقاء كلمة، ولم يكن ثمة متسع من الوقت لإجراء أية مشاورات مع أعضاء اللجنة اللوائية المتواجدين، وكان ظني في محله، فقد ختم كلمته بالقول: والآن أقدم لكم الأستاذ يوسف عارف، لم يكن ثمة وقت للتشاور مع أعضاء اللجنة اللوائية المتواجدين، ولم أجد من اللائق أن أحرج مدير التربية بأن أمتنع عن الحديث وقد قدّمني، فوجدت الأهون أن أتكلم وأن أقدم عذري للجنة، فتقدمت وأنا على يقين من أن بعض أعضاء اللجنة سوف «يجرسونني» ويعتبرون أنني لم أتقدم إنقاذًا للموقف، بل طلبًا للمكسب

المعنوي. ألقيت كلمة أكدت فيها على حق المعلمين في حياة كريمة كي يتمكنوا من القيام بواجب الوظيفة التي هي عبء ثقيل، كما أبديت اعتراضي على الدعاية التي ينشرها الحكم العسكري وهي أن المعلمين محرضون سياسيًا: فسألت أركان الحكم العسكري: هل تقدمنا بأية مطالب سياسية؟ وبينت لهم أن المقصود من القول إننا محرضون هو الحط من شأننا فنحن رجال التربية والتعليم ومهمتنا تنشئة الأجيال ولا نرضى لأنفسنا أن ننساق وراء مقاصد أحد، إن قرارنا نابع منا وإن لنا مطالب تعلمون أنها عادلة ونحن نريد إنجازها بالسرعة الممكنة كي يعود الطلاب إلى مقاعد الدراسة.

بعد ذلك عادت المسيرة إلى الدوار الذي منه انطلقت، وتفرق المعلمون وتوجه أعضاء اللجنة إلى قاعة البلدية حيث كنا متفقين على أن نلتقي لتقويم المسيرة، فعلمت أن أحدهم وصف ما قمت به بالتسلقية واحتج بعضهم على أنني حييت الحاضرين في افتتاحية الكلمة واحتج آخر بأن المفروض أن ننسق الأمر قبل إلقاء الكلمة، لكن الغالبية من الحاضرين كانوا إلى جانبي وخاصة الزميلتين سيرين العبوة وميسر عمر، فاقترحتا أن يتم اعتمادي ناطقًا باسم اللجنة فنال الاقتراح أغلبية كبيرة.

مطلب الدعم العربي

كان الاعتقاد السائد منذ البداية، وبالتحديد منذ أعيدت الرواتب للموظفين الأردنيين في الضفة الغربية الذين كانوا يتقاضون راتبهم الأردني مع الراتب الإسرائيلي منذ 1967 وحتى حرب أيلول 1970، عندما تعرضت الأردن للمقاطعة وجمدت المساعدات المقدمة لها على أثر طردها للفدائيين الفلسطينيين، ثم على أثر حرب 1973 أعيدت المساعدات فاستأنفت الأردن دفع تلك الرواتب، وكان المأمول أن تدفع للجميع لدعم صمودهم، لكنها لم تفعل، وظل دعم معلمي ما بعد 1967 مطلبًا لكنه ظل أملًا في النفوس.

قيل لنا نحن الفتحاويين: إن الحركة (حركة فتح) تريد دعمكم بإسكان وإنها تريد أسماءكم، كان ذلك قبل الإضراب الذي أتحدث عنه، وبالضبط في عام 1979،

وبعثنا أسماءنا وانتظرنا، وجاء الجواب سخرية منا لأننا لم نرسل مخططًا مصدقًا من الحكم العسكري وجاهزًا لمباشرة البناء فهم يتعاملون مع الأمر ببيروقراطية لا تأخذ بالحسبان طبيعة الظرف الذي نمر به.

وقبل ذلك، في سنة 1976 أعلن عن إنشاء جمعية إسكان للمعلمين، وكان من شروطها أن يكون المنتسب من سكان المدينة أو أنه يعمل في المدينة، وهذا شرط ينطبق عليَّ فأنا أعمل في المدينة (في مدرسة قدري طوقان) وأسكن في نابلس ولكن الشرط الآخر وهو دفع عشرين دينارًا كرسوم تسجيل والتعهد بدفع مائتي دينار عند الطلب، هذا الشرط وقف حجر عثرة إذ إن الرسوم وإن كانت بسيطة، لم تكن ميسورة في تلك الأوقات الصعبة، أما التعهد بدفع مائتي دينار عند الطلب فلا يمكن الإقدام عليه؛ لأن راتبي لم يكن يتجاوز ستين دينارًا أردنيًا وهذا مبلغ زهيد لا أستطيع حتى اقتطاع أجرة الدار منه والتي كانت مائة وعشرين دينارًا أردنيًا في السنة تدفع على قسطين، فتبرع شقيقي محمود بأن يرسل الأجرة في وقتها ويشاركه شقيقي الأصغر فاروق وكان كلاهما يعمل في الكويت، لقد كانت تلك الفترة أصعب فترة من الناحية المادية أواجهها منذ أن عملت في سلك التربية والتعليم، لذا لم أسجل اسمي في مشروع الإسكان ذلك.

ظل الأمل معلقًا على الدعم العربي، وتعلق الأمل لفترة بسيطة باللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة التي كانت تتلقى أموال الدعم العربي لصمود الشعب الفلسطيني، إلا أن تلك الآمال سرعان ما تبددت، فشكل المعلمون سنة 1977، أو نحو ذلك التاريخ، وفدًا توجه إلى الأردن بنية التوجه إلى السعودية التي كانت تنعم بثراء غير مسبوق، ومن الطبيعي أن يتوجه الوفد أولًا إلى السفارة السعودية للحصول على تأشيرات دخول المملكة إلا أن السفير السعودي استقبلهم بحفاوة، وضيفهم في بيته واستمع إلى مطالبهم فوجدها بسيطة، وكان عدد المعلمين في ذلك الوقت لا يتجاوز عشرة آلاف وبحسبة بسيطة تبين أن دعمهم لن يكلف الحكومة السعودية أكثر من بضعة ملايين دولار شهريًا وهذا مبلغ لا يُذكر في ظل الطوفان المالي الكبير والذي نتج عن ارتفاع أسعار النفط بعد حرب 1973، لقد تعهد السفير السعودي باسم

الحكومة السعودية أن تدفع حكومته هذا المبلغ البسيط شهريًا للمعلمين المعيَّنين بعد عام 1967، ولكن الوعد لم يدخل حيز التنفيذ، ولا نعرف لماذا لم يدفع إلا أن الحكومة الأردنية لم ترحب بالوفد ولا بمهمته حتى إن أحد كبار المسئولين الأردنيين هو أحمد طوقان، وهو فلسطينيٌ نابلسي والشقيق الأكبر للشاعر الوطني الكبير إبراهيم طوقان قام بطردهم من مكتبه بأسلوب بالغ العصبية، ولعل السبب في ذلك أنها لم تكن تريد مرجعية غير مرجعيتها في الضفة الغربية، وأن وفدًا يخرج من الضفة الغربية دون أمر منها إنما يكشف عن أن الأموال التي تذهب إلى دعم صمود الشعب الفلسطيني لا تؤدي الدور المرجو منها وأنها تتعرض للنهب وهذا بالفعل ما كان يحصل، فإن أعضاء اللجنة الفلسطينية الأردنية المشتركة كانوا فاسدين، فقد كان عددهم أربعين واعتقلت الحكومة الأردنية فيما بعد ثلاثين منهم دفعة واحدة وأدانتهم بالاختلاس، وبقي عشرة لم يدانوا ربما؛ لأنهم يتمتعون بالحماية ومن المستحيل أن يكون السبب نظافتهم.

ظل الموظفون الذين عيّنوا بعد 1967، لا سيما المعلمون، وأنا واحد منهم، يرون أنهم أصحاب حق في أن ينالوا دعمًا لصمودهم وهم يشاهدون رحيل المعلمين والأطباء والمهندسين وأصحاب الكفاءات المختلفة بأعداد كبيرة وتوجههم إلى دول الخليج حيث الرواتب والمعيشة الأحسن، كنا نشاهد والأسى يملأ نفوسنا، كيف أن دولة الاحتلال تستقدم اليهود من الخارج وتصادر لهم الأراضي من العرب وتبني لهم المساكن الجميلة المرفهة في المستوطنات التي تتمتع بكل الخدمات ونحن نضطر إلى الرحيل عن الوطن تحت وطأة الفقر الشديد مع أن صمود جميع موظفي الضفة الغربية وعلى الأخص المعلمين والأطباء لم يكن يكلف ما يتكلفه اليهود في بناء مستوطنة أو مستوطنتين.

وعندما بدأنا التحضير للإضراب، وعندما بدأنا بالتنفيذ كانت لدينا قناعة بأن الحل سيأتي من الدعم العربي وأن المحتل الإسرائيلي لم يكن معنيًا بصمودنا، بل كان معنيًا برحيلنا، لذا كان الظن أننا في ظل الإضراب سنشكل وفدًا يتوجه إلى الأردن ويطالب برواتب للمعلمين وأنه سيجد آذانًا صاغية هذه المرة بسلطان الإضراب الذي ننفذه.

وأثناء الإضراب علمت الأردن ما نفكر فيه فأرسلت لنا الإشارة تلو الإشارة

تقول لنا: إياكم أن تتوجهوا إلى الأردن، فأنتم مضربون ضد المحتل الإسرائيلي لا ضد الأردن وإن الأردن ليس على استعداد لحل مشاكل المحتل الصهيوني.

كنا نفكر في إرسال وفد إلى الأردن في إجازة نصف السنة، فتبين لنا، بناء على ما وصلنا من إشارات، أن من الخطأ إرساله والإضراب قائم.

بدء التساؤلات حول مصير الإضراب

قرر الحكم العسكري زيادة بدل تآكل في رواتب الموظفين وأن يدير ظهره للمضربين ويتظاهر بعدم الاكتراث بهم، وكنا نعلم أنه تظاهر كاذب وأنه مهتم بإنهاء الإضراب كل الاهتمام لأغراض أمنية فإنما يهم المحتل أن يكون الهدوء مستتبًا، أما مصلحة أبناء الضفة فلا تعنيهم في شيء، وقدّر أن حرص المعلمين على مستقبل طلابهم سيدفعهم إلى وقف الإضراب من تلقاء أنفسهم ولم يكن مخطئًا في تقديره.

بعد أن تواصلت اجتماعات اللجان اللوائية بالمعلمين وبعد أن نفذنا مسيرات واعتصامات واحتجاجات بدأ التساؤل عند الناس وعند جمهور المعلمين والمعلمات عن نهاية هذا الإضراب وبدأت شعبية الإضراب تتراجع شيئًا فشيئًا، وبدا ذلك بوضوح منذ بداية شهر آذار 1981 وفي اجتماع للجنة اللوائية مع جمهور المعلمين والمعلمات وُجِّه إلى اللجنة سؤال يقول: متى يقف الإضراب؟ فتوليت الرد وكان على النحو التالي: لسنا نحن من سيوقف الإضراب، أنتم جمهور المعلمين من أعلن الإضراب وأنتم من يملك صلاحية وقفه، فالإضراب لا يزال موضع قناعة من جمهور المعلمين، وتعلمون أن المعلمين حيال الإضراب ثلاثة أصناف: صنف لم يقف مع الإضراب ولم ينضم إليه لمعرفته أنه سينال أية منفعة يحققها الإضراب وسيبقى في منأى عن الضرر إذا تضرر المضربون، وهؤلاء تجدهم ناشطين في الدعوة إلى إنهاء الإضراب متعللين بمصلحة أبنائنا وكأنهم وحدهم من يعرفها ويحرص عليها، وهؤلاء _كما تعلمون_ انتهازيون لا يعتد بموقفهم، وصنف آخر متطرف سيبقى مع استمرار الإضراب وسيعارض وقفه مهما كانت الدواعي، ومثل هؤلاء لن يتحكموا في مصير الإضراب، وأما الكثرة من جمهور

المعلمين والمعلمات فعندما يسري في صفوفهم مطلب وقف الإضراب، فسوف تقرر اللجنة العامة واللجان اللوائية إنهاء الإضراب وسيعود الطلاب إلى مقاعد الدراسة، وهذا أمر حتمي يومًا ما.

أخذ المعلمون يطرحون هذا السؤال بإلحاح في كل اجتماع، وبدأت تسري في صفوفهم قناعة بضرورة وقف الإضراب ومواصلة المطالب بالطرق الأخرى واشتدت القناعة لدى جمهور المعلمين بضرورة وقف الإضراب فأنتقل الجدل إلى اللجان اللوائية واللجنة العامة، وكما هو متوقع بدأت المزايدات والتشدد وتسجيل المواقف الصقرية وشاهدنا أن كثيرًا من المتشددين والمتطرفين هم الذين لم يحققوا أي إنجاز في مدارسهم، وعقدت اللجنة العامة اجتماعًا في نابلس ارتفعت فيه أصوات المتشددين، ولكن الميالين إلى فك الإضراب كانوا أكثر. وكان موقفي التمسك بما وعدت به المعلمين وهو أن رأيهم العام هو الذي سيحسم مصير الإضراب، وأن رأيهم العام أصبح الآن وقف الإضراب وتدارك العام الدراسي.

وتقرر عقد اجتماع في الخليل وفي ذلك الاجتماع تبين أن الرغبة في إنهاء الإضراب موجودة عند المعلمين في كافة الألوية، وكان الأهالي ينتظرون ما يسفر عنه ذلك الاجتماع وكنا في نابلس قد قررنا أن يكون موقفنا وقف الإضراب وفاءً لوعدنا المتكرر للمعلمين بأن يكون رأيهم الغالب ونظرًا لظروف القرية التي أسكنها أنبت عني الزميل محمود البوريني لحضور الاجتماع، وكان ذلك موضع عدم رضا من بعض أعضاء اللجنة؛ لأنهم انتخبوني لأمثلهم بنفسي لا بالنيابة وموقفهم لا شك صحيح، وكانت تلك الإنابة من جملة الأخطاء.

في ذلك الاجتماع تقرر وقف الإضراب ومواصلة الكفاح بالطرق الأخرى.

اجتمعت اللجنة اللوائية في نابلس على إثر ذلك، وقررت دعوة المعلمين إلى اجتماع يعقد في مدرسة عمرو بن العاص لإبلاغهم بإنهاء الإضراب. وبالفعل عقد الاجتماع، وكان مدير المدرسة صديقًا عزيزًا عليّ هو المرحوم الأستاذ سامي نزال (أبو بسام) فلامني لومًا شديدًا على أنني لم أخبره عن اجتماع يعقد في مدرسة هو مديرها،

فأوضحت له أنني لم أُرد إحراجه، وأريده أن يكون صادقًا عندما يقول إنه لم يكن يعرف إذا سأله مدير مكتب التربية والتعليم أو الحكم العسكري، وكان الاجتماع يحتوي على بيان واحد اتفقت اللجنة اللوائية على صياغته على أن أتولى إذاعته، وفيه إخبار للمعلمين بإنهاء الإضراب وفيه أيضًا استخلاص للعبر من الإضراب وانتقاد شديد للذين وقفوا ضد الإضراب وخاصة المسئولين في مكتب التربية والتعليم وهم يقصدون مدير التربية والتعليم، فاحتج مدير المدرسة لقرابة بينه وبين مدير التربية والتعليم وأراد أن يلقي كلمة ترحيبية فرفضت اللجنة اللوائية ذلك فتلطفت في الاعتذار إليه، وتمت وقائع الاجتماع كما خَطط لها، وعادت في شهر آذار مسيرة التربية والتعليم كما كانت وبوشر بتصحيح أوراق التوجيهي وعلّقت الدراسة في مدارس نابلس التي تقرر أن تكون مراكز للتصحيح.

لقد حقق الإضراب زيادة أولية على الرواتب بنسبة متدنية وقد أُعلن عن الزيادة في بداية الفصل الدراسي الثاني مع استئناف الإضراب بعد أن وافقت اللجنة اللوائية على عقد الامتحانات الفصلية وعقد امتحان التوجيهي كما أسلفت، لحمل المعلمين على التراجع عنه، ثم بعد فك الإضراب حصلت زيادات ملحوظة على الرواتب فقفز راتبي مما يعادل خمسة وثمانين دينارًا إلى ما يعادل مائة وخمسة وعشرين ودفعت علاوة للمعلمين استُثني أعضاء اللجان منها. وكان أن توقفت علاوتي وجمدت درجتي عند الدرجة السادسة ولم أتجاوزها مع استحقاقي للترقية. وبعد شهور عديدة جاءتني علاوة معلم مرحلة متوسطة لا ثانوية بحجة أن عندي صفًا إعداديًا ولم يكن بأثر رجعي، وكان كل ذلك متوقعًا.

استمرت بعد ذلك اللجان اللوائية واللجنة العامة تعقد اجتماعاتها، وكانت اللجنة العامة تنعقد مرة كل أسبوعين في بلد مختلف، ولكن بدأ المعلمون يتسربون من اللجان الفرعية.

في إجازة الصيف تقرر أن يسافر الناشطون في إضراب المعلمين ـ وعلى الأخص أعضاء اللجنة العامة ـ إلى عمان للاجتماع بالمسئولين من فتح من أجل تنسيق الخطوات

القادمة، ورأيت أن أصطحب عائلتي معي إلا أن السلطات الإسرائيلية على الجسر منعتني من السفر ولم تمنع أحدًا غيري من وفود المعلمين، فعدت أدراجي أنا وزوجتي والأولاد وقلت في نفسي: لا بأس فالذين سافروا سيرتبون الأوضاع، وعندما رجعوا وجدت أمرًا عجبًا فهؤلاء رتبوا علاقاتهم بمسئولي فتح بشكل شخصي، وعُين أحدهم مسئولًا ماليًا على حسد وتنافس وانعدام رضا وانعدام ثقة من الباقين، وعندما جاء ذلك المسئول المالي إلى القرية ليطلعني على بعض جوانب مسئوليته وعلى أرقام الوارد والصادر، وما إلى ذلك، لم أكن أشعر بأية رغبة في الاستماع، وكان التقرير الذي حاول إطلاعي عليه موجزًا وحصل أمام الدار ونحن واقفان، والحقيقة أنني لم أعِ كلمة مما قال ولم أحاول أن أعي، لأنني لم أجد فائدة في أن أسمع، ولكنني شعرت أن هؤلاء الذين ذهبوا وأولئك الذين استقبلوهم أحدثوا أمرًا لن يكون فيه لجمهور المعلمين أية فائدة ولن يكون لي فيه إلا موقع الشاهد الذي لم ير شيئًا ولا يعرف شيئًا، وأنه بالتالي لم يعد أي نفع يرجى من استمراري معهم.

بعد ذلك بأيام همس لي زميل (لديه قرون استشعار) بأن اليهود على وشك أن يلفقوا لكم، أعضاء اللجنة العامة تهمًا أمنية ليعتقلوكم، ثم يطردوكم من وظائفكم، ولم أفاجأ بما قال، وتذكرت سؤالًا وجه إلينا ذات مرة في اجتماعاتنا يستغرب موجهه أن الحكم العسكري لم يتخذ بحقنا أية إجراءات، فأجبته بأن الحكم العسكري ليس على عجلة من أمره في هذا الموضوع وأنه لن يقدم على الاعتقالات ما دام المعلمون ملتفين حول لجانهم، ولكن إذا استطاع أن يفرق وحدتهم فستكون الاعتقالات أول ما يفعله. وبالفعل قام الاحتلال في خطوة لاحقة بالتفتيش في بعض منازل من يعدهم الناشطين الرئيسيين في الإضراب، وقد جاء إلى مسكني في جالود وكنت في تلك اللحظة خارج القرية أنا وزوجتي، فعثروا على أوراق هي عبارة عن مسودات لمحاولة وضع نظام مقترح للجان المعلمين، فاعتبروها دليل إدانة كافيًا وأخذوها لتكون حجتهم لاعتقالي وبالتالي فصلي من الوظيفة، وكان قبل ذلك بقليل قد جاء إلى مكتب التربية والتعليم كتاب فصل بعض المعلمين وأنا _بطبيعة الحال_ واحد منهم وكنا قد اتفقنا مع المحامي عبد عسلي من القدس أن يرفع بالنيابة عنا قضية إلى المحكمة العليا ضد

ضابط التربية والتعليم إذا حاول فصلنا من العمل، وعلم مستشار ضابط التربية أن المحكمة لن توافق على الفصل لمجرد انخراط الموظف في عمل احتجاجي يطالب بزيادة الرواتب، فالغي أمر الفصل وقرر الحكم العسكري أن يبحث عن ذريعة للاعتقال على خلفية أمنية فإذا أدين أي معلم بمخالفة أمنية وحكم عليه بموجب هذه الإدانة أصبح من حق ضابط التربية والتعليم فصله من العمل. لقد نفذت تلك الخطة بعدد من المعلمين الرئيسيين في اللجنة منهم مالك مرمش وفضل الريماوي ونعيم أبو قاهوق وعبد الكريم كنعان، واعتقل آخرون ولم يجر فصلهم منهم عبد العزيز حنايشة، وبالنسبة لي فعندما علموا أنني سأستقيل لألتحق بالثانوية الإسلامية تركوني، فإن الهدف من الاعتقال كان الفصل من الوظيفة وعندما تحقق تركي الوظيفة الحكومية لم يعد لهم أرب في اعتقالي.

مرحلة ما قبل الانتفاضة الأولى

كانت السنتان اللتان قضيتهما في مدرسة قريوت 1980-1982 مريحتين من الناحية المادية بدرجة ما، فالدار هي دار والد زوجتي وكانت أوسع من دار أهلي، ولها حديقة غناء مليئة بأنواع الشجر المثمر وأهلها في الكويت، فتمتعنا بالسكن فيها، لم نكن ندفع أجرة مسكن بطبيعة الحال، ولم نكن ندفع فاتورة ماء؛ لأن الماء متوفر في بئرين في الدار ولا فاتورة كهرباء، لأنه لم يكن في القرية كهرباء وكان هذا هو النقص الأكبر، فبعد الغسالة المريحة اضطرت زوجتي للعودة إلى الغسيل اليدوي المتعب، وكذلك التلفزيون كان يسلي الأولاد، ففقدوا بفقده وسيلة تسلية مهمة، وعلى الرغم من خفة المصاريف في القرية إذا قورنت بالمدينة إلا أنني كنت شديد الرغبة في تحسين دخلي؛ لأن العائلة تكبر وتتكاثر مطالبها والراتب على حاله، فلجأت إلى التفتيش عن الآثار في مغارة في أرض مملوكة لدار خالي، ولكنني لم أجد إلا القليل من الأواني الفخارية غير الملونة فبعتها بثمن بخس وبوساطة زميل يعمل في مجال الآثار وتحولت إلى أرض لنا فيها دلائل على مواقع أثرية ومنها لوحة على صخرة فيها خارطة لمواقع يبدو أنها تغطي المنطقة وتحتاج إلى خبير آثار للكشف عنها، ولما لم يكن لي خبرة في الآثار فقد

بـدأت الحفـر أمـام صخـر كبـير راسـخ في الأرض وقـد نُقشـت عـلى جانبيـه صـورة لغلايـة على كل جانـب وهـذا دليـل عـلى وجـود كهـف قريـب إلا أنني بعـد أن وصلـت إلى أسـفل الصخـر لم أجـد كهفًـا وكانـت نتيجـة جهـد كبـير اسـتمر أيامًـا طـوالا لا شيء، ولكـن عنـد الباحثـين عـن الآثـار لا مجـال لليـأس فانتقلـت إلى موضـع آخـر، وكان عبـارة عـن شـكل لكهـف لـه بـاب مـن صخـر كبـير أخـذت أحفـر تحتـه وبـدأ الحفـر يتعمـق إلا أنني لم أجـد أيـة آثـار، ولكنني واصلـت الحفـر حتـى بلـغ التجويـف حجـمًا كبـيرًا وبينـما أنـا أتأمـل مـا حـولي داخـل التجويـف لاحظـت كتلـة صغـيرة مـن الـتراب تسـقط مـن أعـلى فتذكـرت قصـة رجـل مـن قريـة تلفيـت وقـع عليـه صخـر مـن المحجـر فقتلـه، وأهـم مـا كان قـد علـق بذهنـي مـن القصـة _وقـد سـمعت امـرأة تقصهـا عـلى أخـرى وأنـا صغـير_ فقالـت: كان ذلـك الحجّـار يجلس للاسـتراحة مـع آخريـن فسـقط عليهـم بعـض الـتراب فأيقنـوا بالخطـر وهربـوا مـن الموقـع أمـا هـو فلـم يشـعر بالخطـر كـما شـعروا وظـل جالسًـا مكانـه فسـقط عليه الصخـر فقتلـه. تذكـرت هـذا الجـزء مـن القصـة فأيقنـت بالخطـر ولم يلبـث أن تزايـد تسـاقط الـتراب، فشـعرت كأنني سـمعت هاتفًـا مـن داخـل نفسي يقـول لي: اخـرج فـورًا فنهضـت مسرعًـا لأخـرج وشـعرت أن الوقـت لا يتسـع لإخـراج المجرفـة أو القفـة فـكل ثانيـة قـد تكـون مصيريـة وبالفعـل قفـزت نحـو البـاب وعندمـا صار أعـلاي خـارج الحفـرة ورجلاي لا تـزالان داخلهـا _ولكـن عـلى حافـة المخـرج_ سـمعت قرقعـة عظيمـة وأحسسـت بطـرف الصخـر يلمـس رجـلي اليـسرى وهـو يهـوي بكتلتـه الهائلـة التـي تسـاوي بضعـة أطنـان، وبلطـف الله تعـالى لم يظفـر إلا بالحـذاء فأخـذه، وصعـدت مذهـولًا لهـذا الـذي جـرى وبهـذه السرعـة المدهشـة تتنازعنـي مشـاعر الفـرح بالسـلامة وحمـد الله عـلى أن أرسـل لي الهاتـف الصامـت الـذي لم يكـن وهمًـا، مختلطـة بمشـاعر أخـرى هـي مشـاعر مـن كان عـلى وشـك أن يمـوت طحنًـا تحـت وطـأة صخـر عظيـم وأن أولادي كانـوا عـلى وشـك أن تحـول بهـم الحـال.

كان والـدي جالسًـا خـارج الحفـرة وكان يقـول لي: إن مـا تحفـره ليـس مغـارة وأنـا أصر عـلى أنـه مغـارة، إلى أن سـقط الصخـر فكانـت مشـاعره موزعـة بـين الفـرح بسـلامتي والرهبـة مـن هـذا المصـير الـذي كنـت عـلى وشـك أن أؤول إليـه، ولـو وقعـت تلـك الكارثـة

لاحتاجوا إلى تفجير الصخر بالبارود لإخراجي من تحته. خرجت بفردة حذاء من هذا المشروع الذي أملت من ورائه الغنى. وكان من لطف الله تعالى، أن الأرض كانت متصلة ببيت الوالد من غير فاصل وبذلك استطعت أن أعود إلى البيت برجل ناعلة وأخرى حافية دون أن يرى ذلك أحد، وكان الحذاء الضحية هو حذاء العمل، أما الحذاء الأحسن فكنت أخلعه في بيت الوالد ومعه الجربان النظيف، وبقية الملابس التي أقابل بها الناس، فبدلت ذلك كله وظننت أن الأمر لن ينتشر بين الناس إلا أن الأمر، في دقائق أصبح معروفًا لدى الجميع. وموضع حديث الجميع.

كانت وقائع ذلك اليوم من النوع الذي لا يُنسى مدى الحياة وقد استولت على مشاعري فكرة أنني كنت الآن في عداد الأموات لولا ذلك الهاتف الغريب المبارك. كيف ستكون حالتي في العالم الآخر لو نفذ القضاء؟ لولا لطف الله فإنني الآن خبير في الموت وأروي للزملاء الأموات ما جرى لي. كل أفكاري في ذلك اليوم كانت تدور حول الموت الذي كنت على وشك أن أخوض تجربته وعما ستكون عليه حالة الوالدين والزوجة والأولاد في هذا اليوم الذي لم تشأ إرادة الله أن تجعله أسود.

لم يصرفني ما جرى عن متابعة التنقيب عن الآثار في أي مكان أقدِّر أن فيه آثارًا إلا أن العملية في مجملها كانت غير ذات جدوى باستثناء ما يداعب الخيال من أحلام بالغنى.

في صيف 1982 علمت من صديق أن في نابلس مدرسة جديدة أهلية تسمى المدرسة الثانوية الإسلامية قد انتقلت من مبناها القديم في رفيديا إلى مبنى ضخم جديد في ضاحية الكبريت وأنها تريد التعاقد مع معلمين من كافة التخصصات، ولقد كان عملي في الحكومة لا مستقبل له، وكان في هذه الأثناء قد صدر من ضابط التربية تقاعد مبكر لموجه اللغة العربية الأستاذ عدنان الجوهري لخلاف بينه وبين مدير التربية والتعليم، وكنت المرشح الأحق للمنصب بعده، لكن من المستحيل أن يوافق الاحتلال على ذلك، بل إنه من المستحيل رفع التجميد عن درجتي أو إعطائي العلاوة التي تعطى لمعلمي المرحلة الثانوية أو حتى نقلي إلى مدارس المدينة، لذا توجهت إلى المدرسة

الثانويـة الإسـلامية في رفيديـا حيـث كانـوا يسـتقبلون طلبـات التوظيـف، ووجـدت هنـاك مـن يعرفنـي وخاصـة مديـر المدرسـة المرحـوم الأسـتاذ جمـال الكايـد، فاسـتقبلوا الطلـب بالترحـاب، وكان مـن الصعـب أن يسـتقيل معلـم مـن الحكومـة في الظـروف العاديـة وينتقل إلى مدرسـة أهليـة؛ لأن مزايـا الوظيفـة الحكوميـة أفضـل بكثـير مـن مزايـا أيـة وظيفـة أهليـة، ولكـن في حالـة المدرسـة الإسـلامية كان الأمـر مختلفًـا إلى حـد مـا، فقـد عرضـت راتبًـا هـو ضعـف راتـب الحكومـة، واعتبرنـا ذلـك بدايـة خـير وقـد اسـتقال المرحـوم الأسـتاذ نايـف عبـد الرحمـن والأسـتاذ راضي زيـدان مـن الوظيفـة الحكوميـة للالتحـاق بالثانويـة الإسـلامية، وكلاهمـا كان مدرسًـا ناجحًـا ومعروفًـا وتعاقـد مـع المدرسـة بعـض المعلمـين المتقاعديـن بشـكل مبكـر إمـا لأسـباب وطنيـة في حالـة المرحـوم الأسـتاذ مسـعود مـن سيلة الظهـر؛ أو لأنـه أتـم ثلاثـين سـنة قبـل أن يبلـغ السـتين كحالـة الأسـتاذ عبـد اللطيـف سـعد الديـن والأسـتاذ صدقـي عمـر وكلاهمـا مشـهود لـه بالكفـاءة بالإضافـة إلى الخـبرة الطويلـة.

أجواء افتتاح المدرسة

كان ذلـك الصيـف مشـتعلًا في لبنـان التـي كانـت تشـهد الغـزو الإسرائيـلي الشـامل والـذي أدى إلى اجتيـاح بـيروت وقـد دخـل الإسرائيليـون بـيروت الشرقيـة المسـيحية مرحّبًـا بهـم وكان مـن جملـة الاتفاقيـات التـي صاحبـت جـلاء الفلسـطينيين عـن بـيروت ألا يجتـاح الإسرائيليـون بـيروت الغربيـة التـي يقطنهـا المسـلمون والفلسـطينيون في مخيمـي صـبرا وشـاتيلا، ثـم حـدث في منتصـف أيلـول 1982 أن اغتيـل الرئيـس اللبنـاني المعيَّـن والـذي لم يبـاشر سـلطاته بعـد، بشـير الجميـل وهـو الـذي رحـب بالاحتـلال الإسرائيـلي لبـيروت وأبـدى كل أشـكال التعـاون مـع العـدو المحتـل، لقـد انفجـر مقـر قيـادة قـوات الكتائـب فقتـل الرئيـس الموعـود وعـددًا ممـن كان في المقـر وتوجهـت أصابـع الاتهـام بطبيعـة الحـال إلى الفلسـطينيين، وقـد تبـين فيـما بعـد أنـه لا علاقـة لهـم بالأمـر.

ويـوم الثامـن عـشر مـن أيلـول كان يـوم افتتـاح المدرسـة وبالتـالي بـدء السـنة الدراسـية، بـدأت تتـسرب أنبـاء مفادهـا أن مخيمـي صـبرا وشـاتيلا يتعرضـان منـذ ثلاثـة أيـام إلى مذبحـة هائلـة وأن الصغـير والكبـير والرجـل والمـرأة جـرى قتلهـم بأبشـع طريقـة، وكانـت الأنبـاء لا

تزال في ذلك اليوم أولية إلا أنها مرعبة ومفزعة، وأُعلن في أرجاء الضفة الغربية إضراب شامل وكان الحزن الشديد مخيمًا على الناس وباديًا على وجوههم ويبدو الوجوم على الشوارع وعلى الأشياء. وكانت محنة للذين قرروا بدء الدراسة والكل في حزن وحداد وإضراب شامل، ولكن، مع ذلك، تقرر افتتاح العام الدراسي في الثانوية الإسلامية التي استقطبت أفضل الطلاب ووعدت بأن تكون استثناء من المدارس الحكومية التي سيطرت عليها الفوضى وأصبحت تشهد إضرابات على مدى أيام السنة. وكانت أيام الإضراب فيها أكثر بكثير من أيام الدوام، فأرادت جمعية التضامن الخيرية المكونة من مجموعة من رجالات المدينة من كبار التجار بشكل رئيس أن يكون للآباء المساكين مدرسة يلجأ أبناؤهم الجادون المتفوقون إليها ليجدوا فيها النظام والانتظام والتعليم الجاد في وقت أصبح الإضراب المتواصل عن التعليم سلاح من يريد أن يضحك على نفسه وعلى شعبه في ادعاء مواجهة الاحتلال العسكري العنيد. وكان بالطبع نضالًا لا يعدو كونه تخريبيًا للمجتمع الفلسطيني وعلى الأخص إذا زاد عن حده.

في أجواء الأنباء الأولية عن مذابح صبرا وشتيلا، توافد الطلاب إلى المدرسة وحضرت الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية وكان يرأسها المرحوم الحاج محمد سعيد العالول وهو اقتصادي كبير ومن وجهاء نابلس، وسكرتيرها الحاج حسام عبد الرحمن الحجاوي وهو من أبرز وجهاء نابلس ومن الوجوه الاقتصادية المعروفة، ومن أعضائها المرحوم الشيخ حامد البيتاوي وكان وقتها قاضيًا شرعيًا وهو، إلى أن توفاه الله إلى رحمته، من أبرز قادة الإخوان المسلمين، كما أنه كان الخطيب الأول في نابلس وأستطيع القول في فلسطين كلها، وألقى الشيخ حامد كلمة الهيئة الإدارية لجمعية التضامن توجه فيها إلى الطلاب بالتمنيات وإلى الحاضرين بالتحية وأوضح للطلاب أن الجمعية وفرت لهم كل الأجواء الكفيلة بمساعدتهم على العطاء المتميز وتعاقدت لهم مع أقوى المدرسين، وعلى ألم دفين ووجوم بارز على الوجوه توجه الطلاب إلى صفوفهم، وبدأت السنة الدراسية بجد واستمرت جادة كل الجد وكانت في معزل عن الإضرابات المتواصلة التي تجتاح المدارس الحكومية بمناسبة وبغير مناسبة، وفي نهاية السنة كانت النتائج رائعة فخمسة من الأوائل العشرة في التوجيهي في الضفة كانوا

من طلاب المدرسة الثانوية الإسلامية مما ملأ نفوس رئيس وأعضاء الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية زهوًا وفخرًا فأقامت للمعلمين حفل غداء فاخر على الحساب الشخصي لأعضائها.

في السنة الدراسية الثانية من عمر المدرسة 1983/ 1984 أثرت عوامل سلبية على نتيجة المدرسة منها أن الإضرابات كانت قد خفّت قليلًا في المدارس وأن الفكرة التي تكونت عن المدرسة أنها للإخوان المسلمين، وقد وقع الخلاف الشديد بين الطلبة الإخوان في جامعة النجاح وبين الطلبة الذين ينتمون إلى فصائل منظمة التحرير من جهة أخرى مع العلم أن الإخوان في السنة السابقة لافتتاح المدرسة قد فازوا بتشكيل مجلس طلبة جامعة النجاح وكان للأثر السحري للثورة الإسلامية في إيران دور واضح في ارتفاع قيمة الحركة الإسلامية عند عامة المواطنين في فلسطين، وفي سنة افتتاح المدرسة كان الصراع بين الاتجاه العلماني الوطني والاتجاه الإسلامي في جامعة النجاح قد بلغ أشده وانتهى إلى اقتتال بالأيدي والعصي والجنازير بين طلبة الاتجاهين، وكل ذلك جعل الحركة الإسلامية في موضع الاستقطاب لا موضع الإجماع، وكانت عدوى الانقسام قد انتقلت إلى المدرسة الثانوية الإسلامية منذ بداية افتتاحها تمثلت في رفض عناصر الإخوان المسلمين تعيين مدرس فتحاوي مديرًا للمدرسة التي يرون أنها لهم، وتمثلت كذلك في مناكفات بين الطلاب الفتحاويين وطلاب الإخوان المسلمين، كان من مظاهرها احتكاكات وبعض الاشتباكات وهكذا، كل ذلك أدى إلى امتناع عدد من المتفوقين في المدارس المرشحين للعلامات العالية في التوجيهي من الالتحاق بالإسلامية، كما أن طلاب الثاني الثانوي الذين ترفعوا إلى التوجيهي لم يكونوا على درجة من التميز كما كان عليها زملاؤهم الذين سبقوهم، كل هذا جعل النتيجة متواضعة في السنة الثانية مما أثر سلبًا على نفسيات الهيئة الإدارية للجمعية فوجهت اللوم للمعلمين ناسبة إليهم التقصير.

وفي السنة الدراسية الثانية من عمر المدرسة أعفي المدير الذي لم يرض عنه الإخوان ولم يدخروا وسيلة للتنغيص عليه، وعُيِّن الرجل الذي يريدونه ووضعوا عليه أعينهم منذ بدء بناء المدرسة إنه الشيخ أحمد الحاج علي.

راجع الإخوان أحمد الحاج علي ليستلم منصب مدير المدرسة فوافق على الرغم من أنه يعمل في مدارس وكالة الغوث ولا يقارن العمل في الوكالة بالعمل مع جمعية خيرية في الضفة الغربية، فوكالة الغوث تعطي راتبًا مجزيًا ومكافأة نهاية عمل تجعل الإنسان مستورًا بقية عمره. والعمل مع جمعية خيرية يعطي راتبًا لا يوفر أكثر من الكفاف شأنه شأن العمل مع الحكومة كما أن استمرارية العمل مرهونة برضا المسئولين، ورضاهم لا يرتبط بالأداء فحسب بل بالموقف السياسي أيضًا، والحكومة من هذه الناحية أفضل، أما مكافأة نهاية الخدمة في جمعية خيرية فهو أحسن قليلًا من مكافأة نهاية الخدمة في عسكرية الأتراك زمن الدولة العثمانية، وفي نهاية خدمتي بعد خمس عشرة سنة، قبضت مبلغًا أصلحت به الدار المستأجرة التي كنت أسكنها، وبقي في جيبي قليل أنفق عليّ مدة شهرين، في حين أن المعلم في الوكالة يقبض مكافأة نهاية الخدمة حوالي مائة وعشرين ألف دينار أردني. لذا أراد الأستاذ الحاج علي أن يدير شؤون المدرسة في فترة الصباح وأن يواصل التدريس في مدرسة الوكالة في الدوام المسائي إلا أن الاحتلال لم يلبث أن فرض عليه الإقامة الجبرية من الصباح حتى الظهر، وظل نائبه الأستاذ عبد اللطيف سعد الدين يمارس دور المدير إلى نهاية السنة، وفي العام الدراسي 1984/ 1985 قامت الجمعية بتعيين لجنة ثلاثية لإدارة المدرسة تتكون من الأستاذ عبد اللطيف سعد الدين مديرًا مع عضوين هما الأستاذ صدقي عمر، وكاتب هذه الأسطر، واستمر عملها سنة دراسية واحدة، وعرضت الجمعية على ثلاثتنا مكافأة في نهاية السنة مقدارها مائة وخمسون دينارًا لكل واحد منا فرددناها للجمعية. ثم قامت الجمعية بتعيين الأستاذ عبد اللطيف سعد الدين مديرًا رسميًا للمدرسة.

أعظم حدث في حياتي

الحديث عن التدخين حديث ذو شجون، إن كلمة التدخين تعني الأمراض والخسائر المادية. ذكرت في صفحات سابقة أنني أقلعت عن التدخين زهاء ثلاثة أشهر في عام 1980، ثم عدت إليه بشراهة. استمرت هذه الشراهة حتى 01/ 09/ 1984، ويومًا بعد يوم بدأ تأثيره السيء على صحتي يتصاعد، مع العلم أن التدخين لم يكن

موافقًا لي من الناحية الصحية منذ البداية، فمع دخولي مرحلة التدخين المتواصل المنتظم في عام 1965، وأنا في السنة الجامعية الأولى تكون عندي البلغم المستمر صيفًا شتاءً، وكان يخف قليلًا في الصيف، لكنه لا يزول تمامًا وهذا ما دعاني في فترة الجامعة إلى محاولة ترك التدخين المرة تلو المرة دون أن أستطيع مواصلة تركه. ولدى استئنافي التدخين في صيف 1980 عاد البلغم الذي انقطع مع انقطاع التدخين وعاد مع عودته، وبدأ يصاحبه مرض آخر أشنع منه وهو الحموضة في المعدة، وبدأت الحموضة بسيطة وتثور عند أكل المقالي أو الفلفل، ثم بدأت تثور عند شربي الشاي والقهوة أيضًا، ثم بدأت تثور مع تدخين السيجارة وأخيرًا صارت تثور لدى شربي الماء فأصبحت أعاني منها معظم ساعات النهار. وكنت عندما أنزل من السيارة وأصعد الطريق المؤدية إلى المدرسة أشعر بتعب ويتجمع في صدري البلغم الذي أسارع إلى التخلص منه في المغسلة، ثم لا بد من تدخين السيجارة فيأتي دور الحموضة وهكذا، حتى صرت أخشى أن أصاب بسرطان الرئة. وفي صيف 1984، ذات يوم اصطحبت أحد أولادي إلى مستوصف الرحمة الواقع تحت مسجد الحاج معزوز لأعالجه من مرض ألمّ به، وكان السعال يصحبني بطبيعة الحال، فقلت للطبيب: هل لديك دواء للسعال المتواصل؟ فسألني: هل تدخّن؟ قلت: نعم. فقال: ليس مع التدخين دواء يمنع السعال. قلت له: وأنت ألا تصاب بالسعال؟ قال: ربما مرة في السنة، ثم قال لي: سأكتب لك حبوبًا، ولكنها قليلة الجدوى ما دمت تدخن. فقلت: لا حاجة بي إليها ما دامت غير مجدية، وخرجت من المستوصف فحدثتني نفسي بسيجارة وأخرجت سيجارة وأشعلتها فشعرت بهاتف يقول: أليس عيبًا أن تكون ضعيف الإرادة إلى هذا الحد؟ ألا تستطيع الإقلاع عن هذه العادة السيئة؟ لماذا يملك غيرك إرادة قوية وأنت لا تملك أية إرادة؟ فأجابتني نفسي: بلى عندي إرادة، وهأنا ذا ألقي بالسيجارة في الشارع قبل أن أكمل تدخينها، وعدت إلى البيت تاركًا التدخين، وقد أودع الخالق العظيم في التدخين مغريات تركه وهي نوعان: الأول ما يسببه من أذى للصحة، والثاني هو أن الآثار الجيدة لترك التدخين تبدأ بشكل فوري وملحوظ من اليوم الأول، إذ يبدأ تارك التدخين يشعر براحة الصدر ويتخلص من معظم السعال في اليوم الأول كذلك، ثم يتخلص من الباقي في فترة قصيرة، وكذلك الحموضة التي يسببها التدخين يبدأ

المدخن يتخلص منها، وما هي إلا أيام قليلة حتى يجد تارك التدخين نفسه يستطيع التنفس بعمق دون أي شعور بتعب الصدر الذي يصاحب التدخين، ويعود إلى الطعام الذي يستطيبه وإلى شرب الشاي والقهوة دون أن يكابد من الحموضة إلا أن مشكلة التدخين تكمن في صعوبة الاستمرار في تركه، فالمدخن يتوهم أن السيجارة تعدِّل مزاجه إذا اختل، وتزيده اعتدالًا إذا كان معتدلًا، وبعد أن يخف حماس تارك التدخين يبدأ يتذكر السيجارة كلما اختل مزاجه، فتحدثه نفسه أنها هي معدِّل المزاج، ويتذكرها في لحظات السعادة فتحدثه نفسه أن السعادة لا تكتمل إلا بالسيجارة، وهذا ما حصل معي في مشروع الترك الأخير.

وكان افتتاح العام الدراسي في الأول من أيلول عام 1984 يومًا من الأيام التي لا أنساها مهما امتد بي العمر، فقد مررت فيه بأثمن وأعظم تجربة في حياتي. في ذلك اليوم أعطيت الحصص المقررة لي بهمة ونشاط زائدين وهذه طبيعة اليوم الأول من كل عام دراسي، وعدت إلى البيت في قريتي جالود وأنا أشعر بالتعب واشتدت رغبتي في سيجارة، فسألت زوجتي ما إذا كان لدينا علبة سجائر منسيَّة، ففتشت فلم تجد، وكان الوضع العام في قريتنا بائسًا، فليس فيها دكان؛ لأنها أصغر قرية في محافظة نابلس، أو أنها ثاني أصغر قرية، فلا أمل، إذًا، في الحصول على سيجارة إلا أن أرسل مالكًا إلى قريوت وهذا ما لم استسغه. عندها انتابني شعور عميق بأن الحل هو أن أتوجه إلى الله بنية صادقة ودعاء صافٍ ليريحني من الدخان، فدعوت الله دعوة شعرت بصفائها وصدقها وأنها خارجة من أعماق قلب إنسان مضطر وصادق الإيمان بالله، فإذا شيء يسحب من جسدي كله حقيقة لا توهمًا وبإرادة من مريد، وإذا بالرغبة في التدخين تقع في خبر كان، وما هي إلا طرفة عين حتى استقر في نفسي ثقة لا يشوبها شك في أنني تركت من الآن الدخان إلى الأبد، فإنني لن أشتهيه أبدًا ولن تحدثني نفسي بالسيجارة بعد الآن، فإنني أترك التدخين بتدبير إلهي. لم يكن مجرد شعور ولم يكن للوهم فيه أي نصيب، لقد شعرت بشيء يُسحب من أنحاء جسمي، إنه النيكوتين الذي تحتوي عليه السيجارة والذي هو الرابط بين المدخن وسيجارته.

ومن الأدلة على أن الأمر تدبير إلهي ذلك الشعور بالثقة التامة بالنفس من أنني

لـن أضـع السـيجارة بـين إصبعـيّ بعـد الآن. وأكتب هذه الأسـطر في شـهر حزيـران 2012، أي: بعـد ثـمانٍ وعشريـن سـنة مـن تلـك الحادثـة العظيمـة، واجهـت خلالهـا الاعتقـال عنـد السـلطة وعنـد الاحتـلال سـت مـرات وواجهـت فيهـا ضيقًـا نفسـيًا وماديًـا ومرضًـا، وواجهـت مـا هـو أشـد مـن ذلـك كلـه، هو فقـدي فلـذة كبدي عاصـم، ابـن العشريـن ربيعًا، وجـاءني نعيـه وأنـا في السـجن، في العـزل، وكانـت السـجائر متوفـرة في كل تلـك الأحـوال، ولكـن لم تحدِّثني نفسـي بالسـيجارة أبـدًا، هـذا دليـل آخـر عـلى أنـه تدبـير ربـانيّ حقيقـي.

في الفـترة السـابقة للانتفاضـة الأولى رزقـت عاصـم في مطلـع تمـوز 1985 ثـم بحمزة في كانـون ثـان 1987 وهـي سـنة الانتفاضـة.

رحلة إلى غزة

منـذ الاحتـلال الإسرائيلي للضفة والقطاع عـام 1967 وحتى الانتفاضة الفلسـطينية الأولى عـام 1987، كانـت الضفـة الغربيـة مفتوحـة عـلى الأرض المحتلـة عـام 1948 وعـلى قطـاع غـزة، فقامـت المدرسـة الثانويـة الإسـلامية برحلـة إلى قطـاع غـزة، وكانـت رحلـة غايـة في الإمتـاع، زرنـا خلالهـا معهـد الأزهـر في غـزة وكذلـك الجامعـة الإسـلامية هنـاك وتجولنـا عـلى شـاطئ البحـر وزرنـا مصانـع تعبئة المشروبـات الغازيـة، إنها رحلـة لا تنسـى. ومعروف عـن أهـل غـزة أنهـم ماهـرون جـدًا في إدارة شـؤون حياتهـم والسـيطرة عـلى الإنفـاق بحيـث لا يزيـد عـلى مقـدار الدخـل ولا يقـع المـرء تحـت كابـوس الديـون إلا أنهـم في الوقـت نفسـه في غايـة الكـرم إذا دعـت إليـه الدواعـي، لقـد أقـام معهـد الأزهـر حفلـة الغـداء للرحلـة كلها والمكونـة مـن ثـلاث حافـلات، فقدمـوا لنـا «القِـدرة» الغزاويـة الشـهيرة بكميـات كبـيرة مـن اللحـم، وكانـت شـهية إلى درجـة أنها ظلـت محفورة في الذاكـرة، ثـم توجهنا بعدهـا إلى مصانـع تعبئـة المشروبـات الغازيـة فضيفونـا بـأن وضعـوا ركام الصناديـق المـبردة تحـت تصرفنـا، وكنـا بحاجـة إلى الـشراب اللذيـذ بعـد الطعـام الشـهي فـشرب الجميـع مثنـى وثـلاث وربـاع، إنـه كـرم عـزّ أن تجـد لـه مثيـلًا، ثـم توجهنـا إلى مصنـع تعبئـة البرتقـال، وتجولنـا في أقسـامه ولا أنسـى العـمال البسـطاء الطيبـين ينتقـون لنـا الحبـة الكبـيرة المميـزة مـن البرتقـال والحامـض ويقدمهـا الواحـد منهـم لمـن يقـترب منـه مـن الـزوار، لقـد انتابنـي شـعور وقتهـا أن الهديـة

الصادرة عن نفس طيبة لا تنتظر جزاء، عظيمة القيمة ولو كانت بسيطة الثمن، فحبة الليمون الحامض أو حبة البرتقال التي كان يمد يده بها عامل بسيط لا ينتظر جزاء خيرًا من عقد اللؤلؤ والماس الذي تعود أثرياء العرب أن يسترضوا به زوجات حكام الغرب أو الغواني في أي مكان.

مكثنا في غزة إلى ما يقارب الغروب، ثم عدنا مسرورين محبورين وكثير منا قد جمع من الهدية مقدارًا صالحًا ليقدمه لأولاده. وبعد أربع وعشرين سنة من تلك الزيارة، في سجن النقب عام 2005، التقيت ببعض الأسرى من إخوتنا في غزة، فقال لي أحدهم: «لقد كنت من جملة الطلاب الذين جاءوا إلى نابلس وزاروا المدرسة الثانوية الإسلامية وأجروا مباراة رياضية مع طلابها عام 1985»، فقلت له: إننا نشعر بالخجل والإحراج منكم، إذ كان جزاء كرمكم المشهود عندما زرناكم تقصيرًا منا مشهودًا عندما رددتم الزيارة، وإن السبب ليس نقص الكميات المقررة، فإن الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية رصدت مبلغًا من المال يكفي لإقامة التكريم الذي تستحقونه، لكن اليد التي استلمته لم تكن نظيفة أبدًا، وكنت أتحدث إليه وأنا أشعر بالخجل الذي لم تمحه أربع وعشرون سنة مرت على تلك الواقعة التي أغاظتنا وأحرجتنا إلا أن ذلك الشاب، تظاهر بأنه لا يعرف شيئًا عن ذلك التقصير فأكبرت فيه كرم أخلاقه.

موجز القصة أن إخوتنا في غزة من معهد الأزهر جاءوا يردون الزيارة في حافلتين، فرصدت الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية مبلغًا من المال لإقامة حفل غداء مصحوبًا بالكنافة النابلسية، وسلمته لشخص كان همزة الوصل بين الهيئة الإدارية والمدرسة، فقبض المبلغ واختصر الإنفاق غاية الاختصار حتى جاء الغداء عبارة عن كرات من الأرز والبازيلا مغلفة برقيق الخبز، وفيها قطع صغيرة من اللحم، وكان نصيب كل واحد كرة واحدة غير مشبِعة، ثم جيء بالكنافة بكمية ضئيلة، وامتنعنا نحن أعضاء الهيئة التدريسية عن الجلوس إلى الطعام، ومن المؤكد أن الضيوف شعروا أن مضيفيهم لم يكونوا كرماء بمقدار ما تلقوا من إكرام عندما زاروا القطاع. إن الواقعة كانت مربحة لذلك الشخص الذي كان موصومًا بعدم الأمانة، وكانت مخزية لنا بدرجة لن ينساها أي منا، أعضاء الهيئة التدريسية، مهما امتد به العمر.

الطريق إلى الانتفاضة الأولى

في الفـترة التـي سـبقت الانتفاضـة الأولى كانـت كل الممارسـات الاحتلاليـة تعبـئ الشعب لهذا الانفجار الكبير وأعني به الانتفاضة، فبعد حرب 1973 توسع الاحتلال في تجنيد العملاء وظل يتوسع سنة بعد سنة حتى إذا حل عقد الثمانينات فإذا معضلة وعبء ثقيل على كاهل الشعب المحتل المثقل بكل أنواع الأعباء فالحكم العسكري لا يكاد يسهل أمرًا من أمور الناس إلا بوساطة عميل، وصار العملاء يشتطون في طلب بدل الخدمة. وأضرب على ذلك مثلًا من قريتنا ومن أسرتنا، فقد جاء من الكويت شاب من قريتنا لزيارة أهله، وعندما أراد المغادرة وجد أنه ممنوع من السفر لسبب لا يعلمه فمكث في القرية عدة أيام وهو يأمل أن يسافر من غير توسيط عميل، لكنه لم ينجح، وفي هذه الأثناء اضطر أخي فاروق أن يأتي من الكويت لتجديد تصريحه إذ كان لا يجوز أن يغيب المواطن أكثر من سبع سنوات، وعليه أن يحضر في نهاية السنة السابعة ليحصل على تصريح سفر جديد، وإنما قصد الحكم العسكري ألا يشعر المواطن بالأمان التام وهو في الخارج فيمارس النشاطات ضد إسرائيل فجعله مضطرًا إلى العودة كل سبع سنوات ليحاسَب على أي نشاط ربما يكون مارسه، وكان فاروق متهمًا ـ على ما يبدو ـ بممارسة نشاط سياسي في الخارج فوجد نفسه ممنوعًا من السفر ومطلوبًا للتحقيق، وحاول كما حاول صاحبه (كمال) أن يغادر من غير توسيط عميل، لكنه فشل كما فشل صاحبه وأيقن كلا الشابين أنهما بحاجة إلى عميل يتوسط لهما، وكان العملاء في ذلك الوقت يتحركون بأمان تام؛ لأن الشعب في الفترة ما بين 1983 و1987 كان قد تعب من المظاهرات والمواجهات وهدأ هدوءًا كبيرًا، وكانت المظاهرات والاضطرابات بشكل عام من أساليب المقاومة في الضفة الغربية بعد أن رحلت التنظيمات الفلسطينية من لبنان إلى بلاد الشتات البعيد: السودان وتونس واليمن.

كان أحد العملاء واسمه سميح يملك كشكًا للشطائر، ويستقبل فيه زبائنه، ويتفق معهم على الأجر، أما العملاء الآخرون وكانوا كثيرين فتجدهم يتجولون أمام كتبة التصاريح بحثًا عن الزبون. فاتفق كمال مع أحدهم أن يخرجه من الضفة بمائتي دينار واتفق فاروق مع عميل آخر على مائة دينار، لكن ذلك العميل عندما علم أن

زميله تقاضى مائتي دينار أصر على أن يتقاضى المبلغ نفسه، وبالفعل لم يكن ثمة خيار آخر فتقاضى المبلغ وسهّل للزبون عملية الخروج مثلما فعل زميله بزبونه. هذا كان مثلًا لحالة أصبحت سائدة ومفروضة على الجميع وهكذا كان العملاء في فترة ما قبل الانتفاضة يمصون دماء الناس. وكانوا في غاية الوقاحة حتى أن أحدهم جاءته امرأة وزوجها لحاجة، فأعجبته المرأة فأجبر زوجها المسكين على أن يطلقها ليتزوجها هو.

في هذه الأثناء كان الشعور أن التنظيمات الفلسطينية لم تعد تخيف بعد أن تفرقت في بلاد الشتات، فتشجع العملاء على أن يظهروا علنًا وتشجع النظام الأردني على أن يعقد اتفاقية غير معلنة للتقاسم الوظيفي بينه وبين الاحتلال بحيث يشرف الأردن من خلال أعوانه في الضفة على الشؤون المدنية وتشرف إسرائيل على الشؤون الأمنية فأصبح التعيين والترقيات خاصة في الوظائف الحساسة مشروطًا بأن يكون الشخص مسالمًا ومواليًا للأردن، كما أصبح الوصول إلى الصدارة في الجمعيات ومنظمات العمل المدني لا يحظى به إلا الموالون للأردن مع العلم أن الولاء للأردن يعني بالضرورة مهادنة الاحتلال. وكانت الأردن ولا تزال هي الممر الوحيد للفلسطينيين الذين يريدون مغادرة الضفة الغربية لأي سبب من الأسباب، ومن شكت في ولائه فلا أمل له في أن يطأ أرضها أو يمر منها إلى أي مكان.

في هذه الفترة دبرت إسرائيل تهمًا لعدد من رؤساء البلديات المنتخبين وعلى رأسهم بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ومنهم رئيس بلدية جنين ورئيس بلدية رام الله بعد أن تعرض بعضهم لأعمال إرهابية من قبل تنظيمات يهودية فعزلتهم كي يتولى رئاسة البلديات آخرون من المهادنين للاحتلال، ولم يكن ذلك ممكنًا بشكل مباشر، فعينت ضباطًا في الحكم العسكري بشكل مؤقت ليديروا شؤون البلديات، ففي نابلس عينت الدرزي جبر هنو وكانت منذ البداية تعمل وفق خطة مدروسة وبسياسة النفس الطويل، فمن المعلوم أن عزل رؤساء البلديات المنتخبين والذين كانوا واجهات الوطنية في الضفة سيلاقي شجبًا واستنكارًا من الجميع، ولن يجد الحكم العسكري في البداية من المواطنين مهما كان اعتدالهم من يستجيب لرغبته ويحل محل الرئيس المنتخب المعزول لوطنيته؛ لأن ذلك سيعده المواطنون عمالة سافرة، فهو بالتالي مغامرة

غير مأمونة العواقب، والحل أن يستلم البلديات ضباط من الحكم العسكري فيعيثوا فيها فسادًا وتتعطل مصالح المواطنين المتعلقة بعمل البلدية، فيبدأ التذمر يتصاعد بين المواطنين وكلما تصاعد التذمر صعّد الضابط الذي يقود البلدية من إجراءاته التضييقية؛ لأن التذمر هو ما يسعى إليه الحكم العسكري؛ إذ أنه مع التذمر يبدأ الحديث عن حل والحل المطلوب عند ذوي الاتجاه الوطني هو إعادة رؤساء البلديات المعزولين، أما اتجاه الواقعيين أو المهادنين للاحتلال أو البسطاء من المواطنين الذين لا يعرفون ما وراء ظواهر الأمور، فهو أن يستلم البلدية شخصية من أبناء البلد يخلِّصها من حكم الضابط العسكري، وكان هذا الاتجاه هو المطلوب إسرائيليًا وأردنيًا، وبدأت الحملة في نابلس وكان ظافر المصري هو الشخصية التي يطالب بها «المعتدلون» وكان الحكم العسكري يشجع من طرف خفي هذا المطلب وبدأ كثيرون من أصحاب التأثير في البلد يضغطون على ظافر المصري ليوافق على استلام رئاسة البلدية مع العلم أنه كان نائب الرئيس واستقال لخلافات بينه وبين الرئيس، وأخيرًا وافق ظافر المصري واستلم رئاسة البلدية عام 1985 بترحيب من جماعات (الاعتدال) الذين هم رجال الأردن وموضع رضا الاحتلال، فكانت خطوته هذه إنجاحًا لمخططات الاحتلال القاضية باستبعاد القيادات الوطنية المنتخبة، لتحل محلها قيادات مهادنة ومنساقة للأهداف الصهيونية كما أنه خطوة متقدمة في سبيل توثيق الوجود الأردني المتفاهم مع الاحتلال على حساب نفوذ منظمة التحرير والتنظيمات المنضوية تحت لوائها.

في الثاني من آذار 1986، بينما كنا في المدرسة قبيل الظهر طار في الآفاق نبأ مقتل ظافر المصري فأغلقت المدارس على عجل وأخذ الناس يموج بعضهم ببعض، وقلَّ من بينهم من كان يعرف في ذلك الوقت أبعاد الخطوة التي كان قد خطاها المرحوم عندما استلم رئاسة البلدية تنفيذًا لرغبة أهل البلد في الظاهر ولكن بالنظرة الأعمق وبسبب عدم تعمقه في البحث عن أبعاد وتبعات ما يفعل، لم يدرك أنه ينفذ سياسة إسرائيلية مرسومة بدقة، كان الناس يعرفون عن ظافر أنه رجل كريم لا يرد سائلًا ويعطي العطية الجزلة ويساعد أسرًا كثيرة مستورة حتى أطلقوا عليه لقب (أبو الفقراء).

أعود بالذاكرة إلى عام 1977 حين كان بسام الشكعة رئيسًا للبلدية وظافر

المصري نائبًا للرئيس، وكانا متناقضين سياسيًا، كان بسام ينتهج طريق المقاومة ومصادمة الاحتلال، أما ظافر فكان مسالمًا. ومثلما كان يحظى باحترام الناس كان الحكم العسكري يرى فيه الشخصية «المعتدلة» التي يتمنى لو أنها تكون قدوة لسائر الشعب الفلسطيني.

في تلك السنة وبدعوة من مدير التربية والتعليم الأستاذ أكرم فضة جاء كل من رئيس البلدية ونائبه ومدير التربية والتعليم ونائبه إلى مدرسة قدري طوقان وعقدوا اجتماعًا مع الهيئة التدريسية، نوقشت فيه مشكلة الفوضى التي كانت تعم نابلس، وأسوأ ما فيها تلاحق الإضرابات في المدارس حتى لم يعد الطلاب يقطعون من المناهج شيئًا يذكر.

كان الشعور المتنامي وقتها لدى المواطنين عمومًا والذين هم في مواقع قيادية في المجتمع على وجه الخصوص أن الإضراب عن الدراسة بشكل متلاحق إنما يكشف عن وطنية منافقة وكفاح ينتهج السبيل الأسهل والأقل تكاليفَ والأقل تأثيرًا على الاحتلال، والأشد ضررًا على المواطنين الصامدين؛ لأن في تواصل الإضراب عن التعليم تدمير التعليم وضياع مستقبل الأجيال دون أن تزحزح الاحتلال قيد شعرة.

ويومها اختلفت الآراء بين منهج المهادنة وفق ما طرحه نائب مدير التربية والتعليم، الذي طرح فكرة تأجيل المقاومة إلى أن ينضج الشعب ويكون لديه قدرة على المقاومة. وضرب مثلًا لم ينل إعجاب الحاضرين إذ وجه حديثه إلى أبي هشام، ظافر المصري وكان ظافر أبًا لولد وابنتين، فقال: هل من الممكن أن تسلم الثروة لهشام _حفظه الله_ قبل أن تعلمه وتهذبه وتتأكد أنه أصبح قادرًا على استلام الثروة؟

فرد عليه بسام الشكعة بأن الكفاح ضد العدو المستعمر مسألة عاجلة لا تحتمل التأجيل وأن الكفاح والنضال هو نفسه مدرسة للشعب المكافح يعلمه كيف يعيش وكيف يتطور، وكان بسام يمثل وجهة النظر الثورية.

أما ظافر فلم يطرح أية أفكار؛ لأنه لم تكن لديه القدرة على التعبير القوي المؤثر المدعوم بحجة ساطعة.

وجاءنا مرة بعد ذلك بسنوات إلى المدرسة الثانوية الإسلامية لحضور احتفال في إحدى المناسبات ويومها أرادت عناصر من أوساط الطلبة أن تشوش على الاحتفال فمرت دورية لحرس الحدود الإسرائيلي فرشقوها بالحجارة، وحدثت بلبلة، فخرجنا جميعًا إلى الشارع لمحاولة ضبط الأمور، وكان قائد الدورية ضابط درزي يدعى (أبو طلال) فنادى أبا هشام وهو جالس على الكرسي الأول في السيارة الأولى من سيارات الدورية الثلاث: سيدي أبو هشام، (بلهجة المحتل البغيض) فجاء إليه وتحدثا قليلًا وسارت الدورية، وكان شعور الحاضرين الاشمئزاز من عنجهية الاحتلال ورجاله ممثلًا في ذلك المدعو «أبو طلال» في لهجته المتعالية وهيئته البغيضة، ويقينًا لو حصل الموقف مع بسام الشكعة لما فكر الضابط أبو طلال باستدعائه بهذا الشكل ولو فعلها لأصر بسام عليه أن يكون ضابط الاحتلال هو من يأتي لا من يؤتى إليه.

كان ظافر شخصية خجولة ولم يكن تلك الشخصية التي تسمى في علم النفس (الشخصية الكرزماتية) أي: القيادية المؤثرة، ولكنه طيب، وأعتقد أن سطحية تفكيره هي التي قتلته، فإنه لم ينظر إلى الموضوع نظرة تحليلية عميقة، إذًا لأدرك أنه ينفذ هدفًا إسرائيليًا مرسومًا بدقة منذ قرار فصل رؤساء البلديات الوطنيين، ولو أدرك أنه يسير في دور مرسوم له لما أقدم على استلام رئاسة البلدية التي لم يكن يتقاضى منها راتبًا.

لا يزال اغتيال ظافر المصري يشكل حدثًا بارزًا وهامًا في تاريخ نابلس وتاريخ الثورة الفلسطينية، وهو مليء بالدروس وبالمفارقات، فالذين قتلوه شاهدوا بأم أعينهم بعد ثماني سنوات كيف انقلبت مفاهيم الثورة الفلسطينية انقلابًا حوَّل المقاومة إلى تنسيق أمني مع العدو وأصبح الاعتبار الذي على أساسه قُتل ظافر المصري هو المنهج السائد في العلاقة بين السلطة الفلسطينية وسلطة الاحتلال. لقد قُتل ظافر المصري؛ لأنه سبق مرحلته ولم يتعمق في فهم مغزى الخطوة التي خطاها مدفوعًا بحبه لمدينته ومعه ضوء أخضر من كل من حركة فتح والحكومة الأردنية إلا أن الداهية جاءته من حيث لا يحتسب، من الجبهة الشعبية.

في تلك الفترة، فترة عقد الثمانينات من القرن الماضي، وقع الهجوم العراقي

على إيران المدعوم والممول من الغرب ومن دول الخليج والسعودية. وكان على كل تنظيم أو حزب أو جماعة على الساحة الفلسطينية مثلما هو المطلوب من كل دولة في المنطقة أن يبين موقفه بشكل لا غموض فيه، ومن أراد الرضا والدعم فعليه أن يقف مع العراق، أو على الأصح؛ أن يقف ضد إيران. وكل من لا يقف ضد إيران فهو معها وعليه ما عليها من مقاطعة وحملة تشويه وحصار، وما أسرع ما فرزت منظمة التحرير الفلسطينية بجميع فصائلها، والأردن والمغرب ومصر وسائر دول الخليج. وكذلك كل من الإخوان المسلمين الذين نشطوا في التحذير من خطر التشيع، وحزب التحرير الذي أنكر إسلامية إيران؛ لأنها سمت نفسها جمهورية، لا دار خلافة، وكان الجميع يتبارون في إظهار أقصى درجات العداء لإيران، فنظام صدام التكريتي يتباهى بقتل (العنصريين الفرس) وكذلك كانت منظمة التحرير وسائر الأنظمة العربية تظهر العداء لإيران لأسباب قومية، والغرب يهاجم (دولة الظلام الدينية)، وذوو الاتجاه الإسلامي السني يهاجمون (الرافضة) ويجرمون صغيرهم وكبيرهم وعالمهم وجاهلهم وحليمهم وسفيههم بجريمة مسبة أبي بكر وعمر وأم المؤمنين عائشة _رضي الله عنهم جميعًا_، ولم يقف مع إيران من الدول إلا نظام الحكم السوري برئاسة حافظ الأسد، ثم ابنه من بعده، بشار الأسد.

في هذه الأثناء كان ظهور حركة الجهاد الإسلامي التي أيدت الجمهورية الإسلامية الناشئة حين أيدها الجميع، ولم تنقلب حين انقلب الجميع. ولم أتصل بها إلا في مطلع التسعينات، أي بعد أن رجعنا لنسكن نابلس وصار لي اتصال بجامعة النجاح، فقد نقلت لي ابنتي عند دخولها الجامعة أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، التي ظهرت في غزة، وامتدت إلى الضفة الغربية لها عناصر في جامعة النجاح، وأنها تتخذ موقف المتفهم والمؤيد للثورة الإسلامية والمعارض للحرب الغاشمة التي شنّها النظام البعثي العفلقي التكريتي عليها، وأن الشباب وصلهم كتابي «الميزان بين السنة والشيعة» الذي كان قد صدر من المطبعة حديثًا، ويريدون التعرف عليّ، فرحبت بهم كل الترحيب ومن أول زيارة قاموا بها أصبحت أخاهم الكبير ومستشارهم في الأمور التي تهمهم.

عودة إلى ظروف الانتفاضة الأولى

لقد تردى العالم العربي في وهدة سكون الأموات، وكان الموات السياسي والاجتماعي والاقتصادي على الساحة الفلسطينية أبرز ما يميز تلك الفترة، أعني فترة ما قبل الانتفاضة الأولى، ولم يكن يسرح ويمرح على الساحة في الضفة وقطاع غزة إلا جيش العملاء الذين يبتزون الناس، وجماعات التقاسم الوظيفي الأردني الإسرائيلي الذين احتلوا الدوائر الحكومية وكثيرًا من الجمعيات، ودوريات العدو تجوب الشوارع وتقتحم المواقع وتعتقل، بالإضافة إلى تقليعة جديدة اهتدى إليها الاحتلال في ذلك الوقت وهي إسقاط الشباب على أيدي إسرائيليات، وإسقاط الفتيات على أيدي عملاء لتجنيدهم وتجنيدهن، وقد تكشفت شبكات من عملاء وعميلات تقوم بهذه المهمة. إضافة إلى الوضع الاقتصادي السيئ؛ إذ كان المواطن إذا أراد إنجاز أية معاملة في الإدارة المدنية الإسرائيلية فعليه أن يحصل على براءة ذمة من البلدية وغيرها من الدوائر الرسمية، بأنه مسدد كل ما عليه من مستحقات. وقليل من الناس من كان نظيفًا من الديون، فيلجأ المضطرون إلى العملاء، وكان العميل الوسيط يستطيع أن ينجز للمواطن معاملته من غير براءة الذمة المطلوبة.

كنت ذات يوم أمام شباك الإدارة المدنية لإنجاز معاملة، فجاء عميل ومعه معاملة لزبون وقد أرفقت بها أوراق براءات الذمة المتعددة، ولكنها كانت غير موقعة من الجهات المعنية، فنزع تلك الأوراق ووضع على الشباك أصل المعاملة وحصل على التوقيع المطلوب، أنجز تلك المعاملة لقاء أجر، وهكذا كانت تسير الأمور. يضاف إلى ذلك أن الإدارة المدنية أنشأت روابط القرى وكان المطلوب منها أن يكون للقرى قيادة سياسية موحدة مقبولة من الإدارة المدنية الإسرائيلية وأداة طيعة في يدها لتنفذ على ظهورهم مخططات إقامة حكم ذاتي للفلسطينيين. وقد عارضت الأردن هذه الخطوة الإسرائيلية واعتبرتها خروجًا عن الاتفاق وضربًا للمخطط الأردني الهادف إلى إحكام السيطرة المدنية على الضفة الغربية، واعتبرت الموقعين على إنشاء الروابط خارجين عن إرادة الأردن ومنبوذين، أما الجماهير الفلسطينية عمومًا وعناصر المنظمات على وجه الخصوص، فكانوا يختزنون الغضب في صدورهم ورأت منظمة التحرير أن

الأردن يسحب البساط من تحتها، بعد أن انتزعت اعترافًا عربيًا شاملًا بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، حتى إنها (حكومة الأردن) أقرت خطة تنمية اقتصادية واجتماعية للضفة الغربية شملت دفع مخصصات مساعدة للموظفين وكانت مخصصات ضئيلة لا يتجاوز أعلاها خمسين دينارًا إلا أنها كانت ذات مغزى. ورصدت مبالغ لتحسين البنية التحتية للفلسطينيين، وكان مغزى ذلك معروفًا وباعثًا لأشد الغضب لدى الفصائل المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية.

انفجار الانتفاضة الأولى

لا يكون الانفجار إلا نتيجة ضغط وكل ضغط يؤدي إلى انفجار مساوٍ له في القوة. والانتفاضة الشعبية التي كانت عبارة عن انفجار هائل في وجه الاحتلال الإسرائيلي وفي وجه اتفاق التقاسم الوظيفي بين الأردن والإدارة المدنية الإسرائيلية لم تكن إلا وليدة عوامل بالغة القوة وكثيرة ومجتمعة ولدت في الشعب الفلسطيني دافع الغضب الشديد والثورة الجارفة. وغير منطقي ادعاء من ادعى أن الانتفاضة تفجرت بقرار منه.

لقد عايشنا تلك الأحداث لحظة بلحظة، والانتفاضة لم تكن بقرار من أحد، ولكن بفعل أحداث متلاحقة سبقتها ضغوط اقتصادية وسياسية وفكرية هائلة وقعت على رأس كل فلسطيني وقوع الصاعقة.

إن الذي بدأ تحريك الشارع وفرض الإضرابات على المدارس والجامعات هم عناصر منظمة التحرير في حرب على النفوذ بينهم وبين الأردن، وكانت بداية ذلك قبيل العام الدراسي 1987/ 1988، عام الانتفاضة. كانت المدرسة الثانوية الإسلامية في ذلك الوقت ضد الإضرابات؛ لأنها قامت من أول يوم لمواصلة الدراسة واعتبار الإضراب عن التعليم ضررًا ومؤامرة على الشعب الفلسطيني ومستقبل أبنائه. وكان الإخوان المسلمون الذين لهم اليد الطولى في المدرسة لا يزالون حتى ذلك الوقت يجادلون بأنه لم يئن الأوان لشن حرب على المحتل الإسرائيلي؛ لأننا لا نزال في مرحلة الاستضعاف المكي وأن ما تقوم به العناصر اليسارية وعناصر منظمة التحرير من

إضرابات وحرق إطارات وإغلاق شوارع بالمتاريس وما أشبه ذلك، إنما هو عبث لا طائل تحته وهو إلهاء للنفس وإيهام للآخرين بأن ثمة مقاومة تنشط في الأرض المحتلة. واشتد هذا الموقف ونشطوا في المحاجة به عندما بدأت في مطلع الثمانينات حركة إسلامية تباشر الجهاد الفعلي ضد قوات الاحتلال في غزة والتي استقرت على اسم «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين».

وعلى الرغم من اشتداد وتيرة الإضرابات في المدارس، منذ بداية ذلك العام الدراسي واصلت المدرسة سياستها في تجنب تلك الأمور. وكان زميلي المرحوم الشيخ جمال سليم يجادلني في أن المرحلة التي نمر بها هي مرحلة الاستضعاف المكي التي توجب على الفلسطينيين الانصراف إلى الإعداد كما فعل رسول الله وأصحابه في تلك الفترة إلى أن يحصلوا على القوة التي يستطيعون بها مواجهة الأعداء.

وكنت أجادله بأن استضعاف المسلمين في مكة كان ناتجًا عن قلة عددهم وكثرة أعدائهم، ونحن الآن أكثر من أعدائنا عددًا، ولكننا نجنح إلى الراحة والسلامة.

أخذت العناصر التي تفرض الإضرابات على المدارس وعلى الشوارع تهاجم المدرسة الثانوية الإسلامية، وتريدها أن تنضم إلى ركب المضربين وبلغ ذلك ذروته منذ مطلع أيلول 1987.

تقع المدرسة الثانوية الإسلامية بملاصقة جبل جرزيم (معروف شعبيًا بالجبل الجنوبي) من الناحية الشرقية حتى أن جزءًا من أرضيتها محفور في الجبل، أما من الناحية الشمالية فيحدها الشارع الذي يصعد إلى مسافة عالية من الجبل، ومن الناحيتين الغربية والشرقية تحيط بها مساكن، وهي ذات أسوار عالية ومحكمة إلا أنها من جهة الشمال، على الرغم من أنها مسورة، يمكن لصاعد الجبل أن يمطرها بالحجارة، وهكذا كان يأتي شباب فيرتقون الجبل ويأخذون يرشقون المدرسة بالحجارة وبأكبر حجم يستطيعون إيصاله إلى ساحة المدرسة، وبمجرد إن يبدأ إلقاء الحجارة يبتعد الجميع عن الساحة ويقفون تحت الشرفات المسقوفة، وهي واق جيد لا يمكن للحجارة أن تصل إليه، إلا أننا كنا نشعر بأن المدرسة أصبحت محاصرة بالأحداث التي تعصف بالشارع ومن الصعب أن تظل في منأى عنها.

في السادس من تشرين أول 1987، وقعت معركة الشجاعية بين خلية من الجهاد الإسلامي وقوات الاحتلال أدت إلى استشهاد أفراد الخلية ومقتل ضابط صهيوني كبير وجرح عدد من الجنود الصهاينة وألهبت مشاعر الناس ودفعت بهم إلى الشوارع. ويَعتبر الجهاد الإسلامي معركة الشجاعية شرارة الانتفاضة. وبعد ذلك بحوالي شهرين قام سائق شاحنة إسرائيلي بدهس عدد من العمال الغزيين الواقفين على رصيف أحد الشوارع، فصدر بيان عن القوى الوطنية يدعو إلى الإضراب الشامل في القطاع، وكان ذلك مؤذنًا ببدء الانتفاضة الشعبية الشاملة العارمة التي سرعان ما انتقلت إلى الضفة الغربية وأخذت شكلي العصيان المدني والمقاومة في آن واحد.

في ذلك الشهر كانت امتحانات نصف السنة لما دون مرحلة التوجيهي وامتحانات الدورة الأولى للتوجيهي، وعُقدت الامتحانات في المدارس وانعقد امتحان التوجيهي وتم تصحيح الأوراق وإخراج النتائج فمر الشهر بسلام، ولكن التفكير كله كان منصبًا على ما بعد ذلك، وهل ستبقى مدرستنا عرضة لغارات قوات الاحتلال، وإلى متى؟ إلا أن قوات الحكم العسكري في الضفة قررت تمديد عطلة نصف السنة، وفي تلك الأثناء أعلن الإخوان المسلمون إنشاء ذراع عسكري ضارب تابع لهم وسموه حركة المقاومة الإسلامية حماس، فأصبحت الانتفاضة شاملة لكافة القوى الوطنية والإسلامية على الساحة الفلسطينية، ثم أعيد فتح المدارس في شهر آذار، ولم يكن أحد يتصور أن الانتفاضة ستستمر سبع سنوات وأنها لن تنتهي إلا باتفاق سياسي. وفي السنوات التالية حتى انتهاء الانتفاضة سنة 1995 كان العام الدراسي يبدأ البداية المعتادة في الأول من أيلول من كل سنة وتنتظم الدراسة بضعة أيام، ثم تبدأ الإضرابات في المواعيد الثابتة السادس والثاني عشر والرابع عشر من كل شهر وفي المواعيد السنوية كيوم الأرض ويوم النكبة وغيرها كثير، ولو اقتصر الأمر على مثل هذه المناسبات لهانت المشكلة ولسار التعليم مساره، ولكن صار الطلاب ومن يحركهم يخترعون أسباب الإضراب اختراعًا، فأصبح الأساس الإضراب والاستثناء انتظام الدراسة وكانت قلما تنتظم يومًا كاملًا، لقد كان الإضراب عن التعليم بدعوى الوطنية أهون أنواع الكفاح على العدو وأشدها فتكًا في المجتمع الفلسطيني، وصار الذين يوجهون الطلاب للإضراب بوهم

الإضرار بالعدو مثلهم كمثل شخص ضعيف له خصم قوي وبدلًا من مجابهة الخصم اختار الضعيف لطم خدي نفسه موهمًا نفسه أنه يقوم بالواجب.

وكانت الانتفاضة عبارة عن ثورة شعبية وعصيان مدني في الوقت نفسه، أجبرت الشرطة العرب على الاستقالة، ولكن رواتبهم صارت تدفع كاملة من منظمة التحرير في الأردن إلا أن العمال كانوا يجدون صعوبة بالغة في الوصول إلى أماكن أعمالهم داخل الأرض المحتلة إذ لجأ الناشطون إلى إغلاق الطرق أمام الباصات التي تنقل العمال أينما وجدوا إمكانية لذلك، وكانت الظاهرة الأبرز في الانتفاضة إخفاء الوجوه باللثام كي يَخفوا على قوات الاحتلال وأعوانها من الجواسيس الذين كانوا قبل اندلاع الانتفاضة يشكلون جيشًا عرمرمًا ويعتاشون على قوت المواطنين المجهدين أصلًا بالغلاء وانخفاض مستوى الأجور.

لقد تحمس الناس للملثمين في فلسطين وبين أبناء الشعب الفلسطيني في الشتات ولقد ارتفعت قيمة الشعب الفلسطيني في العالم العربي وفي العالم كله وتعاطف الجميع معه باعتباره الشعب البطل الأعزل الذي يواجه الآلية العسكرية الجبارة بما لديه من وسائل بدائية، وكانت أعظم أسلحته الحجارة وإشعال الإطارات في الشوارع والامتناع عن دفع الضرائب والهروب من وجه رجال الضرائب الذين كانوا يداهمون المحلات ويستحوذون على ما يجدون فيها من نقود، فتعلم التجار أن يحذر بعضهم بعضًا لدى اقتراب رجال الضريبة، وبطرفة عين تكون المحلات قد أغلقت وأصحابها غادروا موقعها فلا يجد رجال الضريبة غريمًا، فيعاقبون التجار بفتح المحلات بالقوة عن طريق كسر الأقفال وكسر الأبواب، فأخذ التجار يضعون لمحلاتهم أبوابًا حديدية سميكة ولها مفاتح بدل الأقفال، وهكذا كانت حياة المواطنين في ظل الانتفاضة، كرًا وفرًا وفتح محلات قليلًا وإغلاقًا كثيرًا، وكانوا مضطرين إلى تمويل الانتفاضة بالتبرعات النقدية والعينية إلا أن ظاهرة اللصوصية والسطو على المحلات اختفت تمامًا وكان المعجِب والمدهش حقًا أن ترى محلات الذهب ومحلات الصرافة وباعة البضائع الفاخرة يعرضون ما لديهم على واجهات المحلات لا يخشون أن يهاجمها أحد والحقيقة أن هذه الإيجابية ظلت قائمة في ظل الانتفاضة؛ لأن من كان يقع بين أيدي الناشطين لجرم ارتكبه لا يجد من يرحمه.

إلا أن للانتفاضة سلبيات كانت في البداية أقل بكثير من الإيجابيات، ثم صارت مع الأيام تقوى حتى أصبحت في النهاية تفوق الإيجابيات بكثير وأصبحت الانتفاضة بالتالي عبئًا على الشعب الفلسطيني يتمنى الخلاص منها.

فالإضرابات المتكررة قضت على تواصل العملية التعليمية وتسلسلها بحيث يستوعب الطلاب دروسهم بالتفصيل وبالتدريج، حتى أصبحنا نحن المدرسين نلمس جهل الطلاب وسطحيتهم بأسى، فأصبح عسيرًا عليهم فهم الدروس، وكثيرًا ما وجّه إليَّ الطلاب السؤال التالي: أينا أفضل علمًا، نحن أم الأجيال السابقة؟ فأجيبهم: إنكم لا تقارَنون بهم، لقد كان المعلم فيما مضى يدخل الحصة وفي تقديره أن يقطع من المادة مقدارًا معقولًا إلا أنه يواجَه بأسئلة من الطلاب في صلب المادة تمتاز بالعمق وتحتاج إلى شرح مطول، فيكتشف المعلم أنه لم يعط من المقدار الذي كان مقررًا إلا القليل إلا أنَّ الوقت الذي يكون ذهب في المناقشة لم يذهب هباءً، أما أنتم _جيل الانتفاضة_ فإنكم لا تناقِشون؛ لأنه ليس لديكم شيء تناقشونه.

لم يكن ضَعف الطلاب قد حلّ دفعة واحدة، لكنه بدأ مع بداية الانتفاضة وصار يتفاقم سنة بعد سنة إلى أن بلغ مداه في السنوات الأخيرة من عمر الانتفاضة.

الغش في امتحانات التوجيهي

إن المظاهر السلبية للانتفاضة كانت متعددة، ولكن أشدها وأقبحها تجلى في قاعات امتحانات الثانوية العامة (التوجيهي).

في نهاية السنة الأولى من الانتفاضة؛ في حزيران 1988 لم تنعقد امتحانات الدورة الثانية للثانوية العامة وكانت امتحانات الدورة الأولى في كانون أول 1988 قد انعقدت وسارت الأمور بشكل جيد، لكن القائمين على أمور التعليم وهم مجلس التعليم العالي الذي كان يضم المسئولين في قسم الامتحانات ومديري التربية والتعليم رأى أن الظروف لا تسمح بعقد الدورة الثانية من الامتحان لغياب السلطة المحلية التي لا غنى عنها لضبط الأمور، فاعتُمدت نتائج الدورة الأولى.

وفي العام الدراسي الثاني من عمر الانتفاضة 1988/ 1989 كانت الانتفاضة قد غرزت رجليها وطبعت كل شيء بطابعها الإيجابي منه والسلبي، أما الإيجابيات فتجلت في التمرد والعصيان المدني ضد الاحتلال وممارسة أنواع من المقاومة مما كان متيسرًا كإلقاء الحجارة على سيارات الجيش والمستوطنين ومطاردة العملاء وقتل من أمكن الإمساك به منهم ولم ينج إلا من استطاع الهرب إلى داخل الأرض المحتلة عام 1948 والاحتماء بالعدو، الذي لم يرحب بهم ولم يسكنهم في التجمعات السكنية اليهودية باعتبارهم قاذورات اجتماعية؛ إذ أن معظمهم كانوا يعملون قبل الالتحاق بسلك العمالة قوادين ومروجي مخدرات.

لكن السلبيات تجلت بالدرجة الأولى في موضوع التعليم، على شكل إضرابات متواصلة غير مضبوطة ولا تخضع لقيادة واحدة بل أصبحت كل مجموعة قيادة وأصبح الطلاب الفاشلون في الدراسة أكبر القادة ويفرضون على زملائهم تواصل الإضراب ليفرضوا خيبتهم على الجميع.

لقد تجلت السلبية الكبرى في نهاية كل سنة دراسية، ألغيت امتحانات الدورة الأولى (الفصل الأول) للتوجيهي وصار الطلاب يتقدمون للامتحان في نهاية السنة في المادة كلها ونظام الامتحانات يقضي بألا يدخل قاعات الامتحان من ليس له عمل رسمي. وكان هذا القانون مطبقًا بشكل كامل قبل الانتفاضة ولو حصل أن أحد الناس أراد دخول قاعة الامتحان عنوة فإن مدير القاعة يستدعي الشرطة، فتأتي على جناح السرعة وتلقي عليه القبض _كائنًا من كان_ ولكن في هذه الفترة التي أتحدث عنها كانت شرطة العرب قد استقالت ولم تكن مراكز الشرطة في المدن الفلسطينية تضم إلا أفراد وضباط الشرطة الإسرائيليين، وهؤلاء لا يمكن الاستعانة بهم؛ لأن من فعلها سيوصم بالعمالة والخيانة، ثم إن هؤلاء غير معنيين بالتدخل في مثل هذه الأمور التي لا تهدد أمن المحتل، بل إنها تصب في مصلحته.

صار الملثمون يقتحمون القاعات ولا يملك المراقبون وسيلة لصدهم ومعهم إجابات جاهزة فيتلون الإجابات على مسامع الطلاب، وفي السنوات التالية أصبح

بعض الطلاب يأخذ دفتره ويتوجه إلى بيته فيجيب عن الأسئلة براحته وبمنأى عن الفوضى والضجيج العالي.

حاول رجال التربية والتعليم أن يقنعوا الطلاب بالحسنى بأن يلتزموا الأمانة وأن يقنعوا الملثمين بالابتعاد عن الامتحانات، وحاول زعماء المجتمع أن يفعلوا الشيء نفسه، لكن لا فائدة.

تساءل أحد رجالات التربية والتعليم عن هؤلاء الملثمين: أليسوا يعملون على إقامة دولة فلسطينية؟ أي دولة سيقيمها هؤلاء؟ لم يكن أحد وقتها يتصور أن الذين كانوا يحلمون بالدولة سيقايضون هذه الانتفاضة بحكم ذاتي محدود، وأن الأمور في سلطة هذا الحكم ستكون صورة طبق الأصل لما سارت عليه الأمور في امتحانات التوجيهي مع فارق واحد هو أن دعاة الغش والسرقة والفوضى في امتحانات التوجيهي كانوا يضعون أقنعة، أما قادتهم الذين كانوا يوجهونهم فقد جاءوا إلى الضفة وغزة بموجب الصفقة وارتقوا سدة الحكم ومارسوا الفساد بوجوه سافرة وكالحة.

حاول الغيورون على مستقبل هذا الشعب أن يجدوا حلولًا لهذه المعضلة التي بدأت تفتك بحاضر الشعب الفلسطيني ومستقبله، وبالنسبة للمسئولين في قسم الامتحانات قرروا حسم نسبة من معدل كل طالب مما أدى إلى خفض المعدلات ورفع نسبة الرسوب، وكان هذا أقل ما ينبغي عمله إلا أنه لم يكن كافيًا ولا عادلًا، وتواصلت الفوضى في الامتحانات المدرسية وفي امتحان التوجيهي وتواصلت اللقاءات بين قادة المجتمع والغيورين عليه ومحاولة الخروج بحل ينقذ الوطن من (ثواره)، سنة بعد سنة، أخيرًا وبعد مرور خمس سنوات على الانتفاضة قررت الهيئات والمؤسسات المختلفة أن تعمل على ضبط الامتحانات بإرسال مندوبين عن الهيئات المختلفة إلى المدارس التي تجري فيها الامتحانات والمرابطة على الأبواب ومنع أي إنسان لا علاقة له بالامتحان من دخول القاعات.

كانت إدارة ضبط الامتحان شعبيًا تقع في مقر الهلال الأحمر في شارع 15، وكان المطلوب مني مع آخرين، المرابطة على أبواب مدرسة سمير سعد الدين وكان فيها

قاعة امتحان للذكور. ولدى توجهنا إلى المدرسة وانتظام عملية الامتحان قلنا لرئيس القاعة: عليكم ضبط الامتحان من الداخل وعلينا مساعدتكم إذا تعرضتم لتمرد، نحن على الباب واتصلْ بنا فقط وعلينا الباقي، ومن ناحيتنا سنمنع أي إنسان من دخول القاعات. وهنا سألني أحد المكلفين مثلي بحراسة القاعة: كيف لو اقتحمها مسلحون؟ قلت له: سنمنعهم، ولكل حادث حديث، وجاءنا شباب فمنعناهم من الدخول وطلبنا منهم مغادرة المكان فلم يجدوا بدًا من الانصياع وجاءنا شاب بجيب محشوة بالأوراق يريد الدخول فمنعناه، فقال: هل تسمحون لي أن أدور من خلف المدرسة؟ قلنا له: لا بأس، ثم ذهبنا لنرى ماذا صنع، فإذا خيط مدلى من شباك القاعة وأوراق مربوطة به، فخلعنا الخيط وأخذنا الأوراق، فإذا هي أوراق إجابات فصعدنا إلى القاعة التي تدلى منها الخيط وحذرناهم من أنه لو مسكنا الأوراق مع أي طالب فسوف نحرمه من الامتحان، فقد اتخذنا قرارًا وطنيًا بضبط الامتحان لمصلحة الشعب والوطن ومصلحة الطالب وولي أمره الذي صار يتكلف فوق ما يطيق ليتعلم ابنه في الجامعة، ثم يأتيه في آخر السنة راسبًا؛ لأنه لم يستطع مجاراة مناهج الجامعة التي أعدت للمتعلمين حقيقة لا كذبًا وغشًا.

كان الشباب الذين تعرضوا لسجن الاحتلال يرون أنفسهم أصحاب امتيازات يجب أن تُعرف لهم حتى في مجال الامتحانات، فهم يرون أنفسهم قد قدموا للوطن ما يجعلهم يستحقون أن يغضى عنهم إذا حاولوا الغش في الامتحان، والحقيقة أن هذه النظرة، اعتقاد الأحقية في الاستفادة العاجلة من النضال شيء مؤسف صاحب مسيرة النضال الفلسطيني، وعلى أساسها أقدم عرفات والمؤيدون له على توقيع اتفاقيات أوسلو التفريطية.

حدث في فترة تواجدنا في موقع الامتحان في مدرسة سمير سعد الدين أن شابًا ممن يؤدون الامتحان اتهم بالغش وحصل إشكال بينه وبين مدير القاعة مما استدعى أن نتدخل، فأخرجناه من القاعة وفتشت جيوبه فلم أجد فيها شيئًا، ولكنه استعظم الأمر؛ إذ كيف يفتّش مثله؟ فقال لي: تفتشني؟ قلت: نعم. فقال: لقد قضيت في السجن مدة كذا، وإنني على استعداد أن أجعلها مؤبدًا، وهو يلمح إلى استعداده ارتكاب جريمة

القتل بسبب أنني تجرأت على تفتيشه، فنهرته بشدة وأمرته أن يدخل قاعته ويلتزم الهدوء، وبعد أن بردت أخلاقه ذهبت إليه لأشعره أننا جئنا لمصلحته ومصلحة زملائه وكي ألقي في روعه أنه كان ولدًا عندما هددني، فحاول بعض المراقبين وبعض الزملاء الذين جاءوا لضبط الامتحان أن يثنوا عزمي عن الذهاب إليه مخافة أن تقع مصيبة فأفهمتهم أنني أريد أن أستل الغضب من نفسه؛ لأنه أحد أبنائنا، وبالفعل وقفت معه وكان قد غادر القاعة وراجعته مازحًا ومبتسمًا في شأن المؤبد وأشعرته أنني صديقه ولا أؤاخذه على ما قال، وبالفعل انبسطت أسارير وجهه وتغيرت مشاعره إلى الأحسن.

شعرت فيما بعد أنني قصّرت بحق مدرستي الثانوية الإسلامية وكان عليَّ أن أتواجد فيها ولو لفترة من الوقت لأكون مع أعضاء الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية الذين جاؤوا لحماية الامتحان في المدرسة، فقد كنت وقتها في اتحاد المعلمين وتقيدت بالموقع الذي حدده لي، وكان الذي يجرؤ على المشاركة في ضبط الامتحان قليلًا؛ إذ كان للملثمين وخاصة المسلحين منهم سطوة ورهبة تجعل الكثيرين يُعرضون عن التواجد في مكان يمكن أن يصطدموا فيه بهؤلاء الذين يعلقون على شماعة الوطنية ومقاومة الاحتلال كل عمل يقومون به ولو كان عملًا من نوع إشاعة الغش والفوضى في الامتحانات وخاصة امتحانات التوجيهية.

جاءنا مرة ونحن أمام المدرسة وفد من ضباط الحكم العسكري يتفقدون طبيعة الحركة حول قاعات التوجيهي، وكنت وزملائي المكلفين بحماية الامتحان نجلس عند البوابة الرئيسة المؤدية إلى القاعات الكائنة في الطابق الأعلى من مدرسة سمير سعد الدين، فوقفنا عندما وصلونا وسرّهم أن رأوا ساحات المدرسة خالية من الناس الذين يشيعون الفوضى، وقال أحدهم: هذا أحسن لنا ولكم. ونظر أحدهم إلى الشعار المثبت على صدري وعليه عبارة اتحاد المعلمين، فاستغرب وسألني: هل أنت متقاعد؟ فقلت له: كلا، لست متقاعدًا، فسكت.

لم تحقق تجربة قيام المؤسسات المدنية بحماية الامتحان إلا نجاحًا محدودًا، وذلك أن تحدي عناصر الفوضى الذين كانوا يلبسون شعار الوطنية ليس بالأمر الهين،

كانوا يطلبون من مجموعات من المعلمين أن تكتب الإجابات عن الأسئلة، ويقوموا هم بإسماعها للطلاب وعيون المراقبين شاخصة. وكنت أندد أمام الطلاب بظاهرة الغش التي كانت تستشري سنة بعد سنة، وسألني بعضهم مرة: لو كنتَ مراقبًا في الامتحانات، وكان لك فيها قريب، ألا تساعده، أو على الأقل تغض الطرف عنه عندما تراه يحاول الغش؟ فقلت له ولزملائه في الصف: لو كنت أراقب في قاعة فيها مالك، واحتاج إلى علامة واحدة يضمن بها النجاح لما مكنته من الحصول عليها، وكنت جادًا كل الجد فيما أقول.

وكان الملثمون _كما ذكرت آنفًا_ يسخِّرون المعلمين في عملية الغش إلا أنهم لم يفكِّروا مطلقًا في طلب المساعدة مني؛ لأنهم يعرفون موقفي من القضية.

الحل الحاسم

كان المشرفون على امتحانات التوجيهي يواجهون معضلة إجرائية ومعضلة أخلاقية، فالمراقبون لم يكونوا قادرين على ضبط الامتحان ولو بأدنى درجات الضبط، واذكر تقريرًا ساخرًا ذات مرة من زميل عن سير الامتحانات في قاعة مدرسة حوارة الثانوية، قال: في ساحة المدرسة عشرون بغلًا وأربعون حمارًا تتولى المراسلات.

وكان المسؤولون عن التعليم يعالجون الموقف بإجراء حسم كبير من مجموع علامات كل طالب، كما ذكرت في السطور السابقة، فتأتي النتيجة مخيبة لآمال الذين غشوا وظُلمًا بيِّنًا للذين لم يغشوا.

في صيف 1991، أي بعد مرور أربع سنوات على الانتفاضة، كانت سلافة من طلاب التوجيهي، وفي اليوم الذي أُعلن أنه سيكون يوم ظهور النتائج، وأن النتائج سيتم إعلانها في المدرسة الصلاحية الثانوية للبنات، ذهبت إلى تلك المدرسة واصطحبت الصغير حمزة الذي كان دون سن المدرسة، فقال له أحد الشباب الذين ينتظرون نتائجهم: وأنت، حبيبي، تنتظر نتيجتك في التوجيهي؟ لو تقدمت إلى الامتحان لنجحت. والذي ملا صدر هذا الشاب بالثقة أن الحسم من العلامات لم يكن متبعًا في

السنتين السابقتين. وطال انتظار المنتظرين، ولأن النتائج كانت ضربة للأمين والخائن ومفاجأة للجميع، لم يستطع أي مسئول في قسم الامتحانات أن يحمل بيده النتائج خوفًا من المشاكل فأعطوها لمعلمة أخفتها في حقيبة يدها، ثم سلمتها لمديرة المدرسة دون أن يشعر بها أحد، فأعلنت المدرسة النتائج فكان البكاء والعويل للطالبات وكان الغضب الشديد للطلاب الذين أخذوا يدورون في ساحة المدرسة، ثم لما لم يجدوا ما يشفي غليلهم أغلقوا بوابة المدرسة ومنعوا خروج الجماهير المتواجدة في الساحة، فخاطبهم عديدون من المتواجدين بأنهم يقومون بعمل عبثي، وأخيرًا وبعد أن هدأ غضبهم قليلًا، فتحوا باب المدرسة.

كانت المعضلة الأخلاقية أن طلابًا وطالبات عديدين، هنا وهناك وفي هذه المدرسة أو تلك، لم تسمح لهم أخلاقهم أو حسن تربيتهم بالغش أو أن حرصهم على مستقبلهم دعاهم إلى الجد والاجتهاد، فلم يغشوا، ولكنهم خسروا كما خسر غيرهم، فحاول المسؤولون في السنة التالية ضبط الامتحان بإرسال لجان ضبط تمثل كافة القوى والمؤسسات الوطنية. وهي التي تحدثت عنها في السطور السابقة، إلا أن كثيرًا من المدارس لم يكن لها نصيب من اللجان، فوقع خلل هو أن مدارس ضُبطت ـ إلى حد ما ـ فحُرم طلابها من الغش الواسع ومدارس أخرى لم تُضبط فغش أصحابها كما أرادوا، وبذا فالحسم من العلامات للجميع لن يكون عدلًا وعدم الحسم لن يكون عدلًا، فلا بد من حل يعطي الأمين علاماته كاملة ويحرم الغشاش من أن يجني ثمرة غشه.

التقيت في تلك الأثناء بمدير لجنة الامتحانات في الضفة الغربية المرحوم بشير خنفر، في مناسبة اجتماعية لعائلة السائح التي يرتبط كلانا بها بنسب، وكان بيني وبين المرحوم بشير معرفة وثيقة، فانتحينا جانبًا نتناجى في أمر الامتحانات والمعضلة التي تواجه الجميع بهذا الصدد، واتفقنا في تقويم الأوضاع أن القائمين على الامتحانات لا يستطيعون ضبطها، وأن الحسم من معدل كل طالب يشكل ظلمًا شديدًا للطلاب والطالبات الذين لم يغشوا وهؤلاء لهم وجود في مدارس عديدة في الضفة الغربية، وأن ترك الأمور على ما هي عليه يعتبر فشلًا ذريعًا للجميع وتدميرًا تامًا للمجتمع بأكمله، حاضره ومستقبله، فلا بد من حل.

قلت له: عندي الحل الحاسم.

فقال باهتمام بالغ: ما هو؟

قلت: التقرير السرّي، قال: وضح.

قلت: يجب أن يمنع الغش بوسيلة أكيدة وفعالة وقادرة على تجاوز الفوضى الحاضرة، بحيث يعاقَب الغشاش وينال الطالب الأمين والطالبة الأمينة حقهما كاملًا دون أن يحتاج المراقبون إلى الاصطدام بأحد. والطريقة ميسورة وفي غاية البساطة، فبعد أن ينصرف جميع الطلاب من القاعات، ويختلي رئيس القاعة بالمراقبين، يحددون الطلاب الذين غشوا. وأقترح أن توضع علامات على أماكن معينة داخل دفتر الإجابة وأن تميز العلامات بين درجات الغش بحيث تحسم نسبة من علامات من غش غشًا خفيفًا ويحسم أكثر ممن غش غشًا متوسطًا ويرسَّب من دلت العلامة المميزة له أنه غش غشًا كبيرًا، وآية ذلك أن من غش غشًا يسيرًا يختم له ختم واحد ومن غش غشًا متوسطًا يختم له ختمان ومن غش غشًا يستحق معه الترسيب يختم له ثلاثة أختام، ومن حافظ على الأمانة يبقى دفتره من غير أختام فينال علامته كاملة.

وأضفت: إن هذا الإجراء سهل وميسور ويحقق العدالة، وليس مطلوبًا من القائمين على أمر الامتحانات إلا أن يُفهموا الجميع بأن كل من يلجأ إلى الغش سيجري ترسيبه في الامتحان. وسوف يستهين الطلاب بالأمر في السنة الأولى، وسوف يغشون، وسيجري وفق الخطة ترسيب معظمهم، ولا بأس أن تتجاوز نسبة الرسوب في السنة الأولى 90٪، ستكون النتيجة صاعقة عليهم، قد يكون ثمة ردة فعل من بعضهم تجاه بعض مسئولي التربية والتعليم والأمر يحتاج إلى الشجاعة، ومن أجل حماية مديري القاعات والمراقبين، ينبغي ألا يعطى الطلاب فرصة معرفة أسمائهم وعناوينهم، وفي السنة الثانية من تطبيق الخطة سيتقلص عدد الذين يغشون بشكل كبير وسيرتفع عدد الناجحين، وفي السنة الثالثة لن يمارس الغش إلا من يشعر باليأس من النجاح وهكذا ستكون الرقابة الذاتية عند الطلاب أقوى من أية رقابة خارجية ولن تكلف المراقبين أن يصطدموا بالوقحين ممن يمارسون الغش، ولا حتى أن يوجهوا لأي منهم أية إشارة

تنبيه بل يكفي أن يرتبوا الطلاب على مراتبهم في الغش، ثم يقوموا بوضع العلامات المميزة في دفاترهم بعد ذلك، ومثل هذه الخطة ينبغي أن تتبع بشكل دائم.

استهوت الفكرة مدير الامتحانات العامة المرحوم بشير خنفر وبعد فترة اتصل بي الأستاذ وجيه أمين، مساعد مدير التربية والتعليم في نابلس، يطلب مني أن أتقدم بخطة مكتوبة حول الاقتراح، وقال: إن اقتراحًا مشابهًا ورد من الخليل، وإن الأمر موضع اهتمام لجنة الامتحانات العامة. فكتبت خطة مفصلة وأرسلتها إلى قسم الامتحانات في مديرية التربية والتعليم بنابلس، وتبنت لجنة الامتحانات العامة ذلك الاقتراح، ولكنها استبعدت بعض التفاصيل مثل وضع أختام على الدفاتر أو استقدام مراقبين من الألوية الأخرى، والاكتفاء باستقدام رؤساء القاعات من الألوية الأخرى، وكانت الإجراءات تقتضي في فترة السبعينات بأن يعمل رؤساء القاعات والمراقبون في غير ألويتهم، ثم لأسباب اقتصادية استُبدلت القوانين فأصبح مديرو القاعات والمراقبون من اللواء نفسه، وعندما تقدمت باقتراحي كان الوضع المادي في لجنة الامتحانات لا يزال سيئًا وكان مطلوبًا من الرسوم التي يدفعها الطلاب المتقدمون للامتحان أن تغطي كل مصاريف الامتحان فوجدت لجنة الامتحانات العامة أنه لأسباب مالية وأمنية، ليس بالإمكان استقدام معلمين من الألوية الأخرى، ولكن بالإمكان استقدام رؤساء القاعات مع العلم أن المراقبين يتبدلون بين غرف القاعة الواحدة كل يوم فليس ثمة خطر أن يتعرف المشاغبون عليهم فينتقموا منهم عندما يجدون أنفسهم قد رسبوا.

تقدم الطلاب للامتحان بعد أن تبنت لجنة الامتحانات خطة التقرير السرّي، وحصل الغش الواسع كما هو متوقع، وكانت الصاعقة يوم ظهور النتائج فالغالبية الساحقة من الطلاب جرى ترسيبهم، حتى إن مدارس عديدة في الضفة الغربية لم ينجح منها أحد، ومدارس كبرى نجح منها طالب أو طالبان، وكما كان متوقعًا أيضًا، حاول طلاب راسبون غاضبون أن يهاجموا مديرية التربية والتعليم إلا أن الحاكم العسكري أرسل دورية من حرس الحدود ترابط أمام المديرية، وهاجم طلاب غاضبون دار الأستاذ بشير خنفر وأشعلوا النار في مدخلها، ثم تصدى لهم أهل الدار والجيران وطردوهم وأطفأوا النار ومرت العاصفة بسلام، وفي السنة التالية، رسخ في أذهان

الطلاب أن الغش ستكون نتيجته الرسوب من غير تحذير، فاجتنب معظمهم الغش وكانت النتيجة أن نسبة النجاح ارتفعت بشكل كبير، ورابطت دورية من حرس الحدود أمام المديرية، فلم يكن من الراسبين رد فعل يُذكر، ثم في السنة التي تليها كانت الامتحانات تجري بهدوء وكان كل طالب وطالبة رقيبًا على نفسه فسارت الامتحانات بشكل طبيعي، وصار الطلاب ينالون معدلاتهم بكفاءتهم لا بالغش، ويلتحقون بالجامعات فلا يعودون إلى أهلهم راسبين، بل يعودون ناجحين ومتفوقين كما كانوا قبل الانتفاضة.

الانتفاضة الفلسطينية الأولى لها وعليها

كان في المدرسة الثانوية الإسلامية فريقان فتح وحماس، وكانت العلاقة بينهما تتراوح بين التنافس والتصادم، لكنها لا تتسم بأي قدر من الود على الإطلاق، وكان الفتحاويون يقومون باستعراضاتهم موسومين بالسواد، سواد الملابس والألثمة والعصبات على الرؤوس وكانت حركة حماس تمتاز بالملابس البيض غالبًا والعصابات الخضر على الرؤوس، وكان يحدث أحيانًا أن عناصر تنشق على عناصر أخرى من فتح هذه تنفذ إضرابًا في يوم ما، فتنفذ تلك إضرابًا في اليوم التالي، فيجيء آخرون فينفذون إضرابًا بعد ذلك، وحصل أن تواصلت الإضرابات ذات مرة حتى لم يعد للدراسة وجود أيامًا متواصلة فتلثم أفراد حماس ونفذوا استعراضًا مطالبين بمراعاة مصلحة الطلاب، فنفذت عناصر فتح استعراضًا في الوقت نفسه فكان الاصطدام، ثم تكررت الاصطدامات بين الفريقين، حتى اضطرت الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية إلى إغلاق المدرسة بضعة عشر يومًا على إثر أحد الاصطدامات وتواصلت المفاوضات بين قيادتي الفريقين إلى أن توصلا إلى تفاهم يقضي بعودة الدوام في المدرسة.

ظل احترام المعلمين _على كل حال_ موجودًا خاصة مع المقارنة بالحالة المزرية لهم منذ أن جاءت سلطة الحكم الذاتي وإلى يومنا هذا وإلى أن تتبدل الأحوال، فدوام الحال من المحال.

كان المعلم محترمًا ما لم يتدخل في شئون الإضراب، ولم يكن لأية هيئة تدريس قدرة على منع الإضراب أو حتى تقصير مدته ولو حصة واحدة.

حدث مرة في الثانوية الإسلامية أن وقع المعلمون تحت ضغوط التنافس بين عناصر فتح وعناصر حماس، حماس تريد الدراسة وأولئك يريدون الإضراب، وكانت الهيئة التدريسية مع الدراسة طبعًا إلا أنهم وجدوا أنفسهم في مواجهة مع أحد الفريقين على كل حال، إذا دخلوا الصفوف اصطدموا بملثمي فتح وإذا خرجوا منها اصطدموا بملثمي حماس، فكان المخرج الاعتصام في غرفة المعلمين، فقال لنا قادة الطلاب الفتحاويين الملثمين: ممنوع إجراء اعتصام، وكان في فكرهم أن أي احتجاج على أي شيء يفعلونه يعتبر خيانة للثورة وللوطن، إلا أننا نفذنا الاعتصام، فجاءنا تهديد فرددنا عليه بتوبيخ الملثمين، وفي اليوم التالي وجدنا على أبواب المدرسة كتابات بالخط العريض فيها أبشع الشتائم السوقية للمعلمين، فسارع الأذنة إلى مسحها.

وذات مرة شتم طالب الدين، وقانون المدرسة الإسلامية يقضي بفصل من يسب الدين وقد نفذنا هذا القانون على العديد من الطلاب، أما في هذه المرة، فعندما جلسنا نحن مجلس الإصلاح التربوي (مقابل مجلس الضبط في المدارس الأخرى) لبحث الموضوع، اقتحم علينا أربعة ملثمين غرفة الإدارة قائلين: القرار مرفوض، ولم نكن اتخذنا القرار بعد، فأشرت إليهم بإصبعي أن يغادروا الغرفة فغادروها، لكنهم حاولوا إغلاق المدرسة ووقفوا على الباب يمنعون الداخل والخارج وبصعوبة أوقفنا عربدتهم تلك، وقررنا فصله ورفضنا التهديدات والوساطات ودموع أمه ونفذنا الفصل.

أكرر أن احترام المعلم في الصف كان لا يزال موجودًا، أما خارج الصف فهو كغيره من المواطنين.

كان الملثمون دولة بوليسية، تلقي القبض على العملاء والمشبوهين كائنًا ما كان مركز أحدهم الاجتماعي، أما العملاء الذين لديها معلومات موثقة عنهم فبمجرد إلقاء القبض عليهم يجري جرهم إلى البلدة القديمة وقتلهم وغالبًا ما يتم القتل بالبلطة، وكثيرًا ما يطلق النار على العميل وسط الشارع فيُقتل وتترك جثته ويهرب الناس من

الشارع الذي فيه الجثة وتغلق المحلات التجارية أبوابها، فتأتي قوات الاحتلال فلا تجد من تشتبه فيه أو تستجوبه، وهو في نظرهم لا يستحق أكثر من أن تُسحبَ جيفته وتسلم لأهله فيدفنونه ولا يقيمون له عزاءً بطبيعة الحال.

أما المشتبه بهم دون أن يكون عليهم دليل ثابت فيؤخذون إلى أماكن خربة أو منعزلة ويحقق معهم تحقيقًا بالغ الصعوبة، وتنفذ العقوبات التأديبية بحق من يتقرر تأديبه على مرأى الناس.

كنت واقفًا ذات يوم في السوق بالقرب من البوابة الشمالية للجامع الصلاحي الكبير، فانطلق البوق في الحارة المقابلة، فانتظر الناس أمرًا، وبعد قليل جاء عدد من الشباب الملثمين بشخص موضوع رأسه في قناع، وأوقفوه وسط الناس الذين تجمهروا بسرعة، ثم قفز أحد الشباب قفزة كاراتيه فضرب الشخصَ المقنَّع على وجهه ضربة فنية قوية برجله، فسقط المقنع على الأرض وهو يتأوه من الألم تأوهًا حاول قدر الإمكان أن يجعله غير مسموع، ثم أخذ الشباب يركلونه بأرجلهم ركلات قوية على أجزاء متفرقة من جسده وهو يتأوه بصوت خفيض وأخذ الناس يتساءلون عن الجريمة التي ارتكبها، فقال له أحد الملثمين بلهجة مدنية: قل لهم ماذا فعلت. ثم كرر القول ملثم آخر بلهجة من الواضح أنها لهجة المخيم: قل لهم ماذا فعلت، فلم ينبس بكلمة، فقال بعض الحاضرين: اكشفوا وجهه، فكشفوا وجهه في اللحظة التي قرروا فيها إطلاق سراحه، فانطلق يعدو كالبرق محاولًا أن يستر وجهه حتى لا يُعرف.

لقد نفذ حكم الإعدام بكثيرين من مستويات تعليمية واجتماعية متفاوتة ومنهم معلمون:

جاء الملثمون ذات يوم إلى مدرسة في لواء نابلس، فأمسكوا معلمًا فيها وهو من أهل القرية التي فيها المدرسة، فشنقوه حتى الموت أمام زملائه وتلاميذه وعادوا أدراجهم دون أن يتجرأ أحد على سؤالهم عن الجرم الذي ارتكبه ذلك المعلم.

وفي قرية قريبة من قريتنا وبينما كان أحد المعلمين يهم بدخول المدرسة صباحًا فاجأه ملثمون واقتادوه إلى مكان ما، وتلاميذه ينظرون، وهنالك قتلوه، ولم يُصدروا أي

بيان يدينه بالعمالة أو يبين سبب قتله، وكنت وقتها في السجن وحين خرجت طلب مني بعض أهله أن أسعى لأن يكون له راتب لأرملته وأيتامه الكثيرين وكانوا قاصرين كلهم، فوسّطت الصديق أبا فؤاد، أمين مقبول، والذي يتبوأ مركزًا مرموقًا في فتح وفي السلطة، فرفع أبو فؤاد أمر ذلك الشاب القتيل إلى رئيس السلطة فتقرر لأولاده راتب شهيد مدني على كره من قادة الحركة في منطقته على الرغم من أنهم لم يصدروا بيان إدانة له.

وفي إحدى المدارس، وأثناء احتفال كانت تنفذه المدرسة جاء ملثمان وأمسكا بمعلم من معلمي المدرسة وأخذا يضربانه ضربًا مبرحًا حتى أنهكاه وعيون الجميع شاخصة دون أن يجرؤ أحد على التدخل.

وفي مدينة نابلس اختُطف موجه تربوي عدة أيام والناس يتساءلون عن جُرمه وعن مكانه، ثم أفرجوا عنه فقرر الرحيل إلى الأردن.

هذا بعض ما حدث في منطقة نابلس ولا شك أن له أشباهًا حدثت في سائر الأماكن، وكانت العقوبة في بعض الأحيان جزاء وفاقًا، ولكنها في بعض الأحيان كانت تقع بتسرع ودون تدقيق كافٍ، أو تأتي أكبر من الجرم الذي ارتكبه الشخص.

كان أحد أبناء منطقتنا (مشاريق نابلس) مشكوكًا في أمره من الناحية الأمنية، وكان يستطيع أن يصل إلى نابلس ولكنه ممنوع من دخول السوق، وكان أحد المرجعيات الكبرى للانتفاضة وهو أبو نضال، بسام الشكعة، قد سألني عنه، فأخبرته أنه شخص غير محبوب عند الناس إلا أنه ليس هنالك دليل على أية علاقة له بالاحتلال، ثم جاءني ذلك الشخص لأتوسط له كي يسمحوا له بدخول السوق، فطلبت من بعض قيادات اللجان النظر في هذا الطلب، وبعد أيام جاءني الجواب بأنه مسموح له أن يدخل السوق حتى باب الجامع الكبير وغير مسموح له أن يتجاوز ذلك خطوة واحدة، وعندما بلّغته بالقرار فرح واعتبره فرجًا. وبالفعل، صار يصل إلى المكان المحدد له، لا يتجاوزه قيد أنملة.

هكذا كانت دولة الانتفاضة صرامة وشدة وأوامر لا يستطيع أحد التلاعب

فيهـا، ومـن محاسـنها أنـه اختفـت السرقـات أو كادت واختفـت كثـير مـن الجرائـم الاجتماعيـة، وكانـوا إذا علمـوا عـن مشـاغب مثـير للمشـاكل مـع الآخريـن يتوجهـون إليـه في الليـل فيأخذونـه وينزلـون بـه العقوبـة الرادعـة وكانـت عنـاصر حركـة المقاومـة الإسـلامية (حمـاس) تزيـد عـلى ذلـك بـأن فرضـت إغـلاق دور السـينما وكان في نابلـس ثـلاث منهـا، وحاربـت التـبرج وفرضـت الاحتشـام عـلى جميـع النسـاء.

ولكـن في المقابـل كانـت الانتفاضـة كارثـة عـلى التعليـم كـما ذكـرت، كـما أنهـا بدلـت طبيعـة العلاقـات في المجتمـع تبديـلًا استُبعد فيـه المنطـق، فلـم يعـد للمعلمـين حكـم عـلى التلاميـذ ولا للآبـاء حكـم عـلى الأبنـاء ولا للكبـار حكـم عـلى الصغـار، وأصبـح بإمـكان شـلة مـن الأولاد أن يفرضـوا عـلى التجـار إغـلاق محلاتهـم دون إبـداء الأسـباب، وأصبحـت لجـان الانتفاضـة تتدخـل في كل شيء إلى درجـة أن جـارة لنـا اشـتكت لهـم مـن سـوء معاملـة حماتهـا لهـا فوقفـوا للحـماة وهددوهـا بالعقوبـة إذا هـي عـادت إلى مضايقـة كنتهـا، وهكـذا كانـوا لا يـرون أن صغـيرًا أو كبـيرًا مـن شـئون النـاس يقـع خـارج اختصاصهـم.

الكارثة الاقتصادية

كانـت الكارثـة الاقتصاديـة ثانيـة الأثـافي فيـما لحـق بشـعبنا مـن جـراء الانتفاضـة الأولى. فقبـل تلـك الانتفاضـة كانـت الأشـغال متوفـرة للقسـم الأكـبر مـن النـاس إمـا في داخـل الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة وإمـا في داخـل الأرض المحتلـة عـام 1948، وكان المغتربـون الفلسـطينيون في الكويـت ودول الخليـج يمـدون أهلهـم بالمسـاعدات ممـا يعـود عـلى الأرض المحتلـة بمبالـغ طائلـة تُسـهم بشـكل واضـح في تنشـيط الحركـة التجاريـة، وفي الانتفاضـة تلقـى الاقتصـاد الفلسـطيني ثـلاث ضربـات:

أولهـا: منـع العـمال مـن التوجـه إلى داخـل الأرض المحتلـة للعمـل دون أن يتوفـر لهـم أي بديـل وثانيهـا: حرمـان الكثيريـن ممـن يعملـون في الضفـة والقطـاع مـن مـورد الـرزق بسـبب الإضرابـات المتواليـة ممـا تسـبب في أزمـة ماديـة للعـمال ولأربـاب العمـل، حتـى إن كثـيرًا مـن المؤسسـات الاقتصاديـة الشـامخة أصبحـت تواجـه صعوبـات جمـة في توفـير أجـور عمالهـا أو حتـى في توفـير المصاريـف الشـخصية لمالكيهـا.

وثالثها: انهيار الدينار الأردني.

تطورت علاقة الأردن بالأرض المحتلة تطورًا هبوطيًا وبشكل سريع. فإن المملكة الأردنية كانت تعد الضفة الغربية حتى بداية الانتفاضة جزءًا منها وتحت مسئوليتها وكانت سياستها دائمًا تشجيع التعايش السلمي مع الاحتلال ومعارضة أي شكل من أشكال المقاومة، ومن أجل أن ترسخ دورها في الضفة الغربية اتفقت مع حكومة الاحتلال على أن تتقاسم وإياه المسئولية فيما عرف باتفاق التقاسم الوظيفي الذي لم يُعلَن عنه بشكل رسمي إلا أنه كان واقعًا ملموسًا، والجهة التي أعلنت عنه هي الصحافة الإسرائيلية، وفي هذا السياق بدأت حكومة الأردن تقدم مساعدات رمزية للموظفين في الضفة الغربية الذين عُيِّنوا بعد عام 1967 لم يتجاوز أعلاها خمسين دينارًا، مع تنفيذها بعض المشاريع للبنية التحتية في الضفة الغربية.

أرادت الأردن أن تسحب البساط من تحت رجلي منظمة التحرير في الضفة وحتى في القطاع، فكان هذا أكبر عوامل الانتفاضة التي كانت عبارة عن مواجهة مباشرة مع الاحتلال ومواجهة غير معلنة مع النفوذ الأردني. واستشاط الملك غضبًا إذ اعتبر الانتفاضة تحديًا لسياسته القائمة على التنسيق والتكامل مع الاحتلال والإقلاع نهائيًا عن مقاومته، ثم إن الحكومة الأردنية أصبحت مطالبة بمساعدة أسر الشهداء ومعالجة جرحى الانتفاضة باعتبار أن الضفة الغربية المحتلة جزء من المملكة الأردنية. وكانت الأردن وقتها تعاني من انهيار اقتصادي له أسباب معروفة للجميع وأسباب لا يعرفها إلا المطلعون على بواطن الأمور. أما الأسباب المعروفة فهي أن الأردن كان يرزح تحت وطأة ديون بلغت حوالي ثمانية مليارات دولار وعليه أن يدفع فوائد ربوية هائلة، وهو دولة لا تملك من الموارد ما يقيم أودها، فهي تعتمد على المساعدات الغربية والمساعدات العربية، وقد تقلصت المساعدات العربية بشكل كبير، فإن دول البترول العربية وعلى رأسها السعودية جرّبت أن تُسقط إيران اقتصاديًا بإغراق السوق العالمي بالنفط الرخيص كي لا تجد إيران مشتريًا لنفطها فتضطر إلى الاستسلام أمام العراق، ولكن انقلب السحر على الساحر فالسعودية ودويلات الخليج هي التي بدأت تعاني من سوء تدبيرها، ثم إن الأولوية المطلقة في المساعدات والقروض كانت لتمويل العراق

كـي يتمكـن مـن مواصلـة هجومـه عـلى إيـران، فقلَّـت المسـاعدات التـي تصـل الأردن.

قـام الأردن في عـام 1988 بفـك الارتبـاط القانـوني والإداري بالضفـة الغربيـة وأنهى التزامـه بدفـع رواتـب للموظفـين الذيـن دخلـوا الخدمـة في العهـد الأردني فدفـع تعويضـات للذيـن لم يبلغـوا سـن التقاعـد، وأعطـى تقاعـدا لعـدد قليـل منهـم ممـن انطبقـت عليهـم الـشروط وأوقـف المسـاعدات التي كان يقدمهـا لموظفـي مـا بعـد 1967 وهـذه المبالـغ وإن كانـت ضئيلـة إلا أنهـا كانـت تقـدم نفعًـا للموظفـين هـم في أمسِّ الحاجـة إليـه.

عـلى أن الأثـر المدمـر كان عـلى فئـة غـير قليلـة مـن النـاس عندمـا انهـار الدينـار الأردني عـام 1988، بعـد فـك ارتبـاط الأردن بالضفـة الغربيـة بفـترة وجيـزة، وكان الانهيـار مفاجئًـا لعامـة النـاس، إلا أنـه كان متوقعًـا لـدى المطلعـين عـلى بواطـن الأمـور، فـالأردن عـلى أثـر حـرب صـدام التكريتـي عـلى إيـران لم تعـد لـه الأولويـة في المسـاعدات، فمعظـم مسـاعدات دول الخليـج انصبـت عـلى العـراق، وكان الأردن قبـل إقدامـه عـلى فـك الروابـط الإداريـة والقانونيـة مـع الضفـة الغربيـة يسـتفيد مـن الـدول الخليجيـة بقولـه إنـه عـلى أطـول خـط للمواجهـة وأن صمـوده في مواجهـة إسرائيـل يحتـاج إلى الدعـم، ويسـتفيد مـن الـدول الغربيـة بقولـه أنـه عـلى أطـول خـط للهدنـة مـع إسرائيـل وإنـه يعمـل دون كلـل أو ملـل عـلى منـع تسـلل أيـة عنـاصر (تخريبيـة) إلى إسرائيـل والأرض المحتلـة وأنـه بحاجـة إلى الدعـم كـي يتمكـن مـن مواصلـة الاضطـلاع بهـذا الـدور، وكان يأتيـه دعـم الـدول الغربيـة عـلى شـكل هبـات وعـلى شـكل قـروض بفوائـد، وبأجنـدة للتسـديد صارمـة، وفي سـنة الانتفاضـة أراد أن يسـتفيد مـن دوره المحافـظ عـلى أمـن إسرائيـل، فاتصـل بالـدول الغربيـة والـدول العربيـة التـي تمنـح المسـاعدات، وحـدد موعـدًا لمؤتمـر للمانحـين يعقـد في عـمان لتقريـر خطـة تنميـة للضفـة الغربيـة مقدارهـا مليـار ومائتـا مليـون دولار، وإلى جانبهـا خطـة تنميـة للضفـة الشرقيـة بقيمـة ثمانيـة مليـارات، وعندمـا سـأل صحفـي أحـد كبـار المسـئولين الأردنيـين عمـن سـيدفع هـذه المبالـغ، أجابـه بـأن هـذه المبالـغ أقـل بكثـير مـن تكاليـف صـاروخ حيتـس الـذي تجـري محاولـة صناعتـه في إسرائيـل بتمويـل أمريكـي لاعـتراض الصواريـخ، ويقصـد المسـؤول الأردني أن مملكـة الأردن تسـتطيع أن تحفـظ أمـن إسرائيـل بشـكل لا يـدع ثمـة حاجـة إلى إنفـاق مبالـغ طائلـة عـلى التسـليح. وأن المطلـوب دعـم مـادي لـلأردن ليقـوم بالواجـب.

كان حضـور المانحـين قليـلًا ولم يحـضروا إلا للمجاملـة، ولم يتعهـدوا بـشيء يذكـر، فتفاقمـت مشـكلة الأردن الماليـة إلى جانـب تفاقـم مشـكلة الانتفاضـة في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، فقـرر الملـك حسـين فـك الروابـط القانونيـة والإداريـة مـع الضفـة الغربيـة وفي أربـع وعشريـن سـاعة ألغيـت جميـع الخرائـط وعممـت خرائـط لا تحتـوي عـلى الضفـة الغربيـة، في سـابقة لم يُقـدم عليهـا أحـد قبـل ذلـك، وهـو تخلي الدولـة عـن المطالبـة بـأرض احتُلّـت منهـا والتنصـل مـن مسـئوليتها عـن الشـعب الـذي لم تسـتطع الدفـاع عنـه.

كان بـروز المشـكلة الاقتصاديـة في الأردن مفاجئًـا وكان أبـرز مظاهرهـا ثـورة شعبية ضـد الحكومـة الأردنيـة لا سـيما في معـان التـي بـدا وكأنهـا في حالـة انتفاضـة ضـد الحكـم الهاشـمي كتلـك الانتفاضـة التـي تجـري في الضفـة الغربيـة ضـد الاحتـلال الإسرائيـلي، أمـا المظهـر الثـاني البـارز فـكان تدهـور قيمـة الدينـار الأردني حتـى أصبـح يسـاوي أقـل مـن شـيكلين (1.9 مـن الشـيكل) بعـد أن كان يسـاوي سـتة شـواكل، وفي الضفـة الشرقيـة لم يشـعروا بـه بشـكل مبـاشر وإنـما شـعروا بتدهـوره عـن طريـق ارتفـاع جنـوني للأسـعار.

كان تدهـور سـعر صرف الدينـار الأردني يمثـل كارثـة اقتصاديـة لكثيريـن يتقاضـون رواتبهـم بالدينـار ومنهـم موظفـو وكالـة الغـوث، إلا أن الوكالـة سـارعت إلى احتسـاب سـعر صرف للدينـار الأردني بـما يفـوق قليـلًا سـتة شـواكل للدينـار، أمـا بالنسـبة إلى موظفي جمعية التضامـن الخيريـة الذيـن يعملـون مدرسـين في المدرسـة الثانويـة الإسـلامية، وكنـت واحـدًا منهـم، فقـد كانـت الضربـة الاقتصاديـة كبـيرة وقاسـية، وعـلى الرغـم مـن أنني كنـت أسـكن القريـة حيـث لا أجـرة دار ولا ثمـن مـاء أو كهربـاء، إلا أن الراتـب الـذي لم يكـن مطلوبًـا منـه إلا المـأكل والملبس، لم يعـد يفـي بمتطلبـات الحيـاة في أبسـط صورهـا، وكانـت المـدارس مغلقـة وجمعيـة التضامـن تعـاني مـن مشـكلة عـدم السـماح بدخـول المسـاعدات التـي تأتيهـا مـن دول الخليـج، ففـي سـبيل ضرب قـدرة الشـعب عـلى اسـتمرارية الانتفاضـة، حـددت الإدارة المدنيـة الإسرائيليـة الحـد الأقـصى للمبلـغ المالي المسـموح بـه بأربعمائـة دينـار أردني ولا يدخـل للمؤسسـات شيء إلا بترخيـص والترخيـص ليـس بالأمـر السـهل. لم يكـن أمامنـا إلا الإلحـاح عـلى الهيئـة الإداريـة لجمعيـة التضامـن الخيريـة لتصحيـح أوضاعنـا، عـلى الرغـم من أن المـدارس مغلقـة.

ولم تكن الهيئة الإدارية بحاجة إلى الكثير من الإلحاح، فهي مكونة من خيرة رجالات نابلس وسكرتيرها الحاج حسام عبد الرحمن الحجاوي، وجه اقتصادي واجتماعي وإنساني بارز، ورفعنا لها كتابًا أوضحنا فيه أن تردي أوضاعنا المعيشية يدفعنا إلى المطالبة بتحسينها على الرغم من أن المدارس مغلقة بأمر من الإدارة المدنية للاحتلال، وأن هذا الإغلاق مؤقت وستعود المدارس للانتظام وسنعود إلى سابق عهدنا من التفاني في العطاء.

حددت لنا الهيئة الإدارية موعدًا كي نجتمع بها في المدرسة وفي ذلك الاجتماع تقرر معادلة صرف الدينار الأردني ب(3.4) من الشواكل، وهذا يزيد قليلًا عن نصف ما قررته الوكالة لموظفيها إلا أنه على كل حال، خير من لا شيء، فقد كانت القيمة السوقية للدينار وحدها شيكلين، لقد استطعنا بهذا التعديل غير الكبير أن نتجاوز الأزمة وظلت الجمعية تحتسب سعر الصرف هذا إلى إن عاد الدينار الأردني إلى الارتفاع وتجاوز سعر الصرف الذي قررته الجمعية.

كنت في تلك السنة 1988، أعاني من سمنة مفرطة سببها أنني كنت أسرف في الطعام، إلى درجة أن حركتي أصبحت ثقيلة، وكان لنا قطعة أرض زرعناها زيتونًا ولها جدار حجري مهدم منذ أمد بعيد، فقررت أن أشتغل وأشغل ولديَّ الكبيرين مالك ومحمد في إعادة إقامة الجدار. ومما شجعني على ذلك أن حجارته كانت موجودة، فصرت أتناول وولديّ الإفطار في الصباح الباكر ثم نتوجه إلى الأرض فنشتغل فيها إلى ما بعد الظهر، واستمر هذا العمل أسابيع كثيرة، وكانت النتيجة في النهاية أن أقمنا جدارًا حجريًا طويلًا وعلى درجة من الإتقان، يعجب الناظرين، والنتيجة الكبرى أنني تخلصت من كثير من وزني ومن التيبس في الأعضاء وأصبحت أتمتع بشيء من الرشاقة والحيوية النسبية.

سنة 1990 سنة لا تُنسى

عندما كنت أسكن جالود بين أعوام 1980-1990 كان أولادي يدرسون في مدرسة جالود الابتدائية حتى الرابع الابتدائي، ثم ينتقلون إلى مدرسة قريوت الثانوية، وكنت أتوجه إلى نابلس صباح كل يوم ما عدا يوم العطلة، ولا أعود إلا مساءً، ولم يكن هذا الأمر مريحًا لزوجتي التي رأت أننا انقطعنا عن العالم وانزوينا عن الأحداث العامة التي لم نكن ننزوي عنها أبدًا.

دعيت ذات يوم للذهاب إلى القدس ممثلًا لمحافظة نابلس ضمن وفد يمثل المعلمين في الضفة الغربية لمقابلة القنصل الأمريكي في شرقي القدس والطلب منه أن يبعث إلى حكومته لتمارس الضغط على إسرائيل لفتح المدارس في الضفة الغربية، والتقيت بالوفد الممثل لجميع مناطق الضفة الغربية، ثم التقينا بالقنصل الأمريكي في ردهة فندق في القدس الشرقية، وشرحنا له أهمية التعليم عندنا، ومقدار ما في إجراء إسرائيل من تعد على مستقبل شعبنا بإغلاقها جميع المدارس إغلاقًا متواصلًا أسابيع متلاحقة، وشرح لنا القنصل أن وزارة الخارجية الأمريكية تتلقى تقارير من الإسرائيليين تشرح وجهة نظرهم من الأمور المتعلقة بهم وتتلقى تقارير من الجانب العربي، وتنظر في التقارير المختلفة والمتعارضة في كثير من الأحيان، وأن في وزارة الخارجية مسئولين يتعاطفون مع وجهة النظر العربية وآخرين يأخذون بوجهة النظر الإسرائيلية، وأن المتعاطفين مع وجهة النظر الإسرائيلية أكثر وكلمتهم أنفذ، وكان القنصل مهذبًا وأبدى تفهمًا لمطالبنا ووعد برفعها إلى المسئولين، وخرجنا من المقابلة راضين.

لقد تبين لي بعد أن رجعت لأسكن في نابلس مقدار الخسارة التي لحقت بي بانزوائي في تلك القرية الصغيرة النائية بعد أن علمت أن القائد الدكتور فتحي الشقاقي كان في فترة وجودي في القرية يعمل على نشر مبادئ الحركة الوليدة التي أؤمن بأفكارها ومواقفها قبل أن أعرفها وأن فتحي القائد الشاب العبقري كان يصطنع الأصدقاء ويزورهم في بيوتهم في مختلف محافظات الضفة الغربية. وكانوا يسافرون إلى غزة ويلتقون بكوادر الحركة هناك، وكنت في غفلة عن هذا أغدو إلى المدرسة في نابلس صباحًا وأعود إلى القرية مساء، ولا أعلم بما يدور حولي.

في فـترة التسـعينات وبعـد أن أصبحـت مـن كـوادر الحركـة زارني الشـيخ الشـهيد رياض بدير[1] رحمه الله تعالى، وكنت وإياه عضوين في اللجنة العامة للمعلمين في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، وهي اللجنة القيادية للإضراب في ذلك الوقت، ثم افترقنا بعد ذلك إلى أن التقينا في تنظيم الجهاد الإسلامي، عاتبته على أنه لم يعرِّفني بأبي إبراهيم وكان يأتيه إلى بيته في طولكرم، فقال لي: أنا أعرفك فتحاويًا، ولم أكن أعلم أنك جهاد إسلامي. لقد خسرت المعرفة المباشرة بالدكتور فتحي وأصبحت المعرفة بيني وبينه فيما بعد بالمراسلة.

وكانت زوجتي تعاني من الملل من المعيشة الرتيبة في قرية قلما تحدث فيها مناسبة اجتماعية.

إلا أن الهم الأكبر كان مستقبل الأولاد الذين بدأوا يكبرون ويحتاجون إلى أن يكونوا تحت إشرافي، فبدأت البحث عن دار للاستئجار، ثم وجدتها في شارع صلاح الدين الذي هو شارع المدارس وهي لقريبنا المرحوم الشيخ عبد القادر عبد الجليل وتحت إشراف ابنه المرحوم سمير، وكانت الدار مهجورة منذ زمن، فوافق المرحوم أبو سلام على تأجيرها لنا، على أن نجري الإصلاحات اللازمة عليها بأجرة السنة الأولى، وأجرينا المرحلة الأولى من الإصلاحات بأجرة أكثر من سنتين، واحتسبنا أجرة سنتين، وأجرينا إصلاحات أخرى في ثلاث مراحل تالية كلفتنا بمجموعها بضعة آلاف، ولم

(1) الشهيد الشيخ رياض بدير: من مؤسسي حركة الجهاد الإسلامي في الضفة الغربية عامة ومحافظة طولكرم خاصة، التقى بالشهيد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي عدة مرات في الضفة في سعيه لبث فكر الجهاد والمقاومة بين الناس، عمل في سلك التعليم، وفُصل من عمله في التدريس في فترة الاحتلال الصهيوني ما قبل قدوم السلطة الفلسطينية، ثم أعادته السلطة للتدريس لكنها ما لبثت أن فصلته أيضًا. اعتقلته قوات الاحتلال الصهيوني لأكثر من مرة، كما اعتقل فترات طويلة في سجون السلطة أيضًا. باع بيته وسيارته واشترى سلاحًا وهرع إلى قلعة الجهاد، مخيم جنين في شهر نيسان من العام 2002 وقاتل قتال الأبطال حتى استشهد في اليوم الأخير من معركة مخيم جنين، ووجد قابضًا على بندقيته يضمها إلى صدره، وأصبعه على الزناد، وأمامه مصحف كان يقرأ منه.

تكـن تلـك الإصلاحـات باتفـاق مـع المالـك، فلـم يُحتسَـب مـن أجـرة الـدار شيء، وقـد تعلّمنـا مـن هـذه التجـارب وأمثالهـا مقـدار مـا في السكن بالأجـرة مـن خسـارة فادحـة، وأن الإنسـان الحـازم هـو مـن يبـذل كل جهـد ممكـن كـي يمتلـك منـزلًا ولـو صغـيرًا، ولـو كلفـه ضيقًـا في العيـش سـنوات طويلـة إلى أن يسـدد ثمنـه كلـه، فهـو الرابـح عـلى كل حـال.

بعـد أن أكملنـا إصلاحـات المرحلـة الأولى انتقلنـا إلى تلـك الـدار في مطلع كانـون ثانٍ 1990، وكانـت تلـك السـنة بدايـة أحـداث عامـة مجلجلـة وبدايـة مجريـات حركـة خاصـة، بعـد سـنوات طويلـة مـن ركـود الأمـور في القريـة عـلى المسـتويين العـام والخـاص.

منـذ اسـتقررت في نابلـس في تلـك المرحلـة بـدأت أعطـي دروسًـا خصوصيـة في اللغـة العربيـة، ولم يكـن الطـلاب في فـترة ازدهـار التعليـم بحاجـة إلى دروس في اللغـة العربيـة إلا قليـلًا، لكنهـم منـذ مطلـع الثمانينـات أصبحـوا بسـبب الحـرص الشـديد عـلى المسـتقبل ونيـل التخصـص المطلـوب في الجامعـة، يحرصـون عـلى دروس خصوصيـة في اللغـة العربيـة بالإضافـة إلى المـواد التـي تحتـاج بطبيعتهـا إلى دروس كاللغـة الإنجليزيـة والرياضيـات والفيزيـاء.. إلـخ.

وقـد سـاهمت تلـك الـدروس مسـاهمة غـير قليلـة في تسـديد المصاريـف وتوفـير المتطلبـات لأسرة فيهـا سـتة طـلاب وتعتمـد عـلى راتـب واحـد.

في تلـك السـنة ظللـت أعـاني مـن مشـكلة النهـم الزائـد وبالتـالي مـن السـمنة المطـردة، وأخـذت أعـاني مـن حكـة في الجلـد وعرضـت الأمـر عـلى طبيـب صديـق، فلـم أجـد عنـده علـمًا بسـبب المشـكلة، وقـد تبـين لي فيـما بعـد أن تلـك كانـت أولى أعـراض مـرض السـكري، ثـم عرضـت عـلى طبيـب آخـر مشـكلة إمسـاك شـديد مـؤذٍ ومـؤلم، فلـم أجـد عنـده علـمًا بسـبب المشـكلة، ثـم عرفـت فيـما بعـد أن الأمـر بمنتهـى البسـاطة يرجـع إلى عـدم التـوازن بـين الطعـام والسـوائل في جسـمي، وأن الطعـام الكثـير يحتـاج إلى مـاء كثـير وأن جسـمي يحتـاج إلى سـتة لـترات مـن المـاء.

في النصـف الأول مـن عـام 1990 أصبحـت أشـعر بالجفـاف الشـديد كل بضـع دقائـق فأهـرع إلى الثلاجـة لأشرب أبـرد مـا فيهـا مـن مـاء، وأسـتلذ ببرودتـه، لكننـي صرت

أشعر بمرارة في الفم عقب كل شربة، بدأت أتساءل عن السبب وأطمئن نفسي أن هذا ليس السكري؛ لأنني كنت أستمع إلى أحاديث المصابين بالسكري وإلى مقادير شربهم للماء، فهي تفوق بأضعاف مضاعفة مقادير شربي له، لم يخطر ببالي ـ على كل حال ـ أن أخفف من مقدار الطعام الذي أتناوله أربع مرات في اليوم، ولدى ازدياد ظواهر صحية عندي مقلقة كالحكة والجفاف والتعب العام رأيت أنه لا بد من إجراء فحص للسكري، وكان المستوصف قريبًا من منزلنا، فأخذوا لي عينة من الدم وقالوا إن النتيجة تظهر فيما بعد، وتوجهت قبل الظهر إلى المستوصف وكانت النتيجة محبطة لي، فقد اكتشفت ارتفاعًا في السكر، وعلى الرغم من أنه لم يكن كبيرًا فإنني من الآن فصاعدًا مريض سكري عليَّ اتباع الحمية، وكان هذا الهم الذاتي ضئيلًا إلى جانب الحدث المجلجل الأكبر الذي ورد إلى مسامع الناس فجأة في ذلك اليوم الثاني من آب 1990، إنه الغزو العراقي للكويت، الذي بدأت تطنطن به جميع الإذاعات ومحطات التلفزيون.

كانت الأنباء الأولية تفيد أن صدام حسين اعتقل جميع أسرة آل الصباح وحملهم في طائرة إلى بغداد، ثم تبين أن تلك الأنباء لم تكن صحيحة، وتبين أن آل الصباح قد هربوا إلى السعودية بمجرد أن سمعوا بعبور القوات العراقية حدود بلادهم.

اختلطت المشاعر عند الناس لدى سماعهم أنباء الغزو العراقي للكويت بين شعور بالخوف على مستقبل الجالية الفلسطينية وكانت تلك مشاعر من يأتيهم الدعم من أبنائهم العاملين هناك وبين مشاعر إعجاب جاهل بصدام وبما أقدم عليه، ومشاعر سلبية تجاهه عند الأكثر وعيًا ممن يعرفون أنه دكتاتور دموي ضرب إيران لوجه الشيطان، وظن جهلًا أن الغرب سيكافئه على خدمته تلك بأن يمنحه الكويت وبالتالي أقدم على مغامرة غير محسوبة ستعم أضرارها المنطقة كلها، وستكون القضية الفلسطينية أكبر المتضررين.

بعد دوي أنباء الغزو بدأ دوي أنباء الاستعداد الدولي لتخليص الكويت من الاحتلال العراقي. لم تغفل الولايات المتحدة إمكانية الحل الدبلوماسي للقضية فجربت الوصول إليه بالحوار مع النظام الذي كان قبل اجتياح الكويت حليفًا للإدارة الأمريكية،

فتقرر عقد اجتماع في شهر أيلول من تلك السنة بين وزير الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت جيمس بيكر، وبرزان التكريتي، أخي الرئيس صدام من أمه، وقد انتظر الناس جميعًا من مواطنين وسياسيين ووسائل إعلام ذلك اللقاء باهتمام بالغ، لأن الأحداث بعده سترتبط بنجاحه أو بفشله، وكثرت التكهنات حوله، وفي النهاية انعقد اللقاء وحبس العالم أنفاسه بانتظار ما سيسفر عنه، وبعد ساعات خرج جيمس بيكر ليعلن فشل الاجتماع، فأخذ الجميع يستعد للحرب، وكان الكثيرون في العالم العربي يتوهمون أن صدامًا لم يقدم على خطوته التي أقدم عليها إلا وقد استعد للمواجهة العسكرية.

لدى اقتراب موعد بدء العام الدراسي في الأول من أيلول كان قد اشتد التخويف في وسائل الإعلام الغربية وبالتبعية وسائل الإعلام العربية، حول الأسلحة الكيماوية التي يملكها صدام وأنه سيحرق بها نصف إسرائيل كما ورد في تصريح صحفي له، فانتشرت تكهنات عن احتمال تأجيل العام الدراسي إلى أن تنجلي الأمور، لكن التكهنات لم تكن صحيحة، فقد بدأ العام الدراسي، ولكن ظروف الشعب الفلسطيني والمنطقة بأسرها كانت استثنائية بمعنى الكلمة؛ فمن الناحية الاقتصادية بدأ نزوح آلاف الفلسطينيين من الكويت، أما من يملك منهم مواطنة في الضفة الغربية، فإلى الضفة الغربية أما الباقي فإلى الأردن في ظروف فقدان مصدر الرزق بالنسبة للوافدين وضيق الحياة في البلد القادمين إليها وهي الأردن، والبطالة العامة الطامّة في الضفة الغربية نتيجة الانتفاضة، وانخفاض مستوى الدخل للذين يعملون.

كنا في المدرسة الثانوية الإسلامية نتقاضى رواتب أعلى مما يتقاضاه مدرسو الحكومة إلا أنها لم تكن تهبنا البحبوحة، وكنت وقتها أعاني من ديون بسبب كثرة ما احتاجت إليه الدار المستأجرة من إصلاحات ضرورية.

أما من الناحية النفسية فالناس أخذوا يهيئون أنفسهم للمخاطر القادمة التي لا يعلم مداها إلا الله. كان لدى صدام التكريتي أسلحة كيماوية لا شك في ذلك، فقد زوده بها الغرب لضرب إيران وحسم المعركة معها، وبالفعل استطاع العراق أن يوجه ضربة موجعة للقوات الإيرانية المتمركزة في الفاو، مما اضطر الإمام الخميني إلى القبول بوقف

إطلاق النار، فانتهت الحرب على الجبهة مع إيران سنة 1988 وخرج الجيش العراقي بفائض من جميع أنواع الأسلحة بما فيها الأسلحة الكيماوية. وأخذت الصحف الغربية منذ أن توقف إطلاق النار مع إيران تتحدث عن قوة الجيش العراقي وإمكانياته الهائلة حتى إن بعض الصحف الغربية صنفت الجيش العراقي بالجيش الثالث في العالم، بعد الجيش الأمريكي والجيش الروسي وقبل الجيش الصيني، وكانت التقارير تُرفع إلى صدّام فتزيده غرورًا، وبهذا الغرور صرّح بأنه يستطيع بالأسلحة الكيماوية أن يحرق نصف إسرائيل، فحملت كل من إسرائيل والولايات المتحدة تصريحاته على محمل الجد، أما الفلسطينيون الذين فقدوا منذ زمن أي صوت عربي يهدد إسرائيل، فقد صدّقوا أقوال صدام وتصوّروا أن التحرير أصبح على الأبواب، وأصبح صدام عندهم البطل والأمل، وصار هتافهم نصًا واحدًا يردده الجميع: يا صدام يا حبيب، كيماوي عا تل أبيب.

وبعد فشل اجتماع بيكر/ برزان، حددت الولايات المتحدة لصدام مهلة حتى 17/ 01/ 1991 يستطيع خلالها سحب قواته والانسحاب من الكويت، وإلا فإنه سيواجه حربًا بدأت الولايات المتحدة تحشد لها الحلفاء من القارات كلها بمشاركات بعضها فعلي كمشاركة بريطانيا وإيطاليا ومن الدول العربية مصر وسوريا والسعودية وبعضها رمزي كمشاركة كثير من دول أوروبا وآسيا، ولم تكن الولايات المتحدة، كما هو معلوم، تحتاج إلى من يؤازرها عسكريًا ضد بلد كالعراق، ولكنها كانت بحاجة إلى المؤازرة المعنوية.

كانت السعودية هي الممول الرئيس للحرب، ولأول مرة منذ زمن بعيد لجأت المملكة إلى الاستدانة من البنوك الغربية، طلبت عشرة مليارات دولار، فبان للعين مقدار الأزمة التي أوقعت نفسها وأوقعت دول الخليج فيها حين أقدمت مع بداية الحرب العراقية ضد إيران على ضرب أسعار النفط عن طريق إغراق الأسواق الدولية بالفائض منه. وخرجت الولايات المتحدة من ذلك الغزو بفائض أربعين مليار دولار وفق ما أعلنه أحد القادة العسكريين الأمريكان.

كلـما اقـترب موعـد السـابع عـشر مـن كانـون ثـان ازداد النـاس عندنـا تهيبًـا وترقبًـا لمـا سـيجري، فـإن تعليقـات لخـبراء عسـكريين إسرائيليـين وغربيـين قـدّرت أن صـدام لا يملـك صواريـخ يسـتطيع بهـا ضرب العمـق مـن فلسـطين المحتلـة، وأن صواريخـه ستسـقط في نابلـس، بالإضافـة إلى تقاريـر غربيـة تؤكـد أن العـراق لا يملـك صواريـخ معـدة لحمـل رؤوس حربيـة كيماويـة قـادرة عـلى ضرب إسرائيـل.

أمـا إسرائيـل، وعـلى الرغـم مـن التقاريـر التـي كانـت تقلـل مـن شـأن التهديـد العراقـي لهـا، فإنهـا كانـت تشـعر بالذعـر، وكانـت تحسـب للتهديـد العراقـي ألـف حسـاب، وبـدأت تـزود مواطنيهـا بكمامـات واقيـة مـن الغـازات السـامة وقـررت أن سـكان الأرض المحتلـة لا يحتاجـون إلى الكمامـات؛ لأن حياتهـم غـير مهـددة.

مـر الفصـل الأول مـن العـام الـدراسي في تلـك السـنة وأجريـت الامتحانـات الفصليـة، وامتـازت تلـك السـنة بضعـف الأمطـار ضعفًـا غـير مسـبوق، فلـم تبتـل الأرض ابتـلالًا حقيقيًـا في تلـك السـنة، إلا أن الجفـاف لم يكـن هـو مـا يسـتأثر باهتـمام النـاس، وإنـما انصـب اهتمامهـم عـلى الحـرب الوشـيكة التـي سـتكون بـين العـراق والتحالـف الـدولي عـلى أرض الكويـت، وأهـم مـا فيهـا ترقـب الجميـع للصواريـخ التـي سـتحرق نصـف إسرائيـل، لعلنـا نسـتريح مـن الاحتـلال.

لـدى بـدء عطلـة نصـف السـنة مطلـع كانـون الثـاني 1991، قـررت أن أقـوم أنـا ومالـك بزيـارة للوالديـن في البلـد، وفي مداخـل البلـد ركـب معنـا في السـيارة أحـد أبنـاء القريـة فعـزاني بعمـي معـروف الـذي وصلـت أنبـاء وفاتـه في وقـت سـابق مـن ذلـك اليـوم عـن طريـق الإذاعـة، وفوجئـت بالنبـأ وفوجـئ المعـزي بأننـي لم أكـن أعلـم. لقـد كان المرحـوم بالنسـبة لي عـمًا وصديقًـا وكان يعـاني مـن مـرض القلـب، وهـو أصغـر مـن والـدي سـنًا، وكان يعمـل في الكويـت، ثـم انتهـى عملـه فرحـل إلى الأردن وأقـام هـو وأسرتـه فيهـا، وكان أولاده صغـارًا.

أقمنـا بيـت العـزاء ثلاثـة أيـام، ولم يكـن للمعزيـن حديـث إلا حديـث الحـرب المقبلـة وكانـت الأهـواء كلهـا مـع العـراق ضـد الولايـات المتحـدة وحلفائهـا. شـاهدنا ونحـن في

بيت العزاء الدبابات الإسرائيلية في أرض تقع إلى الجنوب من جالود، إنها مناورات استعدادًا للحرب القادمة.

كانت تلك الأيام أيام بؤس للمواطنين غير مسبوق، لا عمل ولا مصدر دخل للناس وهم يترقبون الأسوأ.

بعد أيام ابتدأ الفصل الدراسي الثاني ولم يبق على موعد السابع عشر من كانون ثان إلا خمسة أيام، كان الناس مشغولين بتخزين المؤن وفق ما تسمح به إمكانيات كل منهم، كما كانوا مشغولين بتجهيز الغرف المحصنة من تسرب الغازات القاتلة إذا وقعت الحرب الكيماوية الموعودة. كانت التعليمات والنصائح أن تختار كل أسرة غرفة من البيت تكون داخلية، أي؛ لا ترمي نوافذها إلى الشارع إذا توفرت، وقد توفرت عندنا غرفة الضيوف ونوافذها ترمي إلى زقاق متفرع عن الشارع الرئيس، شارع صلاح الدين، ثم ينبغي أن يصار إلى مشمعات النايلون فيغطى كل شباك بقطعة كاملة كي لا يكون ثمة أمكانية لتسرب الغاز من بين مفاصله ويثبت النايلون بالشريط اللاصق، وكان التلفزيون الإسرائيلي يعطي برامج حول تطبيقات عملية لتحصين الغرفة، أما باب الغرفة فيوضع له المشمع وبالتالي تغطى مفاصله، ولكن تبقى إمكانية فتحه وإغلاقه حتى إذا انطلقت صفارة الإنذار بوقوع هجوم صاروخي، دخل الجميع الغرفة المحصنة، وأغلقوا الباب وأوثقوا الغطاء بالشريط اللاصق، ولا يجوز لهم أن يفتحوا الباب بأي شكل من الأشكال، من المحظور تمامًا أن يفتح أحد الباب الرئيس المفضي إلى الخارج، وإذا صدف أن أحد أفراد الأسرة كان في الخارج أثناء وقوع الهجوم الكيماوي، ثم طرق الباب، فينبغي ألا يُفتح له الباب، بل يُترك لمصيره، فإن موت واحد أهون من موت الأسرة بكاملها فيما لو فُتح الباب.

ينبغي أن يكون في كل بيت راديو مجهز بالبطاريات، تحسبًا لانقطاع التيار الكهربائي ومن أجل سماع التعليمات أولًا بأول، خاصة تعليمات إخلاء المصابين، وكنا نحمل التعليمات كلها على محمل الجد، لقد تعطلت الراديو التي عندنا، فلم يكن من شراء راديو بد، وقد ارتفعت أثمان مشمعات النايلون ارتفاعًا جنونيًا، ولقد استغنى من التجار كل من كان يملك كمية وافرة منها ولقد حصنا الغرفة التي قررنا تحصينها.

بقي على الموعد المحدد يومان ولم يكن للجميع هم ولا حديث إلا حديث الحرب القادمة والأمل في القضاء على الدولة العبرية، ومما يؤسف عليه أن قائد الشعب الفلسطيني، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أبو عمار، لم يكن أعمق فكرًا ولا أبعد نظرًا من أي مواطن آخر، لقد صدّق وعود صدام بقرب التحرير، وصدق عليه المثل القائل: الكذاب خرّبَ بيت الطماع.

في اليوم أو اليومين السابقين لموعد الحرب التي سمتها العراق أم المعارك، كثر التنبيش عن التنبؤات الدينية الموجودة في كتب قديمة التي تتحدث عن أحداث مستقبلية، منها ما يتطابق مع واقع الأحداث الراهنة ومنها ما يجري تلبيسه للأحداث الراهنة تلبيسًا.

فمن النوع الأول ما نشرته صحيفة القدس من عبارة واردة في الجفر (هو كتاب تنبؤات منسوب إلى الإمام عليّ) تقول إن تحالف الأعداء سيجتمع على رجل اسمه صادم وسيفرض حصار على العراق فيُمنعون القفيز والدرهم (أي تحجب عنهم كل السلع سواء منها ما يكال بمكيال أو يوزن بميزان). ولا تنص هذه النبوءة على أن النتيجة ستكون نصرًا لـ(صادم) إلا أن الناس قرروا النتيجة التي يريدونها وهي نصر صدام الذي أصبح مسلمًا بين عشية وضحاها وكان قبل ذلك يقاطع منظمة المؤتمر الإسلامي؛ لأنه لا يؤمن بالرابطة الدينية، وقد بادر إلى شن حرب على إيران عندما أعلنت أنها جمهورية إسلامية، وكان قبل قيام الجمهورية الإسلامية يقيم علاقات جوار طيبة مع شاه إيران.

وليدلل على أنه أصبح ذا توجه إسلامي كتب على العلم العراقي عبارة (الله أكبر) فرفعه الناس إلى درجة مؤمن بل إلى درجة صدّيق عند بعضهم، خاصة وهم يستمعون إلى دروس وخطب المرحوم إبراهيم زيد الكيلاني من الجامع الحسيني في عمان، الذي كان يقسِّم الناس إلى خيرين وشريرين، أما الخيرون فزعيمهم صدام وأما الشريرون فهم بطبيعة الحال الولايات المتحدة ومن سار في ركبها. ويبشر بالنصر القادم (من تلقاء بغدانِ).

ومـن الأمـور العجيبـة قصيـدة انتـشرت بـين النـاس في ذلـك الوقـت وزعمـوا أنهـا قديمـة، ونسـبوها إلى شـخص اسـمه محمـد بـن عقـب يقولـون إنـه معلـم الحسـن والحسـين وهـي طويلـة تتحـدث عـن كبـار الأحـداث المنتظـرة، والـذي شـاع بـين النـاس مـن أبياتهـا هـو مـا يبـدو أنـه يشـير إلى حـرب التحالـف الـدولي عـلى العـراق والتـي أصبحـت قـاب قوسـين أو أدنـى وتحـدد يـوم الثلاثـاء موعـدًا لتلـك المعركـة، وهـو موعـد حـدده جـورج بـوش الأب حـين قـرر أن الهجـوم سـيكون في السـابع عـشر مـن كانـون ثـان. تقـول القصيـدة:

ومختلفـــات رايـــات ثـلاث	عـن الدنيـا مقارنـة الـزوال
فتركـي ورومـي ومـصري	ملـوك الأرض كاسرة الفعـال
يكـون لقاؤهـم يـوم الثلاثـا	صـلاة الفجـر ملتحـم القتـال
ستظهر مـن علـوج الـروم عنهـا	ويرتفـع الصليـب عـلى العـوالي

والأبيـات في رأي بعـض الباحثـين ملفقـة ومنسـوبة إلى محمـد بـن عقـب زورًا كـما أنهـا لا تبـشر بالنـصر الـذي يريدونـه كـما توهمـوا، بـل إن البيـت الأخـير منهـا ينبـئ بنـصر جبهـة الرومـان وارتفـاع رايـة الصليـب إلا أن جماهـير النـاس حـددت النتيجـة التـي تحلـم بهـا وهـي نـصر العـراق؛ إذ كان كثـير مـن النـاس مبهـورًا بـما فعلـه صـدام باحتلالـه الكويـت وكانـت تغـذي مشـاعرهم هـذه تنبـؤات مشـايخ الإخـوان في الأردن حـول نـصر مؤكـد لصـدام المؤمـن، وكان الإخـوان قـد دخلـوا في حلـف مـع الحكومـة الأردنيـة واشـتركوا في وزارة مـضر بـدران بخمسـة وزراء، وكانـت الحكومـة الأردنيـة شـأنها شـأن منظمـة التحريـر الفلسـطينية، تقـف مـع العـراق في هـذه الحـرب.

وحـددت نبـوءة أخـرى موعـد الحـرب عـلى العـراق تكـون بـين جمـادى ورجـب، وبالفعـل كان يـوم السـابع عـشر مـن كانـون ثـانٍ في 1991 يوافـق آخـر يـوم مـن جمـادى الآخـرة والأول مـن رجـب، وشـاعت في ذلـك الوقـت قصيـدة منسـوبة إلى الصـوفي الشـهير ابـن عـربي تتحـدث عـن أحـداث جسـام طبقهـا النـاس عـلى مجريـات تلـك الحـرب التـي أطلقـوا عليهـا «حـرب الخليـج الثانيـة» واعتـبروا ذلـك مـن أشراط السـاعة الكـبرى وأن الدجـال أصبـح عـلى وشـك الخـروج، تقـول الأبيـات:

إذا اتحد اليهود مع النصارى وطاروا بالحديد إلى البروج
ونار في الخليج لها سعير وحكم في الحجاز على العلوج
وفي حرب الكواكب سوف تفنى عواصمهم على زيت الخليج
ويأجوج ومأجوج فقاموا وصاحوا يا بحار الدم موجي
فقل للأعور الدجال هيا فقد آن الأوان إلى الخروج

ولولا أن هذه الأبيات انتشرت قبل أن يقدم صدام حسين على إشعال آبار النفط الكويتية، لقلت إنها من وضع أحد الكذابين، على كل حال كان الناس لدى اقتراب الموعد الذي حدده بوش لبدء الهجوم على العراق يعيشون في حمى التوقعات خاصة ما ينسب منها إلى كتب القدماء وقد أطلقوا العنان لأخيلتهم كي تتصور نصرًا سيجيء به صدام التكريتي إلا أن أحلامهم كانت تصدم بتعليقات من الإذاعة الإسرائيلية يرون فيها واقعًا منطقيًا لا يتلاءم مع أوهامهم.

في أحد تعليقات الإذاعة الإسرائيلية أعادت مقطعًا من خطبة للمرحوم إبراهيم زيد الكيلاني، يدعو فيها على التحالف الغربي اليهودي: اللهم يتِّم أطفالهم ورمل نساءهم، اللهم أهلكهم كما أهلكت عادًا وثمود، اللهم أحصهم عددا، ومزقهم بددا ولا تبق منهم أحدا.

وكان تعليق المذيع الإسرائيلي موجهًا إلى الكيلاني: ما مكانتك عند ربك حتى يبيد من أجلك جميع هذه الشعوب المؤمنة؟

لقد كان التعليق طريفًا ولاذعًا وتندر به كثير من الناس عندنا وقد وقر في أذهانهم أن دعوة الخطيب ما هي إلا دليل ضعف الأمة وعجزها حتى تلجا إلى الدعاء لله بإبادة شعوب بأكملها، كما أنها تدل على التخلف في مجالي الدعوة والإعلام، فهم بمثل هذه الروح الاستئصالية يقدمون لليهود مادة يحسنون استغلالها إعلاميًا في العالم الغربي الذي يريد الحكام العرب أن يستدروا عطفه عليهم ويستثيروا غضبه على إسرائيل، ولكنهم يصورون أنفسهم من خلال خطباء المساجد السذَّج بصورة الهمج المتعطشين إلى دماء أمم العالم المتحضر والمفتقرين إلى أية مشاعر إنسانية وهم يبتهلون بتيتيم الأطفال وترميل النساء. لقد أصبحت هذه الأدعية نهجًا عند بعض المشايخ

وهـو نهـج لا يستسـيغه ذوو الـذوق السـليم.

وفي المعـرض نفسـه تعليـق آخـر للإذاعـة الإسرائيليـة تناقلـه النـاس لما فيه مـن واقعية تتناقـض مـع الأوهـام التـي وقـع النـاس ضحيتهـا، وجـاء في التعليـق: مـن أيـن سـيأتي صدام بالسـلاح الـذي سـينتصر بـه عـلى أمريكيـا؟ هـل سـيخرجه مـن تحـت كمـه؟ إننـا لا نريـد لك أن تقـع في اليـأس والقنـوط عندمـا تظهـر الحقيقـة وتنتهـي المعركـة.

في يـوم الاثنين، قبـل المعركـة بيـوم واحـد، كان الجـو شـتويًا مكفهـرًا وقد ملـك أفكار النـاس ومشـاعرهم هـول مـا ينتظرهـم وينتظـر المنطقـة كلهـا، مـن حـرب ضروس أصبحت عـلى الأبـواب ولا يعلـم مداهـا إلا الله، صلينـا العـصر في مسـجد الحـاج معـزوز، ثـم وقـف طبيـب يرشـد النـاس إلى الإسـعافات الأوليـة في حالـة الطـوارئ، وركـز الطبيـب في محاضرته عـلى ضرورة أن يلتـزم النـاس الهـدوء في حالـة وقـوع غـارات جويـة وأن يتحصنـوا في الغرف المغلقـة إذا وقـع هجـوم بالغـاز السـام وأنـه لا داعـي لاسـتخدام الهاتـف في مثـل هـذه الحالـة، فطواقـم الإخـلاء سـتأتي مـن غـير دعـوة وسـيكون الإخـلاء حسـب الأولويـة التـي تحددهـا الجهـات الصحية المسـؤولة.

بـات النـاس تلـك الليلـة وهـم يترقبـون انتصـاف الليـل إذ سـتنتهي المهلـة التـي حددهـا جـورج بـوش وسـتبدأ بالتـالي الغـارات الجويـة والمعـارك البريـة، وجـاء منتصـف الليـل وأُعلـن عـن شـن غـارات جويـة لقـوات التحالـف ثـم بعـد ذلـك بفـترة بـدأت الحرب البريـة.

كانـت وسـائل الإعـلام العراقيـة ومـن يقـف معهـا كالأردن ومنظمـة التحريـر الفلسـطينية تبـشر بـأم المعـارك وبالمنازلـة مـع أعـداء الله، أعـداء الأمـة، أعـداء فلسـطين. في تلـك الليلـة فـرض منـع التجـول عـلى الضفـة الغربيـة، وقـضى المواطنـون أيـام الحـرب الأولى في بيوتهـم وكان هـذا أمـرًا مريحًـا، فهـم يسـمعون بالـشر ولا يرونـه بـأم أعينهـم، بـل يتفرجـون عليـه عـلى شاشـات التلفزيـون، اللهـم إلا أن عـددًا مـن الصواريـخ التـي اسـتطاع العـراق إطلاقهـا عـلى الإسرائيليـين مـرت مـن سـماء نابلـس وكان المواطنـون يقفـون لهـا مهللـين، وقـد اتضـح منـذ بدايـة الاشـتباكات أن الصواريـخ العراقيـة غـير مجهـزة بأسـلحة كيماويـة،

وأن تهديد صدام بحرق نصف إسرائيل كان كلامًا للتهويل صادرًا عن حاكم لا يخضع للمساءلة.

في البداية حقق الجيش العراقي بعض الإنجازات وأسقط عددًا من طائرات التحالف وعرض بعض الأسرى على شاشة التلفزيون واحتجت قوات التحالف باعتبار أن اتفاقيات جنيف المتعلقة بالأسرى تمنع الدولة الآسرة من عرضهم أمام الناس بأية وسيلة كانت. إلا أن اختلال التوازن كان أكبر من أن تتغلب عليه بعض البطولات المتفرقة.

بدأت القوات العراقية تنفذ انسحابًا من الكويت غير منظم وغير معلن وغير متفق عليه مع قوات التحالف الدولي، فصارت طائرات التحالف تغير على القوات المنسحبة وتدمرها تدميرًا لا يبقي ولا يذر.

كانت بداية الإقرار الرسمي العراقي بالهزيمة إعلانهم أنهم يواجهون بأسلحة غير مطورة جيوشًا أسلحتها مطورة، وجاء ذلك على أثر قصف ملجأ العامرية الذي كان بالغ التحصين ومع ذلك اخترقته قنابل مخصصة لاختراق التحصينات أُطلقت من طائرات أمريكية، وأخيرًا وبعد أن لم يبق من فلولهم في الكويت إلا القليل قام العراقيون بإحراق آبار النفط الكويتية وطلبوا وقف إطلاق النار ففرض عليهم مجلس الأمن الدولي أربعة عشر شرطًا وافقوا عليها كلها، فخرجت العراق من المعركة ممزقة مهزومة محاصرة وقد ملأت جثث أبنائها الصحراء.

انتهت الحرب في 28/ 02/ 1991 وبدأ تقويم الأحداث وكان من الطبيعي أن تكون خيبة الأمل أكبر عند من كانوا يعلّقون آمالًا حقيقية على صدام ويعتقدون بفطرتهم البسيطة غير التحليلية أن صدامًا الذي أراق أنهارًا من الدماء التي حرمها الله قد تاب وأصبح مؤمنًا بدليل أنه ألصق على علمه عبارة: الله أكبر، وأصبح نصره حقًا على الله.

لقد تبين للجميع أن ذلك الرئيس لم يكن سوى مغامر فهم الأمور بطريقة خاطئة وظن أن خدمته للغرب بشنه الحرب على الجمهورية الإسلامية ستجعل الغرب

ممتنًا لـه إلى حـد أنـه سيسـامحه في ضمـه للكويـت، وبـما أن أحـدًا مـن مستشـاريه أو قادتـه العسـكريين لا يسـتطيع أن يـدلي بـرأي مخالـف لـرأي الدكتاتـور إلا إذا كان مسـتغنيًا عـن رقبتـه، فقـد اضطـر جميـع مـن حولـه إلى الدفـاع عـن مغامرتـه غـير المدروسـة.

انتهـت المعـارك ووقعـت أكـبر التبعـات عـلى الشـعب العراقـي الـذي فقـد أبنـاءه وفُـرض عليـه حصـار شـامل فـكان عليـه أن يتضـور جوعًـا ولم يجـد جهـة تمـده بالطعـام وأنـواع السـلع الضروريـة إلا بالتهريـب. وظـل هـذا الشـعب المبتـلى ينتقـل مـن حالـة سـيئة إلى حالـة أسـوأ إلى يومنـا هـذا.

كانـت الانتفاضـة الفلسـطينية في تلـك السـنة (1991) لا تـزال قائمـة، ولكنها كانت تتحـول منـذ سـنوات ماضيـة إلى عـبء عـلى كاهـل الشـعب، وبعـد انتهـاء معركـة اسـتعادة الكويـت، اختفـى بريـق الانتفاضـة الـذي ظـل لسـنوات مصـدر حمـاس أنصـار القضيـة الفلسـطينية في كل مـكان، وكان الشـيخ القطـان في الكويـت، يـكاد يقـصر خطبـه عـلى الإشـادة ببطولـة الشـعب الفلسـطيني المنتفـض في وجـه الاحتـلال والتنويـه بجبـن الحـكام العـرب وتخاذلهـم والدعـوة عـلى الأعـداء والمقصِّريـن أن يمسـخهم الله حجـارة يتلعّـب بهـا الأولاد في الطرقـات وأن يكتـب النـصر للشـعب الفلسـطيني.

كان هـذا الحـماس للانتفاضـة ظاهـرة بـارزة في دول الخليـج وخاصـة في الكويـت، وذلـك قبـل غـزو الكويـت، ومنـذ أن بـدأت بـوادر الأزمـة بـين العـراق والكويـت وصـار صـدام يطلـب بـين الحـين والآخـر مبلـغ عـشرة مليـارات دولار مـن الكويـت وصـار عرفـات هـو مرسـال صـدام إلى الكويـت ينقـل إليهـم التهديـدات ويعمـل عـلى إقناعهـم بالاسـتجابة لمطالبـه كـي يتقـوا غضبـه، بـدأ التحـول عـن الانتفاضـة الفلسـطينية، باعتبـار أن الفلسـطينيين أصبحـوا أدوات لصـدام حسـين، ثـم لمـا وقـع الاحتـلال العراقـي للكويـت أبـدت منظمـة التحريـر وأبـدى الشـعب الفلسـطيني عمومًـا تعاطفًـا واضحًـا مـع صـدام حسـين وتأييـدًا للاحتـلال العراقـي للكويـت ظنًـا منهـم أن صدامًـا سـيجابه أمريـكا وسـيحرق إسرائيـل كـما وعـد، وكانـت مكافـأة الجيـش العراقـي للجاليـة الفلسـطينية في الكويـت أن منحهـا رعايـة خاصـة وصـار للفلسـطينيين حريـة التنقـل في الكويـت بدرجـة لم تكـن لغيرهـا، وفي الشـعب

الفلسطيني لصوص وضعاف أنفس كثيرون، ثم إن الشعور بمذلة التمييز الذي كانوا يواجهونه طيلة السنين السابقة ولد لديهم شعورًا بأن قد حانت فرصة الانتقام فصار كثيرون من الفلسطينيين في الكويت يمدون أيديهم إلى ممتلكات الشعب الكويتي الذي هربت نسبة كبيرة منه إلى السعودية، فكانت فترة وجود القوات العراقية في الكويت فترة نهب وسلب لأملاك الكويتيين في متاجرهم وحتى في منازلهم التي كثر اقتحامها من قبل لصوص من جميع الجنسيات ممن ظلوا في الكويت أثناء الاحتلال، ولكن، بما أن الفلسطينيين كانوا العدد الأكبر وأن الذين مارسوا النهب والسلب كان أكثرهم منهم فقد نُسبت كل هذه الأعمال للفلسطينيين حتى عُدوا المستفيد الأكبر مما جرى في الكويت، فكتبت إحدى الصحف المصرية مقالًا عنوانه بالخط العريض: العراقيون احتلوها والفلسطينيون أكلوها.

وعندما بدأت حرب الحلفاء على الوجود العراقي في الكويت واستمرت اثنين وأربعين يومًا وكان كثير من الفلسطينيين قد أظهروا الاشتفاء بما جرى للكويتيين المتعجرفين. وبعضهم اشترك فيما عُرف بالجيش الشعبي الذي أنشأه المحتل العراقي ليكون ميليشيا مساندة للجيش وتبين أن مجرى الحرب لا يبشر بخير بالنسبة للعراق وأنصارها، بدأ نزوح العائلات الفلسطينية بعشرات الآلاف إلى الأردن التي يحملون جنسيتها، ولم تكن الأردن حكومة ولا شعبًا مرحبة بهؤلاء الوافدين الذين لم ينظر إليهم شعب شرق الأردن بعين الرضا وهم في حالة الازدهار، فكيف وهم قادمون مطرودين من أعمالهم ليزيدوا عدد الجالية الفلسطينية في هذا البلد الذي يعيش على المساعدات ويفتقر إلى كل شيء بما في ذلك الماء.

كان من جملة من بكّروا في الخروج إلى الأردن ابن عمتي محمود عبد الله وعائلته، وكان قد استأجر دارًا في رحلة تمهيدية إلى الأردن، عاد بعدها إلى الكويت واستأجر شاحنة حمل فيها ما عنده من أثاث وحمل أهله وتوجه إلى الدار التي استأجرها. وقفت الشاحنة بباب الدار وشرع في تفريغها وما هي إلا لحظة حتى خرج إليه جاره الأردني واشتبك معه في عراك متهما إياه بالتعدي على حرمة بيته، وكانت معركة ضارية تعرض فيها محمود إلى عضة من جاره وبعد أن خلص نفسه وتوجه إلى الشرطة تبين له أن أذنه

تنـزف، ومـد يـده إليهـا فوجـد أن حلمـة أذنـه ليسـت في محلّهـا، لقـد قضمهـا جـاره أثنـاء العـراك، فعـاد مسرعًـا إلى أرض المعركـة فوجدهـا، فأخذهـا وطـار بهـا إلى الطبيـب فأعـاد وصلهـا وخاطهـا، ثـم كانـت الدعـوى وكانـت المحكمـة، فسـأل القـاضي ذلـك الشـاب الأردني عـن اسـمه وسـنه طبعًـا، ثـم سـأله: مـا مهنتـك؟ فقـال: مهنـدس. قـال لـه القـاضي: أنـت مهنـدس؟ لعـن الله مـن أعطـاك الشـهادة.

ولكـن مـا لقيـه الفلسـطينيون الذيـن بقـوا في الكويـت إلى مـا بعـد عـودة الكويتيـين في شـهر آذار كان الأشـد، كانـوا يسـمعون شـتائمهم ولا يملكـون إلا السـكوت. فكثـيرًا مـا كانـوا يسـمعون في التلفزيـون الكويتـي عـن «الشـحادين» الـذي عضـوا يـد الإحسـان والمقصـود بهـم الفلسـطينيون، وكان الكويتيـون كثـيرًا مـا يقولـون على مسـامع الفلسـطينيين: إنهـم يسـتحقون الـضرب بالنعـال.

كان مـن جملـة المغادريـن بعـد التحريـر رجـل مـن قريتنـا يعمـل مراقبًـا في شركـة ببـسي كـولا في الكويـت، وعـلى الحـدود سـأله الموظـف الكويتـي بعـد أن رأى جـواز سـفره: أنـت فلسـطيني؟ قـال لـه: نعـم. فقـال لـه: واللعنـة. فقـال لـه الفلسـطيني ظنًـا منـه أن ذلـك سيحسّـن موقفـه: أنـا أردني ولكـن مـن أصـل فلسـطيني. فقـال لـه: واللعنتـين.

وكثـيرًا مـا تعرضـوا إلى الـضرب والإهانـة، وكان الجيـش العراقـي عندمـا انسـحب مـن الكويـت قـد تـرك قوائـم أسـماء مـن سـجلوا في الجيـش الشـعبي ولم يتلفهـا، وكان جلهـم مـن الفلسـطينيين، وكثـير منهـم هـرب مـن الكويـت قبـل خـروج الجيـش العراقـي ولكـن آخريـن ظلـوا هنـاك مفترضـين أن الجيـش العراقـي حمـل معـه قوائـم أسـمائهم أو عـلى الأقـل؛ أتلفهـا، هـؤلاء اعتقلهـم الجيـش الكويتـي ونـكل بهـم، ثـم طردهـم مـن أرضـه مـن غـير أيـة تعويضـات إلا أنـه كانـت أعـداد مـن الفلسـطينيين يعملـون مـع المقاومـة الكويتيـة، وهـؤلاء نالـوا الاحـترام لـدى عـودة الكويتيـين وحفظـت لهـم وظائفهـم وبقيـة حقوقهـم.

إن ممـا خفـف عـلى الفلسـطينيين المطروديـن إلى حـد مـا أن الكويـت لم تظلمهـم حقوقهـم، فدفعـت للموظفـين مجمـوع الرواتـب التـي تعطلـت مـع مكافـأة إنهـاء الخدمـة وفـق مـا ينـص عليـه القانـون، وهـذا أدى إلى انتعـاش مؤقـت أعقبـه فقـر وبطالـة، إلا أن

نسبة من الفلسطينيين عادوا بثراء وهؤلاء هم من تمتع بحياة هانئة مستقرة، والذين أسعفهم الحظ من الفلسطينيين في تلك الفترة هم الذين كان لديهم مواطنة في الضفة الغربية، فهؤلاء عادوا إلى قراهم ومساكنهم ليعيشوا كما يعيش بقية أبناء شعبهم.

في هذه الأثناء تعرفت على شباب من الجهاد الإسلامي يدرسون في جامعة النجاح وكان سروري عظيمًا بالتعرف على التنظيم الذي أتوق إلى معرفته وإلى خدمته بكل ما أوتيت من قوة.

في هذه السنة وبعد انتهاء حرب الخليج الثانية دعت الولايات المتحدة إلى مؤتمر مدريد، وبدلًا من أن ترفض منظمة التحرير حضور المؤتمر الذي يعتبر مجرد حضوره اعترافًا بإسرائيل وبدلًا من أن يكون لها _على الأقل_ شروطها لحضور المؤتمر، أبدت تهالكًا على الحضور وبالشروط التي تفرضها الولايات المتحدة وإسرائيل، وكانت إسرائيل هي التي تفرض شروطها ومنها أن يكون الفلسطينيون جزءًا من الوفد الأردني. لقد كانت نهاية حرب الخليج الثانية بداية الانبطاح الفلسطيني والعربي الذي لا حدود له، بحجة أن الاتحاد السوفيتي الذي كان يدعم الشعب الفلسطيني قد سقط وأن الولايات المتحدة أصبحت المتنفذ الوحيد في العالم. قال وزير الخارجية الأمريكية وقتها، تعقيبًا على بعض التمنع الفلسطيني في البداية: إن قطار الشرق الأوسط قد انطلق ومن لا يركبه الآن سيكتشف أنه ضيع على نفسه فرصة أن يشارك في صنع الأحداث، وإن الفلسطينيين إذا شاركوا في المؤتمر سيكونون الرابح الأكبر، وإذا لم يشاركوا فإنهم سيكونون الخاسر الأكبر.

واشترطت إسرائيل _وكان رئيس وزرائها في ذلك الوقت إسحق شامير_ ألا تطرح مسالة القدس على طاولة المفاوضات. وكتب المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد مقالًا نصح فيه منظمة التحرير ألا تحضر المؤتمر بالشروط الأمريكية الإسرائيلية وألا تفرط في حقها في بحث قضية القدس، وأن تطلق حملة إعلامية حول القدس المحتلة وتذكّر الولايات المتحدة بمواقف ساستها ومواقف رؤسائها السابقين من هذه المسألة وكلهم يرفض ضم القدس الشرقية ولا يعترف بما قامت به إسرائيل في هذا المجال.

وجاء في المقال، مخاطبًا الفلسطينيين: قولوا للولايات المتحدة: اذهبوا واعقدوا المؤتمر في غيابنا وسنرى جميعًا إن كان المؤتمر سينعقد أو سيكون له أية نتيجة إن انعقد في غيابنا.

لم تسمع منظمة التحرير مثل هذه النصائح الثمينة، لقد اتخذ عرفات ومن يدور في فلكه قراره بالسعي إلى إقامة دولة فلسطينية في الضفة وغزة، وفي سبيل ذلك أن يسير في ركب الولايات المتحدة التي هي الجهة الوحيدة التي تستطيع إقامة تلك الدولة.

وانعقد المؤتمر وحضره الفلسطينيون ضمن الوفد الأردني وحضره شامير تحت ضغط الولايات المتحدة، وبعد احتفال الافتتاح أنشئت لجان للتفاوض وتضم كل لجنة فلسطينيين وإسرائيليين وراعين أمريكان أو دوليين من جنسيات أخرى بحسب أهمية اللجنة. وتوزعت أماكن انعقاد اللجان بين أوروبا وأمريكا ودول أخرى، واكتسى عدد من الفلسطينيين ثوب فخار عنوانه: عضو الوفد المفاوض.

كان شتاء 1991/ 1992 مميزًا بكثرة أمطاره وثلوجه، فكان مناقضًا للشتاء السابق. لقد تراكمت الثلوج في مناطق بلاد الشام ومنها فلسطين ثلاث مرات، وكانت «الثلجة» الوسطى أعظمها، فقد اكتسى الغور كما اكتست صحراء الأردن بطبقة كثيفة من الثلج واستمرت أيامًا عديدة. في تلك السنة تجاوزت كمية الأمطار ألف ملم وهذا من النوادر في بلادنا.

في صيف 1992 تفاقمت المشكلة الاقتصادية عند الناس، فالبطالة بلغت ذروتها، وعلى الصعيد السياسي استمرت المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين وفق ما قرره مؤتمر مدريد وقد قاطعتْها وشجبتْها كل من حركة الجهاد الإسلامي وحركة المقاومة الإسلامية حماس والجبهة الشعبية والجبهة الشعبية القيادة العامة، فكان المشاركون فيها هم بشكل رئيس حركة فتح وتنظيمات أخرى واقعة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية كالجبهة الديمقراطية وحركة فدا وحزب الشعب وتنظيمات أخرى أقل شأنًا.

اتحاد المعلمين

ذات يـوم في صيـف تلـك السـنة جـاءني بعـض الزمـلاء الأصدقـاء الذيـن كانـوا ناشـطين في اللجنـة اللوائيـة للمعلمـين أثنـاء إضراب سـنة 1980، فقالـوا: إن رئيـس اتحـاد المعلمـين يريـد أن يتعـرف عليـك وهـو بالتـالي راغـب في زيارتـك.

قلـت باسـتغراب: وهـل ثمـة اتحاد للمعلمـين في الأرض المحتلـة؟ فإن اتحاد المعلمين موجـود في الشـتات ويتبـع منظمـة التحريـر ويرأسـه جميـل شـحادة عضـو الجبهـة العربيـة الفلسـطينية ثـم أمينهـا العـام وعضـو المجلس المركـزي لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية.

قالـوا: نعـم هنالـك اتحـاد للمعلمـين في الضفـة والقطـاع يرأسـه الأسـتاذ محمـد صـوان.

قلـت لهـم: مـن أيـن الأسـتاذ صـوان؟ قالـوا: مـن القـدس ويعمـل مدرسًـا في إحـدى المـدارس العربيـة هناك.

قلت: أين كان الأستاذ صوان أثناء إضراب المعلمين؟ فإنني لم أسمع باسمه من قبل.

قيـل: كان في السـجن في ذلـك الوقـت. فرحبـت بزيارتـه وأبديـت اسـتعدادي مـن غـير تـردد للعمـل ضمـن اتحـاد المعلمـين هـذا.

كان افـتراضي أنـه اتحـاد يهـدف فقـط إلى خدمة المعلمين وليـس له ارتباطات سياسـية، كما كان الحال بالنسبة للجنة العامة للمعلمين في مطلع الثمانينات، فإننا في ذلك الوقت، كان لـكل منا ارتبـاط سياسي إمـا بفتـح كـما كان كاتـب هـذه الأسـطر في ذلـك الوقـت، أو بالجبهـة الشـعبية أو الحـزب الشـيوعي أو الإخـوان المسـلمين أو الاتجاه الإسـلامي المسـتقل إلا أننـا أكدنـا للمعلمـين أن العمـل النقـابي لـن يكـون مسـخّرًا سياسـيًا لأحـد ووفينـا بالوعـد. حصـل مـرة أن بعـض ناشـطي اللجنـة العامـة واللجـان اللوائيـة وأذكر منهـم سـمير عمـرو مـن الخليـل وعبـد العزيـز حنايشـة مـن قباطيـة، أن أصـدروا بيانًـا يتعلـق بشـأن مـن شـؤون المعلمـين وضمنـوه مواقـف سياسـية، وكنـا وقتهـا نعمـل في تصحيـح أوراق امتحـان التوجيهـي وجاءنـا مـن يخبرنـا بالأمـر، فانطلقـت وآخريـن أذكـر منهـم الآن الزميـل فضـل

الريماوي من رام الله الذي كان فتحاويًا مثلي وكان هو أيضًا شديد الالتزام بكلمته، فاستأذنا من رئيس لجنة التصحيح وظللنا وراء الموضوع حتى أوقفنا توزيع البيان الذي كان لا يزال مجرد مسودة.

وحصل مرة أخرى أن اجتمعنا في القدس لنبحث في أمر تعيين يوم انتفاضة المعلمين ليكون يوم عيد للمعلم الفلسطيني، وكنا استخدمنا هذا المصطلح قبل سبع سنوات من انطلاق الانتفاضة الفلسطينية الأولى، فإذا ما يشبه الأوامر تأتينا من منظمة التحرير الفلسطينية بأن نعتمد يوم الحادي والعشرين من آذار الذي اعتمدته هي، وجاءنا في الوقت نفسه تأكيد من الجبهة الشعبية على ذلك الموعد وتهديد صريح لمن يفكر في اختيار موعد آخر، فحسمنا الأمر بسرعة وقررنا أن نعتمد يومًا غير ذلك اليوم، وكان أول إضراب تجريبي للمعلمين قد نفذ في ألوية الجنوب على نطاق محدود يوم 14/ 12/ 1980، فقررنا أن يكون يوم 14/ 12 يوم المعلم الفلسطيني تجري فيه الاحتفالات وتلقى فيه الكلمات في المدارس.

ظننت أن اتحاد المعلمين يتبع الطريقة نفسها ويعمل على خدمة المعلمين ولا يزج بهم في مستنقع الخلافات السياسية لذلك رحبت به وأبديت استعدادًا فوريًا للانضمام إليه.

زارني الأستاذ محمد صوان مع عدد من أصدقائي أعضاء لجنة نابلس للاتحاد والذين كانوا فيما مضى أعضاء اللجنة اللوائية للمعلمين. ورأيته رجلًا في مثل سني، طموحًا نشيطًا. وقررنا في هذه الجلسة تفعيل عمل لجنة نابلس التابعة لاتحاد المعلمين ووافقت على أن أكون فاعلًا في الاتحاد، وصارت الاجتماعات بعد ذلك تُعقد في بيتي، ولم يكن أعضاء اللجنة منتخبين من المعلمين مثلما كان أعضاء اللجان اللوائية واللجنة العامة في انتفاضة المعلمين الأولى بل كانوا مجموعة من الانتماءات السياسية المتعددة قد تم التأليف بينهم على أساس المحاصصة بين فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وكنت الوحيد الذي انتمي إلى تنظيم معارض وأجاهر بقوة بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تعد ممثلًا شرعيًا للشعب الفلسطيني.

كانت منظمة التحرير غارقة في مفاوضات في ذلك الوقت أنتجها مؤتمر مدريد. والمفاوضون يشكلون لجانًا فيها فلسطينيون وإسرائيليون وأمريكان وجنسيات أخرى متعددة، وأصبح عندنا في فلسطين طبقة من المثقفين الذين أصبح لهم دور قيادي بتمثيلهم للجانب الفلسطيني في المفاوضات وأصبح الواحد منهم يُعرف بعضو الوفد المفاوض ويشعر أنه لقب فخر يعطيه مزيدًا من الاعتبار في المجتمع. وكان في اتحاد المعلمين الذي يجري إنشاؤه اثنان من أعضاء الوفود المفاوضة أحدهما ينتمي إلى الجبهة الديمقراطية والثاني إلى فدا، وكان من المقربين من فتح أو لنقل: أعضاء في فتح رئيس الاتحاد محمد صوان وأعضاء اللجنة التأسيسية التي تغطي كافة المناطق في الضفة وغزة، ومنهم في نابلس مالك مرمش، وهو زميل وعضو اللجنة اللوائية واللجنة العامة في قيادة الإضراب التي نشأت مطلع الثمانينات.

كان الوفد الفلسطيني وخاصة في اللجنة السياسية يرى من صلف المفاوض الإسرائيلي ما يثير مشاعر الغضب، فبلغ شعور منظمة التحرير بالإهانة مبلغ أن قررت وقف المفاوضات في إحدى الجولات، فانطلقت أَلْسُن أنصارها تلهج بالتأييد والإشادة بالموقف الشجاع الذي اتخذه أبو عمار، وكما نرى في أيام كتابة هذه المذكرات مِن تمنُّع لأبي مازن يعقبه انصياع، انصاع أبو عمار للضغوط المختلفة فقرر العودة إلى المفاوضات من غير أن يحصل على شيء، فانطلقت الألْسُن التي أشادت من قبل بالامتناع عن مواصلة التفاوض، تشيد بالقرار الحكيم بالعودة إلى المفاوضات، وكانت دهشتي كبيرة عندما رأيت اسم اتحاد المعلمين بنابلس من جملة الموقعين على إعلان تأييد للأخ القائد لقراره العودة إلى المفاوضات، كنت حتى تلك اللحظة أعتقد أن اتحاد المعلمين لا ينخرط في السياسة حفاظًا على تمثيله لجميع المعلمين على اختلاف مواقفهم السياسية كما كانت لجنة قيادة الإضراب في مطلع الثمانينات، فإذا الأمر هذه المرة مختلف. التقيت برئيس اللجنة اللوائية وسألته هل قرأ الإعلان فنفى، وسألته إن كان يوافق على زج اتحاد المعلمين في مستنقع الخلافات السياسية، فنفى بشدة، فقلت له: فلندع أعضاء اللجنة اللوائية إلى اجتماع عاجل لبحث الموضوع ونستوضح من الشخص المعني، وكان الاجتماع وكنت في قمة الغضب ولا أستطيع السيطرة على أعصابي، ووجهت السؤال إلى

الشخص الذي نعتقد أنه وراء زج اسم اتحاد المعلمين في المسألة السياسية، فلم يتنصل، ولكنه قال إنه طلب أن يوضع اسمه، فوضع اسم اتحاد المعلمين بالخطأ، فاقترحت على الحاضرين أن نورد في الجريدة إعلانًا يوضح أن اتحاد المعلمين لا يتدخل في السياسة، وأن الإعلان الذي أوردته صحيفة القدس قد زُجّ فيه باسم اتحاد المعلمين بطريق الخطأ، فجوبه اقتراحي بالرفض، وتبرع أحدهم بتوضيح الأمر فقال: نحن جميعًا نؤيد منظمة التحرير ونؤيد بالتالي المفاوضات التي تجريها، ولو أعلنا في الجريدة أننا نتنصل من ذلك الإعلان، فهذا يعني أننا ضد المفاوضات، فأجبته بنبرة غضب واضحة: ليس نحن جميعنا نؤيد منظمة التحرير، فانا أعارض منظمة التحرير وأعلن أنها ليست ممثلًا شرعيًا للشعب الفلسطيني، ولا أوافق بتاتًا على هذه المفاوضات.

وكانت مفاتيح المكتب معي فقذفتها لهم وخرجت مسرعًا.

أدركت في تلك اللحظة أنني كنت مخدوعًا ومضحوكًا عليّ يوم دُعيت إلى الانضواء تحت لواء اتحاد للمعلمين يفترض أنه ليس له هدف إلا خدمة المعلمين، وهو في الحقيقة أحد أدوات فتح عرفات في فرض هيمنتها على الشارع الفلسطيني وإيجاد تأييد واسع لخطوات النكوص التي بدأت تخطوها.

أعود إلى الوراء قليلًا لأوضح شيئًا مما يتعلق باتحاد المعلمين: كان موقع الاتحاد في شارع العدل عمارة سعد الدين، وكانت أجرته تُدفع بيد محمد صوان، وعندما احتاج الفرع اللوائي إلى تنظيم شؤونه أصبح بحاجة إلى أن يكون له رئيس، وكان الإجراء السليم أن يجري انتخابه بطريق الاقتراع السري من قبل أعضاء فرع اللواء، لكن الإجراء السليم لم يكن واردًا أبدًا لا في مجال السياسة ولا في مجال الاتحادات والنقابات، بل كانت الأمور تجري بطريق التزكية التخجيلية، يكون المطلوب أن يوضع شخص ما في الموقع، فيقال للحاضرين: ما رأيكم في فلان؟ فيسكتون بسلطان الخجل أو المجاملة أو الجبن أحيانًا وبهذه الطريقة يحتل الشخص المرغوب فيه الموقع المطلوب. وعلى هذا النحو تم تعيين أحد أعضاء الفرع رئيسًا، ولم يمنعني كونه صديقي من رفض أسلوب التعيين هذا علنًا وأمام الشخص المعيَّن على الرغم من أنني لم أكن راغبًا في استبداله

فهـو صديـق، ولا راغبًـا في الحلـول مكانـه فإننـي لم أكـن معنيـا بهـذا الاتحـاد الـذي لم ينشـأ لخدمـة المعلمـين، ولكنني لم أوافـق عـلى الطريقـة الملتويـة في التنصيـب، وجـاء بعـد ذلـك إعـلان تأييـد منظمـة التحريـر لينهـي علاقتـي بهـذه اللجنـة الفرعيـة، ولكنـه لم يُنـهِ علاقتـي باتحـاد المعلمـين نفسـه.

فمثلـما انقسـمت حركـة فتـح في نابلـس إلى قسـمين أحدهمـا لأبنـاء المدينـة والآخـر لأبنـاء الريـف، انقسـم اتحـاد المعلمـين إلى مـدني وريفـي، وأراد تنظيـم الريـف أن يضمنـي إليـه، ولكننـي لم أكـن في يـوم مـن الأيـام مـع أي انقسـام خاصـة بـين أبنـاء الريـف وأبنـاء المدينـة.

أراد اتحـاد المعلمـين أن يعقـد مؤتمـرًا عامًـا سـنة 1993 يضـم أعضـاء اللجـان الفرعيـة كلهـا في الضفـة والقطـاع، وكان التنقـل بـين الضفـة والقطـاع ممكنًـا في ذلـك الوقـت وحتـى قـدوم السـلطة الفلسـطينية إلى غـزة سـنة 1994 وبعـد ذلـك إلى الضفـة الغربيـة سـنة 1995، وتقـرر أن يكـون الاجتـماع في كليـة هنـد الحسـيني بجامعـة القـدس في مدينـة القـدس، وكان السـفر إلى القـدس وقتهـا لا يختلـف عـن السـفر إلى أيـة مدينـة في الضفـة الغربيـة. وبالفعـل حصـل الاجتـماع، وكان المديـر الفعـلي لـه محمـد صـوان وقـد دعـي المرحـوم فيصـل الحسـيني إلى إعطـاء مداخلـة حـول الوضـع السـياسي القائـم وللدفـاع عـن الخطـوات السياسـية التـي اتخذتهـا منظمـة التحريـر بالموافقـة عـلى حضـور مؤتمـر مدريـد بالـشروط الإسرائيليـة، وعـلى المفاوضـات العلنيـة المنبثقـة عـن مؤتمـر مدريـد والتـي تلاقـى معارضـة ورفضًـا مـن الاتجـاه الإسـلامي ومـن عـدد كبـير مـن الفصائـل المنضويـة تحـت لـواء منظمـة التحريـر، ولم تكـن المفاوضـات السريـة في أوسـلو قـد تكشـفت بعـد.

كان منظمـو المؤتمـر قـد وجهـوا دعـوة للمرحـوم فيصـل الحسـيني للحضـور وإعطـاء مداخلـة، فدعيـت إلى المنصـة وكذلـك معلـم مـن غـزة، وجلـس بيننـا فيصـل الحسـيني وبـدأ يتكلـم عـن الظـروف السياسـية القائمـة وعـن الأسـباب التـي دعـت منظمـة التحريـر إلى حضـور مؤتمـر مدريـد.

في بدايـة المؤتمـر وقـف أحـد المندوبـين الغزيـين يقـول بصـوت عـال: جئنـا لنقـوي فتـح

ولنوجه ضربة إلى وجود حماس، فنظر إلى المنصة ورآني ملتحيًا فظن أنني حماس، فقطع الحديث وكان المؤتمر يوم الجمعة فصليت فيهم إمامًا، ثم عدنا للاجتماع، ولم يكن اللقاء مريحًا أبدًا فإن المواضيع التي تم طرحها كانت سياسية منحازة لوجهة النظر العرفاتية، وشعرنا أن الأمور تجري بشكل مرتب سابقًا وبطريقة الكولسات التي لم تكن مصلحة المعلمين وهمومهم إلا غطاء لمطامح شخصية، وأخيرًا تم اختيار لجنة لصياغة القرارات ولم يشأ أحد من فرع نابلس أن يشارك فيها، لما كان يسود المؤتمر من ألاعيب، وعندما دخلت اللجنة غرفة الاجتماع قمنا جميعًا على عجل وغادرنا الاجتماع قبل أن يُعرض مشروع القرارات على الحاضرين، وفي اليوم التالي نشرت الصحف تقريرًا عن المؤتمر وعرضت مقرراته، وكان أبرز ما في تلك القرارات: تأييد سياسة الأخ القائد ياسر عرفات وتأييد سياسة منظمة التحرير وتأييد المفاوضات التي تجريها، ودعوة إيران إلى وقف عدوانها على الأمة العربية.

لقد أثار الإعلان غضبي واشمئزازي، وكان محرجًا بالنسبة لي؛ لأن الصورة الوحيدة التي نشرتها الصحف كانت تضمني والشخص الغزي وفيصل الحسيني، فكانت هذه القرارات الغريبة والمرفوضة توحي لمن لا يعرف الحقيقة بأنها صادرة عن رأي المؤتمرين كلهم ولا سيما الذين في الصورة. بحثت بيني وبين نفسي خيار أن أعلن تنصلي من المؤتمر ومن قراراته، ومن اتحاد المعلمين كله إلا أنني وجدت الخطوة ليست صوابًا ولا نفع فيها وأن الأفضل تجاهل الأمر كله.

بعد ذلك مباشرة بدأ الإعداد لانتخابات اللجان اللوائية لاتحاد المعلمين، وقررت اللجنة التأسيسية التي تضم بضعة عشر عضوًا من كافة أرجاء الضفة الغربية، ولم أكن واحدًا منهم وكنت قد انسحبت من عضوية اللجنة اللوائية لأسباب ذكرتها في صفحات سابقة.

قرر أعضاء اللجنة التأسيسية أن يكونوا أعضاء في المؤتمر العام الذي سيجري تشكيله بعد الانتخابات بحق أنهم مؤسسون ودون حاجة إلى أن يرشحوا أنفسهم في الانتخابات، على أن تكون تلك العضوية القائمة على تزكية ذاتية لدورة واحدة

فقـط، وعندمـا جـرت الأمـور في مجراهـا لم يـبرح أحـد منهـم مكانـه. فالمنتخبـون لم يعطـوا دورًا في الاتحـاد والهيئـة التأسيسـية ظلـت قائمـة، ولـدى وفـاة الأمـين العـام جميـل شـحادة في 16/ 03/ 2010 حـل صـوان محلـه وأُعلـن عنـه أمينًـا عامًـا لاتحـاد المعلمـين بطريقـة لم يشـارك فيهـا جمهـور المعلمـين.

كانـت الإجـراءات الانتخابيـة تقـضي بـأن يشـارك في الترشُّـح والانتخـاب مندوبـو المـدارس لا مجمـوع الهيئـات التدريسـية، ولهـذا الغـرض طُلـب مـن كل مدرسـة أن تنتخـب مندوبًـا واحـدًا عنهـا لـكل عـشرة أعضـاء هيئـة تدريـس وكل مدرسـة لهـا عـلى الأقـل مندوب واحـد إذا كانـت الهيئـة التدريسـية عـشرة أعضـاء أو أقـل مـن ذلـك، وبعـض المـدارس سـيكون لهـا عـدة مندوبـين بمقـدار عـدد أعضـاء هيئتهـا التدريسـية، وللمدرسـة الإسـلامية التـي أنتمـي إليهـا ثلاثـة مندوبـين، ورشـحت نفسـي ورشـح زميـلان مـن الإخـوان المسـلمين نفسـيهما، وكانـت الحقيقـة المعروفـة عـن الإخـوان واضحـة عندمـا بـدأ فـرز الأصـوات، فهـم لا يعطـون ثقتهـم لمـن ليـس منهـم مهـما كانـت الظـروف، وبالتـالي لم ينتخبنـي إلا الزمـلاء الذيـن لا ينتمـون إلى الإخـوان، وعـلى كل حـال فـاز المرشـحون الثلاثـة وأصبحنـا جميعًـا مندوبـين للمدرسـة الثانويـة الإسـلامية، ولم تكـن الأمـور تجـري مـن غـير تلاعـب، ففـي كثـير مـن المـدارس كان يَهمـس في أذن المديـر أن يُرسـل فلانًـا مندوبًـا عـن المدرسـة، فـكان كثـير مـن المندوبـين إنـما تـم انتدابهـم بطـرق تحايليـة والهـدف مـن ذلـك _بطبيعـة الحـال_ تفويـز إحـدى الحـركات في الانتخابـات المقبلـة.

كان الترشُّـح نوعـين: ترشُّـح لأمانـة اللجنـة اللوائيـة وترشـح لعضويتهـا، ومـن يترشـح للأمانـة ولا يفـوز بهـا لا يدخـل عضويـة اللجنـة الفرعيـة مهـما كان عـدد الأصـوات التـي حصـل عليهـا.

لم أكـن أنـوي أن أترشـح أو أن أدلي بصـوتي في الانتخابـات، ولم أكـن أرى أيـة فائـدة مـن دخـول الاتجـاه الإسـلامي هـذه الانتخابـات، لكـن الإخـوة في حمـاس قـرروا خـوض غمارهـا؛ لأن الأمـر عندهـم يتعلـق بالتواجـد عـلى السـاحة الفلسـطينية بـكل اتجـاه، ومـن سياسـتهم الحـرص الشـديد عـلى هـذا التواجـد، وكانـوا يريـدون مرشـحًا منافسًـا لأي

مرشح قد تتقدم به فتح من أجل الأمانة العامة للجنة اللوائية، فراجعوني كي أكون مرشح الاتجاه الإسلامي، فاعتذرت لهم في البداية لأنني لا أنوي التواجد في هذا الاتحاد المسخّر سياسيًا، ولكن مع الإلحاح المتكرر لم أجد بدًا من الموافقة، فطُبعت البطاقات وبدأت الدعاية وأخذت أنا ومرشحو عضوية اللجنة الفرعية نتجول في منطقة نابلس، فلم نترك مدرسة من مدارس الذكور إلا دخلناها، وتُركت مدارس الإناث لمعلمات الاتجاه الإسلامي، ينشرن فيها الدعاية الانتخابية. لقد دخلت كثيرًا من القرى التي لم أكن دخلتها من قبل، وتعرفت في غمرة الدعاية الانتخابية إلى كثير من الناس وكان ثمة حرية للحركة تعتبر كبيرة إذا ما قورنت بالتضييق الذي جرى فيما بعد ولا يزال قسم كبير منه جاريًا حتى الآن، فكنت والزملاء من أبناء حماس والإخوان المسلمين ننطلق في السيارة بعد الدوام المدرسي ونذهب إلى القرى ونزور ممثلي الهيئات التدريسية في بيوتهم أو نلتقي ببعضهم في المسجد عند صلاة العشاء وهكذا.

واقترب موعد الانتخابات التي سيشرف عليها اتحاد النقابات العمالية برئاسة شاهر سعد، ورفعت الأوراق كاملة إلى الاتحاد والمتضمنة أسماء المرشحين وأسماء مندوبي المدارس والترتيبات المتعلقة بالانتخابات. ونظر السيد شاهر سعد في الملفات وفي الاعتراضات الكثيرة المرفوعة ومعظمها يحتج على الطرق غير الصحيحة التي اتُّبعت في اختيار كثير من مندوبي المدارس فقرر ألا تجري تحت إشرافه الانتخابات ما لم يجرِ البت في الاعتراضات، وبمنتهى البساطة تشكلت لجنة برئاسة محمد صوان وعضوية اثنين آخرين من زعماء الاتحاد لست متأكدًا من هويتيهما الآن، ونظروا في الاعتراضات واحدًا واحدًا، وقرروا أن جميع الاعتراضات غير صحيحة وأن جميع الترتيبات سليمة، فلم يسع شاهر سعد إلا أن قبل بذلك وقرر المضي قدمًا في ترتيب الانتخابات.

واندماه!

كثيرة هي الأمور التي يندم عليها الإنسان، بعضها يندم على أنه فعلها وأخرى يندم على أنه لم يفعلها حتى فاتت. وفي موضوع انتخابات اتحاد المعلمين هنالك أمران كلما تذكرت تقصيري فيهما شعرت بالأسف.

الأول: أنني مرّرت مسألة إلغاء الاعتراضات من قبل لجنة صوان ولم أعترض على هذا التصرف ولم أصرَّ على معالجة الاعتراضات حالة حالة.

والثاني: ما جرى أثناء عملية الانتخاب من قبل مرشحي فتح وأنصارها ومتنفذيها دون أن أبدي اعتراضًا، لقد اتبع هؤلاء كل الطرق للضغط على المنتخبين كي ينتخبوا قائمة فتح ولم يجدوا من يقف في وجوههم.

لم أكن المرشح الوحيد لمنصب أمين اللجنة الفرعية، فقد كان ثمة مرشحون آخرون، أحدهم من نشطاء فتح المعارضين لتصرفات المتنفذين فيها، هو الزميل والصديق عبد العزيز حنايشة، وقد مورست عليه ضغوط كبيرة كي ينسحب لصالح مرشح فتح، لكنه كان أعند من أن يرضخ للضغوط، وبصوت عال قال أحد قادة فتح الذين جاءوا للمؤازرة وبصوت عال ولهجة قوية: يجب أن تفوز فتح، وعرَّفني على نفسه فيما بعد في سجن أريحا وكان سجاني، وذكّرني بتلك الأيام، إنه أبو نسيم خطاطبة من بيت فوريك.

كان المفروض إخلاء غرفة الانتخاب فلا يتواجد فيها إلا الشخص المنظم لعملية الاقتراع إلا أن الغرفة امتلأت بفتحاويين لا علاقة لهم بالانتخابات، بعضهم من خارج لواء نابلس وبعضهم ليس من أوساط المعلمين، وكانوا بمجرد أن يدخل المقترع الغرفة يعملون على توجيهه لانتخاب فتح وينظرون في ورقته بعد أن يختار مرشحيه، ليعرفوا من انتخب، وقبل ذلك أثناء الدعاية الانتخابية، كانوا يقولون لمندوبي المدارس إن السلطة الفلسطينية وقوامها «فتح» أصبحت على الأبواب وستكون الترقيات للفتحاويين ومن يقف معهم. وكان المفروض أن يرفض هذه التجاوزات جميع المرشحين إلا أن أحدًا لم يعترض على هذا الذي يجري. لماذا لم يعترض الآخرون؟ أغلب الظن أنهم سكتوا عندما رأوني غير معترض؟ لماذا لم أعترض ولم أصرَّ على إخراج الجميع من الغرفة؟ هذا ما لا أجد لنفسي فيه عذرًا واضحًا.

هل هو الجبن؟

بالتأكيد لم يكن هذا واردًا، فإنني فيما يتعلق بالمواقف والقناعات العامة في غاية العناد، ولا أحسب حسابًا للعواقب.

أحيانًا أقول: لا أدري لماذا لم أتخذ القرار الحازم وأخيِّرهم بين أمرين: إما الكف عن ممارسة الضغوط على المقترعين والخروج الفوري والتام من غرفة الاقتراع وإما إلغاء العملية برمتها.

وتقصيري يوم تلك الانتخابات في حق الإخوة الذين قدموني، وتركي الأمور تجري على النحو الذي جرت عليه، من جملة الأمور التي أذكرها فأشعر بالندم.

وعندما أراجع نفسي وأحاول أن استخرج من مكنوناتها سبب تهاوني في منع التلاعب في تلك الانتخابات، أجد الجواب: فالسبب حقيقة هو أنني رضيت الترشُّح خجلًا وتحت الضغوط، وكنت أعلم أن نجاحي سيجلب لي تبديد الوقت وسيكلفني كثيرًا من الجهد في وسط لا أرتاح إليه ولن يكون دأبي فيه إلا الخصومات والغضب؛ لأنه وسط الالتفاف والمنفعة الحرام والدور السياسي المرفوض ولذا: لم يكن عندي أي دافع في قرارة نفسي لأبحث عن سبل الفوز أو لأمنع سبل الخسارة، كما أنني لم أكن تام الحرية في الانسحاب من العملية الانتخابية إذا وجدت أن ذلك هو الخيار الوحيد؛ فالإخوة الذين أترأس قائمتهم يريدون خوض غمار الانتخابات ولو انسحبت بهم احتجاجًا على التجاوزات التي ذكرتُها فقد يتهمونني أنني ضيعت على حماس فرصة التواجد في هذه الساحة عمدًا وبقصد الإضرار بها. لو كانت القائمة التي ترأستها تتكون من عناصر الجهاد الإسلامي لانسحبت بها من البداية، بل إن الجهاد الإسلامي لم يكن يهتم إطلاقًا بخوض هذه الانتخابات.

بدأ الفرز وكان لكل من المرشحين الخمسة لأمانة اللجنة مساحة على اللوح العريض المثبت على واجهة القاعة الكبيرة في مبنى اتحاد نقابات العمال ومساحة للمرشحين لعضوية اللجنة الفرعية. والتأمت لجنة الفرز وكان المندوب عن كتلتنا أحد البارزين في ساحة الاتجاه الإسلامي عثمان مصلح، وجلس جميع الحضور على كراسيهم يتابعون فرز الأصوات، وربما كنت الوحيد غير المعني بالنتيجة؛ فلم أمكث

في القاعـة إلا قليـلًا، ثـم توجهـت إلى المنـزل، وكان قريبًـا، فصليـت المغـرب ومكثـت إلى العشـاء ثـم اصطحبـت خليـل روحـي عاصـمًا _رحمـه الله_ إلى القاعـة فوجدنـا أن اسـمي متقـدم عـلى أسـماء بقيـة المرشـحين بشـكل كبـير، مكثنا قليـلًا ثـم عدنـا إلى البيـت، وفي حدود السـاعة العـاشرة عـدت إلى قاعـة الفـرز، وكان الملاحـظ أن مرشـح فتـح بـدا يلحـق ويلحـق وأخـيرًا سـبقني بثمانيـة أصـوات، فغـادرت القاعـة ومشـاعر الارتيـاح العميـق تغلـب عـلى مشـاعر الإحبـاط وأبـواق السـيارات التـي انطلقـت في الشـوارع تمـلأ الشـوارع ضجيجًـا تهـدي النـصر لأبي عـمار وتهتـف بحياتـه، معتبريـن هـذا الانتصـار الـذي حققـوه دليـلًا عـلى الثقـة بفتـح وبالقائـد.

وانتهـى إلى غـير رجعـة هـذا الفصـل. والـدرس الـذي خرجـت بـه أن المواقـع والمناصـب يجـب ألا تعطـى لمـن لا يطلبهـا، وأن مـا يـروى مـن قولـه صـلى الله عليـه وسـلم: طالـب الإمـارة لا يؤمّـر، إن صـح الحديـث، إنـما يعنـي مـن لا كفـاءة لـه بدليـل قولـه للعباس حـين طلـب مـن رسـول الله الإمـارة: يـا عـم، إنـك ضعيـف، وإنهـا أمانـة.

والصحيـح أن الزاهـد في الإمـارة أيضًـا لا ينبغـي أن تعطى له بالتخجيـل أو بالضغط؛ لأنـه لـن يقـوم بهـا عـلى أصولهـا ولـو كان القـوي الأمين.

عودة إلى التطورات السياسية والاقتصادية في تلك الفترة

كانـت فـترة عـام 1993 صعبـة عـلى الشـعب الفلسـطيني بشـكل لا يُنسـى. لقـد طرد الفلسـطينيون مـن الكويـت وتكدسـوا في الأردن غـير مرحـب فيهـم، وتوقفـت تحويلاتهـم إلى ذويهـم في الضفـة والقطـاع مـع اسـتمرار الانتفاضـة واسـتمرار منعهـا العـمال مـن التوجـه إلى الأرض المحتلـة عـام 1948 وانعـدام فـرص العمـل لهـم في الضفـة وكانـت الانتفاضـة تفـرض الإضراب الشـامل مـرات عديـدة في الشـهر وأمـا الإضراب اليومـي وإغـلاق الأسـواق تمامًـا في غـير أيـام الإضراب الشـامل فـكان يبـدأ مـن ظهـر كل يـوم إلى صبيحـة اليـوم التـالي ولم يكـن بوسـع التجـار إلا الإذعـان رغـم أنوفهـم، ولم يكـن مسـموحًا أبـدًا

التساؤل علنًا عن جدوى ذلك، وكان من الجرائم الكبرى أن يكتب كاتب في صحيفة مقالًا يتحدث فيه عن أضرار ما يجري، ولا أتصور أن أحدًا كتب مقالًا بهذا الخصوص.

على مدى أعوام 1990، 1991، 1992 كانت وكالة الغوث توزع الطحين على المحتاجين في المدن والقرى والمخيمات وتوزع أحيانًا مع الطحين مواد أخرى كالسكر والزيت، وعندما كثرت عودة الفلسطينيين المطرودين من الكويت توقفت الوكالة عن التوزيع ففقد الفقراء الذين هم أكثرية في الشعب الفلسطيني ذلك العامل المساعد على تخفيف العبء عنهم.

في تلك الفترة كانت منظمة التحرير متمثلة بعدد محدود جدًا من متنفذي فتح بتوجيه أبي عمار تجري في مدينة أوسلو النرويجية محادثات سرية، مع ممثلين عن حزب العمل الإسرائيلي، لم تعلم بها حتى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، بهدف التوصل إلى اتفاق يبقى سريًا إلى أن تجري انتخابات للكنيست الإسرائيلي حيث يُتوقع أن يسقط فيها الليكود ويصعد إلى سدة الحكم حزب العمل فيتم إعلان اتفاق الصلح بين الفلسطينيين والإسرائيليين ويبدأ العمل الحثيث على تطبيقه.

في تلك الفترة (قطعت منظمة التحرير يدها وشحدت عليها) كما يقال في المثل العامي، فإنه على أثر وقوفها مع العراق أثناء احتلاله للكويت قد تعرضت للغضب الشديد من دول الخليج كلها ولم تحفظ تلك الدول سابقة لمنظمة التحرير في وقوفها بشكل بالغ الفجاجة مع العراق ضد إيران في الحرب التي شنها صدام حسين على الجمهورية الإسلامية الناشئة بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن السعودية ودول الخليج وبتحالف قوي مع الغرب عمومًا والولايات المتحدة على وجه الخصوص، فتوقفت المنظمة عن ضخ الأموال إلى مؤسساتها ومَحاسيبها في الضفة والقطاع وقننت الإنفاق إلى أبعد حد، وأصبحت وسيلة الحصول على المال هي المراسيل من الضفة إلى مكاتب المنظمة وعلى وجه التحديد فتح وأبي عمار في تونس وفي عمان كذلك، والمرسال يأخذ الرسالة على شكل كبسولة يبلعها ثم يخرجها عندما يبلغ غايته فيكافأ عليها بثلاثمائة دينار ويقال إنها كانت تسعيرة محددة.

في هـذه الأثنـاء وبينـما كانت اتفاقيات أوسـلو تـكاد تخرج إلى العلن كان الفلسـطينيون في الضفـة الغربيـة والقطـاع قـد بلـغ بهـم الجهـد مبلغـه. فـكان معظمهـم يحلـم بسـتر الحـال ويبحـث عنـه في كل مـكان، واسـتغل المحتالـون هـذه الحالـة عـلى المسـتويين؛ الفـردي والرسـمي الفلسـطيني، ومـن الأمثلـة عـلى ذلـك عـلى المسـتوى الفـردي أن جريـدة القـدس حملـت ذات يـوم إعلانًـا مـن جهـة لم تُعـرِّف بنفسـها، عـن إنشـاء مؤسسـة يـا نصيـب، وأن بطاقـة الاشـتراك في سـحبها الأول قيمتهـا عـشرون شـيكلًا، يرسـلها المشـترك مـع الكوبـون المرافـق للإعـلان، وقـد اسـتهوى الإعـلان كثيريـن فهـم يريـدون أن يعيشـوا عـلى أحـلام غنـى يهبط عليهـم فجـأة، فأرسـلوا المبلـغ المطلـوب وأعلنـت تلـك الجهـة أنـه يمكـن إرسـال صـورة عـن الكوبـون مرفقـة بقيمـة الاشـتراك، ولا أحـد يعلـم كـم عـدد الذيـن أرسـلوا الاشـتراك، إلا أن ذكـر ذلـك اليانصيـب قـد اختفـى بعـد ذلـك، ولم يعـرف أحـد تلـك الجهـة النصّابـة، وفيـما بعـد، كتـب أحـد المضحـوك عليهـم رسـالة إلى جريـدة القـدس يتسـاءل عـن مصـير ذلـك اليانصيـب فنشرتهـا الجريـدة في زاويـة رسـائل القـراء وانتهـى الأمـر. وإني أتسـاءل بهـذا الصـدد عـن مسـؤولية الجريـدة؛ كيـف تنـشر إعـلان يانصيـب مـن جهـة مجهولـة ومعـه كوبـون مـن الجريـدة، اعتقـد أن عمليـة النصـب هـذه تتحمـل الصحيفـة مسـؤوليتها كاملـة ولـديّ شـكوك في أن للجريـدة ضلعًـا في عمليـة الاحتيـال هـذه، إن لم تكـن هـي مـن دبّـر العمليـة.

ثـم بعـد ذلـك الإعـلان أعلنـت جهـة أخـرى يـا نصيبًـا وأصـدرت بطاقـات يانصيـب ثمـن الواحـدة منهـا عـشرون شـيكلًا واتخـذت لهـا مكاتـب في أرجـاء الضفـة وأعلنـت أن الجائـزة الأولى سـتكون سـبعة عـشر ألـف شـيكل، وهـو مبلـغ هزيـل وبائـس إذا قـورن بجوائـز شركات اليانصيـب في البلـدان الأخـرى، ولكنـه جيـد بالنسـبة للفلسـطينيين، فهـذا المبلـغ كان حلـمًا جميـلًا لـدى معظـم النـاس.

وكنـت واحـدًا مـن هـؤلاء عـلى الرغـم مـن أن راتبـي كان يتجـاوز في ذلـك الوقـت أربعمائـة دينـار أردني، إلا أن الأسرة كانـت كبـيرة وكانـت مطالبهـا أكـبر مـن ذلـك الراتـب حتـى لجـأت عـلى كـره منـي إلى إعطـاء الـدروس الخصوصيـة.

اشـتريت ورقـة يـا نصيـب وحلمـت بسـبعة عـشر ألـف شـيكل، ونـشرت تلـك الشركـة دعاية إعلانيـة كبـيرة لذلـك الحـدث الـذي سـيكون جـزءًا مـن العهـد الجديـد المنتظـر؛ عهـد الخـروج مـن ضيـق الصمـود والمقاومـة إلى بحبوحـة التصالـح والتفاهـم بحسـب مـا كان يوحـي بـه المبـشرون بالعهـد الجديـد.

وانتظـر النـاس نتيجـة السـحب وكلهـم يحلـم بحسـن الحـال يأتيهـم بهـذه الطريقـة السـهلة، وأخـيرًا جـرى السـحب وتبـين أن أوراق اليانصيـب كانـت مزدوجـة بحيـث أن الرقـم الواحـد تشـترك في بطاقتـان بهـدف تكثـير عـدد الرابحـين وتقليـل المبالـغ المدفوعـة تمهيـدًا، فالجائـزة الأولى تقاسـمها اثنـان مـن القـدس، ولا نعـرف هـل كان السـحب نزيهًـا أم لا، ولكـن لم يكـن في تلـك الفـترة مـكان للنزاهـة ولا للصـدق، إنهـا فـترة الأكاذيـب والألاعيـب وتسـويق الأحـلام والأوهـام. والـذي لا يغيـب عـن الذاكـرة بهـذا الصـدد أن الشـوارع بعـد أن _أُعلنـت النتيجـة_ كانـت مفروشـة بـالأوراق الخـاسرة حتـى إن النـاس أخـذوا يتسـاءلون عـن عـدد البطاقـات التـي بيعـت وهـو بـلا شـك عـدد هائـل ومدلولـه واضـح؛ فسـوء الأوضـاع الاقتصاديـة في تلـك الفـترة جعـل النـاس يشـترون الأحـلام فيقعـون فرائـس لـكل نصـاب.

في صيـف ذلـك العـام (1993) تكشـفت أنبـاء اتفاقيات أوسـلو وصـورت الصحـف ووسـائل الإعـلام أن الفلسـطينيين في الضفـة والقطـاع سـيكونون أحـرارًا مـن الاحتـلال قريبًـا جـدًا وسـتنهال عليهـم المسـاعدات مـن كل مـكان فيتمتعـون بالانفـراج المـادي إلى جانـب الانفـراج السـياسي والاجتماعـي.

كانـت الوعـود والمبـشرات مـن التقاريـر الصحفيـة التـي صاحبـت تكشـف المحادثـات سـنة 1993 تصـور المنجـزات التـي أصبحـت قـاب قوسـين أو أدنـى مـن الفلسـطينيين بأنهـا مـن الضخامـة إلى الدرجـة التـي تسـتحق معهـا كل تلـك التنـازلات التـي لم يكـن يتصورهـا أحـد.

جلسـت في باحـة مسـجد جالـود، ذات يـوم من تلك الفـترة، ومعي صحيفـة القدس المقدسـية الصـادرة في ذلـك اليـوم، فأخـذت أقـرأ على مسـامع الشـيخ أبي كامـل بعـض تلـك

الوعـود، وأقـول: يـا أبـا كامـل؛ سـيصبح سـفرك إلى الأردن كسـفرك إلى نابلـس وسـيصبح بإمـكان الفلسـطينيين في الخـارج أن يأتـوا إلى الضفـة وغـزة متـى شـاءوا وأن يسـكنوا في أي مـكان منهـما وسـتقام المشـاريع الاقتصاديـة الضخمـة بحيـث يجـد كل شـخص عمـلًا، وسـتكون الأسـعار رخيصـة جدًا، فيضحـك مغتبطًـا ويقـول: لسـت قـادرًا عـلى التصديـق. ومـا لم يُقَـل لأبي كامـل هـو أن الوعـود السـخية تتضمـن أنَّ الفلسـطينيين عـلى وشـك أن يتمتعـوا بحكـم ديمقراطـي برئاسـة سـلطة فلسـطينية سـيكون حنوهـا عـلى شـعبها حنـو المرضعـات عـلى الفطيـم، وسـيبيت النـاس في دورهـم آمنـين لا يقـع أي منهـم تحـت هاجـس أن يطـرق جنـود الاحـتلال بابـه عنـد منتصـف الليـل وأن يجـروه إلى السـجن. وسـيكون لهـم مجلـس تشريعـي يرعـى تلـك السـلطة الديمقراطيـة ويضبـط أداءهـا، وهـذا يعنـي أنـه سـيكون للشـعب الفلسـطيني نـواب وسـوف تُفتتـح مخافـر شرطـة في قـرى عديـدة مـن الضفـة الغربيـة أي أننـا مقبلـون عـلى انقـلاب اقتصـادي وسـياسي واجتماعـي إلى الأحسـن.

انهمـك الكتـاب الإسرائيليـون في ذلـك الوقـت في الحديـث عـن خطـورة المرحلـة القادمـة عـلى الاقتصـاد الإسرائيـلي؛ إذ أنـه سـيكون بالقـرب مـن مواقـع السـلع الإسرائيليـة التـي هـي مرتفعـة الأثـمان سـلع في المناطـق الفلسـطينية مدعومـة مـن دول العـالم فهـي زهيـدة الأثـمان فـما الـذي سـيمنع المتسـوقين الإسرائيليـين مـن التوجـه إلى الأسـواق الرخيصـة، خاصـة في مجـال المحروقـات؟ وأذكـرُ اقتراحًـا لكاتـب إسرائيـلي في ذلـك الوقـت ملخصـه أن تمنـع إسرائيـل رعاياهـا مـن التسـوق مـن عنـد الفلسـطينيين، وأن يلـوَّن البنزيـن الفلسـطيني كـي يتميـز عـن البنزيـن الإسرائيـلي، ويصبـح بالإمـكان، تبعًـا لذلـك، ضبـط السـيارات الإسرائيليـة التـي تسـير بالوقـود الفلسـطيني. موجـز القـول إنـه لم يكـن تبشـير في تلـك الأيـام إلا بالرخـاء والرفاهيـة وكثـرة المـال ورخـص الأسـعار إلى جانـب أن الحكومـة سـتكون فلسـطينية، وهـذا يعنـي أنـه سـيكون للفلسـطينيين أب بعـد طـول يتـم.

بعـد أن اسـتوعب العـالم أخبـار هـذا الاتفـاق الـذي فوجـئ بـه حتـى المخابـرات المركزيـة الأمريكيـة، بـدأ الإعـداد لمراسـيم الاحتفـال بالتوقيـع عليـه رسـميًا وسـيكون الاحتفـال في حديقـة البيـت الأبيـض طبعًـا وإن كانـت المحادثـات والاتفـاق جـرت في مدينـة أوسـلو في النرويـج، والـذي هنـدس الاتفـاق مـن الجانـب الفلسـطيني هـو محمـود عبـاس

وأحمد قريع بتوجيه من عرفات، والذي وقعه مبدئيًا في أوسلو كان محمود عباس وأحمد قريع ومن الجانب الإسرائيلي كان شمعون بيرس إلا أن الذي سيمثل منظمة التحرير الفلسطينية في التوقيع في البيت الأبيض هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ومن الجانب الإسرائيلي كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين ونائبه شمعون بيرس، وأعلنت الولايات المتحدة أن التوقيع سيكون يوم 13/ 09/ 1993 إلا أن الجانب الفلسطيني أراد أن يكون هو من يقرر موعد الاحتفال، فأعلن موعدًا غير الذي أعلنته الولايات المتحدة فكانت التعليقات الشعبية اللاذعة: سنرى من تنفذ كلمته؛ بيل كلينتون أم حكم بلعاوي، ونفذت كلمة بيل كلينتون.

وجلسنا أمام أجهزة التلفاز لنشاهد هذا الحدث الهام والذي سيكون له أثر مباشر على حياة كل فلسطيني داخل فلسطين. وكم كان غريبًا أن نرى رئيس اللجنة التنفيذية يتوق إلى مصافحة رابين ومن المؤكد أنه كان راغبًا في تقبيله لولا أن البروتوكول المعد بشكل صارم منعه من ذلك، في حين أن رابين لم يستطع إخفاء القرف الشديد الذي ملأ صحيفة وجهه وهو يهم بمصافحة عرفات وأخيرًا مد يده وحنى ظهره وصافح عرفات ورسم ابتسامة متكلفة على وجهه، أما عرفات فكان البشر واضحًا على وجهه وهو يصافح رابين ويده تهتز بقوة وهي في يد رابين، لله ما أغربَ تلك اللحظة. لقد أصبحت تلك اللحظة المحرجة للجميع مجال تندر الناس وكم كانت جميلة من الفنانين الأردنيين؛ هشام يانس الذي كان قده بمقاس عرفات ونبيل صوالحة الذي كان بمقاس رابين عندما أعادا تمثيل تلك اللقطة ورسم نبيل صوالحة القرف على وجهه وحنى ظهره ومد يده واستقبله الآخر بالبشر كله.

في ذلك اليوم قررت المعارضة الفلسطينية إعلان الحداد والإضراب احتجاجًا على المهزلة وقررت فتح والتنظيمات القليلة الموالية الاحتفال، وتجنبًا للصدام بين الفريقين تفاهما على أن يكون الإضراب إلى ما بعد الظهر وأن تكون الاحتفالات بعد ذلك وكان ما بعد ظهر ذلك اليوم مما تحتفظ به الذاكرة لكثرة ما انطلق من سيارات وكثرة ما امتلأت به الأجواء من ضجيج أبواقها، أما المنظر الذي ظل موضع التندر الساخر عند الكثيرين فقد شاهدته في التلفزيون، إنه منظر الشباب المحتفلين بالاتفاق

وقد تصالحوا مع دورية حرس الحدود التي كان دأبهم فيما مضى أن يمطروها بوابل من الحجارة، ثم قرروا في ذلك اليوم أن يمطروها بباقات الورد، ونظر المتفرجون إلى باقات الورد تلقى في داخل السيارة وقد ظهر التأثر على وجوه جنود الاحتلال الذين كانوا داخل السيارة حتى أن عيني أحدهم اغرورقت بالدموع!!

في ذلك الشهر وبالتحديد 26/ 09/ 1993 ليلًا سمعنا رنين جرس الباب بشكل عنيف ومتواصل فعلمنا أنها قوات الاحتلال وبعد بعض التلكؤ فتحنا الباب فاندفع الجنود يتقدمهم الضابط ووجهوا لنا اللوم لتأخرنا في فتح الباب، ثم وقعت عين الضابط على دفتر أرقام الهواتف فتناوله ووضعه في جيبه، ثم طلب من مالك أن يلبس ملابسه بسرعة، فأخذوه ونزلوا الدرج ومضوا به وعلمنا فيما بعد أنه في مركز التحقيق بنابلس، ولبث هناك خمسة وسبعين يومًا موقوفًا، ثم بعد التحقيق أخذوه إلى سجن الفارعة ومكث فيه أيامًا، ثم أخذوه إلى مجدو، وقد زرناه هناك أكثر من مرة، ثم نقلوه إلى النقب وأمضى فيها بقية فترة اعتقاله. وقد حكموا عليه بالسجن ثمانية عشر شهرًا بتهمة الانتماء إلى حركة الجهاد الإسلامي.

بعد اعتقاله بأيام، وبينما كنت خارجًا من مسجد الحاج معزوز التقيت وجهًا لوجه بضابط دورية عسكرية إسرائيلية يسير في مقدمة عدد غير قليل من جنود الاحتلال، فوقف ونظر إليّ وقال: أبو مالك؟ قلت نعم. فقال: أنا فلان وعرّفني باسمه وبرتبته العسكرية، وقال: كنت ممن جاء إلى داركم لاعتقال مالك، وقد هممنا أن نأخذ غيره.

قلت: تستطيعون إن شئتم.

قال: القصة أنكم تأخرتم في فتح الباب. ثم قال: هل لديك مانع في أن أسير أنا وإياك إلى الشارع الموصل إلى بيتكم؟ قلت: لا مانع عندي. فأوعز إلى الجنود أن يعيدوا تشكيل مسيرتهم، وجرى الحديث أولًا عن أن الجميع في الشعب الفلسطيني يكن العداء لإسرائيل ولديه الاستعداد لأن يضر بها ما وجد إلى ذلك سبيلًا، وكان يبرر بذلك اعتقالهم لمالك، ثم قال: أنت الآن خارج من المسجد ولكنك تعلم والله

يعلـم مـاذا تفعـل. ثـم أراد أن يوحـي لي بـأن إسرائيـل طيبـة ولا تسـتحق هـذا العـداء، فهـا قـد وقعنـا مـع عرفـات اتفاقيـات أوسـلو وسـنمنحكم في النهايـة دولـة.

قلـت لـه: مـا الدولـة التي سـتمنحونه إياها؟ فقـال نتفق عليهـا في المفاوضـات. قلـت: لـن تمنحـوه إلا سـلطة حكـم ذاتي موظفـة لخدمـة أمنكـم. فقـال: كلا سـنمنحه دولـة وسـوف تـرى. قلـت: سـنرى، وأنـا أقـول: إنكـم لـن تمنحـوه دولـة بمعنـى الدولـة عـلى الإطـلاق، ثـم قلـت لـه: نحـن شـخصان نتحـدث ولسـنا مفاوضـين وأريـد أن أسـألك وأتوقـع منـك جوابًـا صريحًـا: هـل سـتكون مفاوضاتكـم مـع عرفـات مسـتندة إلى القوانـين الدوليـة أم إلى اعتبـارات ميـزان القـوة؟ قـال: لـن نغفـل ميـزان القـوة، فأيـة مفاوضـات مـن موقـع القـوة تختلـف عـن المفاوضـات مـن موقـع الضعـف. قلـت لـه: في هـذه الناحيـة اتفقنـا، فسـوف تفاوضـون عرفـات عـلى أسـاس أنكـم الطـرف القـوي وبذلـك لـن تمنحـوه شـيئًا. قـال: اختلفنـا، وقلـت: نعـم نحـن نحـن غـير متفقـين، ثـم أعطـى الإيعـاز لجنـوده وسـار باتجـاه العـمارة حيـث مركـز القيـادة.

مرارة الواقع بعد حلاوة الأحلام

بعـد الأفـراح والاحتفـالات بـدأت المحادثـات في واشـنطن وفي القاهـرة وفي طابـا المصريـة لتنفيـذ الاتفاقيـات وطالـت المحادثـات وتعـددت اللقـاءات بين الجانبين الفلسـطيني والإسرائيـلي، ثـم توصلـوا إلى اتفـاق: غـزة وأريحـا أولًا.

وسـبقت عرفـات إلى غـزة وأريحـا قـوات الشرطـة الفلسـطينية، ثـم دخـل عرفـات غـزة في شـهر تمـوز 1994، وبعـد ذلـك بـدأ الفلسـطينيون يسـتلمون مـدن محافظـات الضفـة الواحـدة تلـو الأخـرى.

أثنـاء وجـود السـلطة في غـزة ومنـذ اليـوم الأول بـدأ المواطنـون يرصـدون سياسـة وسـلوك هـؤلاء القادمـين الذيـن بُنيـت عـلى مقدمهـم آمـال عـراض، فبـدؤوا منـذ اليـوم الأول يرصـدون مـا لا يسرهـم ويـرون أنهـم يعـودون بهـؤلاء القادمـين إلى الـوراء بـدل أن يتقدمـوا بهـم إلى الأمـام.

عندما دخل عرفات غزة خرجت جموع لاستقباله قدّرها رجاله بأكثر مما كانت في الواقع بعشرة أضعاف على الأقل واتخذوا من هذا التقدير الذي صنعوه هم دليلًا على شرعية ما قام به ببرهان أن جماهير الشعب الفلسطيني خرجت لاستقباله، وعندما تعارضت تقديراتهم مع تقديرات جريدة القدس أمر غازي الجبالي بوقف مؤقت لتوزيع الجريدة في القطاع، فأوردت تعليقات ساخرة وصورًا كاريكاتورية للجبالي، محتمية بأن سلطان الجبالي لم يكن يصل إليها في ذلك الوقت.

ذات يوم من تلك الفترة اتصل بي صديق بالهاتف: أُطْلقت النار على الدكتور عبد الستار قاسم. فسألت بلهفة: ماذا حصل؟ قال لي: إنه في المستشفى الإنجيلي. سألت بقلق: كيف حالته؟ فقال: اطمئن، فالإصابة كانت في يده ورجله، فلا خطر على حياته. انطلقت إلى المستشفى، اطمأننت على صحته، الإصابة الرئيسة بيده، إنه يتألم، ولكن حياته ليست في خطر، إما أنهم لم يريدوا قتله وإنما يريدون تحذيره من مغبة انتقاد الرئيس بعد أن انزعج عرفات أشد الانزعاج من مقال للدكتور عبد الستار عنوانه: ديمقراطية تحت الرئيس، أو أن المكلف بإطلاق النار أصابه الارتباك فلم يستطع تصويب مسدسه إلى مقتل.

وجدت لفيفًا من أقاربه جاءوا من قريته دير الغصون، وأصدقائه حوله فهنأتهم بسلامته وهنأني بعضهم، وطلب أحد الصحفيين مني تعليقًا على ما جرى، فقلت له باختصار: إن ما جرى يعتبر مقدمة وعنوانًا للمرحلة السياسية التي نحن على وشك الدخول في غمرتها، من الواضح أننا مقبلون على مرحلة تكميم الأفواه، هذا ما ننتظره من فريق أوسلو.

كانت اتفاقيات أوسلو مثيرة لأشد أنواع المعارضة من الذين يرفضون هذا الخط الاستسلامي، من تنظيمات وأحزاب وأكاديميين، وعلى مستوى التنظيمات كان الجهاد الإسلامي وحماس الصوتين الأعليين من بين التنظيمات والأحزاب، ولكن حماس كانت أوسع إمكانيات من الجهاد، فكان يعاضدها جمهور الإخوان المسلمين العريض وبذلك كانت تشكل التحدي الأكبر لسلطة أوسلو. أما الشخصيات الوطنية فكان أشهرها

وأعلاها صوتًا هو المناضل الوطني بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس الأسبق، والذي كان قد دبر له اليهود حادثًا أدى إلى بتر ساقيه من الركبتين. أما الأكاديميون فأعلاهم صوتًا على مستوى فلسطين _كان وما يزال_ هو الدكتور عبد الستار قاسم، أستاذ العلوم السياسية في جامعة النجاح.

كنت من معارضي اتفاقيات أوسلو، ولا زلت، وكنت أجاهر بأعلى صوت بمعارضة عرفات وكل المشاركين من الفلسطينيين في بلورة هذه الاتفاقية المجحفة بحق الشعب الفلسطيني وحق الأمة الإسلامية، مثلما لم أكن أوارب أو أجامل أحدًا في تأكيدي بأعلى صوت على أن منظمة التحرير الفلسطينية انحرفت كليًا عن الهدف الذي أنشئت من أجله وهو العمل على تحرير فلسطين كل فلسطين، فأصبحت أداة لتمرير التنازلات التي حصلت في أوسلو، فلم تعد منظمة التحرير ممثلًا شرعيًا للشعب الفلسطيني، وليس هذا موقفي الشخصي فحسب، ولكنه كان وما يزال موقف حركة الجهاد الإسلامي وهي تشترط لاعترافها بالمنظمة إصلاحها من كافة النواحي وخاصة من الناحية السياسية. إذ لا بد من أن تتنصل منظمة التحرير من الاتفاقيات التي وقعت باسمها وأن تعاد إلى هدفها الأصلي الذي أُنشئت من أجله.

كنت ذات يوم من تلك الفترة متوجهًا إلى جامعة القدس المفتوحة بنابلس لقضاء مصلحة خاصة بأحد أبنائي، وكان الوقت بعد الظهر بقليل، ولم يكن في الشارع أحد على الإطلاق، وصدف أنني كنت ملتزمًا أقصى يمين الشارع الذي ليس له رصيف، وعندما كنت على وشك المرور بثنية من الشارع من ورائها طريق منحدر لا يرى منه شيء إلا بالإشراف عليه، وقبل الإشراف عليه طلعت سيارة من طراز غير حديث، تحمل لوحة ترخيص خصوصية وفيها شابّان؛ أحدهما السائق والآخر يجلس إلى جانبه، وبلمح البصر داهمتني السيارة وقذفتني حوالي مترين إلى يمين الشارع فألقتني على أرض فيها حجارة وأتربة، ونزل الشابان من السيارة يبديان الأسف ويعملان على إنهاضي، ثم إدخالي إلى مقعد سيارتهما الخلفي، وهما يكرران عبارات الأسف، ونظرت إلى الشابين فوجدتهما يلبسان ملابس لا تدل على أنهما من الوسط المثقف. وسألتهما: كيف داهمتماني بالسيارة وأنا ألتزم أقصى يمين الشارع وأنتما من أمامي لا من خلفي؟

واعتذرا بأن السائق أرخى يده عن المقود ليتناول جرعة من شراب معه فانحرفت السيارة باتجاهي رغمًا عنه ولم يستطع أن يتدارك الأمر في الوقت المناسب. وسألتهما: من أنتما؟ فذكرا لي اسمين، وماذا تعملان؟ فقالا نحن موظفان في شركة التأمين العربية. وقلت في نفسي: إنهما لا يلبسان هندام الموظفين، وتبددت بعض شكوكي عندما توجهت السيارة إلى قسم الطوارئ في مستشفى رفيديا وأوضحا للطبيب أنهما ارتكبا حادث سير وطلبا منه فحصي وسلما هويتيهما إدارة قسم الطوارئ، ثم تبين من الفحص أنه ليس لديّ كسور، فتوجهت بسيارتهما إلى البيت وكنت أسكن وقتها في شارع صلاح الدين، ونزلت وأنا أعاني من آلام متوسطة. ولا أستطيع أن أطمئن إلى أنّ الحادث مجرد حادث سير عابر؛ لأن كل الشواهد تدل على أنه كان رسالة من مخابرات السلطة التي لم تكن دخلت الضفة الغربية بعد وأن الشابين معهما تعليمات بعدم إيذائي إيذاءً مبرحًا فالمطلوب _والله أعلم_ هو ما يطلق عليه المصريون: فركة أُذُن.

ومنذ بداية مسيرة أوسلو كانت دار السيد بسام الشكعة بنابلس مقصد المعارضين لتلك الاتفاقيات ولمسيرة التآمر السياسي على القضية وتوصلت الفصائل الفلسطينية والمعارضة والمستقلون المعارضون إلى إنشاء التجمع الوطني الفلسطيني في الداخل وفي دمشق وتوافق الجميع على اعتماد بسام الشكعة ناطقًا باسم هذا التجمع في الوطن، إلا حركة حماس، فقد حضر الشهيد جمال منصور مرتين ثم لم يعد، وكذلك في دمشق لم تشارك الحركة في التجمع.

ظلت الاجتماعات تتواصل معظم سنة 1994، وكانت عناصر منظمة التحرير وهم بشكل خاص الجبهة الشعبية والديمقراطية تريد أن تكون اجتماعاتنا تحت راية منظمة التحرير وأن نرفع الشعار الذي يرفعونه وهو أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وكانت حركة الجهاد الإسلامي _وما زالت_ ترفض هذا الشعار رفضًا باتًا وهي صاحبة الصوت الأعلى في هذا المجال ولأن المطلوب موقف موحد، تراضى الجميع على أن يجعلوا موضوع المنظمة شأنًا يخص كل تنظيم على حدة، وأن يستبعد ذلك الشعار من أدبيات التجمع الفلسطيني، ولكن يومًا بعد يوم كان يتصاعد الشعور بالعجز عن تحقيق شيء عملي في مجال مقاومة

اتفاقيات أوسلو. وأخيرًا فجر اليسار الفلسطيني القنبلة في دمشق حين أعلن أن التجمع الفلسطيني يعمل تحت راية منظمة التحرير ويقر بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، فالتقينا للمرة الأخيرة لنقول لعناصرهم الذين يجتمعون معنا: لقد انقلبتم علينا وأردتم حرف مسار التجمع الوطني وبذلك لم يعد استمرار مشاركتنا لكم في الكفاح أمرًا ممكنًا.

وحاولت الشخصيات المستقلة بعد ذلك أن تنشئ جسمًا سياسيًا واضح الأهداف والخطط وأن تقصره على الشخصيات المستقلة، وتستبعد منه التنظيمات، لكنها التقت مرتين، ثم لم تعد تلتقي.

إن الدرس الذي خرجنا به من هذه المحاولة الجادة هو أن العمل السياسي على الساحة الفلسطينية لا يصلح إلا للتنظيمات ذات المواقف السياسية الواضحة والإمكانات المادية والعناصر العسكرية المقاومة، وأن هذه التنظيمات لن يكون لأي منها تأثير إلا إذا حافظ على مبادئه وأصر عليها دون مقايضة أو ملاينة.

في سنة 1994 ارتكب المتطرفون الصهاينة عدة اعتداءات ضد العرب كان أكبرها وأشدها وقعًا على النفوس ومدعاة للانتقام مجزرة الحرم الإبراهيمي التي نفذها المتعصب الصهيوني من كريات أربع الطبيب باروخ غولدشتاين يوم 25/ 02/ 1994، فقد اقتحم ذلك الصهيوني المتطرف الجزء المخصص للمسلمين من الحرم الإبراهيمي والمصلون ساجدون في صلاة الفجر ليوم الجمعة من أيام رمضان وفتح عليهم النار، فقتل تسعة وعشرين مصليًا وسقط تسعة وعشرون برصاص الجيش خارج المسجد عندما علم الناس بالخبر، وبحسب وصف شهود عيان: أخذ المجرم يعمل على تبديل مخزن الذخيرة الذي تم إفراغه بمخزن آخر مليء فقام إليه اثنان من المواطنين المصابين فكتف أحدهم يديه وضربه الآخر على رأسه بجهاز إطفاء الحريق فسقط ميتًا، وسقط قاتله شهيدًا.

كان التدبير الأولي فرض نظام منع التجول الشامل على جميع سكان الضفة الغربية، وكان تبرير ذلك أن الحكم العسكري يريد أن يحمي الفلسطينيين من الجيش وذلك بأن لا يترك مجالًا للاحتكاك.

لقد صدمتنا تلك العملية العدوانية غير المسبوقة وهزت الرأي العام العالمي، ووقف رابين ليقول لحاخامات كريات أربع وسائر المتدينين اليهود: أنتم هامشيون، في محاولة منه للإيحاء بأن هؤلاء لا يمثلون إلا قلة قليلة في المجتمع الصهيوني. وأقسم الدكتور فتحي الشقاقي أمين عام حركة الجهاد الإسلامي على الانتقام، وكذلك فعلت حركة المقاومة الإسلامية حماس فوقع العديد من العمليات الاستشهادية.

اغتيال الفارس

في 22/ 01/ 1995 نفذت حركة الجهاد الإسلامي عملية بيت ليد الاستشهادية التي خطط لها المهندس الشهيد محمود الزطمة ونفذها الاستشهاديان من الحركة صلاح شاكر وأنور سكر، وكانت في موقف تجمع للجنود في بيت ليد الواقعة بين مدينة طولكرم ومستوطنة نهاريا وأسفرت عن مقتل 24 جنديًا إسرائيليًا وجرح نحو 80 من الجنود، وكان وقعها على الإسرائيليين في غاية الشدة فقررت اغتيال أمين عام الحركة الدكتور فتحي إبراهيم الشقاقي. وقد تم تنفيذ الاغتيال بعد عملية بيت ليد بتسعة أشهر.

في 26/ 10/ 1995 استشهد الدكتور فتحي الشقاقي في جزيرة مالطة، وكان استشهاده يوم الخميس ووصلتنا أنباؤه يوم السبت، كم كانت الصدمة كبيرة على مستوى القيادة وعلى مستوى الكوادر. جاءت الصحف اليومية بالخبر المشئوم. لقد خسر الشعب الفلسطيني والأمة الإسلامية شخصية فذة، ومجاهدًا عزّ مثله إلا أن حركة الجهاد الإسلامي تغلبت على الفجيعة فبايعت الدكتور رمضان شلح أمينًا عامًا.

كان معروفًا لدى الجميع أن الحكم العسكري سيخرج قريبًا من نابلس وستستلمها قوات فلسطينية وفق الاتفاقيات الموقعة، ولكن التاريخ لم يكن معلومًا على وجه التحديد؛ لأن الإسرائيليين استفادوا من تجربة غزة. إذ إن أول انسحاب لهم كان من غزة وقد عرف الجميع موعده بالضبط فتجمع المواطنون وكلهم مَوْتور من الاحتلال، وبينما كان جنود الاحتلال يجمعون ما في المكاتب ليحملوها في السيارات

وينصرفوا، كان المواطنون الغزيون يقذفونهم بوابل من الحجارة، وبحضور الصحفيين والمصورين وكانت الصور تُبث مباشرة، وقد تفرّج الجميع عليها. لقد كانت أشد ليلة واجهها جنود الاحتلال منذ احتلالهم القطاع، وبعد أن خرجوا من المدينة وأصبحوا في مأمن من غضب الشعب المحتل احتفلوا مهنئين بعضهم بعضًا بالسلامة، وبعد ذلك قرروا أن يكون إخلاؤهم للمدن مفاجئًا وغير معلن الموعد، وهكذا فعلوا في نابلس، اضطروا في سبيل إخفاء وقت خروجهم إلى أن يتركوا برج الهوائي الضخم فوق مبنى العمارة، ففي يوم 10/ 12/ 1995 سمع المواطنون عبر مكبرات المآذن أن الاحتلال رحل وأن مدينتهم أصبحت حرة، فانطلقوا أفواجًا، رجالًا ونساءً ينظرون إلى العمارة التي كانت تملأ القلوب ذعرًا، وكان الظلام دامسًا والجو باردًا، وقد أباحت القوات الفلسطينية للمواطنين جميعًا دخول ساحات العمارة وملحقاتها ودخول السجن الذي قلّ من بين المواطنين من لم يجرِّبه. ذهبت إلى هناك وبقية أفراد العائلة وكان يلازمني منهم المرحوم عاصم الذي لم يكن يفارقني، ودخلت السجن الذي كنت قد مكثت فيه فترة قصيرة في عهد الاحتلال وتجولت أنا وعاصم في أرجاء ساحاته وفي طريق عودتنا وعلى باب العمارة الخارجي استعار عاصم بندقية حارس فلسطيني والتقطتْ له معها صورة تذكارية من أحد المصورين الذين وجدوها فرصة للاسترزاق، وهكذا فعل أولاد آخرون كثيرون.

بات الناس تلك الليلة مطمئنين إلى أن قوات الاحتلال لن تداهم أي بيت ولن تجر أحدًا إلى الاعتقال والتعذيب. ولكن الناس لم يتصوروا أن الأمر بينهم وبين قواتهم الفلسطينية لم يكن أكثر من شهر عسل وأن الاعتقالات سوف تُستأنف قريبًا. بعد ذلك بدأ التحضير لاستقبال عرفات.

كان أسوأ ما التزمت به منظمة التحرير بموجب اتفاقيات أوسلو هو ما أُطلق عليه التنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية وأجهزة الأمن الإسرائيلية.

بعد ذلك بفترة بسيطة دخلت القوات الفلسطينية نابلس، ووُجِّهت أصابع الاتهام إلى عرفات والسلطة الفلسطينية بالتقصير وعدم الجدية في محاربة (الإرهاب)

فأرادت السلطة أن تصلح موقفها فبدأت بشن حملة اعتقالات واسعة ضد قادة وناشطي حماس والجهاد الإسلامي، وكان حنق السلطة على حماس أشد؛ لأنها في معرض نقمتها على المجتمع الصهيوني الذي نِشا فيه المجرم غولد شتاين شنت حربًا على كل هدف استطاعت الوصول إليه سواء أكان عسكريًا أم مدنيًا. وكانت أولى عمليات الانتقام بعد جريمة الحرم الإبراهيمي أن فجرت حافلة في تل أبيب وأسفر التفجير عن وقوع معظم راكبي الحافلة بين قتيل وجريح فسارت مظاهرات يهودية في تل أبيب تندد بالعرب وتمجد باروخ جولدشتاين. وكانت العمليات المتكررة أكبر إهانة للأجهزة الاستخبارية الصهيونية، إذ كشفت عن مقدار عجز هذه الأجهزة عن اكتشاف العمليات الفدائية قبل وقوعها، فكانوا يصبون جام غضبهم على عرفات والسلطة الفلسطينية، فأوعز عرفات إلى أجهزته بشن حملة اعتقالات.

في الثالث من آذار 1996 سمعنا طرقًا على باب منزلنا في شارع صلاح الدين بنابلس. فتحنا الباب، فاندفع عدد من رجال الأمن الوقائي وصعدوا الدرج الذي يوصل على الشقة الواقعة فوقنا، إنهم يبحثون عن شيء، ثم تقدم مني ضابط من الأمن الوقائي وأخبرني بلهجة مهذبة أن لديه أوامر بأن يصطحبني إلى مقر الأمن الوقائي. قلت له: لا بأس وصعدنا في سيارة الأمن الوقائي وأصر على أن أجلس على الكرسي الأمامي، وتوجهت بنا السيارة إلى العمارة الشرقية، واصطحبني الضابط إلى مكتب قائد جهاز الأمن الوقائي العقيد زياد هب الريح، وكان العقيد مهذبًا في الحديث معي ولديه سؤال واحد: هل تستضيف الأسير الهارب من السجن الإسرائيلي والمطارد للقوات الإسرائيلية صالح طحاينة؟ وكرر السؤال بشكل أدق وأكثر تحديدًا: هل يبيت عندك صالح طحاينة؟ فأجبته بالنفي، وهو نفي صادق؛ لأن الشهيد صالح لم يبت عندي أبدًا. فأعاد السؤال بشكل آخر: هل تعرفه؟

فقلت: أشخاص كثيرون يزورونني في البيت بعضهم أعرفه وبعضهم لا أعرفه، وربما كان صالح من هؤلاء الأشخاص، ولكن: لم يأتني أحد ويعرفني على نفسه قائلًا: أنا صالح طحاينة.

قال: نحن نعرف أنه يتردد عليك.

قلت له: أريد أن أرى صورة صالح لأقرر ما إذا كان ممن يتردد علي.

فقال: الصورة غير متوفرة الآن وسيأتي بها الشيخ طايل فرج غدًا، ولكننا مضطرون إلى أن تبيت عندنا، وسوف تبيت في مكتبي وهذه ميزة لم تُعطَ لأحد. ثم ودعني وغادر المكتب وتركه مفتوحًا. تمددت على أريكة وثيرة تلك الليلة، وفي الصباح جاءني ضابط في الأمن الوقائي وجلس معي قليلًا وكرر السؤال حول معرفتي بصالح طحاينة فكررت له الجواب وهو أنني لا أستطيع أن أجزم بأنني أعرفه أو لا أعرفه حتى تأتيني صورته، فقال: ستأتي الصورة مع الشيخ (المقصود المرحوم طايل فرج)، وأضاف: مالك موجود عندنا في الطابق الأسفل وبميزات أقلّ، وعندما رأى المفاجأة على ملامح وجهي أدرك أنني لم أكن أعرف وأنه أخطأ في إخباري، ثم ذهب وتركني في المكتب فخرجت إلى الردهات أتسلى بقراءة الإعلانات وكان كثيرون يتجولون في الردهات ومنهم منتسبون للأمن الوقائي وكثير منهم مراجعون. والذي يعرفني منهم يأتي ويسلم علي ويسألني عن سر وجودي في هذا المكان مفترضًا أنني أريد قضاء مصلحة ما، وعندما أقول له: أنا سجين ترتسم الدهشة على وجهه.

وأخيرًا وبعد اتصالات به حضر الشيخ طايل ابن قرية تلفيت المجاورة لقريتنا وتربطني به وبوالده وأشقائه روابط صداقة، وكان نائبًا لقائد الأمن الوقائي في محافظة نابلس، وبعد السلام أراني صورة معه، فقلت له: نعم هذا الشخص جاءني بضع مرات. فقال لي: ليتك توجه له نصيحة على لساني: إنه أكبر مطلوب لدى الإسرائيليين بعد محمد ضيف، وإننا ننصحه أن يسلم نفسه للسلطة ونحن سنودعه السجن في أريحا بأحسن معاملة ممكنة وعندما يتغير الظرف السياسي سيجري إطلاق سراحه.

كانت وعود المرحوم الشيخ طايل، رحمه الله، صحيحة وفق الظرف السائد في تلك الفترة، فوعدته بأن أنقل الأمر لصالح إذا زارني. وجاءوا بالغداء وهو لا بأس به، لكنني اعتذرت عنه لأنني سأتغدى في الدار. فقالوا لي: هنالك قرار بالإفراج عنك هذا اليوم، أما مالك فسوف يبقى عندنا بعض الوقت.

قلت: إن أم مالك لن تّدخلني الدار إذا رجعت لها من غير مالك، لذا؛ فإما الإفراج عن كلينا أو أن نبقى كلانا عندكم. واحتاج الأمر إلى اتصالات وإجراءات وأخيرًا تقرر الإفراج عن كلينا، وفي طريق العودة إلى البيت ـ ولم يكن يبعد إلا دقائق معدودة مشيًا على الأقدام ـ قال مالك: إن المحقق يتساءل: متى ستكون العملية القادمة للجهاد الإسلامي؟

وصلنا البيت وبعد الترحيب رن جرس الهاتف، فإذا على الطرف الآخر الدكتور عبد الستار قاسم يسألني: هل التلفزيون مفتوح عندكم على القناة الإسرائيلية؟ قلت له: لا، ما الخبر؟ فقال: مكتوب بشكل عاجل بالعبرية: انفجار في تل أبيب. فتحنا التلفزيون على عجل، فإذا بهم ينشرون قوات الأمن ويستقدمون سيارات الإسعاف وينقلون القتلى والجرحى. إنها عملية ديزنكوف الكبيرة التي نفذها الاستشهادي من سرايا القدس رامز عبيد وأسفرت عن مقتل 24 إسرائيليًا وجرح 120، ووقعت انتقامًا لاغتيال القائد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي وكان أمر اعتقالي حديث الطلاب والمدرسين، وفي تلك الأثناء انصب غضب السلطة على حماس بالدرجة الأولى فأخذت تعتقل قيادات حماس لفترات طويلة بحسب موقع الشخص في التنظيم، وكانوا يسمون ذلك الاعتقال استضافة؛ لأنه كان مجرد احتجاز يخلو من الإهانات إلا في حالات قليلة كحالة زميلنا الشيخ محمود الزواتي الذي تعرض ل»الفَلَقَة» أثناء احتجازه، وطال اعتقال الشيخين نبيل بشتاوي وأحمد الحاج علي وهما من أبرز قيادات الإخوان المسلمين وزرتهما في معتقلهما في مخابرات نابلس أكثر من مرة بصحبة عدد من الزملاء من المدرسة.

في غمرة الاعتقالات أُعيدت إلى أذهان المواطنين صورة الجندي الإسرائيلي ذي الملابس الجيشية ولم يكن مضى على غيابها عنهم سوى أسابيع، وصاروا ينفرون من المظهر العسكري لقوات السلطة الفلسطينية التي هي أيضًا تمارس الاعتقال.

جاءنا إلى المدرسة في اليوم التالي لاعتقالي ضابط من قرية عقربا في زيارة لقريبه الأستاذ معزوز أبو شهاب، وجلس في غرفة المدير، ورآه الطلاب فتجمعوا أمام الغرفة

بشكل عدائي معتبرين زيارته استفزازًا، أو ربما هو قادم لاستدعاء المزيد من معلميهم إلى المعتقل، فخرج يهدئ روعهم ويريهم الرسالة التي يحملها، وكنت من الذين عملوا على إيضاح الصورة للطلاب بأن هذا ضيف جاء ليرى قريبه فتفرق الطلاب بعد أن تركوا انطباعًا هو أنهم يرون أن الفلسطيني القادم لم يكن إلا امتدادًا للمحتل المنصرف.

بعد ذلك بأيام زارني الشهيد صالح طحاينة، فحدثته عن اعتقالي وعن العرض الذي يقدمه له الأمن الوقائي، ففكر مليًا ثم قال: أبعث لك (أبو محمود)، ولم أسأله من هو أبو محمود واكتفيت بأنه عندما يتصل ذلك الشخص ويقول إنه من عند صالح فسوف أستمع إلى ما يقول.

أما في الجانب الإسرائيلي فإن التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة اتسعت فيها النقمة على الفلسطينيين وعلى حزب العمل الذي وقع معهم على اتفاقيات أوسلو، وقررت جماعة يمينية متطرفة اغتيال رابين فأقدم شاب صهيوني متطرف اسمه إيغال عمير على إطلاق الرصاص عليه أثناء احتفال جرى في إحدى ساحات تل أبيب يوم 04/ 11/ 1995. واستلم رئاسة الوزراء من بعده شمعون بيرس.

تحدثت في موضع سابق عن دخول العناصر العسكرية للسلطة الفلسطينية مدينة نابلس أواخر 1995، وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأ التحضير لزيارة عرفات لمدينة نابلس، وكان من جملة التحضير إعداد منصة على سطح العمارة يقف عليها الرئيس ويظللها سقف حديدي تحسبًا لوقوع المطر أثناء إلقائه الكلمة، وجاء في اليوم الموعود، وكان الترتيب المعد سابقًا يقضي بأن يكون استقباله في العمارة وحضور مأدبة الغداء للوجهاء، أما باقي الناس فيقفون في الشارع المقابل للعمارة، وجاء اليوم الموعود وتمت المراسيم كما هو مقرر لها فقد وقف عرفات ليلقي خطبة، وخلفه شخص يلقنه ما ينبغي أن يقول، جملة جملة، وعدد كبير من حوله يتحركون بشكل يجعل من الصعب أن يصيبه أحد إذا أطلق عليه الرصاص، وعندما لا يعجبه ما يلقى في أذنيه كان يلوح بكوفية بيده بحركات يدعي فيها أنه مبتهج وفخور بموقفه هذا.

وحضر الوجهاء وقادة الفصائل الفلسطينية كلهم الاحتفال ثم الغداء، إلا الجهاد الإسلامي بطبيعة الحال.

أرادت السلطة الفلسطينية أن تجرب أسلوب الحوار مع المعارضين، فقررت عقد جلسة حوار في نابلس عام 1996 وأحاطوا ترتيبات عقدها بمقدار وافر من الدعاية، وقرر الجهاد الإسلامي عدم الحضور لأن الحضور ستطلق له دعاية من قبل السلطة بأن الجميع بايع الرئيس وانضوى تحت لوائه. وانعقد المؤتمر وحضر الجميع ما عدا الجهاد الإسلامي، وحصل ما توقعنا، فبعد أيام من انتهاء المؤتمر وقعت بين يدي مجلة فلسطينية فإذا فيها مقال طويل عريض بقلم الدكتور سمير شحادة عن مؤتمر الحوار في نابلس وفيه أن جميع الفصائل الفلسطينية بالإضافة إلى قيادات وزعامات الشعب الفلسطيني، كلهم حضر وبايع القائد، السيد الرئيس.

في تلك السنة بدأت أعاني من ظهور مرض في الجلد تحت الجفن الأسفل لعيني اليسرى، وكان ظهوره قد بدأ منذ السنة السابقة (1995) إلا أنه بدأ بسيطًا على شكل تيبس في منطقة صغيرة من تحت الجفن وعندما أجده قابلًا للنزع أنزعه فيتبين لي أن تحته تقرحاً فراجعت الدكتور الجراح جهاد عون الله فقال: هذا أبو حافور، وأعطاني دهونًا له وكان الدهون ناجعًا في البداية، ثم بدأت تقل نجاعته بالتدريج، وبدأت المشكلة تظهر ويشاهدها الجميع ويتساءلون عنها.

جاءني في صيف تلك السنة اتصال هاتفي من شخص قال إنه أبو محمود، ولم أفهم ما قال؛ لأن الخط كان مشوشًا، ثم بينما كنت أتصفح جريدة القدس في الثالث من تموز 1996 وقعت عيني على الخبر الصاعق، وهو العثور على جثة المطارد صالح طحاينة في غرفته التي يسكنها في رام الله وقد قُتل بطريقة غامضة، ولكن تبدو على جثته آثار العنف.

يا له من خبر ويا لها من خسارة، لقد تلقيت النبأ ونحن في زيارة لقريتنا جالود وعدنا مسرعين إلى نابلس ومن هناك توجهت إلى جنين فسيلة الحارثية حيث أقيم بيت العزاء، ومكثت فيها فترة من النهار شاهدت من أعرفهم وتعرفت على آخرين لم أكن التقيت بهم ومنهم الأخ شريف طحاينة الذي كان في سجن السلطة، ثم أفرجوا عنه كي يشارك في عزاء صالح، ثم عدت إلى نابلس. وفي اليوم التالي جاءني ضابط من

الأمـن الوقائـي وبيـده مذكـرة جلـب وقـال لي بـأدب: مطلـوب منـي أن أصطحبـك إلى قيـادة الأمـن الوقائـي ولكـن، بالإمـكان أن أعـود أنـا وتـأتي وحـدك. ففضلـت أن أذهـب وحـدي، وفي السـاحة الخلفيـة للمبنـى التقـاني العقيـد زيـاد هـب الريـح وسـلم ببشاشـة، ثم قـال لي: ألم تكـن عندنـا قبـل فـترة ثـم عـدت إلى بيتـك في اليـوم التـالي؟ قلـت لـه: نعـم. فقـال: ولكنـك هـذه المـرة مطلـوب إلى القيـادة في أريحـا وليـس لي دخـل في الأمـر والسـيارة جاهـزة لنقلـك. قلـت لا بـأس وكان في السـيارة السـائق وشـخص مرافـق، وتوجهنـا إلى أريحا، وعـلى الطريق كانـت دوريـة شرطـة إسرائيليـة فأوقفـت السـيارة وقـال الشرطـي الإسرائيلي للسـائق: سـلطة فلسـطينية؟ قـال: نعـم، قـال لـه لمـاذا كنـت تسـير بسرعـة فـوق المسـموح بـه؟ أجابـه: الطريـق مفتـوح ولذلـك أسرعـت، فكتـب لـه مخالفـة وأكملنـا المسـير وكان مقصدهـم أولًا مكتـب أبي رامـي (جبريـل الرجـوب) فلـم يجـدوه في مكتبـه فتوجهـت السـيارة إلى قسـم المتابعـة حيـث يوجـد نائـب رئيـس الجهـاز العقيـد أبـو العـز. وهنـاك بـدأ الحديـث غـير ودي، ثـم لم يلبـث النقـاش أن أصبـح عاصفًـا وتحـول إلى تهديـد متبـادل، ثـم هـدأ وعدنـا إلى الحديـث حـول صالـح طحاينـة، وبعـد ذلـك أرسـلوني إلى زنزانـة فيهـا ثلاثـة أشـخاص تهمهـم جنائيـة وفيهـم شـيخ تجـاوز السـبعين، ومكثـت في أريحـا ثلاثـة أسـابيع بالكـمال وكان في المركـز معتقلـون مـن الجهـاد الإسـلامي أذكـر منهـم أيمـن زلـوم وعـارف زيـاد وشريـف طحاينـة الـذي أعيـد إلى السـجن بعـد انقضـاء مـدة العـزاء، وسـعيد نخلـة وكانـت السـلطة تحقـق مـع جميـع معتقـلي الجهـاد الإسـلامي في محاولـة منهـا لمعرفـة الـذي اغتـال صالـح طحاينـة، وكان في مركـز التوقيـف ذلـك، معتقلـون مـن تنظيـمات أخـرى، وآخـرون عـلى خلفيـة الارتبـاط بالعـدو، ولقـد تلقيـت مـن القائمـين عـلى أمـر السـجن معاملـة حسـنة بشـكل اسـتثنائي والحقيقـة أن معاملتهـم للسياسـيين كانـت حسـنة إلا في حـالات قليلـة، أمـا معاملتهـم الجنائيـين فلـم تكـن حسـنة.

كانـوا يريـدون أن يعرفـوا منـي مـا أعرفـه عـن اغتيـال صالـح، وأكـدت لهـم صادقًـا أننـي لا أعـرف شـيئًا عـن الموضـوع، وأخـيرًا قلـت لهـم: إنـه لا فائـدة مـن بقائـي هنـا وإننـي إذا عرفـت شـيئًا عـن القاتـل فسـوف أبلغكـم؛ لأنـه يهمنـا في الجهـاد الإسـلامي أن يعاقـب القاتـل وسـوف نـكل إليكـم عقوبتـه، فوافـق أبـو رامـي عـلى الإفـراج عنـي.

في السنة الدراسية الجديدة 1996-1997، كانت قد تفاقمت عندي مشكلة هذا التقرح الذي تحت الجفن وبدأ يتسع ويؤلم، وتوجهت إلى طبيب جلد، وبمجرد النظر إليه قرر أن هذا سرطان حميد وأن مشكلته بسيطة فيمكن إزالته بعملية جراحية تجري في مستشفى الاتحاد ولا تستغرق أكثر من نصف ساعة ولا تحتاج إلا إلى بنج موضعي. سررت مما سمعت، ولكن نصحني العارفون أن أتوجه قبل مستشفى الاتحاد إلى أشهر طبيب عيون في نابلس والذي بدأ يلمع نجمه حديثًا إنه الدكتور عبد الفتاح عرفات. وذهبت إلى عيادته في رفيديا وانتظرت دوري في جمهور المراجعين وعند باب غرفة الفحص ودون حاجة إلى أي فحص ودون أن يلقي بالًا للكشفية، وبمجرد أن نظر إلي قال: إن لديك مشكلة كبيرة جدًا وتحتاج إلى عملية بالغة الدقة والتعقيد وبتخدير كامل ولا يستطيع أحد في الضفة الغربية أن يمد يده إليها، ولكن هنالك بروفسور إنجليزي سيأتي قريبًا إلى مستشفى العيون في القدس (مستشفى البقعة) وهو يجري العمليات المعقدة التي لا يستطيع الأطباء عندنا إجراءها. فأسرع إلى هناك واحجز لنفسك دورًا عند البروفسور، وبما أنني أعمل في المستشفى أيامًا من الأسبوع، فسوف أساعدك.

شكرته وأيقنت أن كلامه كلام عالم بالأمر، فقررت أن أتوجه في اليوم التالي إلى القدس إلا أنه في اليوم الموعود وقعت عدة عمليات فدائية تبنتها كلها حماس فطار صواب الكيان المحتل وفرضوا إغلاقًا كاملًا على الضفة الغربية وحظرًا للتجول على القدس الشرقية، فأخذت أترقب بفارغ الصبر رفع منع التجول، ولم يرفع إلا بعد أسبوعين، وعندما أعلنوا عن رفعه وكان يوم جمعة توجهت إلى رام الله لعلمي أن العيادات الخارجية في المستشفى الذي هو إنجليزي إنما تعطل يوم الأحد.

في رام الله أردت أن أركب في السيارة المتوجهة إلى الرام لأنزل في أقرب نقطة من شارع القدس، ولكن سائق السيارة أكد لي بأن دخول القدس من المستحيلات؛ لأن الدوريات العسكرية الإسرائيلية تنتشر على طول الشارع، ثم إنه لو أمكنك دخول القدس فإنك لن تستطيع أن تخطو فيها خطوة واحدة؛ لأن الدوريات العسكرية تملأ الشوارع. لقد أشعرني ذلك السائق باليأس فنزلت من السيارة وهممت أن أعود أدراجي إلى نابلس، ثم إنني فكرت في الأمر وغيرت رأيي فالعودة من غير أن أصل

المستشفى فشل كبير وأنا في أمس الحاجة إلى هذا المشوار، والمغامرة أفضل بكثير من العودة الفاشلة، إذًا فعليّ أن أحاول المستحيل للوصول إلى المستشفى. رجعت إلى موقف السيارات وقلت لأحد السائقين: أريدك أن توصلني إلى أقرب نقطة من شارع القدس فوافق، وأوصلني إلى مدرسة راهبات الوردية في الرام وقال: هناك في أسفل الشارع مكتب تكسي يمكنه أن ينقلك إلى القدس، وجئت المكتب وقلت لشخص فيه: هل أستطيع استئجار سيارة إلى القدس، إلى مستشفى العيون؟ قال: نعم، وبعد أن اتفقنا على الأجرة قال: اقطع الشارع وانتظر السيارة في مكان لا يشاهدك فيه جنود الحاجز، وأنا أتوجه بالسيارة إلى الحاجز ثم أقطعه وآتيك فأجدك على الرصيف.

التفتُّ يمينًا ويسارًا فلم أر في الشارع أية دوريات عسكرية قائمة أو قادمة، وفي نقطة لم يعد يظهر فيها الحاجز، قطعت الشارع بهدوء ووقفت على الرصيف وجاءت السيارة وحملتني إلى المستشفى، ووجدت جموعًا غفيرة وعددًا كبيرًا من العيادات وسجلت اسمي وانتظرت إلى ما بعد الظهر حتى جاء دوري وأدخلت إلى طبيب عيون لا يعرف العربية فاستعان بمترجم ونظر إلى التقرح فسألني: ما هذا؟ قلت له: لا أدري فإنني قادم بنصيحة من الدكتور عبد الفتاح عرفات لأحجز موعدًا لدى قدوم البروفسور الإنجليزي، فأرسل شخصًا إلى الدكتور عبد الفتاح يطلب منه أن يأتي ويشخص له هذا المرض الذي لم يكن قد مرّ على ذلك الطبيب من قبل. فقال د.عرفات للمرسال: إنني أنا أيضًا لا أعرف حقيقة هذا المرض وإنني أجري الآن عملية جراحية، فلا وقت عندي للنزول إلى العيادات ولكن هذه الحالة تعرض على البروفسور تايسون عندما يأتي. وكان البروفسور الإنجليزي ينوي القدوم بعد أيام قلائل فحجزوا لي الموعد. لم يكن الخروج من القدس صعبًا مثل دخولها، فعدت أدراجي إلى نابلس استعدادًا للموعد المقرر، ولدى حلول الموعد توجهت إلى القدس ترافقني زوجتي، وهناك قابلت البروفسور الذي كان يفيض وجهه بالإنسانية والتواضع الذي يتناسب وعلو قدره بين الأطباء وبمجرد أن نظر إلى ذلك القرح أشار إلى الطبيب المساعد الذي كان يجلس بجانبه وأخذ يحدثه عما سيفعل، وكان واضحًا من كلامه أن العملية ستكون معقدة، فقد أشار البروفسور أنه سينزع الجفن الأسفل للعين اليسرى

وسيزيل جميع الخلايا الموجودة وسيجر الجلد من طرف الصدغ الأيسر ليشكل منه جفنًا اصطناعيًا وسيأخذ بطانة ذلك الجفن من باطن شفتي السفلى، ثم طلب مني أن أتوجه إلى العيادة ليحجزوا لي موعدًا لإجراء العملية، وكان الموعد بعد يومين من ذلك الوقت، وحضرت في الموعد المحدد ومعي جميع الفحوصات التي طلبوها، ومن جملتها فحص القلب، ونظر طبيب التخدير في الصور والتقارير الطبية فوجد كل شيء سليمًا إلا شيئًا واحدًا لم يعجبه يتعلق بصورة نبضات القلب، إذ إنه لاحظ أن في آخر الشريط خطًا صغيرًا لا ينسجم مع بقية الخط المتعرج الذي يصف نبضات القلب، ولكنه لم يتوقف عند ذلك طويلًا فالمسألة بسيطة.

كانت التجربة التي لا سابق لها عندي في التخدير الكلي وطلبوا مني أن أتمدد على طاولة التخدير في غرفة العمليات وخدرني الطبيب في موضعين من اليد وكنت أول وهلة في كامل وعيي أحدق في المصباح الكهربائي الذي في السقف، وبعد أقل من دقيقة غبت عن الوعي، ثم صحوت على حركة الممرضين يضعونني على سريري في المستشفى وقد تمت العملية بنجاح.

في الصباح كانت عيني التي أجريت لها العملية مغطاة، وكنت أشعر بألم في عينيّ كلتيهما وكأن الثانية تتضامن مع الأولى، فأخذوني على العربة المخصصة لنقل الذاهبين إلى غرفة العمليات وهناك التقيت بالبروفسور الإنجليزي وشكرته، ثم سألني عن حالي فقلت له: أشعر وكأن عيني كلتيهما مليئة بالحجارة. فقال لي: هذا أمر طبيعي وسوف يزول بالتدريج، وأردف لقد كانت المشكلة عندك كبيرة ومعقدة ولم أكن أعرف أنها بهذه الضخامة إلا عند المباشرة في العملية.

كانت الحالة كما وصفها لي الدكتور عبد الفتاح عرفات عندما قابلته أول مرة: لقد أزيل الجفن الأسفل من عيني اليسرى بالكامل، واقتلعوا ذلك السرطان من جذوره ثم أنشأوا لي جفنًا اصطناعيا من جلد الوجه وبطانته من باطن الشفة، ولقد مكثت في المستشفى زهاء أسبوع آخذ خلاله أنواعًا من القطرات عدة مرات في اليوم وكانت لحمة باطن الشفة تنمو رويدًا رويدًا، وكلما ازدادت نموًا تحسنت قدرتي على

الكلام، وبعد الخروج كان عليّ أن آخذ أكثر من نوع من القطرة ولمدة طويلة، وكنت أصطحب القطرة معي إلى غرفة الصف وعندما تأتيني نوبة الألم أقطع الدرس وأضع القطرة في عيني حتى تهدأ. وكنت في الأسابيع الأولى للعملية أصحو من النوم على ألم فظيع في كلتا عيني فاهرع إلى القطرة المهدئة وهكذا، ولقد كان من لطف الباري بي أن ذلك السرطان لم يكن داخل تجويف العين إذًا لن يكون ثمة حل إلا قلع العين لإجراء العملية. وكان المطلوب مني أن أراجع المستشفى مرة كل أسبوعين لمراقبة آثار العملية، وأخذوا من الورم عيِّنة أرسلوها إلى لندن للفحص فتبين أنه سرطان ذميم ولكن البروفسور طمأنني إلى أن هذا النوع من السرطان يجري استئصاله ثم لا يعود. إن آثار تلك العملية لا يزال لها وجود حتى الآن، والله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ صدق الله العظيم.

الاستقالة من المدرسة

في نهاية العام الدراسي 1996/ 1997 كنت قد أكملت خمس عشرة سنة في المدرسة الثانوية الإسلامية، وقد تقلبت الأحوال فيها فمن ناحية الهيئة الإدارية، فبعد أن كانت مكوَّنة من كافة ألوان الطيف السياسي والاجتماعي في المدينة أصبحت على إثر الاستقطاب الناشط تتكون من لون سياسي واحد غير متعاطف ولا متقبل على الإطلاق للاتجاه السياسي الذي أومن به وأمارس نشاطي من خلاله، وبمجرد أن تشكلت اللجنة من ذلك الاتجاه اتخذوا قراراتهم بإبعادي عن لجان الإدارة والتوجيه في المدرسة، ولم يكن هذا الأمر ذا أهمية بالنسبة لي إلا أنني أصبحت أعمل في جو غير مريح لي. يضاف إلى ذلك أنه عمل لا مستقبل له وهذه أكبر السلبيات، فالتعليم إجمالًا مهنة شاقة تعلق بعنق المعلم إلى أن يموت، وإذا كان ثمة قليل من الفرص أمام معلمي الحكومة ليترقوا، ـ وكنت واحدًا ممن تهيأت لهم فرص الترقية إلى موجه تربوي وأنا في قدري طوقان إلا أنني فضلت عليها الكفاح في صفوف المعلمين ـ فالعمل في مدرسة أهلية لا يتيح مثل هذه الفرصة، لذلك كله طلبت تعويضاتي التي أستحقها عن سنوات خدمتي وكانت ضئيلة للغاية، ثم سألني الشخص الذي كان يمثل حلقة

الوصل بين المدرسة والجمعية إن كنت أرغب في التجديد في المدرسة بعقد خاص، أي: براتب مقطوع، فقلت له: لا أرغب، فنقل الأمر إلى الهيئة الإدارية للجمعية فوجدتها فرصة فأرسلت إلي كتاب قبول استقالة، ودون أن أتقدم بالاستقالة الخطية، وأنزلت إعلانًا فوريًا في الصحف عن حاجتها على معلم لغة عربية. كان الأمر غريبًا بالنسبة لي أن يقبلوا استقالة وصلتهم أنباؤها شفويًا ولم أتقدم بها خطيًا، وأن يسارعوا إلى إعلان الشاغر إلا أنني لم آسف على الخروج من هذا الوضع غير المريح، ولم أكن خائفًا على مصدر الرزق فمكانتي في الوسط السياسي الذي أخدمه جعلته يسارع إلى سد هذا الفراغ المادي بنسبة كبيرة كما أن استقالتي جعلتني أتفرغ للنشاطين السياسي والاجتماعي، ومكنتني من العمل جزئيًا في كلية الروضة للعلوم المهنية.

في صيف 1997 كانت ثمة تحضيرات للمنهج الأردني الجديد الذي سيدرسه طلاب الأول الثانوي (ما قبل التوجيهي) وجاءني تكليف بأن أشارك محاضرًا في دورة تربوية لتهيئة المعلمين والمعلمات لتدريس المنهج الجديد، وقيل لي إن الدورة مجانية أي أن المحاضرين لن يتلقوا أي أجر، فوافق المحاضرون كلهم؛ لأن الهدف المادي لم يكن مقصدهم وشاركت في الدورة ونالت محاضراتي استحسانًا مميزًا، ورأيت تكملة للفائدة أن أزود المعلمين والمعلمات بشروحات وتوضيحات أعددتها وطبعتها بوساطة الحاسوب وأعطيت كل واحد وواحدة من المشاركين نسخة ورفعت منها نسخة إلى الوزارة بوساطة مكتب التربية والتعليم بنابلس، وبعد أيام اتصل بي موجه اللغة العربية الصديق المرحوم محمد شريدة متأسفًا ومعتذرًا بأن التعميم من الوزارة حمل اسمه هو دون معرفة مسبقة منه، لقد كان عملًا غير أخلاقي من الوزارة وعلمت أنها تنتهج سياسة ألا تكتب اسم من لا يعمل معها وأن تكتب أية دراسة تصلها باسم الموجه التربوي الذي جاءت الدراسة عن طريقه.

كما رأيت إتمامًا للفائدة أن أكتب دليلًا للمعلم حول الإجابات التي اعتمدت في الدورة لتكون مرجعية له، وكلفني ذلك الكثير من الوقت والجهد، فأخرجت تلك الدراسة مطبوعة وسلمتها للموجه التربوي في مكتب التربية والتعليم ليرفعا إلى الوزارة، وقال لي بعد ذلك إن الوزارة وافقت على الدليل، ثم لا أدري ما حصل له.

تكليف باء بالفشل

كانت المناهج التعليمية منذ وقع الاحتلال عام 1967 وإلى مجيء السلطة الفلسطينية مناهج أردنية، وعند تطبيق اتفاقيات أوسلو، تعاقدت السلطة مع الحكومة الأردنية على استمرار تدريس تلك المناهج إلى أن يتم وضع مناهج فلسطينية، ووجدت السلطة أن بعض الدروس في المناهج الأردنية لا لزوم لها كتلك التي تتحدث عن «أمجاد» الأسرة الحاكمة أو عن قرى أو مدن شرق أردنية، فطلبت الوزارة من أشخاص لهم باع في العملية التعليمية أن يضعوا بدل بعض تلك الدروس، دروسًا ذات طابع فلسطيني، وكنت أحد من كلفتهم الوزارة بهذه المهمة، فطلبوا مني أن أستبدل بدرس عن الشاعر الأردني عرار في منهج الخامس الأساسي درسًا آخر على أن أكتب وحدة متكاملة تحتوي على موضوع نثري وقصيدة شعرية وتمارين إملائية واستنتاجات نحوية. وفكرت بالأمر، فالمطلوب اختيار شخصية وطنية لا تثير حفيظة الجانب الإسرائيلي، وبالتالي لن يكون مقبولًا أن تكون تلك الشخصية عبد القادر الحسيني ولا عز الدين القسام ولا عبد الرحيم الحاج محمد مثلًا، فلا بد من أن تكون الشخصية معتدلة يمكن السكوت عنها إسرائيليًا، فاخترت الحاج أمين الحسيني، وأردت أن أختار قصيدة لا تواجَه بالرفض، وكنت أفضِّل قصيدة الفدائي لإبراهيم طوقان:

لا تسل عن سلامته ... روحه فوق راحته

أو الشهيد:

عبس الخطب فابتسم ... وطغى الهول فاقتحم

أو قصيدة بشارة الخوري:

سائل العلياء عنا والزمانا ... هل خفرنا ذمة مذ عَرَفانا

أو قصيدة ابن الرومي:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ... وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا

ولكنني كنت متأكدًا من أنَّ أيًا منها لن يكون مقبولًا، فاخترت قصيدة تفيض بالاعتزاز ولكنها تدور حول أمجاد الشاعر الشخصية لا أمجاد الأمة. وهي قصيدة عنترة في الفخر ومطلعها:

أنا في الحرب العَوان   غير مجهول المكان

وقلت: لعل هذه تكون مقبولة، وجهزت الوحدة حسب الأصول وأرسلتها، ولكن جاءني بعد فترة أنهم لم يقبلوا الاختيار لا الموضوع النثري ولا القصيدة، وطلبوا مني أن أغير الوحدة، فقلت لهم: لن أغير شيئًا ولن أشارك في هذا الأمر مستقبلًا. والذي حصل أنهم كلفوا غيري فكتب لهم عن خليل السكاكيني فقبلوا ذلك، ثم لم يراجعوني بعدها.

مؤتمر الحوار في رام الله

كان موقف الجهاد الإسلامي منذ مجيء سلطة أوسلو المقاطعة التامة بحيث لا مشاركة لهذه السلطة لا في الحكم ولا في المجلس التشريعي ولا في الاحتفالات التي تقيمها ولا في مؤتمرات الحوار التي تعقدها كل سنة، والحوار الأول عقدته في نابلس سنة 1996 فقاطعه الجهاد الإسلامي وحده من بين جميع الفصائل العاملة على الساحة الفلسطينية لعلمها أنه لم يكن يقصد منه سوى ترويض المعارضة والادعاء بأنها دخلت بيت الطاعة العرفاتي. وفي العام التالي، في مطلع آب 1997 عقد مؤتمر حوار في غزة، وحضره الجهاد الإسلامي مفترضًا أن حضوره فيه فائدة، وكان مؤتمر حوار في رام الله بعد مؤتمر غزة مباشرة، فتقرر أن يحضره الجهاد الإسلامي، وقد مثلت التنظيم في هذا اللقاء.

طلبت مني القيادة في دمشق أن أكتب الكلمة التي سألقيها وأن أبعثها لهم كي ينظروا فيها، فكتبت الكلمة وأرسلتها وبعد فترة قصيرة جاءني الرد بأن الكلمة جيدة، ولكنها لا تشمل كل المطلوب، وطلبوا مني أن أنتظر كلمة تأتيني من القيادة، وفي حوالي الساعة الثالثة صباحًا جاءت الكلمة فهيأت نفسي للسفر وفي الصباح سافرت بالباص إلى رام الله.

كان مبنى المجلس التشريعي والذي سيُعقد فيه الاجتماع، يقع في الطابق الأرضي من وزارة التربية والتعليم، وكانت إجراءات الدخول بسيطة وتقتصر على من له اسم في قوائم قوات الحراسة الفلسطينية، ثم دخلنا القاعة التي كانت معدة بعناية فالصف الأول كان لأعضاء اللجنة المركزية لمنظمة التحرير وما تبقى من المقاعد فللوزراء أما الصف الثاني فلبقية الوزراء ومن سيحضر من أعضاء المجلس التشريعي ولممثلي بعض الفصائل، ثم الصف الثالث فالرابع لبقية الحاضرين من فصائل وغيرها. لاحظت أنه في قلب الصف الأول للجنة المركزية وبالتحديد في المقعد المواجه مباشرة لعرفات الذي سيترأس المنصة بالطبع، كان غسان الشكعة وأن المقعد الذي يأتي بعده مباشرة في الصف الذي يليه كان للجهاد الإسلامي، فقد خصصوا للجهاد أحسن مقعد في الصف الثاني. وكان إلى يميني وزير الاتصالات وقتها، عماد الفالوجي، ولكنه لم يلبث أن قام وجاء محله الدكتور نبيل شعث، أما عن يساري فظننت أنه وزير التربية والتعليم ياسر عمرو وسلمت عليه بهذا الاسم، لكنه صحح لي المعلومة فهو وزير الأوقاف وكان شبيهًا بياسر عمرو. ودخلت حنان عشراوي القاعة، فلم تجد لها موقعًا في الصف الأول، فرفضت أن تتأخر إلى الصف الثاني وكاد يقع إشكال إلا أن المشرفين سارعوا وتدبروا الأمر وهيأوا لها مقعدًا في الصف الأول. وكان من بين أعضاء المجلس التشريعي الحاضرين الراحل المحترم الدكتور حيدر عبد الشافي.

وبعدما اكتمل الحضور دخل عرفات والمقربون منه، فقام الجميع، وتبوأ مقعده من المنصة، وكان الطيب عبد الرحيم عريف الحفل وقد غصت القاعة بأعداد كبيرة من الصحفيين، ثم كان الافتتاح، ثم بدأ إلقاء الكلمات وكانت كلمتي ختام الكلمات في جلسة الظهيرة. لم أجد أحدًا معه كلمة مكتوبة غيري، بل كان كل من له كلمة يقف ويقول ما يحضره عارضًا موقفه أو موقف الفصيل الذي مثله، وكان خطاب كل واحد منهم موجهًا مباشرة إلى الرئيس عرفات محاطًا بكل الألقاب ما صح منها وما لم يصح والنص عند الجميع واحد: سيادة الرئيس ياسر عرفات، رئيس دولة فلسطين، رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وعندما بدأ السابق لي يلقي كلمته أعطاني الطيب عبد الرحيم إيعازًا بأن دوري هو التالي، وكان

علي في استهلال خطبتي أن أخاطب الرئيس عرفات بخطاب غير نفاقي، فقلت: الأخ الرئيس أبو عمار، الإخوة الحضور: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أحييكم باسم حركة الجهاد الإسلامي عمومًا وباسم الأمين العام الدكتور رمضان عبد الله. وكنت أقرأ عن ورقة صورتها بخط كبير، وكان معلومًا لدى كل الحاضرين أنني أقرأ خطابًا أعدته قيادة الجهاد الإسلامي في دمشق، فهو يمثل الموقف الرسمي للحركة، وكان من أبرز ما ورد فيه دعوة عرفات إلى الخروج من وحل أوسلو مقتديًا بالزعيم المصري مصطفى النحاس الذي ألغى المعاهدة التي كان قد وقعها مع الإنجليز ولما سئل في ذلك قال: وقعتها من أجل مصر وأنا ألغيها من أجل مصر. وكان المفصل الثاني من الكلمة يدور حول الفساد وضرورة محاربته. وكانت بالإجمال كلمة قوية، عرضت موقف الجهاد الإسلامي من غير مواربة وصريحة إلى أبعد الحدود، وكانت أكثر كلمة استحوذت على اهتمام الصحفيين الذين أرادوا أن يعرفوا ما إذا كان حضورنا يمثل تغييرًا في موقف الجهاد الإسلامي من العملية السياسية الجارية أم أنه جاء لتسجيل حضور وتأكيد مواقف معروفة، وقد ألقيتها بصوت جهوري، فكانت ثقيلة على مسامع رجال السلطة، وعندما انتهيت منها لم يشأ الطيب عبد الرحيم أن يمررها من غير غمز، فقال: صدعت رؤسنا يا أبو مالك. ثم أعلن أن ثمة جلسة مسائية ستناقش فيها الكلمات، وعندما انفض الناس جاءني كل من الدكتور حيدر عبد الشافي والدكتورة حنان عشراوي مهنئين ومباركين، وجاء أحد أبناء الشيخ أسعد بيوض التميمي مصافحًا وليرسل تحياته للدكتور رمضان. وظللت كلما التقيت بالدكتور حيدر والدكتورة حنان أرى منهما احترامًا خاصًا وقد التقيت بهما مرات عدة في مناسبات أخرى.

وأردت في البداية أن أتأخر إلى المساء للمشاركة في النقاش، ثم قدّرت أن هذا ليس ضروريًا فيكفي أننا حضرنا.

كان في الخارج مراسلو محطات تلفزيون يريدون أن يجروا معي مقابلة وكان السؤال الرئيس: هل غيَّر الجهاد الإسلامي موقفه من السلطة بحضوره جلستي الحوار في غزة ورام الله؟ فقلت لهم: إن موقف الجهاد الإسلامي من اتفاقيات أوسلو والعملية السياسية برمتها موقف استراتيجي ثابت، ولكن ثمة أمور إجرائية يحدد

الجهـاد الإسـلامي موقفـه منهـا حسـب الظـروف، وقـد رأى أن يحـضر هـذا اللقـاء كـي يسـمع الجميـع موقفـه ويعـرض عـلى المـلأ اسـتراتيجيته.

كان في انتظـاري بعـض الإخـوة مـن الجهـاد وعـلى الأخـص الأخ سـعيد نخلـة (أبـو عـلاء)، وكان منهـم الصحفـي عيسـى الشربـاتي. قفلـت عائـدًا إلى نابلـس بالبـاص؛ لأننـي وجـدت ذلـك أسـلم. وكان دخـول المدينـة يعنـي الأمان مـن الاعتقـال؛ لأن نظـام مناطـق (أ) الـذي لا تجيـز الاتفاقيـات للجيـش الإسرائيـلي دخولهـا كان معمـولًا بـه، وكانـت اعتقالاتهم لسـكان هـذه المناطـق تتـم عـلى الحواجـز الثابتـة أو ينصبـوا لـه حاجـزًا طيـارًا.

في المسـاء اتصـل بي عيسـى الشربـاتي ليخـبرني أنـه حـضر الجلسـة المسـائية كصحفـي وأن الطيـب عبـد الرحيـم شـن هجومًـا عـلى الجهـاد الإسـلامي مدعيًـا أنـه تحـدث بلهجتـين: واحـدة معتدلـة في غـزة والثانيـة متطرفـة في رام الله، وقـال: إن منـدوب الجهـاد الإسـلامي جـاء بخطـاب مـن دمشـق فألقـاه عـلى مسـامعنا، وقـال الشربـاتي: لقـد تصـدى لـه عبـد الرحيـم ملـوح منتـصرًا لموقـف الجهـاد الإسـلامي، ووقعـت بـين الرجلـين مشـادة كلاميـة حـادة، وفي اليـوم التـالي اتصـل بي الشربـاتي نفسـه ليخـبرني عـما ورد في الصحـف العبريـة حـول المؤتمـر وحـول كلمـة الجهـاد الإسـلامي، وأنهـا ركـزت كثـيرًا عـلى عبـارة: نحـن جميعًـا مـشروع شـهادة، كـما ركـزت الصحافـة العبريـة عـلى دعـوة الجهـاد الإسـلامي السـلطة إلى الخـروج مـن وحـل أوسـلو.

مـر العـام الـدراسي 1998/ 1999، وقـررت وزارة التربيـة والتعليـم منهاجًـا جديـدًا لمرحلـة التوجيهـي وعقـد دورات للمعلمـين الذيـن سـيتولون تدريسـه، وكلفـوني بالمشـاركة في الـدورة محـاضرًا، فاخـترت مـادة النحـو والـصرف، فاشـتغلت في تحضـير المـادة فـترة طويلـة واسـتغرقت الـدورة أكثـر مـن شـهر، وكانـوا قـد أخبرونـا بأنهـا سـتكون مدفوعـة الأجـر، وعندمـا انتهـت الـدورة قالـوا لنـا: أنتـم متطوعـون.

في هـذا الصيـف 1998، ولأننـي مـدرس في كليـة مجتمـع كُلّفـت بـأن أشـارك في تصحيـح أوراق كليـة المجتمـع في رام الله، فاتصـل بي معتقلـو الجهـاد الإسـلامي في سـجن الجنيـد وطلبـوا منـي أن أزورهـم وأجلـب لهـم جهـازًا محمـولًا. واشـتريت لهـم الجهـاز،

وجلست معهم مجلسًا حرًا، وكان فيهم الشهيد إياد الحردان، فقلت له: لقد اتصل بي شلومو غانور من الإذاعة الإسرائيلية وسألني: هل إياد الحردان ما زال في سجن السلطة؟ فأجبته بالإيجاب، فصفق المعتقلون لإياد يمازحونه ويقولون له أصبحت مشهورًا ويتردد اسمك في الإذاعة.

يبدو أن اعتقال السلطة لعناصر الجهاد الإسلامي وحماس كان إجراءً مفروضًا عليها ولم تكن ترغب فيه اجتنابًا للمشاكل مع المواطنين، وكانت السلطة في ذلك الوقت تقدم تسهيلات للمعتقلين مع العلم أنه لم يكن لهم قضايا ولا محاكم، ولكنه اعتقال على ذمة الرئيس لا يملك غير الرئيس صلاحية الإفراج عنهم، ولم يكن للقضاء والقانون والمحاكم أي اعتبار على الإطلاق، وكذلك كان المجلس التشريعي الذي لم يكن له أية فعالية في الأمور الهامة.

في عام 1998 كان مطلوبًا من السلطة الفلسطينية، كي تستمر الولايات المتحدة وإسرائيل في التعامل معها، أن تعدل بنود الميثاق الوطني الفلسطيني فتلغي منه كل إشارة إلى حق الفلسطينيين في الكفاح المسلح، وتلك التي تؤكد عدم الاعتراف بإسرائيل وتدعو إلى إزالتها وإقامة الدولة الديمقراطية مقامها، وبما أن الذي يملك هذا التعديل هو المجلس الوطني الفلسطيني المعطّل منذ سنين، فلا بد من دعوته للانعقاد كي يقرر إزالة تلك البنود. كانت معظم الفصائل الفلسطينية المنضوية تحت لواء منظمة التحرير تعارض مثل هذا التعديل وتداعت المعارضة الفلسطينية إلى اجتماعات في رام الله للبحث في إنشاء تكتل فلسطيني كبير لمعارضة هذا التوجه ومحاولة صده إن أمكن.

كانت لقاءاتنا أسبوعية وتعقد في بيت المعارض للسلطة أبي صالح، عبد الجواد صالح، في البيرة، وكان يحضرها شخصيات مستقلة منهم الدكتور عبد الستار قاسم والأستاذ عدنان السلقان، بالإضافة إلى صاحب البيت عبد الجواد صالح، ممثل حماس فيها هو الشيخ حسن يوسف في الغالب، وكنت ممثل الجهاد الإسلامي. وكان ممن يواظب على الحضور ممثل الجبهة الشعبية عبد الرحيم ملوح وممثل الجبهة الديمقراطية أبو ليلى، قيس عبد الكريم، وممثل الجبهة الشعبية/ القيادة العامة، حسام عرفات، وقد

انضم إلينا بطلب منه أبو مشعل، عباس زكي، وكانت ثمة شخصيات من أنحاء متفرقة من الضفة الغربية ومن القدس. كانت المشكلة التي تواجه أي بيان نريد إصداره هي إصرار فصائل منظمة التحرير على الإشارة إلى أن ما يجري يقع تحت لواء منظمة التحرير وضمن اعتراف الجميع بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وكان الفصيلان الإسلاميان؛ الجهاد الإسلامي وحماس، يعارضان ذلك، وطرحت الجبهة الديمقراطية مقترحًا ظنته حلًا وسطًا مفاده أن نشير إلى أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد وضرورة إصلاحها، فأصررت أن يكون التعديل: بعد إصلاحها، أو: بإصلاحها، وظلت القضية معلقة، وفي منتصف شهر كانون أول 1998، جاء الرئيس الأمريكي كلينتون إلى غزة لحضور إلغاء البنود المذكورة، وعقدت المعارضة اجتماعًا لها في الوقت نفسه في فندق الكازابلانكا برام الله وصدر بيان معارضة تعديل بنود الميثاق، ولم يخل البيان من الإشارة إلى أن منظمة التحرير ممثل شرعي للشعب الفلسطيني بإصلاحها _كما كنت أشترط_ إلا أن البيان لم ينل اهتمامًا يذكر، لأن الاهتمام كله انصب على غزة وزيارة كلنتون لها مع زوجته هيلاري وابنته تشيلسي، والحفاوة البالغة التي استُقبل بها، والهدية الثمينة التي قدموها له وهي إلغاء جميع البنود التي لم يكن راضيًا عنها في الميثاق الوطني الفلسطيني.

ثم كان المفروض أن تستمر الاجتماعات فالتقينا مرة في مكتب الجبهة الشعبية وأخرى في مكتب الديمقراطية، ثم قرأنا في الصحف أن الرئيس ياسر عرفات شكر الجبهة الديمقراطية على تصديها لمحاولات بعض العناصر التشكيك في شرعية منظمة التحرير وفي كونها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، فشعرنا أننا نتعامل في ظروف تعدد الولاءات وغياب الصوت الواحد، فتوقفنا عن الاجتماع وكانت تلك المحاولة شبيهة بالمحاولة السابقة التي جرت في نابلس قبل سنة من ذلك التاريخ كلاهما انتهت بالفشل وخرجنا بتجربة استحالة إقامة حركة سياسية فاعلة من تنظيمات غير متجانسة فكريًا أو سياسيًا.

في صيف عام 1999 نشأت مشكلة بين المعتقلين عند السلطة في سجن الجنيد وبين إدارة السجن فاتخذت إدارة السجن إجراءات بحق السجناء فتداعى أهالي المعتقلين

وممثلون عن لجنة التنسيق الفصائلي إلى الاحتجاج والاعتصام أمام الباب الرئيس لسجن الجنيد، وكان الاعتصام يستغرق ساعات طوالًا مساء كل يوم لمن لهم أشغال وفي الصباح للأهالي الذين ليس لهم أشغال، وكنت أقف فألقي خطبة مطولة من جملة خطباء، وأصلي فيهم العشاء أحيانًا، وفي غيابي اتفقت إدارة السجن على تشكيل لجنة للمصالحة تضم أعضاء في لجنة التنسيق الفصائلي وكانت حماس هي الناشط والمبادر إلى اقتراح مثل هذه اللجنة، فشُكِّلت بينما كنت في رام الله ولم يُعلِموني بها، ولما علم معتقلو الجهاد أن ممثلهم غير موجود في اللجنة رفضوا رفضًا باتًا التعاون معها ففشلت، وفي اليوم التالي وبينما كنت مع المعتصمين اضطروا إلى إخباري بأن مفاوضات ستجري وأن لجنة المصالحة ستدخل السجن من الباب الأول الذي كان مخصصًا للزوار زمن تواجد قوات الاحتلال.

وذهبنا إلى غرفة المدير فعرض أن يسمح بالزيارات لأقارب الدرجة الأولى فوافق أحد الممثلين على الرغم من عدم موافقة الآخرين من حماس والجهاد الإسلامي، وعند انصرافنا كان المعتقلون يطلون من الشبابيك ليسألونا ماذا حصل، فقيل لهم: كما تريدون، ولم يكن الأمر كذلك، وعدنا في اليوم التالي وعرف المعتقلون أن ما قيل لهم غير صحيح فاستشاطوا غضبًا على أحد ممثليهم الذي أراد إقناعهم بقبول الحل. لقد كنت والشيخ الشهيد جمال سليم متفقين على موقف واحد هو ألا نقبل حلًا وسطًا في موضوع المعاملة التسهيلية التي كانت قائمة قبل المشكلة، فهؤلاء معتقلون من دون سبب، وأقل ما فيها ألا تُنتقص التسهيلات الممنوحة لهم؛ لأن ذلك بعض حقوقهم.

بعد لقائنا بالمعتقلين الغاضبين، دعينا إلى اجتماع مع الجهاز الأمني. فنزلنا إلى غرفة في الطابق الأول، وإذا فيها كبار قيادات السلطة الفلسطينية، وإذا مدير السجن (أبو سفيان) يخاطب أحدهم بعبارة (عمي الحج)، وسألت ضابطًا يجلس بمحاذاتي: من عمه الحج؟ فقال: الحج إسماعيل، ثم نظرت في وجوه الحاضرين فإذا جبريل الرجوب، قائد الأمن الوقائي في الضفة الغربية، وإذا توفيق الطيراوي، مدير المخابرات في الضفة الغربية وبجانبهما فيصل أبو شرخ قائد ما يسمى بالقوات 17 وعدد أخر من الضباط لا أعرفهم، ثم دخل ضابط يبدو عليه المرض الشديد ويمشي متثاقلًا،

فقام له مدير المعتقل وأدى له التحية وأجلسه في الصدارة وسألت الضابط الذي يجلس بمحاذاتي عن هذا الرجل فقال: هو اللواء نصر يوسف.

قلت في نفسي: هل المشكلة التي نحن بصدد مواجهتها تستدعي حشد كبار قادة السلطة؟

من جانبنا: كان الحضور المرحوم الشيخ حامد البيتاوي والشيخ أحمد الحاج علي والشيخ الشهيد جمال سليم ورجل الأعمال سمير الوادي وكاتب هذه الأسطر.

كان الحاج إسماعيل من استهل الحديث بتذكيرنا بحق السلطة في أن تنفذ قوانينها وألا تقام أية فعاليات من أية جهة من غير الرجوع إليها. وأراد أن يسترسل وبلهجة آمرة فاستوقفته وقلت له: يا حج، والمواطن، أليس له حقوق؟ قال: وما حقوقه؟ قلت: أن يبيت آمنًا في داره، وألا يجري اعتقاله دون أسباب قانونية معروفة، وأن يتمكن من توكيل محام وأن يكون ثمة محاكم لها قرارات نافذة. فقال _وقد حسّن لهجته في الخطاب_: ها أنت حر طليق، فهل تعتقل السلطة الناس بلا سبب؟ قلت: هنالك معتقلون يودون لو يعرفون التهم الموجهة إليهم. قال: هؤلاء معتقلون على ذمة الرئيس، ولا يملك أحد غير الرئيس إطلاق سراحهم. قلت: أنتم قادة السلطة الفلسطينية ومستشارو الرئيس وتستطيعون أن تقنعوه بالإفراج عنهم.

ثم تكلم جبريل الرجوب فأوضح لنا سبب هذا الحشد الغريب، قال: لدينا معلومات مؤكدة أن الاتجاه الإسلامي ينوي تنظيم مظاهرات ومسيرات كبيرة في هذا اليوم (الجمعة) وإننا سنقمع أي تحرك من هذا القبيل. فقلنا له: لا علم لنا بهذه المظاهرات. فقال: إذًا، تؤكدون أنها لن تقع؟ فقلنا: نؤكد أننا لم ننظمها ولا نعلم بها.

وتكلم توفيق الطيراوي عن التزامات السلطة بموجب اتفاقيات أوسلو، وبين أنها ملتزمة بحفظ الأمن وأنها لا تعتقل إلا من تعلم أنه يشكل تهديدًا للأمن، ثم استدرك مغيرًا في لهجته: إن السلطة الفلسطينية لا يفرض عليها أحد شيئًا، ولكنها ملتزمة من تلقاء ذاتها، وأن ما تفعله إنما هو لمصلحة الشعب الفلسطيني، ثم انتقل الحديث إلى الموضوع الذي جئنا من أجله: مشكلة ضرب عسكري فلسطيني وإلحاق

الأذى الشديد به، وعرض الطيراوي بعض الشروط لحل المشكلة ومن جملتها تحديد أوقات الزيارات ونوع الزوار، فقلت له: لا نستطيع قبول ذلك باسم المعتقلين؛ لأن المفروض أنهم ليسوا في السجن، فالسجن ليس لهم، ولا أقل من أن تقدم لهم التسهيلات كاملة.

ثم عدنا فاجتمعنا بالمعتقلين وبلغناهم بما جرى وطلبنا منهم أن يواصلوا هم المفاوضات مع الإدارة على أن نعود إليهم في وقت لاحق. وعدنا إليهم مساء اليوم التالي وكان الذي تولى المفاوضات من جانب السلطة مساعد مدير السجن العقيد فايز الجنيدي فتوصلنا إلى اتفاق وقررنا أن نستفتي فيه المعتقلين وحثثناهم على القبول به وكانت النتيجة موافقتهم، فرجعنا إلى إدارة السجن وبلغناهم بأن المشكلة قد انتهت فسلم علينا العقيد فايز بالعناق وتبين لنا أنهم عاقبوا أبا سفيان بسبب سوء إدارته للأزمة فكفوا يده عن إدارة سجن الجنيد وسلموها للعقيد فايز الجنيدي، وفي جلسة الود والصفاء تلك وفي زيارات لنا للسجن حدثت بعد ذلك وكان يستقبلنا فيها بالبشر والعناق وحدثنا العقيد فايز بافتخار عن أنه هو أيضًا من أصحاب التوجه الإسلامي.

كان لعام 1999 سمات بعضها عام وبعضها يتعلق بي وكلها من النوع الذي لا يُنسى. كانت الأمطار فيه قليلة جدًا حتى إنه يمكن القول إنه في تلك السنة أضعف موسم أمطار أذكره في حياتي.

وفيه حدث كسوف للشمس هو أكبر كسوف وأهمه طيلة حياتي، وكان في بلادنا جزئيًا إلا أنه جعل الأرض وسطًا بين الليل والنهار ونال اهتمام العالم؛ لأنه غطى مساحات كبيرة من الكرة الأرضية وكان الكسوف كليًا في مناطق من شرق أوروبا، وكثر الاستعداد لهذا الحدث قبل وقوعه بأيام طوال وكثرت التنبيهات الصحية بعدم رفع البصر إلى الشمس وقت الكسوف لأن ذلك يخطف نسبة كبيرة من قوة الإبصار، كما كثرت التنبؤات بكوارث وحوادث خارقة للعادة ستحصل يوم الكسوف، وفي اليوم الموعود ولدى بدء الكسوف عصرًا صلينا في مسجد الحاج معزوز المصري صلاة العصر ثم صلاة الكسوف، ثم سار كل واحد من المصلين إلى بيته مطأطئ الرأس،

يخشى أن يرفع بصره، وقد تحول النهار إلى ما بين الأصفر والأسود بعد أن كان أبيض ناصعًا، إنها حالة نادرة لا تُمحى من الذاكرة.

وأما على المستوى الشخصي: ففيه كان مرض والدي ثم وفاته، وفي الوقت نفسه مرض عمتي، وقد دفنا والدي في الحادي والعشرين من آذار ودفنا عمتي في اليوم التالي عليهما رحمة الله.

الاعتقال الثالث عند السلطة

في مطلع شهر تشرين أول 1999، زارني مجموعة من الشباب عرّفوا أنفسهم بأنهم من جهاز المخابرات، ونظروا إلى أريكة على الدرج أمام باب منزلي فرأوا عنبًا كل عنقود في كيس ورمانًا فضبطوه وقال لي أحدهم: نريدك أن ترافقنا إلى مركز المخابرات العامة وكذلك مالك، وهناك علمنا أن ثلاثة من معتقلي سجن الجنيد من كوادر الجهاد الإسلامي قد هربوا من السجن وهم يفترضون أن لي علاقة بهربهم، إما أنني اتفقت معهم على الهرب أو أنهم اتصلوا بي بعد أن هربوا فهيأت لهم مكان الاختباء أنا أو مالك، والدليل المادي على ذلك أن رجال المخابرات ضبطوا فواكه كانت قد جاءتنا من القرية، فظنوها معدة لتزويد الهاربين بها، وهي الرمان والعنب الذي على الأريكة أمام المنزل والدليل على أنها معدة لهم هو كون كل عنقود في كيس!!

وهكذا جرى التحقيق، والحقيقة أنني لم أكن سمعت بالهروب قبل أن أجلس للتحقيق. وجاء مساعد مدير المخابرات وطلبني من المحقق، وكان حديثه بيني وبينه وديًا وأراد مني أن أعطيه تفسيرًا منطقيًا لمسألة عناقيد العنب فأوضحت له أن هذه طريقة حفظه من الدبابير وأنه لو ذهب إلى الكرم الذي جاءنا منه العنب لتأكد من صحة ما أقول. فأجرى اتصالًا هاتفيًا شرح فيه الأمر وقال لهم: فلتتحرك سيارة إلى جالود للتأكد من الأمر، ولكن كيف تتحرك سيارتهم وجالود منطقة (C) محظور على السلطة دخولها. فأنزلوني ومالك إلى الزنزانة التي تقع في الأسفل، فوجدنا عددًا كبيرًا من الشباب تم حشدهم حشدًا وكل منهم متهم باحتمال أن يكون له ضلع في عملية الهروب، ثم عرفت أن عملية الهروب تمت من خلال طلب الإخوة أحمد المهداوي

والشهيد المرحوم أسعد دقة والشهيد المرحوم إياد الحردان إجازة من مدير السجن فايز الجنيدي ليراجعوا الجامعة فأعطاهم فخرجوا ولم يعودوا، وكان رعب السلطة من أنهم اختفوا لينفذوا عملية عسكرية فاعتقلوا المسكين فايز وطردوه من منصبه وضربوه ضربًا مبرحًا وأهانوه بالشتائم واتهموه بأنه تلقى رشوة من هؤلاء الثلاثة.

إلا أن أطرف ما في الأمر أن المخابرات افترضت أنه بمجرد أن هرب هؤلاء أعددت لهم العنب والرمان لكي (يتفكهنوا)، ولو أن المخابرات وجدت صرة من الخبز وبعض الجبن لكان الاتهام منسجمًا مع المنطق.

أفرجت السلطة عن معظم الشباب، وكانت الزنزانة التي ضمت الجميع عبارة عن غرفة كبيرة نسبيًا تتسع لعشر فرشات، وكان المعتقلون الذين قضوا أسابيع فيها كلهم من كوادر الجهاد الإسلامي وكلهم على القضية نفسها، وهم بالإضافة إلي: مالك وخالد الزواوي والشهيد المرحوم سفيان عارضة وعبد الفتاح رمضان وزيد بسيسي، ثم انضم إلينا الشهيد المرحوم أنور عبد الغني وقريب له.

لا يمكن القول إن معاملتهم كانت سيئة إلا مرة واحدة مع زيد بسيسي، وكان طعامهم جيدًا، ولا أنسى ضباطًا وأفرادًا طيبين منهم، وعلى رأسهم الملازم أبو مصطفى الذي كان يحمل إلينا إبريق الشاي كل صباح، ولقد كانت أيامًا لا تنسى، فعلى الرغم من أنها فترة سجن في زنزانة كانت تفتح صباحًا ويترك لنا حرية المشي في الردهة فقط إلا أنها كانت تجربة غنية، ومما استفدته منها أنني ألفت قطعان الفئران التي كانت تسرح وتمرح، وكنت قبل ذلك أشعر بالقرف من منظر الفأر فأصبح منظره مألوفًا وكنا نغلق زنزانتنا ثم نضع بطانية تحت الباب كي لا تدخل علينا ونحن نائمون.

كان من المألوف أن يتسلل ضابط صباحًا في غياب غيره فيطلب منا كيسًا أسود، وكانت أكياس الفاكهة التي تأتينا من أهلنا سوداء، كان الواحد منهم إذا عاد إلى بيته عاد ببعض ما في الدائرة من مأكولات أو فواكه.

وطلب منا أحدهم كيسًا فقلنا له: عندنا كيس أبيض، فقال: لا أريده إنما أريد كيسًا أسود.

كان كل من زيد ابسيسي وخالد الزواوي يدرسان في الجامعة فأحضرا مقرر

الإنجليزي وأخذت أتدارسه معهما مستعينًا بقاموس تم إحضاره. لقد أحضر لنا أهالينا مصباحًا كهربائيًا قوي الإنارة لنتمكن من القراءة خاصة في الليل.

منعوا عنا زيارة الأهل بضعة أيام ثم سمحوا بها، ولكن أسوا ما فيهم أنهم كانوا يحضرون جلسات الزيارة يحملقون في الزوار ويستمعون إلى ما نقول.

وكان كل ما نطلبه يأتينا من الأهل رغدًا حتى إننا لم نكد نخلو إلا نادرًا من الأكياس السوداء المرغوبة من قبل الضباط.

كانت عشرة أولئك الشباب شيئًا جميلًا وممتعًا، كانت ثمة علاقة دافئة وودية مع العديد من ضباط وأفراد الموقع ولا يزال الود قائمًا إلى الآن عندما ألتقي بواحد من هؤلاء.

لم تمض إلا أيام قليلة حتى سلم الهاربون أنفسهم، وتبين أن السلطة هولت أمر هربهم بشكل مبالغ فيه. وشعرنا بعدها أنه لم يعد سبب عند المخابرات لاستمرار احتجازنا، خاصة وقد أخبرونا أننا معتقلون لا على ذمة الرئيس الذي يطول اعتقال من هم على ذمته، ولكن على ذمة توفيق الطيراوي، مدير المخابرات في الضفة. والاعتقال على ذمته أهون؛ لأنه من السهل مراجعته.

في اليوم الأخير من شهر أكتوبر جاءنا ضابط بعد منتصف الليل وقال لنا: سيأتينا ضيوف إلى الزنازين (هي زنازين صغيرة عددها خمسة، أو نحو ذلك، تتسع كل واحدة منها لشخص واحد، وتقع مقابل زنزانتنا الكبيرة) فالرجاء ألا تكلموهم أو تنظروا إليهم، ثم انصرف، فقلت للشباب: إن في كلامه لغزًا، فهم لا يسمون اللصوص أو الحشاشين الذين يأتون بهم إلى هذه الزنازين ضيوفًا، بل إنهم يضربونهم ويهينونهم على مسامعنا. لا بد أنهم يعنون بالضيوف معتقلين سياسيين. وبالفعل وبعد مدة يسيرة سمعنا صوت الدكتور عبد الستار قاسم، ثم رأيناه يرفل بالبيجاما والعباءة، فقلنا: هذا أول الضيوف، وفي الصباح أدخلوه الزنزانة عندنا، وسألناه عن القصة فقال: لقد أصدرنا بيانًا يهاجم تشريع السلطة للفساد وتوقعنا أن تكون عاقبته السجن، وهاهم بالفعل بدأوا يسجنون الذين وقَّعوا عليه وعددهم عشرون وقد عُرف ذلك البيان

ببيان العشرين وحاز على اهتمام إعلامي واسع. أحضرنا مزيدًا من الفرشات المخزونة في الغرفة العلوية على الرغم من أن هذا ممنوع، ولكن أحدًا من الضباط لم يعترض وهيأتُ جلسة لي ولأبي محمد، الدكتور عبد الستار. كي يساعدني في ترجمة مقالات من الصحيفة الإنجليزية التي كنت قد طلبتها من الأهل، ولم يطل مكث الدكتور عبد الستار عندنا، فقد نقلوه إلى أريحا في اليوم نفسه، ثم جاءنا في ذلك اليوم الصديق الدكتور عبد الرحيم كتانة، وهو من الموقعين على البيان، وبات ليلة واحدة ثم أفرج عنه.

في هذه الغمرة، جاءني ضابط ليقول لي بلهجة المستبشر: يريدك الضابط المسؤول، وإن شاء الله هنالك فرج، فصحبته إلى مكتب الضابط (معين السكران) وبعد السلام نظر إلي وقال: وبعدين؟ قلت له: هذه ال(بعدين) عندك، بعدين معكم؟ قال: هنالك قرار بالإفراج عنك، على أن تبقى هويتك عندنا قلت له: والآخرون؟ قال: ليس هنالك قرار بشأنهم، ونأمل أن يكون القرار قريبًا.

ذهبت إلى البيت مغتبطًا بالفرج، لكن الاغتباط كان منقوصًا؛ لأن مالكًا وأصحابه لا يزالون في السجن، وفي اليوم التالي اتصلت بالهاتف بالصديق أبي نضال، بسام الشكعة أطمئن على صحته إلى حين أن أجد وقتًا لزيارته، وكانت صحيفة القدس قد نشرت في خبر مقتضب نبأ الإفراج عني، وكانت قصة بيان العشرين حديث الناس، فالذي وجدوا صعبًا سجنه وجدوا له طريقة أخرى للعقوبة؛ بسام الشكعة فرضوا عليه الإقامة الجبرية في بيته. والمحاضرة في جامعة النجاح، عصمت الشخشير استدعوها إلى قسم الشرطة لتمكث فيه من الصباح إلى المساء، أما نواب المجلس التشريعي فلهم تدبير آخر.

ثم ذهبت إلى المستشفى الإنجيلي لزيارة مريض هو المرحوم أبو خالد، أحمد حميد، من وجهاء تلفيت، وكان قد تعرض إلى حادث سيارة كاد يودي بحياته وقتها، وعدت إلى الدار عند الظهر، ومع الأذان توضأت كي أتوجه إلى مسجد الحاج معزوز فإذا شباب ينادونني من الشارع، نزلت، فإذا أربعة شباب يعرفون على أنفسهم أنهم

من المخابرات وأنه مطلوب مني أن أصاحبهم. وسألتهم: ما القصة؟ فقالوا: لا نعرف شيئًا إلا أنهم يريدون رؤيتك.

وأمام الباب الخاص بقيادة المخابرات كان الضابط معين السكران في انتظاري، فسلم علي، وسألته بدهشة: ما الأمر؟ فقال: النبأ الذي في الجريدة أغضب المسؤولين، فهم لا يريدون أن يعلم المسئولون الكبار أنه تم الإفراج عنك. قلت: ولماذا لا (يحمّرون) أعينهم ويرفضوا رغبات الجانب الآخر. فلم يجب. ثم سألته: ما الموقف الآن، قال: أريدك أن تصعد إلى قسم المتابعة، وأنا سأجري اتصالاتي وسأحاول ألا يكون ثمة اعتقال من جديد، ولكنني لا أدري، وسوف أبلغ أبا مجدي (مدير قسم المتابعة) بالنتيجة.

وصعدت الدرج إلى قسم المتابعة، ولم يتأخر الجواب، إذ اتصل المسؤول وطلب من أبي مجدي أن يأخذ حاجاتي الخاصة وينزلني إلى الزنزانة، ودخلت الزنزانة، وظنوا أنني جئت زائرًا، فقلت لهم: لا، بل جئت سجينًا فكان الإحباط عندهم والغضب، إذ إن ما حدث يبعد آمالهم في إفراج سريع. وفي اليوم التالي نشرت صحيفة القدس توضيحًا من مدير المخابرات يؤكد فيه أن يوسف عارف معتقل عندهم، فكانت البلبلة والاستغراب عند كل من قرأ نبأ خروجي من السجن، ثم قرأ في اليوم التالي نبأ أنني لا أزال في السجن.

مكثت في الزنزانة أسبوعًا، والحقيقة أن هذا الأسبوع والأسابيع الستة التي سبقته هيأت لي تحسين حفظي من القرآن الكريم بالإضافة إلى فوائد أخرى. ثم استدعاني المسؤول نفسه وأخبرني أنه تقرر الإفراج عني بشرط أن يحتفظوا بهويتي، وأن أراجع دائرة المخابرات مرة كل يوم في ساعة محددة، وألا تنشر أية وسيلة إعلام نبأ خروجي. في تلك اللحظة كانت زوجتي قادمة لزيارتي وزيارة مالك فعدت وإياها إلى البيت الذي كان قريبًا من موقع المخابرات، فاتصل بي الصحفي نواف العامر الذي نشر نبأ خروجي أول مرة، وسألني مازحًا: هل انشر نبأ خروجك؟ فقلت له: هذا يعيدني إلى السجن.

في ذلك اليوم كان النبأ الذي انشغل به الناس هو إطلاق النار على قدم النائب في

المجلس التشريعي الدكتور معاوية المصري، ذهبت في اليوم التالي لزيارته، فهو صديق عزيز، وكان يستقبل الزوار في ديوان آل المصري، وكان يوم الخميس، فوجدت الديوان مكتظًا بالحضور، ومنهم الصديق بسام الشكعة الذي قال لي مستغربًا: ألم تتصل بي قبل أسبوع وتقول: إنهم أفرجوا عنك؟ قلت: نعم، ثم أعادوا اعتقالي. قال: لقد اختلطت الأمور علي وظننت أنني كنت متوهمًا. كان الدكتور معاوية في الغرفة الداخلية من الديوان وعنده ضابط شرطة يأخذ إفادته ويبدي اهتمامًا مزعومًا بما تعرض له النائب المحترم، وكان مسؤول في الشرطة قد صرح بأن هوية المعتدين معروفة لجهاز الشرطة، وستلحق بهم العقوبة المناسبة، ولم يصدِّق أحد، بطبيعة الحال، هذه المزاعم، فالكل يعلم أن السلطة هي من دبر هذا الاعتداء. كان في الحاضرين النائب عبد الجواد صالح الذي كان وزيرًا للزراعة، ثم استقال ولزم جانب المعارضة، ولم يكن جاء دوره عند السلطة بعد، ولم يتأخر دوره، ففي اليوم التالي نزل إلى أريحا ليزور أصدقاءه المعتقلين هناك؛ الدكتور عبد الستار قاسم وأحمد قطامش وأحمد دودين، فجاءه مجموعة من الشباب، وسألوه عن اسمه، فقال: عبد الجواد وقبل أن يكمل اسم أبيه انهالوا عليه بالضرب المبرح على أنحاء جسده كلها، ولم يتركوه إلا بعد أن تأكدوا أن كل موضع في جسده أصبح يعرف حق المعرفة ثمن أن يُتَّهم (الرئيس القائد الرمز أبو عمار) بأنه يشرِّع الفساد. وكان أسوأ ما صدر حول بيان العشرين مقال لكاتب عرف بنفاقه، يكتب في جريدة الأيام ويسمى حسن البطل، اتهم فيه موقَعي بيان العشرين ب(الهبَل السياسي).

خلال الأسبوع الإضافي الذي قضيته في السجن تداعى كثير من شخصيات ومفكري وناشطي الضفة والقطاع إلى إصدار بيان يشجب ما تعرض له موقعو بيان العشرين ويؤكد صحة ما ورد في ذلك البيان، وكان عددهم سبعين، فعرف ببيان السبعين، ولدى حصول المخابرات على نسخة منه اتصل بي نائب مدير المخابرات، وقال لي بلهجة مودة: ما رأيك في بيان العشرين وبيان السبعين الذي هو الآن في جيبي؟ فقلت: لقد سألتم جمال منصور عن رأيه في مسألة معينة وقلتم له: إنه للعلم فقط، فأدلى برأيه فساقه رأيه إلى السجن ولم يبرحه إلى الآن، فهل تريدني أن أعيد غلطته؟

قال: هذا كلام بيني وبينك. قلت له: إذن أقوله لك على انفراد عندما التقي بك. ثم سألني: لو كنت خارج السجن، هل كنت ستوقع على بيان العشرين أو بيان السبعين؟ قلت: نعم وبدون شك. قال: إذًا أسجنك. قلت: هكذا أنتم في المخابرات، ليس عندكم مصطلحات إلا السجن والحبس والتوقيف وما أشبه ذلك.

حل شهر رمضان المبارك في مطلع كانون أول، وكان مالك وبقية الشباب لا يزالون في السجن، وبعد أيام أفرجوا عنهم.

مما لا يُنسى أن آخر جمعة في شهر رمضان (الجمعة اليتيمة) كانت في آخر يوم من سنة 1999، وكان التوجه إلى القدس يحتاج إلى تصاريح إلا أنه في رمضان وجدت الباصات منفذًا تصل به إلى القدس بإغضاء من المحتلين مما مكننا من أداء صلاة الجمعة اليتيمة في المسجد الأقصى.

كان سامر ابن شقيقي محمود قد أصيب بمرض عضال وكان هذا أكثر ما يشغلنا وقد توجهت والدتي إلى الزرقاء لعيادته وأنا في سجن السلطة ومكثتْ هناك فترة ثم عادت ولم يلبث أن بلغنا نبأ وفاته، عليه رحمة الله.

عام ألفين وأحداثه الجسام

لم تستقر أمور السلطة منذ قامت، وكانت حركتا الجهاد الإسلامي وحماس تنفذان العمليات الفدائية فتلقي سلطات الاحتلال كل اللوم على عرفات، وكان عرفات يحاول أن يدفع عن نفسه تهمة التقصير في محاربة المقاومة التي اتفق مع الإسرائيليين على تسميتها بالإرهاب، باللجوء إلى الاعتقالات التي لا تقع تحت مسمى. ومن الناحية المالية كانت أوروبا ملتزمة بدعم السلطة ماليًا، وكان الاتفاق أن تشكل السلطة أجهزة عسكرية مهمتها حفظ الأمن؛ أي: منع وقوع أية عمليات فدائية ضد إسرائيل، واتفقوا على عدد محدود من عناصر الأمن، فضاعفها عرفات كي يوسع دائرة الولاء له، ولكن الكثيرين منهم لم يحملوا له الولاء إلا ظاهرًا، ثم بدأ يهب المناصب المدنية العليا هدية للموالين له، وكان ببساطة يعين كثيرين مديرًا وبنسبة أقل مديرًا عامًا

في الـوزارات التـي لا تحتـاج إليهـم وليـس لهـم مهـمات محـددة، فقـط يتقاضـون الرواتـب. وأفـادت بعـض الإحصائيـات أن عـدد المـدراء في مختلـف وزارات السـلطة بلـغ سـبعمائة، ولكـن تكشـف أن الأرقـام فظيعـة وأن الذيـن هـم برتبـة مديـر في الضفـة خمسـمائة أمـا في غزة فتبين أنهـم خمسـة آلاف. أمـر يصعـب تصديقـه. وكـرر الرئيـس الفلسـطيني الحـالي، محمـود عبـاس، هـذه التخبطـات بشـكل جديـد، فهـو يهـب ثقاتـه والمخلصـين لـه رتبـة وزيـر مـع إبقائـه في موقعـه الرسـمي، وهـو يعطـي الرتبـة وامتيازاتهـا بسـخاء منقطـع النظـير.

وشـاع في الحقبـة العرفاتيـة الفسـاد المـالي والإداري في أجهـزة السـلطة وتدنـت سـمعة الأجهـزة الأمنيـة مـن ناحيـة الأمانـة ومـن الناحيـة الخلقيـة، فقـد جـاء هـؤلاء بأخـلاق الانفـلات والتحـرر مـن القيـود التـي اعتـادوا عليهـا في لبنـان.

وكانـت كل اتفاقيـة بـين السـلطة وإسرائيـل منـذ اتفاقيـات أوسـلو تقـوم عـلى التنـازلات مـن الطـرف الأضعـف وهـو الفلسـطينيون للطـرف الأقـوى وهـو إسرائيـل بطبيعـة الحـال، ولم تكـن إسرائيـل تنفـذ مـا تلتـزم بـه والحجـة دائـمًا أن عرفـات لم يحـارب الإرهـاب بشـكل فعـال.

في عـام 1996 سـقط حـزب العمـل الـذي وقـع مـع عرفـات اتفاقيـات أوسـلو وتولى الليكـود بزعامـة نتانياهـو الـذي تـرأس الـوزارة الإسرائيليـة حتـى 1999 ثـم اضطـر إلى تقديـم موعـد الانتخابـات فخسر وفـاز حـزب العمـل مجـددًا في تلـك السـنة فانتعشـت آمال السـلطة الفلسـطينية بإمـكان التوصـل إلى اتفـاق لإقامـة الدويلـة التـي يحلمـون بهـا، وكانـوا يصورونهـا حلـم الشـعب الفلسـطيني مـع أن الشـعب، في الحقيقـة، لم يكـن يعيرهـا أي اهتمام ولا يتوقـع منهـا خـيرًا.

في سـنة 2000، أراد الرئيـس الأمريكـي كلينتـون أن يحـذو حـذو سـلفه كارتـر الـذي رتـب عـام 1978 عقـد مؤتمـر قمـة ثلاثيًـا بـين مـصر وإسرائيـل والولايـات المتحـدة في منتجع كامـب ديفـد الواقـع في ولايـة ماريلانـد الأمريكيـة وانتهـى بتوقيـع اتفاقيـات صلـح بـين مصر وإسرائيـل، تلـك الاتفاقيـات التـي خرجـت مـصر بموجبهـا مـن دائـرة المواجهـة مـع الدولـة العبريـة بصلـح منفـرد واعـتراف كامـل، وأقامـت معهـا علاقـات طبيعيـة في كافـة المجـالات.

ففـي شـهر تمـوز 2000 دعـا كلينتـون كلًا مـن رئيـس السـلطة الفلسـطينية، يـاسر عرفـات ورئيـس الـوزراء الإسرائيـلي (العـمالي) إيهـود بـاراك، إلى مؤتمـر قمـة في المنتجـع نفسـه الـذي وقعـت فيـه الاتفاقيـة المصريـة الإسرائيليـة، واتُّبعـت في المؤتمـر الإجـراءات التي اتبعـت في كامـب ديفـد الأولى، فضُـرب حـول المحادثـات نطـاق مـن السريـة التامـة إذ منعت وسـائل الإعـلام مـن الوصـول إلى المـكان وحُجبـت عنهـا الأخبـار تمامًـا، وحُـدد سـقف زمنـي للمفاوضـات، إلا أن المؤتمـر فشـل؛ لأن الكيـان الصهيـوني لم يتنـازل عـن ثوابتـه فيـما يخـص القـدس واللاجئـين والحـدود ولم يكـن بإمـكان عرفـات أن يقامـر بعنقـه فـيرضى بـما عُـرض عليـه. فـإن السـادات لقـي جـزاء تفريطـه قتلـة لم يـذق أحـد مثلهـا، قُتـل أثنـاء عـرض عسـكري كان يقـام بمناسـبة ذكـرى حـرب أكتوبـر، وكان الملـك عبـد الله الأول بـن حسـين ملـك الأردن لقـي جـزاء خيانتـه أن قُتـل عـلى أبـواب المسـجد الأقـصى، وقـال عرفـات بعظمـة لسـانه: لـن أكـون كالملـك عبـد الله فألقـى المصـير الـذي لقيـه.

عـاد أبـو عـمار مـن كامـب ديفيـد يائسًـا، ولكـن مفاخـرًا بأنـه لم يوقـع عـلى التفريـط بالمسـجد الأقـصى ومهـددًا مـرة أخـرى بإقامـة الدولـة الفلسـطينية، شـاء مـن شـاء وأبـى مـن أبـى ومـن لا يعجبـه فليشرب مـاء البحـر.

بعـد عـودة عرفـات مـن الولايـات المتحـدة بيـوم واحـد انعقـدت في مـدرج ظافـر المـصري بجامعـة النجـاح نـدوة كان معـدًّا لهـا منـذ مـدة تتنـاول الأوضـاع الفلسـطينية الراهنـة وتوقعـات المسـتقبل بالنسـبة لهـا، وكان مسـيطرًا عـلى الأجـواء فشـل مؤتمـر كامـب والشـعور بـأن المنطقـة مقبلـة عـلى أمـر مـا، وتحـدث في المؤتمـر أمـين مقبـول، أحـد قـادة حركـة فتـح، فتوقـع أن ينتفـض الشـعب ويقيـم الدولـة الفلسـطينية، وكان لي مشـاركة في هـذا المؤتمـر، وكانـت كلمتـي تتركـز حـول عـدم منطقيـة اعتبـار الدولـة هـي الحـل فإنـه لا ينتظـر منهـا _لـو قامـت_ أحسـن مما تؤديـه السـلطة الفلسـطينية القائمـة، وتحدثـتُ عـن الفسـاد والمحسـوبيات وأنـه لا أحـد مـن المسـئولين يتغـير أو يتبـدل أو يحاسـب وبهمسـة في أذني مـن أمـين مقبـول الـذي كان يجلـس إلى يسـاري أضفـت عـلى سـبيل الفكاهـة: ولا أحـد يمـوت. وكان الشـعور السـائد لـدى الحضـور، وعـلى مسـتوى الشـعب كلـه مخالفًـا تمامًـا لافـتراض أن الشـعب سـيهب لإنشـاء الدولـة؛ لأن الدولـة التـي سـتقوم بالتفـاوض

والتنازلات والتي ستكون مثقلة بكل أشكال الالتزامات لم تكن أبدًا هدف الشعب، ولكن منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية هما من يقرع طبولها ويسمونها «المشروع الوطني» لإيهام الشعب أن ما فعلوه في أوسلو إنما يهدف إلى تحقيق حلم الفلسطينيين بإنشاء دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس الشريف. إجمالًا كانت كلمتي تشرح وتؤكد صحة ما تضمنه البيان الذي تحدث عن تشريع الفساد والذي عرف ببيان العشرين.

في منتصف شهر آب من ذلك العام اتصلت بي محطة تلفزيون وطن من رام الله واقترحت عليّ أن أظهر في برنامج بعنوان مساحة رأي في حوار مع وزير من السلطة الفلسطينية، فوافقت، وكانت المحاولة مع نبيل عمرو كي يدخل معي في حوار إلا أنه لم يوافق فكان الحوار مع وزير الاتصالات وقتها عماد الفالوجي الذي كان قبل الوزارة منتميًا إلى حماس، ثم فصلته عندما دخل وزارة السلطة. وكان البرنامج يبث على الهواء مباشرة ويدور حول أسباب معارضة الاتجاه الإسلامي لدخول المجلس التشريعي. وكانت إجاباتي تتلخص في أن اتفاقيات أوسلو نصت على إقامة سلطة حكم ذاتي فلسطينية لتكمل الطريق إلى آخرها مع الإسرائيليين في التوصل إلى حل تنتهي بموجبه القضية الفلسطينية إلى الأبد. ونصت الاتفاقيات على أن تجري انتخابات لمجلس تشريعي وظيفته مراقبة أداء السلطة وضبط تصرفاتها. وبما أن حركة الجهاد الإسلامي لا تعترف بالاتفاقيات فهي لا تشارك في السلطة ولا في المجلس التشريعي الذي نصت عليه الاتفاقيات لأن المشاركة في أي منها تعتبر اعترافًا باتفاقيات أوسلو، أما رفضنا للاتفاقيات فلأنها تنازلت عن الجزء الأكبر من فلسطين كي توافق إسرائيل على التفاوض معها على الجزء المتبقي، فهي اتفاقيات تفريطية، غير قانونية وغير شرعية.

أما عن مستقبل القضية فإننا لا نرى لها مستقبلًا إلا بالصمود والتمسك بالحقوق كاملة غير منقوصة واستمرار المقاومة ووضع الأمة الإسلامية كلها عند مسؤولياتها في العمل على تحرير فلسطين. وانتقدت عدم احترام السلطة للمجلس التشريعي وللقضاء ولإرادة الشعب وتساءلت عن حق عرفات في أن يمدد لنفسه رئاسة أبدية وكذلك للمجلس التشريعي (الصوري)، ورد عليّ الوزير عماد الفالوجي بأن قانون السلطة

الفلسطينية يسمح له بذلك، وتساءلت عن هذا القانون؛ متى وُضع؟ ومن وضعه؟

وهكذا كانت ندوة صريحة، وقدّمني المذيع في بداية الندوة بصفة «الناطق باسم الجهاد الإسلامي في الضفة الغربية». وأعتقد أن هذه الندوة كانت السبب المباشر في اعتقالي الذي تم بعد أيام.

الاعتقال

في الثالث والعشرين من شهر آب 2000 وكنت أنا وأسرتي عائدين من قرية جلبون، حيث كنا نؤدي واجب العزاء لأصهارنا لوفاة المرحوم أبي تيسير «طاهر أبو الرب» حمي ابنتي. وعلى مفرق بيت قاد، وجدنا حاجزًا طيارًا في انتظارنا، وقد أوقفوا كثيرًا من السيارات، ثم سمحوا لها بالانطلاق وأبقوا سيارتنا، ثم بعد ما يقارب ساعة من الزمن طلبوا مني ومن ولديّ مالك ومحمد أن نصحبهم وسمحوا لبقية من في السيارة أن ينطلقوا. وكان الوقت بعد العِشاء. وانطلقت بنا سيارة الجيب العسكرية ومن خلفها سيارة أخرى وظلت تجوب طرقات طويلة جدًا، وأخيرًا وقبيل فجر اليوم التالي وصلنا معسكر حوارة فبتنا ما تبقى من الليل في زنزانة في معتقل حواره، ثم في اليوم التالي أفرجوا عن محمد أولًا وبعدها بقليل عن مالك وبقيت وحدي في الزنزانة الواسعة نسبيًا.

ولكن في اليوم نفسه جاء معتقلون من قرية كفل حارس فكانوا مصدر تسلية، ثم جاءنا بعد يومين معتقلون من عصيرة الشمالية على إثر محاولة الجيش اعتقال القائد البارز في كتائب القسام محمود أبو هنود، وقد تمكن الشهيد _فيما بعد_ أن يفلت منهم باتجاه نابلس، فاعتقلته السلطة الفلسطينية (من أجل حمايته). واعتقل الجيش الإسرائيلي عددًا من أهالي عصيرة الشمالية. ومنهم خال أبي هنود الأستاذ لطفي ياسين الذي جاء ببنطلون وشباح (الفانيلا)، وكان المحامي قد زارني وجلب لي مقدارًا كبيرًا من كل ما يلزم من الملابس. فعرضت عليه أن أعطيه قميصًا فامتنع أولًا على اعتبار أنه لن يلبث إلا قليلًا، ثم يفرجوا عنه؛ لأنه لا يتدخل في الأمور السياسية، ثم استجاب ولم يلبثوا في اليوم نفسه أن نادوا عليه، فظننا أنه الإفراج، لكننا علمنا فيما بعد أنهم أخذوه إلى مركز

تحقيق بتاح تكفا وقضى فيه ما يقارب سبعين يوما، كان سيقضيها ب«الشبّاح» لو أنه أصر على رفض الهدية.

بعد شهر بالتمام والكمال، أي؛ في 24/ 09/ 2000 تم نقلي إلى مجدو على ذمة قضية الانتماء إلى الجناح السياسي لحركة الجهاد الإسلامي وتقديم خدمات للأسرى.

كانت العلاقات بين حماس والجهاد الإسلامي في مجدو قد شهدت قبل ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ تصعيدًا بلغ حد الاقتتال وعملت على تطويقها في يومها بالتعاون مع الشيخ الشهيد جمال سليم والشهيد صلاح دروزة من نابلس وبالاتصال والتعاون المستمر مع الشيخ حسن يوسف من رام الله، وكنا نتصل بالطرفين في السجن، وكل فريق في السجن يضع اللوم على الفريق الآخر، وظللنا نعمل طيلة ذلك اليوم إلى أن استطعنا تهدئة الأمور.

عندما وصلت سجن مجدو نزلت في قسم «6»، وكانت المرة الثانية التي أدخل فيها سجنًا إسرائيليًا أما المرة الأولى فكانت في سجن نابلس عام 1978 وأشرت إليها في صفحات سابقة. تعطي الإدارة في مجدو للسجين لوحًا خشبيًا ليس له قوائم ليضع عليه فرشته ويعطونه الفرشة، ولكنني قوبلت في السجن بحفاوة من الشباب في الجهاد الإسلامي وفي الفصائل الأخرى وأخذوا اللوح الخشبي وبدأوا فورًا بالعمل على تحويله إلى (بُرْش) ذي قوائم مرتفعة وله مسند للظَّهر بحيث يصلح للجلوس خلال النهار، وهكذا كانت أبراش السجن في الخيام إلى أن أقيمت غرف للمعتقلين بدل الخيام ووضعت إدارة السجن أسرة حديدية مثبتة ومن طابقين.

أعود إلى فترة دخولي معتقل مجدو لأول مرة: الأبراش الخشبية المرتفعة قوائمها، ولكل منها مسند للظهر يصنعها المعتقلون بأيديهم بعد أن أصبح مسموحًا لهم إدخال الخشب والمسامير والقماش والغراء، لم يحصل عليها المعتقلون إلا بعد كفاح مرير، ولا أنسى الشاب النشيط «محمد أبو هواش» الذي تولى صناعة البرش لي فأتقنه أيما إتقان، ثم بعد بضعة شهور قام إخوة من حماس بصناعة برش بمواصفات أفضل؛ إذ كان خشبه محصنًا من البعوض الذي يعشش عادة في الخشب ويحول بين المعتقل وبين النوم.

وجاء من كل فصيل وفد للسلام، وكانت خيمة فتح ملاصقة لخيمة الجهاد، فجاءني وفدها وفيهم شاب من حوارة عرفني على نفسه فعرفت شقيقه وابن شقيقه. وسهرنا سهرة ممتعة، وبدأت أتعرف على الشباب خاصة من الجهاد الإسلامي وعلى أنظمة السجن شيئًا فشيئًا. جلس معي في استقبال الزوار شقيقان يفتخر الجهاد الإسلامي بأمثالهما وعرّفاني على نفسيهما: محمد أبو خزنة وعلي أبو خزنة من عتيل، وكلاهما أكرمه الله بالشهادة فيما بعد، وسمعت الشباب ينادي بعضهم بعضًا في الأقسام المتجاورة: يا قسام، يا مجاهد، يا نسر، وسألت محمد عن مغزى هذا النداء، فقال: إنهم يرسلون أبردة من قسم إلى قسم ويستقبلون أبردة، ولكل فصيل رمز ينادي به المكلف باستقبال البريد من أبناء فصيله في القسم الآخر، فالنداء للجهاد الإسلامي: يا قسام. وأن هذه الأبردة هي سبيل التواصل بينهم. في اليوم التالي ذهبت إلى القسم المجاور قسم «5»، وهناك مقر الأمير العام للجهاد الإسلامي وهنالك أيضًا قيادات الفصائل الفلسطينية الأخرى، بعد الغداء دعاني إخوة من حماس لزيارتهم، فذهبت إليهم، وكانت الآثار النفسية للعراك الذي وقع بينهم وبين الجهاد لا تزال حية في النفوس، خاصة عند أبناء الجهاد الذين كانوا أقل عددًا وبالتالي أوقع بهم الطرف الآخر أكثر مما أوقعوا به، فوجدت عند حماس شيوخًا وشبانًا وكان من أبرزهم أبو أنس، حسين عمرو، وهو رجل كهل حسن المنظر والمخبر، واستمتعنا بتبادل الحديث وأخيرًا قال: نريد أن نزيل هذا الذي علق بالنفوس من جراء الأحداث المؤلمة التي وقعت بين الشباب. قلت: ونحن أيضًا نريد إزالتها، قال: غداؤك عندنا غدًا. قلت: موافق. وكان الغداء فاخرًا فهو «منسف» باللبن الجميد مع الدجاج الذي كان وقتها متوفرًا في الكنتينة بالكميات التي يريدها أي سجين عنده رصيد. ومما لمسته ولمسه كل سجين في ذلك الوقت، أن كرم الضيافة تختص به الخليل مدينة وقضاء وبيت لحم مدينة وقضاء، وأن ما يأتي به الأهل في الزيارة من أطعمة متنوعة يأتي من الخليل وبيت لحم أجزله وأجوده.

كانت المعتقلات (مجدو وعوفر والنقب) سنة 2000 ما زالت تحت إشراف الجيش الإسرائيلي وكان النقب في تلك السنة مغلقًا، ثم أعيد فتحه سنة 2001، عند

اشتداد الانتفاضة الثانية وكان وجود الجيش يسمح بكثير من الأمور التي أصبحت ممنوعة في عهد مصلحة إدارة السجون (الشاباس) التي استلمت الإشراف على المعتقلات بعد ذلك بسنوات.

فكانت الكنتينة العربية تأتي إلى المعتقلات وفيها ما يطلبه المعتقلون بما في ذلك الدجاج والجبنة البيضاء البلدية وتهرّب فيها الهواتف المحمولة وشاحناتها. وكانوا يسمحون بإدخال الأثاث من طاولات بلاستيكية إلى طناجر وصحون وملاعق وأباريق شاي، وكانوا يسمحون للزوار بإدخال أنواع الأطعمة، حتى إن يوم الزيارة كان عند المعتقلين يوم الطعام والشراب والحلويات.

انفجار الانتفاضة الثانية

ذكرت في أسطر سابقة أن فشل مؤتمر كامب ديفيد الثاني تسبب بالإحباط للسلطة الفلسطينية التي لم تعد تستطيع أن تسوق على شعبها مقولة أن الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف أصبحت على مرمى حجر، وأن أحد قادة السلطة وهو أمين مقبول تنبأ في مؤتمر بجامعة النجاح أن ينتفض الشعب ليفرض دولته الفلسطينية المستقلة بالقوة، وقد استغرب الحاضرون من هذه النبوءة؛ لأن الجميع كان منذ فترة طويلة قبل ذلك يعد عدًا عكسيًا لساعة الصفر التي سينطلق فيها الشعب منتفضًا ضد السلطة الفلسطينية، ليسقطها وليكن بعد ذلك ما يكون، وكان الكل يتساءل همسًا عن موعد ساعة الصفر، ولو كانت الأجهزة الأمنية الفلسطينية في الضفة الغربية تحفظ الصنيع لحفظت لحماس أنها كانت العامل الأقوى في كبح جماح تلك الانتفاضة التي كانت على وشك أن تقع. لقد وقعت مظاهرات عارمة سنة 1997، 1998، 1999 وكان شيوخ حماس هم الوسطاء لتهدئة الخواطر وإعادة الهدوء إلى الشارع الفلسطيني، وأول الانتفاضات التي كادت تعصف بالسلطة وقعت بعد اجتياح الشرطة الفلسطينية لجامعة النجاح حيث داست بنعالها حرمة الجامعة وضربت الصغير والكبير والأستاذ والطالب وضربت فتيات وسيدات حوامل وعربدت وأظهرت سوء الخلق دون أي سبب معروف إلا أنها كانت تريد إثبات هيبة السلطة وكانت حجتهم قولهم: إنهم

علموا أن مؤتمرًا ينعقد في جامعة النجاح يهاجَم فيه السيد الرئيس، وتبين فيما بعد أنّ القائد العام للشرطة الفلسطينية وقتها، اللواء غازي الجبالي هو من وجه التعليمات لشرطة نابلس بمهاجمة الجامعة.

عملت السلطة على امتصاص غضب الجماهير بنقل قائد شرطة نابلس إلى لواءٍ آخر ونجت هي من تبعات ما فعلت. وبعد ذلك وقعت مظاهرات اجتاحت مبنى المقاطعة في نابلس وكانت هنالك مظاهرات ومسيرات وتجمعات أمام مبنى العمارة، وكان الغليان الشعبي يزداد يومًا بعد يوم. وفي الثامن والعشرين من أيلول، أي بعد وصولي إلى معتقل مجدو بأربعة أيام، ووسط غليان شعبي عارم دخل شارون المسجد الأقصى محاطًا بعدد كبير من الجنود الإسرائيليين، فتفجر غضب الناس في القدس وفي بقية أرجاء الضفة الغربية وقطاع غزة، واتخذ الغضب الشعبي كل أشكال المواجهة ودخلنا مرحلة جديدة اسمها الانتفاضة الثانية.

كانت ذكرى استشهاد الشقاقي مناسبة لاحتفال سنوي للحركة في المدن الفلسطينية وفي السجون والمعتقلات كذلك. وتم الإعداد لهذه المناسبة في معتقل مجدو. كان المعتقل يدرب عددًا من الشباب الصغار على الأناشيد التي سينشدونها. وأقيم الاحتفال في قسم «5» وحضره قياديو الفصائل وقياديو الحركة في المعتقل من جميع الأقسام، وكان التنقل في ذلك الوقت بين أقسام السجن ميسورًا، وقد أعد كل فصيل كلمته وألقيتُ كلمة الجهاد الإسلامي في الاحتفال حيَّيتُ الذكرى وصاحب الذكرى الشهيد المعلم أبا إبراهيم، وحييت الحاضرين، ثم تكلمت عن الانتفاضة الجديدة فنوهت بما لها من فضل في عودة الروح للشعب الفلسطيني المحتل، فالمقاومة هي روح الشعب المحتل وهي مصدر اعتزازه ومبعث الأمل في نفوس أبنائه، لقد وقر في الأنفس على مدى السنوات الماضية أن الشعب الفلسطيني الذي طالما أدهشت بطولاته العالم قد أصبح منذ اتفاقيات أوسلو المشؤومة شعب الطحين والزيت والسردين وشعب التسول على أبواب الأغنياء والفقراء، فجاءت الانتفاضة لتجبر لشعبنا ما انكسر من كبريائه ولتعيد إليه صورته المشرقة. وحييت حركة فتح التي فجرت الثورة أول مرة، ثم ظن الناس أن هذه الحركة انطفأت شعلتها ودخلت في ظلام حقبة أوسلو، وها هي

تعـود إلى الـدور الجهـادي الـذي قامـت عليـه مـن أول يـوم وهـذه فتـح التـي نعـرف وهـذا الشـعب الفلسـطيني الـذي يعرفـه الجميـع، كانـت الانتفاضـة بالفعـل تمثـل عـودة الـروح للشـعب الفلسـطيني.

وبعـد وصـولي بفـترة وجيـزة انتهـت الـدورة التنظيميـة وأجريـت الانتخابـات لـدورة جديـدة وأسـفرت عـن انتخـابي أمـيرًا عامًـا عـلى غـير ترحيـب منـي، ولكننـي كنـت أدرك أن الانتـماء مسـؤولية وبـذا لا بـد مـن قبـول اختيـار الشـباب لي ولا بـد مـن الاضطـلاع بأعبـاء المسؤولية.

بـدأْتُ الإعـداد لتغيـير الجانـب غـير المسـتقيم مـن نمـط الحيـاة الاعتقاليـة في مجـدو في ذلـك الوقـت، ووجـدت أن أول مهـماتي التـي كان صعبًـا عـلى أي أمـير عـام ممـن سـبقني أن ينجزهـا هـي نقـل الصلاحيـات والمسـؤوليات في السـجن مـن مراكـز قـوى إلى مجلـس الشـورى العـام والأمـير العـام حيـث ينبغـي أن تتركـز صلاحيـات إدارة شـؤون المعتقلـين مـن أبنـاء الحركـة.

وبعـد أن أمضيـت دورتـين انتخابيتـين أمـيرًا عامًـا، أصبـح مـن الـضروري تنصيـب أمـير عـام جديـد بموجـب اللوائـح التنظيميـة، وانتخـب مجلـس الشـورى الجديـد المنتخـب ـ وكنـت عضـوًا فيـه ـ أمـيرًا عامًـا جديـدًا كان قـد وفـد إلى السـجن حديثًـا ولـه احـترام بـين أبنـاء الجهـاد الإسـلامي في منطقتـه باعتبـاره تـرك ديانتـه ودخـل الإسـلام واختـار حركـة الجهـاد الإسـلامي، بالإضافـة إلى أنـه ذو كفـاءات شـخصية معروفـة، ولم يجربـوه قبـل ذلـك في موقـع المسـؤولية، فتـم انتخابـه أمـيرًا عامًـا. وسرعـان مـا اكتشـفنا أنـه لم يكـن عـلى الدرجـة المطلوبـة مـن الأمانـة والكفـاءة فأعفينـاه وحاسـبناه.

إن الإشـكالات التـي كانـت تقـع في السـجن كانـت ممـا يدفـع كثيريـن مـن أصحـاب الكفـاءات إلى رفـض تحمـل المسـؤولية، وكان كل تنظيـم يحـرص كل الحـرص عـلى أن تظـل الإشـكالات التـي تقـع في داخلـه أحيانًـا، سريـة لا يطلـع عليهـا أحـد مـن الفصائـل الأخـرى.

لم تكـن الإشـكالات هـي كل شيء في السـجن، بـل إن للحيـاة الاعتقاليـة جوانـب مضيئـة لا يتوفـر مثلهـا خـارج السـجن، فـكان هنالـك حركـة ثقافيـة نشـطة، كنـت أخصـص

جزءًا من وقتي لقراءة الصحيفة الإسرائيلية الصادرة باللغة الإنجليزية (الجروزلم بوسط) وكنت منذ مدة قبل دخولي مجدو أعمل على تحسين مقدرتي باللغة الإنجليزية وأطمح إلى أن أصبح قادرًا على متابعة الأخبار وقراءة الكتب باللغة الإنجليزية بسهولة ويسر وأتاحت لي فترة اعتقالي في مجدو فرصة ذهبية للتقدم في هذا المجال.

كما أنني التحقت بدورة لتعلم اللغة العبرية وأكملت فيها الجزأين الأول والثاني من الكتاب العبري (أليف ميليم) ومعناه: ألف كلمة.

والتحقت بدورة التجويد وعرفت أصوله وبعض تطبيقاته ولكنني لم أتقنه.

أما على صعيد التثقيف، فقد بذلت أقصى جهدي في هذا المجال، عقدت لهم دورات في تاريخ الأحزاب والفرق الإسلامية، وتفسير القرآن الكريم.

إن مسائل الخلاف بين حماس والجهاد الإسلامي ظلت منذ البداية مطروحة بقوة على كافة المستويات.

وسألني ضابط مخابرات إسرائيلي مرة وهو يحقق معي: ما أوجه الخلاف بين حماس والجهاد الإسلامي.

فقلت له: أليس عندكم في إسرائيل أحزاب مختلفة من ليكود إلى حزب العمل إلى ميرتس وغيرها؟

قال: صحيح.

قلت: أليست هذه الأحزاب متفقة على الأمور العامة، وبينها خلافات في التفاصيل؟

قال: صحيح.

قلت: وكذلك حماس والجهاد. هما متفقتان على المنهج الإسلامي وعلى فلسطين وبينهما خلافات في التفاصيل وتعتبر تلك الخلافات من نوع الخلافات الداخلية التي تكون بين أفراد البيت الواحد ولا يجري نشرها على الملأ.

والحقيقة أن هذا الجواب هو ما كان يعطى لمن يطرح هذا السؤال من خارج الحركتين.

إلا أنه في حين أن الإخوة في حماس حسموا الأمر بتعريف حركة الجهاد بأنها حركة شيعية، وجدت شبابنا يجهلون أوجه الاتفاق والاختلاف بين الحركتين، فقررت أن أعطيهم دورة يقومون بكتابتها كي يوزعوها على شباب الجهاد في كل الأقسام. واستغرقت الدورة أسابيع عديدة وفصلت للشباب فيها أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف مستعينًا بالمراجع، فأوضحت لهم فيما يخص أوجه الخلاف: كيف تختلف الحركتان في النشأة، وفي تقدير الدور الذي ينبغي أن يضطلع به الشعب الفلسطيني في مواجهة الاحتلال والذي أدى إلى نشوء حركة الجهاد الإسلامي يوم كان الإخوان المسلمون يتحدثون عن مرحلة الاستضعاف المكي، وعن الاختلاف في تقدير كل منهما لدوره في الانتفاضة وعن العلاقة بالدول العربية والإسلامية وفهم حدود الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة والثبات على الموقف أو تقلبه أثناء العدوان البعثي التكريتي على إيران وبعده والخلاف بين الجهاد والإخوان المسلمين حول قراءة التاريخ وقراءة مستقبل القضية ومعارضة الجهاد لمشروع حماس في عقد هدنة مع العدو مدتها عشر سنوات، وغير ذلك من أوجه الخلاف بما في ذلك ما يراه الجهاد من دعاية غير منصفة ضده...إلخ

لقد بلغت المذكرة حدود ثمانين صفحة من القطع الكبير أو أكثر قليلًا، وكان دورها إيجابيًا في إطلاع شباب الجهاد على تفاصيل موقف حركتهم وقناعاتها حول جميع الأمور. حتى إن أحدهم قال: كنت أشعر بالحرج عندما يسألني سائل: ما الفرق بينكم وبين حماس؟ والآن أتمنى أن يوجَّه إليّ هذا السؤال.

ثم عدت بعد ذلك فأعطيت الشباب دورة مكتوبة عن نشأة الحركات في فلسطين مع تفصيل نشأة الجهاد الإسلامي، ومن جملة ما تضمنته تلك الدورة فصل عن الجهاد الإسلامي وحماس والإخوان المسلمين، اختصرت فيه ما ورد في المذكرة الأولى وفصل عن نشأة منظمة التحرير وعلاقة الجهاد الإسلامي بها، وآخر عن علاقته بحركة «فتح»، وآخر عن اتفاقيات أوسلو وتعليل مقاطعة الجهاد الإسلامي لها وللمجلس التشريعي. وكانت أوراق كل جلسة منها تعمم على سائر الأقسام لتكون مادة الدورة التنظيمية التي يعطيها أحد الإخوة في كل قسم من أقسام المعتقل، وعندما انتقل أعداد من الشباب إلى النقب حملوها معهم.

وكنت أتوجه كل يوم إلى قسم من أقسام السجن لأعقد للشباب فيه جلسة تنظيمية أو تثقيفية، ثم أعود عند المساء إلى قسم «6» الذي أقيم فيه.

كنت بمنزلة الأب للكثيرين ممن هم في سن أبنائي، وصدف أنني أكون أحيانًا أكبر من في السجن سنًا، إذ كنت في الرابعة والخمسين وقتها.

معركة مع ديك

إلا أن الطرفة الكبرى التي حصلت معي كانت معركة مع ديك.

كان شباب من حركة المقاومة الإسلامية «حماس» قد استجلبوا مع الأهالي الزوار بيضة دجاجة ملقحة، فوضعوها تحت حمامة من الحمام الذي كان يربى في السجن ورخمت الحمامة بيضة الدجاج حتى أفرخت، فخرج منها ديك بلدي في غاية الروعة والجمال، وشب الديك على الدلال، فهو لا يُطرد من مكان ولا يُمنع عن طعام، وينقر كل شيء داخل الخيمة وحولها.

كنت إمام صلاة العصر، وذات يوم، بينما كنت ساجدًا كان الديك يتجول أمامي فنقرني نقرة في رأسي شعرت بألمها وأدركت فيما بعد أنه أسال الدم، فدفعته بيدي، ثم رفعت رأسي فإذا به يُقبل عليّ بعينين يلمع فيهما الشر، ولم أكن قبل ذلك رأيت الغضب في عيني حيوان، ولا أنسى أبدًا تلك اللمعة الحاقدة في عيني ذلك الديك وهو يقبل نحوي مسرعًا ليثأر لكرامته التي شعر أنها أهينت حين دفعته بيدي وهو المدلل الذي لم ينهره أحد قبلها، فصفعته صفعة قوية بيدي اليمنى على خده الأيسر، فلم يصعِّر لي خده الأيمن، لكنه أدار لي ظهره وانصرف لشأنه. حدث كل ذلك في ثوانٍ معدودة، وكان ذلك في الركعة الأخيرة وعندما أكملت الصلاة الإبراهيمية وسلمت سألت الشباب: هل رأيتم شيئًا؟ قالوا: لا، ما الخبر؟ قلت لهم: كنت في معركة مع الديك، وتحسست رأسي فوجدت الدم، فاستغرب الشباب وتندروا بالحادث زمنًا طويلًا.

حادث تسمم ولكن الله لطف

ذهبت مرة إلى قسم «5» وكان فيه أصدقاء بمنزلة الأبناء والإخوة من بيت لحم منهم أبو مجاهد، محمد العصا، ومنهم سليمان العصا ـ رحمه الله ـ وغسان العصا وزياد العصا، وعزيز رદايدة. وكانت زيارة أهلهم لهم في ذاك اليوم، ومما جلبوه جبنة بيضاء طازجة «غير مغلية» فقدموا لنا منها فتذوقناها بتلذذ، ثم عدت إلى قسم «6» حيث أقيم، وأثناء صلاة العشاء وكنت خلف الإمام، شعرت بتثاقل وتعب شديدين وغثيان ووددت لو تركت الصلاة واسترحت في الفراش إلا أنني تحاملت على نفسي وتابعت الصلاة جالسًا وكنت أسائل نفسي بدهشة: هل أصبحت «عجوزًا» دفعة واحدة؟ ولم يخطر بفكري أنه التسمم، وبدأت ـ بحمد الله ـ أتحسن بسرعة فأدركت أنها أعراض التسمم، وبعد إكمال الصلاة وجدت أن التسمم طال العديدين وأن عددًا منهم نُقلوا إلى عيادة السجن، لكنه كان تسممًا خفيفًا عند الجميع.

وبما أن حدثًا يذكّر بكل حدث مشابه، ذكّرني حادث التسمم البسيط الذي تعرضا له مرة في العمر بحادثتي لدغ أولاهما كانت في غاية الطرافة وكنت أستحقها بجدارة والثانية لا طرافة فيها وأستحقها أيضا بجدارة، وكلاهما يذكّرني بقول صالح بن عبد القدوس:

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهل من نفسه

في المرة الأولى كنت صبيًا في المرحلة الإعدادية، جئت إلى دكان في القرية فوجدت أحد أبنائها يلف شريطًا من القماش على رأس عصا وتسمى «المَشْعَلَة»، وقال إنه يريد أن يحرق «مَدْبَرَةً» واقعة في جدار سقيفة في الطريق التي يسلكها إلى بيته، وسكب بعض الكاز على المشعلة ثم أشعلها وتوجه إلى المدبرة وكان ذلك بعد المغرب حين تكون الدبابير كلها قد آوت إلى بيتها، وبدأ يضع المشعلة على فوهة المدبرة ووقفت غير بعيد منه ومعي عصًا رفيعة ألوِّح بها في وجه الدبابير القليلة التي كانت تحوم حول مسرح الحدث، وفجأة جاءني دبوران متحدان ويطيران متلاصقين بسرعة الرصاصة ولدغاني بين عينيَّ. وكانت اللدغة مؤلمة وقد انتفخ رأسي ولزمت بيتي عدة أيام.

أما أنني أعد نفسي مستحقًا لما فعله الدبّوران؛ فلأنني اقتربت من المدبرة وبيدي عصًا، والعصا لا تحمي، في حين أن المرحوم (أبو وائل) كان يدافع عن نفسه بالمشعلة، فلم يخلص إليه أي دبّور. ولقد تعلّمت من هذه الحادثة أن للنحل لغة لا شك في ذلك فالدبّوران اللذان لدغاني قد تفاهما وجاءا وفق خطة رسماها ولسبب اقتنعا به. فعالم الحيوان عجيب وله أسراره التي لا يعرف البشر إلا ظاهرها.

فمن الظواهر المحيِّرة في عالم الحيوان والتي وردت في كتب العجائب وكنا في القرية نشاهدها ونقف أمامها متحيرين، أنه إذا ذُبحت بقرة أو ثور أو عجل صغير، كان دمها يترك إلى أن يجف ثم يتلاشى. كان في قريتنا ثيران للحراثة، وربما صادف رواحها من الحقل أن بقرة ذبحت وبقي دمها على الأرض، ومن عادة الثور أن يشم الدم الذي يجده، فإذا كان غير دم البقر مضى لسبيله، وإذا كان دم بقر فإنه يقرب منخريه منه، فيشمه، وبحركة يرفع رأسه إلى أعلى ويرفع مع رأسه منخريه ويأخذ يخور خوارًا يحس السامع أنه خوار حزن ورثاء، وقد تكرر الحادث أمامنا كثيرًا وربما اجتمع أكثر من ثور على الدم الواحد تشمه وكلها ترفع رأسها بالطريقة نفسها وتخور الخوار العالي الحزين بالنغمة نفسها.

إن ابن القرية المتفحص للظواهر ولديه فرصة للتأمل في سلوك الحيوانات والطيور يدرك أن لكل منها عالمه ولغته التي يتفاهم بها مع أبناء جنسه، وهو يأنس بأبناء جنسه، ومما يلاحظ في القرية أن الكلاب تحب العشرة بشكل كبير فهي تجتمع ويأنس بعضها ببعض.

أما اللدغة الثانية، والتي أعد نفسي مستحقًا لها، فحصلت وأنا أعمل في سلك التدريس، وكنت وقتها في مدرسة قريوت وعندي ولع في البحث عن الآثار، وكنت ذات يوم أعمل في بستان لوز لنا أرفع حجارة ساقطة منذ زمن، وأصلح بها جداره المتهدم، وكان هدفي الأول معرفة ما تحت ركام الأتربة والحجارة، لعلني أعثر على مغارة أثرية، وكان التراب حارًا فوضعت يدي فيه لأستخرج ما قد يكون فيه من حصى، ولم يخطر ببالي وقتها أنني أغامر مغامرة كبيرة لا لشيء، فشعرت بشيء لدغني. لقد

كانت لدغة قوية ومؤلمة ألمًا لم أجرب مثله في حياتي إنه يفوق بكثير ألم لدغة الدبورين، وبحثت بالفأس والمسحاة عن الشيء الذي لدغني فلم أعثر له على أثر، أعتقد أنه عقرب صغيرة، وظل الألم قويًا وحاضرًا ساعات طوالًا، وحرصت على ألا يعلم أحد بالحادث، وبالفعل، لم يعرف عنه أحد.

هذا استطراد، وأعود إلى ذكرياتي في مجدو، فأذكر يوم الحادي عشر من أيلول 2001، إنه يوم لا يغيب عن الذاكرة، كنا نجلس مقابل التلفزيون مساء ذلك اليوم ونشاهد الجزيرة وفجأة نقلت الجزيرة التغطية الإخبارية إلى نيويورك، فقد حدث حادث غريب وفظيع، طائرة ركاب مدنية تصطدم بأحد برجَي التجارة الدولية وهما ناطحتا سحاب شاهقتان، وأخذنا ننظر إلى الضرر الأوليّ الذي أحدثه الاصطدام، لا شك أنه أثر كبير، ولكن في لحظتها لم يكن بالإمكان تقدير حجم الضرر، وكان الشعور السائد للوهلة الأولى أن الحادث غير متعمد على الأغلب، مع العلم أن البرج كان قبل سنوات هدفًا لعملية تفجير بوضع عبوة في أسفله لكنها لم تنجح، وأدين وقتها بالمسؤولية عنها الشيخ المصري الضرير عمر عبد الرحمن إلا أن تخمين الناس هذه المرة لم يطل، فأمام أعيننا، مثلما كان أمام أعين مئات الملايين من المتفرجين في جميع أنحاء العالم، جاءت طائرة ثانية وضربت البرج الثاني، فلم يعد هنالك أدنى شك في أن الضربتين متعمدتان. ولا تسل عن مشاعر المعتقلين، كانت فرحتهم لا توصف، إن ما حدث يعتبر بلا شك ضربة قاصمة لهيبة الولايات المتحدة العدو الأول والأكبر للمسلمين، وهو ضربة قاصمة لأسطورة المخابرات المركزية الأمريكية (C.I.A) ولمكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي الذي كان يفاخر بأنه استطاع في أقل من ساعة أن يكتشف المجرم المسؤول عن تفجيرات أوكلاهوما التي حصلت قبل ذلك بفترة قصيرة.

كان المتهم الأول منذ اللحظة الأولى، تنظيم القاعدة والشيخ أسامة بن لادن الذي يتزعم التنظيم. واعتقد كثيرون أن تنظيم القاعدة ليس لديه قدرة على عملية من هذا النوع، وعلى كل حال كان الشعور العام هو الاشتفاء بما لحق بالولايات المتحدة من خسارة مادية ومعنوية، كائنًا الفاعل من كان، وظلت تداعيات ما بعد ضرب البرجين وهيجان أمريكا وغزوها أفغانستان وتهديدها العالم الإسلامي بأسره، كل ذلك استحوذ

على الاهتمام الأكبر عند وسائل الإعلام العالمية والمحلية. ولكن الانتفاضة المندلعة بقوة وما صاحبها من عمليات عسكرية لفصائل المقاومة وما كان عليه رد الفعل الإسرائيلي من تصفيات لقادة العمل الفدائي في الضفة والقطاع، ثم اجتياح الضفة الغربية، كل ذلك كان مثار الاهتمام الأكبر للمعتقلين الفلسطينيين وللشعب الفلسطيني في كل مكان وخاصة في الضفة والقطاع.

أقيم في سجن مجدو حفل تأبين للمرحوم أبي علي مصطفى، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان قد حدثني أحمد الشيباني الملقب «سُنبُل» وهو ابن عرّابة التي ينتمي إليها أبو علي، أن الشهيد لم يكن يقطع فرضًا من الصلاة، مما أحل الترحُّم عليه، وكان حفل التأبين في قسم «5» الذي كان القسم المركزي في مجدو، وكنت المتحدث في الحفل باسم الجهاد الإسلامي، فأثنيت على الشهيد وعلى شهداء الأمة وعلى الأبطال المقاومين من كل الفصائل، ووجهت تحية إلى أبطال كتائب شهداء الأقصى من فتح، وتطرقت إلى اتفاقيات أوسلو التي مسّت بمكانة الشعب الفلسطيني وبصموده لفترة، وذكّرت السلطة الفلسطينية بأنها لم تجن شيئًا من هذه الاتفاقيات وأن مناصب وزير وعميد وعقيد ما هي إلا ألقاب زائفة في ظل الاحتلال.

استشهدت في هذا المجال بقول أمير الشعراء أحمد شوقي مخاطبًا السوريين الذين أقام لهم الاستعمار الفرنسي خمس جمهوريات محلية مزيفة:

بني سورية اطَّرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خِدع السياسة أن تُغرّوا ... بألقاب الإمارة وهي رِقُّ
فكَم صَيَدٍ بدا لك مِن ذليلٍ ... كما مالت من المصلوب عُنُقُ

إنني أجد هذه الأبيات أشبه شيء بالسلطة الفلسطينية بما تلاقيه من صَلَف المحتل الصهيوني الذي لا يهتم بكل ما أقدم عليه الفلسطينيون من تنازلات ولا يعتبرها شيئًا يستحق التقدير.

كانت الأنشطة الخطابية من أبرز أنشطة التعبئة والتثقيف في السجن، وكنت أتولى عن الجهاد الإسلامي، في القسم الذي كنت فيه. الخطابة وصلاة الجمعة بين الحين والآخر وكذلك خطب المناسبات وكانت كثيرة، وكلها خطب سياسية تحض

على الصمود وتشيد بالمقاومة، وقد ووجهت بذلك على حاجز حوارة وأنا متوجه إلى نابلس يوم أن انتهت محكوميتي.

التوجيهي العجيب

معلوم لدى الجميع أن امتحان التوجيهي في السجن كان لا يلتزم بأية ضوابط على الإطلاق (لقد توقف الامتحان منذ بضع سنوات). ومصححو أوراق التوجيهي، وطالما كنت واحدًا منهم، تأتيهم صناديق السجون ومكتوب عليها أنها للسجون، وتقضي التعليمات للمصححين والمدققين أن يلتزموا بضوابط التصحيح وبمعايير العلامات للجميع بمن فيهم دفاتر المعتقلين، ثم هنالك لجنة خاصة تعمل بسرية تامة بخصوص نسبة النجاح ومستوى العلامات للمعتقلين، فهي تخفض مستوى العلامات ومستوى النجاح للسجناء وفق خطة متفق عليها.

وعندما دخلت سجن مجدو عرفت على أرض الواقع كيف يجري امتحان التوجيهي في السجن: تعقد الامتحانات في عدد من أقسام السجن ويجلس الممتحَنون على الأبراش وعلى ما يتيسر من الكراسي، ويأتي المعلمون المراقبون ورئيس القاعة الذي يكون أمينًا على أوراق الأسئلة ويوزع دفاتر الإجابات وأوراق الأسئلة حسب الأصول، ثم ينتهي دور مدير القاعة والمراقبين وتتولى إدارة الامتحان لجنة خاصة من المعتقلين، ويجري الاتصال بلجان لكتابة الإجابات إما في داخل السجن بالاستعانة بالكتب التي تكون قد أُدخلت السجن في وقت سابق، إذا توفرت، أو من خارجه عندما كان الاتصال الهاتفي ممكنًا في بعض السجون.

في امتحان التوجيهي المنعقد في سجن مجدو سنة 2001، كان يجري نقاش حول حرمة أو عدم حرمة الغش في امتحان التوجيهي، وكنت أنبه الطلاب إلى أن كل غش حرام، والحديث النبوي الشريف واضح المعنى، لا لبس فيه: «من غشَّ فليس منا»، وفي رواية أخرى: «من غشّنا فليس منا». وكثيرًا ما نبهت المعتقلين الذين ينوون التقدم للامتحان، بعضهم بالأصالة عن نفسه وبعضهم بالنيابة عن غيره، إلى أنهم مقدمون

على عمل حرام وعلى شهادة زور باتباعهم طريق الغش وأنهم إنما يغشون أنفسهم وأمتهم ولا يضرّون عدوهم شيئًا، فيقر بعضهم بما أقول، ويتعلل بعضهم بالضرورة ويستند إلى فتاوى مؤسفة تجيز لهم هذا العمل.

كان رؤساء القاعات ومعهم المراقبون يدخلون الأقسام، ثم يجلسون في خيام المعتقلين ويتركون الباقي للجان التغشيش، وحينما ينتهي الامتحان يذهبون إلى الموقع فيجمعون الدفاتر ويلفونها حسب الأصول ويقفلون عائدين إلى أقسام الامتحانات في مديريات التربية والتعليم في ألويتهم.

جاءنا مدير قاعة من جنين كنيته أبو محمود، وكان لي خيمة صغيرة تسمى القاووش تتسع لي ولزميلين آخرين، فكان يجلس في ذلك القاووش إلى حين انتهاء الامتحان نتجاذب معه أطراف الحديث وهو متحدث لبق وواسع التجربة في الحياة، فلا نشعر بمرور الوقت وهو عندنا. قال لنا مرة: أطلبوا أي شيء وأنا مستعد لإحضاره، فقال له معتقل صغير السن هو ماهر الهشلمون: أريد أن أذوق الكنافة. وفي اليوم التالي جاءنا ومعه سفط فيه 2 كيلو كنافة من أجود الأنواع، فأخذها الشبل الذي طلبها وقسّمها على جميع من في قسم الجهاد الإسلامي فأكلنا وشكرنا الأستاذ أبا محمود ولا أنسى كم تلذذنا بها في موقع الحرمان ذلك، خاصة وأنه جلبها من محل فاخر.

كنت أذهب أحيانًا إلى القاعة (الخيمة) لأتفرج على الامتحان العجيب، فأجد شابًا من المعتقلين يقف على باب الخيمة ووجهه إلى من في الخيمة، يقول لهم: السؤال الأول: ثم يملي عليهم الجواب كما هو مكتوب في الورقة التي معه وقد جاءته من لجنة كتابة الإجابات، وما أن ينتهي من إملاء جواب السؤال الأول حتى تكون قد وصلته ورقة إجابة السؤال الثاني.

لم يكن أحد يطمع في أن أتعاون في موضوع الامتحان بأي شكل من الأشكال، وكذلك كنت في فوضى الانتفاضة. وذات يوم جاءني شاب فقال: أريد أن أسألك سؤالًا لنفسي. قلت: سل. فاسمعني جملة فيها حرف الجر «في» وقال: ما المعنى الذي تؤديه «في» في هذه الجملة؟ قلت: الظَّرفية. فأخذ الجواب وطار به إلى خيمة الامتحان،

ففطنت إلى أنهم يؤدون امتحان اللغة العربية، وأدركت أن الشاب ضحك عليّ، ولو كنت فطنت إلى هدفه لما أسمعته الجواب.

إذا كان أسوأ ما في السجن ما كان يقع من مشاكل بين المعتقلين تنغص على المسؤولين في التنظيم عيشتهم، فأحسن ما في السجن هو العشرة والتعرف على أناس أفاضل، منهم من كنت أعرفه كأبي هادي، خالد جرادات وأبي عبد الرحمن خضر عدنان، ومنهم من تعرفت عليه في سجن مجدو ولم أكن أعرفهم من قبل، منهم الشيخ أبو عيسى، أسعد خليل، رحمه الله، الذي اعتُقل على إثر زيارة له إلى دمشق في خدمة الجهاد الإسلامي، وقد اغتيل ابنه القيادي في الجهاد الإسلامي أحمد أسعد، بينما كان الوالد في مجدو وأقمنا له احتفالًا يليق به، ولقد كان الاغتيال بالغ الصعوبة على الوالد الشيخ الذي كان قد تجاوز الخامسة والستين في ذلك الوقت، ثم جاءنا في خضم الانتفاضة والاعتقالات الواسعة التي نفذتها الدولة المحتلة الأستاذ أبو أسامة، مسلّم شريتح، وهو يكبرني بسنة، وبعد قليل عرّفني أبو أسامة على الأستاذ أبي ثابت، مصطفى شاور، المدرس في جامعة الخليل، وهو من قيادات حركة المقاومة الإسلامية، حماس، الذي وجدت أنه كان قرأ كتابي «الميزان بين السنة والشيعة» فكانت معرفة هؤلاء الأفاضل، ثم الصداقة الحميمة الأبدية التي ربطتني بهم من أكبر ما ربحته في السجن.

ومن الذين ربحت معرفتهم في السجن، غير من ذكرت في السابق، عزام الشويكي ومحمد البايض وأيمن طبيش وأنس شريتح، نجل أبي أسامة، مسلَّم شريتح والشهيد لؤي السعدي من عتيل والشهيد صالح كركور والشهيد أمجد أبو خليل، وهما أيضًا من عتيل، ومن الشباب الصغار المميزين مؤيد بريوش، نجل الصديق محمد بريوش، القيادي في الجهاد الإسلامي، وإياد أبو خليل وأمجد العتيلي، وأبو جهاد يوسف طبيش، وأبو القسام، محمد عصافرة، ومصطفى عوض ووليد عوض، وأبو إبراهيم نصال الجنيدي، والأخوان أيوب وناهض أبو عرقوب، والدكتور نادر عطية، وفي المرحلة الأخيرة عادل حريبات، ومن بيت أمر قضاء الخليل كل من محمود بحر وعماد أبو ماريا وخالد علامي ومنهم مهند أبو رومي، ومن صيدا وباقا الشرقية منهم

الشهيد إلياس الأشقر ومهند البس وغيرهم كما تعرفت على لؤي تيسير القريوتي وهو ابن الصديق المحامي تيسير القريوتي، وهو من قيادات الجبهة الشعبية، القيادة العامة، كان يعيش تحت إطار الجهاد الإسلامي، وكذلك جبر أبو عليا من المغير قضاء رام الله، وهو من قيادات حماس، وفي أواخر فترة وجودي هناك جاءنا خالد الزواوي وقبله محمد الشربيني. وثمة آخرون. ولا شك أن أعزاء كثيرين آخرين يستحقون التنويه ولكن الخطأ أنني لم أكن أسجل ذكرياتي أولًا بأول، لذا اعتمدت في كتابة هذه المذكرات على مخزون الذاكرة.

بدأت أفواج المعتقلين تصل سجن مجدو على إثر الاعتقالات الواسعة أثناء الانتفاضة، وكان من جملتهم كثيرون ممن كانوا محقِّقين في جهازي الأمن الوقائي والمخابرات في السلطة الفلسطينية، وكانت تجري المناكفات والتلاسن بينهم وبين الشباب الذين تعرضوا لظلمهم من الجهاد الإسلامي وحماس، فيقول لهم المحققون: إذا عدنا إلى مواقعنا وعادت السلطة إلى سابق عهدها فسوف نعود أسوأ مما كنا إلا أنه في ذلك الوقت كان الظن أن التاريخ لن يكرر نفسه، وأن السلطة لن تعود إلى سابق عهدها، ولكن التاريخ أبى إلا أن يكرر نفسه فيما لا يُرضي، فعاد هؤلاء إلى مواقعهم، فعادوا إلى سيرتهم الأولى، لم ينسوا قديمًا ولم يتعلموا جديدًا.

في تلك الأثناء، ألقيت ذات يوم خطبة الجمعة وكان موضوعها الدويلة الفلسطينية التي تسعى إليها السلطة الفلسطينية وتسميها المشروع الوطني، وكيف أن مثل هذه الدويلة ستكون دويلة تجزئة تحول بين الفلسطينيين وحلم الوحدة الإسلامية، كما أن هذه الدويلة تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة، فهي غير قادرة على أن تطعم أبناءها ولا أن تسقيهم ولا أن توفر لهم أي درجة من درجات العيش الكريم.

وبعد اكتمال الخطبة والصلاة عدت إلى القاووش، فزارني شاب جاء إلى السجن في موجة الاعتقالات، وأخذ ينظر إليّ ويناقشني في موضوع الخطبة وكيف أنني لم أكن معتدلًا في الهجوم على الدويلة الفلسطينية، ثم قال: كأنني أعرفك، وأريد أن أتذكر أين شاهدتك. قلت له: وماذا تعمل؟ قال: ضابط في الأمن الوقائي. قلت: أين؟ قال: في

أريحا. قلت: إذًا شاهدتني عند أبي العز. فقال: ذكرت الآن. قلت: هل كنت جالسًا عندما وقعت المشادة الكلامية بيني وبينه؟ قال: نعم. ثم أصبح صديقًا وهو أبو محمد العواودة وعندما جاءه النقل إلى عوفر أرسلت معه للمعتقل هناك، مالك، حقيبة مليئة بالملابس.

وهكذا التقى سجين السلطة وسجانها في سجن الاحتلال. وكان لذلك معنى واضح هو أن الشعب الفلسطيني ينتظره مصير واحد مهما تباعدت المواقف بين حركاته وأحزابه، وهذه عبرة للمنقسمين الآن؛ فتح وحماس، فإن «فتح» لن تحقق شيئًا من أهدافها المتمثلة في إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، كما أن حماس، وقد استقلت بقطاع غزة، لن تحرز أي تقدم ولن تخرج من الحصار، وليس أمام الفريقين إلا أن يلتقيا على التمسك بحقوق الشعب الفلسطيني كاملة. هذا ما نستنتجه من عبر الماضي التي تصلح دروسًا لمواجهة الوضع الحاضر الانقسامي والمزري.

إعادة افتتاح معتقل النقب

في أواخر 2001، قررت مصلحة السجون الإسرائيلية إعادة فتح معتقل النقب الصحراوي «كتسيعوت» وتقرر البدء بنقل الذين في الاعتقال الإداري، فكان التمنع من المعنيين بالنقل يعاضدهم جميع المعتقلين في مجدو. واجتمع ممثلو الفصائل لبحث القضية، فقرروا بادئ ذي بدء أن يرفضوا تلك الخطوة باعتبار أن كتسيعوت سجن صحراوي والحياة فيه بالغة الصعوبة وطالما شن ناشطون فلسطينيون من الأرض المحتلة قبل عام 1948 وبعده ومنهم أعضاء الكنيست العرب حملات لإغلاقه، وأغلقته مصلحة السجون عندما قلّت أعداد المعتقلين بين أعوام 1998-2000، ثم عندما رجعت عملية الاعتقال إلى سابق عهدها في الانتفاضة الثانية تقرر إعادة فتحه. ولم توافق الإدارة على مجرد النظر في طلب المعتقلين في مجدو بإلغاء القرار، وفي اليوم السابق لتنفيذ القرار جاءت القوات الإسرائيلية المدججة بالسلاح استعدادًا لاقتحام المعتقل، ثم بدأ ممثلو الفصائل سلسلة من الاجتماعات فيما بينهم ومع مدير المعتقل

الـذي جلس في غرفـة مـن نـوع البنـاء الجاهـز والمتنقـل التـي تكثـر في المعتقلات غـير المركزية وهـي مجـدو وعوفـر والنقـب في ذلـك الوقـت. وجلسـنا معـه فـترة مـن الوقـت بينـا لـه سـبب رفضنـا لنقـل المعتقلـين وهو سـوء وضـع المعتقـل، فأخبرنا أن الكهربـاء فيـه 220 ولم تعد 24 كـما كانـت في السـابق وأن فيـه مرافـق جيـدة وكذلـك التلفزيـون، ثـم قـال لنـا كلمـة هـي مـن نـوع الموجـز البليـغ: مـن الممكـن أن يصبـح النقـب كمجـدو، ومـن الممكـن أيضًـا أن يصبـح مجـدو كالنقـب. إنـه تهديـد واضـح بـأن كل إنجـازات المعتقلـين في مجـدو سـتطير في طرفـة عـين إذا أصررتـم عـلى موقفكـم. خرجنـا مـن عنـد المديـر لإجـراء مزيـد مـن المشـاورات، وكانـت سـيارات الجيـش المسـلحة بالرشاشـات وكذلـك قـوات الاقتحـام المدربـة عـلى أهبـة الاسـتعداد وتتجـول في طرقـات السـجن. ونظـرت إلى الضابـط الـدرزي المرافـق لنـا، فقلـت لـه مازحًـا: لا تسـتخدموا أسـطوانات الغـاز الكبـيرة، فيكفـي قنابـل الغـاز الصغـيرة، فضحـك نافيًـا أن تكـون ثمـة نيـة مـن هـذا النـوع، وبدأنـا اجتماعًـا أخيرًا قبيـل الفجـر، واتفق رأينـا عـلى أن المعركـة التـي سـنخوضها خـاسرة؛ إذ إننـا إذا قررنـا المواجهـة فسـوف يفقـد المعتقلـون كل الإنجـازات التـي حصلـوا عليهـا وسـوف يهاجـم الجيـش الأقسـام وسـوف يـضرب المعتقلـين الإداريـين ويهينهـم، ثـم لا سـبيل إلى رفـض الخـروج، فنحـن مخـيرون الآن بـين أمريـن لا ثالـث لهـما: إمـا أن يخـرج المعتقلـون الإداريـون إلى النقـب خروجًـا سـليمًا لهـم ولبـاقي المعتقلـين أو أن يخرجـوا خروجًـا مهينًـا ويتركـوا المعتقـل مـن ورائهـم قاعًـا صفصفًـا. وقررنـا القبـول بالنقـل وعدنـا إلى المديـر فبلغنـاه بقرارنـا، وأننـا سـنعمل عـلى إقنـاع المعتقلـين الإداريـين بقبـول النقـل حفاظًـا عليهـم وعـلى إخوانهـم. فوافـق المديـر عـلى أن نتوجـه إلى أقسـام الغـرف ونعمـل عـلى إقنـاع الإداريـين قبـل السـاعة السـابعة صباحًـا وهـي السـاعة المقـررة لبـدء تحميـل المعتقلـين وأغراضهـم. وجلـس كل واحـد مـع أفـراد فصيلـه مـن المعتقلـين الإداريـين، وبعـد أخـذ ورد ونقـاش وشرح منطقـي للوضـع وللبدائـل السـيئة إذا أصر المعتقلـون عـلى الرفـض، وافقـوا عـلى الخـروج وأُحضرت الباصـات لنقـل الأفـراد والشـاحنات لتحميـل الأغـراض وتـم ذلـك كلـه وعدنـا إلى أقسـامنا عنـد الضحـى.

بعـد فـترة صـدرت التعليـمات بنقـل عـدد كبـير مـن المعتقلـين المحكومـين في مجـدو، وتـرك لممثـلي الفصائـل تحديـد الأسـماء. وكان عـلى كل فصيـل أن يخـرج عـددًا موازيًـا لنسـبته

في السجن، ولم يكن الأمر صعبًا هذه المرة كما كان أول مرة، ولكنه احتاج إلى اجتماع ممثلي الفصائل من أجل اتخاذ القرار، واتُخذ القرار ونُفذ النقل.

كانت العلاقة بين المعتقلين وإدارة السجن تتم من خلال المسئول الأول في السجن ويسمى ممثل المعتقل، وينتمي عادة إلى الفصيل الأكبر، لذا فهو إما من فتح أو من حماس، كان لكل فصيل ممثل أمام الإدارة ويسمى بالعبرية «التنسيق» وكانت اللقاءات بين ممثلي الفصائل والإدارة (مدير السجن ومساعديه) كثيرة وتتم بشكل دوري وفي المناسبات، والإدارة تعترف بالتنسيق وتعطيه وضعًا خاصًا بحيث لا يجري تفتيشه، لذا كانت أجهزة النقال وشاحناتها تنتقل من قسم إلى قسم مع التنسيق، كل ذلك في زمن الجيش، قبل أن تستلم مصلحة إدارة السجون (الشاباس) الإشراف على المعتقلات الثلاثة، ذهبنا مرة للاجتماع بمدير السجن ومساعديه، وكان فيهم ضابط يتكلم الإنجليزية ويتعلم العربية وأعرفه بكنيته (أبو عمري) وكنت أتحدث معه بالإنجليزية وألاحظ أنه يخصني باحترام واضح، إلى درجة أنني يوم خرجت من السجن أصرّ هو على أن يحمل أغراضي بنفسه حتى السيارة. في ذلك الاجتماع كان معي مغلف فيه نسخة من المذكرة التي أمليتها على الشباب في السجن حول العلاقة مع حماس، فدفع الفضول أبا عمري أن يسألني عما في المغلف، _وهو لا يستطيع أن يفتحه بالقوة_ فقلت له: بعض الأوراق. قال: عمّ تدور؟ قلت له: عن أفكار ثقافية، فعرف أنني لا أريد أن أطلعه عليها، وكنت على يقين أنني لو أخبرته عن محتواها لأصرّ أن أسمح له بتصويرها. لقد كان يعلم أنني أعطي المعتقلين هذا المساق ولا شك أنه كان شديد الاهتمام بمعرفة تفصيلات أوجه الخلاف بين الجهاد وحماس، وكانت الإدارة على علم بما يجري في السجن من نشاطات بما فيها النشاطات الثقافية فهم لا يعدمون الوسائل، ولهم مخبرون في كل الأقسام. وكثيرًا ما كانت الفصائل تكتشف مدسوسين بينها فتعاقبهم أشد عقوبة، والإدارة كانت تراقب كل ما يجري في المعتقل وتعرف أصغر الأمور عن المعتقلين وتعرف ماذا يقولون وما برامجهم الثقافية وما العلاقات بينهم، بل إن مسؤول الأمن في السجن كان يوحي للمعتقلين أنه يعرف مقدار القمامة التي تخرج من كل خيمة في كل يوم.

إن أسوأ ما في السجن هو الخروج منه إلى المحكمة وأسوأ من ذلك العودة من المحكمة إليه.

ما أوحشه وأكأب منظره للخارجين وللداخلين، ويظل شعور الوحشة ملازمًا السجين إلى أن يدخل قسمه وينسجم مع زملائه ثانية. إلا أنه مما يعرف الجميع أن الوقت في السجن يمر بسرعة وأن يوم المعتقل يكون مليئًا بحيث لا مكان للسأَم والملَل، في حين أن الحياة خارج المعتقل فيها الملل الكثير.

وأخيرًا: الإفراج

كان الإفراج يوم 10/ 09/ 2002، وقبل الإفراج بمدة يكون هو الشاغل الأول، كان الاعتقال والإفراج الأول في ولاية الجيش. كانوا يتغاضون عن وجود الهواتف ولا يجرون تفتيشا جديًا حولها، بل كانوا عند التفتيش يعطون المعتقلين الحق في بقاء التنسيق على برشه ولا تُفتَّش أغراضه وبذا كانت جميع الأجهزة الخلوية في القسم توضع تحت برشه إلا أنهم كانوا إذا لمحوا جهازًا محمولا في يد أحد المعتقلين كانوا يصرون على مصادرته.

ومن ميزات عهد ولاية الجيش السماح للكنتينة الخاصة بالمعتقلين استيراد الدجاج المنظّف وبالكميات التي تسمح بها إمكانياتهم المادية. وعلى هذا كان بعض المعتقلين يقيم حفلة غداء كبيرة في اليوم السابق لخروجه. وفي اليوم السابق لخروجي جهزت حفلة غداء دعوت لها من كل الأقسام الناشطين والبارزين من جميع الفصائل، فكان عدد المدعوين يزيد على مائة بالإضافة إلى أن معتقلي الجهاد الإسلامي في القسم الذي أقيم فيه يزيدون على عشرين، فكان عدد المدعوين يزيد على مائة وعشرين فحجزت أربعين دجاجة بالإضافة إلى ما يكفي من اللبن والكوكاكولا، وكانت تكلفة ذلك حوالي 600 شيكل، ولا يتكلف السجين الذي يقيم حفلة غير هذه الأصناف الثلاثة: الدجاج واللبن والكولا، أما الأرز والزيت والخبز فهو من المطبخ، وجهز الشباب المناسف وكان غداءً لذيذًا، وكان من جملة المدعوين عبد الرحيم ملوح نائب

الأمين العام للجبهة الشعبية وأبو تحرير ممثل المعتقل عن فتح، فجاءا متأخرين ولم يكن ثمة مشكلة إذ لا يزال في المقصف دجاج فقدمنا للمتأخرين الدجاج المشوي مع البطاطا.

في الليل أقام القسم حفلة وداع في خيمة الجهاد وقد رتبها أبو القسام، محمد عصافرة، وهو رجل في منتصف العمر حسن الأخلاق ومحترم من الجميع، ومحبوب على نطاق واسع، وكانت حفلة ناجحة وجميلة لا تُنسى.

كانت مدينة نابلس محاصرة تمامًا من كل الجهات بحيث أن قوات الجيش الإسرائيلي المرابطة حول المدينة من كل مكان كانت تمنع دخول المدينة والخروج منها، فالمعتقل المحرر يبيت في جنين أو إحدى قراها، ثم في اليوم التالي يتوجه إلى نابلس عن طريق الباذان وهناك سيارات جيب قوية جاهزة لنقل من يريد دخول المدينة فتحملهم وتصعد بهم طريقًا صاعدة وتضعهم على أطراف جبل عيبال بحيث تتواجد سيارات الأجرة فتنقله إلى حيث يريد.

لم يستسغ أولادي هذه الخطة وأرادوا أن أقدم عليهم في يوم خروجي فاتفقوا مع شخص معه سيارة أن ينقلني من باب السجن عبر الأرض المحتلة عام 1948، من جهة المثلث.

والشخص الذي اتفقوا معه سامري يحمل الجنسية الإسرائيلية بالإضافة إلى الهوية الفلسطينية ويسكن جبل جرزيم واسمه في الهوية الفلسطينية غزال، وفي الهوية العبرية إيال، والكلمتان بمعنى واحد. وكان الظن أنه يستطيع إيصالي إلى جبل جرزيم ومن هناك تأتي سيارة فتحملني إلى البيت.

قبل خروجي بحوالي ساعة جاء مدير السجن ومساعده إلى القسم لوداعي، وأبلغني أنه وافق على أن تنقلني السيارة عن طريق (إسرائيل) ثم تساءل بلهجة المازح: كيف تم الاتصال بالسيارة؟ فلم أجب، فالجواب معروف، لدينا أجهزة خلوي نتصل بوساطتها، ثم بعد ذلك جاء من يناديني على باب السجن كي أُخرج أغراضي ثم أخرج. وكان آخر من رافقني إلى خارج السجن ليحمل حقيبتي هو مؤيد بريوش وهو

كواحد من أبنائي، ولا بد من المرور على جهاز مخابرات السجن، مكثت عنده قليلًا وكان كل حديث الضابط عن محاولة فاشلة للهرب قام بها معتقلون في أحد الأقسام ويريد مني أن أوضح له ما إذا كنت أعرف عن نية هروب عند آخرين، فأكدت له أنني من معرفتي باهتمامات المعتقلين في السجن أستطيع أن أنفي نفيًا باتًا أن يكون عندهم مخططات للهروب من السجن؛ لأن من أراد الهروب، إن استطاع التنفيذ وهو أمر في غاية الصعوبة، فلن يستطيع أن يكون في منجى من إعادة الاعتقال أو حتى من التصفية.

على باب السجن وجدت إيال الذي عرفني على نفسه بغزال، ووجدت في انتظاري هشام ابن رجل الخير الناصري المرحوم حسن حبيب الله الذي يشرف بعد والده على جمعية أنصار السجين التي كانت تقدم المساعدات للمعتقلين وتزور عائلاتهم ومعه شخصان لا أذكرهما الآن على وجه اليقين. وبعد السلام ودعت الإخوة الكرام الذين جاءوا من الناصرة لاستقبالي وجلست في السيارة إلى جانب غزال، وكنت أريد أن أتمتع برؤية الأماكن والقرى وأنا في حالة الحرية، وأول بلدة مررنا من جانبها سألت غزال عن اسمها فقال: أم الفحم.

عند قرية بورين شاهدنا دبابة فخاف غزال أن تستوقفنا وأن يكتشفوا أنه إسرائيلي يحمل فلسطينيًا، فهذا ممنوع وفيه مخالفة، ولكن الله سلّم. ظننت أنه سيسلك بي طريقًا إلى جبل جرزيم، حيث يقيم، وأنه يستطيع ذلك باعتباره إسرائيليًا، ولكنه أكد لي أن هذا غير ممكن فجاء بنا طريق حوارة حيث يقف حاجزان عسكريان يبعد أحدهما عن الآخر مائة متر أو أكثر قليلًا، وعلى الحاجز الأول وقف غزال وعرّف الجنود على نفسه: أنا إيال، إسرائيلي، ومعي فلسطيني من شخيم. قال له الجندي: قف على اليمين، فوقف وانتظرنا طويلًا، ثم جاء الجندي وقال: انزل الأغراض التي معك، فأنزلت من مؤخرة السيارة حقيبة ضخمة مليئة بمصنوعات السجن معظمها صنعها الشاب أيمن حدوش هدية لي ومنها تحف أرسلها بعض الشباب أمانة لأهله، ومعي صور للاحتفال الذي أقيم في السجن في ذكرى الشقاقي وكذلك خارطة فلسطين وصورة للشقاقي. وأخذ الجندي يفتش الأغراض غرضًا غرضًا من الداخل

والخارج، وبعد مدة قال لإيال: تستطيع أن تواصل طريقك؛ لأن مرافقك سوف يتأخر عندنا، فركب غزال سيارته واتصل بالأهل يخبرهم بما حصل فاتصلوا بالمحامي توفيق بصول الذي بدأ يجري اتصالاته فورًا بالمسؤولين في الشاباك وفي معسكر حوارة. كانت الأجواء وقتها مشحونة، ولم يكن يُسمح لكائن من كان أن يجتاز إلى نابلس إلا أن تكون سيارة إسعاف معها تصريح، وكان على سيارة الإسعاف أن تقف بعيدا، ثم ينزل منها السائق ويقترب منهم بحسب تعليماتهم ويقف بحيث يوعزون له بالوقوف ثم يكشف عن صدره ليريهم أنه لا يضع حزامًا ناسفًا، وكان مسموحًا للسيارات الإسرائيلية أن تجتاز الحاجز لتذهب إلى المستوطنات المحيطة، وبدأ التدقيق في الأغراض قبل مغادرة إيال، فوجد في قاع تحفة من مصنوعات السجن رسالة، وكانت التحفة أمانة ولم يخبرني مرسلها بأمر الرسالة، فطلب الجندي الإسرائيلي الذي لا يعرف العربية من إيال أن يقرأ الرسالة، فنظر فيها وقال بالعبرية: هي رسالة من شخص إلى حبيبته، فوضعها الجندي جانبًا، ثم بعد مغادرة إيال صار ينظر في بعض التحف التي معي وينصرف إلى سيارة إسعاف أو إلى شاحنة إسرائيلية، ثم يعود فينظر في أخرى في جو من العداء الشديد، وكان حديثي معه بالإنجليزية، فنظر في صورة الشقاقي بغضب شديد وقال: من هذا؟ فتحي الشقاقي؟ قلت: نعم، ثم قال: ما هذا الشعار؟ الجهاد الإسلامي؟ قلت: نعم. قال لماذا تحمل مثل هذه الصور؟ قلت بحدة: أنا جهاد إسلامي، فازداد غضبًا إلا أنه ـ وهذه شهادة حق ـ لم يشتم ولم يسئ الأدب. ثم نظر في خارطة فلسطين وسألني: لماذا تحمل مثل هذه الخارطة؟ قلت له: وما الخطأ؟ قال: لماذا لا يُكتب عليها إسرائيل؟ قلت: إنها فلسطين، فكتم غيظه، وسألته: متى سأدخل نابلس؟ فقال: إذا أردت رأيي، فإنني لا أوافق على دخولك، ولكنني سأتصل بالشاباك وهو الذي سيتخذ القرار، وأجرى مع الشاباك أكثر من اتصال بالجهاز الذي كان في السيارة، ثم جاءني وقال: إنك كنت تلقي الخطب التحريضية في السجن، وإنك الآن معتقل، وأحضر منديلًا، فعصب عيني وكتف يدي إلى الخلف بقيد بلاستيكي جعله مشدودًا بشكل مؤلم، ثم أجلسني على كرسي صغير منزوع الظهر، وهذا شكل من أشكال التعذيب الذي يكون أول ضغط جسدي على المعتقل، وهو مؤلم بدرجة كبيرة، ولم أكن جربت أي شكل من أشكال التعذيب في حياتي على كثرة المرات التي دخلت فيها السجن ولا حتى كلمة

توبيخ سواء عند الإسرائيليين أو عند السلطة الفلسطينية أو المخابرات الأردنية.

كان الجندي يناديني بالإنجليزية بين الحين والآخر إن كنت أريد طعامًا أو شرابًا فأجيبه بالنفي. وبعد زهاء ساعتين اقتادوني إلى معسكر حوارة المجاور، وعلى باب المعسكر قطعوا قيد البلاستك عن يدي، ثم أُخذت إلى غرفة وأنا معصوب العينين، وقال لي شخص بالإنجليزية: نحن ننتظر التعليمات فإما أن تذهب إلى بيتك أو تبيت الليلة عندنا، وجرى بيننا حديث بالإنجليزية حول أمور متعددة، ثم بعد فترة قال: يوسف، ستذهب إلى بيتك. قلت: هذا جيد. قال: ما شعورك الآن؟ قلت: أنا مسرور. ثم قلت له: كيف سأعود إلى بيتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ قال: نحن سنطلق سراحك أمام نقطة التفتيش الثانية، أي: التي من جهة نابلس، وعندها تنتهي مسؤوليتي. قلت: إن نابلس تحت منع التجول، وينبغي أن تساعدني. قال: لا أستطيع. وبعد فترة طلبوا مني أن أتحرك وأنا معصوب العينين وكان جندي يمسك بيدي ويرشدني إلى مواقع خطاي، وهو أيضًا يتفاهم معي بالإنجليزية، وجندي آخر يحمل أو يجر حقيبتي الضخمة، إلى أن وصلنا منتصف الطريق بين المعسكر والطريق العامة المؤدية إلى نابلس، فرفعوا الغطاء عن عيني. وعرضت أن أحمل الحقيبة، فأبى الجندي إلا أن يحملها هو إلى آخر الطريق، وعندما وصلنا النقطة المحددة لهم قالوا لي: إلى هنا وبإمكانك الآن متابعة الطريق إلى نابلس، فقلت لأحدهما: أريد أن أتحدث مع ابني كي يرسل لي سيارة، فأعطاني جواله فاتصلت بالدار وكان على الخط الآخر علي، فأخبرته أنني تجاوزت الحواجز، وأنني أريد سيارة، فقال: سأحاول، فجلست على حافة العبارة التي تقع على مفترق الطرق في أول طريق كفر قليل من جهة حوارة، وطال انتظاري فقلت لنفسي: إلى متى سأنتظر؟ وربما لا تأتي السيارة. فحملت الحقيبة الثقيلة وسرت باتجاه نابلس، وظللت أسير وأسير في الطريق الطويل وقد خُيِّل إليّ أن الطريق تطول ولا تقصُر. مررت ببعض السمّار وألقيت عليهم السلام وعرفوا من هيئتي أنني أسيرٌ محرَّر ودعوني إلى أن أقضي الليل عندهم فاعتذرت وتابعت المسير وقد تضاءلت آمالي في أن تأتيني سيارة، وبعد وقت وعناء بدأت

أقترب من مفرق بلاطة، فارتفعت معنوياتي، وأخيرًا وصلت أول الشارع المؤدي إلى المنزل الذي كنا نسكنه في شارع صلاح الدين، وكم كان سرور الأهل بوصولي سالمًا بعد أن كنت من اعتقال إداري قاب قوسين أو أدنى.

كنت مشتاقًا إلى الجميع وخصصتُ كل واحد منهم بالتعبير عن شوقي إليه، ولكن زوجتي قالت لي في اليوم التالي: إنك لم تعدل في التعبير عن أشواقك ولقد خصصْتَ عاصمًا بالجانب الأعظم منها، قلت: لم أشعر بذلك. قالت: ولكن الآخرين لاحظوا ذلك. لم أستبعد الأمر طبعًا فإن عاصمًا _وعيي أو بغيره_ له منذ طفولته مكانة خاصة في قلبي وظل طول حياته رفيقي أينما ذهبت.

كانت اجتياحات جيش الاحتلال لنابلس شبه يومية ويرافقها العنف البالغ، فهم لا يبيتون في نابلس بل في مواقع عسكرية من حولها، ثم يجتاحونها في النهار. وكانت المدارس معطلة، فلم يبدأ العام الدراسي في أول أيلول كما هي العادة، فرأى رجالات من المدينة أن يبحثوا عن حل، خاصة لطلاب التوجيهي، وكان الحل فتح مراكز للتعليم الشعبي تكون الأولوية فيها لطلاب التوجيهي، ثم للصف الأدنى فالأدنى. وفتحت مراكز تعليم في أماكن عديدة من المدينة وسارعت إلى الانضمام إليها مدرسًا للغة العربية إلا أنه في أوائل شهر تشرين أول من تلك السنة (2002) سمحت قوات الاحتلال بفتح المدارس، فأغلقت مراكز التعليم الشعبي أبوابها، ودعاني صاحب كلية الروضة إلى العمل في الكلية فوافقت، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل مشوار العمر.

كانت الفترة بين تشرين أول 2002 وتشرين أول 2004، حافلة بالأحداث الخاصة بي فهي مرحلة حرية إلا أنها مرحلة مسؤولية عن أسرة كبيرة متعددة المطالب وشابين أصبح زواجهما لا بد منه، ودار مستأجرة قديمة وثمة خوف أن يقع زلزال فتسقط على رؤوسنا الغرفتان المسقوفتان بالحجارة والشيد. خاصة وأن إحداهما فيها شقوق، كما أنني واجهت تكتلًا تنظيميًا من لجنة التنظيم القائم في المدينة يتخذ موقع المناوئ اللدود على أرضية ما يعرف بالتدافع التنظيمي، فحدثت مرحلة اضطراب شديدة سببت لنا الإحراج أمام الأهالي وأمام وسائل الإعلام في مجالات عديدة وكانت

العلة الكبرى أن القيادة ليست على أرض الوطن بحيث تعرف حقيقة الأوضاع معرفة لا شك فيها. لقد واجهت حالة غير مريحة على مدى سنة كاملة من تاريخ خروجي من السجن. وعندما عرفت القيادة في الخارج حقيقة ما يجري غيرت موقفها فانتهت المشكلة ورجع التنظيم متماسكًا.

أما مشكلة الدار فقد حللناها باستئجار دار حديثة في ضاحية رفيديا إلا أننا أبقينا في أيدينا الدار التي خرجنا منها، من أجل مالك، الذي كان معتقلًا إداريًا في سجن النقب وفي عام 2003 خرج مالك من السجن، وبدأ إعداد الدار التي تركناها تمهيدًا لزواجه، وفي صيف 2004 تم زواجه وزواج محمد من الشقيقتين التوأمين: سلمى لمالك ومي لمحمد، وكان عملي في كلية الروضة أما بعد العمل فللهموم التنظيمية وكانت كبيرة ومتنوعة.

النشاط التنظيمي وبداية الحديث عن الانتخابات

كان النشاط التنظيمي على نوعين؛ خاص، وهو المتعلق بشؤون لجنة المنطقة وحاجاتها والمشاكل المحيطة بأدائها وتحديد نشاطاتها وما إلى ذلك.

والنشاط العام، وكان يتم من خلال لجنة التنسيق الفصائلي.

كانت لجنة التنسيق الفصائلي في نابلس تضم مندوبًا عن كل فصيل فلسطيني وتجتمع أسبوعيًا فتستعرض المستجدات على الساحة الفلسطينية وتقرر نشاطات الأسبوع التالي، وكانت مسيرة يوم الجمعة من النشاطات المقررة بشكل ثابت وتبدأ من مسجد النصر إلى الدوار وهناك تلقى خطبة تستعرض الأحداث التي تكون بارزة في ذلك الأسبوع، وعندما يكون ثمة شهيد من قادة أحد الفصائل، يكون هو الحدث الأبرز، كاستشهاد الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس وقائدها في آذار 2004 وبعد ذلك استشهاد خليفته الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في نيسان 2004، ثم استشهاد مجموعة من المجاهدين في نابلس منهم الشيخ فادي بهتي القائد في سرايا القدس والشيخ جعفر المصري القائد في كتائب عز الدين القسام والقائد نايف أبو

شرح قائد كتائب شهداء الأقصى في شهر حزيران 2004. فكانت تقام بيوت العزاء وتتردد عليها الجماهير، وتلقى الخطب الرنانة من قبل الفصائل، قد يلقي ممثل الفصيل خطبة كل يوم أو أكثر من مرة في اليوم.

أقيم في ساحة النصر بيت العزاء للشهداء الخمسة الذين سقطوا في نابلس في شهر حزيران 2004 وكان الحضور كثيفًا والخطب رنانة، وكنت بطبيعة الحال خطيب حركة الجهاد الإسلامي فيه، والشيخ ماهر الخراز خطيب حركة المقاومة الإسلامية حماس، وهو شيخ وسطي صديق للجميع وداعية إلى الوحدة خاصة مع الجهاد الإسلامي، واصطف ممثلو الفصائل على منصة الخطباء وألقى الشيخ ماهر كلمة حول الأخوة والوحدة ومجاهدة العدو، وجيء ببندقية فحملها على رأسه، ثم أعطيت لي فحملتها على رأسي للتدليل على أن نهج المقاومة المسلحة ضد العدو المحتل هو النهج الصحيح والذي هو باق ما بقي الاحتلال. وبعد ذلك بفترة كان لنا جار يكثر استعمال الكمبيوتر في نطاق من الانغلاق وبشكل يثير التساؤلات، قال لأحد أولادي: وجدت صورة لأبيكم في الكمبيوتر، وأخرجها فإذا هي صورتي وأنا أحمل البندقية على رأسي، وهي صورة في غاية الوضوح، ومصدرها معلوم، إنها الطائرة التي كانت تحلق فوق رؤوس المحتفلين على ارتفاع شاهق. كان معروفًا للجميع أن الإسرائيليين يراقبون الاحتفالات والمسيرات ويسجلون الخطب ولديهم وسائل تجسس حديثة وغاية في التعقيد، وكثير من ناشطي التنظيمات والذين تعتبر السرية روح عملهم وضمانة حياتهم يفتقرون إلى الحس الأمني أو إلى المعرفة بأساليب العدو في المراقبة وتتبع أدق الأسرار، وطالما صدرت تحذيرات من جهات عديدة خاصة من التنظيمات لأفرادها بأن يكونوا على حذر عندما يتحدثون في الأمور السرية، وأول ما عليهم أن يحذروه هو الهاتف المحمول؛ فالعدو قادر على رصد الكلام في المكان الذي يكون فيه المحمول قريبًا من المتكلمين على نطاق معين، ولو كان مغلقًا إلا أنني لم أتعلم إلا من حادثة وقعت معي:

كان ذلك في يوم ما، سنة 1998، وكان المطلوب الأول من الجهاد الإسلامي الشهيد إياد الحردان، ولم يكن قد دخل سجن السلطة بعد.

زارني ذات يوم، في تلك الفترة الشهيد القائد نعمان طحاينة، وأدرنا الحديث بيننا، بينما كان جهاز الهاتف المحمول في جيب قميصي، وكنت مطمئنًا إلى أنه مغلق، وظننت أن ذلك كاف، وتطرقنا في الحديث إلى إياد الحردان وإلى بعض حاجاته المادية البسيطة، فعرضت على نعمان أن أتصل بالمسؤول عن هذا الملف في دمشق، أبي جهاد، وأعرض عليه القضية، فلم ير نعمان حاجة إلى ذلك على اعتبار أن المسألة بسيطة ولا تستحق اتصالًا دوليًا، فقلبنا الحديث إلى شؤون أخرى، ولكن بعد قليل رن الهاتف في جيبي، وأدرت الجهاز فكان صوت أبي جهاد، وبعد التحية سألته عن الموضوع فقال: الموضوع عندك. قلت: كيف؟ قال: ألست أنت الذي اتصلت؟ قلت: كلا، قال: إذًا فالشياطين هم الذين اتصلوا، وسألني عن الموضوع فأخبرته أنه حاجة مادية بسيطة لإياد الحردان.

هذه الحادثة كانت درسًا كبيرًا، وقد قصصتها على الشباب في مجدو لكي تكون لهم عبرة.

بيان السبعين

بعد يومين من استشهاد الشيخ أحمد ياسين، اتصل بي الصديق الدكتور عبد الستار قاسم وأخبرني أن مجموعة من سبعين شخصًا من الضفة والقطاع (من الذين لهم مواقع قيادية) أصدروا بيانًا نشرته صحيفة الأيام يتضمن دعوة إلى وقف المقاومة بحجة أنها لا تؤدي إلى نتيجة، ويقترحون التوجه نحو حل سلمي للقضية. وأردف الدكتور عبد الستار: وقد صغنا بيانًا آخر معاكسًا أود أن أسمعك إياه، فأسمعني إياه فكانت ملاحظتي أن بعض عباراته عنيفة إلى درجة أن كثيرين سيحجمون عن التوقيع عليه، وقلت: أنا على كل حال موافق على البيان.

لم يقل لي الدكتور عبد الستار إن اسمي موجود ضمن بيان السبعين لأنه لم يكن دقق في الأسماء.

في اليوم التالي، وكان يوم الجمعة، أديت الصلاة في مسجد الحاج نمر وعند الخروج التقيت بالصديق الحاج حسام الحجاوي، فقال: قرأت اسمك في بيان السبعين.

قالها مستغربًا فهو يعلم أن من المستحيل أن أوقع على مثل ذلك البيان، فأصابتني الدهشة والصدمة، أيُعقَل ذلك؟ كيف؟ ومن أنزل اسمي؟ لا شك أنها مؤامرة ضدي، فنحن في وضع مضطرب ولي خصوم لا يتورعون عن اتباع أية وسيلة للإضرار بي، ولكن لا ينبغي التسرع في اتهام أحد. طلبت من أحد أبنائي أن يبحث عن العدد الذي احتوى على البيان من جريدة الأيام لأرى الموضوع، وتوجهت إلى الدوار حيث النشاط الأسبوعي للجنة التنسيق الفصائلي فإذا البيان موضع حديث المجتمعين من سياسيين وممثلي الفصائل وكان من جملتهم محافظ نابلس أبو جهاد، محمود العالول، وقد تناولوا باستغراب وجود اسمي من جملة الموقعين، وكان أبو جهاد ممن تساءل: هل يمكن أن يوقع يوسف عارف على مثل هذا البيان؟، ودار الحديث الآخر عن بيان جديد تمت صياغته بلهجة قوية يناقض البيان الأول ويؤكد أنه لا مشروعية إلا للمقاومة ولا جدوى إلا في استمرارها، وجيء إليَّ بالبيان، وعليه توقيع الشيخ حامد البيتاوي، فكان توقيعي الثاني، ثم أخذوا يمررونه فنال ثمانين توقيعًا فعرف ببيان الثمانين ونشرته جريدة الأيام في صفحاتها الداخلية كما فعلت بالبيان الأول.

أرسلت إلى الجريدة بيان توضيح نفيت فيه علمي ببيان السبعين وأنني لا أوافق على مضمونه وموقفي منه هو موقف حركة الجهاد الإسلامي التي التزم بخطها السياسي.

ونشرت الصحيفة التوضيح بحذافيره، وأعيد نُشر بيان السبعين في اليوم التالي وقد حذف اسمي منه فأصبح بيان ال69.

وطار إلى القيادة في الشام أنني وقعت على بيان السبعين، فأرسلوا رسالة استغراب واستيضاح، فوضحت لهم الأمر، ولكنني سألتهم من الذي أطلعهم على البيان الذي نُشر في الصفحات الداخلية لصحيفة مغمورة، فإن الشكوك تتجه إلى افتراض مؤامرة وأن الذي أخبرهم لا بد أن يكون مدبر المؤامرة، فلم يجيبوا ولم أتابع الموضوع.

وفي فترة اعتقالي الرابعة (04/ 10/ 2010-04/ 04/ 2012) التقيت ذات

مـرة أثنـاء رحلتـي مـن مجـدو إلى محكمـة عوفـر، بشـباب مـن بيـت لحـم مـن أبنـاء الجهـاد الإسـلامي، منهـم الشـاب خالـد صـلاح، فحدثنـي عـن إشـكالية بيـان السـبعين، وأن الناشـط السـياسي في حركـة فتـح، يوسـف عـارف صـلاح، كان مـن الموقعـين عـلى البيـان بالمقطعـين الأولـين مـن اسـمه، فأوقـع حركـة الجهـاد الإسـلامي في بلبلـة ظنًـا منهـا إنني أنـا الموقـع عـلى ذلـك البيـان. قـال لي خالـد صـلاح: لقـد راجعنـا يوسـف عـارف وجادلنـاه وأبدينـا لـه احتجاجنـا واسـتياءنا، وقلنـا لـه: كان عليـك أن تضيـف اسـم العائلـة (صـلاح) إلى اسـمك عنـد التوقيـع. وبذلـك اتضـح الإشـكال.

بداية الطريق إلى الانتخابات الثانية

منـذ أن فرضـت السـلطة الفلسـطينية نفسـها على الضفـة الغربيـة وقطاع غـزة، اتبعت سياسـة تجعلها مصـدر السـلطات كلها.

نصـت اتفاقيـات أوسـلو عـلى إقامـة سـلطة حكـم ذاتي في الضفـة الغربيـة وقطـاع غزة وانتخـاب مجلـس تشريعـي مهمتـه ضبـط أداء السـلطة العتيـدة، وقـد تـم انتخـاب المجلـس التشريعـي سـنة 1996، وقاطعـت الانتخابـات الحركتـان الإسـلاميتان؛ حمـاس والجهـاد الإسـلامي، كـما قاطعتـه تنظيـمات منضويـة تحـت لـواء منظمـة التحريـر الفلسـطينية، ولقـد تبـين مـن أول يـوم أن المجلـس التشريعـي لم تُجـر السـلطة انتخابـه إلا تنفيـذًا لبنـد مـن بنـود اتفاقيـات أوسـلو، وليعطـي السـلطة صـورة زائفـة عـن شرعيـة وديمقراطيـة لا وجـود لهـما بتاتًـا، وبـذا عمـدت السـلطة إلى تهميشـه؛ لأنـه لم ينشـأ بهـدف أن يكـون فعـالًا.

وكانـت البلديـات بحاجـة إلى انتخابـات وبـدلًا مـن إجرائهـا عينـت السـلطة مجالـس بلديـة ورؤسـاء لهـذه المجالـس؛ تجنبًـا لانتخابـات قـد يفوز فيهـا المعارضـون. بدأت بتشـكيل مجلـس بلديـة لـكل مدينـة وللقـرى الكبـيرة، وانتخـب مجلـس البلديـة رئيسًـا سـمي رئيـس مجلـس البلديـة، وكانـت المهـمات المعلنـة لهـذه المجالـس ورؤسـائها إعـداد الترتيبـات اللازمة لإجـراء انتخابـات بلديـة خـلال سـنة، ولكـن الانتخابـات لم تجـرِ وجـرى تمديـد عمـل المجالـس مـرة بعـد مـرة، ثـم أصبـح رئيـس المجلـس رئيسًـا للبلديـة.

وألغت السلطة حتى المختار في القرى وأقامت مجالس قروية معيّنة وكل مجلس منها يظل قائمًا ما دام مقبولًا من الأجهزة الأمنية. وتوفي عرفات في 04/ 11/ 2004، دون أن يجري حديث عن انتخابات.

استجدت أمور كثيرة بعد عشر سنوات من احتلال المواقع الثابتة، وشغرت مواقع في المجالس البلدية وفي المجالس القروية إما بالموت أو الاستقالة أو الإقالة، ولم يعد التعيين لأناس جدد ممكنًا في بعض المواقع لعدم وجود متقدمين مناسبين، فبدأ عرفات عام 2004 قبيل رحيله بالتفكير في إجراء انتخابات قروية وبلدية تجريبية في بعض القرى والمدن التي تضمن فيها فتح أغلبية لا شك فيها، ولكن لم تكن هنالك أية وعود لا بالتصريح ولا بالتلميح لإجراء انتخابات نيابية أو بلدية عامة وحرة، ومع ذلك بدأت على المستوى غير الرسمي وخاصة في لجنة التنسيق الفصائلي مناقشة أمور الانتخابات والترشيح للمجالس البلدية وتجاوزوها إلى الحديث عن انتخابات تشريعية، مع أن موضوع الانتخابات التشريعية لم يكن واردًا عند السلطة ولا انتخابات الرئاسة بطبيعة الحال، فإن عرفات جرى انتخابه لمدة أربع سنوات تنتهي وتنتهي معها ولاية التشريعي في الخامس من أيار 1999 وكان المفروض ـ وفق اتفاقيات أوسلو ـ أن يكون الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي قد توصلا حتى ذلك التاريخ إلى اتفاق شامل حول جميع القضايا المؤجلة، وأن يكونا اتفقا على شكل السلطة التي ستكون سلطة الحل الدائم، ولكن لم يجر الاتفاق على شيء ومدد عرفات لنفسه وللمجلس التشريعي أربع سنوات أخرى مخالفًا للقانون الذي يعتبر الانتخاب عقدًا بين جمهور المقترعين وبين المنتخَبين مربوطًا بأجل محدد باليوم ولا يملك الرئيس ولا المجلس التشريعي التمديد ولا ليوم واحد، وجميع الدول التي تتخذ من الانتخابات ستارًا ما عدا سلطة عرفات تلجأ إلى إجراء انتخابات صورية أما السلطة الفلسطينية فلم تر لزومًا لذلك. وانتهت المدة الجديدة البالغة أربع سنوات بتاريخ الخامس من أيار 2003، فمدد عرفات لنفسه وللتشريعي دون أية عقبات ودون أن يحتاج إلى نصوص دستورية يتكئ عليها، ولو امتد به العمر لظل يجدد لنفسه وللتشريعي ما عاش.

لم تكن المناقشات حول الانتخابات مستندة إلى غير الافتراضات والأمنيات بتحريك الوضع القائم الذي أصبح راكدًا وآسنًا.

في غمـرة الحديـث عـن الانتخابـات حـضر اجتـماع لجنـة التنسـيق الفصائـلي ذات مـرة أبـو مـراد، تيسـير خالـد، عضـو اللجنـة التنفيذيـة لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية والرجـل الثـاني في الجبهـة الديمقراطيـة، وهـو لا يحضر اجتماعـات لجنـة التنسـيق الفصائـلي عـادة، بـل تحضرهـا السـيدة ماجـدة المـصري، مديـرة مكتـب الجبهـة الديمقراطيـة في نابلـس ـ التـي صـارت وزيـرة في حكومـة فيـاض ـ فكان حضـور تيسـير خالـد هـذه المـرة ربـما مـن أجـل أن يوضـح لنـا الصـورة الحقيقيـة التـي لا تعطـي مـبررًا للحديـث عـن الانتخابـات، إذ قـال: لقـد كنـت يـوم أمـس مـع عرفـات والتقينـا في غرفـة ليـس معنـا ثالـث وتحدثنـا حـول مجمـل الأمـور. إن الانتخابـات غـير واردة عنـده إطلاقـًا.

لم يكـن قـول أبي مـراد، تيسـير خالـد، مسـتغربًا ولا مفاجئـًا فإنـه لم يرشـح عـن عرفـات مـا يوحـي بأنـه ينـوي إجـراء أيـة انتخابـات إلا تلـك الانتخابـات المحليـة التجريبيـة في بعـض القـرى والمـدن الصغـيرة والتـي ترجـح فيهـا كفـة فتـح وكان معلومـًا أنـه إذا لم تفـز فيهـا فتـح فلـن تتكـرر الانتخابـات في أماكـن أخـرى. إلا أن الحديـث عـن الانتخابـات البلديـة بالرغـم مـن ذلـك تصاعـدت وتيرتـه بعـد اسـتقالة مفاجئـة لرئيـس بلديـة نابلـس المعـيَّن غسـان الشـكعة، وأجـرت هيئـة محسـوبة عـلى حمـاس اسـتطلاعًا للـرأي يـدور حـول سـؤال واحـد: مـن تنتخـب لمجلـس بلديـة نابلـس إذا جـرت الانتخابـات؟ وتـم ترتيـب العـشرة الأوائـل في الاسـتطلاع فـكان أعـلى الأصـوات مـن نصيـب الشـيخ فيـاض الأغـبر، وأذكـر مـن الفائزيـن في مرتبـة متقدمـة المرحومـة هـدى عبـد الهـادي أرملـة المرحـوم الأسـتاذ مـروان عبـد الهـادي مديـر كليـة الروضـة سـابقًا.

إلا أن الانتخابات البلدية لم تكن الهم الأول عند الفصائل الفلسـطينية، والانتخابات الرئاسـية لم تكـن ذات بـال؛ لأنهـا لـن تجـري وإذا جـرت ففـوز عرفـات مضمـون فيهـا ومـن السـهل عـلى أعوانـه ترتيـب الأمـور لضـمان فوزه.

إن الجـدل احتـدم حـول الانتخابـات التشريعيـة منـذ منتصـف سـنة 2004. كان الجـدل الأشـد بـين حمـاس والجهـاد الإسـلامي حـول مبـدأ ونيـة الاشـتراك في أيـة انتخابـات تشريعيـة قادمـة.

الجهـاد الإسـلامي اعتـبر مقاطعتـه للسـلطة الفلسـطينية وللمجلـس التشريعـي

أحد ثوابته الإستراتيجية التي لا مجال لمراجعتها، وكان ـ ولا يزال ـ المنطلق الذي يتداوله أعضاء الحركة فيما بينهم منطلقًا شرعيًا فهنالك قناعة راسخة عند الغالبية العظمى من كوادر الجهاد الإسلامي ومعظم قياداته الميدانية أن المشاركة في التشريعي تعني الاعتراف بالاتفاقيات التي جاءت بهذا المجلس وهي اتفاقيات غير شرعية، والمشاركة في التشريعي بالتالي غير شرعية، ثم إن المجلس التشريعي في العالم الثالث المتخلف سياسيًا، مثلما هو متخلف في كل المجالات، لا تهدف الدولة من وراء انتخاب مجلس تشريعي، إشراك الشعب في الحكم، ولا أن تجعله رقيبًا وحسيبًا ليفضح الفساد الذي تغرق فيه الدولة ويستأثر رأسها بنصيب الأسد منه، بل لتكون شاهد زور على ديمقراطية وشفافية وشرعية ومشاركة شعبية لا وجود لأي منها بتاتًا، وهذا إثم على إثم وظلمات بعضها فوق بعض.

كنت المنظِّر الأول لموقف الجهاد الإسلامي على مستوى منطقة نابلس على الأقل، ولم أتردد في بسط حجة الحركة بحذافيرها في ندوة تلفزيونية برام الله بحضور وزير من السلطة الفلسطينية في شهر آب سنة 2000 وفي ندوة تلفزيونية بنابلس في أواخر صيف 2003 بحضور نائب من المجلس التشريعي.

منذ بدأ الحديث عن الانتخابات التشريعية المفترضة بدأ توجه متحدثي حماس نحو تهيئة الأذهان إلى أن المشاركة في الانتخابات التشريعية ليست حرامًا كما أنها لا تعني اعترافًا باتفاقيات أوسلو التي تعارضها الحركة. وأغرب من ذلك كله أنهم صاروا يرددون بلسان واحد وبعبارات متطابقة أن الإسلام مع المصلحة أينما كانت.

بدأ التناقض بين الحركتين حماس والجهاد الإسلامي حول مشروعية المشاركة في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، الجهاد تقول: إن دخول التشريعي أمر غير شرعي ويعتبر اعترافًا عمليًا وواقعيًا وقانونيًا باتفاقيات أوسلو.

وعلى الساحة السياسية الفلسطينية: وقف حزب التحرير الإسلامي مع الجهاد الإسلامي في القول بعدم شرعية دخول التشريعي الفلسطيني، ولكن الجهاد الإسلامي لم ير بأسًا في المشاركة في الانتخابات البلدية ترشُّحًا وانتخابًا، ولكن الحركة أحجمت

عن دخولها حتى لا يستغل خصومها هذا الدخول للتدليس والإرباك، فإن الخصوم سيقولون: إن الجهاد الإسلامي شارك في الانتخابات دون أن يحددوا مجال المشاركة ذلك، وسوف يصدِّق ذلك كثيرون، فحفاظًا على وضوح الموقف السياسي للحركة وتجنبًا لأي التباس قرر الجهاد الإسلامي ألا يشارك بشكل رسمي في انتخابات المجالس البلدية والقروية أيضًا، ولم يمنع أحدًا من أعضائه أن يشارك في الانتخابات باسمه الشخصي وبشرط ألا يستخدم اسم الجهاد الإسلامي في دعايته.

وفي الندوة التلفزيونية برام الله سألني مقدِّم البرنامج عن موقف الجهاد الإسلامي من الانتخابات البلدية، فقلت: الجهاد لا يرى فيها بأسًا، ولا يمنع عناصره من المشاركة فيها ترشُّحًا وانتخابًا.

فقال: أليس الجهة المشرفة على البلديات وزارة الحكم المحلي؟ ألستم تقاطعون وزارات السلطة الفلسطينية؟ فكيف توافقون على الاشتراك في هيئات تشرف عليها إحدى وزارات السلطة؟

قلت له: لا تجادلونا في المحال، فنحن ننظر إلى العمل المباشر للجهة التي يتوجب علينا أن نتخذ موقفًا منها. فلم يقل أحد بحرمة الاشتغال في التعليم والصحة وغيرهما في عهد الاحتلال العسكري المباشر مع أن الجهة المشرفة على الإدارات المحلية للتعليم والصحة ضباط عسكريون إسرائيليون؛ إذ لا بد من معلمين وأطباء وممرضين وأمثالهم لخدمة الشعب، وتحقيق مصالحه أيًا كان الحاكم المسيطر، فتشكيل مجالس بلدية منتخبة من الناس فيه مصلحة واضحة وكبيرة وضرورية للمواطنين فلا باس به، في حين أن المجلس التشريعي لن يخدم المواطنين؛ لأنه لن يمكَّن من ذلك، بل يخدم السلطة التي نعارضها إذ إنه يعطيها شهادة زور حول شرعية وديمقراطية لا وجود لها.

عندما تجدد الجدل حول مشروعية الانتخابات نشط حزب التحرير في توضيح موقفه، وهو أن أي اشتراك في الانتخابات حرام سواء أكانت انتخابات للمجلس التشريعي أو للمجالس البلدية والقروية؛ لأنها جميعًا تتبع سلطة لا تحكم بالإسلام وبالتالي هي غير شرعية وكل ما يصدر عن غير الشرعي لا يمكن أن يكون شرعيًا.

حاولوا إقناع الجهاد الإسلامي بتبني موقفهم من انتخابات المجالس البلدية والقروية، وقد زارني وفد منهم محاولًا إقناعي بتبني موقفهم، لكنني شرحت لهم موقفنا وظل الخلاف بيننا حول هذه المسالة قائمًا.

كان الجدل حول هذه المسالة يشتد يومًا بعد يوم، ونشط قادة من حماس في تهيئة أذهان الجماهير لمشاركة الحركة في الانتخابات إذا أُجريت، وفي هذا المجال وجهت حماس دعوة عامة لحضور ندوة عن الانتخابات تعقد في مسجد الحاج نمر النابلسي بعد صلاة مغرب أحد الأيام، وكنت ممن لبى الدعوة. وكان المتحدث عن حماس الدكتور محمد غزال، الأستاذ في كلية الهندسة في جامعة النجاح، فساق ثلاث حجج للتدليل على شرعية المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي:

الأولى: إن الإسلام مع المصلحة أينما وجدت، فحيثما تكن المصلحة يكن الإسلام، وفي دخول التشريعي مصلحة للحركة الإسلامية ولجمهور الشعب، فلا بد من كتلة إسلامية في التشريعي تمنع من سن قوانين غير شرعية وتعمل على محاربة الفساد داخل السلطة، ثم إنه لا يجوز أن يغيب الإسلاميون عن هذا المشهد ويتركوه للآخرين.

الثاني: أن أوسلو انتهت، فهل أحد يسمع الآن باتفاقيات أوسلو؟ إن دخول التشريعي لا يعتبر اعترافًا بتلك الاتفاقيات المرفوضة من حماس والتي لم تعد موجودة.

الثالث: إن غياب الإسلاميين عن التشريعي سيسهل على دعاة الحل السلمي أن يوقعوا على اتفاقيات فيها وأد للقضية الفلسطينية، ووجود الاتجاه الإسلامي فيه سيعزز صمود الشعب الفلسطيني.

وبعد أن أنهى كلامه طلبت مكبر الصوت فرددت على الدكتور بأن اتفاقيات أوسلو لم تمت، ولكنها رُحَلت إلى خطة خريطة الطريق، فاتفاقيات أوسلو تنص على اعتراف الفلسطينيين بإسرائيل إلا أن خطة خريطة الطريق تتجاوزها إلى اعتراف الدول الإسلامية كلها بإسرائيل وإقامة علاقات طبيعية معها. واتفاقيات أوسلو تنص على أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى اتفاق سلام بالمفاوضات الثنائية المباشرة

بين الطرفين دون تدخل خارجي وهذا ما تنص عليه خطة خريطة الطريق. واتفاقيات أوسلو تعتبر المقاومة الفلسطينية ضد المحتل الإسرائيلي إرهابًا وعنفًا وتتعهد السلطة الفلسطينية بمحاربته واستئصاله. وهذا ما تنص عليه خطة خريطة الطريق. وخطة الطريق تنص على أنها قائمة على أساس اتفاقيات أوسلو. وكل من اتفاقيات أوسلو وخطة خريطة الطريق ينص على إقامة سلطة فلسطينية وانتخاب مجلس تشريعي يشرف على أدائها. فوظيفة المجلس التشريعي في كلا الخطتين إنما هي ضبط أداء السلطة التي لا نعترف بها.

خطة خريطة الطريق مؤامرة دولية ليس على فلسطين وحدها، ولكن على الأمة الإسلامية كلها فكيف لا يعتبر الضلوع في جانب من خطة الطريق اعترافًا عمليًا وواقعيًا وقانونيًا بالخطة كلها؟

ثم إن القول بأن الإسلام مع المصلحة، وإنه أينما وجدت المصلحة وجد الإسلام فهو قول غريب؛ لأن المصلحة منفعة دنيوية عاجلة كثيرًا ما تتضارب مع مبادئ الإسلام، فالربا مثلًا فيه مصلحة للمرابي الفرد وللبنوك ويعود بالفائدة على الدولة فهل هو حلال؟ ومصانعة العدو الذي يحتل أرض المسلمين فيها مصلحة حفظ الدماء وربما نيل الثناء من العدو فهل يرضى بها الإسلام؟ إن للإسلام مبادئ فإن اتفقت مصلحة ما مع مبادئ الإسلام أمكن الأخذ بها، وإن اختلفت معها وجب التزام مبادئ الإسلام؛ لأن فيها المصلحة الكبرى للمسلمين في دنياهم وآخرتهم. وأود أن أسأل: أي مصلحة للأمة في دخول مجلس تشريعي يعطي شهادة زور لسلطة أقامها العدو للدفاع عن أمنه؟ وهل استطاع المجلس التشريعي القائم منذ تسع سنوات أن يحقق أية مصلحة للأمة أو أن يمنع أية مفسدة يرتكبها هؤلاء الفاسدون الذين يتربعون على عرش السلطة؟ هل استطاع أن يدين الفاسدين في فضيحة صفقة الطحين الفاسد، وهي أولى فضائح السلطة وأصغرها؟ ماذا يتوقع من مجلس تشريعي جديد أن يفعل أفضل مما فعل أسلافه؟

كان هذا مجمل ردي على كلمة الدكتور غزال، ولاحظت أن المستمعين تجاوبوا معي بدليل التصفيق الحاد.

كانت كلمة الدكتور غزال نموذجًا لدعاية إعلامية نشطة بدأت حماس تطلقها لتثبت أنها مقدمة على خطوة هي شرعية وفيها تحقيق لمصلحة الأمة. وكانت كلمتي نموذجًا نمطيًا لدعاية إعلامية أطلقها الجهاد الإسلامي.

في تلك الفترة فاجأت حماس الكثيرين بتوزيع فتوى لشيخين سعوديين تقليديين هما ابن باز وابن عثيمين يجيزان الانتخابات.

والفتوى غريبة من عدة أوجه؛ فالمرحومان ابن باز وابن عثيمين في خدمة حكومة لا تؤمن بالانتخابات وليس للشعب فيها أية مشاركة في أي شيء من شؤون الحكم، فكيف أجازا انتخابات لا تجيزها الحكومة السعودية؟ ربما يكون كل منهما قد أجاب عن سؤال نصه: ما موقف الشرع من الانتخابات؟

ثم إن الفتوى تدور حول الانتخابات بشكل عام مع أن الجدل عندنا يدور حول انتخابات مخصوصة والحكم الشرعي الذي اختلفت فيه حماس وكل من الجهاد الإسلامي وحزب التحرير لا يتعلق بجواز الانتخابات من حيث المبدأ وعلى عموميتها، ولكنه يتعلق بالتحديد بانتخابات المجلس التشريعي الخاص بسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية والتي تسمي نفسها _تجاوزًا لنص الاتفاق مع الإسرائيليين_ السلطة الوطنية الفلسطينية، فالتحريم الذي يؤمن به كثيرون في الاتجاه الإسلامي إنما يتعلق بهذا المجلس التشريعي الخاص بهذه السلطة.

وكرد على هذه الفتوى وبطلب من أعضاء لجنة منطقة نابلس بأن أصوغ بيانًا حول هذه الأمور، استجبت لهم فصغت البيان باسم الجهاد الإسلامي، وذلك في مطلع شهر تشرين أول 2004 وكان بيانًا مفصلًا حول موقف الحركة من الانتخابات. أكد أن الانتخابات للمجلس التشريعي إنما هي تنفيذ لمطلب من مطالب اتفاقيات أوسلو وإملاءات خطة خريطة الطريق، وأن المشاركة في الانتخابات تعتبر اعترافًا قانونيًا وعمليًا وواقعيًا باتفاقيات أوسلو وبخطة خريطة الطريق اللتين تنتقصان من حق الأمة الإسلامية في فلسطين وتمنعان الجهاد في سبيل الله، فهما حرام شرعًا، وأية مشاركة في أي جانب من جوانبهما ينطبق عليها حكم التحريم كذلك. وأعرب

البيان عن استغرابه لهذه الحملة؛ لأنه ليس لدى السلطة الفلسطينية أية نية لإجراء الانتخابات التشريعية، ولن تجري هذه الانتخابات إلا إذا حصل تطور دراماتيكي غير متوقع (المقصود احتمال وفاة عرفات أو اغتياله أو استقالته وكان وقتها يخضع لحصار في المقاطعة)، وتساءل البيان عما يمكن أن يحقق مثل هذا المجلس أكثر مما حقق المجلس القائم منذ عشر سنوات، والذي لم ينكر منكرًا ولم يعدل مائلًا ولم يحقق إلا الراتب والسيارة وهذا الاسم اللماع الخداع لأعضائه كثمن لشهادة الزور التي يهبها المجلس للسلطة.

الاعتقال مجددًا

مساء الثاني عشر من تشرين أول، في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمعنا طرقًا عنيفًا على الباب، فعرفنا أنه طرق قوات الاحتلال وفتحنا الباب فسألوا عني فقلت لهم: أنا ذا. فطلبوا مني أن ألبس ملابسي وأحضر هويتي وأدويتي وهاتفي النقال، كان جميع أهل الدار مستيقظين وظل جنود الاحتلال خارج البيت وعندما جهزت نفسي وذهبت إليهم لحقني عاصم بالهاتف النقال فكان آخر شخص تكحلت عيني برؤيته قبل أن أغادر باب العمارة وكانت تلك النظرة هي آخر عهدي به.

عندما ابتعدنا عن الأعين ووقفنا قرب سيارات الدورية تم تعصيب عيني ووضعت القيود في يديّ وصعدت إلى السيارة فأُجلست على الأرضية، وكل هذا لم يحدث في الاعتقال السابق. وانطلقت السيارات وانطلق الجنود ينشدون نشيدًا لإسرائيل، ثم سارت بنا السيارات وسارت وسارت، ثم أنزلتنا أمام عيادة طبية يبدو أنها في مستوطنة قدوميم، فأجريت لنا فحوص طبية وكان في الدورية عدد من المعتقلين غيري، ثم أُركبنا السيارات وانطلقت بنا وما زالت تسير بقية الليل، وعندما تبلج النهار وجدنا أنفسنا أمام مركز توقيف حوارة. انتظرنا في الخارج قليلًا ثم أدخلونا فناء المركز، فوجدنا أن الغرف لا تزال مغلقة إلا غرفة الشاويش ومن معه، وكان شابًا نشيطًا حسن المنظر وعذب اللسان، وعرفني على نفسه؛ إنه من كفر قدوم وإنه كان من المتواجدين في المقاطعة في رام الله مع أبي عمار إلى أن أقدم الجيش الإسرائيلي على هدم

جزء من المقاطعة فأخلت القوات المحتلة من كان في ذلك المكان واعتقلتهم قدم لي ذلك الشاب كوبًا من الشاي الدافئ، فسألته باستغراب: من أين الشاي؟ فقد قضيتُ في مركز توقيف حوارة شهرًا كاملًا قبل أربع سنوات لم يكن فيه للشاي ولا للسكر وجود ولا لأي صنف من أصناف الحلوى، إلا يوم السبت فإنهم يعطون كل موقوف كأسين بلاستكيين صغيرين من معجون الموز المحلى فيلتهم الكأسين بشهية.

وجدت أن الأمور تطورت هذه المرة فصارت إدارة المركز تزود الموقوفين بالسكر، فتضع كيسًا من عشرين كيلوغرامًا في الممر لتكون في متناول الجميع. وأما كيف يصنع الموقوفون الشاي فإنهم يضعون الماء في قنينة بلاستيكية من قناني المشروبات الغازية ويجمعون ما يجدون من أكياس النايلون لتكون مادة الوقود اللازم. وبما أن إشعال النار في مركز التوقيف ممنوع منعًا باتًا، فهم يفعلون ذلك في زاوية من الحمام لا يراها الجنود، وعندما تفنى الأكياس يكون الماء المخلوط بالشاي والسكر فد وصل إلى درجة من السخونة كافية لأن يشعر المعتقل أنه يشرب شايًا.

وجدت في مركز التوقيف مجموعة من شباب الخليل الذين ينتمون إلى حماس ومنهم الأستاذ تحسين شاور، كما كان المعتقل مليئًا بشباب من الفصائل المختلفة.

في الاعتقال السابق كانت الإدارة في مركز توقيف حوارة تحضر الكتب للموقوفين، فقرأت هناك بعض مسرحيات شكسبير مثل روميو وجولييت وبعض روايات حنا مينا وجزأين من رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف والجزء الأول من عودة الروح لتوفيق الحكيم، وقرأت الكثير من روايات ألف ليلة وليلة، ورسائل جبران خليل جبران، وكتبًا أخرى إلا المصحف الشريف فإنهم لا يقتنونه في مركز التوقيف وظللت وقتها من غير مصحف حتى جاءني المحامي وجلب لي نسخة منه.

في الاعتقال الثاني وجدت أن الأمور في هذا المركز قد تغيرت إلى الأسوأ. بسبب استمرار الانتفاضة وما وقع فيها من عمليات استشهادية. وما أسفرت عنه من اجتياح إسرائيلي لمدن الضفة التي كانت منذ اتفاقيات أوسلو مصنفة كمناطق لا يحق للجيش الإسرائيلي دخولها. فمعاملة جيش الاحتلال للمعتقلين ازدادت سوءًا. وأصبحوا لا يراعون شيخًا ولا مريضًا.

في مكوثي السابق في هذا المركز في آب 2000 كانوا يحضرون لي الكتب بمجموعات وكلما أنهيت قراءة مجموعة ناديت الضابط فيأخذها ويحضر لي مجموعة غيرها، وكان بعض الجنود، وكذلك الضابط، يحبون أن يقفوا خلف الباب المغلق وينظروا إليَّ من الكوة (وكنت إما وحدي أو مع واحد أو اثنين من الموقوفين) ويتحدثون معي بالإنجليزية، فيسألني أحدهم: لماذا تغطي أنفك؟

- إنه يضطرب من البرد والرطوبة، فإنني أعاني من حساسية في الأنف.

- ما هذا الكتاب الذي تقرأه؟

- هو قصة عنوانها: الرجل الذي يكره نفسه.

- لماذا يكره نفسه؟

- لأنه يواجه صعوبات في حياته.

- من كاتبها، هل هو شكسبير؟

- إنه حنا مينا، كاتب سوري شهير.

وهكذا يجري حديث في ظروف نفسية لم تكن في ذلك الوقت هائجة. ثم في النهاية يكون الوداع من الجندي: ليلة طووف، أي؛ ليلة سعيدة. فأردها عليه بنصِّها.

أما في عام 2004، فكانت العواطف من كلا الطرفين هائجة، وكان مركز التوقيف مليئًا تمامًا، والجنود لا يتساهلون في معاملة الموقوفين، ممنوعًا منعًا باتًّا اقتناء أية آلة حادة، وكنا في رمضان وعند الإفطار الذي يكون من البيض المسلوق والمرتديلا وحبات من البندورة، نحتاج إلى أية أداة نقطع بها المرتديلا ونجهز السَّلَطة من البندورة، فيكسر الشباب صحنًا من الصحون البلاستيكية التي يأتي فيها الطعام ويحتفظون بقطعة منه تقوم مقام السكين ويعيدون بقية الصحن، ويكتشف الجنود أن الصحن غير كامل، فيجن جنونهم، ويقرروا القيام باقتحام فوري للزنزانة وتفتيشها بدقة. إلا أنه بطريقة ما، تم تهريب القطعة إلى خارج الزنزانة ودفنها في كومة من الأعشاب، لقد

أجرى الجنود لنا تفتيشًا جسديًا دقيقًا خارج الزنزانة، وفتش الزنزانة بمنتهى الدقة، فلم يعثر على القطعة، ثم أعادونا إلى الزنزانة وأغلقوها وانصرفوا، وعندما غفلوا عن الموضوع وتأكدنا أن عيونهم لا ترقبنا نادينا الشاويش، وهو مسموح له أن يبقى في الخارج، ودللناه على قطعة البلاستك بين الأعشاب فناولنا إياها، فقطعنا المرتديلا والبيض المسلوق وجهزنا السَّلَطة وأفطرنا على بركة الله.

ولكن كبادرة حسن نية، بسبب رمضان، أعادوا لي ساعة اليد، وكانت في الأمانات، مع أنه المحظور على الموقوف أن يقتني ساعة. وكنت إذا ذهبت إلى المحكمة يقولون لي. لا تجعل أحدًا يراها.

في رحلة الاعتقال، وخصوصًا في مركز التوقيف يزداد المؤمن إيمانًا وتعمر قلبه مشاعر صوفية دافئة وعميقة، فهو يواجه هذا التغير السلبي المفاجئ في حياته بقضاء معظم الوقت في ذكر الله تعالى وتسبيحه وتكبيره بمشاعر عميقة وصادقة يتعذر عليه أن يتمتع بمثلها وهو خارج المعتقل، ويغمره شعور بالراحة ويتعجب ممن يشعر بالسأم والملل أو باليأس، ما دام يستطيع أن يطرد ذلك طردًا بذكر الله، ويصمم على أنه عندما يخرج من السجن ويعود إلى حياته الطبيعية فلن يسمح لأية مشاعر سلبية أن تتسرب إلى قلبه؛ لأنه عرف البلسم الشافي.

كان الموقوفون في مركز توقيف حوارة _كما ذكرت_ منوعين في انتماءاتهم الفكرية ومستوياتهم الثقافية، فتجد منهم المستغرق بذكر الله أو تجد مجموعة يسيرون في الفورة وهم يتلون بصوت واحد سورة ياسين، وتجد آخرين يقضون أوقاتهم بالنكات البذيئة والمزاح الرخيص، وآخرين لا يطيب لهم إلا الحديث في موضوع السياسة أو عن أمورهم الخاصة وهكذا.

وبعد وصولي مركز التوقيف بثلاثة أيام دخل شهر رمضان المبارك وكان في تلك السنة رمضان لا يشبهه رمضان آخر، إنه رمضان مركز التوقيف حيث الإفطار والسحور إما على البيض المسلوق والمرتديلا أو على البرغل المطبوخ بطريقة رديئة، وفي أحيان قليلة يأتوننا بالأرز من غير لحم، إلا أن وجبة الأرز كانت شهية، خاصة أنها

تـأتي في مـرات قليلـة والإيجـابي الـواضـح في فـترة الاعتقـال الثانيـة كان توفـر السـكر بكميات كافيـة وفي متنـاول جميـع الأيـدي كـما ذكـرت.

كان غيـاب الإنسـانية يتجلى بأبشـع صـوره في أسـلوب نقـل الموقوفـين إلى المحاكـم، وكان الموقـوف ربـما تـردد عـلى المحكمـة عـدة مـرات قبـل أن يتـم نقلـه إلى أحـد المعتقـلات، وبمجـرد أن يخـرج مـن بـاب المعتقـل تعصـب عينـاه وتقيَّـد يـداه ورجـلاه وعليـه أن يصعـد إلى السـيارة معصـوب العينـين، مقيَّـد اليديـن والرجلـين وإذا كانـت السـيارة من النـوع الصغير فقـد يصطـدم رأسـه بسـقفها فيصيبـه جـرح أو ألم شـديد، أمـا إذا كانـت مـن النـوع العـالي فإنـه يواجـه مشـقة كبـيرة في الصعـود ومشـقة أكبر منها وأخطـر في النـزول. وإذا كان جنـود الحراسـة في مـزاج سـيئ فإنهـم يسـيئون معاملـة الموقوفـين في الذهـاب إلى المحكمـة والإيـاب منهـا.

في مركـز التوقيـف ممنـوع أن يكـون لـدى الموقوفـين أيـة وسـيلة مـن وسـائل الإعـلام، فـما يجـري في الخـارج محجـوب عنهـم تمامًـا إلا مـا ينقلـه المحامـون في زياراتهـم القصـيرة، ولكـن بعـض الموقوفـين العائديـن مـن المحاكـم كانـوا يدخلـون صحفًـا عبريـة ينسـاها الجنـود عـلى كـراسي خـارج بوابـة القسـم، وصـدف أن أحـضروا صحيفـة عبريـة قبـل عيـد الفطـر بأيـام وكان فيهـا صـورة لعرفـات مأخـوذة بشـكل فنـي بحيـث أظهـرت دلائـل مرض شـديد ظاهـر عـلى وجهـه وظاهـر أكثـر في عينيـه المحمرتـين المنهكتـين وقـد كتـب فوقهـا بالعبريـة وبخـط عريـض: النهايـة قريبـة، وفي التفصيـل المرافـق للصـورة تأكيـد أن عرفـات مصـاب بنـوع مـن سرطـان الأمعـاء لا يُمهـل المصـاب بـه إلا أيامًـا قليلـة أو أسـابيع قليلـة في أحسـن الأحـوال.

ثـم تواتـرت الأخبـار بعـد ذلـك عـن طريـق المحامـين أن عرفـات مريـض إلى درجـة ميئـوس منهـا وأنـه تـم نقلـه إلى مستشـفى في باريـس وأن زوجتـه سـهى الطويـل تلازمـه في المستشـفى وتمنـع أيًـا مـن وزرائـه ومستشـاريه أن يقتربـوا منـه أو يتحدثـوا معـه بقولهـا إن الـكلام يزيـده مرضًـا وإن هـؤلاء مسـتورثون، ومـع العلـم أنهـا لم تكـن زارتـه منـذ سـنوات عديـدة إلا أنهـا اسـتأثرت عليـه في مرضـه، وفي الفـترة التـي كان فيهـا مـا يـزال في وعيـه، باعتبارهـا زوجتـه وأولى النـاس بـه.

في يوم العيد الذي صادف يوم جمعة سمعنا في الصباح الباكر صوتًا من مآذن نابلس ينعى «أبو عمار». لقد عرفنا الصوت، إنه صوت الشيخ ماهر الخراز، ولم نصدّق أنه ينعى عرفات بسبب عمق الخلاف السياسي بين حماس التي يعد الشيخ من أبرز قياداتها، وحركة فتح التي يتزعمها أبو عمار. فقال أحد المعتقلين: هنالك شخص مطارد يكنى أبا عمار، ويبدو أن الجيش المحتل استطاع تصفيته وهذا النعي له. ومع التشكك في هذه المسالة لم نكن على يقين من العيد حتى جاءنا محام وأخبرنا بحلول العيد وبوفاة عرفات، فأقمنا صلاة العيد وكنت الإمام والخطيب فألقيت خطبة تحدثت فيها عن الموت وما فيه من عظات وعِبر دون أن أتطرق إلى موت عرفات.

بعد العيد بأيام جاءني النقل إلى معتقل عوفر ودخلت أولًا المحكمة فحكمت عليَّ بالاعتقال الإداري لمدة ستة أشهر، ثم دخلت أحد الأقسام التي لا يتواجد فيها الجهاد الإسلامي، فحللت ضيفًا على خيمة حماس، فأنزلوني على أحسن بُرش عندهم وتعرفت هناك على المهندس وصفي كبها، من قادة حماس ومن وزرائها فيما بعد، فإذا هو على معرفة بتفاصيل اعتقالي الأول قرب مفرق بيت قاد، وتعرفت كذلك على خالد الحاج، وهو من قادة حماس وأبوه من الجهاد الإسلامي. وفي اليوم التالي انتقلت إلى قسم آخر فيه خيمة للجهاد الإسلامي، وكان ممن أذكره في تلك الخيمة طارق قعدان (أبو خالد)، وتعرفت إلى بسام أبو عكر الذي كنت أعرف عنه، ولكنني لم أكن التقيت به، وكذلك محمد بريوش وابنه مؤيد. ولم أكن التقيت بمحمد، ولكن مؤيد كان معنا في مجدو.

كان الجو في الأيام العشرة التي قضيتها في عوفر باردا جدًا وماطرًا جدًا، وكانت الكهرباء بائسة جدًا؛ فإذا أرادت خيمة الجهاد الإسلامي تجهيز إبريق من القهوة فعليها أن تستأذن من خيمة الجبهة الشعبية كي لا تقوم هي أيضًا باستخدام الكهرباء في الوقت نفسه فينزل الأمّان عن كليهما، وكذلك تفعل الجبهة الشعبية إذا أرادت استخدام الكهرباء؛ لأنهما مشتركان في خط واحد غاية في الضعف. وكانت العلاقات بين الشباب يشوبها بعض التوتر في أحيان عديدة؛ لأن معتقل عوفر عبارة عن ممر لا يمكث فيه معظم الشباب إلا أيامًا أو أسابيع، ثم يجري نقلهم إلى النقب ويؤتى بآخرين من مراكز التوقيف يحلون محلهم.

في أواخر كانون أول من عام 2004 نُقلت إلى النقب، وكان مشوار النقل ممتعًا، فقد تم في سيارة باص ولم يكن هنالك عصب للأعين وإن كانت القيود في الأيدي والأرجل، فهذا الأمر ليس فيه من النكد مثل ما في عصب الأعين. لقد استمتعنا برؤية كل مكان مررنا به من بلادنا التي نحن محرومون من رؤيتها. كانت المسافة طويلة، فقد استغرقت الطريق أكثر من ثلاث ساعات لم نشعر فيها بالسأم، فقد كان الجو في الحافلة وديًا ومررنا بأماكن كثيرة ومتنوعة تنوعًا مدهشًا، وهذه ميزة عظيمة لبلادنا فلسطين، فهي على صغر مساحتها، فيها تضاريس الطبيعة كلها وتنتج كل نوع تقريبًا مما تنتج الكرة الأرضية من حبوب وفواكه وخضراوات. وفي مشوارنا إلى النقب استمتعنا برؤية هذا التنوع الرائع، فقد هبط بنا الباص سفوح جبال عالية ورأينا في بعض تلك السفوح مستوطنات يهودية كأنها حدائق بابل المعلقة، يعجب الناظر من هذه البيوت التي يعلو بعضها بعضًا وهذه الشوارع التي يأتي بعضها فوق بعض، وكل ذلك في إطار من الترتيب والأناقة التي تشهد بتقدم هندسي ومعماري. وعندما اطمأنت بنا الطريق في أرض سهلية رأينا بيارات البرتقال على مد البصر ومزارع للخضراوات، ثم بدأنا نجتاز صحراء النقب التي تحول جزء كبير منها ابتداء من منطقة بئر السبع إلى جنان خضراء وتوجهنا إلى الجنوب مجتازين منطقة قطاع غزة التي لا نمر بها، ولكنها تكون عن أيماننا، فنرى خيامًا لبدو النقب في وسط مزارع الخضروات وحقول البرسيم بالإضافة إلى بيارات البرتقال.

وظلت الحافلة تسير باتجاه الجنوب وبدأت الرقعة المزروعة من الصحراء تنحسر، فمياه الري لا تستطيع أن تغطي كامل صحراء النقب، وبدأنا نقترب من معتقل النقب، وأخيرًا وصلناه، وقد عرفت ذلك المعتقل من قبل، كنت أذهب إليه زائرًا عندما كان مالك فيه، والآن أدخله نزيلًا. لا بأس؛ فالمعنويات عالية، وبعد سلسلة من الإجراءات أركبونا في الحافلة ليوزعونا على الأقسام، وكان نصيبي في قسم «6» من القلعة القديمة.

وجدت في القسم الكثير ممن أعرفهم وتعرفت بسرعة على كثيرين من أبناء الجهاد الإسلامي وحماس. وكان من أحسن الصدف أن التقيت في القسم بالصديق

الأستاذ أبي ثابت، مصطفى شاور، من قيادات حماس، والذي كنت تعرفت عليه في مجدو قبل ذلك، ونشأت بيني وبينه أواصر صداقة متينة، وعرفت في ذلك القسم عددًا من كبار كوادر حماس وفضلائها. وفي خيمتنا الجهاد الإسلامي وجدت أبا علي، شفيق ردايدة، الذي كنت أعرف عنه ولم أكن التقيت به قبل ذلك وتعرفت على أبي صبا، إبراهيم بداد، من قضاء جنين، ثم لم يلبث أن وصل إلى القسم القيادي الكبير في الجهاد الإسلامي والذي هو عندي بمنزلة الأخ أو الابن، أبو أحمد، هاني جرادات، فكانت أوقاتنا جميلة مفيدة، وكانت ساعات اليوم مقسمة بشكل جيد، حتى إننا لم نكن نرغب في النوم بعد صلاة الفجر التي لا تقام إلا جماعة شأنها شأن بقية الصلوات، نستمتع بالحديث وبشرب القهوة ثم نتناول الفطور، وعقب صلاة الظهر والعصر تكون مواعظ تارة يقف الشيخ هاني جرادات فيتحف الحاضرين بكلامه الصادر من القلب. وتارة يقف الشيخ مصطفى شاور فينتقي من بحر ثقافته وعلمه ما ينفع السامعين ويتحفهم، وتارة أقف فانتقي من طرائف العرب ما فيه متعة وعظة وعبرة، وكانت تلك الطرائف تعجب السامعين فيطلب بعضهم أن أمليها عليه في دفتره.

لقد كانت فترة اجتماعية وثقافية لا تُنسى.

إلا أن القسم كان قديمًا وخيامه مهلهلة ولا تحمي من فيها من المطر، فكنا نتوقى الأماكن التي تدلف منها الخيمة. وبالإضافة إلى المطر الذي كان يتجمع داخل الخيمة كانت الساحة غير ممهدة وبالتالي هي متعبة للمصلين، أما الحمامات فكانت الأردأ، فهي حمامان للقسم كله وعلى الذي يريد الاستحمام أن ينتظر دوره. ولم يكن الماء ساخنًا في كثير من الأحيان ولا أنسى هذا الموقف: كنت أنتظر دوري للاستحمام وكان في الحمام شاب تصطك أسنانه فتُسمع من مكان بعيد وتتواصل رعدته فيشفق عليه من سمعه، إنه على وشك أن يغادر السجن وقد انتهت محكوميته، فأراد أن يفد على أهله مستحمًا فلقي من بَرد الماء ما لقي، فتنازلت عن الاستحمام، وغادرت الموقف وأنا أحمد الله على العافية.

ومن أجمل ما كنت أجده في تلك البيئة أصوات بنات آوى الموجودة هناك بأعداد

كبيرة وكان عواؤها يملأ المكان وأحيانًا نشاهد بعضها على قمة تلّة رملية يظهر أعلاها من خلف السور.

كان مفهومًا أن هذه الأقسام لن تلبث أن تُغلق؛ لأن أقسامًا جديدة كانت تقام وكانوا يعدون بأنها ستكون حديثة ونظيفة وستراعى فيها احتياجات المعتقلين.

وكان في النقب قلعة أخرى أقسامها جديدة ونظيفة وساحاتها ممردة بنوع من البلاط الإسمنتي الأملس، فهي نظيفة وجميلة وفيها ثلاثة أقسام: أ، ب، ج. أما أقسام «أ» فهي أربعة أقسام صغيرة نسبيًا ويحيط بها سور عال وسماؤها مسقوفة بالشبك ذي الحديد السميك فالمعتقلون فيها كأنهم في قفص لذلك أطلقوا عليها اسم «القفص». أما أقسام «ب» فهي أربعة أقسام كل قسمين منهما متلاصقان ومقابلان للقسمين الآخرين، وكذلك أقسام «ج».

نزلت في قسم «ب1» وكان التواجد الأكبر فيه للجهاد الإسلامي، فيه خيمتان مفتوحة إحداهما على الأخرى، فكأنهما خيمة واحدة، وفيهما أربعون معتقلًا من مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة.

وجدت أن العلاقة بين الشباب هناك أفضل منها في الأقسام القديمة، وكان الشيخ مهند أبو رومي أميرًا عامًا للقلعة ولم يلبث أن انتهت مدة محكوميته فاستلمت الموقع، وكان عليّ أن أقوم بزيارة لأحد الأقسام كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم السبت، ولم تكن الزيارات للنزهة بل للعناية بشؤون المعتقلين من أبناء الحركة. وكانت بعض المشاكل تتعلق بأبناء الحركة في الخارج وأحلها مع القيادة.

اتصل بي ذات يوم شبان من التنظيم من طولكرم وهم محاصرون من قوات السلطة الفلسطينية، وهذه القوات تطلق عليهم النار وتطالبهم بالاستسلام، وكانوا هم أيضًا مسلحين ويستطيعون أن يصيبوا القوات الفلسطينية، لكنهم فضلوا أن يتصلوا بي لمعرفة التصرف الأسلم، فوجهت لهم تعليمات مشددة بأن لا يطلقوا طلقة واحدة على القوات الفلسطينية بقصد القتل أو حتى الجرح.

فقال الذي تولى الحديث معي: إنهم يطالبوننا بالاستسلام، فهل نستسلم؟

قلت له: تستطيعون إطلاق النار باتجاههم للتخويف، فإذا وقعتم بين أحد خيارين: إما أن تصيبوا منهم قتلًا أو جرحًا وإما أن تستسلموا، فاستسلموا، وسيأخذونكم إلى السجن وسيكون من السهل تدارك الأمر، أما القتل: فدم أي فلسطيني محظور عند الجهاد الإسلامي إراقته، واستجابوا، ومرّت المشكلة من غير مضاعفات ومن غير تيتيم أطفال فلسطينيين ومن غير تلويث للسلاح المجاهد الشريف.

لقد ذكرت هذه الواقعة للإخوة من فتح وحماس عندما وقع الاقتتال وما نتج عنه في غزة، معبرًا عن استغرابي اللجوء إلى العنف الزائد مع آخرين من أبناء جلدتنا.

أما الإشكالات الداخلية، فكان أصعبها عندما تكون المشكلة مع كهل، فحلها يتطلب الحكمة وسعة الصدر والبعد عن إنزال العقوبة كما هو الحال مع الشباب، والبعد عن التلويح باستخدامها، بل يتوجب علينا أن نغمره بالاحترام ونناقشه بالتي هي أحسن. ولا تخلو بعض هذه الاشكالات من طرافة:

كان في النقب في قسم «ج3» القريب من القسم الذي كنت فيه «ب1» كهل يقال له أبو فوزي الشويكي في بداية الخمسينات من عمره إلا أن تجاعيد وجهه توحي بأنه في السبعين لا في الخمسين.

كان له طباع غريبة وله لسان ذرب وهو يشن على التدخين والمدخنين حملة شعواء ويصفهم ب(الكنادر) وما أشبه ذلك من أوصاف، ثم إنه هجر الخيمة والتجأ إلى خصٍّ في أقصى الساحة مخصص للحلاقة، ونقل فرشته إليه، وجلس فيه يصنع السفن الكرتونية لمن يجلب له تجهيزاتها، مجانًا وبقصد التسلية فقط، ولا يسأم أن يقضي معظم نهاره وليله في العمل، وكان ابنه في القسم نفسه وكذلك قريبه أشرف الشويكي الذي هو أمير القسم والإدارية العامة للقلعة، ولم يستطع أي منهما التأثير عليه فدُعيت إلى حل مشكلته، فذهبت إلي القسم، وجئت إلى أبي الفوز في خُصِّه:

بعد السلام والتحية سألته بلهجة حازمة، على سبيل الدعابة:

- لماذا أنت هنا يا أبا الفوز؟

- أنا مرتاح هنا.

- ولكننا غير مرتاحين.

- إنهم يخنقونني بالدخان.

- سنضعك في مكان لا يقترب منك مدخنون.

- سأبقى هنا.

عندها قلت بلهجة جازمة: أميرك العام يقول لك قم.

فقام وتوجهنا إلى الخيمة وحددنا له مكانًا ليس فيه مدخنون واجتمع الشباب من حولنا نتحدث ونطلق الفكاهة، وقد ساد جو من المرح، فاستغللته بشدة وقلت له: أترى كم يحبونك؟ فابتسم ابتسامة الغبطة. وبعد قليل نودي على الزوار ليعود كلٌّ إلى قسمه. فرجعت إلى القسم وأنا مغتبط أنني أعدت أبا فوزي إلى الخيمة.

وبعد صلاة العِشاء اتصلت بأشرف، أساله عن أخبار القسم، ثم سألته عن أبي فوزي، فقال: عاد إلى خصّ الحلاقة.

لا حول ولا قوة إلا بالله وما أصدق قول الذي قال:

إنّ الغصونَ إذا قوّمتها اعتدلت ولن يلينَ إذا قوّمته الخشَبُ

أما المشاكل مع التنظيمات الأخرى فكان أكثرها مع حماس.

فكلا التنظيمين الإسلاميين؛ حماس والجهاد الإسلامي كانا قد أقاما بينهما منذ سنين تحالفًا في النقب فأصبحا تحت إطار واحد هو «الجماعة الإسلامية»، مما جعلهما التكتل الأكبر في السجن وهذا ما أعطى حماس التمثيل الاعتقالي، وحركة الجهاد أن يكون منها المتحدث باسم القلعة «الدوبيير»، وكان المفروض أن يقرَب هذا التحالف بين التنظيمين إلا أنه لم يفعل، فإن كلا التنظيمين لم يكن ينظر بعين الرضا إلى التنظيم

الآخر وكان عناصر الجهاد الإسلامي يشعرون أن حماس لا تريد من هذا التحالف إلا التمثيل الاعتقالي، ولا تهتم بمطالبهم ولا تحترم الوحدة القائمة بينهما، ولقد تفاقمت مشاعر الاستياء إلى حد أن أصبح الانفصال أمرًا لا مناص منه.

كان سجن النقب مكونًا من قلعتين: القلعة المفتوحة التي تحدثت عنها آنفًا وقلعة الآبار وهي قلعة الأقسام الجديدة التي اكتمل إنشاؤها واستقبلت المعتقلين الذين كانوا في الأقسام القديمة في منتصف عام 2005، وسماها الشباب الآبار، مفرد بئر؛ لأن كل قسمين منها محاطان بسور مشترك ارتفاعه ثمانية أمتار، وجدرانه من نوع مادة جدار الفصل العنصري، وكل قسمين من الأقسام العشرة أشبه بالبئر إلى درجة أنه يمكن ملؤه بالماء لولا فتحات التصريف التي في جوانبه. وعلى الباب المشترك لكل قسمين أجهزة إنذار إلكترونية، وقبيل انتقال المعتقلين إليه جرت مفاوضات شاقة بين الإدارة وممثلي الفصائل حول أساليب الدخول والخروج بالنسبة لممثلي الفصائل؛ إذ إنهم بموجب اتفاقات سابقة لا يجري تفتيشهم. وبهذه الميزة ينقلون في جيوبهم الأجهزة الخلوية كل إلى أبناء تنظيمه. وأخيرًا تم الاتفاق على أن ممثلي الفصائل سيظلون في مأمن من التفتيش وأن لا أهمية لصفارة الكشف عن المواد المعدنية التي يطلقها جهاز الإنذار المثبت على باب كل قسم. وبالفعل؛ ففي الفترات التي كنت فيها أميرًا عامًا، كنت ألبس سترة ذات جيوب متعددة وواسعة وقد حُشيت بالأجهزة الخلوية حشوًا. وكان بقية الزملاء من ممثلي الفصائل الأخرى يفعلون الشيء نفسه، ثم نركب الحافلة من القلعة المفتوحة التي نعيش فيها إلى قلعة الآبار ويدخل كل منا القسم الذي هو ذاهب إليه وتنطلق الصفارات، ولكن لا يجري التفتيش. فقد كان النقب وكذلك مجدو وعوفر لا يزال تحت سيطرة الجيش، ولم يكن الجيش يهتم كثيرًا بجمع الهواتف من المعتقلين أو منع الأغذية والملابس أن تصلهم من أهلهم، فهو يرى نفسه أكبر من ذلك.

كانت زيارات ممثلي الفصائل لقلعة «الآبار» أو ما تسمى «القلعة المغلقة» تتم على فترات متباعدة نسبيًا، فتكون مرة أو مرتين كل شهر على وجه التقريب وكانت زيارتي لتلك القلعة غالبًا ما تكون لقسم «5» حيث نجد هناك أبا النور، وائل طحاينة، الذي كان الأمير العام لقلعة البيار، أي؛ الآبار، وكنا في البداية نجد أبا مؤيد، محمد بريوش

الـذي أنطنا بـه مهمـة الاتصـالات الخارجيـة وابنـه مؤيـد، قبـل أن يتـم الإفـراج عـن مؤيـد ونقـل والـده إلى السـجن المركـزي، وكنـا نجـد أبـا يقـين، طـلال الأطـرش الـذي كان أمـين الصنـدوق، قبـل أن يجـري نقلـه وينضـم إلينـا أبـو أحمـد، هـاني جـرادات الـذي كان نزيـل قسـم آخـر وكان ممثـل الحركـة في تلـك القلعـة «نتسـيق» وهـذا الموقـع يمكنـه مـن الخـروج إلى أي قسـم يريـده، وفي فـترة كان أبـو محمـد عـماد أبـو الحسـن، فيكـون لقـاء مـودة ومؤانسـة بـكل مـا في الكلمـة مـن معنـى. وأحيانًـا نـزور قسـم «6» المجـاور لنجـد أبـا العبـد، عـزام الشـويكي وتمتـاز خيمتـه دائـمًا بوجـود المكونـات اللازمـة لعشـاء دسـم لا يبخـل بـه علينـا، ونجـد هنـاك أبـا مسـلم، يوسـف غوانمـة، أو نذهـب إلى قسـم «10» لنلتقـي بـأبي عـلاء، سـعيد نخلـة، ولا أقلـل مـن قـدر أحـد مـن الإخـوان ممـن لم أذكرهـم، فـلا يتسـع المقـام للحديـث عـن ذلـك العـدد الكبـير مـن الأسـماء مـن إخـوة أعـزاء كانـت معرفتهـم واللقـاء بهـم مغنـمًا.

حركـة الجهـاد حركـة سُـنِّية بطبيعـة الحـال، وأبناؤهـا متمسـكون بقـوة بمذهبهـم، ولكنهـا تمتـاز عـن غيرهـا بسـعة الأفـق والانفتـاح عـلى الآخريـن وهـي تنظـر إلى الجميـع بمنظـار القضيـة الفلسـطينية فالحريـص عـلى حقـوق الأمـة الإسـلامية في فلسـطين والرافـض للمؤامـرات السياسـية التـي تمخضـت عـن تنـازل فريـق أوسـلو عـن معظـم فلسـطين هـو الأقـرب إلى الحركـة، وهـي تـرى أن الحملـة المجنونـة عـلى الشـيعة ليسـت معارضـة لبعـض مقالاتهـم بمقـدار مـا هـي تعبـير عـن الشـعور بالخطـر مـن النمـوذج الـذي تقدمـه الجمهوريـة الإسـلامية في إيـران، عـلى أنظمـة حكـم مهترئـة في العـالم السـني.

كـما أن أصحـاب الحملـة المذهبيـة الشرسـة لا يتورعـون عـن الكـذب بالإضافـة إلى تضخيـم مسـائل الخـلاف بحيـث يرفعـون التافـه منهـا إلى درجـة الكفـر البـواح، كـما يلجـأون إلى التعميـم، فيوحـون إلى القـارئ بـان كل مقالـة خلافيـة عنـد الشـيعة، بأنهـا ديـن راسـخ يتبعـه أولهـم وآخرهـم، مـع العلـم أن الشـيعة كأهـل السـنة، لا يـكادون يتفقـون عـلى مقالـة واحـدة في الأمـور التـي نشـأت بعـد رسـول الله، صـلى الله عليـه وسـلم.

كنـت منـذ قيـام الجمهوريـة الإسـلامية في مطلـع 1979 وحتـى الآن أحـارب التطـرف المذهبـي الـذي يدعـو إلى التبغيـض والمقاطعـة والتدابـر، خدمـة لمصالـح سياسـية أو اسـتجابة

لشعور ذاتي صنعه ضيق الأفق والجهل بحقيقة الأمور، دون التفات إلى مصلحة الأمة الإسلامية التي تقتضي التقارب والتفاهم بين المسلمين جميعًا والسير في طريق الوحدة.

من أبرز المشاكل التي واجهناها في الجهاد الإسلامي في تلك الفترة هي انتشار التعصب المذهبي المتطرف بين بعض أفراد الحركة بتأثير القاعدة وأبي مصعب الزرقاوي الذي كان لامع النجم في تلك الفترة، وكذلك بتأثير كتابات لمتطرفين في العالم السني ومندسين على الإسلام ككتاب نشرته جمعية القرآن والسنة في القدس وفيه افتراءات لا حدود لها على الشيعة عمومًا وعلى الإمام الراحل آية الله الخميني على وجه الخصوص. وكانت وسائل إعلام سعودية قد نشرت في شريط كاسيت تعريفًا بالشيعة مليئًا بالمغالطات والأكاذيب فهي تَنِسب إلى الشيعة الاثني عشرية (شيعة إيران ومناطق الخليج والعراق وشرق الجزيرة العربية) كل كلمة كفر جاءت بها إحدى الفرق البائدة كالغرابية التي ادعت أن جبريل أخطأ في الرسالة فأعطاها لمحمد صلى الله عليه وسلم ظنًا منه أنه علي رضي الله عنه؛ لأنهما كانا _بزعم الفرقة الغرابية الضالة_ يشبه بعضهما بعضا شبه الغراب بالغراب. ولم يستح المنظِّر السعودي، ولم يتق الله في الخصومة، فادعى أن هذه مقالة الشيعة. وهنالك فرية أخرى أعظم، هي القول إن عليًا كان بشرًا في الظاهر، إلهًا في الباطن وكذلك كان أولاده، فقد نسبها ذلك الشريط الكذاب إلى الشيعة وهي مقالة النصيرية.

وكان هذا الشريط بين أيدي الشباب يستمعون إليه ولا يعرف معظمهم صدق ما فيه من كذبه ولم أدخر جهدًا في العمل على تبصير الشباب بحقيقة هذا الشريط وبهول جريمة من يُكفِّرون مسلمين ويبيحون دماءهم.

الإعلام المتحيز قد نشأ منذ نشوء الجمهورية الإسلامية. ففي مطلع الثمانينات كتب شيخ أردني من الجناح المتطرف في الإخوان المسلمين محمد أبو فارس كتيبًا عنوانه «سراب في إيران» وقدمه باسم مزيف (محمد أحمد الأهواني) انتقى فيه من مقالات واردة في كتب الشيعة كل ما يخالف موقف أهل السنة وتجاهل كل إيجابي في تلك الكتب ولجأ إلى التضخيم والتعميم، ومن قرأه وقر في ذهنه أن الثورة الإسلامية في إيران لا

تعني أهل السنة من قريب أو بعيد؛ لأنها سراب خادع. وعمل الإخوان على ترويجه بنشاط بالغ. وكان ذلك مما دفعني إلى دراسة المذهب الشيعي وكتابة كتاب محايد عن طبيعة الخلافات بين الطائفتين المسلمتين والحجم الحقيقي لتلك الخلافات أعطيته عنوان: الميزان بين السنّة والشيعة.

وكان يلزمني في سجن النقب _باعتباري الأمير العام_ أن أواجه موجة التطرف هذه وأن أوضح حجم الخلافات بين السنة والشيعة وبين السنة والخوارج وسائر الأحزاب الأخرى كالمعتزلة والمرجئة والجبرية، فكنت أعقد دورات ثقافية للشباب في القسم الذي أكون فيه عنوانه: تعريف بتاريخ الأحزاب والفرق في الإسلام وبمقالاتها، ولم أنزل قسمًا من أقسام أي سجن في الاعتقال الأول والثاني والثالث، في مجدو وعوفر والنقب إلا حرصت على إعطاء الشباب هذه الدورة التثقيفية. ولقد ساهم كتابي «الميزان بين السنة والشيعة» الذي سبقني إلى السجون، في نشر هذه الثقافة إلا أن موجة التطرف المذهبي لم يسلم منها شباب الجهاد بدرجة من الدرجات.

ويقابله في الحركة نفسها اقتراب من التشيع، وقد اعتنق عدد قليل من الشباب رسميًا المذهب الشيعي.

وكنت أحرص على إيضاح موقف الحركة من الأمرين: فبالنسبة للتعصب المذهبي، فله في الجهاد الإسلامي خط أحمر هو القول بتكفير الشيعة واستباحة دمائهم كما فعلت القاعدة، هذا عندنا مرفوض رفضًا باتًا وإذا قال أحد بذلك، فإننا نوضح له ضلال معتقده ونطالبه بالعودة عما قال، وإن لم يفعل طردناه من صفوف الحركة، ولكن لم تصل الأمور إلى هذا الحد إلا في حالات قليلة إلا أن بعض الشباب كان يظهر عدم حبه للشيعة، فنقول له: هذا من حقك، فلك ألا تحبهم، ولكن ليس لك أن تكفرهم وتؤيد ضلال «القاعدة» وطالبان في استباحة دمائهم.

وفي الطرف المقابل: لا نقبل أن يتحول أحد من أبناء الحركة من مذهب أهل السنة إلى مذهب الشيعة؛ فالجهاد الإسلامي حركة سنية لا تقبل عن مذهب السنة بديلًا، كما أنها حركة تؤمن بضرورة حشد طاقات الأمة كلها من سنة وشيعة وغيرهم

لمجاهـدة أعـداء الله والعمـل عـلى إعـادة إقامـة الدولـة الإسـلامية الواحـدة، ولـو جاءنـا شيعي ينضـم إلى صفوفنـا لرحبنا بـه كل الترحيـب ولـما دعونـاه إلى تغيـير مذهبـه، وكذلـك السني، المفـروض أنـه دخـل الحركـة ليقـاوم الاحتـلال، وتحولـه إلى التشيع إضافـة عـلى أنـه يكـون قـد زهـد في مذهـب أهـل السنة زهـدًا غـير مقبـول، فإنـه يخلق خلافـات وشـقاقات داخـل التنظيـم ويشـغله عـن الهـدف الأسـمى بمعالجـة صراعـات جانبيـة فيهـا كل الـضرر وليس فيهـا نفـع. لـذا، فمثلـما نُخـرج مـن صفوفنـا مـن يقـول بتكفـير الشـيعة، نخـرج مـن صفوفنـا مـن يتحـول إلى التشـيع.

وهنالـك حـالات محـدودة اعتنـق فيها شـباب مـن الجهاد الإسـلامي التشـيع فخرجوا مـن صفـوف الحركـة. حـدث ذلـك عـلى وجـه التحديـد في منطقـة بيـت لحـم، ولكنهـم ظلوا يشـعرون أنهـم أقـرب إلى الجهـاد، ولقـد تولـت الحركـة جنـازة الشـهيد محمـد شـحادة عنـد اغتيالـه عـام 2008 وكـما أنهـا كانـت ترسـل الكنتينـة للشـباب الشـيعة مـن الجنـوب اللبناني الذيـن كانـوا في السـجون المركزيـة في الأرض المحتلـة، إلى أن تـم الإفـراج عنهـم قبـل بضـع سـنوات. وكل ذلـك حـدث مـن حركـة الجهـاد الإسـلامي وفـاءً للمجاهديـن وبلائهـم في وجـه الاحتـلال ووفـاءً للمقاومـين مـن البلـدان الأخـرى، فهـم مجاهـدون عـلى أيـة حـال والجهـاد الإسـلامي موقفـه واضـح وصريـح أنـه ليـس مـع المذهبيـة ولكـن مـع كل مـن يعـادي ويحـارب إسرائيـل كعـدو مركـزي للأمـة.

عودة إلى الجماعة الإسلامية

حدثـت تجربـة الاتحـاد الفـدرالي بـين الجهـاد الإسـلامي وحمـاس، في سـجن النقـب. وظلـت قائمـة منـذ أعيـد افتتـاح النقـب عـام 2002، حتـى 2005، وربـما جسـدت بعـض أهدافهـا في البدايـة، لكنهـا في أواخـر عـام 2005 كانـت لا تعـود على الجهاد الإسـلامي بنفع، ولكنهـا جعلتـه التنظيـم الوحيـد في النقـب الـذي لا يحصـل عـلى كامـل حصتـه في كل شيء، وكان في حمـاس هيئـة تنظيميـة عـلى رأسـها ممثـل المعتقـل «أبـو سـياف»، لا تكـن أيـة مـودة للجهـاد ولا تـرى أنـه يسـتحق الإنصـاف. وكثـيرًا مـا غضـب أفـراد الجهـاد مـن تصرفـات هاضمـة لحقهـم أو متجاهلـة لوجودهـم دون أن يحاول أبـو سـياف أو غيره من قـادة حماس في

المعتقل أن يستفسر عن أسباب هذا الغضب، وعندما تفاقمت الأزمة دعوت إلى اجتماع لمجلسي شورى القلعتين، وعقد الاجتماع في أحد أقسام قلعة الآبار، واستمر الاجتماع من أول الليل إلى الصباح، ناقشنا فيه أمر الجماعة الإسلامية وما تتعرض له حركتنا من قبل الإخوة في حماس من تحجيم وحرمانها من حقوقها واعتبارهم هذه الجماعة وسيلة فقط لحصول حماس على التمثيل الاعتقالي. وأخيرًا توصلنا إلى قرار إجراء استفتاء بين جميع عناصر الجهاد الإسلامي في قلعتي النقب حول فك الجماعة الإسلامية أو الإبقاء عليها، وجرى الاستفتاء وصوت حوالي 95٪ من عناصر الجهاد على إلغاء الجماعة الإسلامية، فأبلغنا المسؤولين في حماس بفك الجماعة الإسلامية بكتاب بينا فيه أسباب هذا الإجراء بشكل موجز.

اتخذ ردهم شكلين مختلفين: من ناحية؛ لقد احتجوا واستنكروا القرار الذي كان من جانب واحد، وحاولوا بشكل هادئ وغير معلن أن يثنوا الجهاد الإسلامي عن هذا القرار لا سيما مع اقتراب انتهاء الدورة التنظيمية العامة، أي: التي يعاد فيها توزيع المهمات التنظيمية على مستوى المعتقل، وأن حماس ستخسر بذلك موقع ممثل المعتقل ومن ناحية أخرى؛ أرادوا أن يوحوا للجميع بأنهم لا يكترثون بحل الجماعة، بل إنهم سعداء بذلك، فوزَّعوا الحلوى، وصاروا يجلسون للنشيد والغناء بأعلى صوت ومع الطبل المدوي من بعد صلاة المغرب وحتى أذان العشاء. كان غناؤهم عندنا في قسم «ب1»، وفي الأقسام المقابلة لنا وعن أيماننا وشمائلنا، واستمر ذلك ليالي عديدة، ومع ذلك كله لم يحاولوا أن يجلسوا معنا ويتفهموا وجهة نظرنا، ولم يُظهروا لا قبل الانفصال ولا بعده أي اكتراث بمشاعرنا ومطالبنا.

ليلة ليلاء

إنها حادثة مأساوية وليلة لا تنمحي من الذاكرة.

كان شاب من قطاع غزة، يعيش مع الجهاد الإسلامي في القسم الذي كنت فيه «ب1» كان شابًا ضئيل الحجم وصغير السن، في أول العشرينات من عمره، وكان منعدم الثقافة بالكاد يميز الحروف، ومن الطريف في هذا الخصوص أنه جاءني مرة يسمعني موعظة كتبها ليلقيها على معتقلي الحركة بعد المغرب في الخيمة، وكانوا يجتمعون بعد صلاة المغرب في إحدى الخيمتين فيلقي أحد الشباب موعظة قصيرة، وكان كل شاب مكلفًا أن يلقي كلمة في موعد يعرفه مسبقًا، والهدف من هذا النشاط تعويد الشباب على الجرأة في الكلام والقدرة على ارتجال كلمة إذا داهمه موقف اقتضى منه ذلك.

جاءني ذلك الشاب وقال: الليلة دوري في إلقاء الموعظة، وقد كتبت موعظة أريد أن تسمعها وتبدي رأيك فيها. قلت له: هات أسمِعني. فأخذ يقرأ بصعوبة، وكأنه يستخرج حجارة كبيرة من بئر عميقة: أيها الناس، كلكم أنجاس وأنتم بلا أساس، وكلمات أخرى لم أعد أذكرها، فقلت له: هذه لا تنفع وسأكتب لك حالًا موعظة تتدرب عليها أمامي. وبالفعل، كتبت له موعظة وطلبت منه أن يقرأها على مسامعي أكثر من مرة كي يكون قادرًا على إلقائها على مسامع الشباب بشكل لا يجعله عرضة لسخريتهم. وجاء موعد الموعظة فألقى على مسامع الشباب الكلمة التي كتبتها له، وألقاها بشكل لا بأس به، ثم قلت له: أسمِعهم موعظتك الأولى. فأخرجها من جيبه وأخذ يقرأ: أيها الناس، كلكم أنجاس وأنتم بلا أساس، فضج الشباب بالضحك وتفرقوا إلى أبراشهم وهم يضحكون.

كان هذا الموقف من ذلك الشاب موقفًا كوميديًا، ولكن سائر مواقفه كانت محرجة لنا؛ فهو إما أن يتظاهر بالمرض ليخرج إلى الإدارة أو يثير مشاكل مع الفصائل الأخرى أو يخالف قوانين التنظيم مخالفة كبيرة. ما الذي يمكن أن نفعله لنرده إلى الصواب؟ نصحناه ووعظناه ما وسعنا الوعظ، فلم يتعظ. وهو بالمناسبة مفصول من الحركة حتى قبل أن آتي إلى القسم، وحاول الأمير العام الذي كان قبلي وهو الشيخ مهند

أبو رومي أن يتخلص منه بإرساله إلى تنظيم آخر، فرفضت سائر التنظيمات استقباله، فلم يبق إلا إخراجه إلى الإدارة وهذا ما يستحيل التفكير فيه، فلم يكن أمامنا إلا أن نحتمل ما يكون منه، فبقي عندنا رغم أنوفنا. مع العلم أنه لم يكن عنيفًا على الإطلاق وضآلة جسمه لا تسمح له بأن يكون عنيفًا، ولكنه كان مثيرًا للمشاكل. وفي فترة مسؤوليتي أعطيته بالتشاور مع مجلس الشورى العام إنذارًا نهائيًا وعلى الرغم من أنه ليس من أفراد التنظيم، وفي مخالفة ارتكبها بعد ذلك قررنا إخراجه من التنظيم بشرط أن نجد تنظيمًا يؤويه، لكننا توجهنا إلى حماس فرفضته وإلى الجبهة الشعبية فرفضته وإلى فتح فرفضته، فأبقيناه عندنا بشروط اشترطناها عليه.

وذات يوم اكتشفنا أن لديه مخالفة تستحق العقوبة، فاجتمع مجلس الشورى العام ونظر في المخالفة فأوقع عليه العقوبة المناسبة وكانت حلق الرأس ومائة جلدة بالمسطرة على اليد وعارضت حلق رأسه بسبب اقتراب موعد الإفراج عنه إلا أن بقية أعضاء مجلس الشورى العام أصروا عليه، ولم يكن وحده الذي وقعت عليه العقوبة، بل كان معه شاب آخر من الضفة الغربية. ولم يكن اقتراب موعد انتهاء محكوميته بالأمر السار بالنسبة إليه، بل كان بالنسبة إليه أمرًا مخيفًا وكلما اقترب الموعد يومًا تضاعفت أزمته النفسية. كان يُسِر إلى أصحابه أن والده في غاية العنف معه ومع أخواته وأنه يتخوف من العودة إلى البيت الكئيب. وكان له قريب عندنا في القسم نفسه يوسعه توبيخًا كلما انفرد به، وبشكل متواصل، وذات يوم وبخه قريبه على انفراد توبيخًا لا يطاق، وكان في الخيمة حبل ملفوف على شكل مشنقة فقرر أن ينهي حياته.

بعد صلاة العشاء خرجت من باب الخيمة على جلبة وشباب يتراكضون، فسألت: ما الخبر فقال لي أحدهم: شنق الشاب نفسه فإذا الشباب عند السور الغربي للقسم وهم منهمكون في إنزال ذلك الشاب من المكان الذي كان يتدلى فيه. لقد تبين أنه أخذ المشنقة خلسة وأخذ أحد الكراسي كذلك وفعل ذلك أثناء أداء المعتقلين صلاة العشاء، ووقف على الكرسي وربط حبل المشنقة بإحدى حلقات السياج الفولاذي المشبك، وأدخل فيها عنقه ودفع الكرسي برجله فبقي مدلّى، وقد أطبق الحبل على عنقه، وبعد فترة انتبه إليه أحد الشباب، ثم صاح في القسم إن هنا شابًا مشنوقًا،

فركضوا وبيد أحدهم شفرة حلاقة واحتزوا الحبل حتى انقطع وهوى الشاب فتلقفوه وحملوه إلى وسط الساحة وعندما جئت إليه رأيته ممددًا لا حراك فيه، ثم لم تلبث الإدارة أن جاءت بالحمالة فحملته إلى المستوصف الذي لم يكن بعيدًا، وفحصته فوجدته ميتًا.

لا أنسى، ولا ينسى أحد ممن شهد الواقعة ما ساد قسمنا وسائر الأقسام من هرج ومرج، وشهد قسمنا ليلة هياج بين الشباب لا مثيل لها خاصة بين شباب الجهاد الإسلامي، وكنت شديد التأثر والشعور بالحرج؛ لأن الحادثة وقعت في قسمي وأثناء كوني أميرًا عامًا للقلعتين، فأنا أتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية. ولكن لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير في هذا الأمر وحده، لأنني انشغلت بمعالجة الموقف العاصف الطارئ، وكان مما خفف علي العبء أنه صدف وجود وفد من قلعة الآبار من قيادات الجهاد الإسلامي يضم كلًا من أبي النور، وائل طحاينة، وأبي أحمد، هاني جرادات، وثلاثة آخرين، وكانت زيارتهم أولًا إلى القسم المقابل لنا، ثم لما وقعت الحادثة جاءوا مسرعين إلى قسمنا. وكانت إدارة السجن زمن إشراف الجيش تسهل مثل هذه الأمور، وأصبحت هذه التسهيلات من ماضي الزمن بعد أن استلمها الشاباس وهم الشرطة الإسرائيلية المسؤولة عن السجون.

إلا أن العبء الأكبر في معالجة الموقف وقع على عاتقي، فعندما تأكد نبأ وفاة الشاب وقفت في الخيمة أعلن الخبر وأترحم على الميت، فصاح صديق له، مقرب منه صيحة المفاجأة وخرّ مغشيًا عليه، وتبعه شيخ من منطقة جنين كان في أول الخمسين من عمره، ضخم الجثة، له تجربة مريرة سابقة مع الشباب في مجدو، فهو يرى أن الشاب الذي شنق نفسه لم يفعلها إلا بسبب الظلم والاضطهاد الذي تعرض له، وكان مقتنعًا بذلك، ولم يكن في معتقده هذا مصيبًا كل الصواب ولا مخطئًا كل الخطأ. فالشاب المرحوم ارتكب ما اضطرنا إلى معاقبته، ولم يكن بالإمكان التنازل عن العقوبة ولا تخفيضها إلى الحد الذي يجعلها غير فعالة، فهيبة التنظيم وقوة الردع فيه لا تقوم إلا على الحزم في تنفيذ القوانين واللوائح التنظيمية. ولم نسئ معاملته باستثناء قريبه الذي كان يشعر بالحرج من تصرفاته.

ظلت مواجد ذلك الشيخ (الشائب) تتفاقم وفجأة وقع في انهيار عصبي وفي غيبوبة ظل يهذي خلالها: ماذا سنقول لأولادنا، ماذا سنقول لأولادنا، وأنا أقول له: قل لا إله إلا الله، فيقولها، ثم يعود فيكرر: ماذا سنقول لأولادنا فأقول له: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقولها ثم يردد: ما ذا سنقول لأبنائنا؟

وكنت أتركه وأخف مسرعًا إلى الشاب الآخر الذي يهذي فأحاول تخفيف روعه ثم انتقل إلى الشيخ المصاب بالانهيار، وبين هذا وهذا يذهب الشباب ويجيئون ويخرجون من الخيام ويدخلون على غير هدى ومن غير أهداف محددة. وكانت اللوائح تقتضي أن يدخل الجميع الخيام ويأووا إلى الفراش عند منتصف الليل ويُمنع من مغادرة الخيمة حتى الصباح إلا لمن يريد دخول دورات المياه التي كانت تقع في أقصى الطرف الغربي من الساحة.

أما في تلك الليلة فكان الشباب في حالة نفسية لا تسمح بإجبارهم على الإيواء إلى الفراش، فأوعزت للشخص الذي كان «الإدارية» أن يترك الشباب وشأنهم. ولم يلبث قسم «ب1» أن تلقى أمرًا من الإدارة بالاستعداد للخروج إلى القسم المجاور «ب2» من أجل التفتيش. وهو تفتيش طارئ بمناسبة الحادثة، والتفتيش في الأحوال العادية يكون في النهار ويكون لدى الشباب مهلة كافية لجمع الهواتف المحمولة والسكاكين وأي ممنوع آخر ووضعها في حقائب وقذفها إلى القسم المجاور، وكان الجيش يدخل القسم، فلا يجد _في العادة_ شيئًا ممنوعًا.

خرجنا إلى القسم المجاور بعد أن قذف الشباب إليه كل الأمتعة الممنوعة، ولم يكن الشباب قد ناموا لا في قسمنا ولا في القسم المجاور ومكثنا فيه إلى الصباح، وكنت في كل مرة يجري فيها تفتيش أستأنس برؤية الشباب في قسم «ب2» ولم يكن يتجاوز مكوثنا في القسم أكثر من ساعة، إلا في هذه المرة، فقد مكثنا حتى الصباح، والجدير بالذكر أن كلا الشخصين اللذين أُصيبا بالهذيان قد أفاقا عندما تلقينا الأمر بمغادرة القسم. وعند الصباح بدأ فصل جديد من ردة الفعل عند الشيخ الذي أصيب بالهذيان، إذ أخذ يتوعد بأن يتصرف مع الأشخاص الذين يعدهم مسؤولين عما حصل، فقلت له:

سنشكل لجنة تحقيق وكل من تثبت عليه مخالفة سيعاقب بمقدار مخالفته، فرفض وأصر على أن يتولى الأمر بنفسه، فقلت له: هذا ليس من حقك وليس بإمكانك. فغضب وصاح في الشباب يطلب منهم أن يتابعوه إلى خارج الخيمة، بل إلى خارج التنظيم، ورفع راية الجهاد الإسلامي وأعلن أنه يغادر خيمة التنظيم، ولكن المفاجأة كانت بالنسبة إليه أنه لم يتبعه أحد من أبناء منطقته الذين يشكلون في العادة كتلة متماسكة، ولا من أبناء المناطق الأخرى، فسار وحده متجهًا إلى خيمة فتح معلنًا أنه تحت إطار فتح، وظل كذلك إلى أن أفرج عنه؛ إذ إن مدة محكوميته كانت على وشك أن تنتهي.

في هذه الغمرة لم يكن ثمة طعام عشاء لنا ولا لضيوفنا ولم نفطر ولم نتناول كوب شاي.

وعند الظهر وجدت في كنتينة حماس خمس دجاجات فاشتريتها لقرى الضيوف، وطلبت من مسؤولَيْ المطبخ أن يُسرعا في إعداد الطعام للضيوف، فأعداه للمعتقلين كلهم وكانوا أربعين غير الضيوف الخمسة، ومن لم ينله اللحم ناله الأرز، ولكن كل واحد ناله نصف رُبع دجاجة وهي قطعة كافية في السجن، وأكل الجميع عن جوع وبدأت الأمور تعود إلى الهدوء إلا أننا قررنا إنشاء لجنة تحقيق فيما جرى مكونة من مجلس الشورى العام بالإضافة إلى الشيخ القيادي الكبير أبي مهند، ماجد شريم الذي ترأس اللجنة، والذي كان في المعتقل منذ وقت قريب.

عرضتُ على اللجنة أن أتحمل المسؤولية وأقدم استقالتي كأمير عام فرفضت اللجنة ذلك، واستمر التحقيق زهاء ثلاثة أيام، جلسوا فيها مع كل شخص من الجهاد الإسلامي، ثم أجملوا التقرير ورفعوه إليّ وعندما قرأته وجدت أن أربعة شباب ممن كنت أعرف أنهم لا يتعاطفون معي منذ اليوم الأول ولأسباب تاريخية، ألقوا بالمسؤولية في إفاداتهم على الأمير العام ووصفه ثلاثة منهم بالضعف، أما الرابع الذي كنت منذ دخل السجن أعطيه دروسًا في القراءة والكتابة لأزيل أميته، فقد عاب عليّ حرصي على المنصب واستدل على هذا الحرص بأنني _في زعمه_ أُكثر المشي في الخيمة بقلق كلما اقترب موعد الانتخابات، ولا أذكر أنني فعلت ذلك، ثم تبين لي فيما بعد أنه كان

يسعى بين الشباب أثناء غيابي يدعوهم إلى عدم انتخاب أبي مالك مع أنه لم يقع بيني وبينه سوء تفاهم قط. أما بقية الشباب، فقلة قليلة منهم انتقدوا أنني كنت أعطي اهتمامي كله للأقسام الأخرى التي أخرج إليها طيلة أيام الأسبوع، وأنني أركن إلى الهيئة التنظيمية في القسم كي تتصرف بشكل كامل. أما ما يزيد على الثلاثين من بين الأربعين فحملوا المرحوم وقريبه المسئولية.

كان ما حصل مع ذلك الشاب صورة من أشكال المعاناة يسببها أفراد في المعتقل، للأمير العام ولمجلس الشورى العام، بعضهم شباب ومعظمهم كهول يرون أن سن الواحد منهم وما له من سابقة في التنظيم يعطيهم الحق في تجاوز القوانين التنظيمية، كما أن كثيرًا من المعتقلين يرفض بالدافع الذاتي أن يقوم بدور في قيادة التنظيم أو حتى في إدارة شؤونه اليومية كالمطبخ أو إمارة القسم أو العمل إدارية أو ما أشبه ذلك، كي يريح رأسه، وقد واجهنا أنماطًا منهم كانت تتعبنا تعبًا كثيرًا. وكان أسوأهم على الإطلاق عناصر لا تنفع وتظل مصدرًا للمتاعب.

وكنت ألفت أنظار الشباب إلى أن الذي يتحمل المسؤولية وما فيها من متاعب يظل أفضل مكانة عند التنظيم ممن لا يتحملها، وسيعرف له ذلك ما دام في المعتقل وبعد أن يمن الله عليه بالفرج.

الدار وعاصم

أما الدار فكنا نسكن بالأجرة في شارع المريج بنابلس في شقة بأجرة عالية، وكان مفهومًا لنا أن الحل الوحيد لهذه المشكلة إنما يكون في شراء شقة ولم يكن شراء شقة غير مشطبة أمرًا مجديًا؛ لأننا سندفع المقدم ونقسط الباقي أقساطًا شهرية على سنوات كثيرة مما يلغي إمكانية التشطيب لمن دخله محدود مثلنا، وكان الحل أن نعثر على شقة مشطبة جاهزة للسكن، فنتدبر القسط الشهري الذي سيحل محل الأجرة. وفي منتصف عام 2005 قال الأهل لي بالهاتف: إن هنالك شقة مشطبة جاهزة للسكن وصاحبها اشتراها ليؤجرها للطلاب إلا أنه لم يعد راغبًا في ذلك، وقالوا: إنها شقة جميلة وكبيرة وشروط

بيعها مغرية وصاحبها من تلاميذك السابقين، لذا فهو على استعداد لأن يسهل شروط البيع، فوافقت فورًا وبسرور كبير على هذه الصفقة التي كانت أمنية. وبالفعل تمت خطة الشراء بمبلغ مقدم والباقي بالتقسيط، وانتقلت الأسرة إلى الدار الجديدة المملوكة لا المستأجرة، وكل شيء كان بحمد الله موفقًا ميسرًا.

أما عاصم فهو في الأسرة حكاية تختلف عن كل ما حولها. فهو شاب متفتح وبالغ النشاط والحيوية وكان في صيف 2005 قد أكمل السنة الجامعية الثانية في قسم الصحافة والإعلام بجامعة النجاح، وكان يستعد للفصل الصيفي (الكورس الصيفي)، فاختارته الجامعة لدورة تدريبية في قناة الجزيرة الفضائية في قطر، فلم يسجل لذلك الفصل انتظارًا للسفر. وبعد أن ضاع عليه الفصل قيل له إن قناة الجزيرة لا تريد طالبًا في السنة الثانية، لكنها تريد خريجًا. أصابه الإحباط، لكنه كان يعزي نفسه بأنه مرشح لبعثة إلى ألمانيا في دورة مقدارها ستة أشهر تدريب على العمل الصحفي وتكاليفها مغطاة بالكامل وسيتعلم خلالها اللغة الألمانية ويحصل على شهادة ستهيئ له سبل العمل، وثمة إمكانية أن يتهيأ له عمل بعد الدورة لمدة ستة أشهر أخرى، فيقضي في ألمانيا سنة كاملة تعود عليه بالنفع المادي والمعنوي حاضرًا ومستقبلًا. إذًا، فالإحباط الذي شعر به من خسرانه الدورة في قناة الجزيرة في قطر وخسرانه في الوقت نفسه الفصل الصيفي من الدراسة، سرعان ما زال وانشغل عاصم بنشاط مخيم الزاجل (برنامج التبادل الشبابي الدولي) حيث يجيء شباب وشابات من أوروبا وآسيا وأمريكا أثناء الإجازة الصيفية ويقام لهم بإشراف جامعة النجاح، مخيم في أحد المراكز الاجتماعية أو التعليمية يمارسون فيه نشاطات مختلفة من ثقافية وتدريبية واجتماعية.

كان عاصم يعمل في تنسيق النشاطات التي ينفذها المخيم، مساعدًا للأستاذين علاء أبو ظهير وسائد أبو حجلة المسئولين في دائرة العلاقات العامة للجامعة، وانتهى الفصل الصيفي وبدأ العام الدراسي الجديد في أيلول 2005، ولم يسجل عاصم لذلك الفصل الذي هو بالنسبة له بداية السنة الثالثة الجامعية؛ لأنه سيسافر إلى ألمانيا في أواخر ذلك الشهر.

كان عاصم منهمكًا في شراء ما يلزمه من أغراض شخصية لرحلة ألمانيا، وشراء

الهدايا لعمه وعمته وخالته في الأردن، في حين أن شقيقه حمزة كان يعمل جاهدًا للحصول على مقعد في إحدى الجامعات السورية، ولم نضع في حسباننا أن كليهما قد يكون مطلوبًا للاحتلال وبالتالي سيُمنع من مواصلة السفر. لقد كانت عواطف عاصم وأفكاره كلها مرتبطة بسفره المأمول، لدرجة أنه أهمل أخذ العلاج لمرض الكرنز الذي كان يعاني منه، فقد سمع أن في ألمانيا علاجًا فعالًا لهذا الداء المقيم.

كان الخطأ الكبير الذي ارتكبته أنني أعلم كما يعلم عاصم أن عليه اعترافًا من بعض أصدقائه المعتقلين حول مشاركته إياهم في نشاط تحت لواء الجهاد الإسلامي، وكان المحقق قد سألني عنه في جلسة تحقيق، فنفيت أن يكون له أي نشاط خارج حدود الزاجل (برنامج التبادل الشبابي)، وكنت مقتنعًا بما أقول. كان المفروض أن أوجه عاصمًا إلى التسجيل للفصل الأول من السنة الثالثة في النجاح وأن ينتظم في الدراسة إلى أن يحين موعد سفره فإن سمحوا له بالسفر كان به، وإلا، لم يخسر الفصل الدراسي. لم أنبهه إلى ذلك وكان اتصالي الهاتفي به وبالأسرة يوميًا. فكيف ارتكبت هذا الخطأ؟ إنه أحد الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي؛ لأنني مسير لا مخير. كان عذري أنني لم أرغب في أن أنكد عليه وهو يعد نفسه للسفر، من ناحية، ومن ناحية أخرى كان التسجيل يحتاج إلى رسوم وقد سجلنا في الوقت نفسه حمزة والتحق بجامعة النجاح بعد أن يئس من تحصيل مقعد في جامعة دمشق، في وقت كانت ظروفنا المادية صعبة بعد دفع مقدم ثمن الدار وانتقال الأسرة إليها وما صاحب ذلك من إكمال النقص في الشقة وتكاليف النقل وتسديد ما علينا لصاحب الشقة المستأجرة، كل ذلك اجتمع في وقت واحد واضطرنا إلى الاستدانة.

وكان استعداد عاصم للسفر يشكل عبئًا ماديًا غير قليل، فكانت تلك الفترة وهي أيلول 2005 فترة الأعباء المادية الثقيلة المتعددة الجوانب، وهذا ما دعاني إلى غض الطرف عن توجيهه إلى إجراء التدبير الاحترازي الآنف ذكره. ولكن هذا ليس عذرًا مقبولًا، فلو حملته على أن يوطن نفسه لاحتمال منعه من السفر، لما أصيب بكل هذا الإحباط واليأس القاتل الذي وقع فريسة له يوم أعادوه عن الجسر.

كنت يوم سفره في غاية التوتر والترقب وكذلك جميع الأسرة في نابلس. وكنت أتصل بالدار بشكل متواصل لأعرف ما حصل وفي كل مرة يقال لي: لم يظهر شيء حتى

الآن، وأخيرًا وبعد ظهر ذلك اليوم طرق مسامعي الخبر الذي لم استغربه: لقد أعيد عاصم عن الجسر وها هو في طريقه إلى البيت. اللهم أعنه على هذه النكسة فإنني أعرفه حساسًا ويؤثّر الإحباط على صحته؛ لأن التوتر يزيد هيجان الكرنز، الذي هو تلف في موضع من القولون يحتاج إلى العلاج الدائم.

انتظرت إلى أن وصل البيت، تكلمت معه فكانت نبرة الأسى الشديد غالبة على صوته الذي كان شبه مختنق. يا إلهي، أعِنْه فإنه يعاني معاناة شديدة. بذلت جهدي كي أخفف عنه، قلت له: إن الإنسان يعاني من نكسات وإحباطات في حياته تكون بمنزلة الصدمات الكهربائية التي تعالج صبره وقوة احتماله، وهذا اختبار لك، وأنا على يقين أنك أقوى من الصدمة، ثم إن هذا ليس نهاية العالم ولا نهاية الحياة بالنسبة لك، ثم إننا سنرفع لك قضية وسيستطيع المحامي، بإذن الله، أن يستخرج لك تصريح خروج. اتصلنا بمحام من الداخل ليرفع قضية ضد قرار الحكم العسكري فوافق ووعدنا بالعمل حالًا، ورفع عاصم لدى عودته من الجسر شكوى عن طريق محامي التضامن الدولي، وأرسل الارتباط قضيته إلى الإدارة المدنية في بيت إيل. ظل عاصم معلقًا بين اليأس والأمل، ودعاه الأمل إلى أن يجرب حظه على الجسر مرة أخرى إلا أنهم أعادوه ثانية. ثم جاء الجواب من بيت إيل بأنه يستطيع السفر شريطة أن يغيب أربع سنوات، هذا غير مقبول مطلقًا لا عنده ولا عندنا ولا عند أساتذته وزملائه في الجامعة. ظل المحامي يعدنا بأنه سيحصل له على تصريح خروج يغيب بمقتضاه سنة واحدة، وأخيرًا لم يعد بإمكانه أن يلتحق بالدورة في ألمانيا فقد حان وقتها والتحق بها من التحق من الطلاب من أنحاء مختلفة من العالم وسارت عجلة الدراسة فيها، ولم يستطع المحامي أن يحصل له على التصريح المطلوب.

نظر عاصم في ظروفه فوجد أنه قد تبخرت أحلامه في السفر إلى ألمانيا، فهل بإمكانه أن يدرك الفصل الأول في النجاح؟ إن المسئولين في الجامعة متعاطفون معه بمن فيهم رئيس الجامعة الدكتور رامي الحمد الله، ولكن الفصل قد فاته، ومن المستحيل إدراكه.

تأمل عاصم في أوضاعه وهو النشيط المتفتح للحياة والحالم بمستقبل زاهر، إنه لم يحصل على دورة تلفزيون الجزيرة، وقد أضاع الفصل الدراسي الصيفي، وضاعت منه

البعثة إلى ألمانيا، ولم يدرس الفصل الأول من سنته الجامعية الثالثة، وها هم زملاؤه يتابعون دراستهم وهو قاعد في البيت، لا لذنب اقترفه إلا لكونه متميزًا ولأن الجامعة خصته بالبعثة من بين زملائه جميعهم، ولا أمل له في الخروج في مستقبل الأيام لأن المخابرات الإسرائيلية وضعت على اسمه علامة وسيتخلف بالتالي عن زملائه وسيسبقونه إلى التخرج.

إنها حالة ليس لها إلا الله.

وبعد عاصم بدأ النكد يلاحق حمزة، لقد كثرت عليه الاعترافات من أصدقاء له سبقوه إلى السجن، إنه مطلوب إما للتصفية أو الاعتقال، أصبح مع انتهاء السنة 2005 مطاردًا ينتقل من مكان إلى مكان ولا يقر له قرار وانعكس ذلك توترًا وقلقًا عم الأسرة كلها وكان لي في السجن منه النصيب الأوفى.

والباقي أعظم

أما الشغل الأكبر في تلك الفترة، أي؛ الربع الأخير من عام 2005 فكان بالانتخابات التشريعية وموقف الجهاد الإسلامي منها. ظللت أؤكد للشباب في كل قسم أزوره على ثبات موقف الجهاد الإسلامي من مسالة الانتخابات التشريعية، وهو أنه يرفض المشاركة فيها؛ لأنها انتخابات تمت على أرضية اتفاقيات أوسلو التي يرفضها الجهاد الإسلامي رفضًا قاطعًا.

وكنت أحدث الشباب عن قناعتي وقناعة الغالبية العظمى في الجهاد الإسلامي بأن دخول التشريعي الفلسطيني هو عبارة عن شهادة زور مفادها أن اتفاقيات أوسلو مدعومة شعبيًا، وأن السلطة التي قامت على أساسها سلطة لها شرعية وفيها ديمقراطية، وكلا الأمرين لا وجود له بتاتًا.

بدأت حماس في تلك الفترة بإجراء استفتاء بين عناصرها حول موافقتهم أو عدم موافقتهم على دخول حركتهم الانتخابات التي ستجري يوم 25/ 01/ 2006، وكان كثير من عناصر حماس وبعض قياداتها يرى أنه لا ينبغي للحركة أن تدخل الانتخابات للمحظور الشرعي والمحظور السياسي إلا أن نتيجة الاستفتاء كانت موافقة ثلاثة أرباع

عناصر حماس على المشاركة في انتخابات التشريعي، فقررت الحركة نتيجة لذلك المشاركة في تلك الانتخابات ترشحًا وانتخابًا، واستجاب معظم من عارضوا الدخول لرأي الأكثرية، وقلة قليلة منهم غادروا الحركة وبعضهم كان في السجن فانتقل ليعيش تحت إطار الجهاد الإسلامي.

التقيت بعد الانتخابات بالقيادي البارز في حماس، الشيخ أبي مصعب، حسن يوسف، وقد أصبح عضوًا في المجلس التشريعي، وتربطني به معرفة وصداقة، وكان لقائي به في الحافلة المتجهة إلى محكمة عوفر، فأكد لي أنه لم يكن من رأيه دخول حماس للمجلس التشريعي إلا أن رأي الأغلبية هو السيد.

في تلك الفترة وخاصة في الشهر الأخير من عام 2005، اشتد الخلاف بين حماس والجهاد الإسلامي حول مسألة دخول التشريعي فالجهاد الإسلامي كما هو معروف رفض دخول الانتخابات باعتبار أنها من إفرازات أوسلو، وأشد ما كان يثير حماس قول شباب الجهاد الإسلامي في السجون: الانتخابات حرام[1]، فهم يعتقدون أن مسألة الحلال والحرام هم فقهاؤها.

ذهبت يومًا إلى أحد أقسام قلعة الآبار، وكان ثمة تقليد بين الحركتين أنه إذا جاء زائر قيادي من إحدى الحركتين، دعا عناصر الحركتين في القسم إلى درس أو محاضرة حول أمر يهم الحركة الإسلامية كلها، أو إلى تفسير سورة من القرآن الكريم. فقام الشباب عندنا بترتيب الخيمة ودعوا إخوانهم في حماس إلى محاضرة مشتركة، وكان

---

(1) الموقف الرسمي لحركة الجهاد الإسلامي من عدم المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي: «إن المحددات المتغيرة لقرار المشاركة أو عدم المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي تختلف من فصيل لآخر باختلاف المنطلقات الأيديولوجية والحسابات السياسية التي يتركز عليها تقدير الموقف لكل طرف. بالنسبة لنا في حركة الجهاد الإسلامي، فإن الأسباب التي دعتنا إلى مقاطعة هذه الانتخابات عام 1996 لم يتغير منها شيء بتقديرنا، بل كان التغيير نحو الأسوأ». ولقراءة الأسباب الموضوعية والمباشرة من عدم المشاركة بالانتخابات في المجلس التشريعي بالإمكان الرجوع إلى نشرة غير دورية اسمها «النهج» صادرة عن حركة الجهاد الإسلامي، العدد3، 30/ 11/ 2005م.

المفروض أن أتحدث إليهم في موضوع مشترك وأن أجتنب الموضوع الخلافي، فهممت أن أتحدث إليهم عن تفسير سورة «صاد» ولكن بعد أن التأم الجمع وجلس كل في مكانه، وجدتني أتحدث إليهم عن الموضوع الذي يشغل بال الجميع وهو الانتخابات التشريعية العتيدة، وأكدت لهم على حرمتها؛ لأنها تساهم في تثبيت اتفاقيات أوسلو في أذهان العالم وتعطيها صورة زائفة من الشرعية، وحدثتهم عن فشل المجالس النيابية في العالم الثالث الذي نحن جزء منه، وأن مجلسنا التشريعي لم يحل ولم يربط ولم ينكر منكرًا ولم يعرف معروفًا في عشر سنوات من عمله تحت قيادة عرفات وأجهزته الأمنية، فكيف يتوقع منه أن يقدم خيرًا للشعب الفلسطيني في عهد عباس، ما دام الحكم للأجهزة الأمنية وما دام القضاء مهمشًا وما دمنا تحت الاحتلال؟

لم تعجب أفكاري الشباب من حماس وانفضوا وعلى وجوههم غير علامات الرضا.

كنا ذات يوم في تلك الفترة في الحافلة، متوجهين إلى موقع زيارة الأهل، وكنت في مقدمة الحافلة وكان الشيخ أحمد الحاج علي في الجزء الخلفي منها، فقال له أحدهم بصوت سمعه جميع الركاب: يا أبا علي، هنالك من يقول إن المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي حرام. فرد عليه بصوت عالٍ يسمعه الجميع: إن الذي يقول ذلك لا يعرف شيئًا عن الحرام؛ هذه انتخابات، من أراد أن يدخلها فليدخلها ومن أراد أن يبتعد عنها فليفعل ولا علاقة لها بالحلال والحرام.

وفي معرض الدعاية والدعاية المضادة، كانت تأتيني رسائل من شباب الجهاد من أقسام مختلفة تتفق جميعًا في المضمون، وإلى حد كبير في النص على النحو التالي: تقول حماس: إن الجهاد الإسلامي لا يريد دخول انتخابات التشريعي؛ لأنه فصيل صغير، لا يضمن لنفسه أية مقاعد، فما رد الحركة على هذا القول؟

وكنت أرد على كل رسالة بالجواب التالي:

أولًا: الجهاد الإسلامي يهمه المبدأ ولا يلتفت إلى المصلحة، فهو يرفض المشاركة؛ لأن له منها موقفًا مبدئيًا ثابتًا.

ثانيًـا: إن حركـة الجهـاد الإسـلامي هـي التنظيـم الثالـث عـلى السـاحة الفلسـطينية وفقًـا لجميـع الإحصائيـات واسـتطلاعات الـرأي.

ثالثًا: هنالك تنظيمات أصغر منا، ستدخل الانتخابات.

عـلى أن الهـمّ الأكـبر عنـد شـباب الجهـاد الإسـلامي كان عـزوف قيـادة الحركـة عـن إعـلان حرمـة الدخـول في انتخابـات المجلـس التشريعـي. كانـوا يسـتمعون إلى المسـؤولين في غـزة أو في دمشـق وعـلى رأسـهم الأمـين العـام، يتحدثـون عـن الـضرر السـياسي عـلى القضيـة الفلسـطينية والشـعب الفلسـطيني الـذي أحدثتـه اتفاقيـات أوسـلو وأن المجلـس التشريعـي جـزء مـن هـذه الاتفاقيـات والمشـاركة فيـه تعنـي الاعـتراف الواقعـي والقانـوني والعمـلي بهـذه الاتفاقيـات المرفوضـة وكثـير منهـم لا يجـد ذلـك كافيًـا.

الشـباب يعتـبرون رفـض الحركـة المشـاركة في العمليـة السياسـية كلهـا هـو الموقـف الـذي يرضيهـم ويزيـد التفافهـم حـول الحركـة إلا أنهـم لا يكفـون عـن مطالبـة الحركـة أن تعلـن أن دخـول التشريعـي حـرام شرعًـا. فقمـت بزيـارة للأقسـام كلهـا وتحدثـت مـع الشـباب حـول هـذا الأمـر، ومـا دام مطلبهـم في كل قسـم واحدًا فـإن ردي عليـه كان واحدًا:

كان حديثي إلى الشباب في كل قسم على النحو التالي:

بـادئ ذي بـدء إنني معكـم في اعتبـار أن دخـول المجلس التشريعي الفلسـطيني حرام شرعًـا، اتفاقيـات أوسـلو وبعدهـا خطـة خريطـة الطريـق حـرام لا شـك فيـه، والتشريعـي جـزء مـن هـذه الاتفاقيـات ومـا ينطبـق عـلى الـكل، ينطبـق عـلى الجـزء. إن المشـاركة في المجلـس التشريعـي الفلسـطيني سـتعني الاعـتراف العمـلي باتفاقيـات أوسـلو وبالسـلطة الفلسـطينية، وهـذا معنـاه الموافقـة عـلى أمرٍ حـرام، كـما أنـه سـيؤدي إلى توجيـه ضربـة مؤلمـة إلى معـارضي التنـازل عـن أرض فلسـطين، ويـؤدي إلى ترسـيخ أقـدام المتنازلـين. ذلـك أن عضويـة المجلـس التشريعـي الفلسـطيني هـي شـهادة زور عـلى شرعيـة مزعومـة للسـلطة وديمقراطيـة كاذبـة لنظامهـا السـياسي.

إذا كان دخول المجلس النيـابي حـلالًا في أي مـكان في العـالم فإنـه حـرام في فلسـطين؛

لأن دول العالم تقيم مجالس نيابية على أرض لها وهي دول تتمتع _على الأقل_ بالحد الأدنى من الاستقلال. والمجلس التشريعي الفلسطيني يساهم في تثبيت التنازل عن أرض هي ملك الأمة الإسلامية جمعاء وليست ملكًا حصريًا لهؤلاء البائعين.

المجالس النيابية في العالم لها ولو نظريًا بالنسبة للكثير منها، حق إصدار التشريعات ومراقبة الاتفاقيات التي تعقدها الدولة مع الدول الأخرى ورفضها وإلغائها إذا وجد أنها تتعارض مع مصلحة الأمة، والمجلس التشريعي الفلسطيني، وبموجب اتفاقيات أوسلو وقوانين منظمة التحرير ليس له حق في إلغاء أية اتفاقيات تعقدها منظمة التحرير الفلسطينية مع أية جهة دولية مهما كانت جائرة على الشعب ومهما كانت متنازلة عن الأرض، وإنما يقتصر دوره على مراقبة نزاهة السلطة الفلسطينية ومحاربة الفساد فيها وإصدار اللوائح والقوانين المحلية التي تنظم عمل الوزارات والدوائر الحكومية المختلفة في السلطة الفلسطينية، مع العلم أن الفساد ترعاه الشخصيات النافذة في السلطة وفي منظمة التحرير وتحميه الأجهزة الأمنية الفلسطينية.

ولقد ضُرب أعضاء في التشريعي وأهينوا في أكثر من مناسبة دون أن يدفعوا عن أنفسهم الإهانة، فكيف يدفعون عن الشعب ظلمًا أو تعديًا؟

إن فساد السلطة كان أشهر من نار على علم ولم يكن للمجلس التشريعي حول ولا قوة في مواجهته، بل إن كثيرين من أعضاء ذلك المجلس كانوا فاسدين.

ولهذه الأسباب السابقة يمتنع الجهاد الإسلامي عن المشاركة في المجلس التشريعي أو في السلطة، لكن قيادة الجهاد الإسلامي لا ترد امتناعها عن دخول التشريعي إلى أسباب شرعية؛ لأنها إن فعلت ذلك ورطت نفسها في حرب فتاوى لمشايخ معتبرين لهم عند جماهير الشعب احترامهم.

سيقول الإخوة في حماس: لقد أباح الاشتراك في الانتخابات ابن باز وابن عثيمين. أأنتم أفقه منهما؟

لقد أباحها الشيخ يوسف القرضاوي. أأنتم أفهم منه؟

لقد أباحها السيد حسن نصر الله والشيخ محمد حسين فضل الله.

لقد أباحها الشيخ حامد البيتاوي وسائر مشايخ الحركة الإسلامية في فلسطين.

هل تعرفون أنتم الحلال والحرام أكثر منهم؟

صحيح إنه يمكن القول: المشايخ الذين هم من خارج فلسطين إنما أفتوا لغير الحالة الفلسطينية، وأما الذين أفتوا من داخل فلسطين فإنما أبدوا وجهة نظر خالفهم عليها مشايخ آخرون.

في كل الأحوال كنا سنقع في جدل له أول وليس له آخر.

إن المناظر الناجح ليس ذلك الذي يسوق الحقائق كلها، بل هو الذي ينتقى من الحقائق ما يدعم حجته ولا يطرح من الحجج ما يفتح عليه أبوابًا لا يستطيع إغلاقها.

إنه ذكاء ودهاء من حركة الجهاد الإسلامي أن تختار من الأسباب لعزوفها عن التشريعي ما لا يستطيع الآخرون نقضه، وأن تبتعد عن كل ما يفتح لها أبوابًا من المراء العقيم.

وكنت أُضيف: لقد اشتركت في مناظرة تلفزيونية مع أحد وزراء السلطة الفلسطينية في رام الله في شهر آب سنة 2000 وجاءتني أسئلة من المستمعين حول سبب امتناع الجهاد الإسلامي عن المشاركة في المجلس التشريعي، وكان ردي يدور حول كون المجلس منبثقًا عن اتفاقيات أوسلو والدخول فيه يعني عمليًا وقانونيًا وواقعيًا الاعتراف بتلك الاتفاقيات المرفوضة، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية لعدم فاعلية هذا المجلس وبالتالي انعدام الجدوى من دخوله، وفي أحد الردود قلت: إن اتفاقيات أوسلو حرام شرعًا وإن المجلس التشريعي بعض مقرراتها والدخول فيه يعني الاعتراف بتلك الاتفاقيات وهذا حرام على حرام. فتلقيت ردودًا تنفي الحرمة وتستشهد بصلح الحديبية، وتقول إن المجلس التشريعي هو ميدان محاربة الفساد وإن الإعراض عن دخوله يعني أن يسرح الفساد ويمرح ولا يجد من يقف في وجهه، وإن التحريم الذي تلجأون إليه أيها الإسلاميون يعني أنكم تغلفون مواقفكم بغلاف ديني كي لا تعود قابلة للمناقشة أو المراجعة أو الاجتهاد المخالف لموقفكم.

عندها أدركت أنني أخطأت حين تطرقت إلى الحرمة الشرعية التي هي استنتاج اجتهادي غير متفق عليه، ففتحت على نفسي بابًا من المراء الذي لا نهاية له.

وكنت أختم حديثي مع الشباب بالقول: إنكم يا شباب الجهاد الإسلامي إنما تريدون النتيجة وتتفقون جميعًا عليها: الجهاد الإسلامي لن يشارك في انتخابات المجلس التشريعي بحال من الأحوال. فمن اعتبر ذلك الموقف قائمًا على الاجتهاد الشرعي المحرِّم لهذه المشاركة، فله ذلك، ومن اعتبر الضرر السياسي الناتج عن المشاركة هو السبب المانع، فله ذلك، المهم أن حركة الجهاد الإسلامي لن ترتكب معصية لله تعالى ولن تقترف خطيئة سياسية بدخولها المجلس التشريعي.

في شهر تشرين الأول من عام 2005 وقد أكملت سنة في السجن، ولدى انتهاء فترة الحكم الإداري الأخيرة لم يأتني تمديد جديد حتى اليوم الأخير وفي اليوم الأخير جاء التمديد لعديدين عند المغرب ولم يأتني فأصبحت لا أكاد أشك في الفرج، وكان الأهل ينتظرون ويعدون العدة للاستقبال، وعند منتصف الليل جاءني التمديد.

ومع بداية السنة الجديدة 2006 كنت لا أزال في قسم «ب1» في القلعة المفتوحة، وفي السادس عشر من ذلك الشهر (كانون الثاني/ 2006)، وأثناء المكالمة الهاتفية معكم أخبرتني زوجتي بخبر وفاة ابن عمتي أبي إبراهيم، حامد عبد الله محمد من قرية تلفيت. يا لها من فاجعة. إنه ابن عمتي وصديقي منذ الطفولة، كان ابنه إبراهيم في القسم المقابل عند حركة حماس. ذهبت في اليوم التالي إليه بعد الظهر ومكثت عنده إلى حين انتهاء الزيارات قبيل المغرب، ثم عدت أدراجي إلى القسم الذي أقيم فيه.

من النقب إلى أيالون

عند منتصف الليل بعد عودتي من ذلك القسم، جاءني الأخ والصديق مصطفى عوض، وتلطف في إخباري الخبر: يبدو أن أحدًا وشى بك، جاءك نقل إلى المركزي. وسألت: أي مركزي؟ فقال: لا أعرف حتى الآن.

وجاء الشباب مودعين وبدأوا يلملمون أغراضي ويضعونها في الحقائب

والأكياس، وكان الاحتمال الأكبر عندهم أن النقل سيكون إلى سجن الرملة، ويبدأ المشوار عادة عند الفجر، وبالفعل، عند الانتهاء من صلاة الصبح نادت الإدارة على اسمي وأسماء آخرين منقولين أو مفرج عنهم، ويتم التجمع أولًا في ساحة من ساحات السجن، ثم تأتي الحافلات فتحمل كلًا إلى وجهته.

كان مشواري إلى سجن الرملة في حافلة تحملني وحدي، وسارت الحافلة من النقب إلى الرملة فاستمتعت بالفرجة على المزارع والبيارات والحقول على طول الطريق، وهي نزهة لا تتيسر لابن الضفة الغربية بغير هذه الطريقة، في تلك الأمكنة الجميلة، المطورة زراعيًا ومنظرها يسر الناظرين.

وقبيل العصر وصلت سجن الرملة وبعد الإجراءات العديدة انتظرت ومعي أغراضي في غرفة انتظار إلى أن جاء موعد التفتيش المسائي الذي يكون في حوالي الرابعة والنصف بعد العصر، ووجدتني أدخل سجن عزل الرملة المسمى أيالون قسم «13»، فكان أول استقبال لي من قبل شيخ حمساوي كنت قد عرفته في زياراتي للقسم الذي كان فيه في النقب، وها أنا أجده قد سبقني إلى أيالون، إنه الدكتور محمد أبو جحيشة، المرشح للمجلس التشريعي في بلده دورا ثم المنتخب لعضويته، والمدرس في كلية الشريعة بجامعة الخليل.

وجدت الأصدقاء من حركة الجهاد الإسلامي: عادل حريبات وفايق أبو عادي ووليد عوض، ومن الجبهة الشعبية ساجد مليطات. كنا جميعًا ستة أشخاص، ثم صرنا ننقص ونزيد، إلى أن بلغ عددنا عشرة في بعض الأوقات وهو أقصى ما يحتمله القسم؛ إذ ليس فيه إلا عشرة أبراش، فالقسم كله عبارة عن غرفة واحدة فقط، وهي غرفة واسعة وقديمة ولها ساحتان صغيرتان لا تتسع أي منهما لثلاثة أشخاص إذا أرادوا أن يسيروا جنبًا إلى جنب إلا بصعوبة بالغة.

كان في الغرفة خمس كاميرات للتصوير تنقل إلى الإدارة كل حركة وصوت يجري داخل الغرفة. وفي الساحتين كاميرات عديدة أيضًا ترصد حركة المعتقلين وهم يتمشون في الساحة.

رأيت أول الإيجابيات في هذا النقل أنني لن أتحمل متاعب ثلاثمائة معتقل كما كان الحال في النقب، ولن أقضي أوقاتي في التنقل بين الأقسام ولن أغرق حتى الأذنين في أنواع لا تحصى من المشاكل والمطالب. سأقضي وقتي هنا في حفظ القرآن الكريم ومتابعة الأخبار السياسية براحة وهدوء ومشاهدة البرامج التلفزيونية، وسأتمكن من تخصيص ما أريد من وقت للقراءة والثقافة. والإيجابية الثانية هي رغد العيش في هذا القسم بشكل لا يتوفر في أي سجن آخر، فالفواكه والخضراوات متوفرة بأكثر مما يحتاج إليه المعتقلون وكذلك اللحوم والدجاج تأتي بكميات وافرة في عدة أيام من الأسبوع، وكانت الكنتينة أيضًا رغدة، فيها كل ما نحتاج إليه وتأتينا مخصصات من السلطة ومن تنظيم الجهاد الإسلامي لأبناء الجهاد، ويتفقدنا المحامي من قبل الحركة وينقل إليها مطالبنا فلا تتأخر في تلبيتها.

ولكن، لم يكن ثمة وسيلة اتصال بالأهل كما كان الحال في النقب والاتصال كان ميزة تعادل ميزات المأكل والمشرب المتوفرة في أيالون بل تزيد عليها.

وصلت يوم 18/ 01/ 2006. وفي اليوم التالي نودي عليّ للزيارة. كان الأمر مدهشًا وغريبًا بالنسبة لي. كيف عرفت زوجتي أنني هنا وكيف استطاعت أن تأتيني بهذه السرعة.

كان الطلب مفاجئًا وملحًا إلى حد أنه لم يكن لديَّ متسع من الوقت لكي أصلح هندامي، فذهبت إلى الزيارة بهندام غير أنيق، ولكنني سعدت بها على أبعد حد، وكانت الزيارة سريعة وحملت لي غطاءً صوفيًا سميكًا كنت بحاجة إليه وأسرَّت لي بالأخبار التي لا تنقل بالهاتف وجلها يدور حول عاصم المحبط وحمزة المطارد، ولكنها نقلتها إلي بأسلوب لا تبدو معه تلك المشاكل ذات بال كي لا تحمِّلني الهموم. وسرعان ما انتهت الزيارة، ثم عدت إلى القسم سعيدًا.

تعرفت على نظام الحياة في قسم العزل ذلك: يُفتح باب الغرفة بالكهرباء عن بُعد، الساعة العاشرة للفسحة (الفورة) الأولى وتستمر ساعتين كاملتين، أي؛ حتى الساعة الثانية عشرة بالضبط، فندخل الغرفة ويغلق الباب فنصلي الظهر ويكون

المسؤول عن الطعام قد أعد لنا إفطارًا غنيًا وشهيًا فنتناول إفطارنا ونجلس نقرأ القرآن، ثم بعد ذلك يأوي كل منا إلى برشه ينظر إلى التلفزيون أو يقرأ في كتاب حتى الساعة الثانية، ثم يفتح الباب ثانية إلى الرابعة فنتجول في الساحة وفينا من يؤثر البقاء في الغرفة للانصراف إلى شأن من شؤونه. وندخل الغرفة الساعة الرابعة فيغلق الباب حتى الصباح. نصلي المغرب ثم نتناول العَشاء الذي يكون قد أعده المسؤول عن الطعام، ثم نصلي صلاة العشاء وينصرف كل منا إلى شانه، إما أن يقرأ أو يراقب التلفزيون أو يستدفئ في الفراش.

جاء يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني، وجرت الانتخابات التشريعية بمشاركة جميع الفصائل الفلسطينية ما عدا الجهاد الإسلامي. وظل الدكتور أبو جحيشة في حالة توتر حتى جاء أهله لزيارته بعد بضعة أيام من ذلك التاريخ فبشروه بأنه نجح، وبذلك فهو الآن عضو في المجلس التشريعي فانقلب من الزيارة في منتهى السعادة فباركنا له بالفوز وقد سرّنا ما سرّه، على الرغم من أننا، في الجهاد الإسلامي لم نؤيد المشاركة في التشريعي، وقد اتفقنا على ألا نثير مع الإخوة في حماس أية مواضيع خلافية، لقد كنا حريصين على أن تظل المودة سيدة الموقف، ولكن نقاشًا قصيرًا وقع بيني وبين الدكتور أبي جحيشة عندما شكلت حماس السلطة الفلسطينية.

قلت له: لقد وقعت حماس في الفخ وسوف تضطر إلى التنازل والاعتراف.

فقال: لن تتنازل حماس ولن تعترف.

قلت: الأيام بيننا.

إلا أن اختلاف الرأي لم يُفسد للود بيننا قضية.

كانت أخبار التطورات المتتالية التي أعقبت الانتخابات مثار اهتمام للجميع، فأصبح للتلفزيون حيز كبير من وقتنا.

عاصم وحمزة

في آخر كانون الثاني، أي؛ بعد وصولي إلى القسم باثني عشر يومًا، وبينما كنت أتابع أخبار الصباح في الإذاعة الإسرائيلية صباح يوم 30/ 01/ 2006 ، سمعت خبرًا يفيد أن قوات الأمن «الإسرائيلية» داهمت مدينة نابلس واعتقلت المطلوب يوسف حمزة. فلم يخامرني الشك في أن المعتقل هو حمزة يوسف، ثم جاءتنا جريدة القدس بعد ذلك فإذا فيها الخبر والاسم الصحيح: حمزة يوسف. يا لله، فهو الآن تحت التحقيق المكثف، أسال الله أن يعينه ويخفف عنه. وبعد بضعة أيام جاءت زوجة عادل حريبات تزوره، وعندما انقلب من الزيارة وبعد أن تلطف في الحديث قال لي: أريد أن أخبرك بخبر، عاصم بعافية، إنه في المستشفى، إنه مصاب بالسحايا، وهذا المرض له علاج الآن.

يا إلهي: حمزة تحت التحقيق العسكري وعاصم يرقد في المستشفى غائبًا عن الوعي مصابًا بمرض من أشد الأمراض فتكًا ووالدهم في سجن العدو، في العزل... إنا لله وإنا إليه راجعون لا يكون إلا ما أراد الله جل جلاله.

حمزة سيخرج في النهاية من التحقيق وعاصم سيشفى بإذن الله سيجعل الله بعد عسر يسرا.

وجاءني المحامي بعد ذلك ونقل إلي ما قالت له زوجتي، إن عاصمًا في غيبوبة، وإن حمزة لا يزال في التحقيق. كنت أقضي الفسحة كلها تقريبًا وفي يدي المصحف أعمل على تحسين محفوظي من القرآن الكريم، فأردد آيات من السورة التي أعمل على حفظها تارة، ثم أعود إلى الدعاء الحار: اللهم اكتب الشفاء التام لعبدك عاصم والفرج لعبدك حمزة، اللهم يا برٌّ يا رحيم فرج عنا هذا الكرب وكل كرب، اللهم اجعل لنا بعد هذا العسر يسرا.

مر الأسبوع تلو الأسبوع وفي زيارة أخرى للمحامي قال لي: إن عاصمًا سيُنقل بعد خروجه من المستشفى إلى مركز «أبو ريا» للنقاهة، إنني أعرف أن مركز «أبو ريا» في رام الله ليس للنقاهة، إنه لتأهيل المعاقين، يا رب، لا أستطيع أن أفكر في هذا الأمر،

هـل سـيقضي عاصـم حياتـه معاقًـا؟ يـا رب، هـذا أمـر فـوق طاقتـه وفـوق احتمالـه، وهـذه فاجعـة ستظل تسـبب لنـا العـذاب مـا بقينـا وبقـي عاصـم. يـا إلهـي، هل أخـرج من السـجن فأجد عاصـمًا عـلى الكـرسي، يحـاول أن يقـف عـلى رجليـه لاسـتقبالي فلـن يسـتطيع، ويمـد إلي يـده مسـلّمًا فـلا تمتـد، سـأرى الأسـى في عينيـه فيشـتعل قلبـي حزنًـا ويتفتـت ألمًـا يـا إلهـي لطفـك ورحمتـك.

سـألت المحامـي الـذي جـاءني في منتصـف شـهر شـباط: هـل تعلـم أن داء السـحايا لـه عـلاج هـذه الأيـام؟ فقـال: لا علـم لي بهـذا الأمـر.

كانـت فـترة مـن حيـاتي لم أجـرّب مثلهـا قسـوة وصعوبـة عـلى نفسـي وكان أكثرهـا رهبـة في قلبـي أن يصبـح عاصـم معاقًـا.

تقدمت بطلب للسماح لي بمكالمة هاتفية، ولكن لم يأتني الرد.

ولكـن الله افـرغ عـلي الصـبر وكنـت أردد ليـلًا ونهـارًا: ومـن يتـوكل عـلى الله فهـو حسـبه، حسـبي الله ونعـم الوكيـل، إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون، ولم تمنعنـي هـذه الظـروف الصعبـة مـن أن أواصـل برنامجـي الفـردي المتمثـل في حفـظ القـرآن وقـراءة كتـب مختلفـة ومتابعـة الأخبـار السياسـية والبرامـج التلفزيونيـة، وبرنامجـي المشـترك مـع الإخـوة في الغرفـة، تـدارس القـرآن، قـراءة وتفسـيرًا، ومراجعـة اللغـة الإنجليزيـة في جلسـة تضمنـي ومحمـد أبـو جحيشـة ووليـد عـوض. نقـرأ أحيانًـا في صحيفـة «جـروزلم بوسـط» وأحيانًـا في قصـة مكتوبـة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة، مـن جملـة مـا يدخلـه الصليـب الأحمـر إلى السـجون. كان بـين أيدينـا قصـة «الأرض الطيبـة» للكاتبـة الأمريكيـة «بـيرل بَـك» وكنـا نقرأهـا باللغـة الإنجليزيـة بهـدف أن نتقـوى في اللغـة جاءتنـي أنبـاء عـن طريـق الـزوار أن عاصـمًا أفـاق مـن غيبوبتـه ونطـق. وفي يـوم الخميـس الموافـق 02/ 03/ 2006 جـاءني المحامـي أحمـد الخطيـب وأخـبرني أن حمـزة خـرج مـن التحقيـق وأنـه الآن في سـجن مجـدو. هـذا أحـد الهمّـين قـد فرّجـه الله بحمـده وشـكره.

ولكـن: مـاذا بشـأن عاصـم؟ فقـال: سـيُنقل قريبًـا إلى مركـز «أبـو ريـا» للنقاهـة. سـألته: هـل معنـى ذلـك أن عاصـمًا سـيخرج بإعاقـة؟ قـال: لا خـبرة لي بهـذا الأمـر، ثـم

أردف العبارة التي تقال بهدف التسليم للأمر الذي لا يستطيع الإنسان دفعه: الذي يسقط من السماء تتلقاه الأرض.

مرَّ يوم الجمعة ويوم السبت وقد تخلصت من أحد الهمين وأصبح ابتهالي لله مقتصرًا على طلب الشفاء لعاصم.

وفي يوم الأحد، في الفسحة الثانية، كان الجو باردًا وكنت أشعر بانقباض وأحاول أن أحفظ فأجدني غير قادر على الحفظ، وفي نهاية الفسحة، في الساعة الرابعة مساءً، جاءت مجموعة حرس السجن لتفقد الغرفة، وإجراء العدّ اليومي المعتاد، وبعد أن أكملوا مهمتهم نظر إليَّ الشرطي الدرزي «مِلْحِم» وقال: لك تلفون.

يا رب سلّم. ما هذا التلفون الآن وأيَّ خبر يحمله لي؟ أم لعلهم وافقوا على طلب المكالمة الهاتفية الذي كنت قد تقدمت به؟ لا بد أن الأمر كذلك، وإلا فماذا في التلفون؟ يا إلهي! ما أطول الطريق! إنها تزيد على خمسة عشر مترًا.

وقبل مواصلة السير إلى الطابق العلوي الذي فيه الإدارة وفيه التلفون، لا بد من أن يعرج المعتقل على غرفة يجري فيها تقييد يديه ورجليه. قال لي الضابط الدرزي الذي سيتولى اصطحابي إلى الطابق العلوي: إن القوانين تلزمنا بتقييدك. قلت: قيِّد. ازدادت وحشتي وتوجسي؛ فلماذا يخاطبني بهذا الإشفاق؟ ولماذا يسألني عن المدة المتبقية لي في السجن، ثم يتمنى لي الفرج؟ يبدو أنه يريد أن يقوي عزيمتي لأتحمل نبًا صعبًا. هل يحمل التلفون القادم شيئًا لا أستطيع مجرد التفكير فيه؟

وصعدنا الدرج وهو يتلطف في الكلام وأنا أزداد وحشة، ثم اجتزنا الممر إلى غرفة فيها ضابطة شرطة يهودية. طلبت مني الجلوس على كرسي أمامها، ثم سألتني بعربية خفيفة: ألك ولد مريض؟ بدأت أقطع الشك باليقين، وأخذت أهيئ نفسي للخبر. قلت لها: نعم.

- ما اسمه؟

- عاصم.

- كم سنة عمره؟

- عشرون سنة.

- ما مرضه؟ قلت لها في العربية: مرض السحايا.

- قالت: لم أفهم. فطلبت من الضابط الدرزي أن يترجم فقال: لا أعرف معناه بالعبرية. قلت لها بالإنجليزية: إنه تلف في غشاء الدماغ. فلم تفهم، ولكنها لم تعد تصر على معرفة اسم المرض ولكنها قالت: أنا آسفة. هذا تقرير يقول إنه مات. أنا آسفة.

إذًا، وقع المحذور وتحقق ما كنت بآمالي استبعده، وتمتمت: إنا لله وإنا إليه راجعون، إلا أن شيئًا كأنه نور شق قلبي بشكل مفاجئ وقال لي: ستلقى الله بثواب الصابرين. فقلت بصوت مسموع: الحمد لله رب العالمين. فأمرت الضابطة بإحضار كاس ماء وأصرّت عليَّ أن أشرب، فأبيت وتعللت بأنني لا أستطيع أن أشرب ويداي مقيدتان، فأمرت بفك القيود، فشربتُ الكأس وقلت: الحمد لله. ثم طلبت منها صورة عن التقرير فأمرتْ بأن يُصوَّر، وأعطتني نسخة، نظرت فيها فإذا هو تقرير من الدكتور ناجح زين الدين وفيه إثبات الوفاة وبيان لنوع المرض بالمصطلح الطبي.

عزاني الضابط الدرزي وهبطنا الدرج، ثم فك القيود من رجلي وفتح أبواب القسم، ودخلت الغرفة فإذا الإخوان كلهم ينتظرون عودتي بترقب وتوجس. أوصاهم الضابط بالاعتناء بي، وعزاني وأغلق الأبواب فعزاني الإخوة، ثم جلست على برشي وجاء الصديق أبو معاذ فجلس بجانبي قليلًا، ثم شعر أنني بحاجة إلى الراحة فتركني أتمدد.

لم أبْكِ، ولم تنزل لي دمعة، ولكنني كنت مأخوذًا مشدوهًا، تارة أفكر بعاصم الطفل والشاب وتارة بعاصم الجنازة وتارة أفكر بزوجتي ووالدتي وخالتي وابنتي أم همام، وبأولادي مالك ومحمد، اللذان تحملا رحلة الألم والمعاناة في المرض وفي الوفاة وفي ابني علي في الجزائر وحمزة في السجن وكما أفكر في الجنازة التي جرت يوم الجمعة يوم كنت غافلًا آكل وأشرب وأتسلى بالتلفزيون.

عاصم، أيها الوجه الحبيب، كان فيه خفة دم تلفت الأنظار. كان لا يفارق كتفي وهو صغير وظل يلازمني وأنا في القرية وقد بلغ من عمره خمس سنوات، إلى أن انتقلنا إلى نابلس، وكبر عاصم وكبر معه جماله وخفة روحه وكبر شغفي به إلى درجة كانت تثير انتباه باقي إخوته، ودخل عاصم الجامعة فكان له لفيف من الأصدقاء لم يكن لوالده عندما كان في الجامعة ولا لأحد من أشقائه. كلما ازداد شبابًا ازداد تألقًا وكان في الزاجل «برنامج التبادل الشبابي» الذي ترعاه جامعة النجاح، الأنشط والأكثر حيوية. هو من اختارت الجامعة من بين جميع زملائه وزميلاته ليمثل قسم الصحافة في دورة تدريبية في تلفزيون الجزيرة بقطر، ولكن الدورة لم تتم؛ لأن التلفزيون أراد خريجًا لا تلميذًا في السنة الثانية. وهو من اختارته الجامعة ليشارك في دورة في ألمانيا.

عندما وقع المكروه، صرت أردد في اليوم الواحد مرات ومرات قول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط:

وددت بأني كنت قُدِّمْتُ قَبْلَه وأن المنايا دونه صمدت صمدي
ولكن ربي شاء غير مشيئتي وللرب إنفاذ المشيئة لا العبد

وينصرف فكري إلى الجنازة: لقد سارت سيارة الموتى في شوارع نابلس بطبيعة الحال وفيها عاصم جثة بلا روح، ثم إلى حوارة، ثم زعترة ثم قرية قبلان، ثم تلفيت ثم جالود.

أين سُجِّيت جثته وأين غسلوه ومن غسله وكيف كانت جنازته وفي أية بقعة من المقبرة دفنوه. لم تكن هذه التصورات والأحلام تفارقني إلا دقائق معدودة، خاصة في الأيام الأولى من الفاجعة، بل كانت تعتادني كل وقت.

كنت أقضي معظم ساعات الليل وأنا أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وأتمثل بأشعار الذين رثوا أولادهم، وإنني أحفظ منها الكثير، وعندما يفيض بي كيل الحزن أتجه إلى الحمام، فأسمح للقليل من العبرات التي تنساب على وجهي، وأعود إلى التمشي في الغرفة، وظلت هذه حالتي في عزل أيالون إلى أن انتقلت منه.

بعد الفاجعة ببضعة أيام وصلتنا بعض أعداد جريدة القدس ومنها عدد الجمعة

03/ 03/ 2006، ونظر عادل في الصفحة الأولى فوجد فيها نعي عاصم فأعطاني إياها وما إن وقعت عيني على النعي حتى أجهشت بالبكاء ولففت وجهي بالصحيفة فانهمرت عليها قطرات كبيرة من الدمع فلم ألبث أن تمالكت أمري وأبعدت الصحيفة عن وجهي وقد تبللت بالدموع.

كان أول ما وصلني من الأهل بعد الفاجعة رسالة تعزية من صهري، أبي همام، كتبها في اليوم التالي للوفاة وشرح لي فيها لحظات وقوع الكارثة وكيف تلقاها أهل البيت، وكنت في أمس الحاجة إلى معرفة تفاصيل تلك اللحظات كي أعيش معها، وعزاني بأسلوبه البليغ مستخدمًا لغة الأدب وكان قد حصل على الدكتوراه في الأدب العربي قبل الحادثة بأيام معدودة. كانت رسالته أول وأبلغ تعزية أتلقاها.

بعد أيام بلَّغتني إدارة السجن أنها قررت السماح لي بإجراء مكالمة هاتفية. ذهبت برفقة الضابط الدرزي المسؤول عن القسم. دخلت على ضابط في مكتبه، فقدّم نفسه إليَّ أنه ضابط مخابرات السجن، ثم قال بلهجة ماكرة وهامسة: هل تتعاون معنا فيما نحتاج إليه؟

شعرت بالغضب والاشمئزاز وقلت له: لن أتعاون معكم. وكان عنده نوع من الحلوى إذ كان عندهم عيد الفصح، فقدمه إليَّ فرفضت، فقال: إنه يوم عيدنا وهذه الشوكولاتة بمناسبة العيد. فقلت له: لا أريد شوكولاتة ولا آكلها، فظهر الاستياء على وجهه، ثم استدعى الضابط الدرزي وغادر هو الغرفة.

كنت متوجسًا من أن الحزن العميق في قلب الوالدة الثكلى سيحول بينها وبين أن تكلمني بنبرة سليمة، ولكن أول ما أدخل الطمأنينة في قلبي أنها حيتني بصوت طبيعي وبلهجة بشوشة وحييتها باللهجة نفسها، ثم عزيتها وعزتني بالفقيد الحبيب باللهجة المطمئنة، فأعربت لها عن راحتي التامة لسماع صوتها وأني وجدتها عند حسن ظني فيها، فأنا أعلم أنها صبور وكبيرة القلب، ثم سألتها عن وفاة عاصم فأخبرتني أنه توفي في الدار في يوم خروجه من المستشفى وشرحت لي بإيجاز مراحل مرضه، وقالت: كان ذلك قبل إلقاء القبض على حمزة، وهنا سألني الضابط: ألك ولد معتقل؟

وكان الحديث يجري بالصوت المسموع (السبيكر) وكان الضابط يسجل الحديث الذي يجري. ثم تحدثت إلى والدتي التي وجدت أنها في نابلس مع زوجتي، فعزيتها وعزتني وباللهجة الصافية المطمئنة التي تحدثت بها زوجتي. وسألت عن خالتي أم عبد المجيد التي كانت تحب عاصمًا محبتها لروحها أو أكثر، فأخبرتني والدتي أن خالتي تبكي وتنوح عندما تعود إلى وعيها ولكنها كثيرًا ما تهجر فتنسى كل شيء. كان وقت المكالمة عشر دقائق، وسرعان ما انتهت وعدت إلى القسم مطمئنًا إلى أن الأهل قد تعاملوا مع الفاجعة بصبر وقوة احتمال. وكانت أفكاري كثيرًا ما تنصرف إلى مالك ومحمد، كم تحملا في هذه الفاجعة وأشعر بالاطمئنان وأحمد الله أنني أنجبت رجالًا يُركَن إليهم في السراء والضراء.

أصبحت أترقب أن أرى عاصمًا في المنام، وبعد ليالٍ رأيت فيما يرى النائم أن عددًا كبيرًا من الناس جالسون وأنا واحد منهم وأمامنا قصر عظيم، فنادى منادٍ: تعال يا عاصم فقام ليصعد إلى أعلى وقال له: هنيئًا لك يا عاصم، قام عاصم إلى حيثُ دُعي دون أن يلتفت إليّ وعندما صحوت شعرت بالاطمئنان إلى أن هذا الحلم من المبشِّرات بأن عاصمًا في رحمة الله.

بعد شهر من وفاة عاصم، جاءت زوجتي لزيارتي وكان كل الحديث عن عاصم، لقد قصّت عليّ ما جرى له بالتفصيل، ولم تستطع كما لم أستطع أن نمنع عبرات من أن تنهمر من عيوننا وهي تقص عليّ أحداث أكبر مصيبة حلت بي وبها في حياتنا. كنت بأمس الحاجة إلى هذه الزيارة وإلى معرفة تفاصيل ما جرى لفلذة الكبد عاصم لكي يكون تفكيري ومواجدي التي لا تفارقني قائمين على أساس من الحقيقة. صرت بعد هذه الزيارة أسارع بأفكاري إلى استعادة شريط الأحداث كما حصلت لا كما تخيلتها قبل ذلك، وبهذا سرعان ما بدأت تهدأ أشجاني وأُصبِّر نفسي بأنني سألقى عاصمًا في يوم قد لا يكون بعيدًا، وكل آتٍ قريب.

سارت حياتنا بشكل طبيعي وجاءني تجديد للاعتقال الإداري، وذهبت إلى المحكمة في عوفر، والمشوار من الرملة إلى عوفر ليس طويلًا والطريق تستغرق ثلاثة

أرباع الساعة أو أقل، ولكن المتعب هو الانتظار في زنازين عوفر من ساعة الوصول إلى أن تنتهي محاكمة آخر شخص في الزنازين، وتبدأ رحلة العودة في حوالي الخامسة والنصف. الزنازين في عوفر إما باردة جدًا، وذلك في فصل الشتاء والشطر الأول من فصل الربيع، أو حارة جدًا وذلك في فصل الصيف ومعظم فصل الخريف، والانتظار طويل وممل، فهو يستغرق النهار كله وليس أمام المعتقلين إلا الصبر إلا أن ذلك لا يخلو من إيجابيات فكثيرًا ما يلتقي المعتقل في الرحلة إلى المحكمة بأحباب وأصدقاء، كما أنه يلتقي المعتقلون من سجون مختلفة فيتبادلون التعرف على أحوال بعضهم بعضًا أو على أخبار أقارب وأحباب في السجون ويبعثون لهم أخبارهم، كما أن دروسًا قرآنية أو ثقافية قد تجري في الزنزانة.

وافقت المحكمة على قرار تمديد اعتقالي، فرفع المحامي دعوى للمحكمة العليا في القدس، وكان موعد المحكمة في اليوم الذي اختطف فيه حزب الله اثنين من الجنود الإسرائيليين.

كان اليهود يغلون غضبًا، وأمام زنزانات الانتظار في القدس كان الجنود يسبون الشيخ حسن نصر الله وقلوبهم مليئة غيظًا. تعرفت على محامي التنظيم جميل الخطيب، فأخبرني أنه اتفق مع النيابة العسكرية على تخفيض شهر من المحكومية، وقال: لم أر من المناسب أن تقف في هذا اليوم أمام قاضي المحكمة العليا؛ لأن الجو عندهم عاصف جدًا، فوجدت كلامه منطقيًا واكتفيت بما حصلت عليه.

بعد ذلك جاءنا إلى العزل الدكتور عزام سلهب المدرس بجامعة الخليل والمنتخب لعضوية المجلس التشريعي.

حادثة غريبة

ذات ليلة، بعد منتصف الليل، سمعنا أحد إخواننا يصيح بصوت عالٍ ومن الواضح أنه كان يعاني ويتحرك حركات متشنجة، وكنا خمسة غيره، فتعاونا على حمله ومددناه على أرض الغرفة وتولى أبو معاذ (أبو جحيشة) القراءة عليه، أما نحن الأربعة

فكنا نبذل جهدًا جبارًا في السيطرة على حركاته، وأكد الدكتور أبو جحيشة أن ذلك الشاب يلبسه الجان في تلك الساعة، وبدأ يقرأ عليه آيات من القرآن ويناشد الجان أن يخرج من هذا الشاب، والذي لا يزال يسبب لي الدهشة أنه كان إذا قرأ الشيخ أبو معاذ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 102]، يكاد جسم الشاب يطير عن الأرض ونلاحظ أن معاناته تتضاعف ونبذل جهدنا نحن الأربعة للإمساك بيديه ورجليه وتثبيته، ونجد ذلك في غاية الصعوبة. كان يتشنج قليلًا إذا قرأ عليه المعوذتين، كنت أتبادل أنا والشيخ قراءة: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: 102] فإذا وصل القارئ إلى تلاوة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 102]، عاد إلى الشاب تشنجه الشديد، إلى درجة أن أبا معاذ قرر أن يرفع يده وقال: أنا غير قادر عليه. فرجوته أن يستمر في المحاولة. وبعد ما يزيد على ساعة بدأ تشنجه عند قراءة الآية المذكورة يقل رويدًا، ثم هدأ جسمه في النهاية. ورأينا الشاب أخلد إلى النوم فحملناه إلى برشه ونام بقية الليل، ثم صحا في اليوم التالي وهو لا يدري بما جرى له، ولم نخبره نحن بشيء، ولم يعرف عن هذه الحادثة إطلاقًا.

النقل إلى هدريم

انتهت فترة الاعتقال الإداري الجديدة في مطلع شهر أيلول 2006 وجاءني تمديد أربعة أشهر، وكان الإجراء أن يعرض أمر الاعتقال الجديد الصادر عن القائد العسكري الإسرائيلي لمنطقة نابلس على القاضي العسكري في عوفر، فإما أن يقره وإما أن يرفضه، وكان موعد محكمتي يوم الأربعاء السابع من أيلول 2006، فأقر القاضي الحكم ولدى عودتي إلى الرملة تمت إجراءات التفتيش المعتادة، وكان ثلاثة أشخاص يخضعون للإجراءات نفسها ودخلت القسم وبعد قليل أدخل الأشخاص الثلاثة الجدد، وحدث التعارف فإذا هم الشيخ صالح العاروري، أحد أبرز قادة حماس والذي وضع حدًا للمحاكمات الداخلية عندهم في غمرة الهوس الأمني في عقد التسعينات من القرن الماضي الذي أصاب جميع التنظيمات في السجون وقتل فيه تحت التحقيق والتعذيب أناس أبرياء من جميع الفصائل.

كنت أتوق إلى التعرف على الشيخ صالح (أبي محمد) لما سمعت عنه من حسن الخلق وما يتمتع به من شخصية قيادية مؤثرة. والاثنان الآخران ابنا عم من قطاع غزة لم يلبثا أن أعيد نقلهما إلى سجن آخر قبل أن نحفظ اسميهما. وبالفعل، سُررنا جميعًا بوجود الشيخ صالح بيننا على الرغم من أنه لم يتجاوز أسبوعًا واحدًا.

وفي يوم الأربعاء التالي، الثالث عشر من أيلول كان موعد الكنتينة، فسلمنا الإدارة قائمة بالطلبات قبل ذلك بيوم، ثم جلسنا ننتظر، فأبطأت عنا إلى ما قبل العصر بقليل، وبينما كنا ننتظرها بفارغ الصبر إذا بأمر مفاجئ بوساطة الميغروفون المثبت في الغرفة يقول لنا: احزموا أمتعتكم جميعها خلال ساعة واحدة ولا تتركوا في الغرفة شيئًا على الإطلاق إلا الثلاجة، وما عدا الثلاجة فلا تتركوا شيئًا. نريد أن نرى القسم نظيفًا تمامًا بعد ساعة.

ما هذا الأمر المفاجئ؟ اتصلت بهم بالميغروفون المثبت في الغرفة أستفسر عن سبب هذا الأمر الغريب، فرد علي من غرفة التحكم شرطي درزي كنيته أبو حسن وكان كثيرًا ما يتكلم معنا بالميغروفون وهو يرانا بطبيعة الحال بوساطة الكاميرات المبثوثة، ولكننا لا نراه ولم نعرف صورة وجهه أبدًا. ولم يكن يخاطبني إلا بلفظة عمي أبو مالك، مع أن هذا ممنوع عليهم، فرد علي ساعتها أبو حسن، وسألته عن سبب هذا الأمر المفاجئ فقال: إنه النقل يا عمي أبو مالك. سألته: إلى أين؟ فقال: لم يبلغونا حتى الآن إلى أين، وبمجرد أن نعرف سنبلغكم. فأخذنا نلملم أغراضنا، وكانت الغرفة مليئة بالأغراض أكثره تجمع على مر السنين، ومنه كميات كبيرة من الأدوات المنزلية المختلفة.

وكان في القسم أكياس نايلون بأحجام مختلفة فبدأنا نملأ بعضها بالنفايات التي لا نريدها، ونملأ قسمًا منها بالكتب وسائر الأغراض التي سنأخذها. وفي غضون ساعة أو أكثر كنا قد حزمنا جميع أمتعتنا وكنس الشباب الغرفة، ثم اتصلنا بهم وقلنا لهم: ها نحن جاهزون، فجاء الحرس وفتحوا لنا الباب وبدأنا نخرج الأغراض إلى الساحة وعند تمام ذلك بلّغونا أن صالح العاروري منقول إلى سجن هلكدار، وأن

الباقين منقولون إلى سجن هدريم. كان الارتياح للنقل يغلب علينا؛ لأننا في حقيقة الحال بدأنا نشعر بالملل من هذا السجن الضيق.

في هدريم

وصلنا سجن هدريم قبيل المغرب، ولم يكن بالإمكان إدخالنا القسم في ذلك الوقت؛ لأن أغراضنا سيجري تفتيشها بمنتهى الدقة وهذا يحتاج إلى وقت طويل. بتنا في الزنزانة، وفي اليوم التالي بدأوا ينادون علينا فخرجنا على دفعتين، وكنت في الدفعة الثانية، وقد أضطررنا نظرًا لكثرة الأغراض، خاصة من الأدوات المنزلية أن نتنازل عن الكثير منها لكي يرسلوه إلى حاويات القمامة. كما أن كثيرًا مما كان معي خاصة من الكتب لم يسمحوا بدخوله؛ لأنهم لا يسمحون بأن يدخل مع القادم أكثر من سبعة كتب.

وأخيرًا دخلنا قسم «3» من هدريم وقيل لنا: إنكم في العزل، وبذا؛ لن تخرجوا إلى الفورة إلا بعد دخول سائر المعتقلين زنازينهم، أي في العاشرة والنصف صباحًا وحتى الثانية عشرة وفي الرابعة مساءً حتى الخامسة، وسوف يسمح لكم بالخروج إلى الحمام مدة ثلث ساعة عندما يكون المعتقلون في زنازينهم. ونبهوا على المعتقلين بعدم الحديث معنا ودخلت إحدى الغرفتين أنا وأيمن زعاقيق من الجهاد الإسلامي وساجد مليطات من الجبهة الشعبية. الغرف هناك تتسع كل واحدة منها لثلاثة أشخاص وبما أننا كنا ستة أشخاص فقد خصصوا لنا غرفتين. الأبواب تفتح وتغلق بجهاز التحكم (الريموت كونترول) وفي الباب فتحة علوية تسمح بالحديث مع من في الساحة وحتى السلام بمد الأصابع وفتحة سفلية يدخل منها الطعام والخضراوات والفواكه والخبز.

في السجن أربعون غرفة للمعتقلين، عشرون منها في الطابق السفلي ومثلها في الطابق العلوي غير غرف الخدمات الملحقة وغير قسم الإدارة الضخم.

دخلت الغرفة رقم «3» وكان ذلك قبل الفورة الثانية التي تكون في الساعة الثانية وحتى الرابعة، وما أن انفتحت الأبواب حتى جاء الشباب يسلمون علي، وكان

أسبقهم إلى الحضور أبو عاصم، خالد الزواوي. وكان أول الكلام تعزيتي بعاصم. لم أتمالك نفسي عند أول تعزية فأدرت وجهي لأخفي دمعات تنهمر عليه، ثم لم ألبث أن مسحتها، وصار شباب الجهاد يسلّمون علي ويعزونني ويعرفونني على أنفسهم.

بدأت أتعرف على نظام السجن، فوجدت أن المطبخ هو الذي يتولى العشاء، أما الفطور فالمواد توزع على المعتقلين وخصوصًا البيض والبطاطا والخبز، وفي الغرفة أداة تسخين كهربائية (يسمونها المزليق) وفيها إبريق كهربائي للشاي والقهوة وطاولة وسط يوضع عليها الطعام. كما وجدت أنهم في هذا السجن تجري بينهم الدعوات بكثرة للفطور الذي يجهزونه بأنفسهم في غرفهم بين الساعة العاشرة والنصف وحتى الساعة الثانية عشرة أو يجهزه المطبخ للغرفة التي تطلبه بشرط أن تزوده بالمواد، أو للعشاء الذي يحضره المطبخ لكل من يرسل إليهم المواد.

ولما لم يكن مسموحًا لنا نحن المعتقلين إداريًا أن ندخل غرف المحكومين، نفذ الشباب تكريمهم لنا بأن أرسلوا لنا طعام الضيافة عند المغرب.

التقيت بأبي محمد، على الصفوري وكنت أتوق إلى معرفته مثلما يتوق هو إلى معرفتي، وأبي إبراهيم، بسام السعدي وكنت قد التقيت به مرة في جنين، وأبي بلال، بسام أبو عكر وكنت قد التقيت به مرة في سجن عوفر، وأبي أسامة، ثابت مرداوي ولم أكن التقيته من قبل، وسامح الشوبكي وشقيقه، وأسعد مراحيل، من مخيم بلاطة وعبد الرحمن شهاب ووائل مكين فنونة، وسعيد الطوباسي وشقيقه محمد وطارق عز الدين وعبد عبيد، وكلهم كنت أعرف عنهم ولا أعرفهم. كما تعرفت على باقي المعتقلين من أبناء الجهاد الإسلامي.

كنا في البداية ننزل إلى ساحة الفسحة (الفورة) نحن المعتقلين إداريًا حينما لا يكون فيها أحد. وكانت الغرفة التي فيها بسام السعدي لها شباك مرتفع يرمي إلى الساحة، فكنت أقف على كرسي وأتحدث معه طول الوقت، فنتناول المواضيع الهامة. وكان من قضايا الساعة في ذلك الوقت ما سمي بوثيقة الوفاق الوطني التي أحدثت ضجة كبيرة.

أما اللقاء ببقية الشباب أثناء فترة العزل فكان عند خروجنا اليومي للاستحمام، وكنا نتبادل الأحاديث الطويلة وخاصة مع خالد الزواوي والحاج علي الصفوري وبسام أبو عكر.

بعد فترة رفعوا عنا الحجز فنزلنا الساحة مع الآخرين وبدأنا نتعرف على الشباب من فتح والجبهة الشعبية وحماس، وجدت قتيبة مسلَّم من تلفيت وعبد العظيم موسى من قصرة ومسلمة ثابت من رامين والشهيد رائد السركجي من نابلس وكلهم من قياديي حركة فتح، وكان لقائي بهم قصيرًا؛ لأنهم لم يلبثوا أن جرى نقلهم إلى سجون أخرى. وتعرفت على نور جابر من الجهاد الإسلامي والمحكوم عدة مؤبدات وكان هو في سجن الرجال وكانت شقيقته نورا جابر الهشلمون في سجن النساء المجاور، وكان ينادي عليها أحيانًا من الطابق الثاني للسجن فتسمعه وتجيبه، وسعيد الطوباسي من مخيم جنين المحكوم ستة وعشرين مؤبدًا وعددًا من السنين وشقيقه محمد، أما شقيقهما كمال فكنا معًا في النقب وقد انتهت مدة محكوميته وجاءه الفرج وأنا لا زلت هناك.

ومن فتح تعرفت على أيمن الشرباتي وكان يسمي نفسه: المواطن، وعرف بين المعتقلين بهذا الاسم، ويمتاز بخفة الروح وأنه محبوب من الجميع، ثم جاء أبو القسام، مروان البرغوثي، ثم ابنه قسام لفترة وجيزة، ومن حماس تعرفت على الشيخ عباس السيد المحكوم عشرات المؤبدات وعلى سلطان العجلوني، عميد الأسرى الأردنيين والمحكوم مؤبد (ثم جاءه الفرج بعد تدخل الحكومة الأردنية) وعباس شبانة المحكوم مؤبد وعلي المغربي ومعتصم ياسين ويحيى السنوار، وكلهم أصحاب مؤبدات. والشيخ عبد الخالق النتشة.

كان من أظرف المعتقلين شاب اسمه محمد أبو جاموس، وهو من شباب حماس.

كان ذلك الشاب طويلًا نحيفًا غامق السمرة، قليل الكلام، وهو محبوب من الجميع لدماثة أخلاقه، وكان لجسمه خاصية فريدة: فهو قادر على أن يخرج من أية فتحة تتسع لرأسه؛ لأن جسمه له خاصية جسم النِّمس والمسمى في العامية (السالول) فالنمس يمط جسمه فيدخل من أصغر الفتحات، وكذلك أبو جاموس.

كانت الباصات التي تنقل المعتقلين إلى المحاكم لها شبابيك تنفتح فتحة بسيطة فيدخل الهواء منها ويستحيل هروب أحد منها لضيقها ويرى المعتقلون من خلالها مناظر الطبيعة الخلابة ويستمتعون بتلك المناظر في ذهابهم وإيابهم إلا أنه في إحدى السفريات توقف الباص لسبب ما، ففوجئ الحراس بأبي جاموس يقف بالقرب منهم وفي يده قنينة ماء، وذهلوا لما رأوا، ثم قالوا: لك علينا ألا نعتبر تسللك من الباص مخالفة، ولكن بشرط أن تخبرنا كيف خرجت منه. فبين لهم أن فتحة الشباك تكفي ليخرج منها رأسه وإذا خرج رأسه انطلق بقية جسمه كالسهم، وهو قادر على أن يدخل الباص من الفتحة نفسها وبطريقة السهم عينها، ودخل الباص أمامهم من تلك الفتحة. وعلى إثر ذلك قرروا وضع المشبكات الفولاذية على شبابيك الباصات التي تظل مغلقة بالكامل، وصمموها بطريقة تجعل من المستحيل على المعتقل أن يتبين معالم الطبيعة. وبعد أول سفرياتي من هدريم إلى عوفر بباص مغلق الشبابيك بالشبك الفولاذي، قلت لأبي جاموس عند عودتي إلى القسم: لقد دعوت عليك بقولي: الله يجازيك يا أبا جاموس، فأنت السبب في إغلاق شبابيك الباص بحيث لا يتسنى للمعتقل أن يرى شيئًا من معالم الطريق.

في سجن هدريم نفذت الإدارة ذات يوم تمرينًا لمطاردة سجين يفترض أنه استطاع الهروب من السجن وعلى الحراس مطاردته والإمساك به، فكان الهارب المفترض أبا جاموس، وكان الضباط والجنود يرددون اسمه أثناء التمرين مفترضين أنه إذا كان بمقدور أحد أن يهرب فهو أبو جاموس لا غيره.

ومن الجبهة الشعبية التقيت أبا الشريف، عبد الرحيم ملوح وأمير ذوقان وعاهد أبو غلمة ثم جاء أمين عام الجبهة، أحمد سعدات بعد أن داهم الجيش الإسرائيلي سجن أريحا واعتقل من فيه من كبار المعتقلين الأمنيين ومنهم فؤاد الشوبكي من قادة فتح المتهم بأنه وراء تهريب السلاح للسلطة الفلسطينية في سفينة كارن (A)، وجاء هو أيضًا إلى هدريم.

كان الأسير الدرزي الشهير سمير قنطار ممثل الأسرى أمام الإدارة، من النوع

الذي لا يبادر اجتماعيًا، فبادرت إليه: أنت سمير قنطار الذي أقام الدنيا ولم يقعدها؟ صار بيني وبينه معرفة لم تتطور إلى صداقة؛ لأنه _كما ذكرت_ غير نشيط اجتماعيًا، إلا أنه مهذب وعلى خلق رفيع.

كان الجو السياسي في الضفة والقطاع يتلخص في ذلك الوقت في حكومة اضطرت حماس إلى تشكيلها وحدها بعد أن رفضت جميع الفصائل المشاركة فيها، وكان وزراء حماس يجدون عداء من موظفي وزاراتهم الذين هم إما فتحاويون أو ينتمون إلى فصائل أخرى أو محايدون لا يحبون حماس إلا القليل منهم. وأرادت حماس أن تجعل لها أنصارًا وأعوانًا في الوزارات، فأخذت تعيِّن من أنصارها بأعداد كبيرة.

لقد فرض العالم عليها حصارًا اقتصاديًا شاملا ومُنعت البنوك من إدخال أية أموال لحكومة حماس، فساءت أوضاع الناس وذاق الموظفون بشكل خاص طعم الجوع. كانت أشد الوزارات رفضًا لوزيرها الحمساوي هي بطبيعة الحال وزارة الداخلية التي هي وزارة الأجهزة الأمنية التي كان كل جهاز منها يعد نفسه الحاكم بأمره، ولا يعطي القياد حتى للوزير الفتحاوي، فكيف لوزير من حماس؟

وكانت وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي أسهل وزارتين أمام حماس.

كانت العلاقات في هدريم في ذلك الوقت بين عناصر فتح وعناصر حماس طبيعية وهذه كانت سمة العلاقات بين الجميع.

منذ أن رُفع العزل عنا أخذ جماعة من المعتقلين يطالبونني بأن أعقد لهم درسًا يوميًا في النحو والصرف، وأبدوا رغبة شديدة في ذلك فوافقت من غير تردد فالتأمت الجلسة بحضور عدد من المعتقلين من فصائل مختلفة ومنهم من الجهاد بسام السعدي وبسام أبو عكر وخالد الزواوي وسامح الشوبكي ومن حماس: عباس شبانة وعلي المغربي ومعتصم ياسين ومن فتح: علاء الشرباتي. وصارت الجلسة تعطى في كل يوم ما عدا يوم الجمعة من التاسعة وعشر دقائق وحتى الساعة العاشرة. وكانت الكتب متوفرة فقررت أن أتدرج معهم حسب ترتيب ألفية ابن مالك للموضوعات واقترحت أن يكون المرجع شرح ابن عقيل.

وبعد أن سرنا في الدرس بضعة أيام اقترح بسام السعدي أن يكتبوا ما أعطيهم حتى يتمكنوا من المراجعة وتثبيت المعلومات، فوجدت الأمر منطقيًا وأردنا في البداية أن يكون مع كل واحد من المشتركين دفتره وقلمه وأن أشرح المسألة النحوية أو الصرفية ثم أمليها عليهم، ثم وجدت أن هذا يهدر الكثير من الوقت ونحن بحاجة إلى أن نغطي مواضيع النحو والصرف كلها أو جلها، والاستعجال غير المخل بالقدرة على الاستيعاب كان مطلبًا؛ لأننا في سجن ولا ندري كم سيتاح لنا من الوقت أن نمكث معًا، وأن نأخذ الدروس معًا، فرأيت أن أكتب المادة ليلًا حيث أكون في الزنزانة، ثم أعطيها للشباب ينسخونها، وهذا ما كان.

بدأت أكتب شرحًا لمواد النحو والصرف فيه تبسيط للقواعد وتكثيف للأمثلة بهدف أن يفهم القارئ مسائل النحو وأن يستوعبها. وما أن سلّمت الشباب الصفحات الأولى مما كتبت وقرؤوها حتى أفاضوا في الثناء عليها؛ لأنهم وجدوا مادة موضَّحة ومبسَّطة لم يجدوها في أي كتاب قرؤوه. لذا؛ عنونت الدراسة بـ(تيسير العسير في النحو والصرف). وكنت أعمل عليها من أول الليل حتى منتصفه، ويأتيني الحارس الدرزي أحيانًا فيقول: هل أطفئ النور؟ فأقول له: بعد قليل، فيقول: هذا سجن لا جامعة، وإذا ذهبت فلن أعود، وأخيرًا حصلت على مصباح كهربائي صغير، فصرت لا أبالي متى أطفأ الحارس الضوء. كنت أجد لذة كبيرة في الكتابة؛ لأن موضوع النحو والصرف هو مجال تخصصي وهو قريب إلى نفسي.

أنهيت الكتابة في زمن قياسي، في حدود ثلاثة أشهر أو يزيد قليلًا، وكان الشباب ينسخون، فتوفرت لهم في السجن عدة نسخ، فاستغللت فرصة خروج شاب من السجن وأرسلت الدراسة معه إلى الأهل في نابلس كي يطبعوها، فسلموها لأبي همام، الدكتور حسن أبو الرب، المدرس في جامعة النجاح وسلمها بدوره للصديق الدكتور يحيى جبر أستاذ اللغة العربية بجامعة النجاح ورئيس قسم اللغة العربية، كي يطلع عليها ويجد طريقة لتصفيفها في الحاسوب، فسلمها لتلميذة من تلميذاته لتطبعها مقابل أجر، وعندما من الله علي بالفرج وجدت تيسير العسير مطبوعًا في الكمبيوتر ويحتاج إلى مراجعة كي يكون صالحًا للنشر. وإذا كانت كتابته لم تستغرق إلا ثلاثة أشهر، فمنذ أن أتممت كتابته سنة 2007 وحتى نهاية سنة 2012 لا يزال قيد المراجعة.

رحلات المعاناة

إنها الرحلات إلى محكمة عوفر. لم أكن جرّبت قبل هدريم هذا النوع من العناء. ففي النقب يأتي تمديد الاعتقال للمعتقل الإداري، فيؤخذ إلى المحكمة في النقب نفسه، ويمكث ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم يعود إلى موقعه. وفي عزل أيالون الأمر أصعب، ولكن المعتقل يخرج من قِسمه بعد التفقد الصباحي، ويلبث في حدود ساعة أو أقل في غرفة انتظار، ثم يؤخذ إلى الحافلة، وينتظر فيها زهاء ساعة، ثم تنطلق الحافلة إلى عوفر فتقطع المسافة في حوالي أربعين دقيقة، وعند العودة تستغرق مثل هذا الوقت ويدخل السجين غرفته بعد إجراءات بسيطة

أما الرحلة من هدريم فتبدأ من بعد مغرب اليوم السابق للمحكمة، إذ يخرج المعتقل إلى زنازين داخل بناية السجن من أقصى طرفه، وتفتح لهم زنزانة أحيانًا تكون صغيرة وقذرة وأحيانًا تكون أحسن حالًا. ويكون المعتقل قد أخرج معه غطاء للنوم، أما الفراش فموجود في الزنزانة، أما المخدة فالمنشفة التي يخرجها السجين معه ويلفها بجاكيت بدلة الشاباس التي يلبسها إجباريًا، فتكون لديه مخدة كفيلة أن ينام عليها نومة مريحة إلا أن النوم يكون حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فيأتي الحارس يوعز لهم أن قوموا، فيقوموا ويضعوا في حقائبهم أغطيتهم وما معهم من منشفة أو ما سواها، ثم يُفتح باب الزنزانة ويخرجون ومعهم أمتعتهم فيضعونها في غرفة للأمانات، ويستردونها إذا رجعوا إلى القسم مساءً، وتوضع القيود في أرجلهم وأيديهم ويصعدون إلى الحافلة، ومقاعدها من الفولاذ الذي يكون في أيام الشتاء باردًا كالثلج، وتنطلق بهم الحافلة في حدود الساعة الثالثة والنصف وتصل إلى الرملة في الرابعة والربع تقريبًا، فإما أن يظل المعتقلون فيه أو أن يُنقَلوا إلى حافلة أخرى ويظلوا فيها حتى الساعة الثامنة، أي؛ يبقون في الحافلة المتوقفة أربع ساعات وهم جالسون على تلك المقاعد الحديدية الصماء لا يجوز لأي منهم أن يسأم؛ لأن السأم سيكون عذابًا إلى عذاب، ثم تسير الحافلة إلى أن تقف عند باب المعتقل، ويهبط المعتقلون إلى زنازين عوفر التي تكون في الشتاء كالثلاجة وفي الصيف كالفرن، وفي الشتاء تلطف الجوَّ بمرور الساعات أنفاسُ المحشورين فيها والذين يبلغون أربعة عشر أو خمسة عشر شخصًا في الزنزانة الواحدة

وأما في الصيف فالأنفاس المتصاعدة ترفع حرارة الزنزانة لتجعل الجو جحيمًا لا يطاق إلا أنه ليس أمام القابعين فيها إلا الصبر.

وعند المساء يعود المعتقلون أدراجهم فترسو الحافلة في ساحة سجن الرملة تنتظر قدوم الجنائيين اليهود والعرب من محاكم تل أبيب والقدس، والانتظار مساءً كالانتظار صباحًا، أربع ساعات أو أقل قليلًا على المقعد الحديدي الأصم وبقيود في اليدين والرجلين. تصل الحافلة ساحة الرملة بين الساعة الخامسة والسادسة وتنطلق إلى هداريم بين التاسعة والعاشرة وتصل بين العاشرة والحادية عشرة قرب منتصف الليل، فيدخل السجناء أقسامهم منهكين إلا أن مشوار أسرى هدريم ما هو إلا نزهة إذا قورن بمشوار أسرى مجدو إلى عوفر.

عيد لا يشبهه عيد

إنه عيد الأضحى المبارك في العام الهجري 1427 الموافق 30/ 12/ 2006 ميلادية. في هذا اليوم تم إعدام الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين.

كانت محاكمة صدام حسين فريدة وندر أن حصل مثلها في العالم وحدثًا بالغ الأهمية على مستوى العالم وقد استغرقت وقتًا طويلًا، وتابعها الناس باهتمام ليروا كيف يحاكم من يصدق فيه قول أمير الشعراء:

نَيرون إن قيس في بابِ الطُّغاةِ به   مبالَغٌ فيه والحَجاج متَّهَم

وصدر الحكم على صدام بالإعدام، وفي صباح يوم عيد الأضحى المبارك وبعد الصلاة، وبعد أن تبادل السجناء في ساحة السجن السلام؛ إذ سلَّم الجميع على الجميع بطريقة مرتبة ومتبعة في كل السجون، جلسنا في طرف الساحة نتبادل الأحاديث ونستعرض آخر الأخبار، وكان يجلس إلى جانبي أبو القسام، مروان البرغوثي، فقلت: أظن أن الحكومة العراقية ستؤجل إعدام صدام حسين. فقال: لقد أعدموه صباح هذا اليوم. قلت: صحيح أم تكهنات؟ قال: صحيح ولقد أعلنوا عن إعدامه رسميًا.

يا للعجب، هكذا قضى صدام حسين؟ وعدنا كلًا إلى غرفته، وجاء إلى الغرفة

إخوة من حماس ومن فتح ومن الغرف الأخرى للجهاد، على شكل أفواج، ولم يكن ثمة حديث إلا إعدام صدام حسين، ولقد أعادت محطة الجزيرة الفضائية شريط الإعدام القصير مرات ومرات ومرات.

إن أجمل ما في حياة المعتقلين في هدريم هو إقبالهم الشديد على التعلم بكل أشكاله. لم يكتف الشباب بما أعطيهم من دروس في النحو والصرف في الساحة في الفترة الصباحية وبين التاسعة والعاشرة وأن استبقي نصف الساعة الأخير للتمشي الحر، بل إن ثلاثة منهم: عباس شبانة وعلي المغربي ومعتصم ياسين، كانوا يلازمونني في نصف الساعة المذكور من أجل الحصول على توضيحات وتفسيرات، وعند دخول الأقسام في العاشرة والنصف كنت أتوجه إلى إحدى غرف الجهاد حيث الأخوان الشوبكي؛ سامح وعلاء وانضم إليهم بسام أبو عكر، وآخرون لا أتذكر أسماءهم الآن يأخذون مساقًا آخر من النحو والصرف، ثم بعد تفرقهم صرت أتوجه إلى غرفة بسام أبو عكر وأسعد مراحيل من أجل درس في اللغة.

بدأنا بقراءة وشرح مقامات الحريري على أمل أن ننتقل بعدها إلى قراءة وشرح رسالة الغفران، لكن لم ألبث أن جاءني الفرج قبل ان نكمل دراسة المقامات.

وفي فسحة العصر كان سعيد الطوباسي ذو الستة والعشرين مؤبدًا يأخذ درسًا في الإملاء، وكم كان يسعد سعادة غامرة عندما أصحح له ما كتب وأثني عليه بكلمتين: «ممتاز، عريس» مع توقيعي وكتابة التاريخ، كانت تداعبه الآمال في أنه سيخرج يومًا ما وسيكون عريسًا بإذن الله (الصحيح لغويًا عروس للذكر والأنثى ولا وجود لكلمة عريس)، ثم كان درس آخر في النحو لمجموعة من الشباب، وما يتبقى من الفسحة فلدرس في الشعر والعروض لأسعد مراحيل. ولما لم يبق وقت للبلاغة التي يريدها شباب من حماس والجهاد الإسلامي كتبت لهم مذكرة عن علم البيان وشرحت فيها بلاغيًا آيات من القرآن الكريم لا يمكن فهمها إلا بالتحليل البلاغي، وكتبت لهم مذكرة عن علم المعاني فيها شرح وتوضيح بالأمثلة، وشرعت في الكتابة عن علم البديع، فكتبت منه شطرا ثم جاءني الفرج.

وبعد أن فرغت من كتابة تيسير العسير في النحو والصرف بدأت أجمع مادة للتفسير، فقرأت التوراة والإنجيل قراءة فاحصة سطرًا سطرًا، وكتبت كل الملاحظات المطلوبة والتي تدور حول ما توافقت به التوراة والقرآن الكريم، والإنجيل والقرآن، وأخذت أراجع بعض تفاسير القرآن الكريم تمهيداً لكتابة تفسير لآيات منتقاة بأسلوب جديد وبعقلية العصر الحاضر.

الزيارات المحببة

كانت زيارات الأهل أعظم باب فرج ينتظره المعتقل، وعندما يأتي الزوار إلى السجن يتم تبليغ الأسرى المعنيين، ويعطون وقتًا كافيًا للاستعداد، فيصلح الأسير هندامه ويمشط شعره ويلبس أحسن ما عنده من ملابس، ثم يتوجه إلى الكنتينة فيشتري هدايا للزوار بمقدار ما يرغب ويسمح به رصيده، ولم تكن الزيارات في الغالب مفاجئة؛ لأن الأهل يبلغون معتقلهم بوساطة الإذاعة بأنهم قادمون لزيارته، إلا زيارة واحدة فوجئت بها دون علم مسبق، فقد بلّغتني إدارة السجن أن لي زيارة، واستعددت لها بسرور واستغراب، وعندما وقفت في أحد أكشاك المعتقلين كانت المفاجاة السارة أن الزائرين هما حفيداي، الطفلان: زهراء وهمام، ما أحسن هذين الزائرين وما أعظم شوقي لرؤيتها، وما أعذب حديثهما وقصصهما التي كانا يتسابقان إلى سردها حول أخبار الأهل وأخبار الناس عمومًا.

إن وقائع تلك الزيارات مما لا ينمحي من الذاكرة، زيارات أم مالك، وأم همام، ومالك ومحمد وعلي، وكانت إدارة هدريم وقتها تتسامح في إدخال الكتب والملابس، مثلما تتسامح في إخراج الهدايا للزوار، فتكون السعادة متبادلة بين الأسير وأهله، إلا أن الزيارة التي لا أنسى شيئًا من وقائعها كما لا أنسى ما اعتراني من سعادة بها، هي زيارة ابني حمزة الذي جاءني من سجن جلبوع.

كنت قد تقدمت بطلبات متكررة إلى إدارة سجن هدريم كي يسمحوا بنقل حمزة عندي، وكان لا يزال موقوفًا، فقالوا إن الموقوف لا يجري جمعه بوالده، ولكن

الجمع مسموح به للوالد وابنه وللأخ وأخيه للمحكومين أو الإداريين، فقصرت طلبي على السماح بزيارتي لحمزة في سجن جلبوع أو زيارته لي في هداريم. وكان حمزة يتقدم بالطلبات من جهته لهذا الغرض، وطال انتظاري وانتظاره، وأخيرًا جاءني أحد الحراس ليبلغني أن ثمة زائرًا بانتظارك، هو ابنك حمزة، وأنك ستجتمع به لمدة ساعتين اثنتين من غير زيادة أو نقصان، وذهبت إلى الزنزانة التي وضعوه فيها، والتقيت به بالأحضان والأشواق وجلسنا نتحدث وسيف الساعتين المحددتين مسلط علينا، فتذكرنا طفولته وتحدثنا عن برامج الاطفال التي كان يحبها ويلازم التلفاز من أجلها وكنا نتندر به وبها، وسرد لي قصة اعتقاله، وكان للمرحوم عاصم نصيب الأسد من حديثنا، وما أسرع ما انقضت الساعتان، ولم تمهلنا إدارة السجن دقيقة واحدة، فودعت حمزة بمثل ما استقبلته به من أشواق ومحبة وحنان.

أثر تقلب العلاقات بين فتح وحماس

معروف أن حماس شكلت الحكومة الفلسطينية بعد فوزها في الانتخابات مطلع عام 2006 واستمرت هذه الحكومة حتى آذار 2007، وفرض المجتمع الدولي الحصار على الشعب الفلسطيني، مما جعل حياته المعيشية جحيمًا لا يطاق، ثم تدخلت بعض الدول العربية لإنشاء حكومة تضم فتح وحماس والفصائل الفلسطينية الأخرى ومستقلين من أجل رفع الحصار عن الشعب الفلسطيني، وأثمرت جهود السعودية، وفي آذار 2007 اجتمع الفرقاء الفلسطينيون في مكة وقرروا إنشاء حكومة الوحدة الوطنية. وشاهدنا الملك عبد الله بن عبد العزيز يتلو من ورقة مطبوعة وبصعوبة بالغة خطابًا من بضعة أسطر يشيد بهذا الإنجاز. ووعدهم الملك السعودي بمليار دولار دعمًا للسلطة الفلسطينية. ولقد وافقت حماس بناء على شروط الصلح أن تحترم الاتفاقيات التي عقدتها منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية.

استمرت حكومة الوحدة الوطنية زهاء ثلاثة أشهر ولم يرفع الحصار الاقتصادي الإسرائيلي والدولي عن الشعب الفلسطيني إلا بشكل محدود جدًا وعن الوزارات التي وزيرها ليس من حماس، ولم يكن ثمة وفاق حقيقي بل كان كل فريق منهما يحاول أن

يقوي نفسه ويكثر أنصاره في الوزارات التي يهيمن عليها، مع العلم أن وزراء حماس واجهوا عدم طاعة من قبل موظفي وزاراتهم الفتحاويين، ووجدوا أنفسهم لا يحكمون إلا بشكل جزئي، فوقعت حكومة الوفاق الوطني في أزمة مردها إلى أن الوفاق وحسن النية وسيادة القانون لا وجود لأي منها.

كنت أناقش بعض إخواننا في حماس ممن أجد عندهم تذمرًا من ذلك الوضع، أسألهم: هل يملك وزراء حماس سلطانًا في وزاراتهم باستثناء وزيري التربية والأوقاف؟

والجواب بالطبع: لا.

فلماذا لا يتركون الوزارات وتنسحب حماس من السلطة وتعود إلى عرين المقاومة فتعود إليها هيبتها وتحافظ على احترامها، وتذر السلطة للذين تتطابق مواقفهم مع متطلبات المجتمع الدولي، فيستصوب بعضهم الفكرة ويرد آخرون بأن حماس في هذه الحالة ستسلم أعناق قادتها وعناصرها لحبال الأجهزة الأمنية لتفعل بهم أشنع مما فعلته في الحقبة العرفاتية.

في مطلع حزيران 2007 طُلبت للتحقيق في معسكر سالم، وكان ذلك يقتضي الخروج من هدريم إلى الجلمة والمبيت هناك، وفي اليوم التالي يؤخذ الأسير إلى سالم ولدى انتهاء التحقيق معه يعاد إلى مركز توقيف الجلمة وفي اليوم التالي يعاد إلى هدريم.

في رحلة الذهاب وفي ساحة سجن الجلمة أصعدوني إلى حافلة فإذا هي مليئة بمعتقلين يراد أخذهم إلى جهات شتى، وعرفني أحدهم وعرَّفني على نفسه فقال: أنا شقيق محمود أبو هنود، أعمل معلمًا في مدرسة ظافر المصري، فناقشته في فكرة أن تنسحب حماس من هذه الشراكة المقيتة ومن العمل السياسي وتعود إلى عرين المعارضة وتضع يدها في يد الجهاد الإسلامي وجميع الرافضين للمهزلة السياسية، ولكن الوقت لم يتسع للنقاش، فقد صعد جندي ونادى على اسمي وقال بالعبرية: ستبيت هنا في معبر كيشون، فنزلت، وبعد الإجراءات صعدت إلى الزنزانة في الطابق الثاني، فوجدت لفيفًا من قادة حماس ومنهم قريب لي من العائلة لم أكن أعرفه من قبل وهو أبو حذيفة، رائق محمد نمر من جوريش، ووجدت في الزنزانة الدكتور ناصر الدين الشاعر وزير

التربية والتعليم وبيني وبينه معرفة ومودة سابقتان، وكان وقتها لا يزال في منصبه، كما وجدت رياض العملة من قبلان وهو رئيس بلدية قبلان وآخرين وكان في الزنزانة المجاورة وزير شؤون الأسرى المهندس وصفي كبها ورئيس بلدية نابلس المهندس عدلي يعيش، ولم يتح لي رؤيتهما وقتها ولكنني حييت الوزير وصفي وأنا خارج وبيني وبينه معرفة سابقة، أما الحاج عدلي فكان رئيس الهيئة الإدارية لجمعية التضامن الخيرية التي تتبعها المدرسة الثانوية الإسلامية التي كنت قد عملت فيها فمعرفتي به وثيقة. لم أره وقتها؛ لأنه كان قد غادر الزنزانة في رحلة إلى المحكمة.

في تلك الليلة ناقشتهم وكلهم من حماس في فكرة اعتراف حماس بفشل تجربتها السياسية وأن تنسحب من العملية السياسية، وجدت الأمر عندهم ليس بهذه البساطة، ولدى سؤالي الوزير الشاعر عما أنجزه في وزارته، عدد لي تعيينات ومناصب بوأها من يستحقونها، أي أنه وضع _حسب رأيه_ في كثير من المناصب الرجل المناسب في المكان المناسب. كانت مشكلة جمع كتاب «قول يا طير» من المدارس وإتلافه التي أمر بها الوزير ناصر الدين قد أثارت عاصفة هوجاء في صفوف العلمانيين من الوزراء الفتحاويين ومن كتاب ومفكرين ينتهجون النهج العلماني، وتحدثت مع الشاعر في الأمر وكانت وجهة نظرينا متطابقة تمامًا إنه كتاب بذيء ويبعث على الاشمئزاز ويُروِّج لقِيَم سلبية ولا يجوز أن يكون في مكتبات المدارس ويطلع عليها الطلاب والطالبات ولا المعلمون والمعلمات.

إن العاصفة اتي أثيرت حول منع هذا الكتاب من المدارس، لم تكن في معظمها انتصارًا لكتاب بذيء وسخيف بمقدار ما كانت تعبيرًا عما يُحتَقَن في صدورهم من حقد على التوجه الإسلامي عمومًا وعلى حماس بوجه خاص.

بعد تلك الرحلة بأقل من أسبوع، فوجئ الجميع في الرابع عشر من حزيران 2007 بحرب عنيفة خاطفة بين فتح والسلطة من جهة وحماس من جهة أخرى، وإذا هي على غرار أيام العرب في العصور الغابرة؛ تنتهي في يوم واحد بإنهاء السلطة في غزة وهزيمة فتح هناك.

أصبح لـدى مصلحـة السـجون الإسرائيلية هـم مفاجـئ هـو منـع الاشـتباكات بـين عنـاصر فتـح وعنـاصر حمـاس في السـجون، وفي معظـم السـجون أجـرت فصـلًا كامـلًا بـين عنـاصر الحركتـين، أمـا في سـجن هدريـم فجاءهـا ممثلـو الفصيلـين وأكـدوا لهـا أنه لـن تحدث أيـة إشـكالات بـين الفصيلـين وقالـوا لهـا: جربونـا. فوافقـت الإدارة عـلى أن تجـرب، وكان ذلـك اليـوم يـوم الخميـس فقـال الضابـط المسـئول لممثـل المعتقـل سـمير قنطـار: لا نريـد خطيـب الجمعـة غـدًا أن يكـون مـن حمـاس، نريـده أن يكـون مـن الجهـاد الإسـلامي.

كان اللقـاء الأول بـين المعتقلـين في اليـوم التـالي في السـاحة والـكل متوجـس ممـا قـد يقـع؛ لأن الفتنـة تكـون عـادة متوقفـة عـلى مناقشـة بـين فرديـن تنتهـي باشـتباك بينهـما، فيشـتبك الجميـع مـع الجميـع إلا أن الجميـع كان واعيًـا. فسـجن هدريـم لا يضـم معتقلـين مـن أخـلاط النـاس، بـل مـن القـادة، فلـم يناقـش أحـد أحـدًا، ولم تقـع أيـة مشـكلة بـل وقـف خطيـب مـن الجهـاد الإسـلامي هـو إيـاد فنـون الـذي كان قبـل اعتقالـه في القضـاء الشرعـي وكان عـلى وشـك أن يكـون قاضيًـا شرعيًـا وهـو شـاب موهـوب في الخطابـة وكان ينتمـي إلى التيـار السـلفي وبـذا لم تكـن علاقتـه مـع معظـم أبنـاء الجهـاد عـلى مـا يـرام، كانـوا يقاطعـون جلسـته الوعظيـة اليوميـة، أمـا أنـا فلـم أكـن أسـمع مـن كلامـه مـا فيـه خـروج عـن سياسـة الجهـاد الإسـلامي وبـذا كنـت أحـرص عـلى حضـور جلسـاته وكان هـو يعتـز بهـذا الحضـور وقـد عـبّر عـن ذلـك بإطنـاب في رسـالة أرسـلها بعـد أن انتقـل مـن هدريـم.

لم أكـن أخطـب الجمعـة في هدريـم، وكنـت أخطـب في السـجون السـابقة كلهـا؛ لأنني لم أرد في هدريـم أن يسـجل عـليَّ نشـاط يُتخـذ حجـة عنـد المخابـرات لطلـب تمديـد التوقيـف. وفي الجمعـة التاليـة كان الخطيـب مـن الجهـاد أيضًـا، ثـم لمـا تأكـدت الإدارة أن العلاقـات بـين المعتقلـين هادئـة عـادت تسـمح لخطبـاء حمـاس أن يخطبـوا الجمعـة بحسـب التقسـيمة النسـبية، أي لأن معتقـلي حمـاس يشـكلون ضعـف معتقـلي الجهـاد الإسـلامي، كان لهـم مـن الجمعـة خطبتـان وللجهـاد خطبـة.

لم يكـن الفريقـان فتـح وحمـاس، يختلـط بعضهـم ببعـض بعـد الانفصـال وكان كل مـن معتقـلي الجهـاد الإسـلامي ومعتقـلي الجبهـة الشـعبية يختلطـون بـكلا الفريقـين، وكنـا نطلـع

بالتـالي عـلى عمـق الخـلاف والتباعـد النفسي بـين الفريقـين.

دخلـت مـرة في نقـاش مـع أبي القسـام، مـروان البرغـوثـي، فقلـت لـه: أريـد أن أكـون صريحًـا معـك، إن حمـاس تتحمـل شـطرًا مـن المسـؤولية عـن الانفصـال، أمـا فتـح والسـلطة الفلسـطينية فتتحمـل الجانـب الأعظـم مـن المسئولية؛ لأنهـم ضيقـوا عـلى حمـاس وخصـوا قادتهـا بأشـد أشـكال التعذيـب.

ألم يُجلسوا الدكتور إبراهيم مقادمة على القنينة؟

ألم ينكلوا بعناصر حماس؟

ألم تُمنـع عنـاصر حمـاس عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت في السـلطة مـن أن تقيـم احتفـالًا في نابلـس بعيـد المولـد النبـوي، أمـا هـي فأقامـت الاحتفـالات بانطلاقتهـا كـما يحلـو لهـا؟

عندمـا تعـذر عـلى فتـح في الخليـل وغـزة تقديـم مرشـح متفـق عليـه لانتخابـات البلديـة، ألم تقـم بتعطيـل الانتخابـات في المدينتـين ولا تـزال معطلـة؟

تـرى لـو تعاملـوا معهـم باحـترام كـما يُحـترم الإنسـان في بـلاد العـالم المتقـدم، هـل كانـوا سيدخلون مـع فتـح في معركـة مسـلحة ألحقـت أفـدح الـضرر بالقضيـة الفلسـطينية؟

قال ـ بلهجة يغلب عليها الود ـ إنك تتكلم كأنك الزهار.

قلـت لـه: أنـا لا أدافـع عنهـم بقصـد الدفـاع، ولكننـي أحـب الصراحـة وأحـب أن أقـول الحقيقـة بغـض النظـر عـن أيـة اعتبـارات شـخصية، إننـا في الجهـاد الإسـلامي لا نـرضى بالانقسـام ولا نباركـه، ولقـد امتنعنـا عـن أيـة مشـاركة في هـذه العمليـة السياسـية وكنـا نحـض حمـاس عـلى ألا تشـارك كـي يبقـى موقفهـا حـرًا ونظيفًـا مـن شـبهة المطامـع، ونعتقـد أن دخولهـا هـذه العمليـة السياسـية هـو الـذي جلـب عليهـا هـذه النقمـة التـي عمـت الشـعب الفلسـطيني في الضفـة والقطـاع.

وفي معـرض الحديـث عـن موقـف الجهـاد مـن المشـاركة في العمليـة السياسـية، سـألني ذات يـوم أبـو شريـف، عبـد الرحيـم ملـوح ونحـن نتمشـى في سـاحة هدريـم: هـل

ستشاركون في الانتخابات التشريعية في المستقبل؟ قلت: لن نشارك مطلقًا في أية عملية سياسية مرتبطة باتفاقيات أوسلو وخطة خريطة الطريق، فهذا موقف استراتيجي غير قابل للتغيير.

بعد الانفصال ذهبت إلى محكمة عوفر لتمديد الاعتقال الإداري وكانت مصلحة السجون قد اتبعت سياسة الفصل بين معتقلي حماس وفتح في الزنازين أما معتقلو الجهاد واليسار فيدخلون أيًا من الزنازين.

ودخلت زنزانة فيها معتقلو حماس، وبدون مقدمة اندفع أحد أعضاء المجلس التشريعي من حماس، ولم يكن يعرفني أو أعرفه، وظن أنني أنتمي إلى ما ينتمي إليه، يتحدث عن أيام مرج الزهور ويشن هجومًا بالغ الضراوة على مبعدي الجهاد الإسلامي، وهممت أن أناقشه، ولكنني أعرضت عن ذلك، فوقف شاب حمساوي آخر ينتقد بحدة بالغة موقف الجهاد الإسلامي في الداخل واصفًا إياه بالتبعية لفتح والتذبذب في الموقف؛ إذ إنه لا يؤيد موقف حماس تأييدًا كاملًا. ولكن الشاب أثنى على موقف الحركة في الخارج وخصوصًا على تصريحات للأمين العام الدكتور رمضان يثني فيها على الموقف السياسي لحماس المتمسك بخيار المقاومة. فرددت عليه بأن للجهاد الإسلامي تحفظات على دخول حماس هذا المعترك وقبل أن يتطور النقاش نادوا علي إلى المحكمة، ثم عند الانتهاء أدخلوني زنزانة أخرى فيها شباب لفتح.

الحرية

في مطلع شهر تشرين ثانٍ من ذلك العام 2007 جاءني التمديد الإداري السابع وكان هذه المرة ستة أشهر مع أن المرات السابقة كانت أربعة أشهر فذهبت إلى المحكمة العسكرية في عوفر، وهي الجهة التي توافق على التمديد أو ترفضه، فقال القاضي: إن قرار قائد منطقة السامرة بالتمديد ستة أشهر غير قانوني؛ لأن التمديد السابق كان أربعة أشهر، لذلك سأعيد أوراقك إلى قائد المنطقة ليخفض المدة، وسترجع إلى المحكمة يوم الأحد القادم.

لم يسرني قرار العودة إلى المحكمة، وكنت أفضل أن يوافق على التمديد ستة أشهر ويريحني من المشوار؛ لأنني كنت شبه متأكد بأنني سأقضي في الاعتقال الإداري خمس السنوات التي هي الحد الأعلى لاعتقال إداري متواصل.

لم يكن الخروج السريع يدور في أحلامي كما أنني لم أكن شديد الشوق إلى دخول منزل لا أجد فيه عاصمًا. لم أكن أتصور أنني أطيق النظر إلى الدار التي خرج منها عاصم ميتًا.

رأيت ذات يوم فيما يرى النائم أنني قد تحررت من السجن ودخلت الدار (ولم أكن أعرفها، فقد اشتروها وأنا في النقب) فإذا هي دار معتمة جدرانها مسودة بالدخان وغرفها عبارة عن زنازين ضيقة تتسع الواحدة منها لفرشة طولًا وعرضًا وجدرانها متهالكة وأرضها من اسمنت خشن. وجلست فجلست زوجة مالك وزوجة محمد، وكانت جلسة كئيبة وسألتهما عن الصغيرين؛ أنس بن مالك وإبراهيم بن محمد، فقالتا: هما نائمان، فقمت أتعرف على ما حول الدار، فرأيت في أقصاها غرفة فسيحة مفروشة هي خير من بقية الدار، فقالتا لي: هذه ليست لنا. وفتحت بابًا مطلًا على الشارع تصعد فيه السيارات صعودًا واقفًا وتدب كما تدب الصراصير، فقلت معزيًا نفسي: سأتسلى بأن أجلس أمام باب الدار أنظر إلى السيارات الصاعدة والنازلة، على الأقل هذا منظر غير متوفر في السجن.

ولكن الذي خفف عني مشوار عوفر بعد أن رجعت إلى المحكمة مرة ثانية يوم العاشر من تشرين ثان 2007، أنني التقيت في الزنزانة بأعزاء كنت أتوق إلى اللقاء بهم، هم أبو علاء، سعيد نخلة، وأبو مُسْلم، قتيبة خنفر والتقيت بثالث من الجهاد لم أكن أعرفه من قبل واسمه أبو أحمد فنونة، وكم كان سروري كبيرًا عندما أخبرني قتيبة خنفر أنه رزق ولدًا. وكان قد خرج من السجن فترة وهاهو يعود إليه بعد أن أصبح أبا مسلم حقًا، لقد سعدت بلقائهم، ثم جاء دوري إلى المحكمة فنادوا علي. فذهبت لأجد محاميين، أحدهما محامي الحركة وكنت قد طلبت من الأهل استبداله؛ لأنه لا يتصل بالأهل بعد المحكمة ولا يبلغهم بما جرى لابنهم، ويظلون بالتالي على جهل بما

يجري، فاتصلت زوجتي بمؤسسة الضمير، فأرسلوا لي الأستاذ محمود حسان، ولم يكن محامي الحركة قد علم أنه جرى استبداله، فحضر المحاميان وقال كل منهما: أنا محاميك إن اخترتني.

يا له من موقف محرج، وبعد أن فكرت في الأمر برهة قلت للأستاذ محمود حسان: رافع عني يا أستاذ. فلملم محامي التنظيم أوراقه وانسحب. وقدم المحامي مرافعته، ثم أُعدت إلى الزنزانة وبعد انتهاء دوام المحاكم رجعت إلى الرملة ومنها إلى هدريم كالمعتاد، وفي صباح اليوم التالي نزلت إلى ساحة الفسحة في الساعة التاسعة كما أفعل كل يوم، فلم أجد الشباب في انتظاري لدرس النحو والصرف؛ لأنهم يعرفون أن القادم من المحكمة يكون بحاجة إلى الراحة. وتمشيت في الساحة حتى العاشرة والنصف وهو موعد انتهاء الفسحة.

عندما كنت متوجهًا إلى زنزانتي لقيني رئيس القسم، الضابط الدرزي أبو شادي، فقال: أبو مالك، ماذا حصل في المحكمة؟ قلت: جرت المرافعة كالمعتاد ولا أعرف النتيجة، ثم نظرت في وجهه فرأيته كأنه يخفي كلامًا، فسألته: هل وصلتكم النتيجة؟ فقال: عندما تأتي النتيجة سأخبرك، ثم دخلت الزنزانة وجلست للإفطار، فجاءني ضابط يهودي لا يتكلم العربية، فقال كلامًا بالعبرية لم أفهمه، وقمت لاستوضح منه فوجدته قد ابتعد، وبعد قليل جاءني ثلاثة ضباط يهود، وقال لي أحدهم بعربية ضعيفة: يوسف عارف، روح بيتك.

يا لها من بشارة، فهو الإفراج إذًا، من غير توقع، وهذا يجعله أحلى في النفس، ثم جاءني الحرس من الدروز فقلت لهم: أريد أن أذهب إلى المخزن لآخذ حقيبتي، فصعدت إلى المخزن الكبير المليء بالحقائب واستغرق الأمر وقتًا حتى عثرت عليها، وبدأت أوزع أغراضي ووكلت الأخوين خالد الزواوي وعادل حريبات، في التصرف بكل ما لدي، ثم طلبت أن يُسمح لي بتوديع الشباب، فمررت على الغرف غرفة غرفة إلا الغرفة المجاورة لغرفتنا وفيها أصدقاء من حماس: عمر البرغوثي وابنه عاصم ومحمد عمر حمدان، فإنني لفرط الانشغال نسيتها.

لم تكـن إجـراءات الخـروج طويلـة، فقـد أعطـوني مـا لي عندهـم مـن أمانـة ماليـة وكانـت ثلاثـة عـشر شـيكلًا وأعطـوني تقريـرًا بالأدويـة التـي تصرفهـا العيـادة لي، وذهبـت إلى قسـم الأمانـات ولي فيهـا كتـب أريدهـا وأشـياء أخـرى لا أريدهـا فقـال لي المسـئول: سـنحتاج إلى وقـت طويـل للبحـث عـن أماناتـك نظـرًا لامتـلاء المخـزن، فقلـت: لا أريـد شـيئًا منهـا إلا كتابًـا بالإنجليزيـة عنوانـه (Palestinian Perspectives) (وجهـات نظـر فلسـطينية) وهـو عبـارة عـن مقـالات لكتـاب فلسـطينيين برعايـة الدكتـور (Wolf Gang)، باحـث مـن منطقـة اللوريـن الواقعـة بـين فرنسـا وألمانيـا فهـو يعـرِّف عـلى نفسـه بأنـه فرنسـي ألمـاني الجنسـية. ولي في هـذا الكتـاب مقـال عـن (التعليـم في فلسـطين تحـت الاحتـلال)، وأخـيرًا وأمـام إلحـاح الضبـاط بـأن أسـتعجل؛ لأن السـيارة في الانتظـار، تنازلـت حتـى عـن هـذا الكتـاب وخرجـت لأجـد سـيارة شرطـة في انتظـاري أوصلتنـي إلى حاجـز طولكـرم، كان ذلـك يـوم 11/ 11/ 2007، وتأملـت وأنـا متجـه إلى الحاجـز في السـهول التـي حـول السـجن والتـي لا يـرى منهـا السـجين شـيئًا عـلى الإطـلاق، مـا أجملهـا، إنهـا بيـارات برتقـال وحمضيـات مـن كل الأشـكال، ولهـذا سـميت المنطقـة بهدريـم ومعنـاه في العربيـة: البيـارات، وسـمي السـجن باسـم المنطقـة. وعنـد الحاجـز فكـوا قيـودي وأعطـوني حقيبتـي الصغـيرة، وأخـذت التفـت لعلنـي أجـد سـيارة عربيـة فلـم أجـد.

إنهـا المـرة الأولى منـذ سـبعة وثلاثـين شـهرًا أسـير فيهـا بـلا قيـود، وأسـير مسـافة، وجـدت نفسـي غـير متـوازن في المـشي، فقـد نسـيت المـشي الطويـل ولم أكـن أمـارس الرياضـة؛ لأنهـا ليسـت هوايتـي منـذ صغـري، وهـذا أمـر سـلبي، ففـي تلـك اللحظـة أدركـت كـم كنـت مخطئًـا في إهمـال الرياضـة. وتأملـت في الشـارع الـذي بـدأت مواصلـة المـشي فيـه، فأيقنـت أنـه ليـس للعـرب إذ لم أَرَ فيـه أيـة سـيارة عربيـة كـما أنـه عريـض ومعبـد بشـكل بالـغ الإتقـان، هـذه ليسـت شـوارع العـرب، إنـه _دون شـك_ شـارع لليهـود أُنشـئ مـن أجـل المسـتوطنات لا مـن أجـل طولكـرم، فـما العمـل إذًا؟ واصلـت السـير وأنـا في حالـة مـن عـدم التـوازن. المـشي الحـر غريـب عـلي والجـو الـذي أنـا فيـه أشـد غرابـة، إننـي أشـعر بسـعادة غامـرة وإننـي وإن كنـت لـن ألقـى عاصـمًا فسـوف ألقـى أحبـاءً ينتظرونني. لم أسر إلا قليـلًا حتـى نظـرت عـن يسـاري فرأيـت سـيارتي تكسـي أجـرة عربيتـين تقفـان في أول طريـق يقـع

أسفل من الطريق الذي أسير عليه، أشار إلي أحد السائقين أن أهبط الطريق من فتحة في الحاجز الذي هو من الأسلاك المربعة ومن الواضح أنه أقيم لمنع العرب القادمين من طولكرم من الصعود إلى الشارع المخصص للمستوطنات اليهودية. الطريق العربي منخفض جدًا والوصول إليه يحتاج إلى الدخول من فتحة الحاجز وفيها أسلاك تأخذ ثياب من يقتحمها أو تجرح يديه، إن لم يُبد أقصى درجات الحذر، وكنت غير متوازن فأصاب أحد الأسلاك يدي اليمنى، وعندما أردت هبوط المنحدر لم أتمالك أن وقعت على ركبتي فلحق جرح بركبتي اليمنى، ووصلت السيارتين والدم يتصبب من يدي، وعندهما دكان لا تبيع شيئًا، وفيها ماء، فغسلت يدي، أما ركبتي فلم يعرف بأمرها أحد ولقد عانيت منها أياما طوالًا.

ركبت إحدى السيارتين وتوجهت بي إلى حاجز بيت إيبا، وهناك ينزل المسافر إلى نابلس مشيًا على قدميه ولا يخضع لأي تفتيش فالتفتيش للخارج لا للداخل، وكان بالانتظار صهري أبو همام الدكتور حسن أبو الرب وابناي مالك ومحمد وأوصلوا الأجرة للسائق مع سيارة خارجة من الحاجز.

بالطبع كان من الجميع السرور والترحاب عند دخول الدار، وبعد أن استرحت قليلًا تفقدت الدار فأعجبتني ونظرت إلى صور عاصم في كل مكان فترحمت عليه ولم تمنع ذكراه من الشعور بالسعادة بلقائي الأحباب.

في البداية حدث أكثر من مرة أنني أريد أن أدعو مالكًا أو محمدًا فأجدني ناديت عاصمًا، ثم أستدرك الأمر سريعًا.

استقبلت الأهل والأصدقاء يومين في نابلس، ثم مكثت في جالود ثلاثة أيام أستقبل الأهل وأبناء العائلة والأصدقاء من قريتنا والقرى المجاورة، ثم عدت والعائلة إلى نابلس لأبدأ حياة جديدة في ظل الحرية.

كانت _ولا زالت_ المشكلة التي أواجهها صحية بالدرجة الأولى، فقد عانيت من اضطراب شديد في الأنف، واكتشفت أنني أواجه مشكلة صحية لم أكن قد اكتشفتها وأنا في السجن وهي أنني أشعر بتعب في صدري إذا مشيت في طريق مستقيم

أو في طريق صاعد، وراجعت طبيبًا مختصًا بالقلب أكد لي بعد الفحص ان كل شيء عندي على ما يرام وأوصاني بالمشي، ثم تبين لي فيما بعد أن ذلك الطبيب لم يكن ماهرًا بما فيه الكفاية.

كان همي الأول لدى بدء حياتي الجديدة أن أتفرغ لمراجعة كتاب «تيسير العسير في النحو والصرف» فأخذت أراجعه في النهار والليل، فإنني لم أعد إلى التدريس في الكلية التي كنت أعمل فيها؛ لأن الشاغر قد ملأه غيري بمجرد أن تم اعتقالي.

إن مراجعة الكتاب الذي يتجاوز سبعمائة صفحة لا تقتصر على تصحيح الأخطاء المطبعية وحدها، ولكن ثمة شرح يحتاج إلى توسيع أو إلى تعديل وأمثلة تحتاج إلى تنويع، وهكذا في ما يقرب من ثلاثة أشهر من تفريغ الجهد له راجعت منه ثمانين صفحة، أي ما يقرب من 10٪ من حجم الكتاب.

وكانت أمامي مهمة أخرى لا مناص من الاضطلاع بها وهي إعادة ترتيب أمور وجدتها قد أصابها الخلل، وأعلم مسبقًا أن ثمن هذه المهمة سيكون العودة إلى السجن، وهذا ما حصل بالفعل.

الاعتقال مجددًا

قبيل فجر السادس من شباط 2008 سمعنا قرعًا على الباب بالغ الشدة والإلحاح فلم يخامرنا أدنى شك في أنه الجيش، وفتحنا الباب وبعد أن تأكدوا من هويتي طلبوا مني أن ألبس ملابسي واصطحب أدويتي وأخرج معهم، ففعلت ذلك وزوجتي في حالة ذعر يصعب عليها معه الكلام، وساروا بي مسافة طويلة، ثم مالوا بي إلى معسكر لم أعرف أين هو، وكان الاعتقال هذه المرة فيه من الاحترام ما ليس في الاعتقال السابق. في المعسكر رفعوا الغطاء عن عينيّ وجاءني ضابط يسألني عن رقم جوالي. أدركت من سؤاله أنهم لم يصدِّقوا أن الجوال الذي أعطيتهم إياه والذي ينتمي إلى جيل قديم هو جوالي. قلت له: وهل أمهلتموني حتى أحفظ رقم جوالي؟ ثم أردفت: ألا تريدون أن يبقى أحد خارج السجن؟ قال: من أراد أن يبقى خارج

السجن يستطيع ذلك. وبعد فترة بسيطة قالوا: سنرسلك إلى مجدو مباشرة. فاركبوني سيارة من سيارات الجيش وجلست في المقعد الخلفي، وفي الأمام جنديان أحدهما السائق وانطلقت بنا السيارة إلى مجدو فوصلناها بعيد الظهر وبعد أن مكثت في الانتظار قرابة الساعة أُدخلت القسم.

إنه ليس مجدو الذي أعرفه والذي كنت قد مكثت فيه سنتين، دخلت غرفة للجهاد الإسلامي وهي إحدى غرفتين للجهاد في ذلك القسم، سألت الشباب: في أي قسم نحن؟ فقالوا: إنه قسم «6». سألتهم: على أرض أي قسم من الأقسام السابقة يقع قسمنا هذا؟ قالوا: إنه موضع قسم «4»، إنه بناء حديث أنشأته سلطة مصلحة السجون (الشاباس)، وجميع بنايات السجون الحديثة التي أقيمت في المعتقلات الثلاث؛ مجدو والنقب وعوفر، نمط واحد؛ بناء من اثنتي عشرة غرفة خمس أسفل وسبع أعلى، بالإضافة إلى قسم الكنتينة، غرفة الغسيل وفيها غسالة ونشافة كبيرتان، تؤخذ ملابس الأسرى غرفة غرفة وتعود بعد ساعة واحدة نظيفة جافة جاهزة للاستعمال. وفي الطابق الأعلى غرفة مخزن كبيرة وفي كل طابق صف من الحمامات التي لا يكاد ينقطع منها الماء الساخن، واستحمام الأسرى يومي، وبعضهم يستحم أكثر من مرة في اليوم، خاصة في الصيف، ويُصعد إلى الطابق الأعلى على درج حديدي.

في القسم «6» حيث نزلت في مجدو وجدت بعض من كنت أعرفهم في السابق، وجدت في الغرفة العليا التي للجهاد: أبا مؤمن، محمد فارس جرادات وأبا أحمد شريف طحاينة. ووجدت آخرين منهم أبو أدهم زيود أمير الجهاد في القسم وشقيقين من طوباس، سامر صوافطة وشقيقه أبا آدم. حسام صوافطة، (وهو متزوج من يهودية له منها ولد وابنتان، وعلمت فيما بعد أنها طلقته) ووجدت عددًا من القياديين من حماس، منهم النائب ناصر عبد الجواد من سلفيت وأخبرني أنه تخرج من المدرسة الثانوية الإسلامية عندما كنت معلمًا فيها، ومن غرفة مغلقة ناداني معتقل وعرفني على نفسه إنه الدكتور عمر عبد الرازق، وزير المالية في حكومة الوحدة الوطنية، ثم سألني: ألا تعرفني؟ قلت: أعرف عن الدكتور عمر عبد الرزاق وزير المالية ولكن: هل سبق أن التقينا؟ قال: هل نسيت؟ لقد كنا نلتقي في جامعة النجاح، في مكتب الدكتور عبد

الستار قاسم. قلت: لا تؤاخذني، ربما نسيت. والتقيت كهولًا عرفني بعضهم على نفسه وقال: إنه تلميذي في سالف الأيام.

إن وجود الأسير في وسط من الأصدقاء يخفف عنه إلى أبعد حد وحشة السجن.

كانت الفترة فترة الغضب الإسرائيلي على وزراء حماس ونوابها، وكانوا مبعثرين في السجون، وفي المشوار اليومي إلى العيادة كنت التقي أحيانًا النائب المرحوم الشيخ حامد البيتاوي الشيخ المريض بالسكري مرضًا أدى إلى بتر بعض أصابع قدمه، إنه يأخذ الأنسولين مرتين في اليوم ولا تفارقه العكازة. كان في ملابس الشاباس ويلبس طاقية، وكانت معنوياته رغم حالته الصحية، عالية.

ورأيت عن بعد الحاج عدلي يعيش وهو تاجر ثري ورجل خير يقصده المحتاجون، وكان من المشرفين على المدرسة الثانوية الإسلامية التي أعمل فيها. لم يكن الحاج عدلي في التشريعي ولا في الوزارة لكنه كان _ولا يزال حتى اللحظة_ رئيس بلدية نابلس ولأنه من حماس اعتقلته قوات الاحتلال. تبادلتُ وإياه التحية عن بُعد.

قضيت في مجدو شهرًا كاملًا أعطيت الشباب فيه دورة في تاريخ الأحزاب والفرق الإسلامية ودورة في تفسير القرآن الكريم، كما أن أبا آدم، حسام صوافطة أخذ على عاتقه تعليمي اللغة العبرية المتقدمة، وبدأت وإياه القراءة من الصحف العبرية المتوفرة، ولو طال بقائي في مجدو لأتقنت على يده اللغة العبرية إلا أن بقائي في مجدو لم يطل؛ ففي أوائل شهر آذار أخبروني ليلًا أنني منقول إلى النقب، وعند الصباح، وبعد أن ودَّعت الشباب وأخرجت أمتعتي خارج القسم قيل لي: إنك منقول إلى عوفر.

في عوفر

كانت إقامتي في عوفر قرابة سبعة أشهر تنقلت فيها بين ثلاثة أقسام، والفرق بين عوفر ومجدو ليس كبيرًا. إنه لا يقارن بين السجون بنوعية الطعام والشراب في كل سجن فهذا غير مهم، والفرق ليس كبيرًا بين السجون في هذه الناحية، والمهم الوحيد في هذا المجال أن السجين في كل السجون والمعتقلات الإسرائيلية يجد الخبز الكافي،

ولكـن رداءة الطعـام تعتـبر عنـد السـجين أمـرًا بديهيًـا، فهـو ليـس في فنـدق.

إلا أن المقارنـة بـين سـجن وآخـر تكـون في نوعيـة الأسرى ومسـتوياتهم، وفي هـذا المجال ثمـة تفـاوت كبـير؛ فبينـما يحتـل سـجن هدريـم المرتبـة الأولى في جـودة نزلائـه الذيـن هـم عليـة القـوم نجـد في عوفـر ومجـدو تفاوتًـا كبـيرًا في المسـتويات وبالتـالي في الثقافـة والأخلاقيـات.

إن أهـم مـا في الحيـاة الاعتقاليـة أنهـا تهيـئ للمعتقـل فرصـة حقيقيـة للتعلـم وتمـده بالثقافـة التـي لـن يجـد متسـعًا مـن الوقـت ليسـعى إليهـا وهـو خـارج السـجن.

سرت في عوفـر سـيرتي في مجـدو: تثقيـف الشـباب بمواقـف الحركـة ومبادئهـا ومواطـن الاتفـاق والاختـلاف بينهـا وبـين الفصائـل الأخـرى، وفي وقـت آخـر مـن النهـار دورة تفسـير لسـور منتقـاة مـن القـرآن الكريـم، بالإضافـة إلى دورة في محـو الأميـة لعـدد مـن الشـباب مـن فصائـل مختلفـة وكذلـك دورة في النحـو والـصرف لطالبيهـا، وكانـوا بشـكل رئيـس اثنـين؛ أبـو سـليم، فـواز خليـف مـن الجهـاد الإسـلامي، وأبـو غالـب، عـلي جـرادات مـن الجبهـة الشـعبية، وكلاهمـا في أول العقـد الخامـس مـن عمـره.

إن الـدرس الـذي تعلمتـه خـلال الفـترة الاعتقاليـة الأخـيرة أننـي بحاجـة ماسـة إلى الرياضـة. فقـد كنـت أعـاني مـن متاعـب صحيـة تعـود إلى خمـول الجسـم، وبـذا بـدأت في عوفـر أمـارس الرياضـة، وبـدأ يظهـر تحسـن عـلى صحتـي إلا أننـي كنـت بحاجـة إلى فحـص متخصـص للعينـين، فذهبـت إلى هنـاك وكان في المشـوار نفسـه الصديـق عـلي جـرادات، والتقيـت هنـاك بعـض قيـادات حمـاس مـن أعضـاء التشريعـي مثـل أحمـد الحـاج عـلي ونـزار رمضـان والمرحـوم زهـير لبـادة وآخريـن وجلسـنا جلسـة طويلـة تذاكرنـا فيهـا شـؤون السـاعة وأحـوال الشـعب الفلسـطيني في ظـل الانقسـام. شـاهدنا في ذلـك المستشـفى أنواعًـا وأشـكالا مـن المآسي، ومـن جملتهـا مأسـاة شـاب يجلـس عـلى الكـرسي المتحـرك برجـل واحـدة وقـد أخـذت الحـرب الفصائليـة رجلـه الأخـرى. ويكفـي أن ينظـر الزائـر إلى الأدوات التـي يسـتخدمها الأسرى النازلـون في المستشـفى مـن كـراسي متحركـة وأجهـزة مـشي (ووكـر) وعـكازات للمعاقـين وأَسِرّة خصوصيـة وغـير ذلـك حتـى تكتمـل عنـده صـورة الجانـب

المأساوي من حياة هذا الشعب، ولكن الجميع معنوياتهم عالية.

التقيت بقاسم عياد من سيلة الحارثية، قضاء جنين وهو الذي كنت أرسل الكتب والملابس عن طريقه إلى حمزة في سجن جلبوع. والحقيقة أن مستشفى سجن الرملة كان خير وسيلة للتواصل بين السجون، قبل أن تقرر مصلحة السجون منع المرضى الوافدين من الاتصال بالمرضى المقيمين. والتقيت عثمان الخليلي وهو من نابلس ومصاب بشلل نصفي من رصاصة أطلقت على السيارة التي كان هو وأصحابه فيها، وكلا الشابين من الجهاد الإسلامي، وقد أُفرج عنهما في وقت لاحق، وزرت كلًا منهما في بيته. ثم أعيد اعتقال عثمان وهو في هذه الأثناء (شهر أيلول 2012) كما التقيت بآخرين منهم شيخ مقدسي ينتمي إلى القيادة العامة كنيته أبو إسماعيل، كان يقضي كل وقته في الأشغال اليدوية وبلغنا فيما بعد نبأ وفاته، رحمه الله.

تعودت في عوفر على المشي الصباحي ساعة كاملة استمع خلالها إلى الأخبار من راديو صغير بسماعات، وأروِّض جسمي بالمشي، مع أنواع من التمارين الرياضية الأخرى، داومت عليها في النقب وكان لها أثر إيجابي واضح على صحتي.

في المحكمة، بعد أن انتهت فترة الاعتقال الأولى من ستة أشهر، جاءني تمديد مدته أربعة أشهر وبعده نقل إلى النقب. كان القسم الذي دخلته وعددًا من المنقولين قسم «6» في الغرف التي بنيت حديثًا، ونظامه هو نفسه نظام مجدو وبناؤه مطابق تمامًا لبناء أقسام مجدو، وكانت الغرفة التي نزلت فيها للجهاد الإسلامي كاملة في البداية وبذا كنت أعطيهم دورة التثقيف المعتادة، ثم تناقص العدد ودخل الغرفة شباب من فتح، فتوقفت الدروس التنظيمية، وكانت العلاقة بين الجميع أخوية لا يكدرها شيء. وفي هذا القسم ذهبت إلى محكمة التمديد المنعقدة في النقب، وقرر القاضي أن التهم السرية المقدمة من قبل النيابة ليست خطيرة ولا تستوجب مزيدًا من الاعتقال، فاستأنف النائب العسكري القرار وبعد أيام ذهبت إلى محكمة الاستئناف وهناك التقيت أسيرًا كنت أتوق إلى التعرف عليه ووجدته هو أيضًا كذلك، إنه أبو أحمد، وليد الهودلي، الذي يعيش عند حماس ومشاعره قريبة جدًا من الجهاد الإسلامي، وهو زوج القيادية

الكبيرة في الجهاد الإسلامي، عطاف عليان (أم عائشة)، كما التقيت بعض قيادات الجهاد الإسلامي.

لقد كان لقاءً مؤنسًا، وكانت محاميتي تمارا بيلغ، يهودية متطوعة وإنسانة، ولم يمنعها كونها في السبعين من العمر وتمشي على عكاز من أن تأتي إلى سجن النقب لترافع عن بعض من توكلت عنهم بالمجان.

بعد انتهاء المحكمة عدت إلى القسم وظللت أنتظر النتيجة وأراجع الإدارة في الأمر، فجاءتني ضابطة تقول: إن قضيتك موضع خلاف بين قاضي الاستئناف الذي يريد إطلاق سراحك والنيابة التي تريد إبقاءك، فاصبر وقد تكون النتيجة الإفراج عنك.

في اليوم الحادي عشر من تشرين ثان 2008 جاءني ضابط درزي يقول: أبو مالك، أنت مطلوب إلى قسم آخر، عليك أن تجهز نفسك الآن، فظننت أن في ذلك القسم إشكالًا ما، ومأمول مني أن أحله، وقد حدث ذلك في السابق في كل من مجدو وعوفر، وعلى هذا الافتراض وافقت على الانتقال، مع أنه اختياري لا إجباري وأنني كنت قد رفضت النقل قبل أيام. وخرجت من ذلك القسم إلى قسم «1» فيما يعرف بالآبار.

لم أجد مشاكل، أو لم أمكث في القسم إلا أربعًا وعشرين ساعة، فلم أطلع على أية مشاكل، ولكنني وجدت صديقًا كنت أتوق إلى رؤيته، إنه الأستاذ أبو ثابت، مصطفى شاور وكذلك المهندس عبد الجبار دويكات وولده عادل، وإخوة آخرون.

في تلك الليلة زارني الأستاذ أبو ثابت وتحدثنا عن الحالة المزرية التي وقع فيها الشعب الفلسطيني وأوضحت له رأيي أنه لو كانت حركة المقاومة الإسلامية قد تمسكت بموقف المعارض وابتعدت عن المشاركة السياسية لما وقع الشعب الفلسطيني في هذه الورطة، وأعربت عن رأيي في أنه لا حل ولا مخرج من الأزمة الراهنة إلا في انسحاب حماس من السياسة التي هي مجال التلاعب والتآمر الدولي والعربي والمحلي، والعودة إلى المقاومة التي فيها تعزيز للشعب الفلسطيني ولقضيته واستعادة لهيبة حماس ومكانتها.

عقدت جلسة تثقيفية مع شباب الجهاد الإسلامي، أوضحت لهم فيها ثوابت الحركة، خاصة فيما يتعلق بالتشريعي وبالسلطة الفلسطينية وبالموقف من منظمة التحرير وبعلاقاته مع الجميع على الساحة الفلسطينية، وقد أوضحت كل هذه الأمور بأقصى درجات الإيجاز والتركيز لاحتمال الا أتمكن من الجلوس معهم بعدها.

وفي اليوم التالي وعندما كنت أهم بالوضوء لصلاة العصر سمعت مناديًا على باب القسم يقول: أبو مالك، مبروك، جاءك الإفراج.

ودعت الشباب في الخيمة وكان أبو ثابت قد ألحّ علي قبل أن يأتيني نبأ الإفراج أن أعطي الشباب «دُريسًا» بعد العصر، فصليت فيهم العصر، ووقفت فقلت لهم: أما الدُّرَيس: فالحمد لله رب العالمين وأسال الله أن يمن عليكم جميعًا بالفرج العاجل.

كانت الرحلة طويلة وعبرنا إلى الضفة الغربية من معبر ترقوميا، ثم ركبت أنا وثلاثة من المفرج عنهم سيارة تكسي متعاقدة مع نادي الأسير الفلسطيني فهي تتقاضى أجرتها منه، وفي رام الله كان مالك بانتظاري وابنيه الحبيبين أنس ويوسف وزوجته، أما محمد وزوجته وولده إبراهيم فكانوا في ذلك الوقت يساكنوننا في الدار نفسها بنابلس، ولم تكن الصغرى «إيمان» قد جاءت إلى الدنيا بعد، وكان في الانتظار أم همام وأنجالها الأحبة همام وزهراء وأسماء وأروى وطاهر، فانطلقنا إلى نابلس لألقى الأحبة ولأبدأ من جديد حياة الحرية في ربوع الوطن.

الحكم على حمزة

بعد ثلاثة أيام من خروجي الأخير من السجن كانت محكمة حمزة التي سينطق القاضي فيها بالحكم، وجاءنا إلى نابلس جدته أم سعيد وخاله سعيد وتوجهنا إلى محكمة سالم وكنا ثلاثة: سعيد وهمام وأنا. لم تكن المرة الأولى التي أدخل فيها محكمة سالم، فقد دخلتها معتقلًا مرات ومرات، ولكنها المرة الأولى التي أدخلها زائرًا، وكانت الرحلة رحلة عناء وانتظار، وجاء دور حمزة متأخرًا فأدخلونا المحكمة وأجلسونا بعيدًا عنه بحيث يصعب الحديث معه، وجاء دوره ليقف أمام القاضي، ولم يكن ثمة مرافعات

ولا حيثيـات، ولكــن القــاضي نطــق بالحكــم الــذي اســتطاع المحامــي المرحــوم ريــاض الأنيس أن ينتزعـه وهـو السـجن الفعـلي أربعين سـنة لإدانتـه بالعمـل ضمـن سرايـا القـدس التابعـة للجهـاد الإسـلامي.

كان الحكـم ثقيـلًا عـلى قلوبنـا إلا أنـه لم يكـن مفاجئًـا، ولكنـه كان غريبًـا عـلى مـن حـضر المحكمـة، فحمـزة يبـدو أصغـر مـن سـنه، حتـى ليظنـه الناظـر إليـه أول وهلـة أنـه ربـما لم يبلـغ الحلـم، مـع أنـه عندمـا صـدر الحكـم عليـه كان في الثانيـة والعشريـن مـن عمـره. بعـد أن صـدر الحكـم سـمحوا لي بالاقـتراب قليـلًا منـه، فشـددت مـن أزره، وأعـرب عـن سـعادته بخروجـي مـن المعتقـل، ثـم أخـذوه بسرعـة، وخرجنـا مـن المحكمـة عائديـن إلى نابلـس، نحـاول أن نخفـف وقـع الحكـم عـلى قلـب والدتـه وجدتـه معللـين أنفسـنا بـأن الله لا بـد أن يغـير الاحـوال، ولا بـد أن يـأتي الفـرج لحمـزة ولجميـع المجاهديـن مـن أبنـاء الشـعب الفلسـطيني بهزيمـة تلحـق بالعـدو، تضطـره إلى التخـلي عـن غطرسـته وكبريائـه.

عنـد خروجـي مـن السـجن تقدمـت بطلـب تصريـح لزيـارة حمـزة، وجـاءني التصريـح أخـيرًا، وزرتـه في أوائـل آذار 2010، وكانـت زيـارة أدخلـت البهجـة إلى قلبـي وقلبـه، وكانـت أخبـاره الطيبـة ومعنوياتـه العاليـة وثنـاء عليـه مـن جميـع زملائـه المعتقلين، كلهـا مصـدر فخرنـا ومصـدر عزائنـا عـن وضعـه كمعتقـل محكـوم عليـه بعشرات السـنوات مـن السـجن الفعـلي. وهـا هـو يتواصـل معنـا ونتواصـل معـه بالرسـائل وعـن طريـق المحامـي، وبإرسـال رسـائل لـه بالإذاعـة وأهـم مـن ذلـك كلـه بزيارتـه عندمـا يحصـل أحدنـا عـلى تصريـح.

المتاعب الصحية وعملية القلب المفتوح

ذكـرت في سـطور سـابقة أنـه عـلى إثـر خروجـي مـن السـجن في تشريـن أول 2007 فوجئـت بأنـني أتعـب مـن المـشي حتـى في الطريـق المسـتقيمة، وكنـت أعـرف مـن قـراءاتي المقـالات الطبيـة أن هـذه الحالـة تعنـي أنـه ثمـة مشـاكل في الشرايـين أو في القلـب، أو أنهـا نذيـر بمشـاكل تنشـأ في المسـتقبل.

لقـد كان التعـب يتضاعـف إذا مشـيت بعـد الأكل، ويتضاعـف أضعافًـا مضاعفـة إذا مشـيت تحـت المطـر، أو في أجـواء رطبـة وريـاح بـاردة.

إن بلوانا مع أطبائنا أنه قليل منهم من إذا عجز عن تشخيص حالة صحية يقول: لا أعرف؛ لأنه يظن أن لا أعرف مغمز في علمه وكفاءته، لذا فقد استشرت أكثر من طبيب قلب أجرى لي تخطيطًا وقال: ليس عندك مشكلة.

وعند خروجي الأخير من السجن، فإن ممارستي الرياضة خففت من المشكلة، لكنها لم تضع حدًا لها، فتوجهت إلى طبيب قلب متخصص وعنده أجهزة حديثة، وبفحصه لي نصحني بأن أجري عملية تفتيش (قسطرة)، فهي الوسيلة الوحيدة لمعرفة حقيقة حالة القلب والشرايين معرفة أكيدة لا شك فيها.

وبعد المراجعات والإجراءات العديدة أجريت عملية القسطرة في المستشفى العربي التخصصي بنابلس، وهي عملية بسيطة تتم بالمخدر الموضعي ويجريها الطبيب في نصف ساعة، وعيون المريض شاخصة تنظر إلى شاشة التلفزيون التي تصور العملية.

بعد الانتهاء أنزلوني على المحفة إلى الطابق الأسفل بانتظار أن يأتيني الطبيب بنتيجة العملية. وكان علي أن أبقى مستلقيًا على ظهري ست ساعات كاملة كي لا ينزف موضع العملية.

وجاءني الطبيب وتلطّف بإخباري بأن لدي انسدادات في ستة مواضع من الشرايين، وإذا أردتُ التخلص من المتاعب، فعلي أن أقبل إجراء عملية قلب مفتوح.

هالني الأمر أول وهلة، ثم فكرت فيه وقررت الرضوخ للواقع، فوافقت على العملية.

وأجريت لي يوم 23/ 03/ 2010، واستغرقت حوالي ست ساعات، وبعدها أفقت على صورة الأهل من خلف الشباك وقد رفع لهم الستار، يرفعون أيديهم تحية وتعبيرًا عن البهجة بالسلامة، وكانت فرصة لمشاهدة الأصدقاء والسعادة برؤيتهم.

كانت فترة ما بعد العملية فترة النقاهة التي بدأت صعبة في البداية وظلت آلام الصدر والرجل تخف رويدًا رويدًا، وهي الآن بحمد الله طبيعية.

من عملية جراحية إلى عملية

عملية القلب المفتوح أُجريت لي في المستشفى التخصصي العربي بنابلس، وبعد أيام من النقاهة أصيب الجرح بنكسة، وكان لا بد من المبيت في المستشفى مجددًا، كان المبيت هذه المرة في مستشفى رفيديا، وأثناء المبيت انتابتني موجة ألم في أعلى المعدة، فأجريت لي فحوصات للمرارة، فإذا فيها التهاب داخلي خفيف، ونصحني الأطباء باجتناب الدهنيات.

في يوم عيد الفطر الذي صادف الرابع عشر من أيلول، نسيت نصيحة الأطباء فأكلت من طعام كثير الدهنيات، فبدأت تنتابني موجة ألم شديد، ولدى تصوير المرارة في المستشفى العربي التخصصي في اليوم التالي، تبين أن المرارة مصابة بالتهاب شديد وفيها بعض الترسبات، وأنه لا حل إلا باستئصالها فدخلت المستشفى العربي التخصصي، وتم استئصالها.

من اعتقال إلى اعتقال

في الرابع من تشرين الأول سنة 2010، توجهت إلى قريتنا جالود لتأدية بعض الواجبات الاجتماعية، وفي طريق العودة، عند حاجز حوارة وجدت قوة من العدو بانتظاري، وتبين أنهم كانوا يرصدون حركتي، فأوقفوا السيارة وطلبوا هويتي ولما تأكدوا من شخصيتي أنزلوني من السيارة وبعد ساعات من الحجز بلّغوني أنني معتقل.

تم التحقيق في جلسة واحدة لم تزد على ساعة، وجهوا لي خلالها التهم المعتادة: عضوية قيادية في الجهاد الإسلامي واتصالات وتلقي أموال وتوزيعها، فرفضت التعاطي مع المحقق واستنكرت أن أكون متهمًا، فقرر تحويلي إلى الاعتقال الإداري.

كانت الغرفة خاصة بالمعتقلين الإداريين، وتضم شبابًا وكهولا من كل الاتجاهات، وندير أحيانًا نقاشات مذهبية لا تلبث أن تتحول إلى خلاف عاصف بين السلفيين والجهاد الإسلامي بشكل خاص.

كان تلفزيون فلسطين يبث شريطًا مخصصًا للأسرى ليتواصل أهلهم معهم عن طريق الرسائل القصيرة فكان الأسرى على اتصال دائم بأهم ما يستجد لدى أهاليهم من أحداث.

في الرابع من كانون الأول سنة 2010، وكان يوم سبت، كنت أنهيت يومها شهرين من الاعتقال ودخلت الشهر الثالث، وبشكل مفاجىء سألني أكثر من أخ: لك حفيدة اسمها إيمان.

نعم، هي بنت محمد.

أكانت مريضة من قبل؟

مرضت مرة وشفيت، ولكن: ما القصة؟، ما سبب التساؤل؟

جاءت رسالة من أهلك تقول إن إيمان مريضة، وأنها دخلت المستشفى.

همست بيني وبين نفسي: عسى الله أن يشفيها، ثم تساءلت: أيُعقل أن يسارعوا إلى إبلاغي أنها دخلت المستشفى؟ لماذا لم ينتظروا شفاءها فيبشروني به؟ هل الأمر يتعلق بما هو أبعد من المرض؟ ولم يلبث أحدهم أن جاء متلطفًا ليقول لي: إنها ماتت.

يا إلهي ما أشدها من فاجعة، صحيح أنها لم تبلغ السنتين من عمرها، لكن حسرتها كبيرة. يا إلهي، عاصم وبعده إيمان، اللهم ارحمها وصبّرنا. سارع شباب القسم كلهم في تقديم واجب العزاء، ولقد تجرعت الأسى لموتها ولكن الصبر كان الغالب.

في أواخر كانون ثان من تلك السنة انفجر الشعب التونسي بثورة ضد حاكمه الدكتاتور، زين العابدين بن علي، وظلت الثورة تتصاعد وتنتشر في تونس كلها واستمرت بضعة أسابيع إلى أن فرَّ زين العابدين وزوجته وبعض أهل بيته إلى السعودية، كان ذلك انتصارًا عظيمًا للشعب التونسي، كنا نراقبه لحظة بلحظة، كانت تلك البداية الموفقة لسنة 2011، ما أجمل أن تتخلص بلد من حاكم نهب خيراتها، وأوقف عجلة التقدم فيها، وما أجمل أن يأتي الدور على الآخرين. الدور على حسني مبارك وجاء دوره والدور على القذافي وجاء دوره بالفعل والدور على علي عبد الله صالح وجاء دوره بالفعل وكلهم أتى إلى نهايته التي صنعها هو لنفسه، كل ذلك التغيير

والتبديل وتلك الجرأة المباركة من الشعوب وقع في تلك السنة المباركة سنة 2011، طالما تذكرت قول المرحوم جميل صدقي الزهاوي:

ومَـنْ لي بعـامٍ لا يشـابه غـيره   أرى فيـه أظفـار البُغـاةِ تُقَلَّـمُ

فأقول: جاءت السنة المرجوة، إنها سنة 2011، لقد قلِّمت فيه أظافر عتاة الطغاة: زين العابدين بن علي، ثم حسني مبارك، ثم معمر القذافي، ثم علي عبد الله صالح، وعلق نظام الأسد بثورة، والعيون شاخصة إلى الأنظمة الملكية. هل تتحرر شعوب العالم العربي لتلتقي مع شعوب العالم الإسلامي فيبدأ السعي الحثيث إلى إعادة دولة الإسلام بعقلية منفتحة وبنظام حديث وعلى أسس الشورى والمشاركة في الحكم مع نبذ العصبية المذهبية البغيضة ونبذ العصبيات القومية والإقليمية. وكل هذه العصبيات هي بتشجيع من أعداء الإسلام.

إن سنة 2011، سنة مباركة على الأسرى أيضًا، فبجهود حثيثة من وزير الأسرى، عيسى قراقع، عَدّلت أوضاع الأسرى ماديًا، فصارت مخصصاتهم قادرة على تلبية الحاجات الأساسية لأهاليهم. وهي عام مبارك على أبنائي؛ رقي مالك إلى وظيفة مدير دائرة الرقابة المالية في جامعة خضوري، وعُيِّن محمد مفتيًا لأريحا والأغوار، ونال علي في كندا وظيفة ثابتة وتحسنت أوضاعه وتحسن مخصصي ومخصص حمزة.

ظلت نشاطاتي في مجال الجلسات الثقافية كما هي، وكتبت لأبناء الجهاد مذكرة من ثلاثين صفحة تتحدث بإيجاز عن الحركة، تاريخها ومواقفها وإستراتيجيتها ونظرتها إلى المستقبل.

اكتشفت أن كتابي «الميزان بين السنة والشيعة» مقروء من أعداد كبيرة من المعتقلين، بمن فيهم السلفيون. وطبعت لي مؤسسة مهجة القدس الكتاب الذي يتناول بإيجاز تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ومواقفها وإستراتيجيتها بعنوان: المسيرة الجهادية لحركة الجهاد الإسلامي.

الإفراج

مكثت في هذا الاعتقال ثمانية عشر شهرًا، ثم قرروا تمديد اعتقالي ثلاثة أشهر وذهبت إلى محكمة عوفر لينظر القاضي في الأمر، فطلبت من المحامي أن يتخلى عن قضيتي، كي أدافع عن نفسي، فأراد القاضي أن ينصحني، فضرب لي مثلًا في أن المريض إنما يذهب إلى الطبيب؛ لأنه هو من يستطيع علاجه، فقلت: ثمة فارق، فالطبيب يستخدم علمه ومهارته، أما المحامي فيقف أمام مواد سرية، هو ممنوع من الاطلاع عليها، فلا يستطيع أن يقدّم مرافعة مجدية. ثم توجهت إلى القاضي بالسؤال التالي: هل تتوقعون مني إذا غادرت السجن أن أحمل سلاحي فأهاجم المواطنين وأطلق عليهم النار وأحرق الزرع وأحرق أشجار الزيتون وأدنس دور العبادة؟

قال القاضي: سننظر في الأمر ويأتيك الجواب لاحقًا.

وأعدت إلى معبر نتسان في الرملة، وهنالك جاءني الإفراج.

جاءني الإفراج مساء يوم 04/ 04/ 2012، وما أن استقررت في الدار حتى علمت بنبأ وفاة الشيخ حامد البيتاوي تحت العملية الجراحية، ذهبت في اليوم التالي بصحبة شقيقي فاروق وابني مالك إلى بيت الأجر وهنالك شاهدت جمعًا غفيرًا من الأصدقاء والمعارف، يهنئونني بالسلامة، لم أكن في صحة جيدة، وطلبوا مني كلمة فأجبتهم وأعانني الله عليها، وبعد اثني عشر يومًا أفرج الاحتلال عن الشيخ خضر عدنان الذي ضرب أروع مثل في الصمود، ذهبنا إلى عرابة وسلمنا عليه، في 17/ 04/ 2012 أعلن المعتقلون الإضراب بنسبة كبيرة وليس بالإجماع وتجاوب معهم الناس وأقيمت خيام الاعتصام في كل مكان، وكنت أقضي جزءاً مهمًا من وقتي يوميًا في الخيمة، وكانت الخيمة وسيلة للقاء والتعارف وتجديد المعرفة مع أصدقاء قدامى. ظلت خيمة الاعتصام قائمة إلى أن أُعلن عن توصل الأسرى إلى الاتفاق مع إدارة السجون يوم 15/ 05/ 2012 وتم تسليم واحد وتسعين جثمانًا لشهداء الأرقام، يوم 31/ 05/ 2012 ومنهم الاستشهادي الفارس سامي عنتر، استشهادي الجهاد الإسلامي الذي كان سجن حمزة بسبب قضيته. لقد تم استقبال الجثامين بترتيبات

مسبقة، وشاركت في إقامة بيت الأجر للشهيد الفارس سامي عنتر، وأقام كل أهل شهيد بيت عزاء له.

ها أنا أنهي مراجعة المذكرات في اليوم الذي أعلن فيه عن فوز محمد مرسي بمنصب رئيس الجمهورية في مصر.

وأعود إلى تيسير العسير ثم إلى بحثين آخرين كبيرين، راجيًا الله تعالى أن يجعل لي في العمر متسعًا وفي الصحة معينًا كي أتمم الأبحاث الثلاثة الكبيرة التي أطمح إلى إتمامها.

وها أنا أكمل المراجعة النهائية لهذه المذكرات في أجواء من الترقب والتكهنات حول حرب يشنها الكيان الصهيوني على الجمهورية الإسلامية ولبنان وربما على غزة وربما على سوريا أيضًا التي تشهد ثورة لا نعرف متى تنتهي وكيف تنتهي. إن المنطقة حبلى بالأحداث الجسام ونسأل الله أن يجعل النصر في جانب عباده المسلمين، ومن يعِش يَرَ.

يوسف عارف الحاج محمد
نابلس، الرابع من ذي القعدة 1433 هجرية
الموافق: التاسع عشر من أيلول 2012 ميلادية

ملحق توثيقي بالصور

من حياة الشيخ الأستاذ
يوسف عارف الحاج محمد

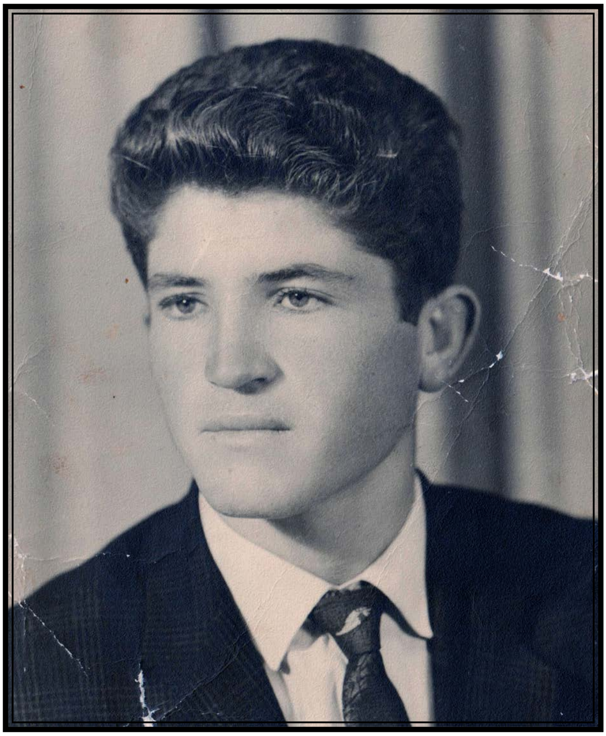

أبو مالك بداية الدراسة الجامعية في العام 1966

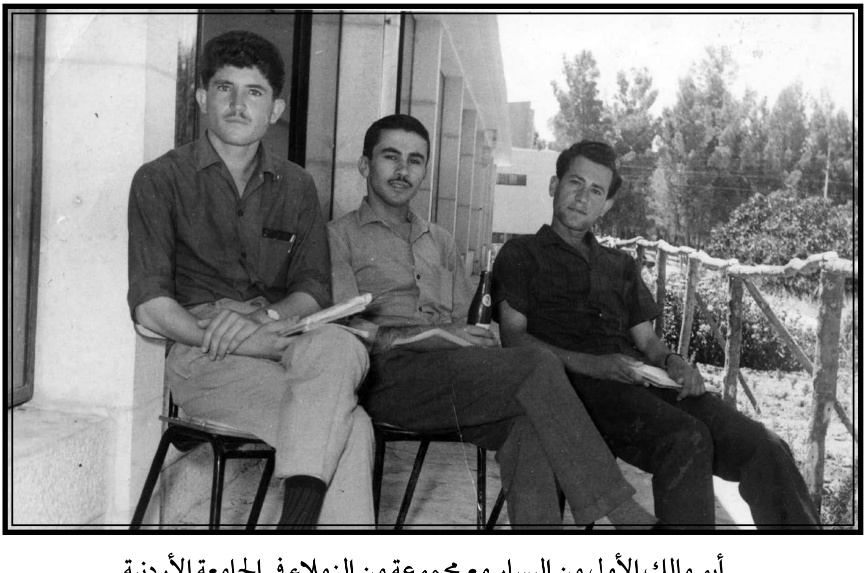

أبو مالك الأول من اليسار مع مجموعة من الزملاء في الجامعة الأردنية

أبو مالك يوم تخرجه من الجامعة الأردنية في العام 1969

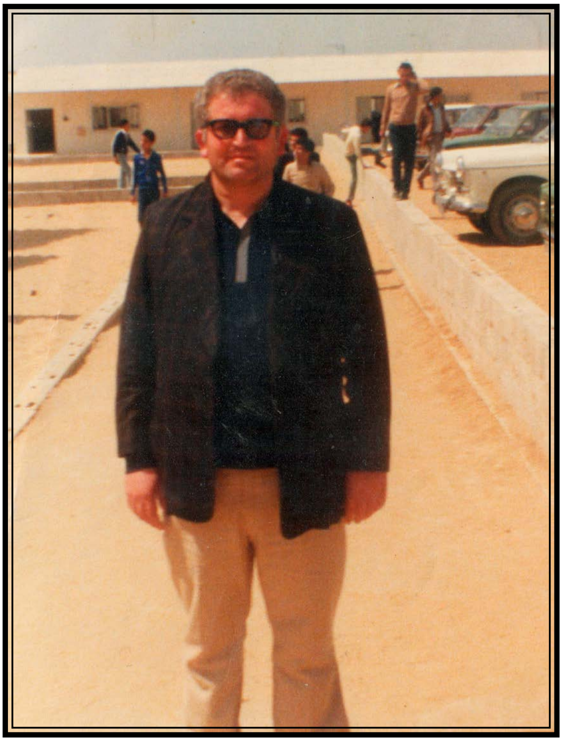

أبو مالك في زيارة نظمتها المدرسة الإسلامية إلى قطاع غزة في العام 1985

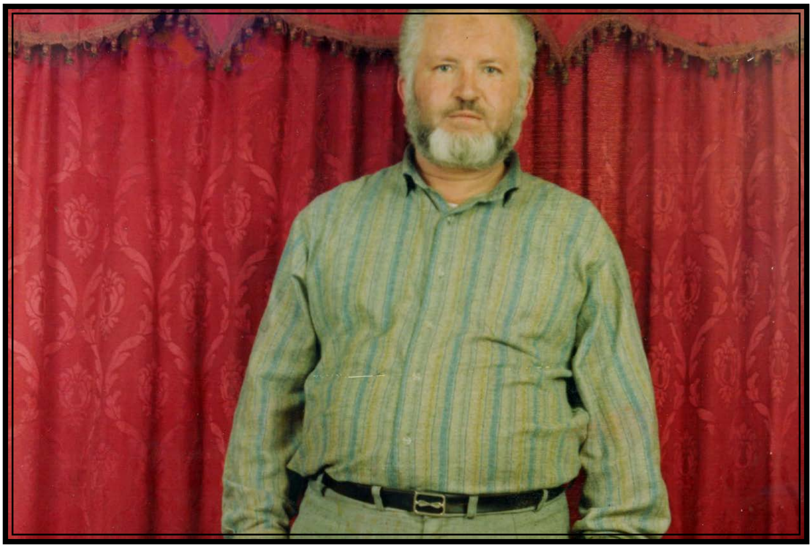

أبو مالك في عام 1995

أبو مالك محاضراً في ندوة عقدت في جامعة النجاح عام 1995

أبو مالك وعلى يمينه المناضل بسام الشكعة وعن يساره الشهيد جمال سليم

أبو مالك خطيباً في إحياء الذكرى الثانية لاغتيال الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي في جامعة النجاح الوطنية

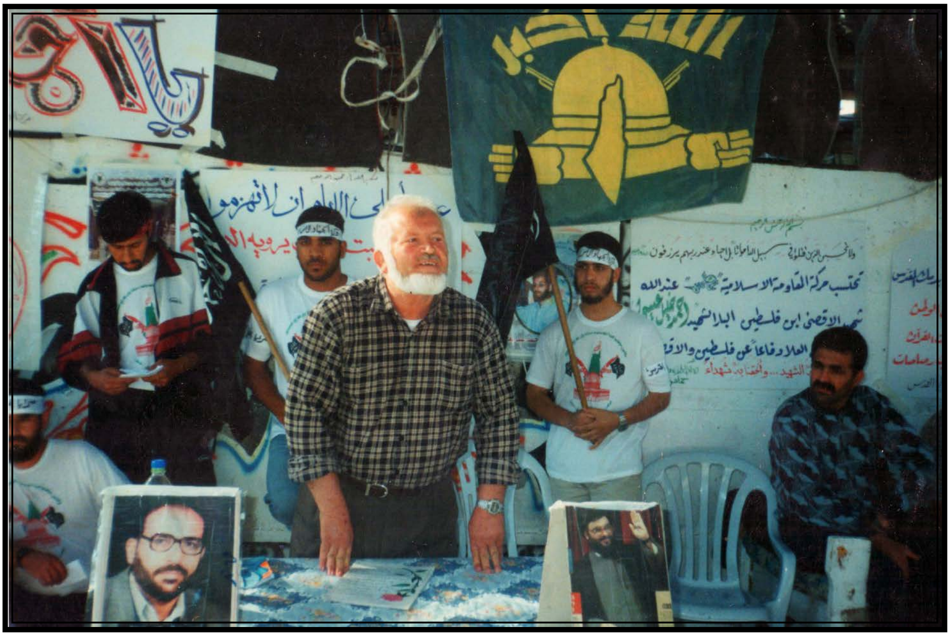

أبو مالك خطيباً في سجن مجدو في العام 2001

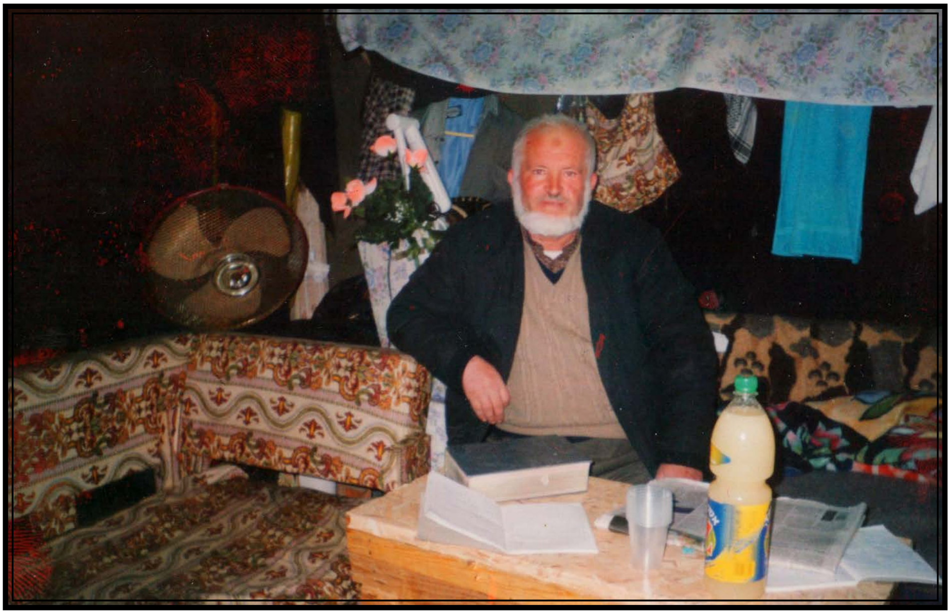

أبو مالك في سجن مجدو في العام 2001

أبو مالك في سجن مجدو وبرفقته عدد من الشباب في العام 2001

أبو مالك يتوسط الرفيق عبد الرحيم ملوح من اليمين والمناضل مروان البرغوثي

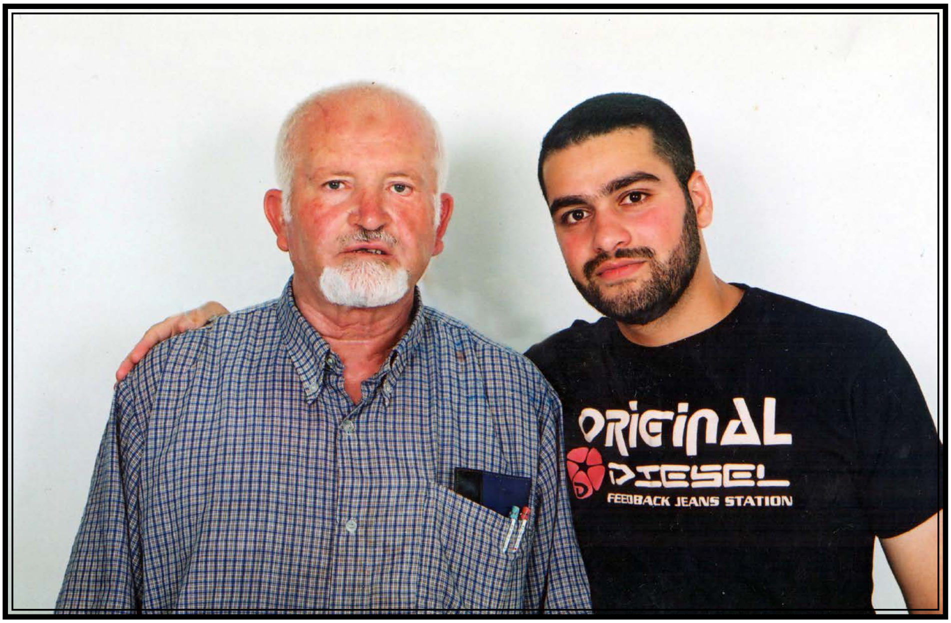

أبو مالك مع الأسير المجاهد سعيد الطوباسي في سجن هدريم في العام 2007

أبو مالك في زيارة لابنه الأسير المجاهد حمزة في سجن هدريم في العام 2010

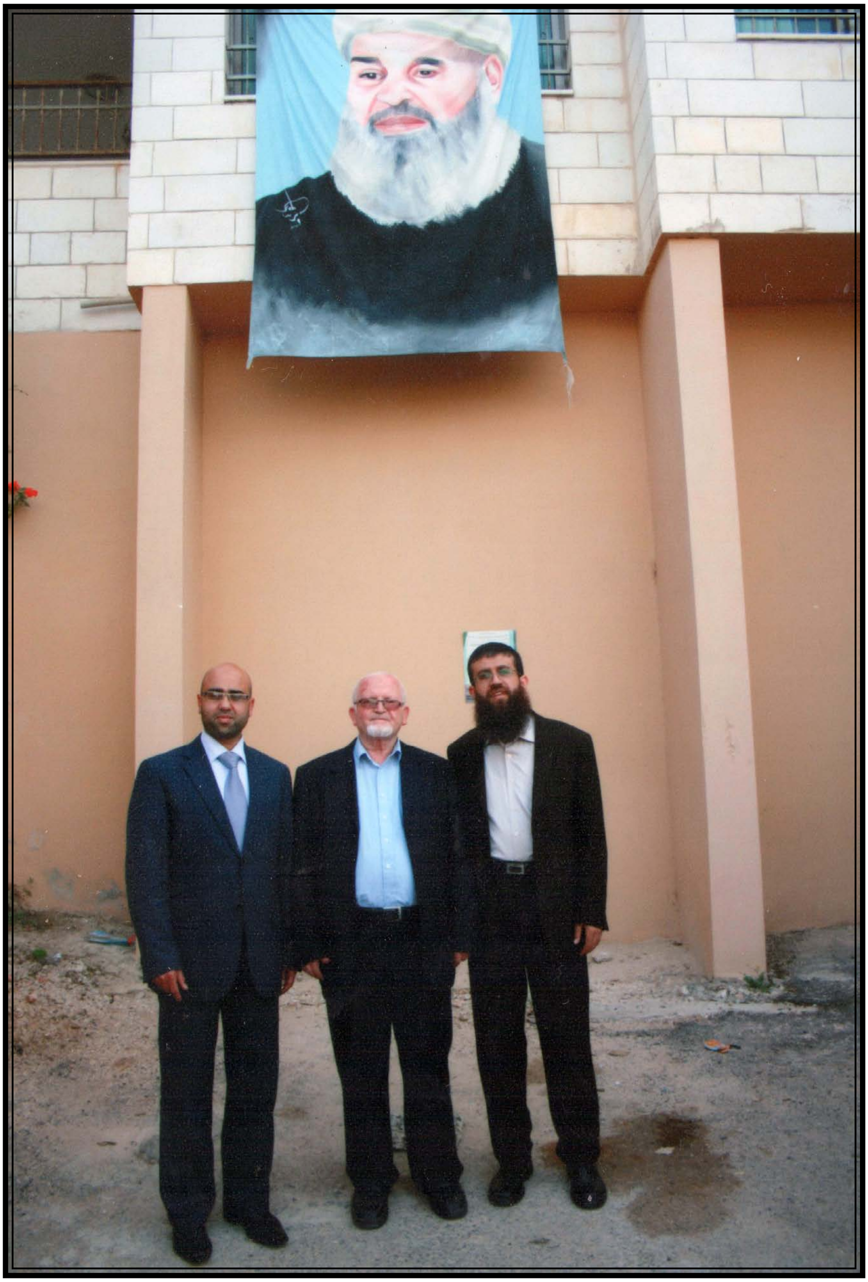

أبو مالك والشيخ خضر عدنان في زيارة تضامنية لمنزل الشيخ المرحوم حامد البيتاوي

أبو مالك والشيخ خضر عدنان في فعالية تضامنية مع الأسرى المضربين عن الطعام في العام 2012

أبو مالك في تهنئة الأسيرين المحررين بالإفراج طارق قعدان وجعفر عز الدين بتاريخ 10/ 05/ 2012

أبو مالك والشيخ خضر عدنان في زيارة تضامنية مع عائلة الأسير حسن الصفدي

صورة أبي مالك في خيمة التضامن مع الأسرى في إضراب الكرامة 2012

صورة تذكارية في بيت عزاء أبي مالك في نابلس بتاريخ 14/ 10/ 2013

الفهرس

الفهرس

الإهداء 7

مقدمة الناشر 9

بين يدي الكتاب.. 11

المقدمة 13

البداية.. 15

قيمة الإنسان والحياة في ذلك الوقت 19

الشيء بالشيء يُذكَر.. 23

عصر الإنسان الأول 24

حادثة لا تُنسى.. 26

خبرة وأي خبرة 28

من مظاهر التعاون بين الناس في ذلك الوقت 28

الأتون 32

نظام الدراسة في الخمسينات.. 36

تصرف طفولي.. 37

المرقّع عنوان من عناوين الفقر 42

أدب تلك الفترة 43

في المآتم.. 44

ثقافة الناس في فترة الخمسينات.. 46

المطالعة هوايتي 48

مؤامرات على الإسلام 49

صورة اجتماعية وسياسية.. 53

الفلاحة قبل عصر التكنولوجيا.. 56

صور من خيبة رجاء الفلاح.. 59

استقلالية الفلاح في عيشه 62
بداية عهد التكنولوجيا 65
وانتهى عهد البيادر 68
الحكايات الشعبية – قول يا طير 70
معركة قول يا طير 72
الطبيعة في تلك الفترة 74
عصر المذياع «الراديو» 80
عودة إلى ما بعد الابتدائية 81
عودة إلى الأحداث السياسية في عقدي الخمسينات والستينات 81
إيلي كوهين 89
ثم سكنا دارًا مضاءة بالكهرباء 92
زيارة الملك لنابلس 93
الأحداث السياسية الكبرى في تلك السنة (1964–1965) 94
دعوة ملكية 98
الفاجعتان 100
نذر العاصفة 102
غارة السَّمُّوْع 103
حمى الإعلام العربي في ذلك الوقت 114
فجيعة في جالود 116
العاصفة 120
الحالة النفسية العامة بعد النكسة 137
انطلاق العمل المسلح بعد العام 1964 142
من مظاهر غياب الاستراتيجية 144
طرفة 150
قيمة الحرية 150
مشاكل في المعسكر 152

التدريب الحكومي على السلاح.. 153
وأصبحتُ مليشيا.. 155
وصية لم أحفظها 157
أصدقاؤنا العراقيون 157
تقويم للأوضاع العامة للفلسطينيين قبل حرب أيلول 1970 162
مسلك المنظمات الفلسطينية في ذلك الوقت 165
صور من حياة الناس 167
بعد تخرجي من الجامعة 175
أعجب ما رأيت في صحراء نجد.. 178
الآبار في الصحراء 184
هيبة الحاكم السعودي 188
عنوان الدرس الحلاق الثرثار.. 193
وكدت في اليوم التالي أخسر حياتي.. 194
حرب أيلول ووفاة عبد الناصر 195
الزواج والعودة إلى الوطن.. 197
حرب أكتوبر والرجاء الخائب 198
الهجوم التاريخي على المدرسة 203
بداية مشاكلي مع الاحتلال.. 212
عودة إلى ذلك اللقاء 220
الاعتقال الأول 222
الدخان بئس الصاحب الوفي 233
الجهود المنظمة 237
الإضراب الكبير.. 240
عودة إلى مراكز تصحيح التوجيهي 243
غياب قسري مؤقت 246
تعاون غير مبارك 249

محاولات التوسيط 250
عرض وساطة 250
فعالية عاصفة 251
مطلب الدعم العربي 253
بدء التساؤلات حول مصير الإضراب 256
مرحلة ما قبل الانتفاضة الأولى 260
أجواء افتتاح المدرسة 263
أعظم حدث في حياتي........................ 266
رحلة إلى غزة 269
الطريق إلى الانتفاضة الأولى 271
عودة إلى ظروف الانتفاضة الأولى 277
انفجار الانتفاضة الأولى 278
الغش في امتحانات التوجيهي 282
الحل الحاسم 287
الانتفاضة الفلسطينية الأولى لها وعليها 291
الكارثة الاقتصادية........................ 295
سنة 1990 سنة لا تُنسى........................ 300
اتحاد المعلمين 318
واندماه!........................ 325
عودة إلى التطورات السياسية والاقتصادية في تلك الفترة 328
مرارة الواقع بعد حلاوة الأحلام 335
اغتيال الفارس 340
الاستقالة من المدرسة 351
تكليف باء بالفشل........................ 353
مؤتمر الحوار في رام الله 354
الاعتقال الثالث عند السلطة 363

عام ألفين وأحداثه الجسام.. 369
الاعتقال 373
انفجار الانتفاضة الثانية 376
معركة مع ديك 381
حادث تسمم ولكن الله لطف 382
التوجيهي العجيب 386
إعادة افتتاح معتقل النقب 390
وأخيرًا: الإفراج 393
النشاط التنظيمي وبداية الحديث عن الانتخابات..................... 399
بيان السبعين.. 401
بداية الطريق إلى الانتخابات الثانية 403
الاعتقال مجددًا.. 411
عودة إلى الجماعة الإسلامية... 426
ليلة ليلاء 428
الدار وعاصم 433
والباقي أعظم 437
من النقب إلى أيالون 443
عاصم وحمزة 447
حادثة غريبة 454
النقل إلى هدريم 455
في هدريم 457
رحلات المعاناة 463
عيد لا يشبهه عيد 464
الزيارات المحببة 466
أثر تقلب العلاقات بين فتح وحماس.................................. 467
الحرية... 472

الاعتقال مجددًا.. 477
في عوفر 479
الحكم على حمزة 483
المتاعب الصحية وعملية القلب المفتوح.. 484
من عملية جراحية إلى عملية 486
من اعتقال إلى اعتقال 486
الإفراج 489
ملحق توثيقي بالصور 491
الفهرس.. 505

تم بحمد الله

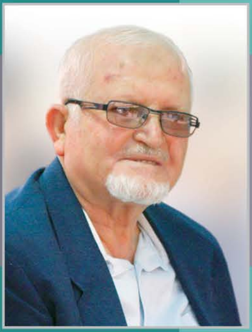

من مخزون الذاكرة

(2012-1952)

صاحب السيرة في سطور

❖ يوسف عارف الحاج محمد (أبو مالك) ولد في السادس عشر من حزيران سنة 1946 في قرية جالود من قرى نابلس وتبعد عنها ستة وعشرين كيلو مترًا شرقًا.

❖ أكمل دراسته الابتدائية في مدرسة قريوت والإعدادية في مدرسة قصرة والثانوية في مدرسة الجاحظ الثانوية بنابلس ونال درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية عام 1969.

❖ عمل مدرسًا في السعودية ثلاث سنوات بعد التخرج ثم في مدارس الضفة الغربية.

❖ اعتقل بتهمة النشاط السياسي عام 1978 لفترة بسيطة وكان وقتها معلمًا في مدرسة قدري طوقان ثم نفاه الحكم العسكري إلى مدرسة حوارة الثانوية، ثم انتقل إلى مدرسة قريوت وبدأ نشاطًا نقابيًا بالتعاون مع معلمين من كافة المناطق تتوج بإعلان إضراب المعلمين عن العمل سنة 1980 ولمدة ثلاثة أشهر متتالية مطالبين بتحسين رواتبهم وتحسين ظروف العمل عمومًا. وبعد انتهاء الإضراب أخذت سلطات الحكم العسكري تضيق على الذين قادوه، ونال الكاتب مقدار وافر من التضييق، فترك العمل في الحكومة وانتقل للتدريس في المدرسة الثانوية الإسلامية، فمكث فيها خمس عشرة سنة، ثم عمل في كلية الروضة ثلاث سنوات.

❖ اعتقل ثلاث مرات في سجون السلطة الفلسطينية لفترات غير طويلة، واعتقل أربع مرات في سجون الاحتلال كان مجموعها سبع سنوات ونصفًا، وكان آخر إفراج عنه في الرابع من نيسان 2012.

❖ عمل باحثًا ومؤلفًا وكاتب مقالات ومشاركًا في كثير من الندوات السياسية آخذًا بمواقف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

❖ طُبعت له مؤلفات تتعلق بمناهج اللغة العربية للتوجيهي، وطبعت له في غير مجال التعليم كتب ثلاثة: "شريف صبوح، أول مدير تربية وتعليم في نابلس"، و"الميزان بين السنة والشيعة" و"المسيرة الجهادية لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين". وكان يعكف على وضع اللمسات الأخيرة على كتاب له في النحو والصرف، عنوانه "تيسير العسير في النحو والصرف".